فايز بن سياف السريع

التناسب بين الآيات

الجزء السادس

من سورة الواقعة
إلى سورة الناس

تقديم
جماعة من أهل التفسير

دار الحضارة

التناسب بين الآيات

ح شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العتيبي، فايز بن سياف بن فايز السريح
التناسب بين الآيات: الجزء السادس. /
فايز بن سياف بن فايز السريح العتيبي - ط١ - الرياض ١٤٤٣هـ
٦٨٤ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٦-١٠-٨٣٨١-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧ ٩٨٨٣/ ١٤٤٣

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٩٨٨٣

ردمك: ٦-١٠-٨٣٨١-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع
ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
هاتف: ٢٤١٦١٣٩ ـ ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٠٧٢٧١٩
فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣
الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨
البريد الإلكتروني: daralhadarah@hotmail.com

فايز بن سياف السريح

التناسب بين الآيات

الجزء السادس

من سورة الواقعة إلى سورة الناس

تقديم

جماعة من أهل التفسير

دار الحضارة

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا معناه السَّاعةُ التي أَبرَمَ القضاءَ بأنَّه لا بدَّ من كونِها، عبَّر عنه بانيًا على مبتدأٍ محذوفٍ، فقال: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾[1].

جملةُ ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾[2].

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ ﴾

وقرَّر عَظَمَتَها، وحقَّق بعثَ الأمورِ فيها بقولِه مُخبِرًا عن مبتدأٍ محذوفٍ: ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾[3].

تقريرٌ لعَظَمَتِها، وتهويلٌ لأمرِها؛ فإنَّ الوقائعَ العِظامَ شأنُها كذلك، أو بيانٌ لِما يكونُ يومَئذٍ من حطِّ الأشقياءِ إلى الدَّرَكاتِ، ورفعِ السُّعداءِ إلى الدَّرجاتِ، ومن زلزلةِ الأشياءِ، وإزالةِ الأجرامِ عن مَقارِّها بنثرِ الكواكبِ، وإسقاطِ السَّماءِ كِسَفًا، وتسييرِ الجبالِ في الجوِّ كالسَّحابِ[4].

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٩٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٨١).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٩٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٨٨).

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ۝٤ ﴾

ولمَّا كان في هذا من الهَوْلِ ما يقطعُ القلوبَ الواعيةَ، أكَّدَه بقولِه، وزادَ ما يشاءُ منه أيضًا بقولِه، مُبدِلًا من الظَّرفِ الأوَّلِ بعضَ ما يدخلُ في الرَّفعِ والخفضِ: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴾(١).

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴾ بدلٌ من جملةِ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴾، وهو بدلُ اشتمالٍ(٢).

﴿ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝٥ ﴾

ولمَّا ذكَر حركتَها المُزعِجةَ، أَتبعَها غايتَها، فقال: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴾(٣).

﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ۝٦ ﴾

وتفريعُ ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴾ على ﴿ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ ﴾ لائقٌ بمعنى البَسِّ؛ لأنَّ الجبالَ إذا سُيِّرتْ فإنَّما تُسيَّرُ تسييرًا يُفتِّتُها ويُفرِّقُها؛ أي: تسييرَ بعثرةٍ وارتطامٍ(٤).

فتَسبَّب عن ذلك قولُه: ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴾.

﴿ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ۝٧ ﴾

ولمَّا ذكَر غايةَ مبادئِها المُرجِفةِ المُرهِبةِ، ذكَر مبادئَ غاياتِها، فقال: ﴿ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٩٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٨٤).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٩٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٨٤).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ١٩٧).

هذا تَخلُّصٌ للمقصودِ من السورةِ، وهو الموعظةُ[(١)].

ثم ذكر سبحانه أحوالَ النَّاسِ واختلافهم، فقال: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَـٰثَةً ﴾[(٢)].

﴿ فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ ﴾

ولمَّا قسَّمهم إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ، وفرَّع تقسيمَهم؛ ذكَر أحوالَهم، وابتدأ ذلك بالإعلامِ بأنَّه ليس الخبرُ كالخبرِ كما أنَّه ليس العينُ كالأثرِ، فقال: ﴿ فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾[(٣)].

ثم فسَّر سبحانه هذه الأصنافَ، فقال: ﴿ فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾[(٤)].

﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ ﴾

ولمَّا ذكر النَّاجِينَ بقِسْمَيْهِم، أتبعَهم أضدادَهم، فقال: ﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾[(٥)].

﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

ولمَّا ذكر القِسْمَينِ، وكان كلٌّ منهما قسمينِ؛ ذكر أعلىٰ أهلِ القسمِ الأوَّلِ ترغيبًا في أحسنِ حالِهم، ولم يقسمْ أهلَ المشأمةِ ترهيبًا من سوءِ مآلِهم، فقال: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴾[(٦)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٨٤).

(٢) فتح القدير (٥/ ١٧٧).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٩٨).

(٤) فتح القدير (٥/ ١٧٧).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ١٩٩).

(٦) نظم الدرر (١٩/ ١٩٩-٢٠٠).

وقولُه: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ هذا الصِّنفُ الثَّالثُ في العَدِّ، وهم الصِّنفُ الأفضلُ من الأصنافِ الثَّلاثةِ، ووصفُهم بالسَّبقِ يقتضي أنَّهم سابقون أمثالَهم من المُحسِنين الذين عبَّر عنهم بـ«أصحابِ الميمنةِ»، فهم سابقون إلىٰ الخيرِ، فالنَّاسُ لا يتسابقون إلَّا لنوالِ نفيسٍ مرغوبٍ لكُلِّ النَّاسِ، وأمَّا الشَّرُّ والضُّرُّ فهم يَتكَعْكَعُونَ عنه، فيجوزُ أن يكونَ ﴿ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ مُستعمَلًا في المبادرةِ والإسراعِ إلىٰ الخيرِ في الدِّينِ، ويجوزُ أن يكونَ مُستعمَلًا في المغالبةِ في تحصيلِ الخيرِ(١).

بعدَ بيانِ أقسامِ الأزواجِ، لم يَعُدْ إلىٰ بيانِ حالِهم علىٰ ترتيبِ ذِكْرِهم، بل بيَّن حالَ السَّابقين مع أنَّه أخَّرَهم، وأخَّر ذِكرَ أصحابِ الشِّمالِ مع أنَّه قدَّمَهم أوَّلًا في الذِّكرِ علىٰ السَّابقين، نقولُ: قد بيَّنَّا أنَّ عندَ ذِكْرِ الواقعةِ قدَّم مَن ينفعُه ذِكرُ الأهوالِ، وأخَّر مَن لا يختلفُ حالُه بالخوفِ والرَّجاءِ، وأمَّا عندَ البيانِ فذكَر السَّابقَ لفضيلتِه وفضيلةِ حالِه(٢).

ثم ذكر سبحانه الصِّنفَ الثَّالثَ، فقال: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾(٣).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ ﴾

لمَّا بيَّن عُلُوَّ شأنِهم، ونسَب السَّبقَ إليهم؛ ترجَمه نازعًا للفعلِ منهم بقولِه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾(٤).

جملةُ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّها جوابٌ عمَّا يُثيرُه قولُه: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ من تساؤلِ السَّامعِ عن أثرِ التَّنويهِ بهم(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٨٦).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٩٠).
(٣) فتح القدير (٥/ ١٧٨).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٠).
(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٨٨).

📖 ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾ 📖

ثم بيَّن تقريبَه لهم بقولِه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1].

قولُه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ خبرٌ ثانٍ عن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، أو حالٌ منه، وإيقاعُه بعدَ وصفِ ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ مُشِيرٌ إلىٰ أنَّ مضمونَه من آثارِ التَّقريبِ المذكورِ[2].

يحتملُ أن يكونَ خبرًا بعدَ خبرٍ، ويحتملُ أن يكونَ خبرًا واحدًا، أمَّا الأوَّلُ فتقديرُه: أولئك المقرَّبون كائنون في جنَّاتٍ، وأمَّا الثَّاني فتقديرُه: هم المقرَّبون في الجنَّاتِ من اللهِ، كما يُقالُ: هو المختارُ عندَ المَلِكِ في هذه البلدةِ[3].

📖 ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣﴾ 📖

ولمَّا ذكر السَّابقين، فصَّلَهم فقال: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[4].

اعتراضٌ بينَ جملةِ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وجملةِ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾، وهذا الاعتراضُ يُقصَدُ منه التَّنويهُ بصِنْفِ السَّابقين وتفضيلِهم بطرقِ الكنايةِ عن ذلك بلفظَيْ: ﴿ثُلَّةٌ﴾، ﴿وَقَلِيلٌ﴾ المُشْعِرَينِ بأنَّهم قُلٌّ مِن كُثْرٍ، فيستلزمُ ذلك أنَّهم صِنْفٌ عزيزٌ نفيسٌ لِما عُهد في العُرْفِ من قِلَّةِ الأشياءِ النَّفيسةِ[5].

📖 ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ١٤﴾ 📖

ثم ذكر عددَهم من الآخرين، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٠-٢٠١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٨٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٩١).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢٠١).

(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٨٩).

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾

ولمَّا ذكر السَّابقين في الخيرِ بصِنْفَيْهِم مُشِيرًا إلىٰ السَّابقين في الشَّرِّ بصِنْفَيْهِم، ذكر جزاءَ أهلِ الخيرِ ليُعلَمَ منه جزاءُ أولئك، فقال مُبيِّنًا أنَّهم ملوكٌ لكنَّ مُلْكَهم لا يُنافَسُ فيه ولا يُحاسَدُ، بل هو كلُّه يُقابَلُ بالوِدادِ والصَّفاءِ: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾(١).

ثم ذكر سبحانه حالةً أخرىٰ للسَّابقين المقرَّبين، فقال: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾(٢).

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا ذكر السُّرُرَ وبيَّن عَظَمَتَها، ذكر غايتَها، فقال: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾(٣).

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا كان المُتَّكِئُ قد يَصعُبُ عليه القيامُ لحاجتِه، قال: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾(٤).

قولُه: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾(٥).

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾

ولمَّا كان مدحُهم هذا في غايةِ الإبلاغِ مع الإيجازِ، وكان فيه -إلىٰ تبليغِ ما لهم- تحريكٌ إلىٰ مِثْلِ أعمالِهم، وكان الأكلُ الذي هو من أعظمِ المآربِ مُشارًا إليه بالمدحِ العظيمِ الذي من جملتِه الاستراحةُ علىٰ الأَسِرَّةِ التي عُلم أنَّ مِن عادةِ

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٢).

(٢) فتح القدير (٥/ ١٧٩).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٢).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٣).

(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٩٣).

الملوكِ أنَّهم لا يَتَسنَّمُونها إلَّا بعدَ قضاءِ الوَطَرِ منه، فلم يَبْقَ بعدَه إلَّا ما تدعو الحاجةُ إليه من المشاربِ وما يَتبَعُها؛ قال تعالىٰ: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾(١).

﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩﴾

ولمَّا أثبت نفعَها وما يُشوِّقُ إليها، نفىٰ ما يُنفِّرُ عنها، فقال: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾(٢).

ثم أشار إلىٰ أنَّها لذَّةٌ كلُّها، لا ألمَ معها ولا خمارَ، فقال: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾(٣).

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠﴾

ولمَّا بدأ بالألذِّ الهاضمِ للأكلِ، تلاه بما يليه ممَّا يدعو إليه الهضمُ، تصريحًا به بعد التَّلويح، فقال: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾(٤).

وعُطف «فاكهة» علىٰ «أكواب»؛ أي: ويطوفون عليهم بفاكهةٍ، وذلك أَدخَلُ في الدَّعَةِ، وألذُّ من التَّناوبِ بأيديهم، علىٰ أنَّهم إنِ اشتَهَوُا اقتطافَها بالأيدي دَنَتْ لهم الأغصانُ، فإنَّ المرءَ قد يشتهي تناولَ الثَّمرةِ من أغصانِها(٥).

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢١﴾

ولمَّا ذكر ما جرت العادةُ بتناولِه لمجرَّدِ اللَّذَّةِ، أَتبَعَه ما العادةُ أنَّه لإقامةِ البِنْيةِ وإنْ كان هناك لمجرَّدِ اللَّذَّةِ أيضًا، فقال: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾(٦).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٣).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٤).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ١٢١).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٤).

(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٩٥).

(٦) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٤-٢٠٥).

وتقديمُ ذِكْرِ الفاكهةِ علىٰ ذِكْرِ اللَّحمِ قد يكونُ لأنَّ الفواكهَ أعزُّ، وبهذا يظهرُ وجهُ المخالفةِ بينَ «الفاكهةِ» و«لحمِ طيرٍ»، فجُعل التَّخيُّرُ للأوَّلِ والاشتهاءُ للثَّاني، ولأنَّ الاشتهاءَ أَعلَقُ بالطَّعامِ منه بالفواكهِ، فلَذَّةُ كسرِ الشَّاهيةِ بالطَّعامِ لذَّةٌ زائدةٌ علىٰ لذَّةِ حُسْنِ طعمِه، وكثرةُ التَّخيُّرِ للفاكهةِ هي لذَّةُ تلوينِ الأصنافِ[1].

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا كان لم يكنْ بعدَ الأكلِ والشُّربِ أشهىٰ من الجِماعِ، قال عاطفًا علىٰ ﴿وِلْدَٰنٌ﴾: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾[2].

﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كان المِثْلُ في الأصلِ: الشَّيءَ نفسَه، قال: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾[3].

ثم شبَّه حُسْنَهُنَّ بقولِه: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾.

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

ولمَّا أَبلَغَ في وصفِ جزائِهم بالحُسْنِ والصَّفاءِ، دَلَّ علىٰ أنَّ أعمالَهم كانت كذلك؛ لأنَّ الجزاءَ من جنسِ العملِ، فقال تعالىٰ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4].

الجملةُ اعتراضٌ تفيدُ إظهارَ كرامتِهم بحيث جُعلت أصنافُ النَّعيمِ الذي حَظَوْا به جزاءً علىٰ عملٍ قدَّموه، وذلك إتمامٌ لكونِهم مُقرَّبينَ[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٩٥).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٥).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٥).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٥).

(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٩٦).

📖 ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ 📖

ولمَّا أثبت لها الكمالَ وجعله لهم، نفىٰ عنها النَّقصَ، فقال: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ (١).

ثم أكمل وصفَ النَّعيمِ بقولِه: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾، وهي نعمةٌ رُوحِيَّةٌ، فإنَّ سلامةَ النَّفسِ من سماعٍ ما لا يُحَبُّ سماعُه، ومن سماعِ ما يُكرَهُ سماعُه من الأذىٰ؛ نعمةٌ براحةِ البالِ، وشُغْلِه بسماعِ المحبوبِ (٢).

لمَّا ذكر النِّعَمَ الفعليَّةَ، وقابلها بأعمالِهم حيث قال: ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾؛ ذكر النِّعَمَ القوليَّةَ في مقابلةِ أذكارِهم الحسنةِ (٣).

📖 ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ 📖

ولمَّا كان الاستثناءُ مِعيارَ العمومِ، ساق بصورةِ الاستثناءِ قولَه: ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ (٤).

وأتبع ذِكرَ هذه النِّعمةِ بذِكرِ نعمةٍ أخرىٰ من الإنعامِ بالمسموعِ الذي يفيدُ الكرامةَ؛ لأنَّ الإكرامَ لذَّةٌ رُوحِيَّةٌ يَكسِبُ النَّفسَ عِزَّةً وإدلالًا، ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾، وهو استثناءٌ من ﴿ لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ بطريقةِ تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه، المُشتهِرِ في البديعِ باسمِ تأكيدِ المدحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ، وله موقعٌ عظيمٌ في البلاغةِ (٥).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٩٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٤٠٠).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٩٧).

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧﴾

ولمَّا أتمَّ سبحانه القسمَ الأوَّلَ القلبيَّ السَّوائيَّ المولي من الثَّلاثةِ بِقِسْمَيْه، وذكر في جزائِه ممَّا لأصحابِ المدنِ ما لا يُمكِنُهم الوصولُ إليه؛ عطَف عليه الثَّانيَ الذي هو دونَه لذلك، وهم -واللهُ أعلمُ- الأبرارُ، وهم أيضًا صِنْفانِ، وذكَر في جزائِهم من جنسِ ما لأهلِ البوادي أنهىٰ ما يتصوَّرونه ويتمنَّوْنَه، فقال: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾(١).

لمَّا بيَّن حالَ السَّابقين، شرَع في شأنِ أصحابِ الميمنةِ من الأزواجِ الثَّلاثةِ(٢).

شروعٌ في تفصيلِ ما أُجمِلَ عندَ التَّقسيمِ من شؤونِهم الفاضلةِ إثرَ تفصيلِ شؤونِ السَّابقين(٣).

لمَّا فرَغ سبحانه من ذِكْرِ أحوالِ السَّابقين وما أَعَدَّه لهم من النَّعيمِ المُقِيمِ، ذكر أحوالَ أصحابِ اليمينِ، فقال: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾(٤).

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨﴾

ولمَّا عبَّر عنهم بما أفهَم أنَّهم أولو القُوَّةِ والجدِّ في الأعمالِ، والبركةِ في جميعِ الأحوالِ؛ ذكَر عيشَهم بادئًا بالفاكهةِ لأنَّ عيشَ الجنَّةِ كلَّه تفكُّهٌ، ذاكرًا منها ما يَنبُتُ في بلادِ العربِ من غيرِ كُلْفةٍ بغرسٍ ولا خدمةٍ، وأشار إلىٰ كثرةِ ما يذكرُه بأنْ جعَله ظرفَهم، فقال من غيرِ ذِكْرٍ لسريرِ الملكِ الذي حبَا به المقرَّبين من الملكِ، ولم يَزِدْ علىٰ ذلك المأكولِ وما معَه بما يُتَصوَّرُ للبهائمِ: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٤٠٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٩٢).

(٤) فتح القدير (٥/ ١٨٣).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٦-٢٠٧).

وأَتبَعَ هذا الإبهامَ بما يُبيِّنُ بعضَه بقولِه: ﴿فِى سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾، ولـمَّا كان السِّدْرُ من شجرِ الباديةِ، وكان محبوبًا للعربِ، ولم يكونوا مُستطِيعين أن يجعلوا منه في جنَّاتِهم وحوائطِهم؛ لأنَّه لا يعيشُ إلَّا في الباديةِ، فلا يَنبُتُ في جنَّاتِهم؛ خُصَّ بالذِّكرِ من بينِ شجرِ الجنَّةِ إغرابًا به وبمحاسنِه التي كان محرومًا منها مَن لا يسكنُ البواديَ، وبوفرةِ ظِلِّه، وتَهدُّلِ أغصانِه، ونكهةِ ثمرِه(١).

الجملةُ استئنافٌ لبيانِ ما أُبهِمَ في قولِه تعالىٰ: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ من عُلُوِّ الشَّأنِ(٢).

﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩﴾

ولـمَّا ذكر ما يَطلُعُ في الجبالِ والأماكنِ المعطَّشةِ والرِّمالِ، أَتبعَه ما لا يَطلُعُ إلَّا علىٰ المياهِ؛ دلالةً علىٰ أنَّ أماكنَهم في غايةِ السُّهولةِ والرِّيِّ، فقال: ﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾(٣).

﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠﴾

ولـمَّا ذكر ما لا يكونُ إلَّا في البلادِ الحارَّةِ، قال: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾(٤).

وبعدَ أنْ ذكَر من الأشجارِ السِّدْرَ والطَّلْحَ، ذكَر ما يَنتُجُ عن التفافِ الأشجارِ، فقال: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾.

﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١﴾

ولـمَّا كان ما ذُكر من الرِّيِّ لا يستلزمُ الجريَ، قال: ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٩٩).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٩٢).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٧).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٨).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٨).

ثم ذكر الأنهارَ التي تُسقَىٰ بها الأشجارُ، فقال: ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾.

﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

ولمَّا ذكر ما تقدَّم، عمَّ بقولِه: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾[(١)].

لمَّا ذكر الأشجارَ التي يُطلَبُ منها ورقُها، ذكر بعدَها الأشجارَ التي يُقصَدُ ثمرُها[(٢)].

﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

ولمَّا كانت لا تكونُ عندَنا إلَّا في أوقاتٍ يسيرةٍ، بيَّن أنَّ أمرَ الجنَّةِ علىٰ غيرِ ذلك، فقال: ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾[(٣)].

ووُصِفَتْ بقولِه: ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ وصفًا بانتفاءِ ضِدِّ المطلوبِ؛ إذ المطلوبُ أنَّها دائمةٌ مبذولةٌ لهم، والنَّفيُ هنا أَوقَعُ من الإثباتِ؛ لأنَّه بمنزلةِ وصفٍ وتوكيدٍ، وجمع بينَ الوصفينِ لأنَّ فاكهةَ الدنيا لا تخلو من أحدِ ضِدَّيْ هذينِ الوصفينِ، فإنَّ أصحابَها يمنعونها، فإنْ لم يمنعوها فإنَّ لها إبَّانًا[(٤)] تنقطعُ فيه[(٥)].

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّفكُّهُ لا يَكمُلُ الالتذاذُ به إلَّا مع الرَّاحةِ، قال: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾[(٦)].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٨).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٤٠٦).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٨).
(٤) أي: وقتًا وأوانًا.
(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٠٠).
(٦) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٨).

﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ ﴾

ولمَّا كانت النِّساءُ يُسَمَّيْنَ فُرُشًا، قال تعالىٰ مُعِيدًا للضَّميرِ علىٰ غيرِ ما يتبادرُ إليه الذِّهنُ من الظَّاهرِ علىٰ طريقِ الاستخدامِ، مُؤكِّدًا لأجلِ إنكارِ مَن يُنكِرُ البعثَ: ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴾[1].

لمَّا جرىٰ ذِكرُ الفُرُشِ -وهي ممَّا يُعَدُّ للاتِّكاءِ والاضطجاعِ وقتَ الرَّاحةِ في المنزلِ- يخطرُ بالبالِ بادئَ ذي بدءٍ مصاحبةُ الحُورِ العِينِ معَهم في تلك الفُرُشِ، فيتشوَّف إلىٰ وصفِهِنَّ، فكانت جملةُ ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴾ بيانًا لأنَّ الخاطرَ بمنزلةِ السُّؤالِ عن صفاتِ الرَّفيقاتِ[2].

﴿ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ ﴾

ولمَّا كان للنَّفسِ أتمُّ التفاتٍ إلىٰ الاختصاصِ، وكان الأصلُ في الأنثىٰ المُنْشأَةِ أن تكونَ بِكْرًا؛ نبَّه علىٰ أنَّ المرادَ بكارةٌ لا تزولُ إلَّا حالَ الوَطْءِ ثم تعودُ، فكُلَّما عادَ إليها وجَدها بِكْرًا، فقال: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴾[3].

﴿ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧ ﴾

ولمَّا كان ممَّا جرت به العادةُ أنَّ البِكْرَ تتضرَّرُ من الزَّوجِ لِما يلحقُها من الوجعِ بإزالةِ البكارةِ، دلَّ علىٰ أنَّه لا نكَدَ هناك أصلًا بوجعٍ ولا غيرِه بقولِه: ﴿ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٠٠).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢٠٩).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢١٠).

﴿ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٣٨ ﴾

ولمَّا كان هذا الوصفُ البديعُ مُقتضِيًا لِما يزدهي عنه النَّفس لِأَنْ يُقالَ: لِمَنْ هؤلاء؟ وإنْ كان قد عُلم قبلَ ذلك؛ نبَّه عليه بقولِه تعالىٰ: ﴿ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾(١).

﴿ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ ﴾

ولمَّا أنهىٰ وصفَ ما فيه أهلُ هذا الصِّنفِ علىٰ أنهىٰ ما يكونُ لأهلِ الباديةِ، بعدَ أنْ وصَف ما للسَّابقين بأعلىٰ ما يمكنُ أن يكونَ لأهلِ الحاضرة، وكان قد قدَّم المُقايَسةَ في السَّابقين بينَ الأوَّلِين والآخِرين؛ فعَل هنا كذلك، فقال: ﴿ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾(٢).

﴿ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠ ﴾

ثم ذكَر عددَهم من الآخِرين، فقال: ﴿ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾.

﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١ ﴾

ولمَّا أتمَّ وصفَ ما فيه الصِّنفانِ المحمودانِ، وبه تمَّتْ أقسامُ أصحابِ الميمنةِ الأربعةُ الذين هم أصحابُ القلبِ واليمينِ؛ أَتبعَه أضدادَهم، فقال: ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾(٣).

لمَّا ذكر حالَ السَّابقين، وأَتبعَهم بأصحابِ الميمنةِ؛ ذكَر حالَ أصحابِ المشأمةِ، فقال: ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢١١).
(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢١١).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢١٢).
(٤) البحر المحيط (١٠/ ٨٥).

شروعٌ في تفصيلِ أحوالِهم التي أُشِيرَ عندَ التَّنويعِ إلىٰ هَوْلِها وفظاعتِها، بعدَ تفصيلِ حُسْنِ حالِ أصحابِ اليمينِ(١).

﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

ولمَّا ذمَّهم وعابَهم، ذكر عذابَهم ليُعلَمَ أنَّ القسمَ الأشدَّ منهم في الشُّؤمِ أشدُّ عذابًا، فقال: ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾(٢).

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ﴾

ولمَّا كان للتَّهكُّمِ في القلبِ من شديدِ الوقدِ ما يَجِلُّ عن الوصفِ والحدِّ، قال: ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾(٣).

﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

ولمَّا كان المعهودُ من الظِّلِّ البردَ والإراحةَ، نفىٰ ذلك عنه، فقال: ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾(٤).

ولتحقيقِ معنىٰ التَّهكُّمِ، وُصف هذا الظِّلُّ بما يفيدُ نفيَ البردِ عنه ونفيَ الكرمِ، فبَرْدُ الظِّلِّ: ما يحصلُ في مكانِه من دفعِ حرارةِ الشَّمس، وكرمُ الظِّلِّ: ما فيه من الصِّفاتِ الحسنةِ في الظِّلالِ؛ مِثلَ سلامتِه من هبوبِ السَّمُومِ عليه، وسلامةِ الموضعِ الذي يُظِلُّه من الحشراتِ والأوساخِ، وسلامةِ أرضِه من الحجارةِ، ونحوِ ذلك؛ إذ الكريمُ

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٩٤).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢١٢).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢١٢).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢١٢).

من كلِّ نوعٍ هو الجامعُ لأكثرِ محاسنِ نوعِه، فوُصِفَ ظِلُّ اليَحمُومِ بوصفٍ خاصٍّ وهو انتفاءُ البرودةِ عنه، وأُتبِعَ بوصفٍ عامٍّ وهو انتفاءُ كرامةِ الظِّلالِ عنه، ففي الصِّفةِ بنفيِ محاسنِ الظِّلالِ تذكيرٌ للسَّامعين بما حُرم منه أصحابُ الشِّمال؛ عسىٰ أن يحذروا أسبابَ الوقوعِ في الحرمانِ، ولإفادةِ هذا التَّذكيرِ عدَل عن وصفِ الظِّلِّ بالحرارةِ والمَضَرَّةِ إلىٰ وصفِه بنفيِ البردِ ونفيِ الكرمِ(١).

ثم وصَف هذا الظِّلَّ بقولِه: ﴿لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾(٢).

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ٤٥﴾

ولمَّا أَنتَجَ هذا أنَّه علىٰ خلقِ اللَّئيمِ، فهو موضعُ الحرارةِ والضِّيقِ والخِسَّةِ والشِّدَّةِ، علَّله بقولِه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾(٣).

تعليلٌ لابتلائِهم بما ذُكر من العذابِ(٤).

ثم ذكر أعمالَهم التي أَوصَلَتْهم إلىٰ هذا الجزاءِ، فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾(٥).

﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ٤٦﴾

ولمَّا ذكر التَّرَفَ، ذكر ما يَنتُجُ عنه غالبًا -وهو الكفرُ بنِعَمِ اللهِ تعالىٰ- بقولِه: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٠٥).

(٢) فتح القدير (٥/ ١٨٥).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢١٢-٢١٣).

(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٩٤).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٨٣٤).

﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٤٧ ﴾

ولمَّا وصَفهم بالتَّرَفِ، والإصرارِ على السَّرَفِ، وكان ذلك يلازمُ البطالةَ، وكان يلزمُ عنها الغباوةُ والفسادُ المُوجِبُ للشَّقاوةِ؛ ذكر إنكارَهم لِما لا أبينَ منه، فقال عاطفًا على ما أفهمَه التعبيرُ عن الإثمِ بالحِنْثِ من نحوِ: فكانوا يُقسِمون باللهِ جَهْدَ أيمانِهم إنَّهم لا يُبعَثون، وإنَّ الرُّسُلَ كاذبون: ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾(١).

ثم ذكر مقالتَهم التي استَحَقُّوا بها هذا العذابَ، فقال: ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾.

﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ٤٨ ﴾

ولمَّا كانت أفهامُهم واقفةً مع المحسوساتِ لجمودِهم، وكان البِلَى كُلَّما كان أقوى كان ذلك البالي في زعمِهم من البعثِ أبعدَ؛ قالوا مخرجين في جملةٍ فعليَّةٍ عطفًا على الواوِ من ﴿لَمَبۡعُوثُونَ ﴾ من غيرِ تأكيدٍ بضميرِ الفصلِ بالاستفهامِ: ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾(٢).

ثم زادوا وقالوا: ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾(٣).

﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ ﴾

ولمَّا كانوا في غايةِ الجلافةِ، رَدَّ إنكارَهم بإثباتِ ما نَفَوْه، وزادهم الإخبار بإهانتِهم، ثم دلَّ على صحَّةِ ذلك بالدَّليلِ العقليِّ لِمَنْ يفهمُه، فقال مُخاطِبًا لأعلى الخلقِ

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢١٣-٢١٤).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢١٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٤١٢).

وأوقفِهم به؛ لأنَّ هذا المقامَ لا يَذُوقُه حقَّ ذَوْقِه إلَّا هو، كما أنَّه لا يقومُ بتقريرِه لهم والرِّفقِ بهم إلَّا هو: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾[(١)].

لمَّا جرىٰ تعليلُ ما يُلاقِيه أصحابُ الشِّمالِ من العذابِ بما كانوا عليه من كفرانِ النِّعمةِ، وكان المقصودُ من ذلك وعيدَ المشركين، وكان إنكارُهم البعثَ أَدخَلَ في استمرارِهم علىٰ الكفرِ؛ أمر اللهُ رسولَه ﷺ بأنْ يُخاطِبَهم بتحقيقِ وقوعِ البعثِ، وشمولِه لهم ولآبائِهم ولجميعِ النَّاسِ؛ أي: أَنبِئْهم بأنَّ الأوَّلِينَ والآخِرين -أي: هم وآباؤهم- يُبعَثون في اليومِ المُعيَّنِ عندَ اللهِ، فقد انتهىٰ الخبرُ عن حالِهم يومَ تُرَجُّ الأرضُ وما يَتبَعُه، وافتتح الكلامَ بالأمرِ بالقولِ للاهتمامِ به، فيكونُ قولُه: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ إلخ، استئنافًا ابتدائيًّا لمناسبةِ حكايةِ قولِهم: ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ الآيةَ[(٢)].

لمَّا ذكر تعالىٰ استفهامَهم عن البعثِ علىٰ طريقِ الاستبعادِ والإنكارِ، أمر نبيَّه ﷺ أن يُخبِرَهم ببعثِ العالمِ أوَّلِهم وآخِرِهم للحسابِ، وبما يصلُ إليه المكذِّبون للبعثِ من العذابِ[(٣)].

ثم أمر اللهُ سبحانه رسولَه أن يُجِيبَ عليهم، ويَرُدَّ استبعادَهم، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾[(٤)].

﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠ ﴾

ودَلَّ علىٰ سهولةِ بعثِهم، وأنَّه في غايةِ الثَّباتِ، مُنبِّهًا علىٰ أنَّ نقلَهم بالموتِ والبِلَىٰ تحصيلٌ لا تفويتٌ: ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢١٥).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٠٧-٣٠٨).
(٣) البحر المحيط (١٠/ ٨٦).
(٤) فتح القدير (٥/ ١٨٥).
(٥) نظم الدرر (١٩/ ٢١٥).

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

ولمَّا كان زمانُ البعثِ مُتَراخِيًا عن نزولِ القرآنِ، عبَّر بأداتِه وأكَّد لأجلِ إنكارِهم، فقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴾(١).

هذا من جملةِ ما أمر النبيَّ ﷺ أن يقولَه لهم، و﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ فإنَّ التَّصريحَ في تفصيلِ جزائِهم في ذلك اليومِ ما هو أعظمُ وقعًا في النُّفوسِ من التَّعريضِ الإجماليِّ بالوعيدِ الذي استُفِيدَ من قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ ﴾، وفي ندائِهم بهذينِ الوصفينِ إيماءٌ إلىٰ أنَّهما سببُ ما لَحِقَهم من الجزاءِ السَّيِّئِ، ووصفُهم بأنَّهم «ضالُّون مُكذِّبون» ناظرٌ إلىٰ قولِهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ إلخ.

﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

ثم ذكَر أكلَهم بعدَ البعثِ والجمعِ ودخولِ جهنَّمَ، فقال: ﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾.

﴿ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

ثم ذكر ما كان مُسبَّبًا عن الأكلِ: ﴿ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾(٢).

والمقصودُ من قولِه: ﴿ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ تفظيعُ حالِهم في جزائِهم علىٰ ما كانوا عليه من تَرَفٍ في الدنيا، بملءِ بطونِهم بالطَّعامِ والشَّرابِ ملئًا أنساهم إقبالَهم عليه وشربهم من التَّفكُّرِ في مصيرِهم(٣).

ثم ذكر مقدارَ أكلِهم منها، فقال: ﴿ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢١٥).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢١٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣١٠).

﴿ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ ﴾

ولـمَّا كان مَن يأكُل كثيرًا يعطشُ عطشًا شديدًا، فيشربُ ما قدَر عليه رجاءَ تبريدِ ما به من حرارةِ العطشِ؛ سبَّب عنه قولَه: ﴿ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴾[1].

﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾

ولـمَّا كان شُرْبُهم لأدنىٰ قطرةٍ من ذلك في غايةِ العَجَبِ، أَتبَعَه ما هو أعجبُ منه؛ وهو شِدَّةُ تَملُّئِهم منه، فقال مُسبِّبًا عمَّا مضىٰ: ﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴾[2].

وإعادةُ ﴿ فَشَٰرِبُونَ ﴾ توكيدٌ لفظيٌّ لنظيرِه، وفائدةُ هذا التَّوكيدِ: زيادةُ تقريرِ ما في هذا الشُّربِ من الأُعجُوبةِ، وهي أنَّه مع كراهتِه يزدادون منه كما ترىٰ الأَهْيَمَ، فيزيدُهم تفظيعًا لأمعائِهم لإفادةِ التَّعجيبِ من حالِهم تعجيبًا ثانيًا بعدَ الأوَّلِ، فإنَّ كونَهم شاربين للحميمِ -علىٰ ما هو عليه من تناهي الحرارةِ- أمرٌ عجيبٌ، وشُرْبهم له كما تشربُ الإبلُ الهِيمَ في الإكثارِ أمرٌ عجيبٌ أيضًا، فكانتا صفتينِ مختلفتينِ[3].

﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

ولـمَّا كان كأنَّه قيل: هذا عذابُهم كلُّه، قيل تَهكُّمًا بهم ونكايةً لهم: ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾[4].

اعتراضٌ بينَ جُمَلِ الخطابِ، مُوجَّهٌ إلىٰ السَّامعين غيرهم، فليس في ضميرِ الغَيْبةِ التفاتٌ، والإشارةُ بقولِه: ﴿ هَٰذَا ﴾ إلىٰ ما ذُكر من أكلِ الزَّقُّومِ وشُرْبِ الهِيمِ[5].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢١٧).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢١٧-٢١٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣١١).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢١٨).

(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣١١).

﴿ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ ﴾

ولمَّا ذكر الواقعةَ وما يكونُ فيها للأصنافِ الثَّلاثةِ، وختم بها على وجهٍ بيَّن فيه حِكْمَتَها، وكانوا يُنكِرُونها؛ دلَّ عليه بقولِه: ﴿ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴾[(١)].

أَعقَبَ إبطالَ نفيِهم بالبعثِ بالاستدلالِ على إمكانِه وتقريبِ كيفيَّةِ الإعادةِ التي أحالوها، فاستدلَّ على إمكانِ إعادةِ الخلقِ بأنَّ اللهَ خلقَهم أوَّلَ مرَّةٍ فلا يَبعُدُ أن يُعِيدَ خلقَهم؛ لأنَّهم لم يكونوا يُنكِرون ذلك، وليس المقصودُ إثباتَ أنَّ اللهَ خلَقَهم، وهذا الكلامُ يجوزُ أن يكونَ من تمامِ ما أمر بأن يقولَه لهم، ويجوزُ أن يكونَ استئنافًا مُستقِلًّا، والخطابُ على كلا الوجهينِ مُوجَّهٌ للسَّامعين، فليس في ضميرِ ﴿ خَلَقۡنَٰكُمۡ ﴾ التفاتٌ[(٢)].

ثم ذكر الدَّليلَ العقليَّ على البعثِ، فقال: ﴿ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴾[(٣)].

﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝٥٨ ﴾

ولمَّا حضَّضَهم على التَّصديقِ بالاستدلالِ بإيجادِهم، وكان البعثُ إنَّما هو تحويلُهم من صورةٍ باليةٍ إلى الصُّورةِ التي كانوا عليها من قبلُ؛ سبَّب عن تكذيبِهم به مع تصديقِهم بالخلقِ عدمَ النَّظرِ في تبديلِ الصُّوَرِ في تفاصيلِه، أو سبَّب عن قولِ مَن عساه يقولُ مِن أهلِ الطَّبائعِ: إنَّما خُلقنا من نطفةٍ حدَثَتْ بحرارةٍ كامنةٍ، فقال: ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢١٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣١٢).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٣٥).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢١٩).

﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ ﴾

ولمَّا كانت العِبرةُ بالمسبَّبِ لا بالسَّببِ، نبَّه علىٰ ذلك بتجديدِ الإنكارِ؛ تنبيهًا علىٰ أنَّهم وإنْ كانوا مُعترفين بتفرُّدِه بالإبداعِ، فإنَّ إنكارَهم للبعثِ مُستلزِمٌ لإنكارِهم لذلك، فقال: ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾(١).

وإنَّما ابتُدِئ الاستدلالُ بتقديمِ جملةِ ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ ﴾ زيادةً في إبطالِ شبهتِهم، إذ قاسوا الأحوالَ المُغيَّبةَ علىٰ المُشاهَدةِ في قلوبِهم، لا نُعادُ بعدَ أنْ كُنَّا ترابًا وعظامًا، وكان حقُّهم أن يقيسوا علىٰ تَخلُّقِ الجنينِ من مبدأِ ماءِ النُّطفةِ فيقولوا: لا تصيرُ العظامُ الباليةُ ذواتًا حيَّةً، وإلَّا فإنَّهم لم يَدَّعُوا قطُّ أنَّهم خالِقون، فكان قولُه: ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ ﴾ تمهيدًا للاستدلالِ علىٰ أنَّ اللهَ هو خالقُ الأَجِنَّةِ بقدرتِه، وأنَّ تلك القدرةَ لا تقتصرُ علىٰ الخلقِ الثَّاني عندَ البعثِ، فكانت جملةُ ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ ﴾ بيانًا لجملةِ ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾، وأُعِيدَ حرفُ الاستفهامِ ليُطابِقَ البيانُ مُبيَّنَه، وتقديمُ المُسنَدِ إليه علىٰ المُسنَدِ الفعليِّ في ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ ﴾ لإفادةِ التَّقوي لأنَّهم لمَّا نزلوا منزلةَ مَن يزعمُ ذلك كما علمتَ صِيغَتْ جملةُ نفيه بصيغةٍ دالَّةٍ علىٰ زعمِهم تمكن التَّصرُّف في تكوينِ النَّسلِ، وقد حصل من نفيِ الخلقِ عنهم وإثباتِه للهِ تعالىٰ معنىٰ قصرِ الخلقِ علىٰ اللهِ تعالىٰ(٢).

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ ﴾

ولمَّا كان الجوابُ: أنت الخالقُ وحدَك، وكان الطَّبيعيُّ ربما قال: اقتضىٰ ذلك الحرارةُ المُخمِّرةُ للنُّطفةِ، وكانت المُفاوَتةُ للآجالِ مع المُساواةِ في اسميَّةِ الحياةِ من الدَّلائلِ العظيمةِ علىٰ تمامِ القدرةِ علىٰ الإفناءِ والإبداءِ بالاختيارِ مُبطِلةً لقولِ

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢١٩-٢٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣١٤).

أهلِ الطَّبائع، دافعةً لهم؛ أكَّد ذلك الدَّليلَ بقولِه: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾(١).

استدلالٌ بإماتةِ الأحياءِ على أنَّها مقدورةٌ للهِ تعالى ضرورةَ أنَّهم مُوقِنون بها، ويُشاهِدونها، ووادُّون دفعَها أو تأخيرَها، فإنَّ الذي قدَر على خلقِ الموتِ بعد الحياةِ قادرٌ على الإحياءِ بعد الموت؛ إذ القدرةُ على حصولِ شيءٍ تقتضي القدرةَ على ضِدِّه، فلا جَرَمَ أنَّ القادرَ على خلقِ حيٍّ ممَّا ليس فيه حياةٌ، وعلى إماتتِه بعد الحياةِ، قديرٌ على التصرُّفِ في حالتَيْ إحيائِه وإماتتِه، وما الإحياءُ بعد الإماتةِ إلَّا حالةٌ من تَيْنِك الحقيقتينِ، فوضَح دليلُ إمكانِ البعثِ(٢).

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦١﴾

هذا نتيجةٌ لِما سبق من الاستدلالِ على أنَّ اللهَ قادرٌ على الإحياءِ بعدَ الموتِ، فيحصلُ الإعلامُ به تصريحًا وتعريضًا، فالصَّريحُ منه التَّذكيرُ بتمامِ قدرةِ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يغلبُه غالبٌ، ولا تضيقُ قدرتُه عن شيءٍ، وأنَّه يُبدِلُهم خلقًا آخرَ في البعثِ مُماثِلًا لخلقِهم في الدنيا، ويفيدُ تعريضًا بالتَّهديدِ باستئصالِهم وتعويضِهم بأُمَّةٍ أخرى(٣).

ثم ذكر دليلَ ذلك، فقال: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فلقد علمتم النَّشأةَ الثَّانيةَ النُّطفيَّةَ، عطَف عليه قولَه مُؤكِّدًا تنبيهًا على أنَّهم لمَّا كانوا يعملون بخلافِ ما يعلمون، كانوا كأنَّهم مُنكِرون لهذا العلمِ: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣١٤-٣١٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣١٦).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢٢٢).

أَعقَبَ دليلَ إمكانِ البعثِ المُستنِدِ للتنبيهِ علىٰ صلاحيةِ القدرةِ الإلهيَّةِ لذلك ولسَدِّ منافذِ الشُّبهةِ بدليلٍ من قياسِ التَّمثيلِ، وهو تشبيهُ النَّشأةِ الثَّانيةِ بالنَّشأةِ الأولىٰ المعلومةِ عندَهم بالضَّرورةِ، فنُبِّهُوا ليقيسوا عليها النَّشأةَ الثَّانيةَ في أنَّها إنشاءٌ من أثرِ قدرةِ اللهِ وعلمِه، وفي أنَّهم لا يُحِيطون علمًا بدقائقِ حصولِها[(١)].

ثم أحالَهم اللهُ تعالىٰ علىٰ الاستدلالِ بالنَّشأةِ الأولىٰ علىٰ النَّشأةِ الأخرىٰ، فقال: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[(٢)].

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

ولمَّا كان علمُهم بأمرِ النَّباتِ الذي هو الآيةُ العظمىٰ لإعادةِ الأمواتِ أعظمَ من علمِهم بجميعِ ما مضىٰ، وكان أمرُه في الحرثِ وإلقاءِ البَذْرِ فيه أشبهَ شيءٍ بالجِماعِ وإلقاءِ النُّطفةِ؛ ولذلك سُمِّيَتِ المرأةُ حرثًا؛ وصل بما مضىٰ مُسبِّبًا عنه قولَه مُنكِرًا عليهم: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾[(٣)].

انتقالٌ إلىٰ دليلٍ آخرَ علىٰ إمكانِ البعثِ، وصلاحيةِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ له بضربٍ آخرَ من ضروبِ الإنشاءِ بعدَ العدمِ، ومناسبةُ الانتقالِ من الاستدلالِ بخلقِ النَّسلِ إلىٰ الاستدلالِ بنباتِ الزَّرعِ هي التَّشابهُ البيِّنُ بينَ تكوينِ الإنسانِ وتكوينِ النَّباتِ[(٤)].

ثم ذكر بعدَ دليلِ الخلقِ دليلَ الرِّزقِ، فقولُه: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ إشارةٌ إلىٰ دليلِ الخلقِ، وبه الابتداءُ، وقولُه: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ إشارةٌ إلىٰ دليلِ الرِّزقِ، وبه البقاءُ[(٥)].

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣١٨).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٨٣٥).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢٢٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣١٩).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٤٢٠).

﴿ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤ ﴾

ولمَّا كانوا لا يَدَّعُونَ القدرةَ علىٰ الإنباتِ بوجهٍ، وكان القادرُ عليه قادرًا علىٰ كلِّ شيءٍ، وهم يعتقدون في أمرِ البعثِ ما يُؤدِّي إلىٰ الطَّعنِ في قدرتِه؛ كرَّر الإنكارَ عليهم، فقال: ﴿ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾(١).

﴿ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥ ﴾

ولمَّا كان الجوابُ قطعًا: أنت الفاعلُ لذلك وحدَك؟ قال مُوضِّحًا لأنَّه ما زرعه غيرُه بأنَّ الفاعلَ الكاملَ مَن يدفعُ عمَّا صنَعه ما يُفسِدُه، ومَن إذا أراد إفسادَه لم يَقدِرْ أحدٌ علىٰ منعِه: ﴿ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴾(٢).

استدلالٌ بإفناءِ ما أَوجَدَه علىٰ انفرادِه بالتَّصرُّفِ إيجادًا وإعدامًا، تكملةً لدليلِ إمكانِ البعثِ(٣).

﴿ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ٦٦ ﴾

ولمَّا ذكر تَفكُّهَهم، وكان التَّفكُّهُ يُطلَقُ علىٰ ما ذُكر من التَّعجُّبِ والتَّندُّمِ وعلىٰ التَّنعُّمِ؛ قال الكِسائيُّ: هو من الأضدادِ، تقولُ العربُ: تَفكَّهتُ؛ أي: تنعَّمتُ، وتَفكَّهتُ؛ أي: حزنتُ؛ بيَّن المرادَ بقولِه حكايةً لتَفكُّههم: ﴿ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ﴾(٤).

﴿ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٦٧ ﴾

ولمَّا كانت مُنبِّهةً علىٰ أنَّهم لشِدَّةِ اضطرابهم من ذلك الحادثِ مُذَبْذَبون تارةً يجزمون باليأسِ والشَّرِّ وتارةً يَشُكُّون فيه ويَنسُبون الأمرَ إلىٰ سوءِ تَصرُّفِهم، وعليه يدلُّ إضرابُهم: ﴿ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٢٣).
(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢٢٣-٢٢٤).
(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٢١).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢٢٥).
(٥) نظم الدرر (١٩/ ٢٢٥-٢٢٦).

ثم أَضرَبوا عن قولِهم هذا، وانتقَلوا فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[١].

﴿أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾

ولمَّا وقَّفهم علىٰ قدرتِه في الزَّرعِ مع وجودِ أسبابِه، وقدَّمهم بشِدَّةٍ إليه، وكان ربما أَلبَسَ نوعَ لَبْسٍ؛ لأنَّ لهم فيه سببًا في الجملةِ؛ أَتبَعَه التَّوقيفَ علىٰ قدرتِه علىٰ التَّصرُّفِ في سببِه الذي هو الماءُ الذي لا سببَ لهم في شيءٍ من أمرِه أصلًا، فقال مُسبِّبًا عمَّا أفادَهم هذا التنبيهَ، مُذكِّرًا بنعمةِ الشُّربِ الذي يُحوِجُ إليه الغذاءُ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾[٢].

مناسبةُ الانتقالِ أنَّ الحرثَ إنَّما يَنبُتُ زرعُه وشجرُه بالماءِ، فانتقل من الاستدلالِ لتكوينِ النَّباتِ إلىٰ الاستدلالِ بتكوينِ الماءِ الذي به حياةُ الزَّرعِ والشَّجرِ[٣].

لمَّا ذكر تعالىٰ نعمتَه علىٰ عبادِه بالطَّعامِ، ذكر نعمتَه عليهم بالشَّرابِ العَذْبِ الذي منه يشربون[٤].

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

ولمَّا كان عنصرُه في جهةِ العُلُوِّ، قال مُنكِرًا عليهم مُقرِّرًا لهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾[٥].

﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ولمَّا كان الجوابُ: أنت وحدَك فعلتَ ذلك علىٰ غِناك عن الخلقِ بما لك من الرَّحمةِ وكمالِ الذَّاتِ والصِّفاتِ؛ قال مُذكِّرًا بنعمةٍ أخرىٰ: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[٦].

---

(١) فتح القدير (٥/ ١٨٩).
(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢٢٦).
(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٢٣).
(٤) تفسير السعدي (ص: ٨٣٥).
(٥) نظم الدرر (١٩/ ٢٢٦).
(٦) نظم الدرر (١٩/ ٢٢٧).

ثم بيَّن لهم سبحانه أنَّه لو يشاءُ لسَلَبَهم هذه النِّعمةَ، فقال: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[1].

📖 ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ 📖

ولمَّا كانت النَّارُ سببًا لعنصرِ ما فيه الماءُ، فيتحلَّبُ، فيتقاطرُ، كما كان الماءُ سببًا لتشقيقِ الأرضِ بالزَّرع، ولم يكنْ لمخلوقٍ قدرةٌ علىٰ التَّوصُّلِ بنوعِ سببٍ؛ أَتبعَه بها كما أَتبعَ الزَّرعَ بالماءِ لذلك، ولبيانِ القدرةِ علىٰ ما لا سببَ فيه لمخلوقٍ في السُّفْلِ كما كان إنزالُ الماءِ عَرِيًّا عن سُنَّتِهم في العُلْوِ، فقال مُسبِّبًا عمَّا مضىٰ؛ تنبيهًا علىٰ أنَّه أهَّلَهم للتَّأمُّلِ في مصنوعاتِه، والتَّبصُّرِ في عجائبِ آياتِه، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾[2].

مناسبةُ الانتقالِ من الاستدلالِ بخلقِ الماءِ إلىٰ الاستدلالِ بخلقِ النَّارِ هي ما تقدَّم في مناسبةِ الانتقالِ إلىٰ خلقِ الماءِ من الاستدلالِ بخلقِ الزَّرعِ والشَّجرِ، فإنَّ النَّارَ تخرجُ من الشَّجرِ بالاقتداحِ، وتُذكَىٰ بالشَّجرِ في الاشتعالِ والالتهابِ، وهذا الاستدلالُ علىٰ تقريبِ كيفيَّةِ الإحياءِ للبعثِ من حيثُ إنَّ الاقتداحَ إخراجٌ، والزَّنْدُ الذي به إيقادُ النَّارِ يخرجُ من أعوادِ الاقتداحِ وهي ميِّتةٌ[3].

📖 ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ 📖

ولمَّا كان هذا من عجائبِ الصُّنعِ، كرَّر التَّقريرَ والإنكارَ تنبيهًا عليه، فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾[4].

---

(١) فتح القدير (٥/ ١٩٠).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢٢٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٢٥).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢٢٩).

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

ولمَّا كان الجوابُ قطعًا: أنت وحدَك، قال دالًّا على ذلك، تنبيهًا على عِظَمِ هذا الخبر: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾[1].

الجملةُ بدلُ اشتمالٍ من جملةِ ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾؛ أي: إنَّ إنشاءَ النَّارِ كان لفوائدَ وحِكَمٍ؛ منها أن تكونَ تَذكِرةً للنَّاسِ، يذكرون بها نارَ جهنَّمَ، ويُوازِنون بينَ إحراقِها وإحراقِ جهنَّمَ التي يعلمون أنَّها أشدُّ من نارِهم[2].

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

ولمَّا دَلَّ سبحانه في هذه الآياتِ على عجائبِ القدرةِ وغرائبِ الصُّنعِ، فبدأ بالزَّرعِ، وختَم بالنَّارِ والشَّجرِ، وأوجب ما نبَّه عليه من التَّذكُّرِ لأمرِها، والتَّبصُّرِ في شأنِها أنَّها من أسبابِ ما قبلَها، وأنَّه سبَّب لها لكونِه سببًا لها لإثباتِ ما هي له، وكان مجموعُ ذلك إشارةً إلى العناصرِ الأربعةِ، قال ابنُ بَرَّجانَ: إلَّا أنَّ الماءَ والأرضَ لخلقِ الأركانِ، والأخلاقَ والصِّفاتِ للهواءِ والنَّارِ، وكان ذلك من جميعِ وجوهِه أمرًا باهرًا؛ أشارَ إلى زيادةِ عظمتِه بالأمرِ بالتَّنزيهِ مُسبِّبًا عمَّا أفادَ ذلك، فقال مُعرِضًا عمَّنْ قد يُلِمُّ به الإنكارُ، مُقبِلًا على أشرفِ خلقِه إشارةً إلى أنَّه لا يفهمُ هذا المقامَ حقَّ فهمِه سواه، ولا يعملُ به حقَّ عملِه غيرُه: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾[3].

رتَّب على ما مضى من الكلامِ المُشتمِلِ على دلائلِ عَظَمةِ القدرةِ الإلهيَّةِ، وعلى أمثالٍ لتقريبِ البعثِ الذي أنكروا خبرَه، وعلى جلائلِ النِّعَمِ المُدمَجةِ في أثناءِ ذلك: أنْ أمر اللهُ رسولَه ﷺ بأن يُنزِّهَه تنزيهًا خاصًّا، مُعقِّبًا لِما تُفيضُه عليه تلك الأوصافُ الجليلةُ الماضيةُ من تذكُّرٍ جديدٍ يكونُ التَّنزيهُ عَقِبَه ضربًا من التَّذكُّرِ في جلالِ ذاتِه،

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٢٧).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢٣١).

والتَّشكُّرِ لآلائِه؛ فإنَّ للعباداتِ مواقعَ تكونُ هي فيها أكملَ منها في دونِها، فيكونُ لها من الفضلِ ما يُجزَلُ ثوابُه، فالرسولُ ﷺ لا يخلو عن تسبيحِ ربِّه، والتَّفكُّرِ في عظمةِ شأنِه، ولكنْ لاختلافِ التَّسبيحِ والتَّفكُّرِ من تجدُّدِ ملاحظةِ النَّفسِ ما يجعلُ لكُلِّ حالٍ من التَّفكُّرِ مزايا تكسِبُه خصائصَ وتزيدُه ثوابًا[1].

والفاءُ في قولِه تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ لترتيبِ ما بعدَها علىٰ ما عدَّد من بدائعِ صُنْعِه تعالىٰ، وروائعِ نِعَمِه المُوجِبةِ لتسبيحِه تعالىٰ، إمَّا تنزيهًا له تعالىٰ عمَّا يقولُه الجاحدون بوحدانيَّتِه، الكافرون بنعمتِه مع عِظَمِها وكثرتِها، أو تعجُّبًا من أمرِهم في غَمْطِ تلك النِّعَمِ الباهرةِ مع جلالةِ قدرِها وظهورِ أمرِها، أو شكرًا علىٰ تلك النِّعَمِ السَّابقةِ[2].

﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾

ولمَّا كان من العَظَمةِ الباهرةِ ما ظهر في هذه السورةِ من أفانينِ الإنعامِ في الدَّارينِ، وبدأ بنعمةِ الآخرةِ لكونِها النَّتيجةَ، ثم دلَّ عليها بإنعامِه في الدنيا، فكان تذكيرًا بالنِّعَمِ لتُشكَرَ، ودلالةً علىٰ النَّتيجةِ لتُذكَرَ، وفي كلِّ حالةٍ تُستحضَرُ فلا تُكفَرُ، فوصَلتِ الدَّلالةُ إلىٰ حدٍّ هو أوضحُ من المحسوسِ، وأَضوأُ من المشموسِ، وكان مع هذه الأمورِ الجليلةِ في مظهرٍ أَعجزَ الخلائقَ علىٰ أن يأتوا بمِثْلِه من كلِّ وجهٍ: أمَّا من جهةِ الجوابِ عن تشبُّهِهم وتعنُّتِهم؛ فلكونِه يُطابِقُ ذلك مطابقةً لا يمكنُ أن يكونَ شيءٌ مِثلَها، ويزيدُ علىٰ ذلك بما شاء اللهُ من المعارفِ من غيرِ أن يدعَ لَبْسًا، وأمَّا من جهةِ المفرداتِ؛ فلكونِها النِّهايةَ في جلالةِ الألفاظِ، ورشاقةِ الحروفِ، وجمعِ المعاني، فيُفِيدُ ذلك أنَّه لا تقومُ كلمةٌ أخرىٰ مقامَ كلمةٍ منه أصلًا، وأمَّا من جهةِ التَّركيبِ؛ فلكونِ كلِّ كلمةٍ منها أحقَّ في مواضعِها بحيثُ إنَّه لو قُدِّمَ شيءٌ منها أو أُخِّرَ لاختلَّ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٢٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٩٩).

المعنىٰ المرادُ في ذلك السِّياقِ بحسَبِ ذلك المقامِ، وأمَّا من جهةِ التَّرتيبِ في الجملِ والآياتِ والقصصِ في المبادئِ والغاياتِ؛ فلكونِه مثلَ تركيبِ الكلماتِ، كلُّ جملةٍ مُنتظِمةٌ بما قبلَها انتظامَ الدُّرِّ اليتيمِ في العِقْدِ المُحكَمِ النَّظيمِ؛ لأنَّها إمَّا أن تكونَ عِلَّةً لِما تَلَتْهُ، أو دليلًا، أو مُتمِّمةً بوجهٍ من الوجوهِ الفائقةِ علىٰ وجهٍ مُمتِعِ الجنابِ، جليلِ الحجابِ؛ لتكونَ أحلىٰ في فمِه، وأجلىٰ بعدَ ذَوْقِه في نظمِه وسائرِ علمِه، فكان ثبوتُ جميعِ ما أخبر به علىٰ وجهٍ لا مُغتمَرَ فيه، ولا وقفةَ في اعتقادِ حُسْنِه، فثبت أنَّ اللهَ تعالىٰ أرسل الآتيَ بهذا القرآنِ ﷺ بالهدىٰ وبالحقِّ، لا أنَّه آتاه كلَّ ما ينبغي له، فآتاه الحكمةَ؛ وهي البراهينُ القاطعةُ، واستعمالُها علىٰ وجوهِها، والموعظةَ الحسنةَ؛ وهي الأمورُ المُرقِّقةُ للقلوبِ المُنوِّرةُ للصُّدورِ، والمُجادَلةَ التي هي علىٰ أحسنِ الطُّرقِ في نظمٍ مُعجِزٍ مُوجِبٍ للإيمانِ، فكان مَن سَمِعَه ولم يُؤمِنْ لم يَبْقَ له من المُمحِلاتِ إلَّا أن يقولَ: هذا البيانُ ليس لظهورِ المدَّعىٰ وثبوتِه، بل لقُوَّةِ عارضةِ المُدَّعِي، وقُوَّتِه علىٰ تركيبِ الأدلَّةِ، وصَوْغِ الكلامِ، وتصريفِ وجوهِ المقالِ، وهو يعلمُ أنَّه يغلبُ لقُوَّةِ جدالِه لا لظهورِ مقالِه، كما أنَّه ربما يقولُ أحدُ المُتناظِرَينِ عندَ انقطاعِه لخصمِه: أنت تعلمُ أنَّ الحقَّ معي، لكنَّك تَستضعِفُني ولا تُنصِفُني، فحينَئذٍ لا يبقىٰ للخصمِ جوابٌ إلَّا الإقسامُ بالأيمانِ التي لا مخرجَ عنها أنَّه غيرُ مُكابِرٍ وأنَّه مُنصِفٌ، وإنَّما يفزعُ إلىٰ الأيمانِ لأنَّه لو أتىٰ بدليلٍ آخرَ لكان مُعرَّضًا لمِثْلِ هذا، فيقولُ: وهذا غَلَبْتَني فيه لقُوَّةِ جدالِك، وقدرتِك علىٰ سَوْقِ الأدلَّةِ ببلاغةِ مقالِك؛ فلذلك كانوا إذا أَفحَمَهم النبيُّ ﷺ قالوا: إنَّه يريدُ أن يتفضَّلَ علينا فيما نعلمُ خلافَه، فلم يَبْقَ إلَّا الإقسامُ، فأنزل اللهُ أنواعًا من الأقسامِ بعدَ الدَّلائلِ العظامِ؛ ولهذا كثُرت الآياتُ في أواخرِ القرآنِ، وفي السَّبعِ الأخيرةِ خاصَّةً أكثرَ؛ فلذلك سبَّب عن هذه الأدلَّةِ الرَّائعةِ والبراهينِ القاطعةِ قولَه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[1].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٣٤).

تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ يُعرِبُ عن خطابٍ من اللهِ تعالىٰ مُوجَّهٍ إلىٰ المكذِّبين بالبعثِ، القائلين: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾، انتقل به إلىٰ التَّنويهِ بالقرآنِ؛ لأنَّهم لمَّا كذَّبوا بالبعثِ، وكان إثباتُ البعثِ من أهمِّ ما جاء به القرآنُ، وكان ممَّا أغراهم بتكذيبِ القرآنِ اشتمالُه علىٰ إثباتِ البعثِ الذي عدُّوه مُحالًا، زيادةً علىٰ تكذيبِهم به في غيرِ ذلك ممَّا جاء به من إبطالِ شِرْكِهم وأكاذيبِهم، فلمَّا قامت الحُجَّةُ علىٰ خطئِهم في تكذيبِهم، فقد تبيَّن صدقُ ما أنبأهم به القرآنُ، فثبت صدقُه؛ فلذلك تهيَّأ المقامُ للتَّنويهِ بشأنِه[(١)].

﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

ولمِثْلِ هذه المعاني الجليلةِ والخُطُوبِ العظيمةِ جعل في الكلامِ اعتراضًا بينَ القَسَمِ وجوابِه، وفي الاعتراضِ اعتراضًا بينَ الموصوفِ وصِفَتِه؛ تأكيدًا للكلامِ، وهزًّا لنافذِ الأفهامِ؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ الأمرَ عظيمٌ، والخطبَ فادحٌ جسيمٌ، فقال مُوضِّحًا له بالتَّأكيدِ رحمةً للعبيدِ بالإشارةِ إلىٰ أنَّهم جَرَوْا علىٰ غيرِ ما يعلمون من عَظَمَتِنا فعُدُّوا غيرَ عالمين: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[(٢)].

اعتراضٌ في اعتراضٍ قُصد به المبالغةُ في تحقيقِ مضمونِ الجملةِ القَسَمِيَّةِ وتأكيدِه[(٣)].

ثم عظَّم هذا المُقسَمَ به، فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[(٤)].

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

ولمَّا أتمَّ القَسَمَ علىٰ هذا الوجهِ الجليلِ، أجابه بقولِه مُؤكِّدًا لِما لهم من ظاهرِ الإنكارِ: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٢٩).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٩٩).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٨٣٦).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ٢٣٧).

ثم ذكر سبحانه المُقسَمَ عليه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾[(١)].

﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾

ولمَّا ذكر المعنىٰ، ذكر محلَّ النَّظمِ الدَّالِّ عليه بلفظٍ دالٍّ علىٰ نفسِ النَّظمِ، فقال: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾[(٢)].

ثم وصف القرآنَ بوصفٍ آخرَ، فقال: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾

ولمَّا كان ما هو كذلك قد يَحصُلُ له خللٌ يسوءُ خُدَّامَه، قال: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾[(٣)].

﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾

ولمَّا ذكر الذي منه صيانتُه، أَتبعَه شرفَه بشرفِ مُنزِلِه، وإنزالِه علىٰ حالٍ هو في غايةِ العَظَمةِ، مُسمِّيًا له باسمِ المصدرِ للمبالغةِ، ولأنَّ هذا المصدرَ أغلبُ أحوالِه؛ ولذلك غلب عليه هذا الاسمُ: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[(٤)].

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١﴾

ولمَّا أَفصَحَ من وصفِ هذا الكتابِ العظيمِ ما يقتضي أن يكونَ بمجرَّدِه مُثبِتًا لِما لا تُدرِكُه العقولُ من كمالِه، وكافيًا في الإذعانِ لاعتقادِه؛ فكيف إذا كان ما تحكمُ

---

(١) فتح القدير (٥/ ١٩٢).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢٣٧).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢٣٨).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢٣٩).

العقولُ وتقضي بفسادِ ما سواه؟ فكيف إذا كان ممَّا يتذكَّر الإنسانُ مِثلَه في نفسِه؟ عجَّب منهم في جعلِه سببًا لإنكارِ البعثِ الذي إذا ذكر الإنسانُ أحوالَ نفسِه كفاه ذلك في الجزمِ به، فقال مُنكِرًا تعجُّبًا: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾[1].

الفاءُ تفريعٌ علىٰ ما سِيقَ لأجلِه الكلامُ الذي قبلَها في غرضِه من التَّنويهِ بشأنِ القرآنِ، وهو الذي بحَذْوِ الفاءِ، أو من إثباتِ البعثِ والجزاءِ، وهو الذي حوىٰ معظمَ السورةِ، وكان التَّنويهُ بالقرآنِ من مُسبَّباتِه. وأطبق المفسِّرون عدا الفخرَ علىٰ أنَّ اسمَ الإشارةِ وبيانَه بقولِه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ مُشِيرٌ إلىٰ القرآنِ؛ لمناسبةِ الانتقالِ من التَّنويهِ بشأنِه إلىٰ الإنكارِ علىٰ المكذِّبين به[2].

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ولمَّا كان هذا القرآنُ مُتكفِّلًا بسعادةِ الدَّارينِ، قال تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[3].

إذا جَرَيْنا علىٰ ما فسَّر به المفسِّرون، تكونُ هذه الجملةُ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ عطفَ الجملةِ علىٰ الجملةِ، فتكونُ داخلةً في حيِّزِ الاستفهامِ، ومُستقِلَّةً بمعناها، وهو تفريعٌ علىٰ ما تَضمَّنَه الاستدلالُ بتكوينِ نسلِ الإنسانِ وخلقِ الحَبِّ، والماءِ في المُزْنِ، والنَّارِ من أعوادِ الاقتداحِ؛ فإنَّ في مجموعِ ذلك حصولَ مُقوِّماتِ الأقواتِ، وهي رزقٌ، والنَّسلُ رزقٌ[4].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٣٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٣٧).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢٤١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٣٩).

﴿ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾

ولمَّا أنكر عليهم هذا الإنكارَ، وعجَّب منهم هذا التَّعجيبَ في أن يَنسُبوا لغيرِه فعلًا، أو يُكذِّبوا له خبرًا؛ سبَّب عن ذلك تحقيقًا لأنَّه لا فاعلَ سواه قولَه: ﴿ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴾[1].

مقتضىٰ فاءِ التَّفريعِ أنَّ الكلامَ الواقعَ بعدَها ناشئٌ عمَّا قبلَه علىٰ حسَبِ ترتيبِه، وإذ قد كان الكلامُ السَّابقُ إقامةَ أدلَّةٍ علىٰ أنَّ اللهَ قادرٌ علىٰ إعادةِ الحياةِ للنَّاسِ بعدَ الموتِ، وأعقب ذلك بأنَّ تلك الأدلَّةَ أيَّدتْ ما جاء في القرآنِ من إثباتِ البعثِ، وأنحىٰ عليهم أنَّهم وضَحتْ لهم الحُجَّةُ ولكنَّهم مُكابِرون فيها، ومُظهِرون الجحودَ وهم مُوقِنون بها في الباطنِ، وكلُّ ذلك راجعٌ إلىٰ الاستدلالِ بقُوَّةِ قدرةِ اللهِ علىٰ إيجادِ موجوداتٍ لا تصلُ إليها مداركُ النَّاسِ؛ انتقل الكلامُ إلىٰ الاستدلالِ علىٰ إثباتِ البعثِ بدليلٍ لا مَحِيصَ لهم عن الاعترافِ بدلالتِه، فالتَّفريعُ علىٰ جملةِ ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، وهو أنَّ عجزَهم عن إرجاعِ الرُّوحِ عندَ مفارقتِها الجسدَ يُنبِّهُهم علىٰ أنَّ تلك المفارقةَ مُقدَّرةٌ في نظامِ الخِلْقةِ، وأنَّها لحكمةٍ[2].

﴿ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

جملةُ ﴿ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴾ حالٌ من ضميرِ ﴿ بَلَغَتِ ﴾، وفائدةُ هذه الحالِ تحقيقُ أنَّ اللهَ صرَفَهم عن محاولةِ إرجاعِها مع شِدَّةِ أسفِهم لموتِ الأَعِزَّةِ[3].

ثم ذكر حالَ العاكفين حولَ المُحتضَرِ، المُتوجِّعين له، فقال: ﴿ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٤١-٢٤٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٤٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٤٤).

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ ﴾

جملةُ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ في موضعِ الحالِ من مفعولِ ﴿ تَنظُرُونَ ﴾ المحذوفِ، أو مُعترِضةٌ والواوُ اعتراضيَّةٌ، وأيًّا ما كانت فهي احتراسٌ لبيانِ أنَّ ثمَّةَ حضورًا أقربَ من حضورِهم عندَ المُحتضَرِ(١).

﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ ﴾

ولمَّا كان الكلامُ لإثباتِ هذه الأغراضِ المُهمَّةِ قبلَ جوابِ «لولا»، أعادَها تأكيدًا لها وتبيينًا، فقال: ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾(٢).

﴿ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧ ﴾

قولُه تعالىٰ: ﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ سَدَّتَ مَسَدَّ الأجوبةِ والبياناتِ التي تقتضيها التَّخصيصاتُ(٣).

ثم ذكر جوابَ ﴿ فَلَوْلَآ ﴾ بقولِه: ﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾.

ثم بيَّن عجزَهم، فقال: ﴿ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: لا يقدرُ أحدٌ أصلًا علىٰ ردِّها بعدَ بلوغِها إلىٰ ذلك المحلِّ؛ لأنَّا نريدُ جمعَ الخلائقِ للدَّينُونةِ بما فعلوا فيما أَقَمْناهم فيه وأَمَرْناهم به، ولا يكونُ إلَّا ما نريدُ، فكما أنَّكم مُقِرُّون بأنَّه خلَقَكم من ترابٍ، وبأنَّه يُعِيدُكم قهرًا إلىٰ التُّرابِ؛ يلزمُكم حتمًا أن تُقِرُّوا بأنَّه قادرٌ علىٰ أن يُعِيدَكم من التُّرابِ، فإنْ أنكرْتم هذا اللازمَ،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٤٤).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢٤٢).

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٢٥٣).

لَزِمَكم إنكارُ ملزومِه، وذلك مكابرةٌ في الحِسِّ، فليكن الآخرُ مِثلَه، فثبت أنَّا إنَّما نعيدُ الخلائقَ إلىٰ التُّرابِ لنجمعَهم فيه، ثم نبعثُهم منه لنُجازِيَ كلًّا بما يَستحِقُّ، ونقسمُهم إلىٰ أزواجٍ ثلاثةٍ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[(١)].

لمَّا اقتضىٰ الكلامُ بحذافرِه أنَّ الإنسانَ صاحبُ الرُّوحِ صائرٌ إلىٰ الجزاءِ، فرَّع عليه إجمالَ أحوالِ الجزاءِ في مراتبِ النَّاسِ إجمالًا لِما سبق تفصيلُه بقولِه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ إلىٰ قولِه: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾؛ ليكونَ هذا فذْلكةً للسورةِ، وردًّا لعَجُزِها علىٰ صدرِها[(٢)].

لمَّا قال: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ﴾، وكان فيها أنَّ رجوعَ الحياةِ والنَّفسِ إلىٰ البدنِ ليس تحتَ قدرتِهم، ولا رجوعَ لهم بعدَ الموتِ إلىٰ الدنيا؛ صار كأنَّه قال: أنتم بعدَ الموتِ دائمون في دارِ الإقامةِ ومَجْزِيُّون، فالمَجْزِيُّ إنْ كان من المقرَّبين فله الرَّوحُ والرَّيحانُ[(٣)].

شروعٌ في بيانِ حالِ المُتوفَّىٰ بعدَ المماتِ إثْرَ بيانِ حالِه عندَ الوفاةِ[(٤)].

ثم ذكر سبحانه طبقاتِ الخلقِ عندَ الموتِ وبعدَه، فقال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[(٥)].

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

ثم ذكر ما له، فقال: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾﴾

ثم ذكر القسمَ الثَّانيَ، فقال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٤٤-٢٤٥).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٤٧).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٤٣٧).
(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٠١).
(٥) فتح القدير (٥/ ١٩٤).

📖 ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١﴾ 📖

ثم ذكر ما لأصحابِ اليمينِ، فقال: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، والكلامُ إجمالٌ للتَّنويهِ بهم، وعُلُوِّ مرتبتِهم، وخلاصِهم من المكدِّرات؛ لتذهبَ نفسُ السَّامعِ كلَّ مذهبٍ.

📖 ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢﴾ 📖

ولمَّا ذكر الصِّنفينِ النَّاجيينِ، أَتبعَهما الهالكينِ جامعًا لهم في صِنْفٍ واحدٍ؛ لأنَّ مَن أُرِيدَتْ له السَّعادةُ يكفيه ذلك، ومَن خُتم بشقائِه لا ينفعُه ذلك الإغلاظُ والإكثارُ، فقال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾(١).

📖 ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣﴾ 📖

ثم ذكر ما أعدَّ لهم، فقال: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾.

📖 ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤﴾ 📖

ثم ذكر ما لهم بعدَ النُّزُلِ، فقال: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾.

📖 ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ 📖

ولمَّا تمَّ ما أُريدَ من إثباتِ البعثِ على هذا الوجهِ المُحكَمِ البيِّنِ، وكانوا مع البيانِ يُكذِّبون به؛ لفت الخطابَ عنهم إلى أكملِ الخلقِ، وأكَّد تسميعًا لهم، فقال سائقًا له مَساقَ النَّتيجةِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾(٢).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٤٧).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢٤٧-٢٤٨).

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ تذييلٌ لجميعِ ما اشتملتْ عليه السُّورةُ من المعاني المُثبَتةِ(١).

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

ولمَّا تحقَّق له هذا اليقينُ، سبَّب عنه أمرَه بالتَّنزيهِ له سبحانه عمَّا وصَفوه به ممَّا يلزمُ منه وصفُه بالعجزِ، بعدَ تقسيمِه للأزواجِ الثَّلاثةِ علىٰ طريقِ الإيجازِ، كما أمره بذلك بعدَ الفراغِ من تقسيمِهم علىٰ طريقِ الإطنابِ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ المُفاوَتةَ بينَهم مع ما لهم من العقولِ من أعظمِ الأدلَّةِ علىٰ الفعلِ بالاختيارِ، وعلىٰ فسادِ القولِ بالطَّبيعةِ: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٢).

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ تفريعٌ علىٰ تحقيقِ أنَّ ما ذُكر هو اليقينُ حقًّا، فإنَّ ما ذُكر يشتملُ علىٰ عظيمِ صفاتِ اللهِ، وبديعِ صُنْعِه وحكمتِه وعدلِه، ويُبشِّرُ النبيَّ ﷺ وأُمَّتَه بمراتبَ من الشَّرفِ والسَّلامةِ علىٰ مقاديرِ درجاتِهم، وبنعمةِ النَّجاةِ ممَّا يصيرُ إليه المشركون من سوءِ العاقبةِ، فلا جَرَمَ كان حقيقًا بأن يُؤمَرَ بتسبيحِ اللهِ تسبيحًا استحَقَّه لعَظَمتِه، والتَّسبيحُ ثناءٌ، فهو يتضمَّنُ حمدًا لنعمتِه، وما هدىٰ إليه من طرقِ الخيرِ(٣).

لمَّا تقدَّم ذِكرُ الأقسامِ الثَّلاثةِ مُسهِبًا الكلامَ فيهم، أمره تعالىٰ بتنزيهِه عن ما لا يليقُ به من الصِّفاتِ، ولمَّا أعادَ التَّقسيمَ مُوجِزًا الكلامَ فيه، أمره أيضًا بتنزيهِه وتسبيحِه والإقبالِ علىٰ عبادةِ ربِّه، والإعراضِ عن أقوالِ الكَفَرةِ المُنكِرين للبعثِ والحسابِ والجزاءِ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٥٠).
(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢٤٨).
(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٥١).
(٤) البحر المحيط (١٠/ ٩٦).

سُورَةُ الحَدِيدِ

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾

ولمَّا أَخبَرَ بذلك، دلَّ علىٰ وجهٍ مُصرِّحٍ بما أفهَمَه الأوَّلُ من تسبيحِ السَّماواتِ والأرضِ بقولِه: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ بذِكْرِ صفةٍ عظيمةٍ من صفاتِ اللهِ التي مُتعلَّقُها أحوالُ الكائناتِ في السَّماواتِ والأرضِ؛ وخاصَّةً أهلَ الإدراكِ منهم، ومضمونُ هذه الجملةِ يُؤذِنُ بتعليلِ تسبيحِ اللهِ تعالىٰ؛ لأنَّ مَن له مُلْكُ العوالمِ العليا والعالمِ الدُّنيويِّ حقيقٌ بأن يعرفَ النَّاسُ صفاتِ كمالِه[(٢)].

ثم أَخبَرَ عن عمومِ ملكِه، فقال: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[(٣)].

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾

ولمَّا أَخبَرَ بتمامِ القدرةِ، دلَّ علىٰ ذلك بقولِه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٥٤).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٥٨).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٣٧).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢٥٥).

استئنافٌ في سياقِ تبيينِ أنَّ له مُلْكَ السَّماواتِ والأرضِ، بأنَّ مُلْكَه دائمٌ في عمومِ الأزمانِ، وتصرف فيهما في كلِّ الأحوالِ(١).

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾

ولمَّا كان الصَّانعُ للشَّيءِ عالمًا به، دلَّ على علمِه وما تقدَّم من وصفِه بقولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٢).

موقعُ هذه الجملةِ استئنافٌ كموقعِ جملةِ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ﴾ الآيةَ، فهذا استئنافٌ ثانٍ مُفيدٌ الاستدلالَ على انفرادِه تعالى بالإلهيَّةِ ليُقلِعوا عن الإشراكِ به، ويُفيدُ أيضًا بيانًا لمضمونِ جملةِ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وجملةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾؛ فإنَّ الذي خلق السَّماواتِ والأرضَ قادرٌ على عظيمِ الإبداعِ(٣).

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾﴾

ولمَّا كان صانعُ الشَّيءِ قد لا يكونُ مَلِكًا، وكان المَلِكُ لا يَكمُلُ مُلْكُه إلَّا بعلمِ جميعِ ما يكونُ في مملكتِه والقدرةِ عليه، وكان إنكارُهم للبعثِ إنكارًا لأنْ يكونَ مَلِكًا؛ أكَّد ذلك بتكريرِ الإخبارِ به، فقال: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾(٤).

هذا تأكيدٌ لنظيرِه الذي في أوَّلِ هذه السورةِ، كُرِّرَ ليُبنَى عليه قولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، فكان ذِكرُه في أوَّلِ السورةِ مبنيًّا عليه التَّصرُّفُ في الموجوداتِ القابلةِ للحياةِ

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٥٩).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢٥٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٦٣).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢٦١).

والموتِ في الدنيا، وكان ذِكرُه هنا مبنيًّا عليه أنَّ أمورَ الموجوداتِ كلَّها ترجعُ إلىٰ تصرُّفِه (١).

﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦ ﴾

ودَلَّ علىٰ هذا الإبداءِ والإفناءِ بأبدعِ الأمورِ وأروقِها، فقال: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (٢).

مناسبةُ ذِكْرِه هذه الجملةَ أنَّ تقديرَ اللَّيلِ والنَّهارِ وتَعاقُبَهما من التَّصرُّفاتِ الإلهيَّةِ المُشاهَدةِ في أحوالِ السَّماواتِ والأرضِ، ومُلابَساتِ أحوالِ الإنسانِ، فهذه الجملةُ بدلُ اشتمالٍ من جملةِ ﴿ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾، وهو أيضًا مُناسِبٌ لمضمونِ جملةِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ تذكيرٌ للمشركين بأنَّ المتصرِّفَ في سببِ الفناءِ هو اللهُ تعالىٰ، فإنَّهم يعتقدون أنَّ اللَّيلَ والنَّهارَ هما اللَّذانِ يُفنيانِ النَّاسَ (٣).

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧ ﴾

ولمَّا قامت الأدلَّةُ علىٰ تنزيهِه سبحانه عن شائبةِ كلِّ نقصٍ، وإحاطتِه بكُلِّ صفةِ كمالٍ، المقتضِي لثبوتِ أنَّ المُلْكَ له، المُوجِب قطعًا لتفرُّدِه بعمومِ الإلهيَّةِ، المقتضِي لإرسالِ مَن يريدُه إلىٰ جميعِ مَن في مُلْكِه، وختم بالعلمِ بالضَّمائرِ التي أَجَلُّها الإيمانُ؛ قال آمِرًا بالإذعانِ له ولرسولِه ﷺ: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ (٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٦٥).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢٦١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٦٦).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢٦٢).

استئنافٌ وقع موقعَ النَّتيجةِ بعدَ الاستدلالِ، فإنَّ أوَّلَ السورةِ قرَّر خضوعَ الكائناتِ إلىٰ اللهِ تعالىٰ، وأنَّه تعالىٰ المتصرِّفُ فيها بالإيجادِ والإعدامِ وغيرِ ذلك، فهو القديرُ عليها، وأنَّه عليمٌ بأحوالِهم، مُطَّلِعٌ علىٰ ما تُضمِرُه ضمائرُهم، وأنَّهم صائرون إليه فمُحاسِبُهم، فلا جَرَمَ تهيَّأ المقامُ لإبلاغِهم التَّذكيرَ بالإيمانِ به إيمانًا لا يَشُوبُه إشراكٌ، والإيمانِ برسولِه ﷺ؛ إذْ قد تَبيَّن صدقُه بالدَّلائلِ الماضيةِ التي دلَّتْ علىٰ صحَّةِ ما أخبرهم به ممَّا كان محلَّ ارتيابِهم وتكذيبِهم[(١)].

لمَّا ذكر أنواعًا من الدَّلائلِ علىٰ التَّوحيدِ والعلمِ والقدرةِ، أَتبَعَها بالتَّكاليفِ، وبدأ بالأمرِ بالإيمانِ باللهِ ورسولِه ﷺ[(٢)].

لمَّا ذكر تعالىٰ تسبيحَ العالمِ له، وما احتوىٰ عليه من المُلْكِ والتَّصرُّفِ، وما وصَف به نفسَه من الصِّفاتِ العلا، وختَمها بالعالِمِ بخَفِيَّاتِ الصُّدورِ؛ أمر تعالىٰ عبادَه المؤمنين بالثَّباتِ علىٰ الإيمانِ، وإدامتِه، والنَّفقةِ في سبيلِ الله تعالىٰ[(٣)].

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾

ولمَّا رغَّب في الإنفاقِ والإيمانِ، وكان الإيمانُ مُقتضًىٰ بالإنفاقِ؛ عجَّب ممَّن لا يُبادِرُ إلىٰ الحاصلِ علىٰ كلِّ خيرٍ، فقال مُفصِّلًا لِما أَجمَلَ من التَّرغيبِ فيهما، بادئًا بأَبيَنِ كلِّ خيرٍ، مُنفِّسًا عنهم بالتعبيرِ بأداةِ الاستقبالِ بالبشارةِ بالعفوِ عن الماضي، مُرهِّبًا مُوبِّخًا لِمَنْ لا يُبادِرُ إلىٰ مضمونِ ما دخل عليه الاستفهامُ، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فما لكم لا تُبادِرون إلىٰ ذلك: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٦٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٤٤٩).

(٣) البحر المحيط (١٠/ ١٠١).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢٦٣).

استئنافٌ مَسُوقٌ لتوبيخِهم على تركِ الإيمانِ حَسَبَما أُمِروا به بإنكارِ أن يكونَ لهم في ذلك عُذْرٌ[١].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾

ولمَّا وصَفه بالرُّبوبيَّةِ، دلَّ عليها بقولِه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢].

استئنافٌ ثالثٌ انتقل به الخطابُ إلى المؤمنين، فهذه الآيةُ يظهرُ أنَّها مبدأُ الآياتِ المدنيَّةِ في هذه السورةِ، ويزيدُ ذلك وضوحًا عطفُ قولِه: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الآياتِ، كما سيأتي قريبًا، والخطابُ هنا وإنْ كان صالحًا لتقريرِ ما أفادته جملةُ ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾، ولكنْ أسلوبُ النَّظمِ وما عُطف على هذه الجملةِ يقتضيانِ أن تكونَ استئنافًا انتقاليًّا هو من حُسْنِ التَّخلُّصِ إلى خطابِ المسلمين، ولا تفوتُه الدَّلالةُ على تقريرِ ما قبلَه؛ لأنَّ التَّقريرَ يحصلُ من انتسابِ المعنيينِ: معنى الجملةِ السَّابقةِ، ومعنى هذه الجملةِ المُواليةِ، فهذه الجملةُ بموقعِها ومعناها وعِلَّتِها وما عُطف عليها أفادت بيانًا وتأكيدًا وتعليلًا وتذييلًا وتَخلُّصًا لغرضٍ جديدٍ، وهي أغراضٌ جَمَعَتْها جمعًا بلغ حدَّ الإعجازِ في الإيجازِ، مع أنَّ كلَّ جملةٍ منها مُستقِلَّةٌ بمعنًى عظيمٍ من الاستدلالِ والتَّذكيرِ والإرشادِ والامتنانِ[٣].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٠٥).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢٦٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٧١).

لمَّا ذكر توطئةَ ما يُوجِبُ الإيمانَ دعاءَ الرسولِ إيَّاهم للإيمانِ، ذكر أنَّه تعالىٰ هو المُنزِلُ علىٰ رسولِه ﷺ ما دعا به إلىٰ الإيمانِ(١).

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) ﴾

ولمَّا أمرهم بالإيمانِ والإنفاقِ، وكان الإيمانُ مع كونِه الأساسَ الذي لا يصحُّ عملٌ بدونِه ليس فيه شيءٌ من خُسْرانٍ أو نُقْصانٍ، فبدأ به لذلك، ورغَّب بختمِ الآيةِ بالإشارةِ بالرَّأفةِ إلىٰ أنَّ مَن تَوصَّل إليه بشيءٍ من الإيمانِ أو غيرِه زادَه من فضلِه «مَن تَقرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقرَّبتُ منه ذِراعًا» إلىٰ قولِه: «ومَن أتاني يمشي أتيتُه هَرْوَلةً»(٢)؛ عطَف عليه التَّرغيبَ في التَّوصُّلِ إليه بالإنفاقِ مُنكِرًا علىٰ مَن تركه، مُوبِّخًا لمن حادَ عنه وهو يعلمُ أنَّه فانٍ، مُفهِمًا بزيادةِ «أن» المصدريَّةِ اللَّومَ علىٰ تركِه في جميعِ الأزمنةِ الثَّلاثةِ، فقال: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٣).

ووجهُ إلحاقِ هذه الآيةِ -وهي مدنيَّةٌ- بالمكِّيِّ من السورةِ: مناسبةُ استيعابِ أحوالِ المُمسِكينَ عن الإنفاقِ من الكفارِ والمؤمنين؛ تعريضًا بالتَّحذيرِ من خصالِ أهلِ الكفرِ، إذ قد سبقَها قولُه: ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾(٤).

---

(١) البحر المحيط (١٠/ ١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢٦٦-٢٦٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٧٢).

لمَّا أمر أوَّلًا بالإيمانِ وبالإنفاقِ، ثم أكَّد في الآيةِ المتقدِّمةِ إيجابَ الإيمانِ؛ أَتبعَه في هذه الآيةِ بتأكيدِ إيجابِ الإنفاقِ(١).

لمَّا كان قد أمرهم بالإيمانِ والإنفاقِ، ثم ترك تأنيبَهم علىٰ تركِ الإيمانِ مع حصولِ مُوجِبِه؛ أنَّبَهم علىٰ تركِ الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ مع قيامِ الدَّاعي لذلك، وهو أنَّهم يموتون فيُخلِّفونه(٢).

ولمَّا كان إنزالُ هذه السورةِ للأمرِ بالإنفاقِ في سبيلِ اللهِ، والتَّرغيبِ فيه، والحثِّ عليه؛ أكثَرَ من ذِكْرِه في ضروبٍ من البيانِ، وفنونٍ من الإحكامِ؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٣).

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

ولمَّا فضَّل السابقين بالإنفاقِ، ووعد بالحسنىٰ اللَّاحقين بحُسْنِ الاتِّباعِ، وأشار إلىٰ أنَّه ربما ألحَقَهم ببعضِهم بصفاءِ الإخلاصِ، فتوفَّرتِ الدَّواعي علىٰ البذلِ؛ أثمر ذلك قولَه مُسمِّيًا الصَّدقةَ التي صُورَتُها صورةُ إخراجٍ من غيرِ عِوَضٍ باسمِ القرضِ الذي هو إخراجٌ بعِوَضٍ؛ ترغيبًا فيها؛ لِما أعدَّ عليها من الجزاءِ المحقَّقِ، فكيف إذا كان مُضاعَفًا: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾(٤).

موقعُ هذه الجملةِ موقعُ التَّعليلِ والبيانِ لجملةِ ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٤٥٢).
(٢) البحر المحيط (١٠/ ١٠٢).
(٣) محاسن التأويل (٩/ ١٤٢).
(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٧٧).
(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٧٧).

نَدْبٌ بليغٌ من اللهِ تعالىٰ إلىٰ الإنفاقِ في سبيلِه، بعدَ الأمرِ به، والتَّوبيخِ علىٰ تركِه، وبيانِ درجاتِ المُنفِقين(١).

ثم رغَّب سبحانه في الصَّدقةِ، فقال: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾(٢).

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن ما لهذا المُقرِضِ، بيَّن بعضَ وصفِه بالكرمِ ببيانِ وقتِه، فقال: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٣).

لمَّا كان معلومًا أنَّ مضاعفةَ الثَّوابِ وإعطاءَ الأجرِ يكونُ في يومِ الجزاءِ، ترجَّح أن يكونَ قولُه: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ منصوبًا بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ تنويهًا بما يحصلُ في ذلك اليومِ من ثوابٍ للمؤمنين والمؤمناتِ، ومن حرمانٍ للمنافقين والمنافقاتِ؛ ولذلك كرَّر «يوم» ليختصَّ كلُّ فريقٍ بذِكرِ ما هو من شؤونِه في ذلك اليومِ، وعلىٰ هذا فالجملةُ مُتَّصِلةٌ بالتي قبلَها بسببِ هذا التَّعلُّقِ، علىٰ أنَّه في نظمِ الكلامِ يصحُّ جعلُه ظرفًا مُتعلِّقًا بـ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ علىٰ طريقةِ التَّخلُّصِ لذِكرِ ما يجري في ذلك اليومِ من الخيراتِ لأهلِها ومن الشَّرِّ لأهلِه، وعلىٰ الوجهِ الأوَّلِ فالجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا لمناسبةِ ذِكْرِ أجرِ المُنفِقين، فعقَّب ببيانِ بعضِ مزايا المؤمنين، وعلىٰ الوجهِ الثَّاني فهي مُتَّصِلةٌ بالتي قبلَها بسببِ التَّعلُّقِ(٤).

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٠٦).

(٢) فتح القدير (٥/ ٢٠٢).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢٧١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٧٩).

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾

ولمَّا عظَّم هذا الأجرَ الكريمَ ببيانِ ما لأهلِه في الوقتِ الكائنِ فيه، عظَّمه بما لأضدادِهم من النَّكالِ، فقال مُبدِلًا من الظَّرفِ الأوَّلِ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[1].

لمَّا شرَح حالَ المؤمنين في موقفِ القيامةِ، أَتبَعَ ذلك بشرحِ حالِ المنافقين[2].

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾

ودَلَّ على ما أَفهَمَه التعبيرُ بالمضارعِ في ﴿يَقُولُ﴾ من التَّكريرِ بقولِه استئنافًا: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[3].

استئنافٌ مبنيٌّ على السُّؤالِ، كأنَّه قيل: فماذا يفعلون بعدَ ضربِ السُّورِ ومشاهدةِ العذابِ؟ فقيل: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٧٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٤٥٦).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢٧٥).

(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٠٨).

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

ولمَّا أقرُّوا لهم بالكونِ الجامعِ، وذكَروا ما حصل به والفرق المانع، فظهر أن لا كـونَ؛ سـبَّبوا عنـه قـولَهم: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾(١).

يجوزُ أن يكونَ هذا الكلامُ من تتِمَّةِ خطابِ المؤمنين للمنافقين استمرارًا في التَّوبيخِ والتَّنديمِ، وهذا ما جرىٰ عليه المفسِّرون، فموقعُ فاءِ التَّفريعِ بين والعلم للمؤمنين بأن لا تُؤخَذَ فِدْيةٌ من المنافقين والذين كفروا حاصلٌ ممَّا يسمعون في ذلك اليومِ من الأقضيةِ الإلهيَّةِ بينَ الخلقِ بحيثُ صار معلومًا لأهلِ المحشرِ، أو هو علمٌ مُتقرِّرٌ في نفوسِهم ممَّا علموه في الدنيا من أخبارِ القرآنِ وكلامِ النبيِّ ﷺ، وذلك مُوجِبٌ عطفَ ﴿ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ تعبيرًا عمَّا علموه بأسرِه، وهو عطفٌ مُعترِضٌ جرَّته المناسبةُ، ويجوزُ أن يكونَ كلامًا صادرًا من جانبِ اللهِ تعالىٰ للمنافقين تأييسًا لهم من الطَّمعِ في نوالِ حظٍّ من نورِ المؤمنين، فيكونُ الفاءُ من عطفِ التَّلقينِ عاطفةً كلامَ أحدٍ علىٰ كلامِ غيرِه لأجلِ اتِّحادِ مكانِ المُخاطَبةِ، ويكونُ عطفُ ﴿ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ جمعًا للفريقينِ في توبيخٍ وتنديمٍ واحدٍ لاتِّحادِهما في الكفرِ(٢).

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا وعظًا شافيًا لسِقامِ القلوبِ، وكاشفًا لغطاءِ الكروبِ؛ أَنتجَ قولَه حاثًّا علىٰ الإقبالِ علىٰ كتابه الذي رَحِمَ به عبادَه بإنزالِه علىٰ لسانِ نبيِّه ﷺ علىٰ وجهٍ مُعلِمٍ بإعجازِه أنَّه كلامٌ مُستعطِفًا لهم إلىٰ جنابِه، زاجرًا لهم عمَّا سأل بعضُهم فيه

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٧٧).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٨٨).

سلمانَ رضي الله عنه من أن يُحدِّثَهم عن التَّوراةِ والإنجيلِ، فكانوا كُلَّما سألوه عن شيءٍ أنزل سبحانه آيةً يزجرُهم بها ويُنبِّهُهم علىٰ أنَّ هذا القرآنَ فيه كلُّ ما يطلبُ، إلىٰ أن أَنزَلَ هذه الآيَةَ زاجرةً هذا الزَّجرَ العظيمَ؛ لئلَّا يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ القرآنَ غيرُ كافٍ، مُخوِّفًا لهم بما وقع لأهلِ الكتابِ من الإعراضِ عن كتابِهم، قال الكلبيُّ: نزلت في المنافقين بعدَ الهجرةِ بسنةٍ. وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: إنَّ اللهَ استبطَأَ قلوبَ المؤمنين علىٰ رأسِ ثلاثَ عشْرةَ سنةً من نزولِ القرآنِ، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[1].

استئنافٌ ناعٍ عليهم تثاقلَهم في أمورِ الدِّينِ، ورخاوةَ عَقْدِهم فيها، واستبطاءً لانتدابِهم لِما نُدبوا إليه بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ[2].

ثم نعىٰ عليهم رخاوةَ عَقْدِهم فيما نُدبوا إليه من التَّصدُّقِ في سبيلِ اللهِ، بأنَّ ذلك من أثرِ قِلَّةِ العنايةِ بالخضوعِ لذِكْرِه وتنزيلِه؛ تعريضًا بالمنافقين، وسَوْقًا للمؤمنين إلىٰ الكمالِ، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[3].

لمَّا ذكَر حالَ المؤمنين والمؤمناتِ والمنافقين والمنافقاتِ في الدَّارِ الآخرةِ، كان ذلك ممَّا يدعو القلوبَ إلىٰ الخشوعِ لربِّها، والاستكانةِ لعَظَمتِه، فعاتَب اللهُ المؤمنين علىٰ عدمِ ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٧٨).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٠٨).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ١٤٧).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٨٤٠).

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾

ولمَّا كان المُوجِبُ الأعظمُ للقسوةِ إنكارَ البعثِ، وكان العربُ يزيدون علىٰ أهلِ الكتابِ من مُوجِباتِ القسوةِ به، وكان عملُ العاملِ بما يدلُّ علىٰ القسوةِ عملَ مَن يُنكِرُه؛ قال مُهدِّدًا به، مُقرِّرًا لِما ابتدأ به السُّورةَ من أمرِ الإحياءِ، مُشِيرًا إلىٰ القدرةِ علىٰ إحياءِ القلوبِ، مُمثِّلًا لإزالةِ القسوةِ عنها بصَقْلِ الذِّكرِ والتِّلاوةِ؛ ترغيبًا في إدامةِ ذلك: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾(1).

الجملةُ بمنزلةِ التَّعليلِ لجملةِ ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، لِما تَتضمَّنُه تلك من التَّحريضِ علىٰ الخشوعِ لذِكْرِ اللهِ، ولكنْ هذه بمنزلةِ العِلَّةِ فصلت ولم تعطفْ، وهذا يقتضي أن تكونَ ممَّا نزل مع قولِه تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾ الآيةَ، والمقصودُ الإرشادُ إلىٰ وسيلةِ الإنابةِ إلىٰ اللهِ، والحثُّ علىٰ تَعهُّدِ النَّفسِ بالموعظةِ، والتَّذكير بالإقبالِ علىٰ القرآنِ وتدبُّره وكلامِ الرسولِ ﷺ وتعليمِه، وأنَّ في اللجأ إلىٰ كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه ﷺ نجاةً، وفي المَفزَعِ إليهما عِصْمةً(2).

تمثيلٌ لإحياءِ القلوبِ القاسيةِ بالذِّكرِ والتِّلاوةِ بإحياءِ الأرضِ الميتةِ بالغيثِ للتَّرغيبِ في الخشوعِ والتَّحذيرِ عن القساوةِ(3).

﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١٨﴾

ولمَّا كانت الصَّدقةُ كالبذرِ الذي تَقدَّم أنَّ اللهَ تعالىٰ يُحيِيه ويُضاعِفُه أضعافًا كثيرةً علىٰ حَسَبِ زكاءِ الأرضِ، قال مُنتِجًا ممَّا مضىٰ ما يعرفُ أنَّ مِن أعظمِ ما دلَّ علىٰ الخشوعِ المحثوثِ عليه والبُعْدِ عن حالِ الذين أُوتُوا الكتابَ في القسوةِ: الصَّدقة

---

(1) نظم الدرر (١٩/ ٢٨٠).
(2) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٩٣-٣٩٤).
(3) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٠٩).

بالإنفاقِ الذي قرَنه في أوَّلِها بالإيمانِ، وحَثَّ عليه في كثيرٍ من آياتِها تنبيهًا على أنَّه ثمرتُه التي لا تخلف عنه، مُعبرًا عنه بما يُرشِدُ إلى أنَّه المصدق لدعواه، وأكَّده لمن يَشُكُّ في البعثِ من إنكارِ بركةِ الصَّدقةِ عاجلًا أو آجلًا تقيُّدًا بالمحسوساتِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[(١)].

ووجهُ مناسبةِ ذِكْرِ الصَّدقةِ بعدَ إحياءِ الأرضِ بعدَ موتِها: ولمَّا كانت الأرضُ حياتُها ونماؤها بالماءِ والمطرِ؛ كذلك المالُ حياتُه ونماؤه بالزَّكاةِ والصَّدقةِ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا بيَّن ﷻ أنَّ الصَّدقةَ كالبذرِ الذي هو من أحسنِ الأرباحِ وأبهجِها، بيَّن الحاملَ عليها ترغيبًا فيها، فقال عاطفًا بالواوِ، إشارةً إلى التَّمكُّنِ في جميعِ هذه الصِّفاتِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[(٢)].

لمَّا ذكر فضلَ المتصدِّقين، وكان مِن المؤمنين مَن لا مالَ له ليتصدَّقَ منه؛ أعقبَ ذِكرَ المتصدِّقين ببيانِ فضلِ المؤمنين مطلقًا، وهو شاملٌ لمن يستطيعُ أن يتصدَّقَ ومَن لا يستطيعُ[(٣)].

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

ولمَّا ذكر سبحانه حالَ الفريقينِ: الأشقياءِ والسُّعداءِ، فتقرَّر بذلك أمرُ الآخرةِ، فعلموا أنَّها الحيوانُ الذي لا انقضاءَ له من إكرامٍ أو هوانٍ، وكان المُوجِبُ للهوانِ

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٨٢-٢٨٣).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢٨٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٩٦).

فيها إنَّما هو الإقبالُ على الدنيا لحضورِها ونسيانُ الآخرةِ لغيابِها؛ قال مُنتجًا ممَّا مضى، مُبيِّنًا لحقيقةِ ما يرغبُ فيه المكلَّفُ المركَّبُ على الشَّهوةِ من العاجلةِ بما نزَّهه فيه، مُصدِّرًا له بما يُوجِبُ غايةَ اليقظةِ والحضورِ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[1].

أَعقَبَ التَّحريضَ على الصَّدقاتِ والإنفاقِ بالإشارةِ إلى دحضِ سببِ الشُّحِّ أنَّه الحرصُ على استبقاءِ المالِ لإنفاقِه في لذائذِ الحياةِ الدنيا، فضرب لهم مَثَلَ الحياةِ الدنيا بحالٍ مُحقَّرةٍ على أنَّها زائلةٌ؛ تحقيرًا لحاصلِها، وتزهيدًا فيها؛ لأنَّ التَّعلُّقَ بها يَعُوقُ عن الفلاحِ، كلُّ ذلك في سياقِ الحثِّ على الإنفاقِ الواجبِ وغيرِه، وأُشِيرَ إلى أنَّها ينبغي أن تُتَّخَذَ الحياةُ وسيلةً للنَّعيمِ الدَّائمِ في الآخرةِ، ووقايةً من العذابِ الشَّديدِ، وما عدا ذلك من أحوالِ الحياةِ فهو متاعٌ قليلٌ؛ ولذلك أَعقَبَ مَثَلَ الحياةِ الدنيا بالإخبارِ عن الآخرةِ بقولِه: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ﴾ إلخ[2].

لمَّا ذكر أحوالَ المؤمنين والكافرين، ذكر بعدَه ما يدلُّ على حقارةِ الدنيا وكمالِ حالِ الآخرةِ[3].

بعدَما بيَّن حالَ الفريقينِ في الآخرةِ، شرح حالَ الحياةِ الدنيا التي اطمأنَّ بها الفريقُ الثَّاني، وأُشِيرَ إلى أنَّها من مُحقَّراتِ الأمورِ التي لا يركنُ إليها العقلاءُ، فضلًا عن الاطمئنانِ بها، وأنَّها مع ذلك سريعةُ الزَّوالِ، وَشِيكةُ الاضمحلالِ[4].

ثم حقَّر تعالى أمرَ الدنيا، وبيَّن حاصلَ أمرِها عندَ أهلِها، بقولِه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٨٦-٢٨٧).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٤٠١).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٤٦٣).
(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢١٠).

ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[١].

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

ولمَّا بيَّن أنَّ الدنيا خيالٌ ومحالٌ؛ ليصرفَ الكَمَلةَ من العبادِ عنها؛ لسُفُولِها وحقارتِها، وأنَّ الآخرةَ بقاءٌ وكمالٌ؛ ليرغبوا غايةَ الرَّغبةِ فيها، وليشتاقوا كلَّ الاشتياقِ لكمالِها وشرفِها وجلالِها؛ أنتجَ ذلك قولَه تعالىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٢].

فَذْلَكةٌ لِما تقدَّم من قولِه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ إلىٰ هنا، فذلك مَسُوقٌ مَساقَ التَّرغيبِ فيما به تحصيلُ نعيمِ الآخرةِ، والتَّحذيرُ من فواتِه وما يصرفُ عنه من إيثارِ زينةِ الدنيا؛ ولذلك فُصلت الجملةُ ولم تُعطَفْ، واقتصَر في الفذلكةِ علىٰ الجانبِ المقصودِ ترغيبُه دونَ التَّعرُّضِ إلىٰ المُحذَّرِ منه؛ لأنَّه المقصودُ. وعُبِّرَ عن العنايةِ والاهتمامِ بفعلِ المسابقةِ؛ لإلهابِ النُّفوسِ بصرفِ العنايةِ بأقصىٰ ما يمكنُ من الفضائلِ كفعلِ مَن يُسابِقُ غيرَه إلىٰ غايةٍ، فهو يحرصُ علىٰ أن يكونَ المُجلِّيَ[٣]، ولأنَّ المسابقةَ كنايةٌ عن المنافسةِ[٤].

لمَّا ذكر تعالىٰ ما في الآخرةِ من المغفرةِ، أمر بالمسابقةِ إليها[٥].

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ١٥١).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢٩١-٢٩٢).

(٣) أي: السابق والمُبرِّز.

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٤٠٧).

(٥) البحر المحيط (١٠/ ١١٠).

ولمَّا حقَّر الحياةَ الحِسِّيَّةَ النَّفسيَّةَ الفانيةَ، وصوَّرَها في صورةِ الخضراءِ السَّريعةِ الانقضاءِ؛ دعاهم إلىٰ الحياةِ الباقيةِ، فقال تعالىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(١).

ثم ندَب عبادَه إلىٰ المسابقةِ إلىٰ ما يُوجِبُ المغفرةَ من التَّوبةِ والعملِ الصَّالحِ، فإنَّ ذلك سببٌ إلىٰ الجنَّةِ، فقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٢).

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا كانت الدنيا مانعةً عن العكوفِ إلىٰ الآخرةِ بلَذَّاتِها وآلائِها، وكانت كما أنَّها منزلُ رخاءٍ هي دارُ بلاءٍ، وكان قد اقتصَر سبحانه في الآيةِ السَّالفةِ علىٰ الأوَّلِ؛ لأنَّ السِّياقَ للإنفاقِ، والتَّرغيبِ في معالي الأخلاقِ، وجعل المسابقةَ إلىٰ السَّعادةِ نتيجةَ الزُّهدِ فيها؛ تَحرَّكتِ النَّفسُ إلىٰ السُّؤالِ عمَّا يَعُوقُ عن الخيرِ من الضَّربِ بسياطِ البلاءِ، فقال مُسلِّيًا عنه؛ لأنَّ النُّفوسَ أشدُّ تأثُّرًا بالمكارهِ، وأسرعُ انفعالًا بالمقارعِ، ومُحقِّقًا ومُغرِيًا بالإعلامِ بأنَّه لم يكنْ فيها خيرٌ ولا شرٌّ إلَّا بقضاءٍ حَتْمٍ في الأَزَلِ، وقَدَرٍ أحكم ووجب حين لم يكنْ غيرَه شيءٌ ﷻ، وذكر فعلَ المؤنَّثِ الجائزِ التَّذكيرِ لكونِ التَّأنيثِ غيرَ حقيقيٍّ؛ إشارةً إلىٰ عِظَمِ وقعِ الشَّرِّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٣).

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ١٥١).

(٢) فتح القدير (٥/ ٢١٠).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢٩٤).

لمَّا جرىٰ ذِكرُ الجهادِ آنفًا بقولِه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾، وقولِه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ علىٰ الوجهينِ المتقدِّمين هنالك، وجرىٰ ذِكرُ الدنيا في قولِه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾، وكان ذلك كلُّه ممَّا تَحدُثُ فيه المصائبُ من قتلٍ وقطعٍ وأَسْرٍ في الجهادِ، ومن كوارثَ تَعرِضُ في الحياةِ من فقدٍ وألمٍ واحتياجٍ، وجرىٰ مَثَلُ الحياةِ الدنيا بالنَّباتِ، وكان ذلك ما يَعرِضُ له القحطُ والجوائحُ؛ أَتبَعَ ذلك بتسليةِ المسلمين علىٰ ما يُصِيبُهم؛ لأنَّ المسلمين كانوا قد تَخلَّقوا بآدابِ الدنيا من قبلُ، فربما لَحِقَهم ضُرٌّ أو رُزْءٌ خارجٌ عن نطاقِ قدرتِهم وكسبِهم، فأُعلِموا أنَّ ذلك ممَّا اقتضاه ارتباطُ أسبابِ الحوادثِ بعضِها ببعضٍ، علىٰ ما سيَّرها عليه نظامُ جميعِ الكائناتِ في هذا العالمِ، كما أشار إليه قولُه تعالىٰ: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ كما ستعلمُه، فلم يَملِكْهم الغمُّ والحزنُ، وانتقلوا عن ذلك إلىٰ الإقبالِ علىٰ ما يَهُمُّهم من الأمورِ، ولم يُلهِمْهم التَّحرُّقَ علىٰ ما فاتَ، ولعلَّ المسلمين قد أصابتهم شِدَّةٌ في إحدىٰ المغازي، أو حبسُ مطرٍ، أو نحوُ ذلك ممَّا كان سببَ نزولِ هذه الآيةِ[(١)].

ثم بيَّن سبحانه أنَّ ما يُصابُ به العبادُ من المصائبِ قد سبق بذلك قضاؤه وقدرُه، وثبت في أُمِّ الكتابِ، فقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٤٠٩).

(٢) فتح القدير (٥/ ٢١١).

﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣ ﴾

ولمَّا بيَّن هذا الأمرَ العظيمَ الدَّالَّ علىٰ ما له سبحانه من الكبرياءِ والعظَمةِ، بيَّن ثمرةَ أعمالِه بقولِه: ﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴾[1].

ثم بيَّن تعالىٰ الحكمةَ في إعلامِنا بذلك الذي فعله من تقديرِ ذلك، وسَبْقِ قضائِه به، فقال: ﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴾[2].

ثم علَّل ذلك بقولِه: ﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٤ ﴾

ولمَّا كان من جملةِ صفاتِ المُختالِ المُكاثِرِ بالمالِ: البخلُ، وكان قد تقدَّم الحثُّ علىٰ الإنفاقِ، وكان ما يُوجِبُه لذَّة الفَخارِ والاختيال التي أَوصَلَ إليها المالُ حاملةً علىٰ البخلِ خوفًا من الإقتارِ المُوجِبِ عندَ أهلِ الدنيا للصَّغارِ؛ قال تعالىٰ واصفًا للمُختالِ أو لكُلٍّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٩٥).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ١١١).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢٩٧-٢٩٨).

يجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ ابتداءَ كلامٍ علىٰ الاستئنافِ؛ لأنَّ الكلامَ الذي قبلَه خُتم بالتَّذييلِ بقولِه ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾، فيكونَ ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ مبتدأً، وخبرُه محذوفًا يدلُّ عليه جوابُ الشَّرطِ وهو ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾، والتقديرُ: فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنهم وحامدٌ للمُنفِقين، ويجوزُ أن يكونَ مُتَّصِلًا بما قبلَه علىٰ طريقةِ التَّخلُّصِ، فيكونَ ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ بدلًا من ﴿كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾، أو خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ هو ضميرُ ﴿كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ تقديرُه: هم الذين يبخلون، وعلىٰ هذا الاحتمالِ الأخيرِ فهو من حذفِ المُسنَدِ إليه اتِّباعًا للاستعمالِ كما سمَّاه السَّكَّاكيُّ، وفيه وجوهٌ أُخَرُ لا نُطوِّلُ بها(١).

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾

ولمَّا ظهرت الأدلَّةُ، حتىٰ لم يَبْقَ لأحدٍ عِلَّةٌ، وانتشَر نورُها حتىٰ ملأ الأكوانَ، وعلا عُلُوًّا تضاءل دونَ عليائِه كَيْوَانُ(٢)، وكان فيما تقدَّم شرحُ مآلِ الدنيا وبيانُ حقيقتِها، وأنَّ الآدميَّ إذا خلي ونفسَه ارتكَب ما لا يليقُ من التَّفاخرِ وما شاكَلَه، وترَك ما يُرادُ به ممَّا دُعي إليه من الخيرِ جهلًا منه وانقيادًا مع طَبْعِه، وكان ختمُ الآيةِ السَّابقةِ ربما أَوهَمَ المشاركةَ؛ قال تعالىٰ نافيًا ذلك في جوابِ مَن توقَّع الإخبارَ عن سائرِ الأنبياءِ: هو أوتوا من البيانِ ما أزال اللَّبسَ، مُؤكِّدًا لإزالةِ العُذْرِ بإقامةِ الحُجَجِ بإرسالِ الرُّسلِ بالمعجزاتِ الحاضرةِ والكتبِ الباقيةِ، مُعلِمًا أنَّ مَن أعرض كُلِّفَ الإقبالَ بالسَّيفِ، فإنَّ الحكيمَ العظيمَ تأبىٰ عَظَمَتُه وحِكْمَتُه أن يُخليَ المُعرِضَ عن بيِّنةٍ تَردُّه عمَّا هو

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٤١٣).

(٢) هو زُحَلُ، الكوكبُ المعروفُ.

فيـه، وقَسْرٍ يكفيـه عمَّـا يُطغِيـه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

استئنافٌ ابتدائيٌّ ناشئٌ عمَّا تقدَّم من التَّحريضِ على الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ، وعن الفتحِ، وعن تذييلِ ذلك بقولِه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾، وهو إعذارٌ للمُتَولِّين من المنافقين ليتداركوا صلاحَهم باتِّباعِ الرسولِ ﷺ والتَّدبُّرِ في هديِ القرآنِ، وإنذارٌ لهم إنْ لم يَرْعَوُوا وينصاعوا إلى الحُجَّةِ السَّاطعةِ بأنَّه يكونُ تقويمُ عِوَجِهم بالسُّيوفِ القاطعةِ[2].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾

ولمَّا عمَّ الرُّسُلَ جامعًا لهم في البيِّناتِ، فكان السَّامعُ جديرًا بأن يتوقَّعَ التَّعيينَ، وخَصَّ مِن بينِهم مِن أُولِي العزمِ أبوينِ جامعينِ في الذُّرِّيَّةِ والرِّسالةِ؛ لأنَّ ذلك أنسبُ لمقصودِ السورةِ لتبيينِ فضلِ محمدٍ ﷺ الذي عمَّ برسالتِه عمومًا لم يكنْ لأحدٍ غيرِه؛ فنوحٌ عليه السلام أُرسِلَ لأهلِ الأرضِ لكونِهم كانوا على لسانٍ واحدٍ، وعمومُ إبراهيمَ عليه السلام بأولادِه عليهم السلام، ونَصَّ بعدَهما على عيسى عليه السلام بما له من عمومِ الرِّسالةِ إلى بني إسرائيلَ بالنَّسخِ والتَّشريعِ، ثم من نزولِه في هذه الأُمَّةِ بالتَّقريرِ والتَّجديدِ، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٩٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٤١٥).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٣٠٣).

معطوفٌ علىٰ جملةِ ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ عطفَ الخاصِّ علىٰ العامِّ لما أُرِيدَ تفصيلٌ لإجمالِه تفصيلًا يُسجِّلُ به انحرافَ المشركين من العربِ، والضَّالِّين من اليهودِ عن مناهجِ أبوَيْهِما نوحٍ وإبراهيمَ(١).

لمَّا ذكر أنَّه أرسل الرُّسلَ بالبيِّناتِ والمعجزاتِ، وأنَّه أنزل الميزانَ والحديدَ، وأمر الخلقَ بأن يقوموا بنُصْرَتِهم؛ أَتبَعَ ذلك ببيانِ سائرِ الأشياءِ التي أَنعَمَ بها عليهم، فبيَّن أنَّه تعالىٰ شرَّف نوحًا وإبراهيمَ عليهما السلام بالرِّسالةِ، ثم جعل في ذُرِّيَّتِهما النُّبُوَّةَ والكتابَ، فما جاء بعدَهما أحدٌ بالنُّبُوَّةِ إلَّا وكان من أولادِهما، وإنَّما قدَّم النُّبُوَّةَ علىٰ الكتابِ لأنَّ كمالَ حالِ النبيِّ أن يصيرَ صاحبَ الكتابِ والشَّرعِ(٢).

لمَّا ذكر تعالىٰ إرسالَ الرُّسلِ جملةً، أَفرَدَ منهم في هذه الآيةِ نوحًا وإبراهيمَ عليهما السلام؛ تشريفًا لهما بالذِّكرِ(٣).

ولمَّا ذكر نُبُوَّةَ الأنبياءِ عمومًا، ذكر مِن خواصِّهم النبيَّينِ الكريمين نوحًا وإبراهيمَ، اللَّذينِ جعل اللهُ النُّبُوَّةَ والكتابَ في ذُرِّيَّتِهما، فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾(٤).

﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٧﴾

ولمَّا كان من مقاصدِ هذه السورةِ العظمىٰ: الإعلامُ بنسخِ الشَّرائعِ كلِّها بشريعةِ هذا النبيِّ الفاتحِ العامِّ الرِّسالةِ لجميعِ الخلائقِ ﷺ، قال مُشيرًا إلىٰ عظمةِ الإرسالِ والرُّسلِ بأداةِ

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٤١٩).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٤٧٢).
(٣) البحر المحيط (١٠/ ١١٤).
(٤) تفسير السعدي (ص: ٨٤٣).

التَّراخي: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[1] .

📖 ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ 📖

ولمَّا قرَّر سبحانه أنَّ الرُّسلَ دعاةٌ للحقِّ إلىٰ سيِّدهم طَوْعًا أو كَرْهًا بالكتابِ والحديدِ، وقرَّر أنَّ السَّعادةَ كلَّها في اتِّباعِهم، وأنَّ البِدَعَ لا تأتي بخيرٍ -وإنْ زيَّن الشَّيطانُ أمرَها، وخيَّل أنَّه خيرٌ-، وأنَّ أصحابَ الذي كان نسَخ شريعةَ مَن قبلَه ابتدَعوا بدعةً حسنةً فوُكِلُوا إليها ففسَق أكثرُهم، فاقتضىٰ ذلك إرسالَ مَن ينسخُ كلَّ شريعةٍ تَقدَّمَتْه نسخًا لا زوالَ له؛ لأنَّه لا نبيَّ بعدَه، ونهىٰ عن البِدَعِ نهيًا لم يَتقدَّمْه أحدٌ إلىٰ مِثْلِه؛ أنتج ذلك قولَه تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

ثم أمر سبحانه المؤمنين بالرُّسلِ المُتقدِّمين بالتَّقوىٰ والإيمانِ بمحمدٍ ﷺ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3] .

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٣٠٤-٣٠٥).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٣٢٣-٣٢٤).

(٣) فتح القدير (٥/ ٢١٤).

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا كان أهلُ الكتابِ قد تابَعوا أَهوِيَتَهم على بُغْضِ الأُمِّيِّينَ، وأُشرِبَتْ قلوبُهم أنَّ النُّبُوَّةَ مُختَصَّةٌ بهم لأنَّهم أولادُ إبراهيمَ عليه السلام من ابنةِ عمِّه، والعربُ وإنْ كانوا أولادَه فإنَّهم من الأَمَةِ[1]، وما دَروا أنَّ كونَهم من أولادِه مُرشِّحٌ لنُبُوَّةِ بعضِهم، وكونَهم من الأَمَةِ مُهيِّئٌ لعمومِ الرِّسالةِ لأجلِ عمومِ النَّسَبِ؛ قال دالًّا على أنَّهم صاروا كالبهائمِ لا يُبصِرون إلَّا المحسوساتِ، مُعلِّقًا الجارَّ بـ﴿ءَامَنُوا﴾ و﴿يُؤْتِكُمْ﴾ وما بعدَه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2].

(١) أي: هاجر عليها السلام.
(٢) نظم الدرر (١٩/ ٣٢٥-٣٢٦).

سورة المجادلة

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ ﴾

ولمَّا أتمَّ تعالىٰ الخبرَ عن إحاطةِ العلمِ، استأنَف الإخبارَ عن حكمِ الأمرِ المُجادَلِ بسببِه، فقال ذامًّا للظِّهارِ، وكاسيًا له ثوبَ العارِ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾[1].

تتنزَّلُ جملةُ ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ وما يُتِمُّ أحكامَها منزلةَ البيانِ لجملةِ ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ الآيةَ؛ لأنَّ فيها مخرجًا ممَّا لَحِقَ بالمُجادِلةِ من ضُرٍّ بظِهارِ زوجِها، وإبطالًا له، ولها أيضًا موقعُ الاستئنافِ البيانيِّ لجملةِ ﴿ قَدْ سَمِعَ ﴾، فإنَّ قولَه: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ ﴾ يُثيرُ سؤالًا في النَّفسِ أن تقولَ: فماذا نشأ عن استجابةِ اللهِ لشكوىٰ المُجادِلةِ؟ فيُجابُ بما فيه المخرجُ لها منه[2].

شروعٌ في بيانِ شأنِ الظِّهارِ في نفسِه، وحُكْمِه المترتِّبِ عليه شرعًا بطريقِ الاستئنافِ[3].

(١) نظم الدرر (١٩/ ٣٤٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢١٦).

ثم بيَّن سبحانه شأنَ الظِّهارِ في نفسِه، وذكَر حكمَه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٣﴾

ولمَّا هجَّن سبحانه الظِّهارَ، وأثبت تحريمَه على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه، وكان ما مَضَتْ عليه العوائدُ لا بدَّ أن يبقى منه بقايا؛ أَتبَعَ ذلك بيانَ حكمِ هذه الواقعةِ وما لعلَّه يقعُ من نظائرِها، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾[2].

عطفٌ على جملةِ ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ أُعِيدَ المبتدأُ فيها للاهتمامِ بالحكمِ والتَّصريحِ بأصحابِه، وكان مقتضى الكلامِ أن يُقالَ: فإنْ يعودوا لِما قالوا فتحريرُ رقبةٍ، فيكونَ عطفًا على جملةِ الخبرِ من قولِه: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾[3].

تفصيلٌ لحكمِ الظِّهارِ بعدَ بيانِ كونِه أمرًا مُنكَرًا بطريقِ التَّشريعِ الكُلِّيِّ المُنتظِمِ لحكمِ الحادثةِ انتظامًا أوَّليًّا[4].

لمَّا ذكر سبحانه الظِّهارَ إجمالًا، ووبَّخ فاعليه؛ شرَع في تفصيلِ أحكامِه[5].

---

(١) فتح القدير (٥/ ٢١٨).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٣٤٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٥).

(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢١٦).

(٥) فتح القدير (٥/ ٢١٨).

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا كانت الكفَّارةُ مُرتَّبةً، وكان المُظاهِرُ كأنَّه قد قتل نفسَه بقتلِ المُظاهَرِ عنها كما مضىٰ، فكان مُفتقِرًا إلىٰ ما يُحيِي نفسَه فشُرِع له العتقُ الذي هو كالإحياءِ؛ شُرِع له عندَ العجزِ عنه ما يُمِيتُ نفسَه التي إماتتُها له إحياؤها، وكان الشَّهرانِ نصفَ المُدَّةِ التي يُنفَخُ فيها الرُّوحُ، فكان صومُها كنصفِ قتلِ النَّفسِ التي قتلها إحياء الرُّوح وإنعاش العقل، فكان كأنَّه إماتتُها، فجعله سبحانه بدلًا عن القتلِ الذي هو كالإحياءِ، فقال: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ ﴾

ولمَّا ذكر حدودَه، ولوَّح بالعطفِ علىٰ غيرِ معطوفٍ عليه إلىٰ بشارةِ حافظِها، وصرَّح بتهديدِ مُتجاوِزِيها؛ أتبع ذلك تفصيلَ عذابِهم الذي منه بشارةُ المؤمنين بالنَّصرِ عليهم، فقال مُؤكِّدًا لأجلِ إنكارِهم لأن يغلبوا علىٰ كثرتِهم وقُوَّتِهم، وضعفِ حزبِه وقِلَّتِهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾(٢).

لمَّا جرىٰ ذِكرُ الكافرين، وجرىٰ ذِكرُ حدودِ اللهِ، وكان في المدينةِ منافقون من المشركين؛ نُقل الكلامُ إلىٰ تهديدِهم، وإيقاظِ المسلمين للاحترازِ منهم(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٣٥٢).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٣٥٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٣).

لمَّا ذكر المؤمنين الواقفين عندَ حدودِه، ذكر المُحادِّين المُخالِفين لها[(١)].

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾

ولمَّا ذكر عذابَهم، ذكر وقتَه على وجهٍ مُقرِّرٍ لِما مضى من شمولِ علمِه وكمالِ قدرتِه، فقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[(٢)].

ثم ذكر تعالى ما به يتكاملُ هذا الوعيدُ[(٣)].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾

ولمَّا كان هذا الإخبارُ عن إحاطةِ علمِه وشمولِ قدرتِه -معَ أنَّه بديهيُّ التَّصوُّرِ- يحتاجُ عندَ مَن جرَّه الهوى إلى الشِّركِ المُقتضِي للنَّقصِ إلى دليلٍ معَه، فقد كان العربُ يُنكِرون أن يسعَ النَّاسَ كلَّهم إلهٌ واحدٌ؛ قال تعالى دالًّا على ذلك بدليلٍ شهوديٍّ ليفيدَ الإنسانَ بما يراه من المحسوساتِ، قاصرًا الخطابَ على أعلى الخلقِ إشارةً إلى أنَّه لا يفهمُ ذلك حقَّ فهمِه غيرُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[(٤)].

---

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٨٨).
(٢) نظم الدرر (١٩/ ٣٥٧).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٤٨٨).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ٣٦٠-٣٦١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ هو تَخلُّصٌ من قولِه تعالىٰ: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ إلىٰ ذِكْرِ علمِ اللهِ بأحوالِ المنافقين وأحلافِهم اليهود، فكان المنافقون يُناجِي بعضُهم بعضًا ليُرِيَ للمسلمين مودَّةَ بعضِ المنافقين لبعضٍ، فإنَّ المنافقين بتَناجِيهم يُظهِرون أنَّهم طائفةٌ أمرُها واحدٌ وكلمتُها واحدةٌ، وهم وإنْ كانوا يُظهِرون الإسلامَ يُحِبُّون أن تكونَ لهم هَيْبةٌ في قلوبِ المسلمين يتَّقون بها بأسَهم إنِ اتَّهموا بعضَهم بالنِّفاقِ، أو بَدَرَتْ من أحدِهم بادرةٌ تنمُّ بنفاقِه، فلا يُقدِم المؤمنون علىٰ أذاه لعلمِهم بأنَّ له بطانةً تدافعُ عنه، وكانوا إذا مَرَّ بهم المسلمون نظروا إليهم فحَسِبَ المارُّون لعلَّ حدثًا حدَث من مصيبةٍ، وكان المسلمون يومئذ علىٰ توقُّعِ حربٍ مع المشركين في كلِّ حينٍ، فيتوهَّمون أنَّ مناجاةَ المُتناجِينَ حديثٌ عن قُرْبِ العدوِّ، أو عن هزيمةٍ للمسلمين في السَّرايا التي يخرجون فيها، فنزلت هذه الآياتُ لإشعارِ المنافقين بعلمِ اللهِ بماذا يَتناجَوْنَ، وأنَّه مُطلِعٌ رسولَه ﷺ علىٰ دخيلتِهم ليكُفُّوا عن الكيدِ للمسلمين[1].

ثم أكَّد سبحانه بيانَ كونِه عالمًا بكُلِّ شيءٍ، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾

ولمَّا كان هذا الدَّليلُ أيضًا تتعذَّرُ الإحاطةُ به، قال دالًّا عليه بأمرٍ جزئيٍّ واقعٍ بعلمِ المحدث عنه حقيقةً، فإنْ عاند بعدَه سقط عنه الكلامُ إلَّا بحدِّ الحسامِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٥).

(٢) فتح القدير (٥/ ٢٢٣).

جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾(١).

إن كانت هذه الآيةُ والآيتانِ اللَّتانِ بعدَها نزلت مع الآيةِ التي قبلَها حَسَبَما يقتضيه ظاهرُ ترتيبِ التِّلاوةِ؛ كان قولُه تعالىٰ: ﴿نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ مُؤذِنًا بأنَّه سبق نهيٌ عن النَّجوىٰ قبلَ نزولِ هذه الآياتِ، وهو ظاهرُ قولِ مجاهدٍ وقتادةَ: نزلت في قومٍ من اليهودِ والمنافقين، نهاهم رسولُ الله ﷺ عن التَّناجي بحضرةِ المؤمنين فلم ينتهوا، فنزلت؛ فتكونُ الآياتُ الأربعُ نزلت لتوبيخِهم، وهو ما اعتَمَدْناه آنفًا، وإن كانت نزلت بعدَ الآيةِ التي قبلَها بفترةٍ؛ كان المرادُ النَّهيَ الذي أشار إليه قولُه تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كما تقدَّم بأن لم ينتهوا عن النَّجوىٰ بعدَ أن سَمِعوا الوعيدَ عليها بقولِه تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، فالمرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ هم الذين عُنُوا بقولِه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآيةَ، فالجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا اقتضاه استمرارُ المنافقين علىٰ نَجْواهم(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾

ولمَّا نهىٰ عن النَّجوىٰ، وذمَّ علىٰ فعلِها وتوعَّدَ عليه، فكان ذلك موضعَ أن يُظَنَّ أنَّ النهيَ عامٌّ لكُلِّ نجوىٰ وإن كانت بالخيرِ؛ استأنف قولَه مُنادِيًا بالأداةِ التي يكونُ ما بعدها له وقعٌ عظيمٌ، مُعبرًا بأولِ أسنانِ الإيمانِ باقتضاءِ الحالِ له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٣٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٨).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٣٧٠-٣٧١).

لمَّا ذمَّ اليهودَ والمنافقين علىٰ التَّناجي بالإثمِ والعدوانِ ومعصيةِ الرسولِ، أَتبعَه بأنْ نهىٰ أصحابَه المؤمنين أن يسلكوا مِثلَ طريقتِهم، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾(١).

ثم نهىٰ تعالىٰ المؤمنين، وحذَّرهم أن يَجترموا في النَّجوىٰ ما اجترَمه أولئك، بقولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾(٢).

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠ ﴾

ولمَّا شدَّد سبحانه في أمرِ النَّجوىٰ، وكان لا يفعلُها إلَّا أهلُ النِّفاقِ، فكان ربما ظنَّ ظانٌّ أنَّه يحدثُ عنها ضررٌ لأهلِ الدِّين؛ قال سارًّا للمُخلِصين، وغامًّا للمنافقين، ومُبيِّنًا أنَّ ضررَها إنَّما يعودُ عليهم: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾(٣).

تسليةٌ للمؤمنين، وتأنيسٌ لنفوسِهم يُزالُ به ما يلحقُهم من الحزنِ لمشاهدةِ نجوىٰ المنافقين لاختلافِ مذاهبِ نفوسِهم إذا رَأَوُا المُتناجِينَ في عديدِ الظُّنونِ والتَّخوُّفاتِ كما تقدَّم، فالجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ اقتضَته مناسبةُ النَّهيِ عن النَّجوىٰ، علىٰ أنَّها قد تكونُ تعليلًا لتأكيدِ النَّهيِ عن النَّجوىٰ(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٤٩٢).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ١٦٩).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٣٧٢-٣٧٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٤).

ثم شجَّع تعالىٰ المؤمنين في قِلَّةِ المبالاة بمناجاةِ أعدائِهم، وأنَّها لا تَضُرُّهم ما داموا مُثابِرينَ علىٰ وصاياه، مُتَّكِلينَ عليه، بقولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(١).

ثم بيَّن سبحانه أنَّ ما يفعلُه اليهودُ والمنافقون من التَّناجي هو من جهةِ الشَّيطانِ، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

ولمَّا ذكر ما يُحزِنُ من السِّرِّ؛ لكونِه اختصاصًا عن الجليسِ بالمقالِ، فينشأُ عنه ظنُّ الكَدَرِ وتَباعُدُ القلوبِ؛ أَتبعَه الاختصاصَ بالمجلسِ الذي هو مباعدةُ الأجسامِ اللازمِ لها من الظَّنِّ ما لزم من الاختصاصِ بالسِّرِّ في الكلامِ، فينشأُ عنه الحزنُ، مُعلِمًا لهم بكمالِ رحمتِه وتمامِ رأفتِه بمراعاةِ حُسْنِ الأدبِ بينَهم، وإنْ كان من أمورِ العادةِ دونَ أحكامِ العبادةِ، فقال مُخاطِبًا لأهلِ الدَّرجةِ الدنيا في الإيمانِ؛ لأنَّهم المُحتاجون لمِثْلِ هذا الأدبِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٣).

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ١٦٩).

(٢) فتح القدير (٥/ ٢٢٤).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٣٧٤-٣٧٥).

فصَل بينَ آياتِ الأحكامِ المتعلِّقةِ بالنَّجوىٰ بهذه الآيةِ مُراعاةً لاتِّحادِ الموضوعِ بينَ مضمونِ هذه الآيةِ ومضمونِ التي بعدَها، في أنَّهما يجمعُهما غرضُ التَّأدُّبِ مع الرسولِ ﷺ تلك المُراعاة أَولىٰ من مراعاةِ اتِّحادِ سياقِ الأحكامِ، ففي هذه الآيةِ أدبٌ في مجلسِ الرسولِ ﷺ، والآيةُ التي بعدَها تتعلَّقُ بالأدبِ في مناجاةِ الرسولِ ﷺ، وأخَّر تلك عن آياتِ النَّجوىٰ العامَّةِ إيذانًا بفضلِها دونَ النَّجوىٰ التي تَضمَّنَتْها الآياتُ السَّابقةُ، فاتِّحادُ الجنسِ في النَّجوىٰ هو مُسوِّغُ الانتقالِ من النَّوعِ الأوَّلِ إلىٰ النَّوعِ الثَّاني، والإيماءُ إلىٰ تَميُّزِها بالفضلِ هو الذي اقتضىٰ الفصلَ بينَ النَّوعينِ بآيةِ أدبِ المجلسِ النَّبويِّ، وأيضًا قد كان للمنافقين نيَّةُ مكرٍ في قضيَّةِ المجلسِ كما كان لهم نيَّةُ مكرٍ في النَّجوىٰ، وهذا ممَّا أنشأ مناسبةَ الانتقالِ من الكلامِ علىٰ النَّجوىٰ إلىٰ ذِكْرِ التَّفسُّحِ في المجلسِ النَّبويِّ الشَّريفِ(١).

لمَّا نهىٰ تعالىٰ المؤمنين عن ما هو سببٌ للتَّباغضِ والتَّنافرِ، أمَرهم بما هو سببٌ للتَّوادِّ والتَّقاربِ(٢).

لمَّا نهىٰ عن التَّناجي والسِّرارِ، عُلم منه الجلوسُ مع الملأِ، فذكر آدابَه، ورتَّب علىٰ امتثالِهم فُسْحةً لهم فيما يريدون التَّفسُّحَ، من المكانِ والرِّزقِ والصَّدرِ(٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾

ولمَّا نهىٰ عمَّا يُحزِنُ من المقالِ والمقامِ، وكان المنهيُّ عنه من التَّناجي إنَّما هو لحفظِ قلبِ الرسولِ ﷺ عمَّا يُكدِّرُه، فهو مُنصرِفٌ إلىٰ مُناجاتِهم غيرَه، وكان ذلك مُفهِمًا أنَّ مُناجاتَهم له ﷺ لا حرجَ فيها، وكان كثيرٌ منهم يُناجِيه ولا قصدَ له إلَّا

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٦).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ١٢٧).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ١٧١).

التَّرفُّعُ بمناجاتِه، فأكثَروا في ذلك حتىٰ شقَّ عليه ﷺ، وكان النَّافعُ للإنسانِ إنَّما هو كلامُ مَن يُلائِمُه في الصِّفاتِ ويُشاكِلُه في الأخلاقِ، وكان رسولُ اللهِ ﷺ أبعدَ النَّاسِ من الدنيا تَقذُّرًا لها لأجلِ بُغْضِ اللهِ لها؛ أمر مَن أرادَ أن يُناجِيَه بالتَّصدُّقِ ليكونَ ذلك أمارةً علىٰ الاجتهادِ في التَّخلُّقِ بأخلاقِه الطَّاهرةِ من الصُّروفِ عن الدنيا والإقبالِ علىٰ اللهِ، ومُظهِرًا له عمَّا سلَف من الإقبالِ عليها؛ فإنَّ الصَّدقةَ برهانٌ علىٰ الصِّدقِ في الإيمانِ، وليُخفِّفَ عنه ﷺ ما كانوا قد أكثَروا عليه من المناجاةِ، فلا يُناجِيه إلَّا مَن قد خلص إيمانُه فيَصَّدَّقُ، فيكونُ ذلك مُقدِّمةً لانتفاعِه بتلك المناجاةِ، كما أنَّ الهديَّةَ تكونُ مُهيِّئةً للقبولِ كما ورَد: «نِعْمَ الهَدِيَّةُ أمامَ الحاجةِ»(١)، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾(٢).

استئنافٌ ابتدائيٌّ عادَ به إلىٰ ذِكْرِ بعضِ أحوالِ النَّجوىٰ، وهو من أحوالِها المحمودةِ. والمناسبةُ هي قولُه تعالىٰ: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾، فهذه الصَّدقةُ شرَعها اللهُ تعالىٰ، وجعل سببَها مُناجاةَ الرسولِ ﷺ، فذُكِرت عَقِبَ آيِ النَّجوىٰ لاستيفاءِ أنواعِ النَّجوىٰ من محمودٍ ومذمومٍ(٣).

﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾

ولمَّا دلَّ ختمُ الآيةِ علىٰ التَّخفيفِ، وكان قد يدَّعِي مُدَّعون عدمَ الوجدانِ كذبًا فيحصلُ لهم حرجٌ، وكان تعالىٰ شديدَ العنايةِ بنجاةِ هذه الأُمَّةِ؛ دلَّ علىٰ لُطْفِه بهم بنَسْخِه بعدَ فرضِه، فقال مُوبِّخًا لمن يَشُحُّ علىٰ المالِ نادبًا إلىٰ الخروجِ عنه من غيرِ

---

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢٩٠٣).
(٢) نظم الدرر (١٩/ ٣٧٩-٣٨٠).
(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٤٢).

إيجـاب: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[١].

نزلت هذه الآيةُ عَقِبَ التي قبلَها، والمشهورُ عندَ جمعٍ من سلفِ المفسِّرين أنَّها نزلت بعدَ عشَرةِ أيَّامٍ من التي قبلَها، وذلك أنَّ بعضَ المسلمين القادرين علىٰ تقديمِ الصَّدقةِ قبلَ النَّجوىٰ شَقَّ عليهم ذلك، فأمسكوا عن مناجاةِ النبيِّ ﷺ، فأسقط اللهُ وجوبَ هذه الصَّدقةِ[٢].

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا أخبر بإحاطةِ علمِه ردعًا لمن يغترُّ بطولِ حِلْمِه، دلَّ علىٰ ذلك باطِّلاعِه علىٰ نفاقِ المنافقين الذي هو أبطنُ الأشياءِ، فقال مُعجِّبًا مُرهِّبًا مُعظِّمًا للمقامِ بتخصيصِ الخطابِ بأعلىٰ الخلقِ ﷺ؛ تنبيهًا علىٰ أنَّه لا يفهمُ ذلك حقَّ فهمِه غيرُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٣].

هذه حالةٌ أخرىٰ من أحوالِ أهلِ النِّفاقِ، هي تولِّيهم اليهودَ مع أنَّهم ليسوا من أهلِ مِلَّتِهم؛ لأنَّ المنافقين من أهلِ الشِّركِ، والجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لأنَّها عَوْدٌ إلىٰ الغرضِ الذي سبقت فيه آياتُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ﴾ بعدَ أن فصَل بمُستطرَداتٍ كثيرةٍ بعدَه[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٣٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٤٦).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٣٨٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ٤٨).

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٥ ﴾

ولمَّا أخبر عن حالِهم، أَتبعَه الإخبارَ عن مآلِهم، فقال دالًّا -كما قال القُشَيريُّ- علىٰ أنَّ مَن وافق مغضوبًا عليه، أشرك نفسَه في استحقاقِ غضبِ مَن هو غضبانُ عليه، فمَن تولَّىٰ مغضوبًا عليه من قِبَلِ اللهِ، استوجَب غضبَ اللهِ، وكفىٰ بذلك هوانًا وحزنًا وحرمانًا، مُعبِّرًا بما دلَّ علىٰ أنَّه أمرٌ قد فُرِغ منه: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[(١)].

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٦ ﴾

ولمَّا دلَّت هذه الجملةُ علىٰ سوءِ أعمالِهم ومداومتِهم عليها، أكَّد ذلك بقولِهِ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[(٢)].

جملةٌ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا عن جملةِ ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤﴾؛ لأنَّ ذلك يُثِيرُ سؤالَ سائلٍ أن يقولَ: ما ألجأهم إلىٰ الحَلِفِ علىٰ الكذبِ؟ فأُجِيبَ بأنَّ ذلك لقضاءِ مآربِهم وزيادةِ مكرِهم، ويجوزُ أن تُجعَلَ الجملةُ خبرًا ثانيًا لـ«إنَّ» في قولِه: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٥﴾، وتكونَ داخلةً في التَّعليلِ[(٣)].

﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١٧ ﴾

ولمَّا كان لهم أموالٌ وأولادٌ يتعزَّزون بها، قال مُستأنِفًا دالًّا علىٰ أنَّ مَن استتَر بجُنَّةٍ دونَ طاعتِه لتسلمَ دنياه وراءَه، تكشَّفَ لسهامِ التقديرِ من حيثُ لا يشعرُ، ثم لا دينُه

(١) نظم الدرر (١٩/ ٣٨٧).
(٢) نظم الدرر (١٩/ ٣٨٨).
(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٤٩).

يبقىٰ ولا دنياه تسلمُ: ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[(١)].

مناسبٌ لقولِه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾، فكما لم تَقِهِمْ أيمانُهم العذابَ، لم تُغْنِ عنهم أموالُهم ولا أنصارُهم شيئًا يومَ القيامةِ[(٢)].

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

ولمَّا كان إفسادُهم لذاتِ البَيْنِ سرًّا، وحَلِفُهم علىٰ نفيِ ذلك جهرًا، مع الإلزامِ بقبولِ ما ظهر من ذلك منهم مع علمِه ﷻ بأنَّه كذبٌ؛ غائظًا مُوجِعًا، وكان ربما تَوهَّم مُتوهِّمٌ أنَّه تعالىٰ -كما ألزم بقبولِنا لِما ظهر منهم في دارِ العملِ- يأمرُ بقبولِهم في دارِ الجزاءِ؛ قال نافيًا لذلك، مُعزِّيًا للمؤمنين بأنَّهم يفعلون ذلك معَه سبحانه بعدَ كشفِ الغطاءِ وتحقيقِ الأمورِ؛ لأنَّ الإنسانَ يُبعَثُ علىٰ ما مات عليه؛ لأنَّ ذلك جِبِلَّتُه التي لا ينفكُّ عنها، ولا ينفعُهم ذلك، ذاكرًا ظرفَ الخلودِ وإظهارَ التَّعذيبِ: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾[(٣)].

هذا مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾[(٤)].

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا الانهماكُ فيما لا يُغنِي ممَّا يحصلُ لسامعِه غايةُ العَجَبِ من وقوعِ عاقلٍ فيه مرَّةً من الدَّهرِ، فضلًا عن ملازمتِه؛ أخبر عن الحاملِ لهم عليه،

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٣٨٩-٣٩٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٥٠).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٣٩٠-٣٩١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ٥٢).

فقال مُستأنِفًا: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[(١)].

استئنافٌ بيانيٌّ لأنَّ ما سِيقَ من وصفِهم بانحصارِ صفةِ الكذبِ فيهم يُثيرُ سؤالَ السَّامعِ أن يطلبَ السَّببَ الذي بلغ بهم إلىٰ هذه الحالِ الفظيعِ، فيُجابُ بأنَّه استحواذُ الشَّيطانِ عليهم، وامتلاكُه زمامَ أنفسِهم يُصرِّفُها كيف يريدُ، وهل يرضىٰ الشَّيطانُ إلَّا بأشدِّ الفسادِ والغوايةِ؟[(٢)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠﴾

ولمَّا بيَّن ما أَوصَلَهم إليه نسيانُ الذِّكرِ من الخسارِ، بيَّن أنَّه أَوقعَهم في العداوةِ، فقال مُعلِّلًا الخسارَ والنِّسيانَ والتَّحزُّبَ، وأكَّد تكذيبًا لحالفِهم علىٰ نفي ذلك، مُظهِرًا موضعَ الإضمارِ للتنبيهِ علىٰ الوصفِ المُوقِعِ في الهلاكِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾[(٣)].

موقعُ هذه الآيةِ بعدَ ما ذُكر من أحوالِ المنافقين يُشبِهُ موقعَ آيةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، فالذين يُحادُّون اللهَ ورسولَه المتقدِّمُ ذِكرُهم المشركون المُعلِنون بالمُحادَّةِ، وأمَّا المُحادُّون المذكورون في هذه الآيةِ فهم المُسِرُّون للمُحادَّةِ المُتظاهِرون بالموالاةِ، وهم المنافقون، فالجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ بيَّنَتْ شيئًا من الخسرانِ الذي قضىٰ به علىٰ حزبِ الشَّيطانِ الذين هم في مُقدِّمتِه، وبهذا تكتسبُ هذه الجملةُ معنىٰ بدلِ البعضِ من مضمونِ جملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ

(١) نظم الدرر (١٩/ ٣٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٥٠).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٣٩٤).

هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾؛ لأنَّ الخسرانَ يكونُ في الدنيا والآخرةِ، وخسرانُ الدنيا أنواعٌ؛ أشدُّها على النَّاسِ المَذَلَّةُ والهزيمةُ[١].

استئنافٌ مَسُوقٌ لتعليلِ ما قبلَه من خسرانِ حزبِ الشَّيطانِ[٢].

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾

ولمَّا أنزلهم بالحضيضِ الأسفلِ، علَّل ذلك بما يدلُّ على أنَّه سبحانه لا شريكَ له بإتمامِ كلماتِه بنصرِ أوليائِه على ضعفِهم، وخذلانِ أعدائِه على قُوَّتِهم؛ لأنَّه سبحانه غيبٌ محضٌ لا دلالةَ عليه إلَّا بأفعالِه، فقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[٣].

جملةُ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ علَّةٌ لجملةِ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾؛ أي: لأنَّ اللهَ أراد أن يكونَ رسولُه ﷺ غالبًا لأعدائِه، وذلك من آثارِ قدرةِ اللهِ التي لا يغلبُها شيءٌ، وقد كتب لجميعِ رسلِه الغَلَبةَ على أعدائِهم، فغَلَبَتُهم من غَلَبةِ اللهِ، إذ قدرةُ اللهِ تتعلَّقُ بالأشياءِ على وَفْقِ إرادةِ اللهِ لا يُغيِّرُها شيءٌ، والإرادةُ تجري على وَفْقِ العلمِ، ومجموعُ تواردِ العلمِ والإرادةِ والقدرةِ على الموجودِ هو المسمَّى بالقضاءِ[٤].

فلمَّا كانت عِزَّةُ اللهِ غيرَ مُتناهِيةٍ، كانت ذِلَّةُ مَن يُنازِعُه غيرَ مُتناهِيةٍ أيضًا، ولمَّا شرح ذُلَّهم، بيَّن عِزَّ المؤمنين، فقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[٥].

استئنافٌ واردٌ لتعليلِ كونِهم في الأذلِّين[٦].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٥٦).
(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢١٩).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ٣٩٥).
(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ٥٧).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٤٩٨).
(٦) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٢٣).

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

لمَّا ظهر بهذا كالشَّمسِ أنَّ مَن والاه سبحانه كان فائزًا، ومَن عاداه كان خاسرًا؛ كانت نتيجتُه قطعًا التَّحذيرَ من موالاةِ أعداءِ اللهِ في سياقِ النَّفي المفيدِ للمبالغةِ في النَّهي عنه والزَّجرِ عن قُرْبانِه، فقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٣٩٦).

سورة الحشر

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢ ﴾

ولمَّا نزَّه نفسَه الأقدسَ؛ دَلَّ على ذلك التَّنزُّهِ وعلى العِزَّةِ والحكمةِ بدليلٍ شهوديٍّ من أنَّه أَنفَذَ ما كتب من أنَّه يغلبُ هو ورسلُه، ومن أنَّه كبَت الذين حادُّوْه وخيَّب ظنَّ الذين نافَقوا فتوَلَّوُا اليهودَ من أهلِ الكتابِ ليعتزُّوا بهم، فأَذَلَّ اليهودَ وطردَهم من مَهبِطِ الوحيِ، وأخزى المنافقين الذين جعلوهم محطَّ اعتمادِهم وموضعَ ولايتِهم ووِدادِهم، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾(١).

يجوزُ أن تُجعَلَ جملةُ ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ... ﴾ إلى آخرِها استئنافًا ابتدائيًّا لقصدِ إجراءِ هذا التَّمجيدِ على اسمِ الجلالةِ؛ لِما يتضمَّنُه من باهرِ تقديرِه، ولِما يُؤذِنُ به ذلك من التَّعريضِ بوجوبِ شُكْرِه على ذلك الإخراجِ العجيبِ، ويجوزُ أن تُجعَلَ عِلَّةً لِما تَضمَّنَه الخبرُ عن تسبيحِ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ من التَّذكيرِ

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٤٠٦).

للمؤمنين والتَّعريضِ بأهلِ الكتابِ والمنافقين الذين هم فريقانِ ممَّا في الأرضِ؛ فإنَّ القِصَّةَ التي تَضمَّنَتْها فاتحةُ السورةِ من أهمِّ أحوالِهما، ويجوزُ أن تُجعَلَ مُبيِّنةً لجملةِ «وهو العزيزُ الحكيمُ»؛ لأنَّ هذا التَّسخيرَ العظيمَ من آثارِ عِزِّه وحكمتِه، وعلىٰ كلِّ الوجوهِ فهو تذكيرٌ بنعمةِ اللهِ علىٰ المسلمين، وإيماءٌ إلىٰ أن يشكروا اللهَ علىٰ ذلك، وتمهيدٌ للمقصودِ من السورةِ؛ وهو قسمةُ أموالِ بني النَّضيرِ[(١)].

بيانٌ لبعضِ آثارِ عِزَّتِه تعالىٰ وإحكامِ حكمتِه، إثرَ وصفِه تعالىٰ بالعِزَّةِ القاهرةِ والحكمةِ الباهرةِ علىٰ الإطلاقِ[(٢)].

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ﴾

ولمَّا دلَّ هذا علىٰ غايةِ الوَهَنِ منهم، فكان موضعَ التَّعجُّبِ من الكفِّ عن قتلِهم؛ بيَّن أنَّ السَّببَ في ذلك أمرُه الباهرُ وعِزُّه القاهرُ؛ حثًّا علىٰ ما ختم به الآيةَ السَّابقةَ من الاعتبارِ، والتَّدبُّرِ والاستبصارِ، فقال: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾[(٣)].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا أخبر بما نالَهم في الدنيا وينالُهم في الآخرةِ، علَّلَه بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٦٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٢٥).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٤١٢).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٤١٣-٤١٤).

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ ﴾

ولمَّا دلَّ سبحانه علىٰ عِزَّتِه وحكمتِه بما فعل ببني النَّضيرِ الذين يقولون: إنَّهم أشجعُ النَّاسِ وأشدُّهم شكيمةً بما لهم من الأصالةِ والاصطفاءِ علىٰ العالمين، مع التَّأييدِ بالكتابِ والحكمةِ، وختم بأنَّ مَن شاقَّ رسولَه فقد شاقَّه، ومَن شاقَّه فقد شدَّد عقابَه؛ أَتبَعَه بيانَ ما عاقَبهم به من قطعِ الصَّحابةِ ﷺ بأمرِ النبيِّ ﷺ لنخلِهم الذي هو أعزُّ عليهم من أبكارِهم، وهم ينظرون إليه لا يُغْنُونَ شيئًا، ولا مَنَعةَ لديهم، فقال: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[١].

استئنافٌ ابتدائيٌّ أفضىٰ به إلىٰ المقصدِ عن السورةِ عن أحكامِ أموالِ بني النَّضيرِ، وإشارةُ الآيةِ إلىٰ ما حدَث في حصارِ بني النَّضيرِ، وذلك أنَّهم قبلَ أن يستسلموا اعتصَموا بحصونِهم، فحاصَرهم المسلمون، وكانت حوائطُهم خارجَ قريتِهم، وكانت الحوائطُ تُسمَّىٰ البُوَيْرةَ، فعمد بعضُ المسلمين إلىٰ قطعِ بعضِ نخيلِ النَّضيرِ، قيل: بأمرٍ من النبيءِ ﷺ، وقيل: بدونِ أمرِه، ولكنَّه لم يُغيِّرْه عليهم. فقيل: كان ذلك ليُوسِعوا مكانًا لمعسكرِهم، وقيل: لتخويفِ بني النَّضيرِ ونكايتِهم، وأمسك بعضُ الجيشِ عن قطعِ النَّخيلِ وقالوا: لا تقطعوا ممَّا أفاءَ اللهُ علينا، وقد ذُكر أنَّ النَّخلاتِ التي قُطعت سِتُّ نخلاتٍ أو نخلتانِ، فقالت اليهودُ: يا محمدُ، ألستَ تزعمُ أنَّك نبيٌّ تريدُ الصَّلاحَ؟ أفمِن الصَّلاحِ قطعُ النَّخلِ وحرقُ الشَّجرِ؟ وهل وجدتَ فيما أُنزِلَ عليك إباحةَ الفسادِ في الأرضِ؟! فأنزل اللهُ هذه الآيةَ[٢].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٤١٥-٤١٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٧٥).

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾

ولمَّا كانت الغنائمُ التي تُقسَمُ بينَ الجيشِ إنَّما هي ما قاتَلوا عليه، وأمَّا ما أتىٰ منها بغيرِ قتالٍ فهو فَيْءٌ يأخذُه الإمامُ فيقسمُه خمسةَ أخماسٍ، ثم يقسمُ خُمُسًا منها خمسةَ أقسامٍ؛ أحدُها -وهو كان للنَّبيِّ ﷺ- يكونُ بعدَه لمصالحِ المسلمين، والأقسامُ الأربعةُ الأخرىٰ من هذا الخُمُسِ لِمَنْ ذُكر في الآيةِ بعدَها، والأربعةُ الأخماسِ الكائنةُ من أصلِ القسمةِ -وهي التي كانت لرسولِ اللهِ ﷺ؛ لأنَّها حصلت بكفايتِه وإرعابِه للعدوِّ- تُفرَّقُ بينَ المُرتزَقةِ من جميعِ النَّواحي، فكانت الأموالُ كلُّها للهِ إنعامًا علىٰ مَن يعبدُه بما شرَعه علىٰ ألسنةِ رسلِه عليهم الصلاة والسلام؛ كانت أموالُ الكفارِ في أيديهم غصبًا غصَبوه من أوليائِه، فخَصَّ سبحانه رسولَ اللهِ ﷺ بأموالِ بني النَّضيرِ يضعُها حيثُ يشاءُ لأنَّها فَيْءٌ، فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾(١).

يجوزُ أن يكونَ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ الآيةَ، فتكونَ امتنانًا وتكملةً لمصارفِ أموالِ بني النَّضيرِ، ويجوزُ أن تكونَ عطفًا علىٰ مجموعِ ما تقدَّم عطفَ القصَّةِ علىٰ القصَّةِ، والغرضِ علىٰ الغرضِ؛ للانتقالِ إلىٰ التَّعريفِ بمصيرِ أموالِ بني النَّضيرِ؛ لئلَّا يختلفَ رجالُ المسلمين في قسمتِه، ولبيانِ أنَّ ما فعله الرسولُ ﷺ في قسمةِ أموالِ بني النَّضيرِ هو عدلٌ، إن كانت الآيةُ نزلت بعدَ القسمةِ، وماصَدَقُ ﴿مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ هو ما تركوه من الأرضِ والنَّخلِ والنَّقضِ والحطبِ(٢).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٤١٩-٤٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٧٨).

شروعٌ في بيانِ حالِ ما أُخذ من أموالِهم بعدَ بيانِ ما حَلَّ بأنفسِهم من العذابِ العاجلِ والآجلِ، وما فُعل بديارِهم ونخيلِهم من التَّخريبِ والقطعِ(١).

ثم ذكر مَن انتقلت إليه أموالُهم وأمتعتُهم، فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾(٢).

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾

ولمَّا نزع سبحانه أموالَهم من أيدي الجيشِ، بيَّن مَصرِفَ غيرِها ممَّا كان مِثلَها بأن فُتح له ﷺ بغيرِ قتالٍ، فقال مُستأنِفًا جوابًا لمن كأنَّه قال: هل يعمُّ هذا الحكمُ كلَّ فَيْءٍ يكونُ بعدَ بني النَّضيرِ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾(٣).

جمهورُ العلماءِ جعلوا هذه الآيةَ ابتداءَ كلامٍ؛ أي: علىٰ الاستئنافِ الابتدائيِّ، وأنَّها قُصد منها حكمٌ غيرَ الحكمِ الذي تَضمَّنَتْه الآيةُ التي قبلَها، ومن هؤلاء مالكٌ، وهو قولُ الحنفيَّةِ، فجعلوا مضمونَ الآيةِ التي قبلَها أموالَ بني النَّضيرِ خاصَّةً، وجعلوا الآيةَ الثَّانيةَ هذه إخبارًا عن حكمِ الأفياءِ التي حصَلتْ عندَ فتحِ قرىٰ أخرىٰ بعدَ غزوةِ بني النَّضيرِ؛ مِثلَ قُرَيظةَ سنةَ خمسٍ، وفَدَكَ سنةَ سبعٍ، ونحوِهما، فعَيَّنَتْه هذه الآيةُ للأصنافِ المذكورةِ فيها، ولا حقَّ في ذلك لأهلِ الجيشِ أيضًا، وهذا الذي يجري علىٰ وِفاقِ كلامِ عمرَ بنِ الخطَّابِ في قضائِه بينَ العبَّاسِ وعليٍّ فيما بأيديهما من

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٢٧).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٨٥٠).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٤٢٧).

أموالِ بني النَّضيرِ علىٰ احتمالٍ فيه، وهو الذي يقتضيه تغييرُ أسلوبِ التعبيرِ بقولِه هنا: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ بعدَ أن قال في التي قبلَها: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾، فإنَّ ضميرَ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ راجعٌ لـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهم بنو النَّضيرِ لا محالةَ، وعلىٰ هذا القولِ يجوزُ أن تكونَ هذه الآيةِ نزلت عَقِبَ الآيةِ الأولىٰ، ويجوزُ أن تكونَ نزلت بعدَ مُدَةٍ؛ فإنَّ فتحَ القرىٰ وقع بعدَ فتحِ النَّضيرِ بنحوِ سنتينِ، ومن العلماءِ مَن جعل هذه الآيةَ كلمةً وبيانًا للآيةِ التي قبلَها؛ أي: بيانًا للإجماعِ الواقعِ في قولِه تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٍ﴾ الآيةَ؛ لأنَّ الآيةَ التي قبلَها اقتصَرتْ علىٰ الإعلامِ بأنَّ أهلَ الجيشِ لا حقَّ لهم فيه، ولم تُبيِّنْ مُستحِقَّه، وأشعر قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أنَّه مالُ للهِ تعالىٰ يضعُه حيثُ يشاءُ علىٰ يدِ رسولِه ﷺ، فقد بيَّن اللهُ له مُستحِقِّيه من غيرِ أهلِ الجيشِ، فموقعُ هذه الآيةِ من التي قبلَها موقعُ عطفِ البيانِ؛ ولذلك فُصلت، وممَّن قال بهذا: الشَّافعيُّ، وعليه جرىٰ تفسيرُ صاحبِ «الكشَّافِ»، ومقتضىٰ هذا أن تكونَ أموالُ بني النَّضيرِ ممَّا يُخمَّسُ، ولم يَرْوِ أحدٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خمَّسها، بل ثبت ضِدُّه، وعلىٰ هذا يكونُ حكمُ أموالِ بني النَّضيرِ حكمًا خاصًّا، أو تكونُ هذه الآيةُ ناسخةً للآيةِ التي قبلَها إن كانت نزلت بعدَها بمُدَّةٍ(١).

بيانٌ لمصارفِ الفَيْءِ بعدَ بيانِ إفاءتِه عليه الصلاة والسلام من غيرِ أن يكونَ للمُقاتِلةِ فيه حقٌّ، وإعادةُ عينِ العبارةِ الأولىٰ لزيادةِ التَّقريرِ، ووضعُ أهلِ القرىٰ موضعَ ضميرِهم للإشعارِ بشمولِ ما لعقاراتِهم أيضًا(٢).

هذا بيانٌ لمصارفِ الفَيْءِ بعدَ بيانِ أنَّه لرسولِ اللهِ ﷺ خاصَّةً، والتَّكريرُ لقصدِ التَّقريرِ والتَّأكيدِ(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٨١).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٢٧).

(٣) فتح القدير (٥/ ٢٣٥).

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾

ولمَّا نزع سبحانه أموالَ الفيءِ وما كانت عليه في الجاهليَّةِ، وبيَّن مَصرِفَ الفيءِ من القرىٰ، وتَهدَّد في المخالفةِ في ذلك لصعوبتِه على النُّفوسِ، فكان ذلك جديرًا بالتَّقبُّلِ بعدَ أن أَفهَمَ أنَّ أموالَ بني النَّضيرِ لمن سلَّطه عليهم -وهو رسولُه ﷺ-، وكان من المعلومِ مِن حالِه ﷺ الإيثارُ على نفسِه، والقناعةُ بما دونَ الكفافِ؛ بيَّن المصرفَ فيها بعدَ كفايتِه ﷺ؛ لأنَّ بيانَ ذلك هو المقصودُ الأعظمُ لكونِه حاصلًا حاضرًا، المُوطَّأ له بأموالِ أهلِ القرىٰ، فقال مُبدِلًا من ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ وما عُطف عليهما؛ لأنَّ مَن أعطىٰ المهاجرين لهجرتِهم وتَجرُّدِهم من أموالِهم وديارِهم، فإنَّما أعطاهم لوجهِ اللهِ ووجهِ رسولِه ﷺ، ولا يكونُ بدلًا من ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ لئلَّا يختصَّ بفقيرِهم، أو يكون جوابًا لمن كأنَّه قال: قد سمعنا وأطعنا فلمن يكونُ ما سلَّط اللهُ ورسولُه ﷺ من أموالِهم؟ فقيل له: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[(١)].

بدلٌ ممَّا يصلحُ أن يكونَ بدلًا منه، من أسماءِ الأصنافِ المتقدِّمةِ التي دخلت عليها اللَّامُ مباشرةً وعطفًا قوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ بدلَ بعضٍ من كُلٍّ، وأوَّلُ فائدةٍ في هذا البدلِ التنبيهُ على أنَّ ما أفاء اللهُ على المسلمين من أهلِ القرىٰ المعنيَّة في الآيةِ لا يجري قَسْمُه على ما جرىٰ عليه قَسْمُ أموالِ بني النَّضيرِ التي اقتصر في قَسْمِها على المهاجرين وثلاثةٍ من الأنصارِ ورابعٍ منهم، فكأنَّه قيل: ولذي القُربَىٰ واليتامىٰ والمساكينِ وابنِ السَّبيلِ، للفقراءِ منهم لا مطلقًا، يدخلُ في ذلك المهاجرون والأنصارُ والذين آمنوا بعدَهم[(٢)].

(١) نظم الدرر (١٩/ ٤٣٤-٤٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٨٧).

اعلَمْ أنَّ هذا بدلٌ من قولِه: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، كأنَّه قيل: أعني بأولئك الأربعةِ هؤلاء الفقراءَ والمهاجرين الذين مِن صِفَتِهم كذا وكذا[١].

ثم بيَّن تعالىٰ -من أصنافِ مَن تقدَّم- الأحقَّ بالعنايةِ والرِّعايةِ، بقولِه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾[٢].

ثم ذكَر تعالىٰ الحكمةَ والسَّببَ المُوجِبَ لجعلِه تعالىٰ الأموالَ أموالَ الفَيْءِ لمن قدَّرها له، وأنَّهم حقيقون بالإعانةِ، مُستحِقُّون لأن تُجعَلَ لهم[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾

ولمَّا مدح المهاجرين وأعطاهم، فطابت نفوسُ الأنصارِ بذلك، وكانوا في كلِّ حالٍ معَه ﷺ كالميِّتِ بينَ يدي الغاسلِ، مهما شاء فعل، ومهما أراد منهم صار إليه ووصل؛ أَتبَعَه مدحَهم جبرًا لهم وشكرًا لصنيعِهم، فقال عاطفًا علىٰ مجموعِ القصَّةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٤].

كلامٌ مُستأنَفٌ مَسُوقٌ لمدحِ الأنصارِ بخصالٍ حميدةٍ، من جملتِها: محبَّتُهم للمهاجرين، ورِضاهم باختصاصِ الفيءِ بهم أحسنَ رِضًا وأكملَه[٥].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٥٠٧).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ١٨٦).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٥١).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٤٣٧).

(٥) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٢٨-٢٢٩).

ثم أشار إلىٰ أنَّ إيثارَ هؤلاء بالعطاءِ ممَّا تَطِيبُ به نفوسُ إخوانِهم الأنصارِ لحرصِهم ﭫ علىٰ الإيثارِ دونَ الاستئثارِ، بقولِه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

ثم لمَّا فرَغ من مدحِ المهاجرين، مدَح الأنصارَ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

ولمَّا أثنىٰ اللهُ ﷻ علىٰ المهاجرين والأنصارِ ﭫ بما هم أهلُه، عقَّب التابعين لهم بإحسانٍ ما يُوجِبُ لهم الثَّناءَ، فقال عاطفًا علىٰ المهاجرين فيقتضي التَّشريكَ معَهم، أو علىٰ أصلِ القصَّةِ من عطفِ الجملِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

عطفٌ علىٰ ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ﴾ علىٰ التَّفسيرينِ المتقدِّمينِ؛ فأمَّا علىٰ رأيِ مَن جعلوا ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ﴾ معطوفًا علىٰ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ جعلوا ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ فريقًا من أهلِ القرىٰ، وهو غيرُ المهاجرين والأنصارِ، بل هو مَن جاء إلىٰ الإسلامِ بعدَ المهاجرين والأنصارِ، فضميرُ ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ عائدٌ إلىٰ مجموعِ الفريقينِ(٤).

(١) محاسن التأويل (٩/ ١٨٧).
(٢) فتح القدير (٥/ ٢٣٩).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ٤٤٣).
(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ٩٦).

اعلَمْ أنَّ قولَه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ عطفٌ أيضًا على المهاجرين، وهم الذين هاجَروا مِن بعدُ، وقيل: التَّابعون بإحسانٍ، وهم الذين يجيئون بعدَ المهاجرين والأنصارِ إلى يومِ القيامةِ[(١)].

ثم لمَّا فرَغ سبحانه من الثَّناءِ على المهاجرين والأنصارِ، ذكر ما ينبغي أن يقولَه مَن جاء بعدَهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[(٢)].

﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١١﴾

ولمَّا دلَّ على أنَّ هذا الثَّناءَ للصَّادقين في الإيمانِ بإقامةِ السُّنَّةِ بالهجرةِ والإيثارِ والاجتهادِ في الدعاءِ لمن تبين الإيمان فسهل به طريق الأمان، فأخرج ذلك المنافقين، وأفهم أنَّهم لا يفعلون ذلك لأنَّهم لا رسوخَ لهم في الإيمانِ الحاملِ على ذلك؛ دلَّ على نفاقِهم المُوجِبِ لكذبِهم بقولِه مُتمِّمًا للقصَّةِ، مُخاطِبًا لأعلى الخلقِ إشارةً إلى أنَّه لا يُطلِعُ على نفاقِهم -لِما لهم فيه من دِقَّةِ المكرِ- حقَّ الإطلاعِ غيرَه ﷺ، مُعجِّبًا من حالِهم في عدمِ رسوخِهم، مع ما يَرَوْنَ من المعجزاتِ والآياتِ البيِّناتِ، ويَرَوْنَ من حالِ المؤمنين من إسباغِ الرَّحمةِ عليهم بتسهيلِ الأمورِ والنُّصرةِ على الجبابرةِ والإعراضِ عن الدنيا، مع الإقبالِ على الآخرةِ، والاجتهادِ في الدِّينِ الذي هو وحدَه داعٍ إلى الإيمانِ، ومُرقِّقٌ للقلوبِ، ومُبيِّنٌ للحقائقِ غايةَ البيانِ:

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٥٠٩).
(٢) فتح القدير (٥/ ٢٤٠).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[١].

أَعقَبَ ذِكرَ ما حَلَّ ببني النَّضيرِ، وما اتَّصَلَ به من بيانِ أسبابِه، ثم بيانِ مصارفِ فَيْئِهم وفَيْءِ ما يُفتَحُ من القرىٰ بعدَ ذلك، بذِكرِ أحوالِ المنافقين مع بني النَّضيرِ وتغريرِهم بالوعودِ الكاذبةِ؛ ليعلمَ المسلمون أنَّ النِّفاقَ سَجِيَّةٌ في أولئك، لا يَتَخَلَّوْنَ عنه ولو في جانبِ قومٍ هم الذين يَوَدُّون أن يظهروا علىٰ المسلمين، والجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ من حالِ المنافقين، فبُني علىٰ نفيِ العلمِ بحالِهم كنايةً عن التَّحريضِ علىٰ إيقاعِ هذا العلمِ كأنَّه يقولُ: تأمَّلِ الذين نافَقوا في حالِ مقالتِهم لإخوانِهم، ولا تتركِ النَّظرَ في ذلك؛ فإنَّه حالٌ عجيبٌ[٢].

حكايةٌ لِما جرىٰ بينَ الكَفَرةِ والمنافقين من الأقوالِ الكاذبةِ والأحوالِ الفاسدةِ، وتعجيبٌ منها، بعدَ حكايةِ محاسنِ أحوالِ المؤمنين وأقوالِهم علىٰ اختلافِ طبقاتِهم[٣].

لمَّا فرَغ سبحانه من ذِكرِ الطَّبقاتِ الثَّلاثِ من المؤمنين، ذكَر ما جرىٰ بينَ المنافقين واليهودِ من المُقاوَلةِ لتعجيبِ المؤمنين من حالِهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٤٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٩٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٣٠).

(٤) فتح القدير (٥/ ٢٤٢).

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾

ولمَّا كان الكذبُ في قولِهم هذا كونُه إخبارًا بما لا يكونُ، شرَحه بقولِه مُؤكِّدًا بأعظمَ من تأكيدِهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[(١)].

بيانٌ لجملةِ ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾[(٢)].

لمَّا شهد على كذبِهم على سبيلِ الإجمالِ، أتبَعه بالتَّفصيلِ، فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[(٣)].

ثم لمَّا أَجمَلَ كذبَهم فيما وعدوا به، فصَّل ما كذبوا فيه، فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[(٤)].

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾

ولمَّا كان ربما قيل: إنَّ تركَهم لنصرِهم إنَّما هو لخوفِ اللهِ أو غيرِ ذلك ممَّا يَحسُنُ وقعُه؛ علَّل بما ينفي ذلك ويُظهِرُ أنَّ محطَّ نظرِهم المحسوساتُ كالبهائمِ، فقال مُؤكِّدًا له لأجلِ أنَّ أهلَ النِّفاقِ يُنكِرون ذلك، وكذا مَن قرُب حالُه منهم: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[(٥)].

لمَّا كان المقصودُ من ذِكْرِ وَهْنِ المنافقين في القتالِ تشديدَ نفسِ النبيِّ ﷺ وأَنفُسِ المؤمنين حتى لا يَرهَبوهم، ولا يَخشَوْا مُسانَدتَهم لأهلِ حربِ المسلمين أحلافِ

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٤٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٠٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٥٠٩).

(٤) فتح القدير (٥/ ٢٤٣).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ٤٤٩).

المنافقين قُرَيظةَ وخَيْبرَ؛ أَعقَبَ ذلك بإعلامِ المؤمنين بأنَّ المنافقين وأحلافَهم يَخْشَوْنَ المسلمين خشيةً شديدةً، وُصفت شِدَّتُها بأنَّها أشدُّ من خشيتِهم اللهَ تعالىٰ، فإنَّ خشيةَ جميعِ الخلقِ من اللهِ أعظمُ خشيةٍ، فإذا بلغت الخشيةُ في قلبِ أحدٍ أن تكونَ أعظمَ من خشيةِ اللهِ فذلك منتهىٰ الخشيةِ، والمقصودُ تشديدُ نفوسِ المسلمين ليعلموا أنَّ عدوَّهم مُرهَبٌ منهم، وذلك ممَّا يزيد المسلمين إقدامًا في محاربتِهم، إذ ليس سياقُ الكلامِ للتَّسجيلِ علىٰ المنافقين واليهودِ قِلَّةَ رهبتِهم للهِ، بل إعلامَ المسلمين بأنَّهم أَرهَبُ لهم من كلِّ أعظمِ الرَّهباتِ[١].

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

ولمَّا أخبر برهبتِهم، دلَّ عليها بقولِه: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[٢].

هذه الجملةُ بدلُ اشتمالٍ من جملةِ ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ شدَّةَ الرَّهبةِ من المسلمين تشتملُ علىٰ شِدَّةِ التَّحصُّنِ لقتالِهم إيَّاهم؛ أي: لا يقدرون علىٰ قتالِكم إلَّا في هاتِه الأحوالِ[٣].

ثم أخبر سبحانه بمزيدِ فشلِهم وضعفِ نكايتِهم، فقال: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٠١).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٤٥٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٠٤).

(٤) فتح القدير (٥/ ٢٤٣).

﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥ ﴾

ولمَّا كان الإخبارُ بعدمِ عقلِهم دعوىٰ، دلَّ عليها بأمرٍ مُشاهَدٍ، فقال: ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾(١).

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ ﴾

ولمَّا شبَّه سبحانه أمرَهم في طاعتِهم لابنِ أُبَيٍّ ومَن معَه، وهم البُعَداءُ المُحترقون بسببِ إبعادِ المؤمنين لهم بإبعادِ اللهِ واحتراقِ أكبادِهم لذلك، مع ما أعدَّ لهم في الآخرةِ بأمرِ بني قَيْنُقاعَ؛ شبَّه قصَّةَ الكُلِّ بقصَّةِ الشَّيطانِ ومَن أطاعه من الإنسِ والجِنِّ، فقال مُبيِّنًا لمعنىٰ ما حطَّ عليه آخِر الكلامِ: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾(٢).

هذا مَثَلٌ آخرُ لمُمثَّلٍ آخرَ، وليس مثلًا مُنضَمًّا إلىٰ المثلِ الذي قبلَه؛ لأنَّه لو كان ذلك لكان معطوفًا عليه بالواوِ، أو بـ«أو»، والوجهُ أنَّ هذا المثلَ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥ ﴾، كما يُفصِحُ عنه قولُه في آخرِه: ﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ ﴾ الآيةَ؛ أي: مَثَلُهم في تسبُّبِهم لأنفسِهم عذابَ الآخرةِ كمثلِ الشَّيطانِ إذ يُوَسوِسُ للإنسانِ بأن يكفرَ، ثم يتركُه ويتبرَّأُ منه، فلا ينتفعُ أحدُهما بصاحبِه، ويقعانِ معًا في النَّارِ(٣).

لمَّا مثَّلهم بمَن قبلَهم، ذكر مثلَهم مع المنافقين، فالمنافقون كالشَّيطانِ، وبنو النَّضيرِ كالإنسانِ(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٤٥٣).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٤٥٤-٤٥٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٠٩).

(٤) البحر المحيط (١٠/ ١٤٧).

ثم ضرب لليهودِ والمنافقين مثلًا آخرَ، فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(١).

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾

وكان هذا كمثلِ ما يجدُ الإنسانُ بعدَ الوقوعِ في المعصيةِ من النَّدمِ والحَيْرةِ، فإذا وجد ذلك، وهَمَّ بالتَّوبةِ؛ زيَّن له المعصيةَ، وصعَّب عليه أمرَ التَّوبةِ وعسَّره، وجرَّأه علىٰ المعصيةِ بعينِها، أو علىٰ ما هو أكبرُ منها، ولا يزالُ كذلك حتىٰ يتعذَّرَ عليه الرُّجوعُ، فيتحقَّقَ هلاكُه وهلاكُ مَن أوقعَه؛ فلذلك سبَّب عنه قولَه: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

قولُه: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَا﴾ من تمامِ المثلِ؛ أي: كان عاقبةُ المثلِ بهما خسرانَهما معًا، وكذلك تكونُ عاقبةُ الفريقينِ المُمثَّلينِ أنَّهما خائبانِ فيما دبَّرا وكادا للمسلمين(٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾

ولمَّا أبلغ سبحانه في المواعظِ في هذه السورةِ قولًا وفعلًا، وكانت الإيقاعاتُ المذكورةُ فيها مُسبَّبةً عن الخياناتِ ممَّن كان له عهدٌ فنقضَه، أو ممَّن كان أظهر الإيمانَ فأبانَ فعلُه كذبَه؛ قال ﷻ استنتاجًا عن ذلك، وعظًا للمؤمنين؛ لأنَّ الوعظَ بعدَ المصائبِ أوقعُ في النَّفسِ، وأعظمُ في ترقيقِ القلبِ، وتحذيرُه ممَّا يُوجِبُ

(١) فتح القدير (٥/ ٢٤٤).
(٢) نظم الدرر (١٩/ ٤٥٦).
(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ١١٠).

العقوبـــةَ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾(١).

انتقالٌ من الامتنانِ على المسلمين بما يسَّر اللهُ من فتحِ قريةِ بني النَّضيرِ بدونِ قتالٍ، وما أفاءَ اللهُ على رسولِه ﷺ منهم، ووصف ما جرى من خَيْبَتِهم وخَيْبةِ أملِهم في نصرةِ المنافقين، ومن الإيذانِ بأنَّ عاقبةَ أهلِ القرى الباقيةِ كعاقبةِ أسلافِهم، وكذلك موقفُ أنصارِهم معَهم إلى الأمرِ بتقوى اللهِ شكرًا له على ما منَح، وما وعد من صادقِ الوعدِ؛ فإنَّ الشُّكرَ جزاءُ العبدِ عن نعمةِ ربِّه؛ إذ لا يستطيعُ جزاءً غيرَ ذلك، فأقبل على خطابِ الذين آمنوا بالأمرِ بتقوى اللهِ(٢).

ثم رجع سبحانه إلى خطابِ المؤمنين بالموعظةِ الحسنةِ، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾(٣).

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ ﴾

ولمَّا هزَّ إلى تقواه تارةً بالخوفِ وأخرى بالحياءِ تأكيدًا لها، وعلَّل ذلك بما له شُعْبة من التَّحذيرِ، وكان الإنسانُ -لِما له من النِّسيانِ- أحوجَ إلى التَّحذيرِ؛ قال مُؤكِّدًا لشُعْبتِه، وإيضاحًا لأنَّ التَّقوى الثَّانيةَ لمحاسبةِ النَّفسِ في تصفيةِ العملِ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾(٤).

بعدَ أنْ أمر المؤمنين بتقوى اللهِ، وإعدادِ العُدَّةِ للآخرةِ؛ أعقبَه بهذا النَّهيِ؛ تحذيرًا عن الإعراضِ عن الدِّينِ، والتغافلِ عن التَّقوى، وذلك يُفضي إلى الفسوقِ، وجِيءَ في النَّهيِ بنَهْيِهم عن حالةِ قومٍ تَحقَّقتْ فيهم هذه الصِّلةُ ليكونَ النَّهيُ عن إضاعةِ التَّقوى

(١) نظم الدرر (١٩/ ٤٥٧).
(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ١١٠).
(٣) فتح القدير (٥/ ٢٤٤).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ٤٥٩).

مُصوَّرًا في صورةٍ محسوسةٍ هي صورةُ قومٍ تَحقَّقتْ فيهم تلك الصِّلةُ، وهم الذين أَعرَضوا عن التَّقوىٰ، وهذا الإعراضُ مراتبُ قد تنتهي إلىٰ الكفرِ الذي تَلبَّس به اليهودُ، وإلىٰ النِّفاقِ الذي تَلبَّس به فريقٌ ممَّن أظهروا الإسلامَ في أوَّلِ سِنِي الهجرةِ، وظاهرُ الموصولِ أنَّه لطائفةٍ معهودةٍ، فيحتملُ أن يُرادَ بـ«الذين نَسُوا الله»: المنافقون؛ لأنَّهم كانوا مشركين، ولم يهتدوا للتَّوحيدِ بهدىٰ الإسلامِ، فعبَّر عن النِّفاقِ بنسيانِ اللهِ؛ لأنَّه جهلٌ بصفاتِ اللهِ من التَّوحيدِ والكمالِ، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بهم اليهودَ؛ لأنَّهم أضاعوا دينَهم، ولم يقبلوا رسالةَ عيسىٰ عليه السلام، وكفروا بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم[(١)].

﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

ولمَّا تمَّ الدَّليلُ علىٰ أنَّ حزبَ اللهِ هم المُفلِحون لما أيَّدهم به في هذه الحياةِ الدنيا من النَّصرِ والشِّدَّةِ علىٰ الأعداءِ، واللِّينِ والمُعاضَدةِ للأولياءِ، وسائرِ الأفعالِ المُوصِلةِ إلىٰ جنَّةِ المأوىٰ، وصرَّح في آخرِ الدَّليلِ بخسرانِ حزبِ الشَّيطانِ، فعُلم أنَّ لهم مع هذا الهوانِ عذابَ النِّيرانِ، وكان المغرورُ بعدَ هذا بالدنيا، الغافلُ عن الآخرةِ لأجلِ شهواتٍ فانيةٍ وحظوظٍ زائلةٍ عاملًا عملَ مَن يعتقدُ أنَّه لا فرقَ بينَ الشَّقيِّ بالنَّارِ والسَّعيدِ بالجنَّةِ؛ لتَجشُّمِه التَّجرُّعَ لمراراتِ الأعمالِ المشتمِلةِ عليها؛ أنتج ذلك قولَه مُنزِّلًا لهم منزلةَ الجازمِ بذلك أو الغافلِ عنه؛ تنبيهًا لهم علىٰ غلطِهم، وإيقاظًا من غفلتِهم: ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[(٢)].

تذييلٌ لجملةِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ إلخ؛ لأنَّه جامعٌ لخلاصةِ عاقبةِ الحالينِ: حالِ التَّقوىٰ والاستعدادِ للآخرةِ، وحالِ نسيانِ ذلك

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ١١٢).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٤٦٠-٤٦١).

وإهمالِه، ولكلا الفريقينِ عاقبةُ عملِه، ويشملُ الفريقينِ وأمثالَهم، والجملةُ أيضًا فَذْلَكةٌ لِما قبلَها من حالِ المتقين والذين نَسُوا اللهَ ونَسُوا أنفسَهم؛ لأنَّ ذِكرَ مِثْلِ هذا الكلامِ بعدَ ذِكْرِ أحوالِ المتحدثِ عنه يكونُ في الغالبِ للتَّعريضِ بذلك المتحدثِ عنه، فمعنىٰ الآيةِ كنايةٌ عن كونِ المؤمنين هم أصحابَ الجنَّةِ، وكونِ الذين نَسُوا اللهَ هم أهلَ النَّارِ، فتَضمَّنتِ الآيةُ وعدًا للمتقين ووعيدًا للفاسقين(١).

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

ولمَّا كان قد مرَّ في هذه السورةِ -فضلًا عمَّا تقدَّمها- من حكمةِ هذا القرآنِ وإعجازِه، تارةً بمطابقتِه لِما نزل بسببِه مطابقةً تجلو عنه كلَّ إشكالٍ، وتارةً بما يشاهدُ من صدقِه فيما أخبر بإتيانِه من الأفعالِ، وأخرىٰ بما يتحدَّىٰ به من الأقوالِ، ومرَّةً بنظمِ كلِّ جملةٍ مع ما تقدَّمها علىٰ ما لم يُمكِنْ لبشرٍ مِثْلُه في الأحوالِ، إلىٰ غيرِ ذلك من أمورٍ لا يحصرُها المقالُ؛ ترتَّب علىٰ ذلك قولُه مُبيِّنًا أنَّ سببَ افتراقِ الفريقينِ في العُقبَىٰ افتراقُهم في هذا القرآنِ في الأولىٰ، تمثيلًا للقلوبِ في قسوتِها أو لِينِها عندَ سماعِ القرآنِ وتخييلًا؛ توبيخًا للقاسي، ومدحًا للعاطفِ اللَّيِّنِ، لافتًا القولَ إلىٰ أسلوبِ العَظَمةِ لاقتضاءِ الحالِ لها: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

لمَّا حذَّر المسلمين من الوقوعِ في مهواةِ نسيانِ اللهِ التي وقع فيها الفاسقون، وتوعَّد الذين نَسُوا اللهَ بالنَّارِ، وبيَّن حالَهم بأنَّ الشَّيطانَ سوَّل لهم الكفرَ، وكان القرآنُ دالًّا علىٰ مسالكِ الخيرِ ومُحذِّرًا من مسالكِ الشَّرِّ، وما وقع الفاسقون في الهَلَكةِ إلَّا من جرَّاءِ إهمالِهم التَّدبُّرَ فيه، وذلك من نسيانِهم اللهَ تعالىٰ؛ انتقل الكلامُ إلىٰ

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ١١٤).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٤٦١-٤٦٢).

التَّنويهِ بالقرآنِ، وهَدْيِه البيِّنِ الذي لا يصرفُ النَّاسَ عنه إلَّا أهواؤهم ومكابرتُهم، وكان إعراضُهم عنه أصلَ استمرارِ ضلالِهم وشركِهم؛ ضرب لهم هذا المثلَ تعجيبًا من تصلُّبِهم في الضَّلالِ، وفي هذا الانتقالِ إيذانٌ بانتهاءِ السورةِ؛ لأنَّه انتقالٌ بعدَ طولِ الكلامِ في غرضِ فتحِ قرىٰ اليهودِ، وما ينالُ المنافقين من جرَّائِه من خسرانٍ في الدنيا والآخرةِ(١).

لمَّا فرغ سبحانه من ذِكْرِ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ، وبيَّن عدمَ استوائِهم في شيءٍ من الأشياءِ؛ ذكر تعظيمَ كتابِه الكريمِ، وأخبر عن جلالتِه، وأنَّه حقيقٌ بأن تخشعَ له القلوبُ وتَرِقَّ له الأفئدةُ، فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

ولمَّا بيَّن تعالىٰ لعبادِه ما بيَّن، وأمرهم ونهاهم في كتابِه العزيزِ؛ كان هذا مُوجِبًا لأن يُبادِروا إلىٰ ما دعاهم إليه وحَثَّهم عليه، ولو كانوا في القسوةِ وصلابةِ القلوبِ كالجبالِ الرَّواسي(٣).

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا أعلىٰ سبحانه أولياءَه، بأنْ فتَح السُّورةَ بالإيمانِ بالغيبِ، وهو العزيزُ الحكيمُ بعدَ التَّنزيهِ عن نقائصِ التَّعطيلِ وكلِّ شائبةِ نقصٍ، وينزلُ لعبادِه في أسبابِ الصِّفاتِ والأفعالِ إلىٰ أن أَوصَلَهم إلىٰ محسوسِ الأمثالِ، فتأهَّلوا للفناءِ في ذاتِه وما علىٰ صفاتِه المُوجِبةِ لخشيتِه؛ رقَّاهم إلىٰ التَّفكُّرِ في تفصيلِ ما افتتح به، فقال عادلًا عن أسلوبِ العَظَمةِ إلىٰ أعظمَ منها بإسبالِ حُجُبِ العِزَّةِ علىٰ منهاجِ الحكمةِ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ١١٦).

(٢) فتح القدير (٥/ ٢٤٦).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٥٣).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٤٦٣-٤٦٤).

لمَّا تكرَّر في هذه السورةِ ذِكرُ اسمِ اللهِ وضمائرِه وصفاتِه أربعين مرَّةً، منها أربعٌ وعشرون بذِكْرِ اسمِ الجلالةِ، وستَّ عشرةَ مرَّةً بذِكْرِ ضميرِه الظَّاهرِ أو صفاتِه العَلِيَّةِ، وكان ما تَضمَّنَتْه السُّورةُ دلائلَ علىٰ عظيمِ قدرةِ اللهِ، وبديعِ تَصرُّفِه وحكمتِه، وكان ما حَوَتْه السُّورةُ الاعتبارَ بعظيمِ قدرةِ اللهِ؛ إذ أيَّد النبيَّ ﷺ والمسلمين، ونصَرَهم علىٰ بني النَّضيرِ ذلك النَّصرَ الخارقَ للعادةِ، وذكر ما حَلَّ بالمنافقين أنصارِهم، وأنَّ ذلك لأنَّهم شاقُّوا اللهَ ورسولَه، وقُوبِلَ ذلك بالثَّناءِ علىٰ المؤمنين باللهِ ورسولِه ﷺ الذين نصَروا الدِّينَ، ثم الأمر بطاعةِ اللهِ والاستعدادِ ليومِ الجزاءِ، والتَّحذيرِ من الذين أعرضوا عن كتابِ اللهِ ومن سوءِ عاقبتِهم، وختم ذلك بالتَّذكيرِ بالقرآنِ الدَّالِّ علىٰ الخيرِ، والمعرِّفِ بعَظَمةِ اللهِ المُقتضِيةِ شِدَّةَ خشيتِه؛ عقَّب ذلك بذِكْرِ طائفةٍ من عظيمِ صفاتِ اللهِ ذاتِ الآثارِ العديدةِ في تَصرُّفاتِه المناسبةِ لغرضِ السورةِ زيادةً في تعريفِ المؤمنين بعَظَمَتِه المُقتضِيةِ للمزيدِ من خشيتِه، وبالصِّفاتِ الحسنىٰ المُوجِبةِ لمحبَّتِه، وزيادة في إرهابِ المعانِدين المُعرِضين من صفاتِ بطشِه وجبروتِه؛ ولذلك ذكر في هذه الآياتِ الخواتمِ للسورةِ من صفاتِه تعالىٰ ما هو مُختلِفُ التَّعلُّقِ والآثارِ للفريقينِ حظَّ ما يليقُ به منها(١).

ثم أشارَ تعالىٰ إلىٰ أنَّه كيف يُتركُ الخشوعُ لذاتِ اللهِ وأسمائِه، مع أنَّه: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٢).

ثم أخبر سبحانه بربوبيَّتِه وعظمتِه، فقال: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ١١٧-١١٨).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ١٩٦).

(٣) فتح القدير (٥/ ٢٤٦).

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كان المُلْكُ كمالَ استيلاءٍ علىٰ الخلقِ يقصرُهم به ملكُهم علىٰ بعضِ مُسْتَطاعِهم ويدينُهم -أي: يجزيهم- علىٰ حسَبِ دينِهم؛ أي: ما وضع لهم من عادةِ قصرِه لهم وحكمِه عليهم، وبحسَبِ إحصائِه عليهم دقيقَ أعمالِهم، وإحاطتِه بخَفِيِّ أحوالِهم، والاطِّلاعِ علىٰ سرائرِهم بتحقيقِ استيفاءِ الجزاءِ، فيتحقَّق بذلك كمالُ المُلْكِ، فكان لذلك لا تتحقَّقُ حقيقةُ المُلْكِ فيمَن هو دونَ العلمِ بالسِّرِّ وأخفىٰ، والمُحصِي الحسيبِ لمثاقيلِ الذَّرِّ، الخبيرِ بخَبْأِ الكونِ، فكان لا مَلِكَ في الحقيقةِ إلَّا اللهُ، ولكنَّه تعالىٰ لمَّا كان قد أولىٰ الخلقَ من رفعةِ بعضِهم فوقَ بعضٍ ما أجرىٰ عليهم اسمَ المَلِكِ فتنةً لهم، فضَلَّ بسببِ ذلك قومٌ ادَّعَوُا المُلْكَ الحقيقيَّ، فغلط من أراد اللهُ من الخلقِ فيهم فضَلُّوا بهم؛ أعاد التَّهليلَ مع اسمِه المَلِكِ كما ابتدأه مع اسمِه الإلهِ أوَّلِ أسماءِ اللهِ؛ ولذلك أيضًا قال النبيُّ ﷺ في حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه الذي رواه الشَّيخانِ وأبو داودَ والتِّرمذيُّ في حديثِ الذي يُسمَّىٰ مَلِكَ الملوكِ في روايةِ مسلمٍ: «لا مَلِكَ إلَّا اللهُ»(١)، فقال مُصرِّحًا بما في باطنِ اسمَيِ الرَّحمةِ من القهرِ والجبرِ علىٰ النَّسَقِ الأوَّلِ في البناءِ علىٰ الضَّميرِ، تأكيدًا لتعيُّنِ المحدَّثِ عنه وتوحيدِه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٢).

وهذا تكريرٌ للاستئنافِ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تعظيمٍ، وهو من مقاماتِ التَّكريرِ، وفيه اهتمامٌ بصفةِ الوحدانيَّةِ(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٤٣).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٤٦٧-٤٦٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٢٠).

ثم كرَّر ذِكرَ عمومِ إلهيَّتِه وانفرادِه بها، وأنَّه المالكُ لجميعِ الممالكِ، فالعالمُ العلويُّ والسُّفليُّ وأهلُه، الجميعُ مماليكُ للهِ، فقراءُ مُدبَّرون[1].

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا تمَّ دليلُ الوحدانيَّةِ بما حصل من التَّفهيمِ بالتَّدنِّي إلىٰ الملكِ، ثم بالتَّعلِّي إلىٰ التَّكبُّرِ، فأنتج هذه الخاتمةَ؛ ابتدأ سبحانه دليلًا آخرَ هو في غايةِ التَّنزُّلِ والوضوحِ، فقال مُفتتِحًا بما افتتح به الأوَّلَ من التَّرتيبِ في المراتبِ الثَّلاثِ: غيبِ الغيبِ، ثم الغيبِ، ثم الظُّهورِ علىٰ مراتبِه؛ إعلامًا بأنَّه لا براحَ عن الإيمانِ بالغيبِ، ومَن برِحَ عنه هلَك: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٨٥٤).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٤٧٤-٤٧٥).

سورة الممتحنة

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾

ولمَّا كان ما بيَّنه تعالىٰ من إخراجِهم لهم مُوضَّحًا بعداوتِهم، وكان طولُ كَفِّهم عن قصدِهم بالأذىٰ من سنةِ الأحزابِ -سنةِ خمسٍ- إلىٰ سنةِ ثمانٍ ربما شكَّك في أمرِها، وكان سبحانه قد أعزَّ المؤمنين بعدَ ذُلِّهم، وقوَّاهم بعدَ وَهْنِهم وضعفِهم، وثَقَّفهم بعدَ جهلِهم؛ بيَّن ظلالَ معتقدِ ذلك بأنَّ كَفَّ الكفارِ إنَّما هو لعجزِهم، وأنَّهم لو حصل لهم ما هو للمسلمين الآنَ من القُوَّةِ لبادَروا إلىٰ إظهارِ العداوة مع أنَّ ذلك في نصرِ الشَّيطانِ، فأولياءُ الرَّحمنِ أولىٰ باتِّباعِ ما آتاهم من الإيمانِ، فقال مُبيِّنًا لبقاءِ عداوتِهم: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[(١)].

تفيدُ هذه الجملةُ معنىٰ التَّعليلِ لمفادِ قولِه تعالىٰ: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ باعتبارِ بعضِ ما أفادته الجملةُ، وهو الضَّلالُ عن الرُّشدِ، فإنَّه قد يخفىٰ ويظنُّ أنَّ في تطلُّبِ مودَّةِ العدوِّ فائدةً، كما هو حالُ المنافقين، فقد يظنُّ أنَّ موالاتَهم من الدَّهاءِ والحزمِ رجاءَ نفعِهم إنْ دالَتْ لهم الدَّولةُ، فبيَّن اللهُ لهم خطأَ هذا الظَّنِّ، وأنَّهم إنِ استفادوا من مودَّتِهم إيَّاهم إطلاعًا علىٰ قُوَّتِهم، فتأهَّبوا لهم وظَفِروا بهم؛ لم يكونوا ليَرقُبوا فيهم إلًّا ولا ذِمَّةً، وأنَّهم لو أخذوهم وتَمكَّنوا منهم لكانوا أعداءً لهم؛ لأنَّ الذي

(١) نظم الدرر (١٩/ ٤٩١-٤٩٢).

أضمر العداوةَ زمنًا يَعسُرُ أن ينقلبَ ودودًا؛ وذلك لشِدَّةِ الحَنَقِ على ما لقوا من المسلمين من إبطالِ دينِ الشِّركِ، وتحقيرِ أهلِه وأصنامِهم[(١)].

لمَّا نهىٰ المؤمنين عن اتِّخاذِ الكفارِ أولياءَ، وشرح ما به الولايةُ من الإلقاءِ بالمودَّةِ بينَهم، وذكر ما صنع الكفارُ بهم أوَّلًا من إخراجِ الرسولِ ﷺ والمؤمنين؛ ذكر صنيعَهم آخِرًا لو قدَروا عليه؛ من أنَّه إن تَمكَّنوا منكم تظهرْ عداوتُهم لكم، ويبسطوا أيديَهم بالقتلِ والتَّعذيبِ وألسنتَهم بالسَّبِّ؛ ووَدُّوا لو ارتددتم عن دينِكم الذي هو أحبُّ الأشياءِ إليكم، وهو سببُ إخراجِهم إيَّاكم[(٢)].

ثم بيَّن تعالىٰ شِدَّةَ عداوتِهم؛ تهييجًا للمؤمنين علىٰ عداوتِهم، فقال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾

ولمَّا كانت عداوتُهم معروفةً، وإنَّما غطَّاها محبَّةُ القراباتِ؛ لأنَّ الحبَّ للشَّيءِ يُعمِي ويُصِمُّ، فخطَّأ رأيَهم في موالاتِهم بما أعلَمَهم به من حالاتِهم؛ زهَّد فيها ممَّا يرجعُ إلىٰ حالِ مَن والَوْهم لأجلِهم بما تُورِثُه من الشَّقاءِ الدَّائمِ يومَ البعثِ، فقال مُستأنِفًا إعلامًا بأنَّها خطأٌ علىٰ كلِّ حالٍ: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[(٣)].

تخلُّصٌ من تبيينِ سوءِ عاقبةِ موالاةِ أعداءِ الدينِ في الحياة الدنيا، إلىٰ بيانِ سوءِ عاقبةِ تلك الموالاةِ في الآخرة، ومناسبةُ حُسْنِ التخلُّصِ قولُه: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ الدَّالُّ علىٰ معنىٰ: أنَّ وِدادتَهم كفرَكم من قبلِ أن يثقفوكم تنقلبُ إلىٰ أن يُكرِهوكم

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٣٩).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ١٥٣).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٤٩٤).

علىٰ الكفرِ حينَ يثقفونكم، فلا تنفعُكم ذوو أرحامِكم مثل الأُمَّهاتِ والإخوةِ الأَشِقَّاءِ، وللأُمِّ، ولا أولادُكم، ولا تدفعُ عنكم عذابَ الآخرةِ إن كانوا قد نفعوكم في الدنيا بصِلَةِ ذوي الأرحامِ ونصرةِ الأولادِ. فجملةُ ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ إلىٰ آخِرها، مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن سؤالٍ مفروضٍ ممَّن يسمعُ جملةَ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ۝٢﴾؛ أي: من حقِّ ذلك أن يسألَ عن آثارِه لخطرِ أمرِها، وإذا كان ناشئًا عن كلامٍ جرىٰ مجرىٰ التَّعليلِ لجملةِ ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾، فهو أيضًا مفيدٌ تعليلًا ثانيًا بحسَبِ المعنىٰ، ولولا إرادةُ الاستئنافِ البيانيِّ لجاءت هذه الجملةُ معطوفةً بالواوِ علىٰ التي قبلَها، وزاد ذلك حُسْنًا أنَّ ما صدَر من حاطبِ بنِ أبي بَلْتَعةَ ممَّا عدَّ عليه هو موالاةٌ للعدوِّ، وأنَّه اعتذر بأنَّه أراد أن يتَّخِذَ عندَ المشركين يدًا يَحْمُونَ بها قرابتَه (أي: أُمَّه وإخوتَه)؛ ولذلك ابتُدئ في نفيِ النَّفعِ بذِكرِ الأرحامِ لموافقةِ قصَّةِ حاطبٍ؛ لأنَّ الأُمَّ ذاتُ رَحِمٍ، والإخوةُ أبناؤها هم إخوتُه من رَحِمِه[(١)].

﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٤﴾

ولمَّا أبلغ سبحانه في وعظِهم في ذلك، وكانت عادتُه التَّربيةَ بالماضِينَ؛ كان موضع توقع ذلك، فقال مُعبِّرًا بأداةِ التَّوقُّعِ: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٤٠).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٤٩٦).

صدرُ هذه الآيةِ يفيدُ تأكيدًا لمضمونِ جملةِ ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ وجملة ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾؛ لأنَّها بما تَضمَّنَتْه من أنَّ الموجَّهَ إليهم التَّوبيخُ خالَفوا الأُسْوةَ الحسنةَ تُقوِّي إثباتَ الخطأِ المُستوجِبِ للتَّوبيخِ؛ ذلك أنَّه بعدَ الفراغِ من بيانِ خطأِ مَن يُوالِي عدوَّ اللهِ بما يَجُرُّ إلىٰ أصحابِه من مضارَّ في الدنيا وفي الآخرةِ تحذيرًا لهم من ذلك، انتقل إلىٰ تمثيلِ الحالةِ الصَّالحةِ بمثالٍ من فعلِ أهلِ الإيمانِ الصَّادقِ والاستقامةِ القويمةِ، وناهِيكَ بها أُسْوةً[(١)].

لمَّا نهىٰ عن موالاةِ الكفارِ، ذكر قصَّةَ إبراهيمَ عليه السلام، وأنَ مِن سيرتِه التَّبرُّؤَ من الكفارِ؛ ليقتدوا به في ذلك ويتأسَّوا[(٢)].

ثم علَّم اللهُ تعالىٰ عبادَه المؤمنين التَّأسِّيَ بإبراهيمَ عليه السلام في البراءةِ من المشركين ومصارمتهم ومجانبتهم، بقولِه سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[(٣)].

لمَّا فرَغ سبحانه من النَّهيِ عن موالاةِ المشركين، والذَّمِّ لمن وقع منه ذلك؛ ضرب لهم إبراهيمَ مثلًا حينَ تبرَّأَ من قومِه، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٤٢).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ١٥٤).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٢٠٤).

(٤) فتح القدير (٥/ ٢٥٢).

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥ ﴾

ولمَّا أخبروا بإسلامِهم له سبحانه، وعلَّلوه بما اقتضى الإحاطةَ، فاقتضى مجموعُ ذلك الثَّناءَ الأتمَّ، فلزم منه الطَّلبُ؛ صرَّحوا به فقالوا داعين بإسقاطِ الأداةِ للدَّلالةِ على غايةِ قُرْبِه سبحانه بما له من الإحاطةِ: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[1].

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝٦ ﴾

ولمَّا أتمَّ ما حثَّهم على التَّأسِّي فيه بذِكْرِ أعظمِ آبائِهم؛ لأنَّ دواعيَ الإنسانِ إلى المُداراةِ عمَّا يخافُ عليه من أقاربِه وآلِه وجميعِ أحوالِه عظيمةٌ جدًّا إنْ كان المُدارَأُ عظيمًا؛ لا سِيَّما إنْ كان قد تقدَّم له صداقةٌ وبه أُلْفةٌ، فكان جديرًا بعدَ الوعظِ والتَّأْسِيَةِ أن يبقى عندَه بقايا؛ ولا سِيَّما والنَّاسُ مُتفاوِتون، منهم مَن يَرُدُّه أيسرُ وعظٍ، ومنهم مَن يحتاجُ إلى أكثرَ من ذلك؛ أعادَ التَّأسيةَ تأكيدًا لها على وجهٍ بلغ الذِّروةَ من جمالِ التَّرغيبِ وجلالِ التَّرهيبِ، وليكونَ فيها أتمُّ دلالةٍ على أنَّ ما بينَهما من قولِ إبراهيمَ عليه السلام المأمورِ بالتَّأسِّي به من الدعاءِ وغيرِه إلَّا ما استثنى لتشتدَّ الرَّغبةَ فيه، فقال مُصدِّرًا بما دلَّ على القَسَمِ إشارةً إلى أنَّ مَن فعل غيرَ هذا كان فعلُه فعلَ مُنكِرٍ لحسنِ هذا التَّأسِّي؛ ولذلك ذكَّر الفعلَ الذي أنَّثه في الأوَّلِ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[2].

تكريرُ قولِه آنفًا: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ إلخ، أُعِيدَ لتأكيدِ التَّحريضِ والحثِّ على عدمِ إضاعةِ الائتساءِ بهم[3].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٥٠١).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٥٠٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٤٩).

ثـم أعـاد ذِكـرَ الأُسْـوةِ تأكيـدًا للكـلامِ، فقـال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[(١)].

ثم كرَّر الحثَّ لهم علىٰ الاقتـداءِ بهـم، فقـال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[(٢)].

﴿۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾

ولـمَّا أتمَّ وعظَهم بما هو الأنفعُ والأقربُ إلىٰ صلاحِهم، ففعلوا، وكان ذلك شاقًّا؛ لِما جُبل عليه البشرُ من حُبِّ ذوي الأرحامِ والعطفِ عليهم، فتَشوَّفتِ النُّفوسُ إلىٰ تخفيفٍ بنوعٍ من الأنواعِ؛ أَتبَعَه التَّرجِئةَ فيما قصَده حاطبٌ ﷺ بغيرِ الطَّريقِ الذي يتوصَّلُ به، فقال علىٰ عادةِ الملوكِ في الرَّمزِ إلىٰ ما يريدونه فيقنعُ الموعودُ به، بل يكونُ ذلك الرَّمزُ عندَه أعظمَ من البتِّ من غيرِهم؛ لِما لهم من العَظَمةِ التي تقتضي النَّزاهةَ عمَّا يُلِمُّ بشائبةِ نقصٍ، وذلك أعظمُ في الإيمانِ بالغيبِ؛ لأنَّ الوعودَ لا تزالُ بينَ خوفٍ ورجاءٍ، جوابًا لمن كأنَّه كان يقولُ: كيف يكونُ الخلاصُ من مِثْلِ هذه الواقعةِ، وقد بنيتَ يا ربِّ هذه الدَّارَ علىٰ حكمةِ الأسبابِ؟ ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٣)].

اعتراضٌ، وهو استئنافٌ مُتَّصِلٌ بما قبلَه من أوَّلِ السورةِ، خُوطِبَ به المؤمنون تسليةً لهم علىٰ ما نُهُوا عنه من مواصلةِ أقربائِهم، بأن يرجوا من اللهِ أن يجعلَ قطيعتَهم آيلةً إلىٰ مودَّةٍ بأن يُسلِمَ المشركون من قرابةِ المؤمنين، وقد حقَّق اللهُ ذلك يومَ فتح مكَّةَ بإسلامِ أبي سفيانَ، والحارثِ بنِ هشامٍ، وسُهَيلِ بنِ عمرٍو، وحكيمِ بنِ حِزامٍ[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٥٢٠).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٨٥٦).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٥٠٥-٥٠٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٥٠).

ثم أخبر تعالىٰ أنَّ هذه العداوةَ التي أمر بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيامِ بها أنَّهم ما داموا علىٰ شركِهم وكفرِهم، وأنَّهم إنِ انتقلوا إلىٰ الإيمانِ فإنَّ الحكمَ يدورُ مع عِلَّتِه، فإنَّ المودَّةَ الإيمانيَّةَ ترجعُ، فلا تيأسوا أيُّها المؤمنون من رجوعِهم إلىٰ الإيمانِ، فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ⁽٨⁾﴾

ولمَّا تمَّ الوعظُ والتَّأسيةُ، وتطييبُ النُّفوسِ بالتَّرجئةِ، وكان وصفُ الكفارِ بالإخراجِ لهم من ديارِهم يحتملُ أن يكونَ بالقُوَّةِ فيَعُمَّ، ويحتملُ أن يكونَ بالفعلِ فيَخُصَّ أهلَ مكَّةَ أو مَن باشَر الأذىٰ الذي تَسبَّب عنه الخروجُ منهم؛ بيَّن ذلك بقولِه مُؤذِنًا بالإشارةِ إلىٰ الاقتصادِ في الولايةِ والعداوةِ، كما قال ﷺ: «أَحبِبْ حبيبَك هَوْنًا ما؛ عسىٰ أن يكونَ بغيضَك يومًا ما، وأَبغِضْ بغيضَك هونًا ما؛ عسىٰ أن يكونَ حبيبَك يومًا ما»[٢]: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[٣].

استئنافٌ هو منطوقٌ لمفهومِ الأوصافِ التي وُصف بها العدوُّ في قولِه تعالىٰ: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾، وقولِه: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾، المَسُوقةِ مساقَ التَّعليلِ للنَّهي عن اتِّخاذِ عدوِّ اللهِ أولياءَ، استثنىٰ اللهُ أقوامًا من المشركين غيرَ مُضمِرينَ العداوةَ للمسلمين، وكان دينُهم شديدَ المنافرةِ مع دينِ الإسلامِ[٤].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٨٥٦).

(٢) أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (١٣٢١)، والترمذي (١٩٩٧).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٥٠٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٥١).

ولمَّا نزلت هذه الآياتُ الكريماتُ، المُهيِّجةُ على عداوةِ الكافرين؛ وقعت من المؤمنين كلَّ موقعٍ، وقاموا بها أتمَّ القيامِ، وتأثَّموا من صِلَةِ بعضِ أقاربِهم المشركين، وظنُّوا أنَّ ذلك داخلٌ فيما نهى اللهُ عنه، فأخبرهم اللهُ أنَّ ذلك لا يدخلُ في المحرَّمِ، فقال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1].

ثم لمَّا ذكر سبحانه ما ينبغي للمؤمنين من معاداةِ الكفارِ وتركِ مُوادَّتِهم، فصَّل القولَ فيمَن يجوزُ بِرُّه منهم ومَن لا يجوزُ، فقال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[2].

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

ولمَّا عُلم الحالُ من هذا وما في أوَّلِ السورةِ، أتبعَه التَّصريحَ بما أفاده مجموعًا أحسنَ جمعٍ، مُصوَّرًا أحسنَ تصويرٍ، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3].

فذْلَكةٌ لِما تقدَّم، وحصرٌ لحكمِ الآيةِ المتقدِّمةِ، وهي تُؤذِنُ بانتهاءِ الغرضِ المَسُوقِ له الكلامُ من أوَّلِه[4].

ثم ذكر مَن الذين ينهاهم عن صِلَتِهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[5].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٨٥٦).

(٢) فتح القدير (٥/ ٢٥٤).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٥٠٨-٥٠٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٥٣).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٥٢١).

ثم بيَّن سبحانه مَن لا يَحِلُّ برُّه، ولا العدلُ في معاملتِه، فقال: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

ولمَّا كان قد ختم سبحانه هذه الآياتِ التي أدَّب بها في غزوةِ الفتحِ بما أبانَ به ما لا يخرجُ عن الصُّلحِ في عُمْرةِ الحُدَيْبيةِ ممَّا هو أقربُ إلىٰ الخيرِ من البرِّ والعدلِ، ونهىٰ عن تَولِّي الكفارِ، فكانت المُصاهَرةُ والمُناكَحةُ من أعظمِ التَّولِّي؛ وصل بذلك ما لا يخرجُ عنه ولا يَحِلُّ بالعهدِ في أنَّ مَن جاء من الكفارِ إلىٰ النبيِّ ﷺ ردَّه إليهم وإن كان مسلمًا، فقال مُخاطِبًا لأدنىٰ أسنانِ أهلِ الإيمانِ الذين يحتاجون إلىٰ التَّفهيم، وأمَّا مَن هو أعلىٰ منهم فهو عالمٌ بذلك، مُؤتمرٌ به، بما آتاه اللهُ من الفهمِ، وأنارَ به قلبَه الشَّريفَ من فنونِ العلمِ؛ ليكْفُوا النبيَّ ﷺ مُقدِّماتِ البيعةِ منه لَهُنَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(٢).

مناسبةُ ورودِ هذه الآيةِ بعدَ ما قبلَها؛ أي: النَّهي عن موالاةِ المشركين يتطرَّقُ إلىٰ ما بينَ المسلمين والمشركين من عقودِ النِّكاحِ والمصاهرةِ، فقد يكونُ المسلمُ زوجًا

(١) فتح القدير (٥/ ٢٥٤).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٥١١-٥١٢).

لمشركةٍ، وتكونُ المسلمةُ زوجًا لمشركٍ، فتَحدُثُ في ذلك حوادثُ لا يستغني المسلمون عن معرفةِ حكمِ الشَّريعةِ في مِثْلِها (١).

في نظمِ هذه الآياتِ وجهٌ حسنٌ معقولٌ، وهو أنَّ المُعانِدَ لا يخلو من أحدِ أحوالٍ ثلاثةٍ: إمَّا أن يستمرَّ عنادُه، أو يُرجَىٰ منه أن يتركَ العنادَ، أو يتركَ العنادَ ويستسلمَ، وقد بيَّن اللهُ تعالىٰ في هذه الآياتِ أحوالَهم، وأمر المسلمين أن يُعامِلوهم في كلِّ حالةٍ علىٰ ما يقتضيه الحالُ. أمَّا قولُه تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾؛ فهو إشارةٌ إلىٰ الحالةِ الأولىٰ، ثم قولُه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ إشارةٌ إلىٰ الحالةِ الثَّانيةِ، ثم قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ إشارةٌ إلىٰ الحالةِ الثَّالثةِ، ثم فيه لطيفةٌ وتنبيهٌ وحَثٌّ علىٰ مكارمِ الأخلاقِ؛ لأنَّه تعالىٰ ما أمر المؤمنين في مقابلةِ تلك الأحوالِ الثَّلاثِ بالجزاءِ إلَّا بالتي هي أحسنُ، وبالكلامِ إلَّا بالذي هو أَلْيَقُ (٢).

بيانٌ لحكمِ مَن يُظهِرُ الإيمانَ بعدَ بيانِ حكمِ فريقَي الكافرين (٣).

لمَّا ذكر سبحانه حكمَ فريقَي الكافرين في جوازِ البرِّ والإقساطِ للفريقِ الأوَّلِ دونَ الفريقِ الثَّاني، ذكر حكمَ مَن يُظهِرُ الإيمانَ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٥٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٥٢١).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٣٩).

(٤) فتح القدير (٥/ ٢٥٦).

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

ولمَّا كان المظنونُ بالكفارِ عدمَ العدلِ، فلا يُعطُونَ المؤمنين مُهورَ نسائِهم الكافراتِ؛ قال مُداوِيًا لذلك الدَّاءِ: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾[1].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ ﴾، فإنَّها لما ترتَّب علىٰ نزولِها إباءُ المشركين من أن يَرُدُّوا إلىٰ أزواجِ النِّساءِ اللَّائي بَقِينَ علىٰ الكفرِ بمكَّةَ، واللَّائي فَرَرْنَ من المدينةِ والتَحَقْنَ بأهلِ الكفرِ بمكَّةَ مهورَهم التي كانوا أَعطَوْها نساءَهم؛ عُقِّبَتْ بهذه الآيةِ لتشريعِ ردِّ تلك المهورِ من أموالِ المسلمين فيما بينَهم[2].

لمَّا نزلت الآيةُ المتقدِّمةُ، قال المسلمون: رَضِينا بحكمِ اللهِ، وكتبوا إلىٰ المشركين، فامتنَعوا، فنزل قولُه: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾[3].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا خاطَب سبحانه المؤمنين الذين لهم موضعُ الذَّبِّ والحمايةِ والنُّصرةِ بما وطَّن به المؤمناتِ في دارِ الهجرةِ، فوقع الامتحانُ، وعُرف الإيمانُ؛ أمر النبيَّ ﷺ بعدَ الحكمِ بإيمانِهنَّ بمُبايعتِهنَّ، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن

(١) نظم الدرر (١٩/ ٥٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٦١).

(٣) فتح القدير (٥/ ٢٥٧).

﴿لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

هذه تكملةٌ لامتحانِ النِّساءِ، المتقدِّمِ ذِكرُه في قولِه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ الآيةَ، وبيانٌ لتفصيلِ آثارِه، فكأنَّه يقولُ: فإنْ علِمتُموهُنَّ مؤمناتٍ؛ فلا تَرجِعوهُنَّ إلىٰ الكفارِ، وبيِّنوا لهنَّ شرائعَ الإسلامِ. وآيةُ الامتحانِ عَقِبَ صُلْحِ الحُدَيْبِيةِ في شأنِ مَن هَاجَرْنَ من مكَّةَ إلىٰ المدينةِ بعد الصُّلح؛ وهُنَّ: أُمُّ كُلْثُومٍ بنتُ عُقْبَةَ بنِ أبي مُعَيطٍ، وسُبَيعةُ الأَسْلَمِيَّةُ، وأُمَيمةُ بنتُ بِشْرٍ، وزينبُ بنتُ رسولِ اللهِ ﷺ، فلا صحَّةَ للأخبارِ التي تقولُ: إنَّ الآيةَ نزلت في فتحِ مكَّةَ، ومنشؤها التخليطُ في الحوادثِ، واشتباهُ المكرَّرِ بالآنفِ(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

ولمَّا ذكر ما أمر به نبيَّه ﷺ في المُبايعاتِ، بعدَ أن عَدَّ الذين آمنوا أصلًا في امتحانِ المُهاجِراتِ، فعُلِم من ذلك أنَّ تولِّيَ النِّساءِ -معَ أنَّه لا ضررَ فيهِنَّ بقتالٍ ونحوِه- لا يسوغُ إلَّا بعدَ العلمِ بإيمانِهِنَّ، وكان الختمُ بصفتَيِ الغفرانِ والرَّحمةِ ممَّا جرَّأه علىٰ مُحاباةِ المؤمنين لبعضِ الكفارِ من أزواجٍ أو غيرِهم؛ لقرابةٍ أو غيرِها لعِلَّةٍ يُبديها الزَّوجُ أو غيرِ ذلك من الأمورِ؛ كرَّر سبحانه الأمرَ بالبراءةِ من كلِّ عدوٍّ؛ ردًّا لآخرِ السورةِ علىٰ أوَّلِها، تأكيدًا للإعراضِ عنهم، وتنفيرًا من تولِّيهم كما أفهمَتْه آيةُ المُبايَعةِ وآيةُ الامتحانِ، فقال مُلذِّذًا لهم بالإقبالِ بالخطابِ، كما فعل أوَّلَها بلذيذِ

(١) نظم الدرر (١٩/ ٥٢٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٦٤).

العتابِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ (١).

بعدَ أن استَقْصَتِ السُّورةُ إرشادَ المسلمين إلىٰ ما يجبُ في المعاملةِ مع المشركين، جاء في خاتمتِها الإرشادُ إلىٰ المعاملةِ مع قومٍ ليسوا دونَ المشركين في وجوبِ الحذرِ منهم؛ وهم اليهودُ، فالمرادُ بهم غيرُ المشركين، إذ شبَّه يأسَهم من الآخرةِ بيأسِ الكفارِ، فتعيَّن أنَّ هؤلاء غيرُ المشركين؛ لئلَّا يكونَ من تشبيهِ الشَّيءِ بنفسِه (٢).

ثم نبَّه تعالىٰ في آخرِ السورةِ بما نبَّه به في فاتحتِها، من النَّهيِ عن موالاةِ مُحارِبي الدِّينِ؛ تحذيرًا من التَّهاونِ في ذلك، وزيادةَ اعتناءٍ به، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ (٣).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٥٢٦-٥٢٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٦٩).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٢١٣).

سُورَةُ الصَّفِّ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ ﴾

ولمَّا تقدَّمت في «المُمْتحَنةِ» قصَّةُ الفتحِ الأعظمِ في شأنِ حاطبِ بنِ أبي بَلْتَعةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وجل منابذة الكفارِ بكلِّ اعتبارٍ علمًا علىٰ صحَّةِ الهجرةِ، وادَّعىٰ التَّجرُّدَ لجهادِ أعداءِ اللهِ، وقصَّةُ الفتحِ السَّببيّ من تحريمِ المؤمناتِ علىٰ المشركين وتحريمِ المشركين علىٰ المؤمناتِ في غزوةِ الحُدَيْبيةِ، وأبدىٰ -سبحانه- في ذلك من الصَّنائعِ التي تَعجِزُ قوىٰ الخلقِ عنها أن رتَّب ما في الفتحِ السَّببيِّ علىٰ ما في الفتحِ الفعليِّ الحقيقيِّ، فجعل الأوَّل في الزَّمانِ آخر في الرُّتبةِ والآخِر في الزَّمانِ أوَّلًا في الرُّتبةِ، مع شِدَّةِ الإحكامِ في ترصيفِ النِّظامِ، والبلوغِ في الرَّشاقةِ والانسجامِ إلىٰ حدٍّ لا يُطِيقُه نوافذُ الأفهامِ، مع بداعةِ المعاني ومتانةِ المباني، وكان فعلُ مَن ناصَح الكفارَ ممَّن آمَن بلسانِه وأذعَن بجَنانِه وهاجَر بأركانِه نوعَ مُناصَحةٍ فعلَ مَن يقولُ ما لا يفعلُ في مُنابَذتِهم والتَّجرُّدِ بعداوتِهم، فذكر أوَّلَ هذه السورةِ من تنزيهِه بألسنةِ أحوال ما لا يعقلُ ما يخجلُ المسلم بشيءٍ من ذلك تأديبًا لأمثالِه، وتدريبًا لمن يلمُّ بشيءٍ من المخالفةِ ببالِه، وكان العاقلُ أَولىٰ من غيرِه بتنزيهِ جنابِ القُدُسِ بالطَّاعةِ، فكيف إذا كان ممَّن أقرَّ بالإيمانِ، وتقلَّد عُهْدةَ الإذعانِ، وكان مَن عصىٰ منهم مُنادِيًا علىٰ نفسِه بمخالفةِ قولِه لفعلِه، ومَن نزَّهه حقَّ تنزيهِه لم يُقصِّرْ في حقٍّ من حقوقِه بتضييعِ شيءٍ من أوامرِه كما أن تنزيهَ ما لا يعقلُ بأن لا يخالفَ شيئًا من مرادِه، قال مُرهِّبًا بنداءِ

البُعْدِ والتَّوبيخِ الذي من مبادئِ الغضبِ والإنكارِ بالاستفهامِ والتعبيرِ بما يفهمُ أدنىٰ مراتبِ الإيمانِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[1].

﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣ ﴾

ولمَّا كان ذلك مُهلِكًا؛ رَحِمَ المخاطَبين بتعظيمِه ليُنجُوا أنفسَهم بالكَفِّ عنه، فقال: ﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[2].

جملةُ ﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣ ﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ تصريحًا بالمعنىٰ المُكْنَىٰ عنه بها[3].

ثم ذمَّهم سبحانه علىٰ ذلك، فقال: ﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[4].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤ ﴾

ولمَّا عظم ما يكرهُه بعدَ ما ألهب به من تنزيهِ غيرِ العاقلِ، فكان العاقلُ جديرًا بأن يسألَ عمَّا يُحِبُّه ليُنزِّهَه به، قال ذاكرًا الغايةَ التي هي أُمٌّ جامعةٌ لكلِّ ما قبلَها من المحاسنِ، مُؤكِّدًا لأنَّ الخطابَ مع مَن قصَّر أو هو في حكمِه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤-٥).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٧٥).

(٤) فتح القدير (٥/ ٢٦١).

(٥) نظم الدرر (٢٠/ ٧-٨).

ثم ما وجهُ تَعلُّقِ الآيةِ بما قبلَها؛ وهو قولُه تعالىٰ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾؟ نقولُ: تلك الآيةُ مذمَّة المخالِفين في القتالِ؛ وهم الذين وعَدوا بالقتالِ ولم يُقاتِلوا، وهذه الآيةُ مَحْمَدةُ الموافِقين في القتالِ؛ وهم الذين قاتَلوا في سبيلِ اللهِ وبالَغوا فيه(١).

بيانٌ لِما هو مَرْضيٌّ عندَه تعالىٰ بعدَ بيانِ ما هو ممقوتٌ عندَه(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾

ولمَّا كان التَّخلُّفُ عن أمرِ اللهِ تعالىٰ، والغفلةُ عن شيءٍ يُؤدِّي تركُه إلىٰ التَّهاونِ به، والإخلالِ بأدبٍ من آدابه، مُوجِبًا للكونِ في صَفِّ الشَّيطانِ، ومُفارَقةِ حزبِ الرَّحمنِ، فيكونُ أذىٰ الرسولِ ﷺ، فيُوجِبُ ذلك الشَّقاءَ كلَّه؛ لأنَّه جديرٌ بأن يَجُرَّ إلىٰ أكبرَ منه، إلىٰ أن تُحيطَ الخطايا فتُبيحَ الرَّزايا، وكان للتَّذكيرِ بالمُشاهَداتِ والأمورِ الواقعاتِ ما ليس لغيرِه في التَّأديبِ ومرجعِ التَّرهيبِ؛ ذكَّر بما كان لبني إسرائيلَ ترهيبًا من مِثْلِ حالِهم، لئلَّا يُوقِعَ في نكالِهم، حين تقاعَسوا عمَّا أُمروا به من فتحِ بيتِ المقدسِ من اللهِ تعالىٰ غضب من فعلِهم ذلك، فسمَّاهم فاسقين، وضرَبهم بالتِّيهِ أربعين سنةً، وأماتَ في تلك الأربعين كلَّ مَن توانىٰ منهم في ذلك، فلم يدخلْ إلىٰ بيتِ المقدسِ منهم أحدٌ، فحُرموا البلادَ التي تقاعدوا عن فتحِها، وهي -بعدَ مكَّةَ والمدينةِ- خيرُ بلادِ اللهِ تعالىٰ، ومُهاجَرُ أبيهم إبراهيمَ عليه السلام، ومواطنُ أبويهِما إسحاقَ ويعقوبَ عليهما الصلاة والسلام، وأنزهُ الأرضِ، وأكثرُها خيرًا، وأبركُها، مع ما كانوا فيه من الضِّيقِ والنَّكدِ من التِّيهِ الذي هو طردٌ عن جنابِ اللهِ بما أراد -بما أشار إليه التعبيرُ عن زمنِه بالسِّنين- إلىٰ ما أَبقَوْا بعدَهم من سوءِ الذِّكرِ، وشناعةِ القالةِ إلىٰ آخرِ

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٥٢٨).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٤٣).

الدَّهرِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (١).

موقعُ هذه الآيةِ هنا خَفِيُّ المناسبةِ، فيجوزُ أن تكونَ الجملةُ مُعترضةً استئنافًا ابتدائيًّا انتُقل به من النَّهيِ عن عدمِ الوفاءِ بما وعَدوا اللهَ عليه، إلىٰ التَّعريضِ بقومٍ آذَوُا النبيَّ ﷺ بالقولِ أو بالعصيانِ أو نحوِ ذلك، فيكونُ الكلامُ مُوجَّهًا إلىٰ المنافقين، وعلىٰ هذا الوجهِ فهو اقتضابٌ نُقل به الكلامُ من الغرضِ الذي قبلَه لتمامِه إلىٰ هذا الغرضِ، أو تكونُ مناسبةُ وقعِه في هذا الموقعِ حدوثَ سببٍ اقتضىٰ نزولَه من أذًىٰ قد حدَث لم يطَّلِعْ عليه المفسِّرون ورواةُ الأخبارِ وأسبابِ النُّزولِ، ويجوزُ أن يكونَ من تَتِمَّةِ الكلامِ الذي قبلَها، ضرب اللهُ مثلًا للمسلمين لتحذيرِهم من إتيانِ ما يُؤذِي رسولَه ﷺ ويَسُوءُه، من الخروجِ عن جادَّةِ الكمالِ الدِّينيِّ؛ مِثلَ عدمِ الوفاءِ بوعدِهم في الإتيانِ بأحبِّ الأعمالِ إلىٰ اللهِ تعالىٰ، وأشفقِهم من أن يكونَ ذلك سببًا للزَّيغِ والضَّلالِ كما حدث لقومِ موسىٰ لمَّا آذَوْه، وعلىٰ هذا الوجهِ فالمرادُ بأذىٰ قومِ موسىٰ إيَّاه: عدمُ توخِّي طاعتِه ورِضاه (٢).

لمَّا كان في المؤمنين مَن يقول ما لا يفعلُ، وهو راجعٌ إلىٰ الكذبِ، فإنَّ ذلك في معنىٰ الإذايةِ للرَّسولِ عليه الصلاة والسلام، إذ كان في أتباعِه مَن عانىٰ الكذبَ، فناسَب ذِكرَ قصَّةِ موسىٰ وقولَه لقومِه: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ (٣).

كلامٌ مُستأنَفٌ مُقرِّرٌ لِما قبلَه من شناعةِ تركِ القتالِ (٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٧٧).

(٣) البحر المحيط (١٠/ ١٦٥).

(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٤٣).

لمَّا ذكر سبحانه أنَّه يُحِبُّ المقاتلين في سبيلِه، بيَّن أنَّ موسىٰ وعيسىٰ أمرا بالتَّوحيدِ، وجاهدا في سبيلِ اللهِ، وحَلَّ العقابُ بمَن خالَفهما(١).

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾

ولمَّا كان أذىٰ النبيِّ ﷺ بمخالفةِ أمرِه تارةً يكونُ مع العلمِ برسالتِه والإقرارِ بها، وتارةً مع الإنكارِ، وقدَّم العتابَ علىٰ ما كان منه علىٰ تقديرِ التَّصديقِ، وذكَّر فيه بقصَّةِ موسىٰ عليه السلام الذي كانوا يُؤذُونه مع العلمِ برسالتِه، وهدَّد بما اتَّفَقَ لهم من زَيْغِ القلوبِ التي هي عمادُ الأبدانِ وصلاحُ الإنسانِ؛ أَتبَعَه ما يكونُ منه عندَ فرضِ الإنكارِ، ولمَّا كان رَدُّ المنكرِ تارةً بالعقلِ وتارةً بالنَّقلِ، وكان الذي بالعقلِ يكونُ بنظرِ المعجزاتِ؛ ولا سِيَّما إخراجُ الخَبْأِ، وقد كان منه في قصَّةِ حاطبٍ رضي الله عنه في إخراجِ كتابِه -الذي اجتهد في إخفائِه، واجتهَدتِ الظَّعينةُ الحاملةُ له في كتمانِه- ما فيه مَقنَعٌ في العلمِ بالرِّسالةِ، وتَحقُّقِ الجلالةِ؛ أتبع ذلك دليلًا نقليًّا تأييدًا للعقلِ مع كونِه دليلًا علىٰ صحَّةِ الإخبارِ بإزاغةِ قلوبِ بني إسرائيلَ؛ جزاءً علىٰ زَيْغِهم عن الحقِّ، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(٢).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾، فعلىٰ الوجهِ الأوَّلِ في موقعِ التي قبلَها، فموقعُ هذه مُساوٍ له، وأمَّا علىٰ الوجهِ الثَّاني في الآيةِ السَّابقةِ فإنَّ هذه مَسُوقةٌ مساقَ التَّتميمِ لقصَّةِ موسىٰ بذِكرِ مثالٍ آخرَ لقومٍ حادُوا عن طاعةِ رسولِ اللهِ ﷺ

---

(١) فتح القدير (٥/ ٢٦٢).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ١١).

إليهم من غيرِ إفادةِ تحذيرٍ للمُخاطَبين من المسلمين، وللتَّخلُّصِ إلىٰ ذِكْرِ أخبارِ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالرسولِ الذي يجيءُ بعدَه(١).

لمَّا ذكر شيئًا من قصَّةِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع بني إسرائيلَ، ذكر أيضًا شيئًا من قصَّة عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ(٢).

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ -إعلامًا بأنَّهم أظلمُ النَّاسِ لتعمُّدِهم للكذبِ-: فمَنْ أظلمُ منهم لتهتُّكِهم في ذلك؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٣).

كانت دعوةُ النبيِّ ﷺ مُماثِلةً دعوةَ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان جوابُ الذين دعاهم إلىٰ الإسلامِ من أهلِ الكتابينِ والمشركين مُماثِلًا لجوابِ الذين دعاهم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلمَّا أَدمَجَ في حكايةِ دعوةِ عيسىٰ بشارتَه برسولٍ يأتي من بعدِه، ناسَب أن ينقلَ الكلامَ إلىٰ ما قابل به قومُ الرسولِ الموعودِ رسولَهم؛ فلذلك ذُكر في دعوةِ هذا الرسولِ دينُ الإسلامِ، فوُصفوا بأنَّهم أظلمُ النَّاسِ؛ تشنيعًا لحالِهم، فالمرادُ من هذا الاستفهامِ هم الذين كذَّبوا النبيَّ ﷺ؛ ولذلك عُطف هذا الكلامُ بالواوِ ودونَ الفاءِ؛ لأنَّه ليس مُفرَّعًا علىٰ دعوةِ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد شمل هذا التَّشنيعُ جميعَ الذين كذَّبوا دعوةَ النبيِّ ﷺ من أهلِ الكتابينِ والمشركين(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٧٩).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ١٦٥).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٢٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٨٧).

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾

ولمَّا أخبر عن ردِّهم للرِّسالةِ، علَّله بقولِه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(١).

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن الإخبارِ عنهم بأنَّهم افتَرَوْا على اللهِ الكذبَ في حالِ أنَّهم يُدعَون إلى الإسلامِ؛ لأنَّه يُثيرُ سؤالَ سائلٍ عمَّا دعاهم إلى هذا الافتراءِ، فأُجِيبَ بأنَّهم يريدون أن يُخفُوا الإسلامَ عن النَّاسِ ويَعُوقوا انتشارَه، ومُثِّلَتْ حالتُهم بحالةِ نفرٍ يبتغون الظَّلامَ للتَّلصُّصِ أو غيرِه ممَّا يُرادُ فيه الاختفاءُ، فلاحت له ذُبالةُ مِصْباحٍ تضيءُ للنَّاسِ، فكرهوا ذلك وخَشَوْا أن يَشِعَّ نورُه على النَّاسِ فتَفتضِحَ تُرَّهاتُهم، فعمَدوا إلى إطفائِه بالنَّفخِ عليه فلم ينطفئْ، فالكلامُ تمثيلٌ دالٌّ على حالةِ المُمثَّلِ لهم، والتقديرُ: يريدون عَوْقَ ظهورِ الإسلامِ كمثلِ قومٍ يريدون إطفاءَ النُّورِ، فهذا تشبيهُ الهيئةِ بالهيئةِ تشبيهَ المعقولِ بالمحسوسِ(٢).

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾

ولمَّا أخبر بذلك، علَّله بما هو شأنُ كلِّ ملكٍ؛ فكيف بالواحدِ في مُلْكِه؟ فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾(٣).

هذا زيادةُ تَحَدٍّ للمشركين وأحلافِهم من أهلِ الكتابِ، فيه تقويةٌ لمضمونِ قولِه: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾، وفيه معنى التَّعليلِ للجملةِ التي قبلَه، فقد أفاد تعريفُ الجزأينِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ قصرًا إضافيًّا لقلبِ زعمِ الكافرين أنَّ محمدًا ﷺ أتى من قِبَلِ نفسِه؛ أي: اللهُ لا غيرُه أرسل محمدًا ﷺ بالهدى ودينِ الحقِّ، وأنَّ شيئًا تولَّى اللهُ فعلَه لا يستطيعُ أحدٌ أن يُزيلَه، وتعليلُ ذلك

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٨٩).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٣١).

بقولِـه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ إعـلامٌ بـأنَّ اللهَ أراد ظهـورَ هـذا الـدِّينِ وانتشـارَه؛ كـيلا يطمعوا أن ينالَه ما نـال ديـنَ عيسـىٰ عليه السلام مـن القمـعِ والخفـتِ في أوَّلِ أمرِه، واستمرَّ زمانًا طويلًا حتىٰ تنصَّرَ قُسْطَنْطِينُ سلطانُ الرُّومِ، فلمَّا أخبر اللهُ بأنَّه أراد إظهارَ دينِ الإسلامِ علىٰ جميعِ الأديانِ، عُلم أنَّ أمرَه لا يزالُ في ازديادٍ حتىٰ يتمَّ المرادُ(١).

ثـم ذكَـر سـببَ الظُّهـورِ والانتصـارِ للـدِّينِ الإسـلاميِّ، الحِسِّـيِّ والمعنـويِّ، فقـال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠﴾

ولمَّا أَنتجَ هذا كلُّه نصرَ رسولِ اللهِ ﷺ علىٰ كلِّ حالٍ، ودمارَ مَن يُخـالِفُ أمـرَه؛ أَنـتجَ قطعًـا أنَّ الجهـادَ معَـه مَتجَـرٌ رابـحٌ؛ لأنَّ النَّصـرَ مضـمونٌ، والمـوتُ مَنهَـلٌ لا بـدَّ مـن ورودِه، سواءٌ خاضَ الإنسانُ الحُتُوفَ أو احترس في القصورِ المُشيَّدةِ، فقال تعالىٰ في أسلوبِ النداءِ والاستفهامِ؛ لأنَّه أفخمُ وأشدُّ تشويقًا، بالأداةِ التي لا يكـونُ مـا بعـدَها إلَّا بالغًا في العِظَمِ إلىٰ النِّهايةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٣).

هذا تَخلُّصٌ إلىٰ الغـرضِ الـذي افتُتِحَـتْ بـه السُّـورةُ مـن قولِـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾، فبعدَ أن ضُربت لهم الأمثالُ، وانتقل الكلامُ من مجالٍ إلىٰ مجالٍ؛ أُعيد خطابُهم هنا بمِثْلِ مـا خُوطِبـوا بـه بقولِـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾؛ أي: هـل أَدُلُّكـم علـىٰ أحـبِّ العملِ إلىٰ اللهِ لتعملوا به كما طلبتم، إذ قلتم: لـو نعلـمُ أيُّ الأعمـالِ أحـبُّ إلـىٰ اللهِ لعملنا به؟ فجاءت السُّورةُ في أسلوبِ الخطابةِ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٩٢).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٨٦٠).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٣٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٩٣).

﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

ولمَّا كان الاتِّجارُ إجهادَ النَّفسِ في تحصيلِ الرِّبحِ النَّافعِ، وكان الإيمانُ والجهادُ أعظمَ إجهادِ النَّفسِ في تحصينِ الجنَّةِ الباقيةِ التي لا ريحَ تُوازِيها، فاستعار لهما اسمَها، وكان جوابُ النداءِ الإقبالَ وجوابُ الاستفهامِ «نعم»؛ عدوا كأنَّهم أقبلوا وأنعموا تنبيهًا على ما هو الأليقُ بهم، فاستأنف لهم بيانَ التِّجارةِ بأنَّه الجمعُ بينَ الإيمانِ الذي هو أساسُ الأعمالِ كلِّها، والجهادِ بنَوْعَيْهِ المُكمِّلِ للنَّفسِ والمُكمِّلِ للغيرِ، فقال: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(١).

جملةُ ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ذِكرَ الدَّلالةِ مُجمَلٌ، والتَّشويقُ الذي سبقها ممَّا يُثِيرُ في أَنفُسِ السَّامعين التَّساؤلَ عن هذا الذي تَدُلُّنا عليه وعن هذه التِّجارةِ(٢).

استئنافٌ وقع جوابًا عمَّا نشأ ممَّا قبلَه، كأنَّهم قالوا: كيف نعملُ، أو ماذا نصنعُ؟ فقيل: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٣).

ثم بيَّن سبحانه هذه التِّجارةَ التي دلَّ عليها، فقال: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٤-٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٩٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٤٥).

(٤) فتح القدير (٥/ ٢٦٤).

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

ولمَّا كان معنىٰ ﴿تُؤْمِنُونَ﴾: فالأمرُ كما تقدَّم، لكنَّه حُوِّلَ عن ذلك لِما ذُكر، وكان أهمُّ ما إلىٰ الإنسانِ خوفُه ممَّا هُدِّدَ عليه؛ أمَّن سبحانه مِن ذلك دالًّا علىٰ أصلِ الفعلِ بجزمِ ما هو في موضعِ الجوابِ، فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١).

اعلَمْ أنَّ قولَه تعالىٰ: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جوابُ قولِه: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لِما أنَّه في معنىٰ الأمرِ، كما مَرَّ، فكأنَّه قال: آمِنوا باللهِ، وجاهِدوا في سبيلِ اللهِ؛ يَغفِرْ لكم(٢).

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

ولمَّا ذكر ما أنعم عليه به في الأخرىٰ؛ لأنَّه أهمُّ لدوامِها، كان التقديرُ بما دلَّ عليه العطفُ: هذا لكم، عطف عليه ما جعل لهم في الدنيا، فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

لمَّا ذكر تعالىٰ ما يمنعُهم من الثَّوابِ في الآخرةِ، ذكر ما يَسُرُّهم في العاجلةِ، وهي ما يفتحُ عليهم من البلادِ(٤).

وأمَّا الثَّوابُ الدُّنيويُّ لهذه التِّجارةِ؛ فذكَره بقولِه: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٥٣٢).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٣٨).

(٤) البحر المحيط (١٠/ ١٦٨).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٨٦١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾

ولمَّا هزَّ سبحانه إلىٰ الجهادِ، وشوَّق إليه بأنَّه مَتجرٌ رابحٌ، ولوَّح إلىٰ النِّذارةِ بالتَّنشيطِ بالبشارةِ، فتهيَّأتِ النُّفوسُ إلىٰ الإقبالِ عليه، وانبعَثَتْ أيَّ انبعاثٍ؛ حضَّ عليه بالإيجابِ المقتضِي للثَّوابِ أو العقابِ، فقال مُناديًا بأداةِ البُعْدِ والتعبيرِ بما يدلُّ علىٰ أدنىٰ الأسنانِ تأنيبًا علىٰ أنَّه لا يَعدِمُ الوصفَ بالإيمانِ إلَّا مقرونٌ بالحرمانِ، تشويقًا وتحبُّبًا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾(١).

هذا خطابٌ آخَرُ للمؤمنين تكملةً لِما تَضمَّنَه الخطابُ بقولِه تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآيةَ، الذي هو المقصودُ من ذلك الخطابِ، فجاء هذا الخطابُ الثَّاني تذكيرًا بأُسْوةٍ عظيمةٍ من أحوالِ المُخلِصين من المؤمنين السَّابقين، وهم أصحابُ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع قِلَّةِ عددِهم وضعفِهم، فأمر اللهُ المؤمنين بنصرِ الدِّينِ، وهو نصرٌ غيرُ النَّصرِ الذي بالجهادِ؛ لأنَّ ذلك تقدَّم التَّحريضُ عليه في قولِه: ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ الآيةَ، ووعدهم عليه بأن ينصرَهم اللهُ، فهذا النَّصرُ المأمورُ به هنا نصرُ دينِ اللهِ الذي آمنوا به، بأن يَبُثُّوه ويَثبُتوا علىٰ الأخذِ به دونَ اكتراثٍ بما يُلاقُونه من أذىً من المشركين وأهلِ الكتابِ، قال تعالىٰ: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) ﴾، وهذا هو الذي شُبِّهَ بنصرِ الحواريِّين دينَ اللهِ الذي جاء به

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠).

عيسىٰ عليه السلام، فإنَّ عيسىٰ لم يُجاهِدْ مَن عانَدوه، ولا كان الحواريُّون ممَّن جاهَدوا، ولكنَّه صبَر وصبَروا حتىٰ أظهر اللهُ دينَ النَّصرانيَّةِ، وانتشر في الأرضِ، ثم دبَّ إليه التَّغييرُ حتىٰ جاء الإسلامُ فنسَخَه من أصلِه[1].

ثم حضَّ سبحانه المؤمنين علىٰ نصرةِ دينِه، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾[2].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٩٨).

(٢) فتح القدير (٥/ ٢٦٥).

سورة الجمعة

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾

ولمَّا كانت القدرةُ على تزكيةِ الجِلْفِ الجافي بحملِه على التَّنزيهِ أدلَّ على القدرةِ على غيرِه، وكان قد أَسلَفَ عن بني إسرائيلَ أنَّهم لم يقبلوا التَّزكيةَ، بل زاغوا؛ دلَّ على قدرتِه -في عِزَّتِه وحكمتِه، ومُلْكِه وقُدُسِه- على تزكيةِ جميعِ العقلاءِ، بقولِه: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن إجراءِ الصِّفاتِ المذكورةِ آنفًا على اسمِ الجلالةِ، إذ يتساءلُ السَّامعُ عن وجهِ تخصيصِ تلك الصِّفاتِ بالذِّكرِ من بينِ صفاتِ اللهِ تعالى، فكان الحالُ مُقتضِيًا أن يُبيِّنَ شيءٌ عظيمٌ من تَعلُّقِ تلك الصِّفاتِ بأحوالِ خلقِه تعالى، إذ بعث فيهم رسولًا يُطهِّرُ نفوسَهم ويُزكِّيهم ويُعلِّمُهم، فصفةُ ﴿ الْمَلِكِ ﴾ تعلَّقتْ بأن يُدبِّرَ أمرَ عبادِه ويُصلِحَ شؤونَهم، وصفةُ ﴿ الْقُدُّوسِ ﴾ تَعلَّقتْ بأن يُزكِّيَ نفوسَهم، وصفةُ ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ اقتضَتْ أن يُلحِقَ الأُمِّيِّينَ من عبادِه بمراتبِ أهلِ العلمِ، ويُخرِجَهم

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٨).

منْ ذِلَّةِ الضَّلالِ فينالوا عِزَّةَ العلمِ وشرفَه، وصفةُ ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ اقتضَتْ أن يُعلِّمَهم الحكمةَ والشَّريعةَ(١).

﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾

ولمَّا كانت تزكيتُه لهم مع أُمِّيَّتِهم وغباوتِهم لوصفِ الأُمِّيَّةِ في الجهلِ أمرًا باهرًا في دلالتِه على تمامِ القدرةِ، زاد في الدَّلالةِ على ذلك بإلحاقِ كثيرٍ ممَّن في غيرِهم من الأُمَمِ مِثْلِهم في الأُمِّيَّةِ بهم، فقال: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾(٢).

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا باهرًا، عظَّمه بقولِه على وجهِ الاستثمارِ من قدرته: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾(٣).

الإشارةُ إلى جميعِ المذكورِ؛ من إرسالِ محمدٍ ﷺ بالآياتِ، والتَّزكيةِ، وتعليمِ الكتابِ والحكمةِ، والإنقاذِ من الضَّلالِ، ومن إفاضةِ هذه الكمالاتِ على الأُمِّيِّينَ الذين لم تكنْ لهم سابقةُ علمٍ ولا كتابٍ، ومِن لَحاقِ أُمَمٍ «آخرين» في هذا الخبرِ، فزالَ اختصاصُ اليهودِ بالكتابِ والشَّريعةِ، وهذا أجدعُ لأنفِهم إذ أحالوا أن يجيءَ رسولٌ أُمِّيٌّ بشريعةٍ إلى أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ، فضلًا عن أن نلتحقَ بأُمِّيَّةِ أُمَمٍ عظيمةٍ كانوا أمكنَ في المعارفِ والسُّلطانِ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٠٧).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٥٢-٥٣).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٥٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢١٣).

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

ولمَّا أدَّب عبادَه المؤمنين في «المُمتحَنةِ» عمَّا يُؤذِي رسولَ اللهِ ﷺ وأتمَّه في «الصَّفِّ» بما حذَّر من إزاغةِ القلوبِ لمن آذىٰ نبيَّه موسىٰ عليه السلام، وأَعلَمَ أنَّه سبحانه جمع الآدابَ كلَّها في هذا الكتابِ الذي أنزله علىٰ نبيِّهم الذي جعله خاتمَ الأنبياءِ وأشرفَ الأصفياءِ، ودلَّ علىٰ فضلِه العظيمِ بتعليمِ الجاهلِ؛ دلَّ علىٰ عقابِه الأليمِ تتميمًا للدَّلالةِ علىٰ باهرِ قدرتِه بتجهيلِ العالمِ بإزاغةِ قلبِه وإذهابِ لُبِّه بيأسِه من الآخرةِ لغضبِه عليه تحذيرًا من الوقوعِ بما يُوجِبُ الإضلالَ بعدَ العلمِ، فقال جوابًا لمن كأنَّه قال: هذا فضلُه علىٰ الجاهلِ؛ فكيف فعلُه بالعالمِ؟ فقال تحذيرًا ممَّن يُزكَّىٰ فلا يتزكَّىٰ بأن يقولَ ما لا يعملُ، ويحملُ الكتابَ فيحملُه غيرَ عالمٍ به، من أن يفعلَ به ما فعل باليهودِ من الذُّلِّ في الدنيا والخِزْيِ والعذابِ في الآخرةِ بإزاغةِ القلوبِ وإحاطةِ الذُّنوبِ، فيكون أقبحَ ممَّا قيل فيه: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾(١).

بعدَ أن تبيَّن أنَّه تعالىٰ آتىٰ فضلَه قومًا أُمِّيِّينَ، أَعقبَه بأنَّه قد آتىٰ فضلَه أهلَ الكتابِ، فلم ينتفعْ به هؤلاء الذين قد اقتنَعوا من العلمِ بأن يحملوا التَّوراةَ دونَ فهمٍ وهم يَحسَبون أنَّ ادِّخارَ أسفارِ التَّوراةِ وانتقالَها من بيتٍ إلىٰ بيتٍ كافٍ في التَّبجُّحِ بها وتحقيرِ مَن لم تكنِ التَّوراةُ بأيديهم، فالمرادُ اليهودُ الذين قاوموا دعوةَ محمدٍ ﷺ وظاهَروا المشركين، وقد ضرب اللهُ لهؤلاء مَثَلًا بحالِ حمارٍ يحملُ أسفارًا، لا حظَّ له منها إلَّا الحملُ دونَ علمٍ ولا فهمٍ؛ ذلك أنَّ علمَ اليهودِ بما في التَّوراةِ أدخلوا فيه ما صيَّره مخلوطًا بأخطاءٍ وضلالاتٍ ومُتَّبعًا فيه هوىٰ نفوسِهم وما لا يعدو نفعَهم

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٥٤-٥٥).

الدُّنيويَّ، ولم يتخلَّقوا بما تحتوي عليه من الهدىٰ والدعاءِ إلىٰ تزكيةِ النَّفسِ، وقد كتموا ما في كتبِهم من العهدِ باتِّباعِ النبيِّ الذي يأتي لتخليصِهم من رِبْقةِ الضَّلالِ، فهذا وجهُ ارتباطِ هذه الآيةِ بالآياتِ التي قبلَها، وبذلك كانت هي كالتَّتِمَّةِ لِما قبلَها، وقال في «الكشَّافِ» عن بعضِهم: افتخَر اليهودُ بأنَّهم أهلُ كتابٍ، والعربُ لا كتابَ لهم، فأبطل اللهُ ذلك بشَبَهِهم بالحمارِ يحملُ أسفارًا[1].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أثبت التَّوحيدَ والنُّبُوَّةَ، وبيَّن في النُّبُوَّةِ أنَّه ﷺ بُعث إلىٰ الأُمِّيِّينَ، واليهودُ لمَّا أوردوا تلك الشُّبهةَ -وهي أنَّه ﷺ بُعث إلىٰ العربِ خاصَّةً، ولم يُبعَثْ إليهم، بمفهومِ الآيةِ-؛ أتبعه اللهُ تعالىٰ بضربِ المثلِ للذين أعرضوا عن العملِ بالتَّوراةِ، والإيمانِ بالنبيِّ ﷺ، والمقصودُ منه أنَّهم لمَّا لم يعملوا بما في التَّوراة، شُبِّهوا بالحمارِ؛ لأنَّهم لو عملوا بمقتضاها لانتفعوا بها[2].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٦﴾

ولمَّا كان قولُهم: إنَّهم أولياءُ اللهِ وأحِبَّاؤه، في غايةِ البُعْدِ من هذا المثلِ؛ استأنف ما يدلُّ علىٰ صحَّةِ المثلِ قطعًا، فقال مُعرِضًا عنهم، آمرًا لمن كذَّبوه بتبكيتِهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3].

أَعقَبَ تمثيلَ حالِ جهلِهم بالتَّوراةِ، بذِكْرِ زعمٍ مِن آثارِ جهلِهم بها إبطالًا لمفخرةٍ مزعومةٍ عندَهم أنَّهم أولياءُ اللهِ وبقيَّةُ النَّاسِ ليسوا مِثلَهم، وذلك أصلٌ كانوا يجعلونه حُجَّةً علىٰ أنَّ شؤونَهم أفضلُ من شؤونِ غيرِهم، ومِن ذلك أنَّهم كانوا يفتخرون بأنَّ اللهَ جعل لهم السَّبتَ أفضلَ أيَّامِ الأسبوعِ، وأنَّه ليس للأُمِّيِّينَ مِثلُه، فلمَّا جعل اللهُ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢١٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٣٩).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٥٧).

الجمعةَ للمسلمين، اغتاظوا. وفي «الكشَّاف»: افتخر اليهودُ بالسَّبتِ، وأنَّه ليس للمسلمين مِثلُه، فشرَع اللهُ لهم الجمعةَ(١).

﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فقال لهم رسولُ اللهِ ﷺ امتثالًا لأمرِنا ذلك، فلم يَتمَنَّوْه في الوقتِ الحاضرِ، تصديقًا مِنَّا لنُبُوَّتِه، وتعجيزًا، وتحقيقًا لمعجزاتِ رسالتِه؛ دلَّ علىٰ هذا المقدَّرِ بما عُطف عليه من قولِه الدَّالِّ قطعًا علىٰ صدقِه بتصديقِهم له بالكفِّ عمَّا أخبر أنَّهم لا يفعلونه: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢).

اعتراضٌ بينَ جملتَيِ القولينِ، قُصد به تَحدِّيهم لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم أنَّهم ليسوا أولياءَ للهِ، وليس المقصودُ من هذا معذرةً لهم من عدمِ تَمنِّيهم الموتَ، وإنَّما المقصودُ زيادةُ الكشفِ عن بطلانِ قولِهم: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾، وإثباتُ أنَّهم في شكٍّ من ذلك، كما دلَّ عليه استدلالُ القرآنِ عليهم بتَحقُّقِهم أنَّ اللهَ يُعذِّبُهم بذنوبِهم في قولِه تعالىٰ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾(٣).

ثم أخبر اللهُ سبحانه أنَّهم لا يفعلون ذلك أبدًا بسببِ ذنوبِهم، فقال: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٤).

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

ولمَّا كان عدمُ تَمنِّيهم عَلَمًا من أعلامِ نُبُوَّتِه ﷺ؛ لموافقتِه ما أخبر به، وكان ذلك فعلَ مَن يعتقدُ أنَّ التَّمنِّيَ يُقدِّمُه عن أجلِه، وعدمَه يُؤخِّرُه، فصاروا بينَ التَّكذيبِ بما

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢١٥).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٥٨-٥٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢١٧).

(٤) فتح القدير (٥/ ٢٦٩).

عندَهم ونهايةِ البلادةِ؛ أمره ﷺ بتنبيههم على بلادتِهم تبكيتًا لهم، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

تصريحٌ بما اقتضاه التَّذييلُ من الوعيدِ وعدمِ الانفلاتِ من الجزاءِ عن أعمالِهم ولو بعدَ زمانٍ وقوعِها؛ لأنَّ طولَ الزَّمانِ لا يُؤثِّرُ في علمِ اللهِ نسيانًا، إذ هو عالمُ الغيبِ والشَّهادةِ. وموقعُ هذه الجملةِ موقعُ بدلِ الاشتمالِ من جملةِ ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وإعادةُ فعلِ ﴿قُلْ﴾ من قَبِيلِ إعادةِ العاملِ في المُبدَلِ منه[2].

ثم أمر اللهُ سبحانه رسولَه ﷺ أن يقولَ لهم بأنَّ الفرارَ من الموتِ لا يُنجِيهم، وأنَّه نازلٌ بهم، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾

ولمَّا قبَّح سبحانه المخالقةَ بينَ القولِ والفعلِ، وصوَّر صاحبَها بصورةِ الحمارِ على الهيئةِ السَّابقةِ، وحذَّر من ذلك بما هيَّأ به العاقلَ للإجابةِ إلى دوامِ الطَّاعةِ، بعدَ أن بيَّن أنَّ جميعَ الكائناتِ مُقِرَّةٌ بشمولِ مُلْكِه بما لها من التَّسبيحِ بألسنةِ الأحوالِ، والقيامِ في مُراداتِه بغايةِ الامتثالِ، فكان العاقلُ جديرًا بالمبادرةِ إلى غايةِ التَّسبيحِ بلسانِ المقالِ، وختم بالتَّحذيرِ من الإخبارِ يومَ الجمعِ الأعظمِ بجميعِ الأعمالِ؛ قال على طريقِ الاستنتاجِ ممَّا مضى من التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، نادبًا لهم -ليكونوا أولياءَ اللهِ- إلى التَّزكيةِ المذكورةِ التي هي ثمرةُ الرِّسالةِ، بما حاصلُه الإقبالُ بالكُلِّيَّةِ

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٦٠-٦١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢١٨).

(٣) فتح القدير (٥/ ٢٦٩).

علىٰ اللهِ، والإعراضُ بالكُلِّيَّةِ عن الدنيا؛ ليجمعَ المكلَّفُ بينَ التَّحلِّي بالمزايا والتَّخلِّي عن الدَّنايا، فخَصَّ من المزايا أعظمَ تسبيحٍ يفعلُه العاقلُ في أيَّامِ الأسبوعِ، وهو الإسراعُ بالاجتماعِ العظيمِ في يومِ الجمعةِ الذي يُناظِرُ الاجتماعَ لإجابةِ المُنادِي في يومِ الجمعِ الأكبرِ، ثم الإقبال الأعظم بفعلِ صلاةِ الجمعةِ التي هي سِرُّ اليومِ الذي ضيَّعه اليهودُ، واستبدلوا به ما كان سببَ تعذيبِهم بعذابٍ لم يُعذَّبْ به أحدٌ من العالمين، كما جعل نتيجةَ السورةِ الماضيةِ النداءَ بالإرشادِ إلىٰ الإيمانِ والجهادِ المُوجِبِ للأمانِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (١).

هذه الآياتُ هي المقصودُ من السورةِ، وما قبلَها مُقدِّماتٌ وتوطئاتٌ لها كما ذكَرْناه آنفًا، وقد تقدَّم ما حكاه «الكشَّافُ» من أنَّ اليهودَ افتخروا علىٰ المسلمين بالسَّبتِ، فشرع اللهُ للمسلمين الجمعةَ، فهذا وجهُ اتِّصالِ هذه الآيةِ بالآياتِ الأربعِ التي قبلَها، فكُنَّ لهذه الآيةِ تمهيدًا وتوطئةً (٢).

وجهُ التَّعلُّقِ بما قبلَها هو أنَّ الذين هادوا يَفِرُّون من الموتِ لمتاعِ الدنيا وطَيِّباتِها، والذين آمنوا يبيعون ويَشْرُون لمتاعِ الدنيا وطَيِّباتِها كذلك، فنبَّههم اللهُ تعالىٰ بقولِه: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إلىٰ ما ينفعُكم في الآخرةِ، وهو حضورُ الجمعةِ؛ لأنَّ الدنيا ومتاعَها فانيةٌ، والآخرةَ وما فيها باقيةٌ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾، ووجهٌ آخرُ في التَّعلُّقِ؛ قال بعضُهم: قد أبطل اللهُ قولَ اليهودِ في ثلاثٍ: افتخروا بأنَّهم أولياءُ اللهِ وأَحِبَّاؤه، فكذَّبهم بقولِه: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦﴾، وبأنَّهم أهلُ الكتابِ والعربُ لا كتابَ لهم، فشبَّههم بالحمارِ يحملُ أسفارًا، وبالسَّبتِ وليس للمسلمين مِثلُه، فشرَع اللهُ تعالىٰ لهم الجمعةَ (٣).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٦٢-٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢١٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٤٢).

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

ولـمَّا حثَّ على الصَّلاةِ، وأرشد إلى أنَّ وقتَها لا يصلحُ لطلبِ شيءٍ غيرها، وأنَّه متى طُلب فيه شيءٌ من الدنيا مُحِقَتْ بركتُه، مع ما اكتسَب من الإثمِ؛ بيَّن وقتَ المعاشِ، فقال مُبيحًا لهم ما كان حظر عليهم؛ ولهذا قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: إنْ شِئتَ فاخرُجْ، وإنْ شِئتَ فاقعُدْ: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(١).

﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

ولـمَّا كان التقديرُ ممَّا ينطقُ به نصُّ الخطابِ: هذه أوامرُنا الشَّريفةُ، وتقديساتُنا العظيمةُ، وتَفضُّلاتُنا الكريمةُ العميمةُ، فما لهم إذا نُودِيَ لها توانى بعضُهم في الإقبالِ إليها، وكان قلبُه مُتوجِّهًا نحوَ البيعِ ونحوِه من الأمورِ الدُّنيويَّةِ، عاكفًا عليها، ساعيًا بجَهْدِه إليها، فخالَف قولُه: إنَّه أسلم لربِّ العالمين، فعلَه هذا؛ عطف عليه قولَه: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾(٢).

عطفٌ على جملةِ ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ، عطفَ التَّوبيخِ على تركِ المأمورِ به بعدَ ذِكْرِ الأمرِ، وسُلِكَتْ في المعطوفةِ طريقةُ الالتفاتِ لخطابِ النبيِّ ﷺ؛ إيذانًا بأنَّهم أَحْرِياءُ أن يصرفَ للخطابِ عنهم، فحُرِموا من عِزِّ الحضورِ، وأَخبرَ عنهم بحالِ الغائبين، وفيه تعريضٌ بالتَّوبيخِ، ومقتضى الظَّاهرِ أن

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٦٧).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٦٨-٦٩).

يُقالَ: وإذا رأيتم تجارةً أو لهوًا فلا تَنفَضُّوا إليها، ومِن مُقتضَياتِ تخريجِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ هنا: أن يكونَ هذا التَّوبيخُ غيرَ شاملٍ لجميعِ المؤمنين، فإنَّ نفرًا منهم بقوا مع النبيِّ ﷺ حينَ خُطْبَتِه، ولم يخرجوا للتِّجارةِ ولا لِلَّهوِ[1].

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٢٧).

سورة المنافقون

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢﴾

ولمَّا كان المعنىٰ أنَّهم لم يعتقدوا ما شهدوا به، وكان كأنَّه قيل: فما الحاملُ لهم علىٰ هذا الكلامِ المُؤكَّدِ، والكذبُ في غايةِ القباحةِ؛ لا سِيَّما عندَ العربِ؟ علَّله بقولِه مُسمِّيًا شهادتَهم إيمانًا؛ لأنَّ الشَّهادةَ تجري مجرىٰ القَسَمِ في إرادةِ التَّوكيدِ؛ ولذلك يُتلقَّىٰ بما يُتلقَّىٰ به القَسَمُ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[(١)].

استئنافٌ بيانيٌّ لأنَّ تكذيبَ اللهِ تعالىٰ إيَّاهم في قولِهم للنَّبيِّ ﷺ: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ﴾ يُثيرُ في أَنفُسِ السَّامعين سؤالًا عن أيمانِهم لدىٰ النبيِّ ﷺ بأنَّهم مؤمنون به، وأنَّهم لا يُضمِرون بُغْضَه، فأخبر اللهُ عنهم بأنَّهم اتَّخذوا أيمانَهم تَقِيَّةً يتَّقُون بها، وقد وصفهم اللهُ بالحَلِفِ بالأيمانِ الكاذبةِ في آياتٍ كثيرةٍ من القرآنِ[(٢)].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣﴾

ولمَّا كانت المعاصي تُعمِي القلبَ، فكيف بأعظمِها؟ علَّله بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٧٧).
(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٣٦).
(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٧٨).

جملةٌ في موضعِ العِلَّةِ لمضمونِ جملةِ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾، والإشارةُ إلىٰ مضمونِ قولِه: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: سببُ إقدامِهم علىٰ الأعمالِ السَّيِّئةِ المُتعجَّبِ من سُوئِها هو استخفافُهم بالأيمانِ، ومُراجَعتُهم الكفرَ مرَّةً بعدَ أخرىٰ، فرسَخ الكفرُ في نفوسِهم، فتَجرَّأتْ أنفسُهم علىٰ الجرائمِ وضَرِيَتْ بها، حتىٰ صارت قلوبُهم كالمطبوعِ عليها أن لا يَخلُصَ إليها الخيرُ(١).

﴿۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤﴾

ولمَّا وصف سبحانه بواطنَهم بما زهَّد فيهم؛ لأنَّ الإنسانَ بعقلِه كما أنَّ المأكولَ بشكلِه، وكانت لهم أشكالٌ تَغُرُّ ناظرَها؛ لأنَّ العربَ كانت تقولُ: جمالُ المنظرِ يدلُّ غالبًا علىٰ حُسْنِ المَخبَرِ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾(٢).

هذا انتقالٌ إلىٰ وَصْفِ بعضِ أحوالِهم التي لا يُبرِزُونها إذا جاؤوا إلىٰ النبيِّ ﷺ، ولكنَّها تَبرُزُ من مشاهدتِهم، فكان الوَصْفُ الأوَّلُ مُفتتَحًا بـ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾، وهذا الوَصْفُ مُفتتَحًا بـ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ﴾، فجملةُ ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ﴾ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾، واقعةٌ موقعَ الاحتراسِ والتَّتميمِ لدفعِ إيهامِ مَن يَغُرُّه ظاهرُ صُوَرِهم، وأَتبَعَ انتفاءَ فقهِ عقولِهم بالتنبيهِ علىٰ عدمِ الاغترارِ بحُسْنِ صُوَرِهم؛ فإنَّها أجسامٌ خاليةٌ عن كمالِ الأَنفُسِ، وتُفِيدُ مع الاحتراسِ تنبيهًا علىٰ دخائلِهم، بحيثُ لو حُذف حرفُ العطفِ من الجملتينِ لَصَحَّ وقوعُهما موقعَ الاستئنافِ الابتدائيِّ، ولكنْ أُوثِرَ العطفُ للتنبيهِ علىٰ أنَّ هاتينِ صفتانِ تُحسَبانِ كمالًا وهما نقيصتانِ؛ لعدمِ

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٣٧).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٧٩-٨٠).

تناسقِهما مع ما شأنُه أن يكونَ كمالًا، فإنَّ جمالَ النَّفسِ كجمالِ الخِلْقةِ، إنَّما يَحصُلُ بالتَّناسبِ بينَ المحاسنِ، وإلَّا فربما انقلب الحُسْنُ مُوجِبَ نقصٍ(١).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا عظيمًا قاطعًا عن اللهِ ورسولِه، فيحتاجُ فاعلُه حاجةً شديدةً إلىٰ التَّطهيرِ، وهو جديرٌ بعِظَمِه أن لا يُطهِّرَه غايةَ الطُّهرِ إلَّا سؤالُ النبيِّ ﷺ، وكانوا لم يفعلوا ذلك؛ دلَّ علىٰ سوءِ بواطنِهم، وغِلَظِ أكبادِهم، وأنَّهم كالخُشُبِ المُسنَّدةِ في أنَّهم لا ثمرةَ لهم ولا زكاءَ أصلًا، بقولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾(٢).

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦﴾

ولمَّا كان النبيُّ ﷺ يُحِبُّ صلاحَهم، فهو يُحِبُّ أن يستغفرَ لهم، وربما ندبه إلىٰ ذلك بعضُ أقاربِهم، فكان استغفارُه بحيث يُسأَلُ عنه؛ قال مُنبِّهًا علىٰ أنَّهم ليسوا بأهلٍ للاستغفارِ؛ لأنَّهم لا يؤمنون: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(٣).

جملةٌ مُعترضةٌ بينَ حكايةِ أحوالِهم نشأتْ لمناسبةِ قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٣٩).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٨٣).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٨٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٤٤).

ولمَّا نعىٰ سبحانه عليهم إباءَهم عن الإتيانِ ليستغفرَ لهم رسولُ اللهِ ﷺ، وإعراضَهم واستكبارَهم؛ أشار ﷻ إلىٰ عدمِ فائدةِ الاستغفارِ لهم؛ لِما علم سبحانه من سوءِ استعدادِهم واختيارِهم بقولِه تعالىٰ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[(١)].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧﴾

ولمَّا كان هذا داعيًا إلىٰ السُّؤالِ عن الأمرِ الذي فسَقوا به، قال مُبيِّنًا له: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾[(٢)].

هذا أيضًا من مقالاتِهم في مجامعِهم وجماعتِهم، يقولونها لإخوانِهم الذين كانوا يُنفِقون علىٰ فقراءِ المسلمين تظاهرًا بالإسلامِ، كأنَّهم يقولُ بعضُهم لبعضٍ: تَظاهَرِ الإسلامَ بغيرِ الإنفاقِ؛ مِثلَ قولِهم: ﴿تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، ولذلك عُقِّبَتْ بها. وموقعُ الجملةِ الاستئنافُ الابتدائيُّ المُعرِبُ عن مكرِهم وسوءِ طواياهم؛ انتقالًا من وصفِ إعراضِهم عندَ التَّقرُّبِ من الرسولِ ﷺ، إلىٰ وصفِ لونٍ آخرَ من كفرِهم وهو الكيدُ للدِّينِ في صورةِ النَّصيحةِ[(٣)].

ثم ذكر سبحانه بعضَ قبائحِهم، فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾[(٤)].

---

(١) روح المعاني (١٤/ ٣٠٨).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٨٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٤٦).

(٤) فتح القدير (٥/ ٢٧٦).

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

ودَلَّ على عدمِ فقهِهم بقولِه تعالىٰ: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[(١)].

استئنافٌ ثانٍ علىٰ أسلوبِ التَّعْدادِ والتَّكريرِ؛ ولذلك لم يعطفْ، ومِثلُه يَكثُرُ في مقامِ التَّوبيخِ، وهذا وصفٌ لخُبْثِ نواياهم؛ إذ أرادوا التَّهديدَ وإفسادَ إخلاصِ الأنصارِ وأُخُوَّتِهم مع المهاجرين بإلقاءِ هذا الخاطرِ في نفوسِ الأنصارِ بذرًا للفتنةِ والتَّفرقةِ، وانتهازًا لخصومةٍ طفيفةٍ حدَثَتْ بينَ شخصينِ من موالي الفريقينِ، وهذا القولُ المَحْكيُّ هنا صدَر من عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلُولَ[(٢)].

ثم ذكر سبحانه مقالةً شَنْعاءَ قالوها، فقال: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[(٣)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا الذي حكاه ﷻ عن المنافقين بحيثُ يُعجِبُ غايةَ العَجَبِ من تَصوُّرِ قائلِه له، فضلًا عن أن يتفوَّهَ به؛ فكيف بأن يعتقدَه؟ نبَّه علىٰ أنَّ العِلَّةَ المُوجِبةَ له طمسُ البصيرةِ، وأنَّ العِلَّةَ في طمسِ البصيرةِ الإقبالُ بجميعِ القلبِ علىٰ الدنيا رجوعًا علىٰ إيضاحِ ما تقدَّم في نتيجةِ «الجمعةِ» من الإذنِ في طلبِ الرِّزقِ والتَّحذيرِ من مِثْلِ فعلِ حاطبٍ رضي الله عنه وفعلِ مَن انصرَف عن خُطْبةٍ لتلك العَيْرِ، وكان هذا التنبيهُ

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٨٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٤٩).

(٣) فتح القدير (٥/ ٢٧٧).

علىٰ وجهٍ حاسمٍ لمادَّةِ شرِّهم في كلامِهم، فإنَّ كلمةَ الشُّحِّ كما قيل مُطاعةٌ، ولو بأن تُؤثِّرَ أثرًا ما ولو بأن تُقتِّرَ نوعَ تقتيرٍ في وقتٍ ما، فقال مُناديًا لمن يحتاجُ إلىٰ ذلك: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[(١)].

انتقالٌ من كشفِ أحوالِ المنافقين المَسُوقِ للحذرِ منهم والتَّحذير من صفاتِهم إلىٰ الإقبالِ علىٰ خطابِ المؤمنين بنَهْيِهم عمَّا شأنُه أن يشغَلَ عن التَّذكُّرِ لِما أمر اللهُ ونهىٰ، ثم الأمر بالإنفاقِ في سُبُلِ الخيرِ في سبيلِ اللهِ ومصالحِ المسلمين وجماعتِهم وإسعافِ آحادِهم؛ لِئَلَّا يستهويَهم قولُ المنافقين: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، والمبادرة إلىٰ ذلك قبلَ إتيانِ الموتِ الذي لا يُدرَىٰ وقتُ حلولِه حينَ تمنَّىٰ أن يكونَ قد تأخَّر أجلُه ليزيدَ من العملِ الصَّالحِ فلا ينفعُه التَّمنِّي، وهو تمهيدٌ لقولِه بعدَه: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾، فالمناسبةُ لهذا الانتقالِ هو حكايةُ مقالِ المنافقين؛ ولذلك قدَّم ذِكرَ الأقوالِ علىٰ ذِكرِ الأولادِ لأنَّها أهمُّ بحسَبِ السِّياقِ، ونُودِيَ المُخاطَبون بطريقِ الموصولِ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ من التَّهمُّمِ لامتثالِ النَّهيِ، وخصَّ الأموالَ والأولادَ بتَوجُّهِ النَّهيِ عن الاشتغالِ بها اشتغالًا يُلهِي عن ذِكْرِ اللهِ؛ لأنَّ الأموالَ ممَّا يَكثُرُ إقبالُ النَّاسِ علىٰ إنمائِها والتَّفكيرِ في اكتسابِها بحيثُ تكونُ أوقاتُ الشُّغلِ بها أكثرَ من أوقاتِ الشُّغلِ بالأولادِ، ولأنَّها كما تشغَلُ عن ذِكْرِ اللهِ بصرفِ الوقتِ في كسبِها ونمائِها، تشغلُ عن ذِكْرِه أيضًا بالتَّذكيرِ لكنزِها بحيثُ ينسىٰ ذِكرَ ما دعا اللهُ إليه من إنفاقِها، وأمَّا ذِكرُ الأولادِ فهو إدماجٌ؛ لأنَّ الاشتغالَ بالأولادِ، والشَّفقةَ عليهم، وتدبيرَ شؤونِهم، وقضاءَ الأوقاتِ في التَّأنُّسِ بهم؛ من شأنِه أن يُنسِيَ عن تذكُّرِ أمرِ اللهِ ونهيِه في أوقاتٍ كثيرةٍ، فالشُّغلُ بهذينِ أكثرُ من الشُّغلِ بغيرِهما[(٢)].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٩١-٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٥٠).

لمَّا ذكَر سبحانه قبائحَ المنافقين، رجَع إلىٰ خطابِ المؤمنين مُرغِّبًا لهم في ذِكْرِه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[١].

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾

ولمَّا حذَّر من الإقبالِ علىٰ الدنيا، رغَّب في بذلِها؛ مُخالَفةً للمنافقين، فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢].

هذا إبطالٌ ونقضٌ لكيدِ المنافقين حينَ قالوا: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، وهو يَعُمُّ الإنفاقَ علىٰ المُلْتفِّين حولَ رسولِ اللهِ ﷺ والإنفاقَ علىٰ غيرِهم، فكانت الجملةُ كالتَّذييلِ[٣].

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

وزادَ في الحثِّ علىٰ المبادرةِ بالطَّاعاتِ قبلَ الفواتِ، بقولِه مُؤكِّدًا لأجلِ عظيمِ الرَّجاءِ من هذا المُحتضَرِ للتَّأخيرِ، عطفًا علىٰ ما تقديرُه: فلا يُؤخِّرُه اللهُ، فيفوتُه ما أرادَ: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٤].

---

(١) فتح القدير (٥/ ٢٧٨).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٩٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٥٢).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٩٧).

اعتراضٌ في آخرِ الكلامِ، فالواوُ اعتراضيَّةٌ تذكيرًا للمؤمنين بالأجلِ لكُلِّ رُوحٍ عندَ حلولِها في جسدِها حينَ يُؤمَرُ المَلَكُ الذي ينفخُ الرُّوحَ بكَتْبِ أجلِه وعملِه ورزقِه وشقيٌّ أو سعيدٌ، فالأجلُ هو المُدَّةُ المُعيَّنةُ لحياتِه، لا يُؤخَّرُ عن أَمَدِه، فإذا حضر الموتُ، كان دعاءُ المؤمنِ اللهَ بتأخيرِ أجلِه من الدعاءِ الذي استجاب لأنَّ اللهَ قدَّر الآجالَ، وهذا سِرٌّ عظيمٌ لا يعلمُ حكمةَ تحديدِه إلَّا اللهُ تعالىٰ، وهذا إرشادٌ من اللهِ للمؤمنين ليكونوا علىٰ استعدادٍ للموتِ في كلِّ وقتٍ، فلا يُؤخِّروا ما يَهُمُّهم عملُه سؤال ثوابِه، فما من أحدٍ يُؤخِّرُ العملَ الذي يَسُرُّه أن يعملَه وينالَ ثوابَه إلَّا وهو مُعرَّضٌ لأن يأتيَه الموتُ عن قريبٍ أو يُفاجِئَه، فعليه بالتَّحرُّزِ الشَّديدِ من هذا التَّفريطِ في كلِّ وقتٍ وحالٍ، فربما تَعذَّر عليه التَّداركُ بفجأةِ الفواتِ، أو وَهْنِ المقدرةِ، فإنَّه إنْ كان لم تُطاوِعْه نفسُه علىٰ العملِ الصَّالحِ قبلَ الفواتِ؛ فكيف يتمنَّىٰ تأخيرَ الأجلِ المحتومِ؟[1].

ثم أجابَ اللهُ سبحانه عن هذا المُتمنِّي، فقال: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٥٦).

(٢) فتح القدير (٥/ ٢٧٩).

سورة التغابن

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾

ولمَّا كان أعظمُ الدَّلائلِ عليه سبحانه آياتِ الآفاقِ وآياتِ الأَنفُسِ، وقدَّم الأوَّلَ عُلْوِيَّهَ وسُفْلِيَّه لوضوحِه؛ أَتبعَه الثَّانيَ دليلًا على عمومِ قدرتِه، الدَّالِّ على تمامِ مُلْكِه بأنَّه المُختَصُّ بالاختراعِ لأعجبِ الأشياءِ خلقًا، والحمل على المكارِه، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١).

هذا تقريرٌ لِما أفاده قولُه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وتَخلُّصٌ للمقصودِ منه على وجهِ التَّصريحِ بأنَّ الذين أشركوا باللهِ قد كفروا بنعمتِه وبخلقِهم، زيادةً على جحدِهم دلائلَ تنزُّهِه تعالى عن النَّقصِ الذي اعتقدوه له؛ ولذلك قدَّم ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ على ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾؛ لأنَّ الشِّقَّ الأوَّلَ هو المقصودُ بهذا الكلامِ تعريضًا وتصريحًا (٢).

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾

ولمَّا ذكر المظروفَ، ذكر ظرفَه دالًّا على تمامِ إحاطتِه بالبواطنِ والظَّواهرِ، بأنَّه يخلقُ الشَّيءَ العظيمَ جدًّا فيأتي على وَفْقِ الإرادةِ، ثم لا يحتاجُ إلى أن يُزادَ فيه ولا أن يُنقَصَ منه، فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٣).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ١٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٦٢).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ١٠٦).

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ يُبيِّنُ أنَّ انقسامَهم إلىٰ قِسْمَي الكافرين والمؤمنين نشأ عن حِيادِ فريقٍ من النَّاسِ عن الحقِّ الذي أُقِيمَ عليه خلقُ السَّماواتِ والأرضِ؛ لأنَّ الحقَّ أن يُؤمِنَ النَّاسُ بوجودِ خالقِهم، وبأنَّه واحدٌ، وأن يُفرِدُوه بالعبادةِ؛ فذلك الذي أراده اللهُ من خلقِهم، فمَن حادَ عن الإيمانِ ومالَ إلىٰ الكفرِ فقد حادَ عن الحقِّ والفِطْرةِ(١).

ثم لمَّا ذكر سبحانه خلقَ العالمِ الصَّغيرِ، أتبعَه بخلقِ العالمِ الكبيرِ، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(٢).

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾

ولمَّا تقرَّر بما مضىٰ إحاطةُ قدرتِه بما دلَّ علىٰ ذلك من إبداعِه للخلقِ علىٰ هذا الوجهِ المُحكَمِ، وشهد البرهانُ القاطعُ بأنَّ ذلك صُنْعُه وحدَه، لا فعلَ فيه لطبيعةٍ ولا غيرِها؛ دلَّ علىٰ أنَّ ذلك بسببِ شمولِ علمِه إشارةً إلىٰ أنَّ مَن لم يكنْ تامَّ العلمِ فهو ناقصُ القدرةِ، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٣).

تقريرٌ لِما قبلَه، كالدَّليلِ عليه؛ لأنَّه إذا عَلِمَ السَّرائرَ، وخَفِيَّاتِ الضَّمائرِ؛ لم يَخْفَ عليه خافيةٌ من جميعِ الكائناتِ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٦٤).

(٢) فتح القدير (٥/ ٢٨١).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ١٠٩).

(٤) محاسن التأويل (٩/ ٢٤٣).

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ﴾

ولمَّا تقرَّر الإيمانُ به من أنَّه المَلِكُ الذي له وحدَه المُلْكُ، وأشار -بما يُشاهَدُ من انقسامِ عبيدِه إلىٰ مؤمنٍ وكافرٍ- إلىٰ أنَّه لا بدَّ من الأخذِ علىٰ يدِ الظَّالمِ منهما كما هي عادةُ الملوكِ، لا يسوغُ في الحكمةِ ولا في العادةِ غيرُ ذلك، وأخبر أنَّ علمَه مُحِيطٌ لنسبتِه إلىٰ العُلْويَّاتِ والسُّفليَّاتِ والظَّواهرِ والبواطنِ علىٰ حدٍّ سواءٍ؛ أَتبَعَ ذلك وجوبَ الإيمانِ برُسُلِه لجمعِ الكلمةِ عليه سبحانه لنكملَ الحياةَ بإصلاحِ ذاتِ البَيْنِ؛ لئلَّا يقعَ الخلافُ فتَفسُدَ الحياةُ، ووجوب الاعتبارِ لمن مضىٰ من أُمَمِهم، فمَن لم يَعتبِرْ عثَر علىٰ مَهْواه من الأملِ، ودَلَّ عليه بإهلاكِه مَن خالَفَهم إهلاكًا منسقا في خرقِه للعادةِ وخصوصه لهم علىٰ وجهٍ مُقرِّرٍ ما مضىٰ من انفرادِه بالمُلْكِ، مُعلِمٍ أنَّ الكَفَرةَ هم المُبطِلون، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[(١)].

انتقالٌ من التعريضِ الرمزيِّ بالوعيدِ الأُخْرَويِّ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾، إلىٰ قولِه: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾، وقولِه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، إلىٰ تعريضٍ أوضحَ منه بطريقِ الإيماءِ إلىٰ وعيدٍ لعذابٍ دنيويٍّ وأُخْرَويٍّ معًا، فإنَّ ما يُسمَّىٰ في بابِ الكنايةِ بالإيمانِ أقلُّ لوازمَ من التعريضِ والرمزِ، فهو أقربُ إلىٰ التصريحِ، وهذا الإيماءُ بضربِ المثلِ بحالِ أُمَمٍ تَلَقَّوْا رُسُلَهم بمِثْلِ ما تلقَّىٰ به المشركون محمدًا ﷺ؛ تحذيرًا لهم من أن يَحِلَّ بهم مِثْلُ ما حَلَّ بأولئك، فالجملةُ ابتدائيَّةٌ لأنَّها عدٌّ لصِنْفٍ ثانٍ من أصنافِ كفرِهم، وهو إنكارُ الرِّسالةِ[(٢)].

لمَّا ذكر تعالىٰ من أوصافِه الكاملةِ العظيمةِ، ما به يُعرَفُ ويُعبَدُ، ويُبذَلُ الجهدُ في مَرْضاتِه، وتُجتنَبُ مساخطُه؛ أخبر بما فعل بالأُمَمِ السابقين، والقرونِ الماضين،

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ١١١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٦٧).

الذين لم تزَلْ أنباؤهم يتحدَّثُ بها المتأخِّرون، ويُخبِرُ بها الصَّادقون، وأنَّهم -حينَ جاءتهم الرُّسلُ بالحقِّ- كذَّبوهم وعانَدوهم، فأذاقهم اللهُ وبالَ أمرِهم في الدنيا، وأخزاهم فيها(١).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾

ولمَّا ذكر ما أَحَلَّه بهم سبحانه، وأشار إلىٰ القطعِ بأنَّه من عندِه باتِّساقِه في خَرْقِه العوائدَ بالاستئصالِ والخصوصِ لمن كذَّب الرُّسل، والتنجيةِ لمن صدَّقهم؛ علَّله بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾(٢).

ارتقاءٌ في التعريضِ إلىٰ ضربٍ منه قريبٍ من الصَّريحِ، وهو المسمَّىٰ في الكنايةِ بالإشارةِ، كانت مقالةُ الذين مِن قبلُ مُماثِلةً لمقالةِ المخاطَبين، فإذا كانت هي سببَ ما ذاقوه من الوبالِ، فيُوشِكُ أن يذوقَ مُماثِلوهم في المقالةِ مِثلَ ذلك الوبالِ، فهذا عدٌّ لكفرٍ آخرَ من وجوهِ كفرِهم؛ وهو تكذيبُهم الرسولَ ﷺ، وتكذيبُهم بالقرآنِ، فإنَّ القرآنَ بيِّنةٌ من البيِّناتِ؛ لأنَّه مُعجِزةٌ(٣).

ثم ذكر السَّببَ في هذه العقوبةِ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾(٤).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٨٦٦).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ١١٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٦٨).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٨٦٦).

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧ ﴾

ولـمَّا قرَّر وجوبَ الإيمانِ به وبرُسُلِه وكتبِه وبالقدرِ خيرِه وشرِّه، وقسم النَّاسَ إلىٰ مؤمنٍ وكافرٍ، وأخبر أنَّ الكافرَ تكبَّر عن الرُّسلِ؛ عيَّن المُوجِبَ الأعظمَ لكفرِهم، بقولِه دالًّا علىٰ وجوبِ الإيمانِ بالبعثِ، وتركِ القياسِ والرَّأيِ؛ فإنَّ عقلَ الإنسانِ لا يَستقِلُّ ببعضِ أمورِ الإلهيَّةِ، مُعبِّرًا بما أكثرُ إطلاقِه علىٰ ما يُشَكُّ فيه ويُطلَقُ علىٰ الباطلِ؛ إشارةً إلىٰ أنَّهم شاكُّون وإن كانوا جازمين، لكونِهم لا دليلَ لهم، وإلىٰ أنَّهم في نفسِ الأمرِ مُبطِلون: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾(1).

هذا ضربٌ ثالثٌ من ضروبِ كفرِ المشركين المخاطَبين بقولِه: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ ﴾، وهو كفرُهم بإنكارِهم البعثَ والجزاءَ(2).

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨ ﴾

ولـمَّا كان في ردِّ قولِهم علىٰ هذا الوجهِ -معَ الإقسامِ من غيرِ استدلالٍ- إشارةٌ إلىٰ تأمُّلِ الكلامِ السَّابقِ بما اشتمَل عليه من الأدلَّةِ التي منها ذلك البرهانُ البديهيُّ؛ سبَّب عنه قولَه؛ فَذْلَكةً لِما مضىٰ من الأدلَّةِ، وجمعًا لحديثِ جبريلَ عليه السلام في الإيمانِ باللهِ وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخرِ والقدرِ خيرِه وشرِّه، والإسلامِ، والإحسانِ: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾(3).

---

(1) نظم الدرر (٢٠/ ١١٥).

(2) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٧٠).

(3) نظم الدرر (٢٠/ ١١٦).

لمَّا بالَغ في الإخبارِ عن البعثِ -والاعترافُ بالبعثِ من لوازمِ الإيمانِ-، قال: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1].

لمَّا ذكر تعالىٰ إنكارَ مَن أنكر البعثَ، وأنَّ ذلك منهم مُوجِبُ كفرِهم باللهِ وآياتِه؛ أمر بما يعصمُ من الهَلَكةِ والشَّقاءِ؛ وهو الإيمانُ باللهِ ورسولِه وكتابِه، وسمَّاه اللهُ نورًا، فإنَّ النُّورَ ضدُّ الظُّلْمةِ، وما في الكتابِ الذي أنزله اللهُ من الأحكامِ والشَّرائعِ والأخبارِ أنوارٌ يُهتدَىٰ بها في ظلماتِ الجهلِ المُدْلَهِمَّةِ، ويُمشَىٰ بها في حِنْدِسِ اللَّيلِ البهيمِ[2].

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

ولمَّا أخبر بالبعثِ، وأقسم عليه، وأشار إلىٰ دليلِه السابقِ، وسبَّب عنه ما يُنجِي في يومِه؛ ذكَر يومَه وما يكونُ فيه ليُحذَرَ، فقال مُتبِعًا ما مضىٰ من دعائمِ الإيمانِ دِعامةَ اليومِ الآخرِ، واعظًا لمن يقولُ: يا ليتَ شِعْري ما حالي بعدَ تَرْحالي؟ وقامعًا لمن يقولُ: لا حال بعد التَّرحال، بالإعلام بأنَّها أحوالٌ أيُّ أحوالٍ، تُشيِّبُ الأطفالَ، وتقصمُ ظهورَ الرجالِ، بل تَهُدُّ شُمَّ الجبالِ: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[3].

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ﴾ مُتعلِّقٌ بفعلِ ﴿ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ الذي هو كنايةٌ عن: تُجازَوْنَ علىٰ تكذيبِكم بالبعثِ، فيكونُ من تمامِ ما أُمر النبيُّ ﷺ بأن يقولَه لهم ابتداءً من قولِه تعالىٰ: ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾[4].

(١) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٥٤).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٨٦٦).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ١١٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٧٤).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠)﴾

ولمَّا ذكر الفائزَ بلزومِه التَّقوىٰ ترغيبًا، أَتبعَه الخائبَ بسببِ إفسادِ القُوَّتينِ الحاملتينِ علىٰ التَّقوىٰ -العلميَّةِ والعمليَّةِ- ترهيبًا، فقال بادئًا بالعلميَّةِ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[(١)].

كأنَّ هذه الآيةَ والتي قبلَها -لاحتوائِهما علىٰ منازلِ السُّعداءِ والأشقياءِ- بيانٌ للتَّغابنِ علىٰ تفسيرِه بتغابنِ الفريقينِ علىٰ التَّقابلِ، ولِما فيه من التَّفصيلِ نُزِّلَ منزلةَ المُغايِرِ، فعُطف بالواوِ، وكذا علىٰ الإطلاقِ، لكنَّه عليه بيانٌ في الجملةِ[(٢)].

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١)﴾

ولمَّا كان مَن تعرفُه من المُرغَّبين والمُرهَّبين لا يفعلُ ذلك إلَّا فيما ليس قادرًا علىٰ حفظِه وضبطِه حتىٰ لا يحتاجَ العاملُ في عملِ ذلك إلىٰ رقيبٍ يحفظُه ووكيلٍ يُلزِمُه ذلك العملَ ويضبطُه، وكان قولُ المنافقين المتقدِّمُ في الإنفاقِ والإخراجِ من المصائبِ، وكانت المصائبُ تطيبُ إذا كانت من الحبيبِ؛ قال جوابًا لمن يتوهَّمُ عدمَ القدرةِ، مُتمِّمًا ما مضىٰ من خلالِ الأعمالِ بالإيمانِ بالقدرِ خيرِه وشرِّه، مُرغِّبًا في التَّسليمِ، مُرهِّبًا من الجزعِ، قاصرًا الفعلَ ليعُمَّ كلَّ مفعولٍ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[(٣)].

استئنافٌ انتُقل إليه بعدَ أن تُوُعِّدَ المشركون بما يحصلُ لهم من التَّغابنِ يومَ يجمعُ اللهُ النَّاسَ يومَ الحسابِ، ويُشبِهُ أن يكونَ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ تهديدَ المشركين

(١) نظم الدرر (٢٠/ ١٢٢).
(٢) روح المعاني (١٤/ ٣١٩).
(٣) نظم الدرر (٢٠/ ١٢٣).

بيومِ الحسابِ يُثِيرُ في نفوسِ المؤمنين التَّساؤلَ عن الانتصافِ من المشركين في الدنيا علىٰ ما يلقاه المسلمون من إضرارِهم بمكَّةَ، فإنَّهم لم يَكُفُّوا عن أذىٰ المسلمين وإصابتِهم في أبدانِهم وأموالِهم والفتنةِ بينَهم وبينَ أزواجِهم وأبنائِهم[(١)].

فإنْ قيل: كيف يتعلَّقُ ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بما قبلَه ويتَّصِلُ به؟ نقولُ: يتعلَّقُ بقولِه تعالىٰ: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ لِما أنَّ مَن يؤمنُ باللهِ فيُصدِّقُه يعلمُ ألَّا تُصِيبَه مصيبةٌ إلَّا بإذنِ اللهِ[(٢)].

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فاصبِروا عن هجومِ المصائبِ؛ عطَفَ عليه قولَه تحذيرًا من أن يشتغلَ بها فتُوقِعَ في الهلاكِ، وتقطعَ عن أسبابِ النَّجاةِ، دالًّا علىٰ تعلُّمِ أمورِ الدِّينِ من مُعاداتِها، مُشيرًا إلىٰ أنَّ العبادةَ لا تُقبَلُ إلَّا بالاتِّباعِ لا بالابتداعِ: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[(٣)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾؛ لأنَّها تَضمَّنتْ أنَّ المؤمنين مُتهيِّئون لطاعةِ اللهِ ورسولِه ﷺ فيما يدعُوانِهم إليه من صالحِ الأعمالِ، كما يدلُّ عليه تذييلُ الكلامِ بقولِه: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾، ولأنَّ طلبَ الطَّاعةِ فرعٌ عن تحقُّقِ الإيمانِ، كما في حديثِ مُعاذٍ أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا بعثه إلىٰ اليمنِ قال له: «إنَّك ستأتي قومًا أهلَ كتابٍ، فأوَّلُ ما تدعوهم إليه فادعُهم إلىٰ أن يشهدوا أن لا إلهَ إلَّا اللهُ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٧٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٥٦).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ١٢٥).

وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، فإنْ هم أطاعوا لك بذلك فأَخبِرْهم أنَّ اللهَ قد فرَض عليهم صدقةً»[١] الحديثَ[٢].

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٣ ﴾

ولمَّا كان هذا مُوجِعًا؛ لإشعارِه بإعراضِهم مع عدمِ الحِيلةِ في رَدِّهم؛ عرَّف بأنَّ ذلك إنَّما هو إليه، وأنَّه القادرُ عليه، فقال جوابًا لمن كأنَّه قال: فما الحِيلةُ في أمرِهم، مُكمِّلًا لقِسْمَي الدِّينِ بالاستعانةِ بعدَ بيانِ قِسْمِه الآخَرِ وهو العبادةُ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٣].

ثم أرشد إلىٰ التَّوحيدِ والتَّوكُّلِ، فقال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤ ﴾

ولمَّا كانت أوامرُ الدِّينِ تارةً تكونُ باعتبارِ الأمرِ الدينيِّ من سائرِ الطاعاتِ المحضةِ، وتارةً باعتبارِ الأمرِ التكوينيِّ، وهو ما كان بواسطةِ مالٍ أو أهلٍ أو ولدٍ، وأتمَّ سبحانه القسمَ الأولَ في الآيتينِ الماضيتينِ، شرَع في الأمرِ الثاني؛ لأنَّه قد ينشأُ عنه فتنةٌ في الدِّينِ، وقد ينشأُ عنه فتنةٌ في الدنيا، ولمَّا كانت الفتنةُ بالإقبالِ عليه والإعراضِ عنه أعظمَ الفِتَنِ؛ لأنَّها تُفرِّقُ بينَ المرءِ وزوجِه، وبينَ المرءِ وابنِه، وتُذهِلُ الخليلَ عن

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٨٠).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ١٢٧).

(٤) فتح القدير (٥/ ٢٨٤).

خليلِه، كما شُوهِدَ ذلك في بدءِ الإسلامِ، وكان أعظمُ ذلك في الرِّدَّةِ، وكان قد تقدَّم النَّهيُ عن إلهاءِ الأموالِ والأولادِ، وكان النَّهيُ عن ذلك في الأولادِ نهيًا عنه في الأزواجِ بطريقِ الأَولىٰ؛ فلذلك اقتصر عليهم دونَ الأزواجِ، وكان المأمورُ بالتَّوكُّلِ ربما رأىٰ أنَّ تسليمَ قِيادِه لكُلِّ أحدٍ لا يقدحُ في التَّوكُّلِ؛ أشار إلىٰ أنَّ بناءَ هذه الدَّارِ علىٰ الأسبابِ مانعٌ من ذلك، فأمر بنحوِ: «اعقِلْها وتَوكَّلْ»[(١)]، و«احرِصْ علىٰ ما ينفعُك، واستَعِنْ باللهِ ولا تَعجِزْ»[(٢)] الحديثَ، فقال جوابًا عن ذلك لمن يحتاجُ إلىٰ السُّؤالِ عن مِثْلِه، مُبيِّنًا للأوامرِ بالاعتبارِ للامتحانِ التَّكوينيِّ، وإنْ كان أَولىٰ النَّاسِ ببذلِ الجهدِ في تأديبِه وتقويمِه وتهذيبِه أقربَ الأقاربِ وألصقَ النَّاسِ بالإنسانِ، وهو كالعِلَّةِ لآخِرِ «المنافقون»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٣)].

المناسبةُ بينَها وبينَ الآيةِ التي قبلَها؛ لأنَّ كلتيهما تسليةٌ علىٰ ما أصابَ المؤمنين من غمٍّ من معاملةِ أعدائِهم إيَّاهم، ومن انحرافِ بعضِ أزواجِهم وأولادِهم عليهم[(٤)].

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٥﴾

ولمَّا حكم علىٰ البعضِ، كان كأنَّه قيل: فما حكمُ سائرِه؟ فكأنَّ الحكمَ بذلك يلزمُ منه الحذرُ من الكُلِّ، لكنْ للتَّصريحِ سِرٌّ كبيرٌ في ركونِ النَّفسِ إليه، فقال حاصرًا الجميعَ، ضامًّا إليهم المالَ الذي به قيامُ ذلك كلِّه، وقدَّمه لأنَّه أعظمُ فتنةٍ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[(٥)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ١٢٨-١٢٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٨٣).

(٥) نظم الدرر (٢٠/ ١٣١).

تذييلٌ لأنَّ فيه تعميمَ أحوالِ الأولادِ بعدَ أن ذُكر حالٌ خاصٌّ ببعضِهم، وأدمج فيه الأموالَ لأنَّها لم يشملْها طلبُ الحذرِ ولا وصفُ العداوةِ، وقدَّم ذِكرَ الأموالِ على الأولادِ لأنَّ الأموالَ لم يتقدَّمْ ذِكرُها بخلافِ الأولادِ، ووجهُ إدماجِ الأموالِ هنا: أنَّ المسلمين كانوا قد أُصِيبوا في أموالِهم من المشركين، فغلَبوهم على أموالِهم، ولم تُذكرِ الأموالُ في الآيةِ السَّابقةِ لأنَّ الغرضَ هو التَّحذيرُ من أشدِّ الأشياءِ اتِّصالًا بهم، وهي أزواجُهم وأولادُهم، ولأنَّ فتنةَ هؤلاء مُضاعَفةٌ؛ لأنَّ الدَّاعيَ إليها يكونُ من أنفسِهم ومن مساعي الآخرين وتسويلِهم، وجُرِّدَ عن ذِكْرِ الأزواجِ هنا اكتفاءً لدلالةِ فتنةِ الأولادِ عليهِنَّ بدلالةِ فحوى الخطابِ، فإنَّ فتنتَهُنَّ أشدُّ من فتنةِ الأولادِ؛ لأنَّ جرأتَهُنَّ على التَّسويلِ لأزواجِهِنَّ ما يُحاوِلْنه منهم أشدُّ من جرأةِ الأولادِ[1].

ثم أخبر اللهُ سبحانه بأنَّ الأموالَ والأولادَ فتنةٌ، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾[2].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾

ولمَّا كان التقديرُ: وعندَه عذابٌ أليمٌ لمن خالَف؛ سبَّب عنه قولَه فَذْلكةً أخرى لِما تقدَّم من السورةِ كلِّها: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[3].

فاءٌ فصيحةٌ وتفريعٌ على ما تقدَّم؛ أي: إذا علمتم هذا فاتَّقوا اللهَ فيما يجبُ من التَّقوى في معاملةِ الأولادِ والأزواجِ ومصارف في الأموالِ، فلا يَصُدَّكم حُبُّ ذلك والشُّغلُ به عن الواجباتِ، ولا يُخرِجْكم الغضبُ ونحوُه عن حدِّ العدلِ المأمورِ به،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٨٥).

(٢) فتح القدير (٥/ ٢٨٥).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ١٣٢).

ولا حُبُّ المالِ عن أداءِ حقوقِ الأموالِ، وعن طلبِها من وجوهِ الحلالِ. فالأمرُ بالتَّقوىٰ شاملٌ للتَّحذيرِ المتقدِّمِ، وللتَّرغيبِ في العفوِ كما تقدَّم، ولِما عدا ذلك(١).

ثم أمرهم سبحانه بالتَّقوىٰ والطَّاعةِ، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا أمر ورهَّب من ضِدِّه علىٰ وجهٍ أعمَّ، رغَّب فيه تأكيدًا لأمرِه؛ لِما فيه من الصُّعوبةِ؛ لا سِيَّما في زمانِ النبيِّ ﷺ، فإنَّ المالَ فيه كان في غايةِ العِزَّةِ؛ ولا سِيَّما إن كان في لوازمِ النِّساءِ اللَّاتي افتُتح الأمرُ بأنَّ منهُنَّ أعداءً؛ ولا سِيَّما إن كان في حالِ ظهورِ العداوةِ، فقال بيانًا للإفلاحِ، مُتلطِّفًا في الاستدعاءِ بالتعبيرِ بالقرضِ مُشيرًا إلىٰ أنَّه علىٰ خلافِ الطَّبعِ بأداةِ الشَّكِّ: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾(٣).

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾، فإنَّ مضاعفةَ الجزاءِ علىٰ الإنفاقِ مع المغفرةِ خيرٌ عظيمٌ، وبهذا الموقعِ يعلمُ السَّامعُ أنَّ القرضَ أُطلِقَ علىٰ الإنفاقِ المأمورِ به إطلاقًا بالاستعارةِ، والمقصودُ الاعتناءُ بفضلِ الإنفاقِ المأمورِ به(٤).

ثم رغَّب تعالىٰ في النَّفقةِ، فقال: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٨٧).

(٢) فتح القدير (٥/ ٢٨٥).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ١٣٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٩٠).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٨٦٩).

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ ﴾

ولمَّا كان الحليمُ قد يُتَّهَمُ في حِلْمِه بأن يُنسَبَ إلىٰ الجهلِ بالذَّنبِ أو بمِقْدارِه، قال: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

وأمَّا الوصف بـ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فتتميمٌ للتذكيرِ بعَظَمةِ اللهِ تعالىٰ، مع مناسبتِها للترغيبِ والترهيبِ اللَّذينِ اشتملت عليهما الآياتُ السابقةُ كلُّها؛ لأنَّ العالمَ بالأفعالِ ظاهرِها وخَفِيِّها لا يُفِيتُ شيئًا من الجزاءِ عليها بما رتَّب لها[2].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ١٣٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٩١).

سُورَةُ الطَّلَاقِ

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ ﴾

ولمَّا حدَّ سبحانه ما يُفعَلُ في العِدَّةِ، أَتبَعَه ما يُفعَلُ عندَ انقضائِها، فسبَّب عمَّا أمره بها فيها، مُعبِّرًا بأداةِ التَّحقُّقِ؛ لأنَّ الخطابَ على تقديرِ الحياةِ، مُعلِمًا أنَّ له الرَّجعةَ إلى آخِرِ جزءٍ من العِدَّةِ؛ لأنَّها إذا ثبَتَتْ في آخِرِها البعيدِ من الطَّلاقِ، كان ما قبلَه أولى؛ لأنَّه أقربُ إلى الطَّلاقِ، فقال: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾[(١)].

تفريعٌ على جميعِ ما تقدَّم من أحكامِ العِدَّةِ، معطوفٌ على جملةِ ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾؛ لأنَّ إحصاءَها بحفظِ مُدَّتِها واستيعابِ أيَّامِها، فإذا انتهت المُدَّةُ فقد أعذر اللهُ لهما، والزِّيادةُ عليها إضرارٌ بأحدِهما أو بكليهما، وفائدةُ الآجالِ الوقوفُ عندَ انتهائِها[(٢)].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ١٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٠٧).

﴿ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾ ﴾

ولمَّا كان من دواعي الفراقِ والخلافِ بينَ الزَّوجينِ ما هو من التَّقتيرِ في الإنفاقِ لضيقِ ذاتِ اليدِ، فكان الإحجامُ عن المراجعةِ عارضًا كثيرًا للنَّاسِ بعدَ التَّطليقِ؛ أَتبَعَ الوعدَ بجعلِ المخرجِ للمتقين بالوعدِ بمخرجٍ خاصٍّ، وهو مخرجُ التَّوسِعةُ في الرِّزقِ[(١)].

﴿ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ﴾، فإنَّه اعتراضٌ بينَ المُتعاطِفَينِ، جِيءَ به لتأكيدِ ما سبق من الأحكامِ بالوعدِ على اتِّقاءِ اللهِ تعالى فيها[(٢)].

جملةٌ اعتراضيَّةٌ مُؤكِّدةٌ لِما سبق بالوعدِ على الاتِّقاءِ عمَّا نهى عنه صريحًا أو ضمنًا من الطَّلاقِ في الحيضِ، والإضرارِ بالمُعتَدَّةِ، وإخراجِها من المسكنِ، وتَعدِّي حدودِ اللهِ، وكتمانِ الشَّهادةِ، وتَوقُّعِ جُعْلٍ على إقامتِها بأن يجعلَ اللهُ له مخرجًا ممَّا في شأنِ الأزواجِ من المَضايِقِ والغمومِ، ويرزقَه فرجًا وخَلَفًا من وجهٍ لم يخطرْ ببالِه، أو بالوعدِ لعامَّةِ المتقين بالخلاصِ عن مَضارِّ الدَّارينِ والفوزِ بخيرِهما من حيثُ لا يَحتسِبون، أو كلامٌ جِيءَ به للاستطرادِ عندَ ذِكْرِ المؤمنين[(٣)].

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا وسَّط بينَ العِدَدِ هذه الجملَ الواعظةَ؛ دلالةً على عظمتِها، حثًّا على امتثالِها والمبادرةِ إليها، وختم بالتقديرِ؛ أَتبَعَ ذلك بيانَ مقاديرِ العِدَدِ على وجهٍ أبانَ أنَّ الكلامَ الماضيَ كان في الحوائضِ الرَّجعيَّاتِ، فقال: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣١٢).

(٢) روح المعاني (١٤/ ٣٣٠).

(٣) أنوار التنزيل (٥/ ٢٢١).

نِسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾(١).

عطفٌ على قولِه: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، فإنَّ العِدَّةَ هنالك أُريدَ بها الأقراءُ، فأشعَرَ ذلك أنَّ تلك المُعتَدَّةَ ممَّن لها أقراءٌ، فبقي بيانُ اعتدادِ المرأةِ التي تَجاوَزتْ سِنَّ المحيضِ، أو التي لم تَبلُغْ سِنَّ مَن تحيضُ وهي الصَّغيرةُ، وكلتاهما يَصدُقُ عليها أنَّها آيسةٌ من المحيضِ؛ أي: في ذلك الوقتِ(٢).

لَمَّا ذكر تعالى أنَّ الطَّلاقَ المأمورَ به يكونُ لعِدَّةِ النِّساءِ، ذكر تعالى العِدَّةَ، فقال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾(٣).

﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾

ولمَّا كان تكريرُ الحثِّ على التَّقوى للسُّؤالِ عن سببِه، استأنف قولَه كالتَّعليلِ له: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾(٤).

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾

ولمَّا قدَّم التَّكفيرَ، وأتبعه الأجرَ الكبيرَ، وكان قد تقدَّم إيجابُ تركِ المُطلَّقةِ في منزلِ الطَّلاقِ، وأُذن في إخراجِها عندَ الفاحشةِ المُبيِّنةِ، وكان ربما كان منزلُ الطَّلاقِ مُستعارًا، وكان ممَّا لا يليقُ بالزَّوجِ، وكان ربما نُزِّلَ الكلامُ السَّابقُ عليه؛ استأنف

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ١٥٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣١٥).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٧٠).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ١٥٨).

البيانَ له بما لا يحتملُ لبسًا، فقال آمرًا بعدَ ذلك النَّهيِ علىٰ وجهٍ مُشيرٍ بسابقِه ولاحقِه إلىٰ الحِلْمِ عنهُنَّ فيما يمكنُ الحِلْمُ فيه؛ حفظًا للقلوبِ، وإبعادًا للشِّقاقِ، بعدَ الإيحاشِ بالطَّلاقِ؛ لئلَّا يَعظُمَ الكسرُ والوحشةُ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾[1].

هذه الجملةُ وما أُلحِقَ بها من الجملِ إلىٰ قولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ﴾ إلخ، تشريعٌ مستأنَفٌ، فيه بيانٌ لِما أُجمِلَ في الآياتِ السابقةِ من قولِه: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾، وقولِه: ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، وقولِه: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، فتتنزَّلُ هذه الجملُ من اللَّاتي قبلها منزلةَ البيانِ لبعضٍ، وبدلِ الاشتمالِ لبعضٍ، وكلُّ ذلك مُقتضٍ للفصلِ، وابتُدئ ببيانِ ما في ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ من إجمالٍ[2].

استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ ممَّا قبلَه من الحثِّ علىٰ التَّقوىٰ، كأنَّه قيل: كيف نعملُ بالتَّقوىٰ في شأنِ المُعتَدَّاتِ؟ فقيل: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾[3].

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾

ولمَّا كانت المُعاسَرةُ في الغالبِ في تركِ السَّماحِ، وكان تركُ السَّماحِ من خوفِ الإعدامِ؛ نبَّه سبحانه علىٰ أنَّ ذلك ليس بعذرٍ بتقسيمِ النَّاسِ إلىٰ مُوسَّعٍ عليه وغيرِه،

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ١٥٨-١٥٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٢٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٦٣).

ولأنَّ الأليقَ بالموسَّعِ عليه أن يُوسِّعَ، ولا يُسِيءَ الظَّنَّ بربِّه وقد جرَّب رِفْدَه [(١)]، وأنَّ المُقتَّرَ عليه لا ينبغي أن يفعلَ فعلَ مَن يخافُ أن يخلفَ وعده، فقال شارحًا للمياسرةِ: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [(٢)].

تذييلٌ لِما سبق من أحكامِ الإنفاقِ على المُعتدَّاتِ والمُرضِعاتِ بما يَعُمُّ ذلك، ويَعُمُّ كلَّ إنفاقٍ يُطالَبُ به المسلمُ من مفروضٍ ومندوبٍ [(٣)].

ثم بيَّن قدرَ الإنفاقِ بقولِه: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [(٤)].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ ﴾

ولمَّا كان الأمرُ قد بلغ النِّهايةَ في الأحكامِ والمواعظِ والتَّرغيبِ لمن أطاعَ، فلم يَبْقَ إلَّا التَّهديدُ لمن عصىٰ بما شُوهِدَ من المَثُلاتِ وبالغِ العقوباتِ، فإنَّ مِن النَّاسِ البليدُ الذي لا يتَّعِظُ بما يرىٰ، وكان التقديرُ: فكأيِّن من ناسٍ كانوا في غايةِ الضِّيقِ، فأطاعوا أوامرَنا، فجعلناهم في غايةِ السَّعةِ، بل جعلناهم ملوكًا؛ عطَف عليه -تزهيدًا في الرَّفاهيةِ بأنَّها تُطغِي في الأغلبِ، وتهديدًا لأهلِ المعاصي- قولَه مُفيدًا لكثرةِ القرىٰ الخارجةِ عن الحدِّ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [(٥)].

---

(١) أي: عطاءَه.

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ١٦٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٣٠).

(٤) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٦٤).

(٥) نظم الدرر (٢٠/ ١٦٤-١٦٥).

لمَّا شُرعت للمسلمين أحكامٌ كثيرةٌ من الطَّلاقِ ولواحقِه، وكانت كلُّها تكاليفَ قد تُحجِمُ بعضَ الأنفُسِ عن إيفاءِ حقِّ الامتثالِ لها تكاسلًا أو تقصيرًا؛ رغَّب في الامتثالِ لها بقولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢﴾، وقولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾، وقولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾، وقولِه: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾، وحذَّر اللهُ النَّاسَ في خلالِ ذلك من مُخالَفتِها بقولِه: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾، وقولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ أَعقبَها بتحذيرٍ عظيمٍ من الوقوعِ في مخالفةِ أحكامِ اللهِ ورسلِه لقِلَّةِ العنايةِ بمراقبتِهم؛ لأنَّ الصَّغيرَ يُثِيرُ الجليلَ، فذكر المسلمين وليسوا ممَّن يعتوا على أمرِ ربِّهم بما حلَّ بأقوامٍ من عقابٍ عظيمٍ على قِلَّةِ اكتراثِهم بأمرِ اللهِ ورسلِه؛ لئلَّا يسلكوا سبيلَ التَّهاونِ بإقامةِ الشَّريعةِ، فيُلقِي بهم ذلك في مَهْواةِ الضَّلالِ[1].

ثم حذَّر تعالى من عصيانِه وتَعدِّي حدودِه فيما شرَعه؛ عنايةً بما مرَّ من الأحكامِ، بقولِه سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾[2].

﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ٩﴾

فتسبَّب عن ذلك -بعدَ ما كان لها من الكثرةِ والقُوَّةِ- قولُه: ﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٣٣).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٢٦٢).

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾

ثم فسَّر الخُسْرَ، أو استأنف الجوابَ لمن يقولُ: هل لها غيرُ هذا في هذه الدَّارِ، بقولِه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [١].

جملةُ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بدلُ اشتمالٍ من جملةِ ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾، أو بدلُ بعضٍ من كُلٍّ، والمرادُ عذابُ الآخرةِ؛ لأنَّ الإعدادَ التَّهيئةُ، وإنَّما يُهيَّأُ الشَّيءُ الذي لم يَحصُلْ [٢].

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾

ولمَّا كان الرسولُ ﷺ صورةَ سورةِ القرآنِ، فالقرآنُ باطنُه وهو ظاهرُه؛ لأنَّه خُلقُه، لا قولَ له ولا فعلَ إلَّا به، فكان كأنَّه هو؛ أبدَلَ منه قولَه: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [٣].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

ولمَّا تقدَّم أنَّ فائدةَ الذِّكرِ النَّقلُ من خلقٍ إلىٰ خلقٍ، وكان من المعلومِ أنَّ تحويلَ جبلٍ من مكانِه أيسرُ من تحويلِ شخصٍ عن خُلُقِه وشأنِه، وتقدَّم أنَّ أجرَ المجاهدةِ

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ١٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٣٦).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ١٦٨).

في ذلك الجنَّاتُ الموصوفةُ، وكان ذلك يحتاجُ إلىٰ قدرةٍ تامَّةٍ؛ دلَّ علىٰ قدرتِه سبحانه عليه بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[1].

ثم أخبر عن قدرتِه التَّامَّةِ، وسلطانِه العظيمِ؛ ليكونَ ذلك باعثًا علىٰ تعظيمِ ما شرَع من الأحكامِ المتقدِّمةِ في هذه السورةِ، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾.

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ١٧١-١٧٢).

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾

ثم علَّل أو بيَّن بقولِه: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

استئنافٌ بيانيٌّ بيَّن اللهُ به لنبيِّه ﷺ أنَّ له سَعةً في التَّحلُّلِ ممَّا التزم تحريمَه على نفسِه، وذلك فيما شرع اللهُ من كفَّارةِ اليمينِ، فأفتاه اللهُ بأن يأخذَ برخصتِه في كفَّارةِ اليمينِ المشروعةِ للأُمَّةِ كلِّها، ومن آثارِ حكمِ هذه الآيةِ ما قاله النبيُّ ﷺ لوفدِ عبدِ القيسِ، بعدَ أن استحملوه وحلف أن لا يحملَهم؛ إذ ليس عندَه ما يحملُهم عليه، فجاءه ذَوْدٌ من إبلِ الصَّدقةِ، فقال لهم: «وإنِّي واللهِ لا أَحلِفُ على يمينٍ، فأرى غيرَها خيرًا منها؛ إلَّا كفَّرتُ عن يميني، وفعلتُ الذي هو خيرٌ»[2][3].

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾

ولـمَّا كانت العِدَّةُ فيمَن رأى حبيبَه قد ضاقَ صدرُه أن يسعى أوَّلًا في شرحِ صدرِه وطِيبِ نفسِه، ثم يزيدَه بَسْطًا بأن يقولَ للحاضرين: إنَّ حبيبَنا هذا الكريمَ علينا اتَّفَقَ

(١) نظم الدرر (٢٠/ ١٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٢٣) بنحوه.

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٤٧).

له كذا، وقد كرهتُ هذا وضَمِنتُ زوالَه، وكان تعالىٰ قد طيَّب نفسَه ﷺ بأوَّلِ السورةِ، ثم أتبعه الأمرَ الآخرَ، فكان التقديرُ: اذكُروا هذا الذي ذكرتُه من حُسْنِ عِشْرةِ نبيِّكم ﷺ لنسائِه رضي اللهُ تعالىٰ عنهُنَّ، وكريمِ صُحْبَتِه، وشريفِ أخلاقِه، وجميلِ أفضالِه، وجليلِ حِلْمِه، واذكُروا ما خفَّف اللهُ به عنكم في الأيمانِ التي لا مَثْنَوِيَّةَ فيها، واذكُروا فيها اسمَه المقدَّسَ؛ عطف عليه قولَه تعالىٰ تشريفًا لنبيِّه ﷺ بالمعاتبةِ عليه، وبإظهارِ ما هو حاملٌ له من ثِقَلِ هذا السِّرِّ علىٰ أجملِ وجهٍ؛ تخفيفًا عنه وترويحًا له: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[١].

هذا تذكيرٌ وموعظةٌ بما جرىٰ في خلالِ تَيْنِك الحادثتينِ، ثُني إليه عِنانُ الكلامِ بعدَ أن قُضي ما يَهُمُّ من التَّشريعِ للنَّبيِّ ﷺ بما حرَّم علىٰ نفسِه من جرَّائِهما، وهو معطوفٌ علىٰ جملةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ بتقديرِ: واذكُرْ، وقد أُعيدَ ما دلَّتْ عليه الآيةُ السَّابقةُ ضمنًا بما تَضمَّنَتْه هذه الآيةُ بأسلوبٍ آخرَ؛ ليُبنَىٰ عليه ما فيه من عِبَرٍ ومواعظَ، وأدبٍ ومكارمَ، وتنبيهٍ وتحذيرٍ[٢].

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾

ولمَّا عرف من هذا أنَّ المعاتب المنبئة ومن نباته، وكان قد يكونُ عددا أشار إلىٰ أنه واحد فالمعاتب اثنتانِ، وكانتا قد اتَّسعتْ قلوبُهما لِما يأتي من قِبَلِ اللهِ من الرَّغائبِ بهذا العتابِ علىٰ هذا الأمرِ الخَفِيِّ جدًّا، والكرم عليهما فيه بعدمِ الاستقصاءِ، فمالت قلوبُهما إلىٰ المعالي، وغاصت علىٰ جليلِ المعارفِ فصاغت من جواهرِ ذلك دقيقَ

(١) نظم الدرر (٢٠/ ١٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٥٠).

المعاني؛ لفت إليهما الخطابَ بلطيفِ العباد لشريفِ المتابِ، فقال تشريفًا آخرَ له ﷺ بالإقبالِ على نسائِه رضي اللهُ تعالى عنهُنَّ بالعتابِ لأجلِه، قيامًا عنه بما ربما أزعَجَه لو باشَره؛ حفظًا لخاطِره الشَّريفِ ممَّا قد يغره: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[1].

التفاتٌ من ذِكْرِ القِصَّتينِ إلى موعظةِ مَن تعلَّقَتْ بهما، فهو استئنافُ خطابٍ وجَّهه اللهُ إلى حفصةَ وعائشةَ؛ لأنَّ إنباءَ النبيِّ ﷺ بعلمِه بما أفْشَتْه، القصدُ منه: الموعظةُ، والتَّحذيرُ، والإرشادُ إلى رأبِ ما انثلَم من واجبِها نحوَ زوجِها. وإذ قد كان ذلك إثمًا؛ لأنَّه إضاعةٌ لحقوقِ الزَّوجِ، وخاصَّةً بإفشاءِ سِرِّه؛ ذكَّرها بواجبِ التَّوبةِ منه[2].

ثم أشار تعالى إلى غضبِه لنبيِّه -صلواتُ اللهِ عليه- ممَّا أتت به من إفشاءِ السِّرِّ إلى صاحبتِها، ومن مُظاهَرتِهما على ما يُقلِقُ راحتَه، وأنَّ ذلك ذنبٌ تجبُ التَّوبةُ منه، بقولِه سبحانه: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[3].

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾

ولـمَّا حذَّر بما تقدَّم، زاد في التَّحذيرِ ما يقطعُ القلوبَ؛ لأنَّ أشدَّ ما على المرأةِ أن تُطلَّقَ، ثم إذا طُلِّقَتْ أن تُستبدَلَ بها، ثم أن يكونَ البدلُ خيرًا منها، فقال مُبيِّنًا لأدنى أنواعِ المظاهرةِ، سائقًا الأمرَ مساقَ الرَّجاءِ؛ إشارةً إلى أنَّه يكفي العاقلَ في الخوفِ

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ١٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٥٦).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٢٧٤).

تجويزُ احتمالِ الضَّررِ، فكيف إذا كان الأمرُ حتمًا؟ لأنَّ من المعلومِ أنَّ «عسىٰ» من اللهِ علىٰ طريقِ الكُبَراءِ؛ لا سِيَّما الملوكِ في اكتفائِهم بالإشاراتِ والرُّموزِ، فمِن هنا كانت واجبةً؛ لأنَّه ملكُ الملوكِ، وهو ذو الكِبْرياءِ في الحقيقةِ لا غيرُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (١).

الجملةُ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، عُقِّبَتْ بها جملةُ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ التي أفادت التَّحذيرَ من عقابٍ في الآخرةِ إن لم تتوبا ممَّا جرىٰ منهما في شأنِ رسولِ اللهِ ﷺ، أفاد هذا الإيماء إلىٰ التَّحذيرِ من عقوبةٍ دنيويَّةٍ لهُنَّ يأمرُ اللهُ فيها نبيَّه ﷺ، وهي عقوبةُ الطَّلاقِ عليه ما يحصلُ من المؤاخذةِ في الآخرةِ إن لم تتوبا؛ ولذلك فُصلت عن التي قبلَها لاختلافِ الغرضين (٢).

ثم خوَّف نساءَه بقوله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾

ولمَّا أبلغ سبحانه في عتابِ أزواجِ النبيِّ ﷺ -معَ صِيانتِهنَّ عن التَّسميةِ؛ إكرامًا له ﷺ-، وعُلم اتِّصافُهُنَّ بهذه الصِّفاتِ العظيمةِ علىٰ سبيلِ الرُّسوخِ من دوامِ صُحْبَتِه ﷺ لهُنَّ ليَكُنَّ من جملةِ أزواجِه في الجنَّةِ، وكان اتِّصافُهُنَّ بذلك الذي أدَّاهُنَّ إلىٰ السَّعادةِ العظمىٰ إنَّما هو بحُسْنِ تأديبِ أوليائِهِنَّ لهُنَّ، وإكمالِ ذلك الأدبِ بحُسْنِ عِشْرَتِه ﷺ، وتأدُّبِهنَّ بكريمِ أخلاقِه؛ أثمر ذلك أمرَ الأُمَّةِ بالتَّأسِّي به في هذه الأخلاقِ

(١) نظم الدرر (٢٠/ ١٩٢).
(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٦٠).
(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٧١).

الكاملةِ، والتَّأسِّي بأوليائِهِنَّ في ذلك؛ ليَعرِفْنَ حقَّ اللهِ وحقَّ الأزواجِ، فيَحصُلَ بذلك صلاحُ ذاتِ البَيْنِ المُثْمِرات للخيرِ كلِّه، فقال تعالىٰ مُتبعًا لهذه الموعظةِ الخاصَّةِ بموعظةٍ عامَّةٍ دالَّةٍ علىٰ وجوبِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكرِ للأقربِ فالأقربِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[1].

كانت موعظةُ نساءِ النبيِّ ﷺ مُناسِبةً لتنبيهِ المؤمنين لعدمِ الغفلةِ عن موعظةِ أنفسِهم وموعظةِ أَهلِيهم، وأن لا يَصُدَّهم استبقاءُ الوُدِّ بينَهم عن إسداءِ النُّصحِ لهم، وإنْ كان في ذلك بعضُ الأذىٰ، وهذا نداءٌ ثانٍ مُوجَّهٌ إلىٰ المؤمنين بعدَ استيفاءِ المقصودِ من النداءِ الأوَّلِ نداء النبيِّ ﷺ بقولِه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، وجه الخطاب إلىٰ المؤمنين ليأتنسوا بالنبيِّ ﷺ في موعظةِ أَهلِيهم[2].

لمَّا وعظ أزواجَ الرسولِ ﷺ موعظةً خاصَّةً، أَتبَعَ ذلك بموعظةٍ عامَّةٍ للمؤمنين وأهليهم[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧﴾

ولمَّا كان النبيُّ ﷺ أعظمَ مَن أُرِيدَ بأمرِ الأُمَّةِ بالتَّأدُّبِ معَه، فكان تَعمُّدُ الإخلالِ بالأدبِ معَه كفرًا؛ عُلم أنَّ هذه النَّارَ لأولئك، فعُلم أنَّ التقديرَ: يقولون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ١٩٦-١٩٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٦٥).

(٣) البحر المحيط (١٠/ ٢١٢).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ١٩٩).

هو من قولِ الملائكةِ الذين علىٰ النَّارِ، وذِكرُ هذه المقالةِ هنا استطرادٌ يفيدُ التَّنفيرَ من جهنَّمَ بأنَّها دارُ أهلِ الكفرِ، وإلَّا فإنَّ سياقَ الآيةِ تحذيرٌ للمؤمنين من المُوبقاتِ في النَّارِ[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾

ولمَّا أفهم الأمرُ بالوقايةِ والمدحِ للملائكةِ أنَّ المأمورين بالوقايةِ مُقصِّرون، قال مُرشِدًا إلىٰ داءِ التَّقصيرِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[٢].

أُعِيدَ خطابُ المؤمنين، وأُعِيدَ نداؤهم، وهو نداءٌ ثالثٌ في هذه السورةِ، والذي قبلَه نداءٌ للواعظين، وهذا نداءٌ للموعوظين، وهذا الأسلوبُ من أساليبِ الإعراضِ المُهتَمِّ بها، أُمر المؤمنون بالتَّوبةِ من الذُّنوبِ إذا تَلبَّسوا بها؛ لأنَّ ذلك من إصلاحِ أنفسِهم بعدَ أن أُمروا بأن يُجنِّبوا أنفسَهم وأهليهم ما يَزُجُّ بهم في عذابِ النَّارِ؛ لأنَّ اتِّقاءَ النَّارِ يتحقَّقُ باجتنابِ ما يرمي بهم فيها، وقد يُذهَلون عمَّا فرَط من سيِّئاتِهم، فهُدُوا إلىٰ سبيلِ التَّوبةِ التي يَمْحُونَ بها ما فرَط من سيِّئاتِهم، وهذا ناظرٌ إلىٰ ما ذُكر من موعظةِ امرأتَي النبيِّ ﷺ بقولِه: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٦٦).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٢٠٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٦٧).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾

ولمَّا ذكر ما تقدَّم من لينِه ﷺ لأضعفِ النَّاسِ -النِّساءِ-، وحُسْنِ أدبِه، وكريمِ عِشْرَتِه؛ لأنَّه مجبولٌ علىٰ الشَّفقةِ علىٰ عبادِ اللهِ والرَّحمةِ لهم، وختم بما للمؤمنين من الشَّرفِ، وللهِ من تمامِ القدرةِ؛ أنتج ذلك القطعَ بإذلالِ أعدائِهم وإخزائِهم، فقال مُدارِيًا لهم من خطرِ ذلك اليوم بيدِ أنصحِ الخلقِ؛ ليكونَ ﷺ جامعًا في طاعتِه ﷻ بينَ المُتضادَّاتِ من اللِّينِ والشِّدَّةِ، والرِّضىٰ والغضبِ، والحِلْمِ والانتقامِ، وغيرِها، فيكونُ ذلك أدلَّ علىٰ التَّعبُّدِ للهِ بما أمر به ﷻ، والتَّخلُّق بأوامرِه وكُلِّ ما يُرضِيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

لمَّا أبلغ الكفارَ ما سيَحِلُّ بهم في الآخرةِ تصريحًا بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾، وتعريضًا بقولِه: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾؛ أمر رسولَه ﷺ بمَسمَعٍ منهم بأن يُجاهِدَهم ويُجاهِدَ المُستَتِرينَ لكفرِهم بظاهرِ الإيمانِ نفاقًا، حتىٰ إذا لم تُؤَثِّرْ فيهم الموعظةُ بعقابِ الآخرةِ يَخْشَوْنَ أن يُسلَّطَ عليهم عذابُ السَّيفِ في العاجلةِ، فيُقلِعوا عن الكفرِ، فيُصلِحَ نفوسَهم، وإنَّما أمر رسولَه ﷺ بذلك لأنَّ الكفارَ تألَّبوا مع المنافقين بعدَ هجرةِ النبيِّ ﷺ، فاتَّخذوهم عيونًا لهم وأيديَ يَدُسُّون بها الأذىٰ للنَّبيِّ ﷺ وللمؤمنين، فهذا نداءٌ ثانٍ للنَّبيِّ ﷺ يأمرُه بإقامةِ صلاحِ عمومِ الأُمَّةِ بتطهيرِها من الخُبَثاءِ، بعدَ أن أمره بإفاقة من عليهما الغفلة عن شيءٍ من واجبِ حُسْنِ المعاشرةِ مع الزَّوجِ[2].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٧٢).

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

ولمَّا كان أمرُ الاستئصالِ في الإنجاءِ والإهلاكِ أشبهَ شيءٍ بحالِ أهلِ الآخرةِ في الدَّينُونةِ بالعدلِ والفضلِ، وكان المُفتتَحُ به السُّورةُ عتابَ النِّساءِ، ثم أتبع بالأمرِ بالتَّأديبِ لجميعِ الأُمَّةِ، إلىٰ أن ختم بهلاكِ المُخالِفِ في الدَّارينِ، وكان للكُفَّارِ قراباتٌ بالمسلمين وكانوا يَظُنُّون أنَّها ربما تنفعُهم، وللمسلمين قراباتٌ بالكفارِ وكانوا ربما تَوهَّموا أنَّها تَضُرُّهم؛ قال مُجِيبًا لِما يتخيَّلُ من ذلك؛ تأديبًا لمن يُنكِرُ عليه ﷺ من النِّساءِ وغيرِهنَّ: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾(١).

أعقبت جملة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ الآية المقصود منها تهديدهم بعذابِ السَّيفِ في الدنيا وإنذارهم بعذابِ الآخرةِ، وما قارَن ذلك من مقابلةِ حالِهم بحالِ المؤمنين، بأن ضرَب مَثَلَينِ للفريقينِ بنظيرينِ في حالَيْهما؛ لتزدادَ الموعظةُ وضوحًا، ويزدادَ التَّنويهُ بالمؤمنين استنارةً، فالجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا. وهذا المثلُ لا يخلو من تعريضٍ بحَثِّ زوجَيِ النبيِّ ﷺ علىٰ طاعتِه، وبأنَّ رضا اللهِ تعالىٰ يتبعُ رضا رُسُلِه. فقد كان الحديثُ عن زوجتَيِ النبيِّ ﷺ قريبًا، وكان عملُهما ما فيه بارقةٌ من مخالفةٍ، وكان في المَثَلَينِ ما فيه إشعارٌ بالحالينِ(٢).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٧٣).

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾

ولمَّا أتمَّ مَثَلَ النِّذارةِ بأنَّ طاعةَ المُطِيعِ لا تنفعُ العاصيَ، وإن كان أقربَ النَّاسِ إلىٰ المُطِيعِ، إلَّا إن كان له أساسٌ يصحُّ البناءُ عليه، ويجوزُ الاعتدادُ به والنَّظرُ إليه؛ أَتبعَه مَثَلَ البشارةِ بأنَّ عصيانَ العاصي لا يَضُرُّ المُطِيعَ، فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(1).

لمَّا ضرب المَثَلَ للذين كفروا، أَعقَبَ بضربِ مَثَلٍ للذين آمنوا؛ لتَحصُلَ المقابلةُ فيتَّضِحَ مقصودُ المَثَلَينِ معًا، وجريًا علىٰ عادةِ القرآنِ في إتباعِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ، وجعلِ المَثَلِ للذين آمنوا بحالِ امرأتينِ لتحصلَ المقابلةُ للمَثَلَينِ السَّابقينِ، فهذا من مراعاةِ النَّظيرِ في المثلينِ، وجاء أحدُ المثلينِ للذين آمنوا لإخلاصِ الإيمانِ، والمثلُ الثَّاني لشِدَّةِ التَّقوىٰ، فكانت امرأةُ فرعونَ مثلًا لمتانةِ المؤمنين، ومريمُ مثلًا للقانتين؛ لأنَّ المؤمنين تبرَّؤوا من ذوي قرابتِهم الذين بقوا علىٰ الكفرِ بمكَّةَ(2).

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

ولمَّا أتمَّ المثلَ بمَن أساءتا الأدبَ فلم تنفعْهما الوصلةُ بالأولياءِ، بل زادتْهما ضررًا؛ للإعراضِ عن الخيرِ مع قُرْبِه وتيسُّرِه، وبمَن أحسنت الأدبَ فلم تَضُرَّها الوصلةُ بأعدىٰ الأعداءِ، بل زادَتْها خيرًا؛ لإحسانِها مع قيامِ المغتر بها عن الإحسانِ؛ ضرب

(1) نظم الدرر (٢٠/ ٢١٠).

(2) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٧٦).

مثلًا بقرينتِها في قولِه ﷺ كما رواه الشَّيخانِ عن أبي موسىٰ رضي الله عنه: «كمُل من الرِّجالِ كثيرٌ، ولم يَكمُلْ من النِّساءِ إلَّا مريمُ بنتُ عِمْرانَ وآسِيةُ بنتُ مُزاحِمٍ، وفضلُ عائشةَ علىٰ النِّساءِ كفضلِ الثَّريدِ علىٰ الطَّعامِ»[(١)]، ومعَ مقارنتِها لها في الكمالِ، فبينَ حالَيْهما في الثُّيُوبةِ والبكورةِ طِباقٌ، فلم يَبْتَلِها سبحانه بخُلْطةِ زوجٍ جمعًا بينَ ما تقدَّم من صِنْفَيِ الثَّيِّباتِ والأبكارِ اللَّاتي يُعطِيهما لنبيِّه ﷺ، فأحسنت الأدبَ في نفسِها مع اللهِ ومعَ سائرِ مَن لَزِمَها الأدبُ معَه من عبادِه، فأحسن إليها رعايةً لها علىٰ ما وفَّقها إليه من الإحسانِ، وذلك رعايةً لأسلافِها إذ كانوا من أعظمِ الأحبابِ، فقال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٢١٢-٢١٣).

سُورَةُ المُلْكِ

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

ودَلَّ على ذلك بقولِه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[1].

صفةٌ لـ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، فلمَّا شمل قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ تعلُّقَ القدرةِ بالموجودِ والمعدومِ، أُتبِعَ بوصفِه تعالى بالتَّصرُّفِ الذي منه خلقُ المخلوقاتِ وأعراضِها؛ لأنَّ الخلقَ أعظمُ تَعلُّقِ القدرةِ بالمقدورِ؛ لدلالتِه على صفةِ القدرةِ وعلى صفةِ العلمِ، وأُوثِرَ بالذِّكرِ من المخلوقاتِ الموتُ والحياةُ؛ لأنَّهما أعظمُ العوارضِ لجنسِ الحيوانِ، الذي هو أعجبُ الموجودِ على الأرضِ، والذي الإنسانُ نوعٌ منه، وهو المقصودُ بالمُخاطَبَةِ بالشَّرائعِ والمواعظِ، فالإماتةُ تَصرُّفٌ في الموجودِ بإعدادِه للفناءِ، والإحياءُ تَصرُّفٌ في المعدومِ بإيجادِه ثم إعطائِه الحياةَ ليستكملَ وجودَ نوعِه، فليس ذِكرُ خلقِ الموتِ والحياةِ تفصيلًا لمعنى المُلْكِ، بل هو وصفٌ مُستقِلٌّ، والاقتصارُ على خلقِ الموتِ والحياةِ لأنَّهما حالتانِ هما مَظهَرا تَعلُّقِ القدرةِ بالمقدورِ في الذَّاتِ والعَرَضِ؛ لأنَّ الموتَ والحياةَ عَرَضانِ والإنسانَ معروضٌ لهما، والعَرَضُ لا يقومُ بنفسِه، فلمَّا ذُكر خلقُ العَرَضِ، عُلم من ذِكْرِه خلقُ معروضِه بدلالةِ الاقتضاءِ، وأُوثِرَ ذِكرُ الموتِ والحياةِ لِما يَدُلَّانِ عليه من العِبرةِ بتداولِ العَرَضَينِ المُتضادَّينِ على معروضٍ واحدٍ، وللدَّلالةِ على كمالِ صُنْعِ الخالقِ، فالموتُ

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢١٩).

والحياةُ عَرَضانِ يَعرِضانِ للموجودِ من الحيوانِ، والموتُ يَعُدُّ الموجودَ للفناءِ، والحياةُ تَعُدُّ الموجودَ للعملِ للبقاءِ مُدَّةً[١].

شروعٌ في تفصيلِ بعضِ أحكامِ المُلْكِ وآثارِ القدرةِ، وبيانُ ابتنائِهما على قوانينِ الحِكَمِ والمصالحِ، واستتباعِهما لغاياتٍ جليلةٍ[٢].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾

ولمَّا أثبت له سبحانه صفتَي العزِّ والغَفْرِ على أبلغِ ما يكونُ، دَلَّ على ذلك بقولِه دالًّا على كمالِ تفرُّدِه بعدَ آياتِ الأنفُسِ بآياتِ الآفاقِ؛ إرشادًا إلى معالي الأخلاقِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾[٣].

صفةٌ ثانيةٌ للذي بيدِه المُلْكُ، أعقب التَّذكيرَ بتصرُّفِ اللهِ بخلقِ الإنسانِ وأهمِّ أعراضِه بذِكْرِ خلقِ أعظمِ الموجوداتِ غيرِ الإنسانِ -وهي السَّماواتُ-، ومُفيدةٌ وصفًا من عظيمِ صفاتِ الأفعالِ الإلهيَّةِ؛ ولذلك أُعِيدَ فيها اسمُ الموصولِ لتكونَ الجملُ الثَّلاثُ جاريةً على طريقةٍ واحدةٍ[٤].

ولمَّا كان العلمُ بكونِه تعالى قادرًا مُتقدِّمًا على العلمِ بكونِه عالمًا، لا جَرَمَ ذكَر أوَّلًا دلائلَ القدرةِ وثانيًا دلائلَ العلمِ، أمَّا دليلُ القدرةِ فهو قولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾، وأمَّا دليلُ العلمِ فهو قولُه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ٢).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٢٢٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٦).

(٥) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٨١).

﴿ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤ ﴾

ولمَّا كان في سياقِ المُجازاةِ بالأعمالِ الصَّالحةِ والطَّالحةِ التي دَلَّ عدمُ الانتصافِ من الظَّالمين في هذه الدَّارِ علىٰ أنَّها تكونُ بعدَ البعثِ، وكانت العِزَّةُ مُقتضِيةً لذلك، وكان خلقُه ﷻ لهذا الوجودِ علىٰ هذا النِّظامِ مُثبِتًا لها، وكانت أعمالُهم أعمالَ المُنكِرِ لها؛ ولا سِيَّما تصريحُهم بأنَّه لا بعثَ؛ دَلَّ علىٰ عَظَمةِ عِزَّتِه بما أبدعه من هذا السَّقفِ الرَّفيعِ البديعِ، ثم بجعلِه محفوظًا هذا الحفظَ المنيعَ، علىٰ تعاقبِ الأحقابِ وتكرُّرِ السِّنين، فقال مُعبِّرًا بأداةِ التَّراخي، دالًّا علىٰ جلالِه بإدامةِ التَّكريرِ طولَ الزَّمانِ: ﴿ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴾[1].

وعطفُ ﴿ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ ﴾ دالٌّ علىٰ التَّراخي الرُّتبيِّ، كما هو شأنُ «ثم» في عطفِ الجملِ، فإنَّ مضمونَ الجملةِ المعطوفةِ بـ«ثم» هنا أهمُّ وأدخلُ في الغرضِ من مضمونِ الجملةِ المعطوفِ عليها؛ لأنَّ إعادةَ النَّظرِ تزيدُ العلمَ بانتفاءِ التَّفاوتِ في الخلقِ رسوخًا ويقينًا[2].

﴿ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ٥ ﴾

ولمَّا أخبر ﷻ عن بديعِ هذا الخلقِ، ونبَّه علىٰ بعضِ دقائقِه، وأمر بالإبصارِ وتكريرِه، وكان السَّامعُ أوَّلَ ما يُصوِّبُ نظرَه إلىٰ السَّماءِ؛ لشرفِها، وغريبِ صُنْعِها، وبديعِ وضعِها، ومنيعِ رفعِها، فكان بحيثُ يتوقَّعُ الإخبار عن هذه الزِّينةِ التي رُصِّعَتْ بها؛ قال في جوابِ مَن توقَّعه، مُؤكِّدًا بالقَسَمِ إعلامًا بأنَّه ينبغي أن يَبعُدَ العاقلُ عن إنكارِ شيءٍ ممَّا يُنسَبُ إلىٰ صاحبِ هذا الخلقِ من الكمالِ، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه:

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٢٨-٢٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٩).

لقد كفىٰ هذا القدرُ في الدَّلالةِ علىٰ عَظَمةِ مُبدِعِ هذا الصُّنعِ وتمامِ قدرتِه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾(١).

انتقل من دلائلِ انتفاءِ الخللِ عن خلقةِ السَّماواتِ، إلىٰ بيانِ ما في إحدىٰ السَّماواتِ من إتقانِ الصُّنعِ، فهو ممَّا شمله عمومُ الإتقانِ في خلقِ السَّماواتِ السَّبعِ، وذِكرُه مِن ذِكْرِ بعضِ أفرادِ العامِّ كذِكْرِ المثالِ بعدَ القاعدةِ الكُلِّيَّةِ، فدقائقُ السَّماءِ الدنيا أوضحُ دلالةً علىٰ إتقانِ الصُّنعِ؛ لكونِها نُصْبَ أَعيُنِ المُخاطَبين، ولأنَّ مِن بعضِها يَحصُلُ تَخلُّصٌ إلىٰ التَّحذيرِ من حِيَلِ الشَّياطينِ وسوءِ عواقبِ أتباعِهم(٢).

بيانٌ لكونِ خلقِ السَّماواتِ في غايةِ الحُسْنِ والبهاءِ إثْرَ بيانِ خُلُوِّها عن شائبةِ القصورِ، وتصديرُ الجملةِ بالقَسَمِ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بمضمونِها(٣).

كلامٌ مَسُوقٌ للحثِّ علىٰ النَّظرِ قدرةً وامتنانًا(٤).

ثم صرَّح بذِكْرِ حُسْنِها، فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾(٥).

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ⑥﴾

ولمَّا أخبر سبحانه عن تهيئتِه العذابَ لهم بالخصوصِ، أخبر أيضًا عن تهيئتِه لكُلِّ عاملٍ بأعمالِهم علىٰ وجهٍ اندرَجوا هم فيه، فقال حاثًّا علىٰ التَّفكُّرِ في عظيمِ انتقامِه الخارجِ عن العادةِ في عدمِ الانطفاءِ؛ لكونِه ليس بسيفٍ ولا عصا، ولا بسوطٍ ونحوِه، بل النَّارِ الخارجةِ عن العادةِ في عدمِ الانطفاءِ، ولا للمُعذَّبِ من الخلاصِ منها مسلكٌ

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٢٩-٢٣٠).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢١).
(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٤).
(٤) روح المعاني (١٥/ ٩).
(٥) تفسير السعدي (ص: ٨٧٥).

ولا رجاءٌ، بل كُلَّما طال الزَّمانُ، تَلَقَّته بالشِّدَّةِ والامتدادِ، بئسَ الجامعةُ للمَذامِّ في كلِّ انتقامٍ مع الإهانةِ والاحتقارِ: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

هذا تتميمٌ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ العذابَ أُعِدَّ للشَّياطينِ خاصَّةً، والمعنىٰ: ولجميعِ الذين كفروا باللهِ عذابُ جهنَّمَ، فالمرادُ عامَّةُ المشركين، ولأجلِ ما في الجملةِ من زيادةِ الفائدةِ غايَرتِ الجملةَ التي قبلَها؛ فلذلك عُطِفَتْ عليها[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن في أوَّلِ السورةِ أنَّه قادرٌ علىٰ جميعِ المُمكِناتِ، ثم ذكَر بعدَه أنَّه وإنْ كان قادرًا علىٰ الكُلِّ إلَّا أنَّه إنَّما خلَق ما خلَق لا للعبثِ والباطلِ، بل لأجلِ الابتلاءِ والامتحانِ، وبيَّنَ أنَّ المقصودَ من ذلك الابتلاءِ أن يكونَ عزيزًا في حقِّ المُصِرِّين علىٰ الإساءةِ، غفورًا في حقِّ التَّائبين، ومن ذلك كان كونُه عزيزًا وغفورًا لا يَثبُتانِ إلَّا إذا ثبت كونُه تعالىٰ كاملًا في القدرةِ والعلمِ؛ بيَّن ذلك بالدَّلائلِ المذكورةِ، وحينئذ ثبت كونُه قادرًا علىٰ تعذيبِ العصاةِ، فقال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[3].

﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧﴾

ولمَّا عبَّر عن ذَمِّها بمجمعِ المَذامِّ، أتبعه الوصفَ لبعضِ تَجهُّمِها علىٰ وجهِ التَّعليلِ، فقال دالًّا بالإلقاءِ علىٰ خساستِهم وحقارتِهم، مُعبِّرًا بأداةِ التَّحقيقِ دلالةً علىٰ أنَّه أمرٌ لا بدَّ منه، وبالبناءِ للمفعولِ علىٰ أنَّ إلقاءَهم في غايةِ السُّهولةِ علىٰ كلِّ مَن يُؤمَرُ به: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٨٦).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٢٣٤).

الجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لبيانِ ذمِّ مصيرِهم في جهنَّمَ؛ أي: من جملةِ مَذامِّ مصيرِهم مَذَمَّةُ ما يسمعونه فيها من أصواتٍ مُؤلِمةٍ مُخيفةٍ(١).

ثم إنَّه تعالىٰ وصف ذلك العذابَ، فقال: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ﴾(٢).

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨﴾

ولمَّا وصفها بالفَورانِ، بيَّن سببَه تمثيلًا لشِدَّةِ اشتعالِها عليهم، فقال: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾(٣).

أتبع وصفَ ما يجدُه أهلُ النَّارِ عندَ إلقائِهم فيها من فظائعِ أهوالِها، بوصفِ ما يَتلقَّاهم به خَزَنةُ النَّارِ، فالجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ أثاره وصفُ النَّارِ عندَ إلقاءِ أهلِ النَّارِ فيها، إذ يتساءلُ السَّامعُ عن سببِ وقوعِ أهلِ النَّارِ فيها، فجاء بيانُه بأنَّه تكذيبُهم رسلَ اللهِ الذين أُرسِلوا إليهم، مع ما انضَمَّ إلىٰ ذلك من وصفِ ندامةِ أهلِ النَّارِ علىٰ ما فرَط منهم من تكذيبِ رسلِ اللهِ، وعلىٰ إهمالِهم النَّظرَ في دعوةِ الرُّسلِ، والتَّدبُّرِ فيما جاؤوهم به(٤).

﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩﴾

جملةُ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ مُعترِضةٌ بينَ كلامِ خَزَنةِ جهنَّمَ اعتراضًا يشيرُ إلىٰ أنَّ الفَوْجَ قاطَع كلامَ الخَزَنةِ بتعجيلِ الاعترافِ بما وبَّخوهم عليه، وذلك من شِدَّةِ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٨٦).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٢٣٤-٢٣٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤).

الخوفِ، وفُصِلت الجملةُ لوجهينِ: لأنَّها اعتراضٌ، ولوقوعِها في سياقِ المحاورةِ كما تقدَّم غيرَ مرَّةٍ، وكان جوابُهم جوابَ المُتحسِّرِ المتندِّم، فابتدؤوا الجوابَ دفعةً بحرفِ ﴿بَلَىٰ﴾ المفيدِ نقيضَ النَّفي في الاستفهامِ، فهو مفيدٌ معنىٰ: جاءنا نذيرٌ؛ ولذلك كان قولُهم: ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ مُؤكِّدًا لِما دلَّتْ عليه ﴿بَلَىٰ﴾، وهو من تكريرِ الكلامِ عندَ التَّحسُّرِ، مع زيادةِ التَّحقيقِ بـ﴿قَدْ﴾، وذلك التَّأكيدُ هو مناطُ النَّدامةِ والاعترافِ بالخطأِ(١).

جملةٌ مستأنفةٌ جوابُ سؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه قيل: فماذا قالوا بعدَ هذا السُّؤال؟ فقيل: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾(٢).

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾

ولمَّا حكىٰ سبحانه ما قالوه للخَزَنةِ تَحسُّرًا علىٰ أنفسِهم، حكىٰ ما قالوه بعدَ ذلك فيما بينَهم زيادةً في التَّحزُّنِ، ومقتًا لأنفسِهم بأنفسِهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٣).

أُعِيدَ فعلُ القولِ للإشارةِ إلىٰ أنَّ هذا كلامَ آخَرُ غيرُ الذي وقع جوابًا عن سؤالِ خَزَنةِ جهنَّمَ، وإنَّما هذا قولٌ قالوه في مجامعِهم في النَّارِ تَحسُّرًا وتَندُّمًا(٤).

ثم حكىٰ عنهم مقالةً أخرىٰ قالوها بعدَ تلك المقالةِ، فقال: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥).

(٢) فتح القدير (٥/ ٣١١).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٢٣٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧).

(٥) فتح القدير (٥/ ٣١١).

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾

ولمَّا كان هذا الإقرارُ زائدًا في ضررِهم، وإنَّما كان يكونُ نافعًا لهم لو قالوه في دارِ العملِ ونَدِموا عليه وأقلَعوا عنه؛ سبَّب عنه قولَه ضامًّا إلىٰ ما تقدَّم من تعذيبِ أرواحِهم بمَقْتِ الملائكةِ لهم ثم مَقْتِهم لأنفسِهم مقتَ اللهِ لهم: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

الفاءُ الأولىٰ فصيحةٌ، والتقديرُ: إذ قالوا بذلك فقد تَبيَّن أنَّهم اعترفوا هنالك بذنبِهم؛ أي: فهم محقوقون بما هم فيه من العذاب، والفاءُ الثَّانيةُ للتَّسبُّب؛ أي: فهم جَدِيرون بالدعاءِ عليهم بالإبعادِ، أو جَدِيرون بالتَّعجُّبِ من بُعْدِهم عن الحقِّ أو عن رحمةِ اللهِ تعالىٰ، ويحتملُ أيضًا أن يُقالَ لهم يومَ الحسابِ عَقِبَ اعترافِهم، تنديمًا يزيدُهم ألمًا في نفوسِهم فوقَ ألمِ الحريقِ في جلودِهم[2].

فلمَّا اعترفوا هذا الاعترافَ، قال اللهُ سبحانه: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[3].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾

ولمَّا ذكر سبحانه أهلَ المعاملةِ بصفةِ العِزَّةِ لِما حصل لهم من العِزَّةِ، أَتبَعهم أضدادَهم المطوِّعين أنفسَهم لإشارةِ العقلِ، المتأهِّلين لنعتِ المعرفةِ، فقال مُؤكِّدًا لِما للأضدادِ من التَّكذيبِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾[4].

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٣٨-٢٣٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٨).
(٣) فتح القدير (٥/ ٣١١).
(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٢٤٠).

اعتراضٌ يفيدُ استئنافًا بيانيًّا جاء علىٰ سَنَنِ أساليبِ القرآنِ من تعقيبِ الرَّهبةِ بالرَّغبة، فلمَّا ذكر ما أَعَدَّ للكافرين المُعرِضين عن خشيةِ اللهِ، أَعقَبَه بما أعدَّ للذين يَخْشَوْنَ ربَّهم بالغيبِ من المغفرةِ والثَّوابِ؛ للعلمِ بأنَّهم يترقَّبون ما يُميِّزُهم عن أحوالِ المشركين، وقدَّم المغفرةَ تطمينًا لقلوبِهم؛ لأنَّهم يَخْشَوْنَ المُؤاخَذةَ علىٰ ما فرَط منهم من الكفرِ قبلَ الإسلامِ، ومن اللَّمَمِ ونحوِه، ثم أُعقِبَتْ بالبشارةِ بالأجرِ العظيم، فكان الكلامُ جاريًا علىٰ قانونِ تقديمِ التَّخليةِ، أو تقديمِ دفعِ الضُّرِّ علىٰ جلبِ النَّفع[1].

لمَّا ذكر حالةَ الأشقياءِ الفُجَّار، ذكر حالةَ السُّعَداءِ الأبرار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾[2].

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾

ولمَّا كانت الخشيةُ من الأفعالِ الباطنة، وكان كلُّ أحدٍ يدَّعِي أنَّه يخشىٰ اللهَ؛ قال مُخوِّفًا لهم بعلمِه، نادبًا إلىٰ مراقبتِه لئلَّا يغترُّوا بحِلْمِه، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه لإيجابِ المراقبةِ: فأَبطَنوا أفعالَهم وأظهَروها: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[3].

عطفٌ علىٰ الجملةِ السَّابقةِ عطفَ غرضٍ علىٰ غرضٍ، وهو انتقالٌ إلىٰ غرضٍ آخَرَ لمناسبةِ حكايةِ أقوالِهم في الآخرةِ بذِكْرِ أقوالِهم في الدنيا، وهي الأقوالُ التي كانت تصدرُ منهم بالنَّيْلِ من رسولِ الله ﷺ، فكان اللهُ يُطلِعُه علىٰ أقوالِهم فيُخبِرُهم النبيُّ ﷺ بأنَّكم قلتم كذا وكذا، فقال بعضُهم لبعضٍ: أَسِرُّوا قولَكم كي لا يسمعَه ربُّ محمدٍ، فأنزل اللهُ: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓ﴾، كذا رُوي عن ابنِ عبَّاسٍ[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٩).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٨٧٦).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٢٤٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٩-٣٠).

ثم عاد سبحانه إلىٰ خطاب الكفار، فقال: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(١).

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾

ثم دلَّ علىٰ ذلك بقولِه مُعجِّبًا ممَّن يتوقَّفُ فيه أدنىٰ توقُّفٍ، ومُنكِرًا عليهم بإثباتِ العلمِ ونفي ضِدِّه علىٰ أبلغِ وجهٍ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾(٢).

جملةُ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ بأن يسألَ سائلٌ منهم: كيف يعلمُ ذاتَ الصُّدورِ؟ والمعروفُ أنَّ ما في نفسِ المرءِ لا يعلمُه غيرُ نفسِه؟ فأُجيبوا بإنكارِ انتفاءِ علمِه تعالىٰ بما في الصُّدور، فإنَّه خالقُ أصحابِ تلك الصُّدورِ، فكما خلَقهم وخلَق نفوسَهم، جعل اتِّصالًا لتعلُّقِ علمِه بما يختلجُ فيها، وليس ذلك بأعجبَ من علمِ أصحابِ الصُّدورِ بما يدورُ في خَلَدِها(٣).

لمَّا ذكر كونَه عالمًا بالجهرِ وبالسِّرِّ وبما في الصُّدورِ، ذكر الدَّليلَ علىٰ كونِه عالمًا بهذه الأشياء، فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾(٤).

ثم قال مُستدِلًّا بدليلٍ عقليٍّ علىٰ علمِه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾(٥).

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

ولمَّا كان ذلك أمرًا غامضًا، دلَّ عليه بأمرٍ مُشاهَدٍ، أبدعه بلُطْفِه، وأتقنه بخِبْرَتِه؛ لاستدعاءِ الشُّكرِ من عبادِه علىٰ ما أَبدَعَ لهم ومَنَّ عليهم به من النِّعَمِ الباهرةِ التي بها

(١) فتح القدير (٥/ ٣١٢).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٢٤٣).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٠).
(٤) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٨٩).
(٥) تفسير السعدي (ص: ٨٧٦).

قِوامُهم، ولولاه لَما كان لهم بقاءٌ، فقال مُستأنِفًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾(١).

استئنافٌ فيه عَوْدٌ إلىٰ الاستدلالِ، وإدماجٌ للامتنانِ، فإنَّ خلقَ الأرضِ التي تحوي النَّاسَ علىٰ وجهِها أدلُّ علىٰ قدرةِ اللهِ تعالىٰ وعلمِه من خلق الإنسان، إذ ما الإنسانُ إلَّا جزءٌ من الأرضِ أو كجزءٍ منها، فلمَّا ضرب لهم بخلقِ أنفسِهم دليلًا علىٰ علمِه الدَّالِّ علىٰ وحدانيَّتِه، شفَعَه بدليلِ خلقِ الأرضِ التي هم عليها، مع المِنَّةِ بأنَّه خلقها هيِّنةً لهم، صالحةً للسَّيرِ فيها، مُخرِجةً لأرزاقِهم، وذيَّل ذلك بأنَّ النُّشورَ منها، وأنَّ النُّشورَ إليه لا إلىٰ غيرِه(٢).

اعلَمْ أنَّ تَعلُّقَ هذه الآيةِ بما قبلَها هو أنَّه تعالىٰ بيَّن بالدَّلائلِ كونَه عالمًا بما يُسِرُّون وما يُعلِنون، ثم ذكر بعدَه هذه الآيةَ علىٰ سبيلِ التَّهديد، ونظيرُه مَن قال لعبدِه الذي أساء إلىٰ مولاه في السِّرِّ: يا فلانُ، أنا أعرفُ سِرَّك وعلانيتَك، فاجلِسْ في هذه الدَّارِ التي وهبتُها منك، كلُّ هذا الخيرِ الذي هيَّأتُه لك ولا تأمنُ تأديبي؛ فإنِّي إن شئتُ جعلتُ هذه الدَّارَ -التي هي منزلُ أمنِك، ومركزُ سلامتِك- منشأً للآفاتِ التي تتحيَّرُ فيها، ومنبعًا للمِحَنِ التي تَهلِكُ بسببِها؛ فكذا ها هنا، كأنَّه تعالىٰ قال: أيُّها الكفارُ، اعلَموا أنِّي عالمٌ بسِرِّكم وجهرِكم، فكونوا خائفين مِنِّي، مُحترِزين من عقابي، فهذه الأرضُ التي تمشون في مناكبِها، وتعتقدون أنَّها أبعدُ الأشياءِ عن الإضرارِ بكم، أنا الذي ذلَّلتُها إليكم، وجعلتُها سببًا لنفعِكم، فامشُوا في مناكبِها، فإنَّني إن شئتُ خسفتُ بكم هذه الأرضَ، وأنزلتُ عليها من السَّماءِ أنواعَ المِحَنِ، فهذا هو الوجهُ في اتِّصالِ هذه الآيةِ بما قبلَها(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣١).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٩١).

ثم امتنَّ سبحانه علىٰ عبادِه، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[١].

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾

ولـمَّا لم يكنْ بعدَ الاستعطافِ إلَّا الإنذارُ علىٰ الخلافِ، قال مُهدِّدًا للمكذِّبين بعذابٍ دونَ عذابِ جهنَّمَ، مُنكِرًا عليهم الأمانَ بعدَ إقامةِ الدَّليلِ علىٰ أنَّ بيدِه المُلْكَ، وأنَّه قادرٌ علىٰ ما يريدُ منه بأسبابِ جنودِه وبغيرِ سببٍ، مُقرِّرًا بعدَ تقريرِ حاجةِ الإنسانِ وعجزِه أنَّه لا حِصنَ له ولا مانعَ له بوجهٍ من عذابِ اللهِ، فهو دائمُ الافتقارِ، مُلازِمٌ للصَّغارِ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾[٢].

انتقالٌ من الاستدلالِ إلىٰ التَّخويفِ؛ لأنَّه لمَّا تقرَّر أنَّه خالقُ الأرضِ ومُذلِّلُها للنَّاسِ، وتقرَّر أنَّهم ما رَعَوْا خالقَها حقَّ رعايتِه، فقد استحَقُّوا غضبَه وتسليطَ عقابِه بأن يصيرَ مَشْيُهم في مناكبِ الأرضِ إلىٰ تَجَلجُلٍ في طبقاتِ الأرض، فالجملةُ مُعترِضةٌ، والاستفهامُ إنكارٌ وتوبيخٌ وتحذيرٌ[٣].

ثم إنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّ بقاءَهم مع هذه السَّلامةِ في الأرضِ إنَّما كان بفضلِ اللهِ ورحمتِه، وأنَّه لو شاء لقلب الأمرَ عليهم، ولأمطر عليهم من سحابِ القهرِ مطرَ الآفاتِ، فقال تقريرًا لهذا المعنىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾[٤].

(١) فتح القدير (٥/ ٣١٢).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٢٤٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٩١-٥٩٢).

﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا كانوا ربما استبعدوا الخسفةَ، وكانوا يعهدون ما ينزلُ من السَّماءِ من النَّدىٰ والأمطارِ والصَّواعقِ، عادَل بذلك قولَه: ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾[1].

﴿ أَمْ ﴾ لإضرابِ الانتقالِ من غرضٍ إلىٰ غرضٍ، وهو انتقالٌ من الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّعجيبيِّ إلىٰ آخَرَ مِثْلِه باعتبارِ اختلافِ الأثرينِ الصَّادرينِ عن مفعولِ الفعلِ المُستفهَمِ عنه اختلافًا يُوجِبُ تفاوتًا بينَ كُنْهَيِ الفعلينِ وإن كانا مُتَّحِدَينِ في الغايةِ، فالاستفهامُ الأوَّلُ إنكارٌ علىٰ أمنِهم الذي في السَّماءِ من أن يفعلَ فعلًا أرضيًّا، والاستفهامُ الواقعُ من ﴿ أَمْ ﴾ إنكارٌ عليهم أن يأمنوا من أن يُرسَلَ عليهم من السَّماءِ حاصبٌ، وذلك أمكنُ لمن في السَّماءِ، وأشدُّ وقعًا علىٰ أهلِ الأرضِ[2].

ثم زادَ في التَّخويفِ، فقال: ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾[3].

إضرابٌ عن التَّهديدِ بما ذكر، وانتقالُ التَّهديدِ بوجهٍ آخرَ[4].

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾

ولمَّا كان من المعلومِ أنَّ المأمورَ بإبلاغِهم وإنذارِهم هذا الإنذارَ ﷺ في غايةِ الرحمةِ لهم والشَّفَقةِ عليهم، فهو بحيث يَشُقُّ عليه غايةَ المشقَّةِ ما أفهمَه هذا الكلامُ

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٩٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٩/ ٧).

من إهلاكِهم إن لم يُصدِّقوا، ويُحِبُّ التأنِّيَ بهم؛ لفَت سبحانه الخطابَ إليه عاطفًا - علىٰ ما تقديرُه: فلقد طال إمهالُنا لهم، وحِلْمُنا عنهم، وتعريفُنا لهم بعظيمِ قدرتِنا وهم لا يرجعون، وكثُر وعظُنا لهم، وتصريفُنا القولَ بينهم علىٰ ألسنةِ رُسُلِنا عليهم الصلاة والسلام، وهم يتمادَوْن ولا ينتهون- قولَه مُصوِّرًا لهم ما توعَّدَهم به في أمرٍ محسوسٍ؛ لأنَّ الأمورَ المشاهَداتِ أروعُ للإنسانِ لِما له من التقيُّدِ بالوهمِ، مُؤكِّدًا للإشارةِ إلىٰ أنَّ التكذيبَ مع إقامةِ البراهينِ أمرٌ يجبُ إنكارُه، فلا يكادُ يُصدَّقُ: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾(١).

بعدَ أنْ وجَّه اللهُ إليهم الخطابَ تذكيرًا، واستدلالًا، وامتنانًا، وتهديدًا، وتهويلًا، ابتداءً من قولِه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓ﴾؛ التفَتَ عن خطابِهم إلىٰ الإخبارِ عنهم بحالةِ الغَيْبة، تعريضًا بالغضبِ عليهم بما أتَوْه من كلِّ تكذيبِ الرَّسول ﷺ، فكانوا جديرين بإبعادِهم عن الحضورِ للخطاب؛ فلذلك لم يَقُلْ: ولقد كذَّب الذين من قبلِكم، ولم يقطعْ توجيهَ التَّذكيرِ إليهم والوعيدِ لعلَّهم يتدبَّرون في أنَّ اللهَ لم يدَّخِرْهم نُصْحًا، فالجملةُ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾؛ لمناسبةِ أنَّ ممَّا عُوقِبَ به بعضُ الأُمَمِ المكذِّبين من خسفٍ أو إرسالِ حجارةٍ من السَّماءِ وهم قومُ لوطٍ، ومنهم مَن خُسف بهم مِثلُ أصحابِ الرَّسِّ(٢).

لمَّا خوَّف الكفارَ بهذه التَّخويفاتِ، أكَّد ذلك التَّخويفَ بالمثالِ والبرهانِ؛ أمَّا المثالُ فهو أنَّ الكفارَ الذين كانوا قبلَهم شاهَدوا أمثالَ هذه العقوباتِ بسببِ كفرِهم، فقال: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٩٣).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا ذكَّر بمَصارِعِ الأوَّلين، وكان التَّذكيرُ بالحاصبِ تذكيرًا لقريشٍ بما حصَب به علىٰ قُرْبِ الزَّمانِ عدوَّهم أصحابَ الفيلِ، بما أرسل عليهم من الطَّيرِ الأبابيلِ؛ تحذيرًا لهم من ذلك إنْ تَمادَوْا علىٰ كفرِه، ولم ينقادوا إلىٰ شُكْرِه، فكان التقديرُ تقريرًا لزيادةِ قدرتِه، وحُسْنِ تدبيرِه، ولُطْفِ تربيتِه؛ حيث جبَر الطَّيرَ لضعفِها بالطَّيرانِ ليُكمِلَ بعمومِ رحمانيَّتِه أمرَ معاشِها تقريرًا لأنَّ بيدِه المُلْكَ، وترهيبًا من أن يُنازِعَه أحدٌ في تدبيرِه، مع تبقيةِ القولِ مصروفًا عن خطابِهم؛ إيذانًا بشِدَّةِ حسابِهم، وسوءِ مُنقَلَبِهم ومآبِهم؛ ألم يَرَوْا إلىٰ قدرتِنا علىٰ مَصارِعِ الأوَّلينَ وإهلاكِ المكذِّبين وإنجاءِ المؤمنين؟ عطَف عليه قولَه مُعرِضًا عنهم زيادةً في الإنذارِ بالحَصْبِ من الطَّيرِ وغيرِها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾[1].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ استرسالًا في الدَّلائلِ علىٰ انفرادِ اللهِ تعالىٰ بالتَّصرُّفِ في الموجودات، وقد انتقل من دلالةِ أحوالِ البشرِ وعالَمِهم، إلىٰ دلالةِ أعجبِ أحوالِ العَجْماواتِ، وهي أحوالُ الطَّيرِ في نظامِ حركاتِها في حالِ طيرانِها؛ إذ لا تمشي علىٰ الأرضِ كما هو في حركاتِ غيرِها علىٰ الأرض، فحالُها أقوىٰ دلالةً علىٰ عجيبِ صُنْعِ اللهِ المُنفرِدِ به[2].

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾

ولمَّا كان التقديرُ تقريرًا لذلك: فمَن يُدبِّرُ مصالحَكم ظاهرًا وباطنًا، وفعل هذه الأنواعَ من العذابِ بالمكذِّبين من قبلِكم؛ عطَف عليه قولَه عائدًا إلىٰ الخطابِ؛ لأنَّه

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٥١-٢٥٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٧).

أَقعَدُ في التَّكبيتِ والتَّوبيخِ، وأدلُّ علىٰ أنَّ المخاطَب ليس بأهلٍ لأن يُهابَ، مُقرِّرًا لأنَّه مُختَصٌّ بالملك: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾(١).

«أم» مُنقطِعةٌ، وهي للاضطرابِ الانتقاليِّ من غرضٍ إلىٰ غرضٍ، فبعدَ استيفاءِ غرضِ إثباتِ الإلهيَّةِ الحقِّ للهِ تعالىٰ بالوحدانيَّةِ، وتذكيرِهم بأنَّهم مُفتقِرون إليه؛ انتقل إلىٰ إبطالِ أن يكونَ أحدٌ يدفعُ عنهم العذابَ الذي توعَّدَهم اللهُ به، فوُجِّهَ إليهم استفهامٌ أن يَدُلُّوا علىٰ أحدٍ من أصنامِهم أو غيرِها يُقالُ فيه: هذا هو الذي ينصرُ من دونِ الله، فإنَّهم غيرُ مُستطِيعين تعيينَ أحدٍ لذلك إلَّا إذا سلَكوا طريقَ البهتانِ، وما هم بسالِكيه في مِثْلِ هذا؛ لافتضاحِ أمرِه، وهذا الكلامُ ناشئٌ عن قولِه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآيةَ، فهو مِثلُه مُعترِضٌ بينَ حُجَجِ الاستدلالِ(٢).

اعلَمْ أنَّ الكافرين كانوا يمتنعون عن الإيمان، ولا يلتفتون إلىٰ دعوةِ الرسولِ ﷺ، وكان تعويلُهم علىٰ شيئينِ؛ أحدُهما: القُوَّةُ التي كانت حاصلةً لهم بسببِ مالِهم وجندِهم، والثَّاني: أنَّهم كانوا يقولون: هذه الأوثانُ تُوصِلُ إلينا جميعَ الخيراتِ، وتدفعُ عنَّا كلَّ الآفاتِ، وقد أبطل اللهُ عليهم كلَّ واحدٍ من هذينِ الوجهينِ، أمَّا الأوَّلُ فبقولِه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾(٣).

ثم بكَّت تعالىٰ المشركين بنفيِ أن يكونَ لهم ناصرٌ غيرُه سبحانه، بقولِه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤١).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٩٤).

(٤) محاسن التأويل (٩/ ٢٩٣).

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾

ولمَّا قدَّم أعظمَ الرَّحمةِ بالحِياطةِ والنُّصرةِ المُوجِبةِ للبقاءِ، أَتبعَه ما يتمُّ به البقاءُ، فقال: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾[(١)].

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ انتقالٌ آخرُ، والكلامُ على أسلوبِ قولِه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾، وهذا الكلامُ ناظرٌ إلى قولِه: ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ على طريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المعكوسِ[(٢)].

أمَّا الثَّاني فهو قولُه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾[(٣)].

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا كان هذا فعلَ مَن لا بصرَ له ولا بصيرةَ، سبَّب عنه قولَه مُمثِّلًا للمُوحِّدِ والمشركِ بسالكَينِ، ولدِينَيْهما بمسلكَينِ: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٤)].

هذا مَثَلٌ ضربه اللهُ للكافرين والمؤمنين، أو لرجلينِ: كافرٍ ومؤمنٍ؛ لأنَّه جاء مُفرَّعًا على قولِه: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾، وقولِه: ﴿بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾، وما اتَّصلَ ذلك به من الكلامِ الذي سِيقَ مَساقَ الحُجَّةِ عليهم بقولِه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾، ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾، وذلك ممَّا اتَّفق عليه المفسِّرون على اختلافِ مَناحِيهم، ولكنْ لم يُعرِّجْ أحدٌ منهم على بيانِ كيف يتعيَّنُ التَّمثيلُ الأوَّلُ للكافرين والثَّاني للمؤمنين حتى يظهرَ وجهُ إلزامِ اللهِ المشركين بأنَّهم أهلُ المَثَلِ الأوَّلِ مَثَلِ السَّوءِ، فإذا لم يتعيَّنْ ذلك من الهيئةِ المُشْبِهةِ، لم يتَّضِحْ إلزامُ المشركين بأنَّ حالَهم

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٥٥-٢٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٩٤).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٢٥٧).

حالُ التَّمثيلِ الأوَّل، فيخالُ كلٌّ من الفريقينِ أنَّ خصمَه هو مَضربُ المثلِ السُّوءِ، والذي انقدح لي: أنَّ التَّمثيلَ جرىٰ علىٰ تشبيهِ حالِ الكافرِ والمؤمنِ بحالةِ مَشْيِ إنسانٍ مُختلفةٍ، وعلىٰ تشبيهِ الدِّينِ بالطَّريقِ المسلوكةِ كما يقتضيه قولُه: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فلا بدَّ من اعتبارِ مَشْيِ المُكِبِّ علىٰ وجهِه مشيًا علىٰ صراطٍ مُعوَجٍّ، وتعيَّن أن يكونَ في قولِه: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ استعارةٌ أخرىٰ بتشبيهِ حالِ السَّالكِ صراطًا مُعوَجًّا في تأمُّلِه وترسُّمِه آثارَ السَّيرِ في الطَّريقِ غيرِ المستقيمِ خشيةَ أن يَضِلَّ فيه، بحالِ المُكِبِّ علىٰ وجهِه يتوسَّمُ حالَ الطَّريق، وقرينةُ ذلك مقابلتُه بقولِه: ﴿سَوِيًّا﴾ المُشعِرِ بأنَّ «مُكِبًّا» أُطلِقَ علىٰ غيرِ السَّوِيِّ، وهو المُنحنِي المُطَأْطِئِ يتوسَّمُ الآثارَ اللَّائحةَ من آثارِ السَّائرين لعلَّه يعرفُ الطَّريقَ المُوصِلةَ إلىٰ المقصودِ. فالمشركُ يتوجَّهُ بعبادتِه إلىٰ آلهةٍ كثيرةٍ، لا يدري لعلَّ بعضَها أقوىٰ من بعضٍ، وأعطفَ علىٰ بعضِ القبائلِ من بعضٍ، فقد كانت ثَقِيفُ يعبدون اللَّاتَ، وكان الأوسُ والخزرجُ يعبدون مناةَ، ولكُلِّ قبيلةٍ إلهٌ أو آلهةٌ، فتقسَّموا الحاجاتِ عندَها، واستنصَر كلُّ قومٍ بآلهتِهم، وطَمِعوا في غنائِها عنهم، وهذه حالةٌ يعرفونها فلا يمترون في أنَّهم مَضرِبُ المثلِ الأوَّلِ، وكذلك حالُ أهلِ الإشراكِ في كلِّ زمان[١].

لمَّا وصَفهم بالعُتوِّ والنُّفور، نبَّه علىٰ ما يدلُّ علىٰ قُبْحِ هذينِ الوصفينِ، فقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢].

ثم ضرب سبحانه مثلًا للمشركِ والموحِّدِ؛ لإيضاحِ حالِهما، وبيانِ مآلِهما، فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٩٤).

(٣) فتح القدير (٥/ ٣١٤).

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كان العربُ الموعوظون بهذا الذِّكرِ يتغالَوْنَ في التَّفاخرِ بالهدايةِ في الطُّرقِ المحسوسةِ، وعدمِ الإخلالِ بشُكْرِ المعروفِ لمُسْدِيه ولو قلَّ، فنفىٰ عنهم الأوَّلَ بقيامِ الأدلَّةِ علىٰ خطئِهم الفاحشِ في كلِّ ما خالفوا فيه الرسولَ ﷺ من طريقِهم المعنويِّ الذي اتَّخذُوه دينًا، فهو أشرفُ من الطَّريقِ المحسوسِ؛ أتبعَه بيانَ انسلاخِهم من الثَّاني مع التَّأكيدِ لانسلاخِهم من الأوَّلِ؛ قال آمرًا للرَّسولِ ﷺ بتنبيهِهم لأنَّ الإنسانَ علىٰ نوعِه أقبلُ لأنَّه إليه أَمْيَلُ، إسقاطًا لهم من رُتْبةِ الفهمِ عن اللهِ ﷻ لسُفُولِ هِمَمِهم، ولقصورِ نظرِهم، مع أنَّه جعل لهم حظًّا ما من الحضورِ بتأهيلِهم لخطابِ الرسولِ ﷺ لإقامتِهم بالمذكورِ في الآيةِ فيما يُرجىٰ معَه العلمُ ويُورِثُ الفِطْنةَ والفهمَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾(١).

هذا انتقالٌ من توجيهِ اللهِ تعالىٰ الخطابَ إلىٰ المشركين للتَّبصيرِ بالحُجَجِ والدَّلائلِ وما تَخلَّل ذلك من الوعيدِ أو التَّهديدِ إلىٰ خطابِهم علىٰ لسانِ رسولِه ﷺ بأن يقولَ لهم ما سيذكرُ تَفنُّنًا في البيانِ وتنشيطًا للأذهانِ حتىٰ كأنَّ الكلامَ صدَر من قائلين وترفيعًا لقدرِ نبيِّه ﷺ بإعطائِه حظًّا من التَّذكيرِ معَه، والانتقالُ هنا إلىٰ الاستدلالِ بفروعِ المخلوقاتِ بعدَ الاستدلالِ بأصولِها، ومن الاستدلالِ بفروعِ أعراضِ الإنسانِ بعدَ أصلِها، فمِن الاستدلالِ بخلقِ السَّماواتِ والأرضِ والموتِ والحياةِ، إلىٰ الاستدلالِ بخلقِ الإنسانِ ومداركِه، وقد أَتبَعَ الأمرَ بالقولِ بخمسةٍ مِثْلِه بطريقةِ التَّكريرِ بدونِ عاطفٍ اهتمامًا بما بعدَ كلِّ أمرٍ من مقالةٍ يُبلِّغُها إليهم الرسولُ ﷺ(٢).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٥٨-٢٥٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٦).

لمَّا أورد البرهانَ أوَّلًا من حالِ سائرِ الحيواناتِ، وهو وقوفُ الطَّيرِ في الهواءِ، أورد البرهانَ بعدَه من أحوالِ النَّاسِ وهو هذه الآيةُ، وذكَر من عجائبِ ما فيه حالَ السَّمعِ والبصرِ والفؤادِ(١).

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا دلَّ سبحانه على بُعْدِهم عن الهدايةِ وعن الشُّكرِ اللَّذينِ يفخَرون على النَّاسِ كافَّةً بكُلٍّ منهما، واستَعطَفَهم بما أَودَعَ فيهم من اللَّطائفِ الرَّبَّانيَّةِ الرُّوحانيَّةِ المُقتضِيةِ بنُورانِيَّتِها للعُرُوجِ إلى مواطنِ القُدْسِ ومعادنِ الأُنْسِ؛ دلَّ على قدرتِه على حشرِهم تحذيرًا لهم من التَّمادي في الإعراضِ بمعنًى يجدُه كلٌّ منهم في نفسِه على وجهٍ دالٍّ على كمالِ قدرتِه بما أودع فيهم مع تلك اللَّطائفِ مع كثائفِ طِباعِ الأرضِ المُوجِبةِ للسُّفولِ ليكونَ -إذا أعلتْه تلك اللَّطائفُ بالتَّوبةِ- مجتهدًا في تنقيةِ آثارِ تلك الكثائفِ المُسفِّلةِ كما يكونُ للزَّرعِ إذا حُصد من بقايا تلك الجذر التي إن لم تُقلَعْ مِن أصلِها عادت بالنَّباتِ إلى ما كان عليه الزَّرعُ أوَّلًا، فقال مُستأنِفًا بيانًا لأنَّه دليلٌ برأسِه، كافٍ فيما سبق له: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالى استَدَلَّ بأحوالِ الحيواناتِ أوَّلًا، ثم بصفاتِ الإنسانِ ثانيًا؛ وهي السَّمعُ والبصرُ والعقلُ، ثم بحدوثِ ذاتِه ثالثًا؛ وهو قولُه: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾(٣).

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فلقد أَبلَغَ سبحانه في وعظِهم بنفسِه وعلى لسانِك يا أشرفَ الخلقِ ﷺ، وذلك بما هدى إليه السِّياقُ قطعًا؛ ذكر حالَهم عندَ ذلك، فقال إعلامًا بكثافةِ

(١) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٩٥).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٢٦١).
(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٩٥).

طِباعِهم حيثُ لم تلطف أسرارهم لقبولِ محبَّةِ اللهِ تعالىٰ وإثارة الأحوال الحسنة من الصَّبرِ المُثبِّتِ واليقينِ وحُسْنِ الانطباعِ لقبولِ النَّصائحِ والخوفِ وعدمِ الاعتزازِ بأحدٍ غيرِ اللهِ تعالىٰ من جهةِ نفعٍ أو ضُرٍّ، وكذلك لفَت القولَ إلىٰ الإعراضِ إيذانًا بشديدِ الغضبِ منهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(١).

لمَّا لم تكنْ لهم مُعارَضةٌ للحُجَّةِ التي في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ انحصَر عنادُهم في مضمونِ قولِه: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، فإنَّهم قد جحَدوا البعثَ، وأعلَنوا بجَحْدِه، وتَعجَّبوا من إنذارِ القرآنِ به؛ فلذلك حكاه اللهُ عنهم بصيغةِ المضارعِ المُقتضِيةِ للتَّكرير(٢).

لمَّا أمر محمدًا ﷺ بأن يُخوِّفَهم بعذابِ اللهِ، حكىٰ عن الكفارِ شيئينِ؛ أحدُهما: أنَّهم طالبوه بتعيينِ الوقتِ، وهو قولُه تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٣).

ثم ذكر سبحانه أنَّهم يستعجلون العذابَ، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٤).

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾

ولمَّا كان قولُهم هذا -معَ أنَّه استعجالٌ بأمرِ السَّاعةِ- استهانةً بها، حتىٰ إنَّه عندَهم كأنَّها من قِبَلِ الوعدِ الحسنِ، وهو مُتضمِّنٌ لإيهامِ أنَّها ممَّا يطَّلِعُ الخلقُ علىٰ تعيينِ وقتِه؛ نفىٰ ذلك بيانًا لعظَمتِها بعَظَمةِ مَن أمرُها بيدِه، فقال آمرًا له بجوابِهم، مُؤذِنًا

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٦٢-٢٦٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٨).
(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٩٥).
(٤) فتح القدير (٥/ ٣١٥).

بدونِ ذلك الإعراضِ لأنَّهم لا يُنكِرون علمَه تعالىٰ ذلك الإنكارَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[1].

وأمر اللهُ رسولَه ﷺ بأن يُجِيبَ سؤالَهم بجملةٍ علىٰ خلافِ مرادِهم، بل علىٰ ظاهرِ الاستفهامِ، عن وقتِ الوعدِ، علىٰ طريقةِ الأسلوبِ الحكيمِ، بأنَّ وقتَ هذا الوعدِ لا يعلمُه إلَّا اللهُ، فقولُه: ﴿قُلْ﴾ هنا أمرٌ بقولٍ يختصُّ بجوابِ كلامِهم، وفصَل دونَ عطفٍ بجريانِ المَقُولِ في سياقِ المحاورةِ، ولم يَعطِفْ فعلَ ﴿قُلْ﴾ بالفاءِ جريًا علىٰ سَنَنِ أمثالِه الواقعةِ في المجاوبةِ والمحاورةِ[2].

ثم لمَّا قالوا هذا القولَ، أمر اللهُ سبحانه رسولَه ﷺ أن يُجِيبَ عليهم، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[3].

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ولمَّا كان ما يُنذِرُ به لا بدَّ من وقوعِه، وكان كلُّ آتٍ قريبًا؛ عبَّر عن ذلك بالفاءِ والماضي، فقال صارفًا العقولَ إلىٰ الإعراضِ؛ لأنَّ وقتَ الرُّؤيةِ للعذابِ في غايةِ المناسبةِ للإهانةِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾[4].

ثم إنَّه تعالىٰ بيَّن حالَهم عندَ نزولِ ذلك الوعدِ، فقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٦٣-٢٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٩).

(٣) فتح القدير (٥/ ٣١٥).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٢٦٥).

(٥) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٩٦).

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾

ولمَّا كان من المعلومِ أنَّ مَن نهىٰ آخرَ عن هواه وبالَغ في ذلك، أَبغَضه ذلك النَّاهي وتمنَّىٰ هلاكَه؛ فكيف إذا والىٰ عليه الإنذارَ والتَّخويفَ بما لا يصلُ إلىٰ دَرَكِه عقلُه، ولا يرىٰ له مُقدِّمةً بتحقُّقِها، وكان الكفارُ يَسْعَوْنَ في هلاكِ النبيِّ ﷺ ومَن تَبِعَه كلَّ سعيٍ، وكان هلاكُ النَّذيرِ إنَّما ينفعُ المُنذَرَ علىٰ تقديرِ نجاتِه مِن هَوْلِ ما كان يُحذِّرُه منه النَّذيرُ؛ أمره سبحانه أن يُذكِّرَهم بهذا لينظروا في ذلك المتوعَّدِ به، فإنْ كان مُمكِنًا سَعَوْا في الخلاصِ ممَّا قد يكونُ منه من العذابِ، وسلَكوا في الهَرَبِ منه مسلكًا سهلًا بعيدًا من سوءِ الانقلابِ، ودخلوا إلىٰ فسيحِ المانعِ منه من أوسعِ بابٍ، أو كفُّوا عن السَّعيِ في هلاكِ النَّذيرِ، وطَوَوْا ما مدُّوا له من الأسبابِ؛ ليَدُلَّهم إذا كان صادقًا علىٰ شيءٍ يحميهم أو يُخفِّفُ عنهم ذلك المُصابَ، فقال مُنبِّهًا علىٰ شِدَّةِ الحذرِ من مكرِ اللهِ وعدمِ الاغترارِ به للمؤمنِ الطَّائعِ لعلمِه، أنَّه لا يقدرُ أن يَقدِرَ اللهَ حقَّ قدرِه فكيف بالعاصي فضلًا عن الكافرِ؟ مُكرِّرًا للأمرِ بالقولِ تنبيهًا علىٰ أنَّ كلَّ جملةٍ صدرت به كافيةٌ في الدَّلالةِ علىٰ مقصودِ السورةِ وعائدةٌ إليه لِما اشتمَلتْ عليه من باهرِ القدرةِ ووافرِ العَظَمةِ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(١).

كان من بذاءةِ المشركين أن يجهروا بتمنِّي هلاكِ رسولِ اللهِ ﷺ، وهلاكِ مَن معَه من المسلمين، وقد حكىٰ القرآنُ عنهم: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾، وحكىٰ عن بعضِهم: ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾، وكانوا يتآمرون علىٰ قتلِه؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾، فأمره اللهُ بأن يُعرِّفَهم حقيقةً تدحَضُ أمانيَّهم، وهي أنَّ موتَ أحدٍ أو حياتَه لا يُغنِي عن غيرِه ما جرَّه إليه عملُه، وقد جرَّت

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٦٦-٢٦٧).

إليهم أعمالُهم غضبَ اللهِ ووعيدَه، فهو نائلُهم حَيِيَ الرسولُ ﷺ أو بادَره المَنُونُ، فقد يكونُ نزولُ هذه الآياتِ السَّابقةِ صادَف مقالةً من مقالاتِهم هذه، فنزلت الآيةُ في أثنائِها، وقد يكونُ نزولُها لمناسبةِ حكايةِ قولِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بأنْ قارَنه كلامٌ بذيءٌ؛ مِثلَ أن يقولوا: أَبَعْدَ هلاكِك يأتي الوعدُ؟[(١)].

اعلَمْ أنَّ هذا الجوابَ هو من النَّوعِ الثَّاني ممَّا قاله الكفارُ لمحمدٍ ﷺ حينَ خوَّفهم بعذابِ اللهِ يُروَىٰ أنَّ كُفَّارَ مكَّةَ كانوا يَدْعُونَ علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ وعلىٰ المؤمنين بالهلاكِ، ثم إنَّه تعالىٰ أجابَ عن ذلك، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(٢)].

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾

ولـمَّا كان لا يقدرُ علىٰ التَّعميمِ بالنِّعمةِ إلَّا مَن كان عامَّ القدرةِ والنِّعمةِ والرَّحمةِ، وكان التَّذكيرُ بالنِّعَمِ أشدَّ استعطافًا؛ صرف القول إلىٰ التعبيرِ بما هو صريحٌ في ذلك، فقال مُذكِّرًا بذلك لعلمِهم بأنَّه لا نعمةَ عليهم إلَّا منه، واعترافهم بذلك ليحذروه ويتذكَّروا عمومَ قدرتِه فيعلموا قدرتَه علىٰ البعثِ فينفصلَ النِّزاعُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[(٣)].

هذا تكريرٌ ثالثٌ لفعلِ ﴿قُلْ﴾ من قولِه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ الآيةَ، وجاء هذا الأمرُ بقولٍ يقولُه لهم بمناسبةِ قولِه: ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾، فإنَّه بعدَ أن سوَّىٰ بينَ فرضِ إهلاكِ المسلمين وإحيائِهم في أنَّ أيَّ الحالينِ فُرِض لا يُجِيرُهم معَه أحدٌ من العذابِ؛ أَعقبَه بأنَّ المسلمين آمنوا بالرَّحمنِ، فهم مَظِنَّةٌ أن تتعلَّقَ بهم هذه الصِّفةُ فيرحمُهم اللهُ في

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٥١).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٩٧).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٢٦٩).

الدنيا والآخرةِ، فيعلمُ المشركون علمَ اليقينِ أيُّ الفريقينِ في ضلالٍ حينَ يَرَوْنَ أثَرَ الرَّحمةِ علىٰ المسلمين وانتفاءَه عن المشركين في الدنيا وخاصَّةً في الآخرةِ(١).

لمَّا قال: ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾، قال: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، ثم ذكر ما به النَّجاةُ؛ وهو الإيمانُ، والتَّفويضُ إلىٰ اللهِ تعالىٰ(٢).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾

ولمَّا افتتَح سبحانه السُّورةَ بعظيمِ بركتِه، وتمامِ قدرتِه، وتفرُّدِه في مملكتِه، ودلَّ علىٰ ذلك بتفرُّدِه بالإماتةِ والإحياءِ؛ ختم بمِثْلِ ذلك بالماءِ الذي وجودُه هو سببٌ للحياةِ وعدمُه سببٌ للموتِ، فقال قارعًا بالتنبيهِ، مُشيرًا بتكريرِ الأمرِ إلىٰ مزيدِ التَّوبيخِ والزَّجرِ والتَّبكيتِ، دالًّا علىٰ تعيينِ ما أبهم من أهلِ الضَّلالِ، ومُصرِّحًا بما لوَّح إليه من ذلك الإجمالِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾(٣).

إيماءٌ إلىٰ أنَّهم يترقَّبُهم عذابُ الجوعِ بالقحطِ والجفافِ، فإنَّ مكَّةَ قليلةُ المياهِ، ولم تكنْ بها عيونٌ ولا آبارٌ قبلَ زَمْزَمَ، كما دلَّ عليه خبرُ تَعجُّبِ القافلةِ من جُرْهُمَ التي مرَّتْ بموضعِ مكَّةَ حينَ أسكنها إبراهيمُ عليه السلام هاجرَ بابنِه إسماعيلَ، ففجَّر اللهُ لها زمزمَ، ولمحت القافلةُ الطَّيرَ تحومُ حولَ مكانِها، فقالوا: ما عَهِدْنا بهذه الأرضِ ماءً! ثم حفر ميمونُ بنُ خالدٍ الحَضْرَميُّ بأعلاها بئرًا تُسمَّىٰ بئرَ ميمونٍ في عهدِ الجاهليَّةِ قُبيلَ البعثةِ، وكانت بها بئرٌ أخرىٰ تُسمَّىٰ الجفرَ (بالجيمِ) لبني تَيْمِ بنِ مُرَّةَ، وبئرٌ تُسمَّىٰ الجم، ذكرها ابنُ عطيَّةَ، وأهملها «القاموسُ» و«تاجُه»، ولعلَّ هاتينِ البئرينِ الأخيرتينِ لم تكونا في عهدِ النبيِّ ﷺ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٥٤).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ٢٢٩-٢٣٠).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٢٧١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٥٥).

لمَّا ذكر أنَّه يجب أن يتوكَّلَ عليه لا علىٰ غيرِه، ذكر الدَّليلَ عليه، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾[(١)].

لمَّا ذكر العذابَ وهو مطلقٌ، ذكر فقدَ ما به حياةُ النُّفوسِ وهو الماءُ، وهو عذابٌ مخصوصٌ[(٢)].

ثم احتجَّ سبحانه عليهم ببعضِ نِعَمِه، وخوَّفهم بسلبِ تلك النِّعمةِ عنهم، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾[(٣)].

ثم أخبر عن انفرادِه بالنِّعَمِ، خصوصًا بالماءِ الذي جعل اللهُ منه كلَّ شيءٍ حيٍّ، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٩٧).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ٢٣٠).

(٣) فتح القدير (٥/ ٣١٦).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٨٧٨).

سُورَةُ القَلَمِ

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ ﴾

ولمَّا كان المخاطَبُ بهذا ﷺ قد عاشَر المُرسَلَ إليهم دهرًا طويلًا، وزمنًا مديدًا أربعين سنةً، وهو أعلاهم قدرًا، وأطهرُهم خلائقَ، وأمتنُهم عقلًا، وأحكمُهم رأيًا، وأرأفُهم، وأرفعُهم عن شوائبِ الأدناسِ همَّةً، وأزكاهم نفسًا بحيثُ إنَّه لا يُدعَىٰ بينهم إلَّا بـ«الأمينِ»، ولم يتجدَّدْ له شيءٌ يستحقُّ به أن يصفوه بسببِه بالجنونِ، الذي ينشأُ عنه الضلالُ عن المقاصدِ، المذكورِ آخِرَ «المُلْكِ» في قولِه: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٩﴾؛ إلَّا النِّعمةَ التي ما نال أحدٌ قطُّ مثلَها في دهرٍ من الدُّهورِ، ولا عصرٍ من الأعصارِ؛ قال مُجِيبًا هذا القَسَمَ العظيمَ، رادًّا عليهم بأجلىٰ ما يكونُ وأدلِّه علىٰ المرادِ، تأنيسًا له ﷺ ممَّا أوجبَ افتراؤهم عليه له من الوحشةِ، وشرحًا لصدرِه، وتهدئةً لسِرِّه: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾(١).

لمَّا ذكر المُقسَمَ به، أَتبَعَه بذِكْرِ المُقسَمِ عليه، فقال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾(٢).

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ ﴾

ولمَّا نفىٰ سبحانه عنه ﷺ ما قالوه ممَّا تواقَحوا به، فثبت له ﷺ كمالُ العقلِ، وكان المجنونُ مَن لا يكونُ له عملٌ ينتظمُ ولا قولٌ يرتبطُ، فلا يستعملُه أحدٌ في شيءٍ

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٨٦-٢٨٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٩٩).

ليكونَ له عليه أجرٌ؛ أثبت له الأجرَ المُستلزِمَ للعقلِ، فيتحقَّقُ إثباتُه من أحكمِ الحكماءِ علىٰ وجهٍ أبلغَ ممَّا لو صرَّح به، فقال علىٰ وجهِ التَّأكيدِ لإنكارِهم له بما ادَّعَوْا فيه من البُهْتِ: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾[1].

ولمَّا ثبَّت اللهُ رسولَه ﷺ فدفع بهتانَ أعدائِه، أعقبه بإكرامِه بأجرٍ عظيمٍ علىٰ ما لَقِيَه من المشركين من أذىٰ بقولِه: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾[2].

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾

ولمَّا ثبت بهذا العقلِ مع ما أفاده من الفضلِ، وكان الذي يُؤجَرُ قد يكونُ في أدنىٰ رُتَبِ العقلِ؛ بيَّن أنَّه ﷺ في أعلاها بقولِه مُؤكِّدًا لِما مضىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3].

وبعدَ أن آنس نفسَ رسولِه ﷺ بالوعدِ، عادَ إلىٰ تسفيهِ قولِ الأعداءِ، فحقَّق أنَّه مُتلبِسٌ بخُلُقٍ عظيمٍ، وذلك ضِدُّ الجنونِ، مُؤكِّدًا ذلك بثلاثةِ مُؤكِّداتٍ مِثلَ ما في الجملةِ قبلَه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[4].

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾

ولمَّا أقسم سبحانه علىٰ نفيِ ما بَهَتُوه به، ودَلَّ علىٰ ما وهَبه من كمالِ العقلِ وتمامِ الشَّرفِ والنُّبلِ، تصريحًا وتلويحًا، فثبت غايةَ الثَّباتِ بأخبارِ العالمِ الحكيمِ؛ دلَّ عليه بالمشاهدةِ علىٰ وجهٍ هو من أعلامِ النُّبُوَّةِ للحكمِ علىٰ المستقبلِ، فقال مُسبِّبًا عن صادقِ هذا الإخبارِ: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٩١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٦٢).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٢٩٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٦٣).

(٥) نظم الدرر (٢٠/ ٢٩٥).

الفاءُ للتَّفريعِ علىٰ قولِه: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾ باعتبارِ ما اقتضاه قولُه: ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ من إبطالِ مقالةٍ قِيلَتْ في شأنِه، قالها أعداؤه في الدِّينِ، ابتدأ بإبطالِ بهتانِهم، وفرَّع عليه أنَّهم إذا نظروا الدَّلائلَ وتوسَّموا الشَّمائلَ علموا أيُّ الفريقينِ المفتونُ: أهم مفتونون بالانصرافِ عن الحقِّ والرُّشدِ، أم هو باختلالِ العقلِ كما اختلَقوا؟[(١)].

لمَّا وصَفه بأنَّه علىٰ خُلُقٍ عظيمٍ، قال: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾[(٢)].

📖 ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦﴾ 📖

ولمَّا كان ﷺ هو ومَن معَه فريقًا والأعداءُ فريقًا، وقد أبهم آخِرَ «المُلْكِ» الضَّالَّ في الفريقينِ؛ قال: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾[(٣)].

📖 ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧﴾ 📖

ولمَّا كان هذا إخبارًا بجنونِهم المُستلزِمِ لضلالِهم علىٰ هذا الوجهِ المُتَّصِفِ، وكان مِثْلُ هذا قد يقعُ في محاوراتِ النَّاسِ بضربٍ من الظَّنِّ؛ استأنف تعالىٰ ما هو كالتَّعليلِ لِما أفاده السِّياقُ من هذا الحكمِ عليهم إعلامًا بأنَّه ناشئٌ عن علمٍ قطعيٍّ لا مِرْيةَ فيه بوجهٍ، فقال مُؤكِّدًا لأجلِ إنكارِهم لأن يكونَ الأمرُ علىٰ ما أفادَه ما تقدَّم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[(٤)].

تعليلٌ لجملةِ ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦﴾ باعتبارِ ما تَضمَّنَتْه من التَّعريضِ بأنَّ الجانبَ المفتونَ هو الجانبُ القائلُ له: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾، وأنَّ ضِدَّه بضِدِّه هو الرَّاجحُ العقلِ؛ أي: الذي أخبرك بما كنَّىٰ عنه قولُه:

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٦٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٠٢).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٢٩٥).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٢٩٥-٢٩٦).

﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥﴾ من أنَّهم المجانينُ هو الأعلمُ بالفريقينِ، وهو الذي أنبأك بأن سيتَّضِحُ الحقُّ لأبصارِهم، فتعيَّن أنَّ المفتونَ هو الفريقُ الذين وسموا النبيَّ ﷺ بأنَّه مجنونٌ المردودُ عليهم بقولِه تعالىٰ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾، إذ هم الضَّالُّون عن سبيلِ ربِّ النبيِّ ﷺ لا محالةَ، وينتظمُ بالتَّدرُّجِ من أوَّلِ السورةِ إلىٰ هنا أَقْيِسَةُ مُساواةٍ مُندرِجٌ بعضُها في بعضٍ تقتضي مساواةَ حقيقةِ مَن ضلَّ عن سُبُلِ ربِّ النبيِّ ﷺ بحقيقةِ المفتونِ، ومساواةَ حقيقةِ المفتونِ بحقيقةِ المجنونِ، فتنتج أنَّ فريقَ المشركين هم المتَّصِفون بالجنونِ بقاعدةِ قياسِ المساواةِ أنَّ مُساوِيَ المُساوِي لشيءٍ مُساوٍ لذلك الشَّيءِ، وهذا الانتقالُ تضمَّن وعدًا ووعيدًا، بإضافةِ السَّبيلِ إلىٰ اللهِ، ومقابلةِ مَن ضَلَّ عنه بالمهتدين[1].

تعليلٌ لِما يُنبِئُ عنه ما قبلَه من ظهورِ جنونِهم بحيث لا يخفىٰ علىٰ أحدٍ، وتأكيدًا لِما فيه من الوعدِ والوعيدِ[2].

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾

ولمَّا كان من طبعِ البشرِ أنَّ الحليمَ منهم الرَّزِينَ إذا اشتَدَّ عليه الأذىٰ ممَّن لم تَجْرِ العادةُ بأنَّ مِثلَه يُطِيقُ مِثلَهم قارَبهم ولا يتَّهم فيما الخلافُ بسببِه بعضَ المُقاربةِ، وكان سببُ تلك المُقارَبةِ إنَّما هو عدمُ علمِه بالعواقبِ؛ سبَّب سبحانه ما مضىٰ من إعلامِه بحقائقِ الأمورِ، وكشفِه لمستورِها قولَه إلهابًا وتهييجًا علىٰ الثَّباتِ علىٰ معاصاتهم إعلامًا للضَّالِّ بأماراتِه ليعلمَ المهتدي لأنَّ الأمورَ تُعلَمُ بأضدادِها، وهو خطابٌ له ﷺ والمرادُ أُمَّتُه ليكونَ ذلك أبلغَ في سماعِهم: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٦٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٢).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٢٩٦-٢٩٧).

تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ إلىٰ آخِرها، باعتبارِ ما تَضمَّنَتْه من أنَّه علىٰ هدًىٰ، وأنَّ الجانبَ الآخرَ في ضلالِ السَّبيلِ، فإنَّ ذلك يقتضي المُشادَّةَ معَهم، وأن لا يلينَ لهم في شيءٍ، فإنَّ أذاهم إيَّاه آلَ إلىٰ محاربةِ الحقِّ والهدىٰ، وتصلب فيما هم عليه من الضَّلالِ عن سبيلِ اللهِ، فلا يَستأهِلون به لينًا، ولكن يستأهلون إغلاظًا، فينتظمُ في هذا أنَّ قولَه: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ نهيٌ عن إجابتِهم إلىٰ شيءٍ عرضوه عليه عندَما قرَّعهم بأوَّلِ هذه السورةِ؛ وبخاصَّةٍ مِن وقعِ معنىٰ التَّعريضِ البديعِ الممزوجِ بالوعيدِ بسوءِ المستقبلِ من قولِه: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾، فلعلَّهم تحدَّثوا أو أَوعَزوا إلىٰ مَن يُخبِرُ الرسولَ ﷺ أو صارَحوه بأنفسِهم بأنَّه إن ساءه قولُهم فيه: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ فقد ساءهم منه تحقيرُهم بصفاتِ الذَّمِّ وتحقيرِ أصنامِهم وآبائِهم من جانبِ الكفرِ، فإن أمسك عن ذلك أمسكوا عن أذاه، وكان الحالُ صُلْحًا بينهم، ويتركُ كلُّ فريقٍ فريقًا وما عبَدَه(١).

لمَّا ذكر ما عليه الكفارُ في أمرِ الرسولِ ونسبتِه إلىٰ الجنونِ مع الذي أنعم اللهُ به عليه من الكمالِ في أمرِ الدِّينِ والخُلُقِ، أَتبَعَه بما يدعوه إلىٰ التَّشدُّدِ مع قومِه وقوَّىٰ قلبَه بذلك مع قِلَّةِ العددِ وكثرةِ الكفارِ، فإنَّ هذه السُّورةَ من أوائلِ ما نزل، فقال: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾؛ يعني: رؤساءَ أهلِ مكَّةَ، وذلك أنَّهم دَعَوْهُ إلىٰ دينِ آبائِه، فنهاه اللهُ أن يُطيعَهم(٢).

الفاءُ في قولِه تعالىٰ: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ لترتيبِ النَّهيِ علىٰ ما يُنبِئُ عنه ما قبلَه من اهتدائِه ﷺ وضلالِهم، أو علىٰ جميعِ ما فضل من أوَّلِ السورةِ، وهذا تهييجٌ وإلهابٌ للتَّصميمِ علىٰ معاصاتِهم(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٦٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٠٣).

(٣) روح المعاني (١٥/ ٣٠).

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ ﴾

ثم علَّل ذلك بما يكونُ مجموعُه علىٰ وقوعِه منهم من مُدَّةٍ طويلةٍ وهم مُستمِرُّون عليه بقولِه: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾(١).

جملةُ ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ بيانٌ لمتعلَّقِ الطَّاعةِ المَنْهيِّ عنها؛ ولذلك فُصلت ولم تُعطَفْ(٢).

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ ﴾

ولمَّا نهاه عن طاعةِ المكذِّبِ وعلَّله، وكان من النَّاسِ مَن يُخفِي تكذيبَه؛ قال ناصبًا علاماتِ المكذِّبِ: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾(٣).

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ إعادةُ فعلِ النَّهيِ عن الطَّاعةِ لمن هذه صفاتُهم؛ للاهتمامِ بهذا الأدبِ، فلم يكتف بدخولِ أصحابِ هذه الأوصافِ في عمومِ المكذِّبين، ولا بتخصيصِهم بالذِّكرِ بمجرَّدِ عطفِ الخاصِّ علىٰ العامِّ بأن يُقالَ: ولا كلَّ حلَّافٍ، بل جيء في جانبِهم بصيغةِ نهيٍ أخرىٰ مُماثِلةٍ للأولىٰ(٤).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا نهاه عن طاعةِ المكذِّبين، وهذا يتناولُ النَّهيَ عن طاعةِ جميعِ الكفارِ، إلَّا أنَّه أعادَ النَّهيَ عن طاعةِ مَن كان من الكفارِ موصوفًا بصفاتٍ مذمومةٍ وراءَ الكفرِ(٥).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٩٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٦٩).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٢٩٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٧٠).

(٥) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٠٣).

﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾

ولمَّا كان كلُّ مَن اتَّصَفَ بصفةٍ، أحبَّ أن يُشارِكَه النَّاسُ فيها أو يُقارِبوه؛ لا سِيَّما إن كانت تلك الصِّفةُ دَنِيَّةً؛ ليَسلَمَ من العيبِ أو الانفرادِ به، ولأنَّ الشَّيءَ لمَّا داناه أُلِف؛ قال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾(١).

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾

ولمَّا كان مَن كان هكذا يريدُ إعلاءَ نفسِه بهضمِ النَّاسِ، وكان المنعُ لإرادةِ الاستئثارِ بالممنوعِ ليكونَ الغيرُ محتاجًا إليه وعاكفًا عليه؛ لأنَّ مِن طبعِه أنَّه لا يرتبطُ إلَّا طمعًا، لا شكرًا بضِدِّ الجوادِ، فإنَّه يرفعُ نفسَه عن المطامعِ، ولا يرتبطُ إلَّا شكرًا علىٰ الصَّنائعِ فيجودُ ظنًّا منه أنَّ النَّاسَ كذلك؛ قال: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾(٢).

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾

ولمَّا كان كلُّ مَن يتَّصِفُ بهذه الدَّنايا -التي مِن شأنِها إبعادُ النَّاسِ عنه، ونُفْرَتُهم منه- يسعىٰ في سترِها -إن كان عاقلًا- بلِينٍ وتواضعٍ، وخداعٍ وسهولةِ انقيادٍ؛ بيَّن أنَّ هذا علىٰ غيرِ ذلك، فقال مُنبِّهًا علىٰ هذا بالبعديَّةِ: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾(٣).

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤﴾

ولمَّا كان حطامُ هذه الدنيا كلُّه عَرَضًا فانيًا، وظِلًّا مُتقلِّصًا زائلًا، لا يفتخرُ به بل ولا يلتفتُ إليه إلَّا مَن كان بهذه الأوصافِ، فإذا كان أكبرَ همِّه ومبلغَ علمِه، أثمَرَ له التَّرفُّعَ علىٰ الحقوقِ، والتَّكبُّرَ علىٰ العبادِ؛ قال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٠٠).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٠٠-٣٠١).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٣٠١-٣٠٢).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٠٣).

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٥﴾

وخُتمت الأوصافُ المحذَّرُ عن إطاعةِ أصحابِها بوصفِ التكذيبِ؛ ليرجعَ إلىٰ صفةِ التكذيبِ التي انتقل الأسلوبُ منها من قولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

استئنافٌ جارٍ مجرىٰ التَّعليلِ للنَّهيِ، وقيل: مُتعلِّقٌ بما دلَّ عليه الجملةُ الشَّرطيَّةُ من معنىٰ الجحودِ، ذو التَّكذيبِ لا بجوابِ الشَّرطِ؛ لأنَّ ما بعدَ الشَّرطِ لا يعملُ فيما قبلَه، كأنَّه قيل: لكونِه مُستظهِرًا بالمالِ والبنين كذَّب بآياتِنا، وفيه أنَّه يدلُّ أنَّ مدارَ تكذيبِه كونُه ذا مالٍ وبنين، من غيرِ أن يكونَ لسائرِ قبائحِه دخلٌ في ذلك[2].

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ١٦﴾

ولمَّا كان هذا المذكورُ قد أغرَقَ في الشَّرِّ فتوقَّع السَّامعُ جزاءَه، قال مُعلِمًا أنَّه يجعلُ له من الخِزْيِ والفضائحِ ما يصيرُ به شُهْرةً بينَ الخلائقِ في الدنيا والآخرةِ: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾[3].

استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا لسؤالٍ ينشأُ عن الصِّفاتِ الذَّميمةِ التي وُصفوا بها أن يسألَ السَّامعُ: ما جزاءُ أصحابِ هذه الأوصافِ من اللهِ علىٰ ما أَتَوْهُ من القبائحِ والاجتراءِ علىٰ ربِّهم؟[4].

لمَّا حكىٰ عنه قبائحَ أفعالِه وأقوالِه، قال مُتوعِّدًا له: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾[5].

ثم توعَّد تعالىٰ مَن جرىٰ منه ما وصف اللهُ، بقولِه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾[6].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٧٦).
(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٤).
(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٣٠٥).
(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٧٦).
(٥) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٠٦).
(٦) تفسير السعدي (ص: ٨٨٠).

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكر في أوَّلِ «المُلْكِ» أنَّه خلق الموتَ والحياةَ للابتلاءِ في الأعمالِ، وختم هنا بعيبِ مَن يغترُّ بالمالِ والبنين وهو يعلمُ أنَّ الموتَ وراءَه؛ أعادَ ذِكْرَ الابتلاءِ وأكَّده؛ لأنَّ أعمالَهم مع العلمِ بأنَّه عَرَضٌ زائلٌ أعمالُ مَن ظنَّ المُلْكَ الثَّابتَ والتَّصرُّفَ التَّامَّ، فقال: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾[(١)].

الجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا دعَتْ إليه مناسبةُ قولِه: ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾، فإنَّ الازدهاءَ والغرورَ بسَعةِ الرِّزقِ المُفضِيَينِ إلىٰ الاستخفافِ بدعوةِ الحقِّ وإهمالِ النَّظرِ في كُنْهِها ودلائلِها قد أوقعا مِن قديمِ الزَّمانِ أصحابَهما في بَطَرِ النِّعمةِ وإهمالِ الشُّكرِ، فجَرَّ ذلك عليهم شرَّ العواقبِ، فضرب اللهُ للمشركين مثلًا بحالِ أصحابِ هذه الجنَّةِ لعلَّهم يستفيقون من غفلتِهم وغرورِهم[(٢)].

لمَّا قال: لأجلِ أنْ كان ذا مالٍ وبنين، جحَد وكفَر وعصىٰ وتمرَّد، وكان هذا استفهامًا علىٰ سبيلِ الإنكارِ؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه تعالىٰ إنَّما أعطاه المالَ والبنين علىٰ سبيلِ الابتلاءِ والامتحانِ، وليصرفَه إلىٰ طاعةِ اللهِ، وليواظبَ علىٰ شكرِ نِعَمِ اللهِ، فإنْ لم يفعل ذلك فإنَّه تعالىٰ يقطعُ عنه تلك النِّعَمَ، ويَصُبُّ عليه أنواعَ البلاءِ والآفاتِ، فقال: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾؛ أي: كلَّفْنا هؤلاء أن يشكروا علىٰ النِّعَمِ، كما كلَّفْنا أصحابَ الجنَّةِ ذاتَ الثِّمارَ أن يشكروا ويُعطُوا الفقراءَ حقوقَهم[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٧٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٠٧).

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨﴾

الجملةُ في موضعِ الحالِ، والتعبيرُ بالفعلِ المضارعِ لاستحضارِ حالتِهم العجيبةِ من بخلِهم علىٰ الفقراءِ والأيتامِ[(١)].

ثم ذكر أنَّهم أقسموا وحلَفوا من غيرِ استثناءٍ، فقال: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾.

هذه الجملةُ مستأنَفةٌ لبيانِ ما وقَع منهم، أو حالٌ[(٢)].

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩﴾

فتَسبَّب عن عملِهم هذا قولُه: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝٢٠﴾

فتَسبَّب عن هذا الطَّائف الذي أرسله القادرُ الذي لا يَغفُلُ ولا ينامُ، علىٰ مآلِ مَن لا يزالُ أسيرَ العجزِ والنَّومِ، فقال تعالىٰ: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾[(٣)].

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۝٢١﴾

ولمَّا كانوا -لقُوَّةِ عزمِهم علىٰ ما أقسموا عليه- كأنَّهم كانوا علىٰ ميعادٍ، سبَّب عنه قولَه: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾[(٤)].

وفاءُ ﴿فَتَنَادَوْا﴾ للتَّفريعِ علىٰ ﴿أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾؛ أي: فلمَّا أصبحوا تَنادَوْا لإنجازِ ما بيَّتوا عليه أمرَهم[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٨١).

(٢) فتح القدير (٥/ ٣٢٤).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٣٠٩).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٠٩).

(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٨٢).

﴿ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وفسَّر التَّنادي بقولِه: ﴿ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾[1].

﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

وعبَّر عن إسراعِهم إلىٰ الذَّهابِ بقولِه: ﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾[2].

﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

ثم فسَّر ما يَتخافَتُونَ به بقولِه: ﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾[3].

﴿ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وأكَّد كونَ انطلاقِهم حالَ الإصباحِ بقولِه: ﴿ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴾[4].

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ودَلَّ علىٰ قُرْبِها من منزِلِهم بالفاءِ، فقال: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾[5].

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

لمَّا انجلىٰ ما أَدهَشَهم في الحالِ، قالوا مُضرِبينَ عن الضَّلالِ: ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾[6].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٠٩).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣١٠).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٣١٠).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣١١).

(٥) نظم الدرر (٢٠/ ٣١١).

(٦) نظم الدرر (٢٠/ ٣١١).

﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ إضرابٌ للانتقالِ إلىٰ ما هو أهمُّ بالنَّظرِ لحالِ تبيينِهم، إذ بيَّتوا حرمانَ المساكينِ من فضولِ ثمرتِهم، فكانوا هم المحرومين من جميعِ الثِّمارِ، فالحرمانُ الأعظمُ قد اختصَّ بهم؛ إذ ليس حرمانُ المساكينِ بشيءٍ في جانبِ حرمانِهم(١).

ثم لمَّا تأمَّلوا وعلموا أنَّها جنَّتُهم، وأنَّ اللهَ سبحانه قد عاقَبهم بإذهابِ ما فيها من الثَّمرِ والزَّرعِ، قالوا: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾(٢).

فلمَّا تَحقَّقوها، ورجَعتْ إليهم عقولُهم؛ قالوا: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾(٣).

﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨﴾

ولمَّا كان القرعُ بالمصائبِ مَظِنَّةَ الرِّقَّةِ والتَّوبةِ لمن أُريد به الخيرُ، وزيادةِ الكفرِ لغيرِه؛ استأنف قولَه: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾(٤).

وحُكي هذا القولُ بدونِ عاطفٍ؛ لأنَّه قولٌ في مجرىٰ المحاورةِ جوابًا عن قولِهم: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾، قاله لهم علىٰ وجهِ توقيفِهم علىٰ تصويبِ رأيِه وخَطَلِ رأيِهم(٥).

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩﴾

ودلَّ سياقُ الكلامِ علىٰ أنَّهم كانوا مُتهيِّئين للتَّوبةِ بقولِه: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٨٦).
(٢) فتح القدير (٥/ ٣٢٥).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٨٠).
(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣١٢).
(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٨٦).
(٦) نظم الدرر (٢٠/ ٣١٢).

وكان جوابُهم يتضمَّنُ إقرارًا بأنَّه وعَظَهم فعَصَوْه ودَلُّوا علىٰ ذلك بالتَّسبيحِ حينَ ندمِهم علىٰ عدمِ الأخذِ بنصيحتِه، فقالوا: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أرادوا إجابةَ تقريرِه بإقرارٍ بتسبيحِ اللهِ عن أن يُعصَىٰ أمرُه في إعطاءِ حقِّ المساكينِ، فإنَّ مِن أصولِ التَّوبةِ تَدارُكَ ما يمكنُ تداركُه، واعترافُهم بظلمِ المساكينِ من أصولِ التَّوبة؛ لأنَّه خبرٌ مُستعمَلٌ في التَّندُّمِ، والتَّسبيحُ مُقدِّمةُ الاستغفارِ من الذَّنبِ[(١)].

لمَّا أنَّبهم، رجَعوا إلىٰ ذِكْرِ اللهِ تعالىٰ، واعترَفوا علىٰ أنفسِهم بالظُّلمِ، وبادَروا إلىٰ تسبيحِ اللهِ تعالىٰ فقالوا: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[(٢)].

فلمَّا قال لهم ذلك بعدَ مشاهدتِهم الجنَّةَ علىٰ تلك الصِّفةِ، ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[(٣)].

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠﴾

وأكَّد توبتَهم بقولِه مُسبِّبًا عن اعترافِهم بالظُّلمِ: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ﴾[(٤)].

ولمَّا استقرَّ حالُهم علىٰ المشاركةِ في منعِ المساكينِ حقَّهم، أخذ بعضُهم يلومُ بعضًا علىٰ ما فرَط من فعلِهم، كلٌّ يلومُ غيرَه بما كان قد تلبَّس به في هذا الشَّأنِ من ابتكارِ فكرةِ منعِ المساكينِ ما كان حقًّا لهم من حياةِ الأبِ، ومن المُمالاةِ علىٰ ذلك، ومن الاقتناعِ بتصميمِ البقيَّةِ، ومن تنفيذِ جميعِهم ذلك العزمَ الذَّميمَ، فصوَّر قولُه: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ هذه الحالةَ والتَّقاذفَ الواقعَ بينَهم بهذا الإجمالِ البالغِ غايةَ الإيجازِ؛ أَلَا ترىٰ أنَّ إقبالَ بعضِهم علىٰ بعضٍ يُصوِّرُ حالةً تُشبِهُ المهاجمةَ والتَّقريعَ،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٨٧).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ٢٤٣).

(٣) فتح القدير (٥/ ٣٢٥).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣١٣).

وأنَّ صيغةَ التَّلاومِ مع حذفِ مُتعلَّقِ التَّلاومِ تُصوِّرُ في ذِهْنِ السَّامعِ صُورًا من لَوْمِ بعضِهم علىٰ بعضٍ؟[(١)].

﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ ﴾

لمَّا تشوَّف السَّامعُ إلىٰ معرفةِ بعضِ ذلك، قال: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾[(٢)].

جملةُ ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ يجوزُ أن تكونَ مُبيِّنةً لجملةِ ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾؛ أي: يلومُ بعضُهم بعضًا بهذا الكلامِ، فتكونَ خبرًا مستعملًا في التقريعِ، علىٰ طريقةِ التعريضِ بغيرِه، والإقرارِ علىٰ نفسِه، مع التحسُّرِ والتندُّمِ بما أفاده ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾، وذلك كلامٌ جامعٌ للملامةِ كلِّها، ولم تُعطَفِ الجملةُ لأنَّها مُبيِّنةٌ، ويجوزُ أن تكونَ جوابَ بعضِهم بعضًا عن لَوْمِهِ غيرَه، فكما أجمعوا علىٰ لومِ بعضِهم بعضًا، كذلك أجمعوا علىٰ إجابةِ بعضِهم بعضًا عن ذلك الملامِ، فقال كلُّ مَلُومٍ للائمِه: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ جوابًا بتقريرِ ملامِه، والاعترافِ بالذنبِ، ورجاءِ العفوِ من اللهِ، وتعويضِهم عن جنَّتِهم خيرًا منها إذا قَبِلَ توبتَهم وجعل لهم ثوابَ الدنيا مع ثوابِ الآخرة، فيكونُ تركُ العطفِ لأنَّ فعلَ القولِ جرىٰ في طريقةِ المحاورةِ[(٣)].

ثم نادَوْا علىٰ أنفسِهم بالوَيْلِ: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾[(٤)].

﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢ ﴾

ولمَّا قدَّموا ما هو أنفعُ لهم من اللَّومِ المُتقضِي لإجماعِهم علىٰ التَّوبةِ، فعُلم بذلك النَّدمُ الذي هو أمارةُ التَّوبةِ؛ استأنفوا جوابًا لمن سأل: هل اقتصَروا علىٰ التَّلاومِ؟ قولَهم: ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٨٧).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣١٣).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٨٧-٨٨).
(٤) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦١٠).
(٥) نظم الدرر (٢٠/ ٣١٤).

ثم استأنفوا عن ندامتِهم وتوبتِهم رجاءَهم من اللهِ أن يتوبَ عليهم، فلا يُؤاخِذهم بذنبِهم في الآخرةِ ولا في الدنيا، فيمحوَ عقابَه في الدنيا محوًا كاملًا بأن يُعوِّضهم عن جنَّتِهم التي قدَّر إتلافَها بجنَّةٍ أخرىٰ خير منها(١).

ثم رجَعوا إلىٰ اللهِ وسألوه أن يُعوِّضهم بخيرٍ منها، فقالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾(٢).

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

لمَّا كان المقامُ لترهيبِ مَن ركَن إلىٰ مالِه، واحتقَر الضُّعفاءَ من عبادِ اللهِ، ولم يُجِلَّهم بجلالِه؛ طواه، وذكَر ما صوَّر هذا الكلامَ وأنتجَه من مساواةِ حالِ قريشٍ وحالِ هؤلاءِ في الإحسانِ وطولِ الحِلْمِ مع احتقارِ أوليائِه والتَّقوِّي عليهم بأفضالِه ونعمائِه، فقال مُرهِّبًا: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾(٣).

رجوعٌ إلىٰ تهديدِ المشركين المبدوءِ من قولِه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾، فالكلامُ فَذْلَكةٌ وخلاصةٌ لِما قبلَه، وهو استئنافٌ ابتدائيٌّ، والمشارُ إليه باسمِ الإشارةِ هو ما تَضمَّنَته القصَّةُ من تَلَفِ جنَّتِهم وما أَحَسُّوا به عندَ رؤيتِها علىٰ تلك الحالةِ، وتَندُّمِهم وحسرتِهم؛ أي: مِثلَ ذلك المذكورِ يكونُ العذابُ في الدنيا، فقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُسنَدٌ مُقدَّمٌ، و﴿ٱلْعَذَابُ﴾ مُسنَدٌ إليه، وتقديمُ المُسنَدِ للاهتمامِ بإحضارِ صورتِه في ذِهْنِ السَّامعِ(٤).

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾

ولمَّا ذكر ما لأهلِ الجمودِ الذين لا يُجوِّزون المُمكِناتِ، ذكر أضدادَهم، فقال مُؤكِّدًا لأجلِ إنكارِهم: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٨٨).
(٢) فتح القدير (٥/ ٣٢٥).
(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٣١٥-٣١٦).
(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٨٠).
(٥) نظم الدرر (٢٠/ ٣١٧).

استئنافٌ بيانيٌّ لأنَّ مِن شأنِ ما ذُكر من عذابِ الآخرةِ للمُجرِمين أن ينشأَ عنه سؤالٌ في نفسِ السَّامعِ بقولِ: فما جزاءُ المتقين؟ وهو كلامٌ مُعترِضٌ بينَ أجزاءِ الوعيدِ والتَّهديدِ، وبينَ قولِه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦﴾، وقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُ﴾، وقد أَشعَرَ بتوقُّعِ هذا السُّؤالِ قولُه بعدَه: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ كما سيأتي(١).

ثم إنَّه تعالىٰ ذكر بعدَ ذلك أحوالَ السُّعَداءِ، فقال: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾(٢).

لمَّا فرَغ سبحانه من ذِكْرِ حالِ الكفارِ، وتشبيهِ ابتلائِهم بابتلاءِ أصحابِ الجنَّةِ المذكورةِ؛ ذكَر حالَ المتقين وما أعدَّه لهم من الخيرِ، فقال: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾(٣).

﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥﴾

ولمَّا كان عدمُ إيراثِ كلٍّ من الفريقينِ الدَّارَ التي تقدَّم وصفُها تسويةً بينَ المُحسِنِ والمُسيءِ، وكان ذلك لا يليقُ بحكيمٍ أن يفعلَه؛ وجب إنكارُه لتحقُّقِ أنَّ ما أخبر به سبحانه لا يكونُ إلَّا كذلك؛ لا سِيَّما وقد كان الكفارُ يقولون: إنَّهم كالمسلمين أو أحسنُ حالًا منهم، وذلك أنَّه إنْ كان لا بعثَ -كما كانوا يَظُنُّون- فقد استوَوْا فيما بعدَه مع ما فضَلوهم به في الدنيا من اتِّباعِ الأهواءِ والظَّفَرِ باللَّذائذِ، وإنْ كان ثَمَّ بعثٌ فقد كانوا يقولون -لشُبْهةٍ دَعَتْهم إليها شهوتُهم-: أما نكونُ علىٰ تقديرِه أحسنَ حالًا منكم، وآثَرَ عندَ اللهِ في حُسْنِ العيشِ، كما نحن في هذه الدَّارِ؛ لأنَّه ما بسَط لنا في هذه الدَّارِ إلَّا ونحن عندَه أفضلُ منكم، فقال تعالىٰ مُنكِرًا ومُكذِّبًا لذلك غايةَ الإنكارِ والتَّكذيبِ، عائبًا التَّحكُّمَ بالجهلِ غايةَ العيبِ، نافيًا للمُساواةِ ليكونَ انتقامًا

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٩٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦١١).

(٣) فتح القدير (٥/ ٣٢٧).

هو أعلىٰ من بابِ الأَولىٰ، مُسبِّبًا عمَّا تقديرُه: ولا يكونُ لغيرِ المتقين ذلك: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾(١).

فاءُ التَّفريعِ تقتضي أنَّ هذا الكلامَ مُتفرِّعٌ علىٰ ما قبلَه من استحقاقِ المتقين جنَّاتِ النَّعيمِ، ومقابلته بتهديدِ المشركين بعذابِ الدنيا والآخرةِ، ولكنَّ ذلك غيرُ مُصرَّحٍ فيه بما يُناسِبُ أن يتفرَّعَ عليه هذا الإنكارُ والتَّوبيخُ، فتعيَّن تقديرُ إنكارٍ من المُعرَّضِ بهم ليتوجَّهَ إليهم هذا الاستفهامُ المفرَّعُ، وهو ما أَشَرْنا إليه آنفًا من توقُّعِ أو وقوعِ سؤالٍ، والاستفهامُ وما بعدَه -من التَّوبيخِ والتَّخطئةِ والتَّهكُّمِ علىٰ إدلالِهم الكاذبِ- مُؤذِنٌ بأنَّ ما أُنكِرَ عليهم ووُبِّخُوا عليه وسُفِّهوا علىٰ اعتقادِه كان حديثًا قد جرىٰ في نوادِيهم، أو استَسخَروا به علىٰ المسلمين في مَعرِضِ جحودِ أن يكونَ بعثٌ، وفرضهم أنَّه علىٰ تقديرِ وقوعِ البعثِ والجزاءِ لا يكونُ للمسلمين مَزيَّةٌ وفضلٌ عندَ وقوعِه(٢).

تقريرٌ لِما قبلَه من فوزِ المتقين بجنَّاتِ النَّعيمِ، ورَدٌّ لِما يقولُه الكَفَرةُ عندَ سماعِهم بحديثِ الآخرةِ، وما وعد اللهُ المسلمين فيها، فإنَّهم كانوا يقولون: إنْ صحَّ أنَّا نُبعَثُ -كما يزعمُ محمدٌ ومَن معَه-؛ لم يكنْ حالُنا وحالُهم إلَّا مِثلَ ما هي في الدنيا، وإلَّا لم يزيدوا علينا ولم يَفضُلونا، وأقصىٰ أمرِهم أن يُساوُونا(٣).

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

ولمَّا كشف هذا الدَّليلُ الشُّبَهَ، ورفَع السِّتارَ، فأوصل إلىٰ أعظمَ من ضوءِ النَّهارِ؛ لفت القولَ إليهم بالخطابِ لَفْتَ المُغضَبِ عندَ العتابِ، فقال مُعجِّبًا منهم مُنبِّهًا علىٰ ما هم فيه من اعوجاجِ الفِطَرِ وفسادِ الفِكْرِ، مُنكِرًا عليهم غايةَ الإنكارِ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣١٧-٣١٨).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٩١).
(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٧).
(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣١٩).

لمَّا قال على سبيلِ الاستبعادِ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾، قرَّر هذا الاستبعادَ بأن قال على طريقةِ الالتفاتِ: ما لكم كيف تحكمون هذا الحكمَ المُعوَجَّ؟(١).

ثم قيل لهم بطريقِ الالتفاتِ لتأكيدِ الرَّدِّ وتشديدِه: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٢).

ثم وبَّخهم اللهُ، فقال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٣).

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ولمَّا كان الحكمُ لا يمكنُ وجودُه إلَّا مُكيَّفًا بكيفيَّةٍ، وكان ﷻ قد نفى حكمَهم هذا بإنكارِ جميعِ كيفيَّاتِه التي يمكنُ أن يصحَّ معَها، وكان الحكمُ الصَّحيحُ لا بدَّ وأن يكونَ مُستنِدًا إلى عقلٍ أو نقلٍ؛ زاد بطلانَ حكمِهم وضوحًا بنفيِ الأمرينِ معًا، فقال عاطفًا على ما تقديرُه: أَلَكُمْ دليلٌ من العقلِ إليه تلجؤون: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾(٤).

إضرابُ انتقالٍ من توبيخٍ إلى احتجاجٍ على كذبِهم، وحاصلُ هذا الانتقالِ والانتقالاتِ الثَّلاثةِ بعدَه أنَّ حكمَكم هذا لا يخلو من أن يكونَ سَنَدُه كتابًا سماويًّا نزل مِن لَدُنَّا، وإمَّا أن يكونَ سندُه عهدًا مِنَّا بأنَّا نُعطِيكم ما تقترحون، وإمَّا أن يكونَ لكم كفيلٌ علينا، وإمَّا أن يكونَ تعويلًا على نصرِ شركائِكم(٥).

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

ولمَّا ذكر الدَّرسَ، ذكر المدروسَ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾(٦).

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦١١).
(٢) روح المعاني (١٥/ ٣٨).
(٣) فتح القدير (٥/ ٣٢٧).
(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣١٩-٣٢٠).
(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٩٣).
(٦) نظم الدرر (٢٠/ ٣٢٠).

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

ولمَّا نفىٰ دليلَ العقلِ والنَّقلِ، مع التَّعجُّبِ منهم والتَّهكُّمِ بهم، وكان قد بقي أنَّ الإنسانَ ربما عاهَد غيرَه علىٰ شيءٍ، فيلزمُه الوفاءُ به، وإن كان خارجًا عمَّا يدعو إليه العقلُ والنَّقلُ؛ نفىٰ ذلك بقولِه: ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾(١).

﴿ أَمْ ﴾ للانتقالِ إلىٰ دليلٍ آخرَ، وهو نفيُ أن يكونَ مُستنَدُ زعمِهم عهدًا أخذوه علىٰ اللهِ لأنفسِهم أن يُعامِلَهم يومَ القيامةِ بما يحكمون به لأنفسِهم(٢).

ثم زاد سبحانه في التَّوبيخ، فقال: ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾(٣).

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

لمَّا عجَّب منهم وتهكَّم بهم، ذيَّل ذلك بتهكُّمٍ أعلىٰ منه يكشفُ عَوارَهم غايةَ الكشفِ، ويُنزِلُ بهم أشدَّ الحَتْفِ، فقال مُخوِّفًا لهم بالإعراضِ: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾(٤).

استئنافٌ بيانيٌّ عن جملةِ ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ ﴾؛ لأنَّ الأيمانَ -وهي العهودُ- تقتضي الكُفَلاءَ عادةً، فلمَّا ذكر إنكارَ أن يكونَ لهم عهودٌ، كمَّل ذلك بأن يطلبَ منهم أن يُعيِّنوا مَن هم الزُّعماءُ بتلك الأيمانِ(٥).

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

ولمَّا نفىٰ أن يكونَ لهم منه سبحانه في تسويتِهم بالمسلمين دليلٌ عقليٌّ أو نقليٌّ أو عهدٌ وثيقٌ علىٰ هذا التَّرتيبِ المُحكَمِ والمِنهاجِ الأقومِ، أتبعه ما يكونُ من عندِ غيرِه -إن كان ثَمَّ غيرٌ- علىٰ ما ادَّعَوْا، فقال: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾(٦).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٢٠).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٩٤).
(٣) فتح القدير (٥/ ٣٢٧).
(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٢١).
(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٩٥).
(٦) نظم الدرر (٢٠/ ٣٢٢).

﴿ أَمْ ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ ثالثٌ إلىٰ إبطالِ مُستنَدٍ آخرَ مفروضٍ لهم في سندِ قولِهم: إنَّا نُعطَىٰ مِثلَ ما يُعطَىٰ المسلمون أو خيرًا ممَّا يُعْطَوْنَه، وهو أن يفرضَ أنَّ أصنامَهم تنصرُهم وتجعلُ لهم حظًّا من جزاءِ الخيرِ في الآخرةِ[(١)].

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ولمَّا نفىٰ جميعَ شُبَهِهم التي يمكنُ أن يتشبَّثوا بها مع البيانِ لقدرتِه علىٰ ما يريدُ من تفتيقِ الأدلَّةِ وتشقيقِ البراهينِ الدَّالِّ علىٰ تمامِ العلمِ اللازمِ منه كمالُ القدرةِ فأوصلهم من وضوحِ الأمرِ إلىٰ حدٍّ لم يَبْقَ معَه إلَّا العنادُ، أتبع ذلك تهديدَهم بما يُثبتُ ذلك قدرتُه عليه مِن يومِ الفصلِ ومعاملتهم فيه بالعدلِ، فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[(٢)].

لمَّا أبطل قولَهم، وأفسد مقالتَهم، شرح بعدَ ذلك عَظَمةَ يومِ القيامةِ، فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[(٣)].

لمَّا ذكر تعالىٰ أنَّ للمتقين عندَه جنَّاتِ النَّعيمِ، بيَّن متىٰ ذلك كائنٌ وواقعٌ، فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[(٤)].

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا كان ربما ظنَّ ظانٌّ أنَّ المانعَ لهم الكِبْرُ، كما في هذه الدنيا؛ قال مُبيِّنًا لنفيِ الكِبْرِ في مِثْلِ هذا اليومِ العظيمِ: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٩٦).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦١٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ١٩٨).

(٥) نظم الدرر (٢٠/ ٣٢٤-٣٢٥).

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤)﴾

ولمَّا عُلم بهذا أنَّه سبحانه المتصرِّفُ وحدَه بما يشاءُ كيف يشاءُ من المنعِ والتَّمكين، وكان النبيُّ ﷺ يجدُ مِن تكذيبهم له -معَ إتيانِه بما لا يحتملُ التَّكذيبَ بوجهٍ- من المشقَّةِ ما لا يعلمُ مِقدارَه إلَّا اللهُ ﷻ، وكان علمُ المغمومِ بأنَّ له مُنقِذًا يُخفِّفُ عنه، وكان علمُه باقتدارِه على ما يُرادُ منه أقرَّ لعينِه؛ سبَّب عن كمالِ اقتدارِه قولَه مُخفِّفًا عنه عليه أفضلُ الصلاة والسلام، لافتًا القولَ إلى التكلُّمِ بالإفرادِ تنصيصًا على المرادِ؛ زيادةً في تسكينِ القلبِ وشرحِ الصَّدرِ: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

الفاءُ لتفريعِ الكلامِ الذي عطفته على الكلامِ الذي قبلَه؛ لكونِ الكلامِ الأوَّلِ سببًا في ذِكْرِ ما بعدَه، فبعدَ أن استوفَى الغرضَ من موعظتِهم ووعيدِهم وتزييفِ أوهامِهم، أعقب بهذا الاعتراضِ تسليةً للرَّسولِ ﷺ بأنَّ اللهَ تكفَّل بالانتصافِ من المكذِّبين ونصره عليهم(٢).

ثم تأثَّر تعالى تخويفَهم بعَظَمةِ يومِ القيامةِ، بترهيبِهم بما عندَه، وفي قدرتِه من القهرِ، فقال سبحانه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣).

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾

ولمَّا كان الاستدراجُ يكونُ بأسبابٍ كثيرةٍ من بَسْطِ النِّعَمِ وغيرِها، فأبرزه بالنُّونِ المشتركةِ بينَ الاستتباعِ والعَظَمةِ، وكان تأخيرُ الأجلِ لا يكونُ إلَّا للهِ وحدَه بغيرِ واسطةِ شيءٍ؛ قال سبحانه: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٠٠).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٣٠٥).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٢٨).

ثم ذكَر سبحانه أنَّه يُمهِلُ الظَّالمين، فقال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾(١).

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

ولمَّا كان هذا القرآنُ أعظمَ إحسانٍ ساقه ﷻ إليهم، فكان مُوجِبًا للشُّكرِ عليهم للذي أنزله، ولإكرامِ الآتي به، فكان سببًا لمباشرتِهم من التَّكذيبِ به والأذىٰ للآتي به إليهم ما يُوجِبُ أخذَهم؛ قال دالًّا علىٰ متانةِ كيدِه سبحانه، ودِقَّةِ استدراجِه، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه لبيانِ أنَّهم يُباشِرون ما يُهلِكُهم باختيارِهم من غيرِ مُوجِبٍ: أكان تكذيبُهم هذا الذِّكرَ لشيءٍ فيه يرتابون؟ قولَه مُنكِرًا عليهم، مُبيِّنًا أنَّ تكذيبَهم إنَّما هو لأنَّه طَبْعٌ وخُبْثُ سَجِيَّةٍ لا شهوةَ لهم فيه ولا شُبْهةَ: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾(٢).

إضرابٌ آخَرُ للانتقالِ إلىٰ إبطالِ آخَرَ من إبطالِ معاذيرِهم في إعراضِهم عن استجابةِ دعوةِ النبيِّ ﷺ، فإنَّه بعدَ أنْ نفىٰ أن تكونَ لهم حُجَّةٌ تُؤيِّدُ صلاحَ حالِهم، أو وعدٌ لهم بإعطاءِ ما يرغبون، أو أولياءُ ينصرونهم؛ عطف الكلامَ إلىٰ نفيِ أن يكونَ عليهم ضُرٌّ في إجابةِ دعوةِ الإسلامِ؛ استقصاءً لقطعِ ما يحتملُ من المعاذيرِ بافتراضِ أنَّ الرسولَ ﷺ سألهم أجرًا علىٰ هَدْيِه إيَّاهم، فصَدَّهم عن إجابتِه ثِقَلُ غُرْمِ المالِ علىٰ نفوسِهم(٣).

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

ولمَّا نفىٰ أن يكونَ تكذيبُهم بشهوةٍ دَعَتْهم إلىٰ ذلك، نفىٰ أن يكونَ لهم في ذلك شُبْهةٌ من شكٍّ في الذِّكرِ، أو حَيْفٍ في المُذكِّرِ، وأن يكونوا علىٰ ثقةٍ أو ظنٍّ من سلامةِ العاقبةِ، فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾(٤).

---

(١) فتح القدير (٥/ ٣٢٩).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٢٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٠٢).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٢٩-٣٣٠).

إضرابٌ آخَرُ انتقل به من مدارجِ إبطالِ معاذيرَ مفروضةٍ لهم أن يتمسَّكوا بها تَعِلَّةً لإعراضِهم عن قبولِ دعوةِ القرآنِ؛ قطعًا لِما عسىٰ أن يَنتحِلوه من المعاذيرِ علىٰ طريقةِ الاستقراءِ ومنعِ الخُلُوِّ، وقد جاءت الإبطالاتُ السَّالفةُ مُتعلِّقةً بما يفرضُ لهم من المعاذيرِ التي هي من قَبِيلِ مُستنَداتٍ من المشاهداتِ، وانتقل الآنَ إلىٰ إبطالٍ من نوعٍ آخرَ؛ وهو إبطالُ حُجَّةٍ مفروضةٍ يستندون فيها إلىٰ علمِ شيءٍ من المعلوماتِ المُغيَّباتِ عن النَّاسِ، وهي ممَّا استأثر اللهُ بعلمِه، وهو المُعبَّرُ عنه بالغيبِ، وقد استقرَّ عندَ النَّاسِ كلِّهم أنَّ أمورَ الغيبِ لا يعلمُها إلَّا اللهُ أو مَن أَطلَعَ من عبادِه علىٰ بعضِها(١).

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾﴾

ولمَّا انتفىٰ جميعُ ذلك، فثبت أنَّهم علىٰ خطرٍ عظيمٍ، وأنَّه سبحانه المُختَصُّ بعلمِ الغيبِ، وقد أخبر بإهلاكِهم من أجلِه ﷺ، وأنَّ كفرَ مَن كفَر وإيمانَ مَن آمَن بقضائِه وتقديرِه، فكان لا بدَّ منهما؛ كان ذلك سببًا حاملًا له علىٰ الصَّبرِ إلىٰ الوقتِ الذي ضربه سبحانه للفرجِ، فقال مُسبِّبًا عمَّا تقديرُه: لم يكنْ له شيءٌ ممَّا ذكر، وإنَّما هو القضاءُ والقدرُ: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾(٢).

تفريعٌ علىٰ ما تقدَّم من إبطالِ مزاعمِ المشركين، ومطاعنِهم في القرآنِ والرسولِ ﷺ، وما تَبِعَه من تكفُّلِ اللهِ لرسولِه ﷺ بعاقبةِ النَّصرِ، وذلك أنَّ شِدَّتَه علىٰ نفسِ النبيِّ ﷺ من شأنِها أن تُدخِلَ عليه يأسًا من حصولِ رغبتِه ونجاحِ سَعْيِه، ففرَّع عليه تثبيتَه وحثَّه علىٰ المصابرةِ، واستمرارَه علىٰ الهدىٰ، وتعريفَه بأنَّ ذلك التَّثبيتَ يرفعُ درجتَه في مقامِ الرِّسالةِ ليكونَ من أولي العزمِ، فذكَّره بمَثَلِ يونسَ عليه السلام إذ استعجَل عن أمرِ ربِّه، فأدَّبه اللهُ ثم اجتباه وتاب عليه وجعله من الصَّالحين؛ تذكيرًا مرادًا به التَّحذيرُ(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٠٣).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٣٠).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٠٤).

فلم يَبْقَ إلَّا الصَّبرُ لأذاهم، والتَّحمُّلُ لِما يصدرُ منهم، والاستمرارُ علىٰ دعوتِهم؛ ولهذا قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾(١).

﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾

ولمَّا تشوَّف السَّامعُ إلىٰ ما كان من أمرِه بعدَ هذا الأمرِ العجيبِ، قال: ﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾(٢).

قولُه: ﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن مضمونِ النَّهيِ من قولِه: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾؛ لأنَّه يتضمَّنُ التَّحذيرَ من الوقوعِ في كَرْبٍ من قَبِيلِ كربِ يونسَ، ثم لا يدري كيف يكونُ انفراجُه(٣).

﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾

ولمَّا كان التقديرُ: ولكنَّه تداركَه بالنِّعمةِ فلم يكنْ في نَبْذِه مَلُومًا، سبَّب عنه قولَه: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٤).

وفرَّع علىٰ هذا النَّفيِ الإخبارَ بأنَّ اللهَ اجتباه وجعله من الصَّالحين(٥).

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾

ولمَّا نهاه ﷺ عن طاعةِ المكذِّبين، وحذَّره إدهانَهم، وضرب لهم الأمثالَ، وتوعَّدهم إلىٰ أن قال: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وختم بقصَّةِ يونسَ عليه السلام للتَّدريبِ علىٰ الصَّبرِ وعدمِ الضَّعفِ ولو بالصَّغْوِ إلىٰ المُدهِنِ، فكان التقديرُ تسبيبًا عمَّا فيها من النَّهيِ: فإنَّهم إنَّما يُبالِغون في أذاك لتضجرَ فتتركَ ما أنت

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٨٨١).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٣٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٠٥).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٣٣).

(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٠٧).

فيه؛ قال عاطفًا على هذا المقدَّرِ، مُخبِرًا له بما في صدورِهم من الإحنِ عليه، وفي قلوبِهم من الضَّغائنِ له؛ ليشتدَّ حذرُه من إدهانِهم، مُؤكِّدًا لأنَّ مَن يرى إدهانَهم يَظُنُّ إذعانَهم، ويُنكِرُ لمبالغتِهم فيه طغيانَهم: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾[1].

عطفٌ على جملةِ ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، عرَّف اللهُ رسولَه ﷺ بعضَ ما تنطوي عليه نفوسُ المشركين نحوَ النبيِّ ﷺ من الحقدِ والغيظِ وإضمارِ الشَّرِّ عندَما يسمعون القرآنَ[2].

لمَّا أمره تعالى بالصَّبرِ لِما أراده تعالى ونهاه عن ما نهاه، أخبر بشِدَّةِ عداوتِهم ليتلقَّى ذلك بالصَّبرِ، فقال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾[3].

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

ولمَّا كان معنى قولِهم هذا أنَّ ما يقولُه تخاليطُ مَن يُصرَعُ بالجِنِّ، أكَّد بقصرِ القلبِ قولَه مُعجِّبًا منهم: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[4].

قولُه: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ إبطالٌ لقولِهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾؛ لأنَّهم قالوه في سياقِ تكذيبِهم بالقرآنِ، فإذا ثبت أنَّ القرآنَ ذِكرٌ، بطَل أن يكونَ مُبلِّغُه مجنونًا، وهذا من قَبيلِ الاحتباكِ؛ إذ التقديرُ: ويقولون إنَّه لمجنونٌ وإنَّ القرآنَ كلامُ مجنونٍ، وما القرآنُ إلَّا ذِكرٌ وما أنت إلَّا مُذكِّرٌ[5].

فرَدَّ اللهُ عليهم بقولِه: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[6].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٣٣-٣٣٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٠٧).

(٣) البحر المحيط (١٠/ ٢٤٩).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٣٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٠٩).

(٦) فتح القدير (٥/ ٣٣١).

سورة الحاقة

﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾

ولمَّا كان ذلك كلُّه أمرًا رائعًا للعقولِ، هازًّا للقلوبِ، مُزعِجًا للنُّفوسِ، وكان ربما تَوقَّف فيه الجِلْفُ الجافي؛ أكَّد أمرَه، وزادَ في تهويلِه، وأطنب في تفخيمِه وتبجيلِه؛ إشارةً إلىٰ أنَّ هَوْلَه يفوتُ الوصفَ، بقولِه مُعلِمًا أنَّه ممَّا يحقُّ له أن يُستفهَمَ عنه، سائقًا له بأداةِ الاستفهامِ مرادًا بها التَّعظيمُ للشَّأنِ، وأنَّ الخبرَ ليس كالعِيانِ: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾[1].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾

ولمَّا كان السِّياقُ لترجمةِ المرادِ بكشفِ السَّاقِ، عظَّم التَّهويلَ بقولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾[2].

جملةُ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ يجوزُ أن تكونَ مُعترضةً بينَ جملةِ ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ وجملةِ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾، والواوُ اعتراضيَّةٌ، ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ معطوفةً علىٰ جملةِ ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٣٩).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٣٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١١٣).

ثم زادَ سبحانه في تفخيمِ أمرِها، وتعظيمِ شأنِها، وتهويلِ حالِها، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾[(١)].

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤﴾

إنْ جعلتَ قولَه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ نهايةَ كلام؛ فموقعُ قولِه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ وما اتَّصلَ به استئنافٌ، وهو تذكيرٌ بما حَلَّ بثمودَ وعادٍ لتكذيبِهم بالبعثِ والجزاءِ، تعريضًا بالمشركين من أهلِ مكَّةَ بتهديدِهم أن يَحِقَّ عليه مِثْلُ ما حَلَّ بثمودَ وعادٍ، فإنَّهم سواءٌ في التكذيبِ بالبعثِ، وعلىٰ هذا يكونُ قولُه: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١﴾ إلخ توطئةً له، وتمهيدًا لهذه الموعظةِ العظيمةِ؛ استرهابًا لنفوسِ السَّامعين. وإنْ جعلتَ الكلامَ مُتَّصِلًا بجملةِ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾، وعيَّنتَ لفظَ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ ليومِ القيامةِ، كانت هذه الجملةُ خبرًا ثالثًا عن ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾[(٢)].

الجملةُ استئنافٌ مَسُوقٌ لإعلامِ بعضِ أحوالِ الحاقَّةِ له ﷺ، إثرَ تقريرِ أنَّه ما أدراه ﷺ بها أحدٌ[(٣)].

ثم ذكر نموذجًا من أحوالِها الموجودةِ في الدنيا المُشاهَدةِ فيها، وهو ما أحلَّه من العقوباتِ البليغةِ بالأُمَمِ العاتيةِ، فقال: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾[(٤)].

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾

ولمَّا جمَعهم في التَّكذيبِ، فصَّلهم في التَّعذيبِ لأجلِ ذلك التَّكذيبِ، فقال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾[(٥)].

---

(١) فتح القدير (٥/ ٣٣٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١١٤).
(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٢٢).
(٤) تفسير السعدي (ص: ٨٨٢).
(٥) نظم الدرر (٢٠/ ٣٤٢).

ابتُدئ بذِكْرِ ثمودَ لأنَّ العذابَ الذي أصابَهم من قَبِيلِ القَرْعِ؛ إذ أصابَتْهم الصَّواعقُ المسمَّاةُ في بعضِ الآياتِ بالصَّيحةِ(١).

لمَّا ذكَّرها وفخَّمها، أتبع ذلك بذِكْرِ مَن كذَّب بها، وما حَلَّ بهم بسببِ التَّكذيبِ؛ تذكيرًا لأهلِ مكَّةَ، وتخويفًا لهم من عاقبةِ تكذيبِهم(٢).

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾

ولمَّا ذكر المُهْلَكِين بالصَّيحةِ لأجلِ التَّكذيبِ بالقارعةِ تحذيرًا لمن يُكذِّبُ بها، أتبعه المُهْلَكِين بما هو سببٌ لإنفاذِ الصَّيحةِ وتقويتِها دلالةً على تمامِ القدرةِ على كلِّ نوعٍ من العذابِ بالاختيارِ، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(٣).

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾

ولمَّا وصَفها بالعُتُوِّ على الخلقِ والغَلَبةِ لهم بحيثُ كانت خارقةً للعادةِ لم يأتِ مِثلُها قبلُ ولا بعدُ، دلَّ على صغارِها بالنِّسبةِ إلى عظمتِه، وأنَّه هو الذي أوجدها لا الطَّبيعةُ ولا غيرُها، بل إنَّما كانت بقدرتِه واختيارِه قهرًا لمن طعن في مُلْكِه وكذَّب رُسُلَه فيما أَخبَروا به من أمرِ السَّاعةِ التي هي موضعُ الحكمةِ وإظهارِ جميعِ العَظَمةِ، فقال مُستأنِفًا دلالةً على ذلك: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾(٤).

استئنافٌ جيء به بيانًا لكيفيَّةِ إهلاكِهم بالرِّيحِ(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١١٦).
(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٢١).
(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٣٤٢-٣٤٣).
(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٤٣-٣٤٤).
(٥) إرشاد العقل السليم (٩/ ٢٢).

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ٨﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا رائعًا لمن له أدنىٰ معقولٍ، وكان الاستفهامُ ممَّا يزيدُ الرَّوعةَ؛ قال مُسبِّبًا عن استئصالِهم ليكونَ الإخبارُ به المُستلزِمُ لغايةِ العلمِ بالجزئيَّاتِ كالدَّعوىٰ بدليلِها: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾[1].

تفريعٌ علىٰ مجموعِ قِصَّتَيْ ثمودَ وعادٍ، فهو فَذْلَكةٌ لِما فُصل من حالِ إهلاكِهما، وذلك من قَبيلِ الجمعِ بعدَ التَّفريقِ، فيكونُ في أوَّلِ الآيةِ جمعٌ ثم تفريقٌ ثم جمعٌ[2].

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ٩﴾

ولمَّا أخبر تعالىٰ عمَّن أُهلِكَ بالرِّيحِ، ومَن أُهلِكَ بما سبَّبه الرِّيحُ تسبيبًا قريبًا بغيرِ واسطة، وكان ذلك كلُّه -لخروجِه عن العادةِ- رادًّا علىٰ أهلِ الطَّبائع؛ أخبر بمَن أُهلِكَ ممَّا سبَّبتُه الرِّيحُ من الماءِ بواسطةِ السَّحاب، وكانت سببَ تطابقِه عليهم مع أنَّ كفرَهم بالتَّعطيلِ الذي هو أنحسُ أنواعِ الكفرِ للقولِ بالطَّبيعةِ التي تَتضمَّنُ الإنكارَ للبعثِ، وكان إغراقُهم بما يُكذِّبُ معتقدَهم لخروجِه عن العادةِ، فقال مُنبِّهًا علىٰ قُوَّةِ كفرِهم بالمجيءِ: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾[3].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلْقَارِعَةِ ٤﴾، وقد جمع في الذِّكرِ هنا عِدَّةَ أُمَمٍ تَقدَّمتْ قبلَ بعثةِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إجمالًا وتصريحًا، وخصَّ منهم بالتَّصريحِ قومَ فرعونَ والمُؤتفِكاتِ؛ لأنَّهم من أشهرِ الأُمَمِ ذِكرًا عندَ أهلِ الكتابِ المُختلِطين بالعربِ والنَّازلين بجوارِهم، فمن العربِ مَن يَبلُغُه بعضُ الخبرِ عن قصَّتِهم، وفي عطفِ هؤلاء علىٰ ثمودَ وعادٍ في سياقِ ذِكرِ التَّكذيبِ بالقارعةِ إيماءٌ إلىٰ أنَّهم تشابهوا في

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١١٩).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٣٤٦-٣٤٧).

التَّكذيبِ بالقارعةِ كما تشابهوا في المجيءِ بالخاطئةِ وعصيانِ رسلِ ربِّهم، فحصل في الكلامِ احتباكٌ(١).

﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾

ولمَّا كان الرُّسلُ كلُّهم جميعًا كالفردِ الواحدِ؛ لاتِّفاقِ مقاصدِهم في الدعاءِ إلىٰ اللهِ والحملِ علىٰ طاعتِه، قال مُستأنِفًا مُسبِّبًا عن مجيئِهم بذلك مُوحِّدًا في اللَّفظِ ما هو صالحٌ للكثيرِ بإرادةِ الجنسِ: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾(٢).

وفرَّع عنه تفصيلَ ذنبِهم المعبَّرِ عنه بـ«الخاطئة»، فقال: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾، وهذا التَّفريعُ للتَّفصيلِ(٣).

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١﴾

ولمَّا كان ربما وقع في وهمِ التَّعجُّبِ من وجودِ فرعونَ ومَن بعدَه من الإخبارِ بأخذِ مَن قبلَه، أشار إلىٰ أنَّه أهلك جميعَ المُخالِفين وأنجىٰ جميعَ المُوافِقين؛ قال جوابًا لذلك السُّؤالِ، مُؤكِّدًا لأجلِ مَن يتعنَّتُ، ولأنَّ ذلك كان ممَّا يُتعجَّبُ منه ويُتَلذَّذُ بذِكْرِه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾(٤).

إنَّ قولَه تعالىٰ: ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ لمَّا شمل قومَ نوحٍ -وهم أوَّلُ الأُمَمِ كذَّبوا الرُّسلَ-؛ حسُن اقتضابُ التَّذكيرِ بأخذِهم لِما فيه من إدماجِ امتنانٍ علىٰ جميعِ النَّاسِ الذين تناسَلوا من الفئةِ الذين نجَّاهم اللهُ من الغرقِ ليتخلَّصَ من كونِه عِظَةً وعِبرةً إلىٰ التَّذكيرِ بأنَّه نعمةٌ، وهذا من قَبِيلِ الإدماجِ، وقد بُني علىٰ شهرةِ مَهلِكِ قومِ نوحٍ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٢٠).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٤٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٢١).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٤٩-٣٥٠).

اعتبارُه كالمذكورِ في الكلامِ، فجُعل شرطًا لـ﴿لَمَّا﴾ في قولِه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾؛ أي: في ذلك الوقتِ المعروفِ بطُغْيانِ الطُّوفانِ(١).

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾

ولمَّا بدأ ﷻ بثمودَ الذين هم أقربُ المُهلَكِينَ إلىٰ مكَّةَ المشرَّفةِ؛ لأنَّ التَّخويفَ بالأقربِ أقعدُ، وختم بقومِ نوحٍ عليه السلام؛ لأنَّهم كانوا جميعَ أهلِ الأرضِ، ولم يَخْفَ أمرُهم علىٰ أحدٍ ممَّن بعدَهم؛ علَّل اختيارَ إنجائِهم بالسَّفينةِ دونَ غيرِها، فقال: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾(٢).

وذكَر إحدىٰ الحِكَمِ والعِلَلِ لهذا الحملِ، وهي حكمةُ تذكيرِ البشرِ به علىٰ تعاقبِ الأعصارِ ليكونَ لهم باعثًا علىٰ الشُّكرِ، وعِظةً لهم من أسواءِ الكفرِ، وليُخبرَ بها مَن علمها قومًا لم يعلموها فتعِيَها أسماعُهم(٣).

ولمَّا كان المقصودُ من ذِكرِ قصصِ الأُمَمِ وذِكرِ ما حَلَّ بهم من العذابِ زجرَ هذه الأُمَّةِ عن الاقتداءِ بهم في معصيةِ الرسولِ؛ قال: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾(٤).

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾

ولمَّا ذكر القيامةَ، وهوَّل أمرَها بالتعبيرِ بـ«الحاقَّةِ» وغيرِها؛ ودَلَّ علىٰ قدرتِه عليها، وعلىٰ حكمتِه بقصصِ مَن ذكر علىٰ الوجهِ الذي مَرَّ، إلىٰ أن ختم بالذين كانت قصَّتُهم أشبهَ تلك القصصِ بالقيامةِ من حيثُ إنَّ أمرَ اللهِ فيها عمَّ أهلَ الأرضِ وفي زمنٍ يسيرٍ،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٢٣).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٥٠-٣٥١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٢٣).

(٤) فتح القدير (٥/ ٣٣٦).

وكان النَّاجون منها بالنِّسبةِ إلىٰ المُهْلَكِينَ كالشَّعرةِ البيضاءِ في جِلْدِ الثَّورِ الأسودِ؛ سبَّب عن جميعِ ما مضىٰ قولَه شرحًا لأمرِها: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾(١).

الفاءُ لتفريعِ ما بعدَها علىٰ التَّهويلِ الذي صُدِّرتْ به السُّورةُ من قولِه: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾، فعُلم أنَّه تهويلٌ لأمرِ العذابِ الذي هُدِّدَ به المشركون من أمثالِ ما نالَ أمثالَهم في الدنيا، ومن عذابِ الآخرةِ الذي ينتظرُهم، فلمَّا أتمَّ تهديدَهم بعذابِ الدنيا، فرَّع عليه إنذارَهم بعذابِ الآخرةِ الذي يَحِلُّ عندَ القارعةِ التي كذَّبوا بها كما كذَّبتْ بها ثمودُ وعادٌ، فحصل من هذا بيانٌ للقارعةِ بأنَّها ساعةُ البعثِ، وهي الواقعةُ(٢).

لمَّا ثبت ذلك، شرع سبحانه في تفاصيلِ أحوالِ القيامةِ، فذكر أوَّلًا مُقدِّماتِها، فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾(٣).

لمَّا ذكر تعالىٰ ما فعل بمُكذِّبي الرُّسلِ من العذابِ في الدنيا، ذكر أمرَ الآخرةِ وما يَعرِضُ فيها لأهلِ السَّعادةِ وأهلِ الشَّقاوةِ، وبدأ بإعلامِ يومِ القيامةِ، فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾(٤).

شروعٌ في بيانِ نفسِ الحاقَّةِ، وكيفيَّةِ وقوعِها إثرَ بيانِ عِظَمِ شأنِها بإهلاكِ مُكذِّبيها(٥).

لمَّا ذكر ما فعله تعالىٰ بالمكذِّبين لرُسُلِه، وكيف جازاهم وعجَّل لهم العقوبةَ في الدنيا، وأنَّ اللهَ نجَّىٰ الرُّسلَ وأتباعَهم؛ كان هذا مُقدِّمةً لذِكْرِ الجزاءِ الأُخرويِّ وتوفيةِ الأعمالِ كاملةً يومَ القيامة، فذكر الأمورَ الهائلةَ التي تقعُ أمامَ القيامةِ، وأنَّ أوَّلَ ذلك نفخُ إسرافيلَ في الصُّورِ(٦).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٥٢).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٢٤).
(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٢٤).
(٤) البحر المحيط (١٠/ ٢٥٧).
(٥) إرشاد العقل السليم (٩/ ٢٣).
(٦) تفسير السعدي (ص: ٨٨٣).

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ١٤﴾

ولمَّا ذكر التَّأثيرَ في الإحياءِ، أتبعه التَّأثير في الجماداتِ، وبدأ بالسُّفْليَّاتِ لمُلابستِها للإنسانِ، فتكونُ عِبرتُه بها أكثرَ، فقال: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾(1).

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ١٥﴾

ولمَّا ذكر نفخَ الصُّورِ، سبَّب عنه قولَه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾(2).

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ١٦﴾

ولمَّا ذكر تأثيرَ العالمِ السُّفليِّ، ذكر العُلْويَّ، فقال: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾(3).

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ١٧﴾

ولمَّا كانت العادةُ جاريةً فيما يعرفُ أنَّ المَلِكَ يُظهِرُ أنواعًا من عَظَمتِه يومَ عرضِ الجُنْدِ، قال مُعرِّفًا لنا بنحوِ ما أَلِفْناه: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾(4).

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ١٨﴾

ولمَّا بلغ النِّهايةَ في تحذيرِ العبادِ من يومِ التَّنادِ، وكان لهم حالتانِ: خاصَّةٌ وعامَّةٌ، فالعامَّةُ العرضُ، والخاصَّةُ التَّقسيمُ إلىٰ مُحسِنٍ ومُسِيءٍ؛ زاده عِظَمًا بقولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾(5).

---

(1) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٢٥).

(2) نظم الدرر (٢٠/ ٣٥٤).

(3) نظم الدرر (٢٠/ ٣٥٤).

(4) نظم الدرر (٢٠/ ٣٥٤-٣٥٥).

(5) نظم الدرر (٢٠/ ٣٥٩).

جملةُ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ مستأنَفةٌ، أو هي بيانٌ لجملةِ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، أو بدلُ اشتمالٍ منها(١).

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩)﴾

ولمَّا كان من المعلومِ أنَّهم قسمانِ: مُحسِنٌ ومُسِيءٌ، وكان التقديرُ: فنُعطِي كُلًّا منكم صحيفةَ أعمالِه من أفعالِه وأقوالِه، وجميعِ خلائقِه وأحوالِه، فمنكم مَن تُدفَعُ إليه في يمينِه فتظهرُ له حسناتُه وتُستَرُ عنه سيِّئاتُه، ومنكم مَن يُعطاها في شمالِه فتبدو له سيِّئاتُه ويُمحَىٰ ما كان من حسناتِه؛ لأنَّه أُوتِيَ ثوابَه في الدنيا بما عُجِّلَ له من طيِّباتِه؛ عطف عليه مُفصِّلًا له قولَه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾(٢).

الفاءُ تفصيلٌ لِما يتضمَّنُه ﴿تُعْرَضُونَ﴾؛ إذ العرضُ عرضٌ للحسابِ والجزاءِ، فإيتاءُ الكتابِ هو إيقافُ كلِّ واحدٍ علىٰ صحيفةِ أعمالِه(٣).

لمَّا ذكر سبحانه العرضَ، ذكر ما يكونُ فيه، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾(٤).

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠)﴾

ولمَّا كانت حقيقةُ الحسابِ ذِكرَ الأعمالِ والمُجازاةَ عليها، وكان الآدميُّ -لأنَّه مجبولٌ علىٰ النَّقصِ- لا يقدرُ أن يَقدِرَ اللهَ حقَّ قدرِه، وكُلَّما كان الإنسانُ أعلىٰ كان الاستشعارُ والنَّقصُ من نفسِه أكثرَ، وكان مَن نُوقِشَ الحسابَ -كما قال النبيُّ ﷺ-

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٢٩).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٦٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٢٩).

(٤) فتح القدير (٥/ ٣٣٩).

عُذِّبَ[١]؛ قال مُؤكِّدًا لأنَّ مَن يرىٰ حالَه وكتابَه يُنكِرُ أن يكونَ له ذنبٌ أو منه تقصيرٌ: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾[٢].

جملـةُ ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ في موقـعِ التَّعليـلِ للفـرحِ والبهجـةِ التـي دَلَّ عليهـا قولُـه: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾، وبـذلك يكـونُ حـرفُ «إنَّ» لمجـرَّدِ الاهتمـامِ وإفادةِ التَّسبُّبِ[٣].

ثم إنَّه تعالىٰ حكىٰ عنه أنَّه يقولُ: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾[٤].

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾

ولمَّا كـان تقـديرُ هـذا واضـحًا، سبَّب عنه مـا تـأثَّر عـن الحسـابِ اليسـيرِ مـن إعطاءِ الثَّوابِ، فقال: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[٥].

موقعُ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ موقعُ التَّفريعِ علىٰ ما تقدَّم من إيتائِه كتابَه بيمينِه ومـا كان لذلك من أثرِ المَسَرَّةِ والكرامةِ في المحشرِ، فتكونُ الفاءُ لتفريعِ ذِكْرِ هذه الجملةِ علىٰ ذِكْرِ ما قبلَها، ولك أن تجعلَها بدلَ اشتمالٍ مـن جملـةِ ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾، فإنَّ ذلك القولَ اشتمَل علىٰ أنَّ قائلَه في نعيمٍ كما تقدَّم[٦].

ثم بيَّن تعالىٰ عاقبةَ أمرِه، فقال: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٦١-٣٦٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٣٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٢٨).

(٥) نظم الدرر (٢٠/ ٣٦٣).

(٦) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٣٢).

(٧) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٢٨).

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا شوَّق سبحانه إلىٰ حالِ صاحبِ هذه العيشةِ، وكانت أمرًا إجماليًّا؛ فصَّلها وبيَّنها بالإبدالِ منها؛ زيادةً في التَّشويقِ، فقال: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾(١).

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كان من شأنِ المعالي عُسْرُ الوصولِ إليه، قال: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾(٢).

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

ولمَّا كان كونُ الثِّمارِ بهذه الصِّفةِ دالًّا علىٰ كثرةِ الرِّيِّ، وكثرةُ الرِّيِّ دالَّةً علىٰ المشربِ، وكانت من مفرداتِ اللَّفظِ عامَّةَ المعنىٰ، فكان قد أفرد الضَّمائرَ باعتبارِ لفظِها تنصيصًا علىٰ كلِّ فردٍ فردٍ؛ جمَع باعتبارِ المعنىٰ إعلامًا باشتراكِ جميعِ أهلِها في النِّعَمِ حالَ الانفرادِ والاجتماعِ، فقال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾(٣).

جملةُ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ إلىٰ آخرِها، مَقُولُ قولٍ محذوفٍ، وهو ومَقُولُه في موضعِ صفةٍ لـ﴿جَنَّةٍ﴾؛ إذ التقديرُ: يُقالُ للفريقِ الذين يُؤْتَوْنَ كُتُبَهم بأيمانِهم حينَ يَستقِرُّون في الجنَّةِ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾(٤).

ثم يُقالُ لهم إكرامًا: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٦٣).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٦٤).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٣٦٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٣٤).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٨٨٣).

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥﴾

ولمَّا كانت العادةُ جاريةً بأنَّ أهلَ العرضِ ينقسمون إلىٰ قسمينِ: مقبولٍ ومردودٍ، وذكر ﷻ المقبولَ بادئًا به؛ تشويقًا إلىٰ حالِه، وتغبيطًا بعاقبتِه وحُسْنِ مآلِه؛ أتبعه المردودَ تنفيرًا عن أعمالِه بما ذكر من قبائحِ أحوالِه، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾(١).

هذا قَسيمُ ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، فالقولُ في إيتائِه كتابَه بشمالِه قد عُرف وجهُه ممَّا تقدَّم(٢).

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦﴾

ولمَّا شاهد من سوءِ العاقبةِ، قال: ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾.

﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾

ولمَّا تمنَّىٰ هذينِ الشَّيئينِ، استأنف مُرادَه بهما، فقال لأنَّه رأىٰ أنَّ ما يَستقبِلُه شرٌّ ممَّا كان فيه من البرزخِ: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾(٣).

﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ تَمَنٍّ آخَرُ، ولم يُعطَفْ علىٰ التَّمنِّي الأوَّلِ؛ لأنَّ المقصودَ التَّحسُّرُ والتَّندُّمُ(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٦٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٣٥).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٣٦٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٣٥).

﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴾ [٢٨]

ولمَّا كان التَّمنِّي مُفهِمًا لأنَّه كان له ضِدُّ ما تمنَّاه من البعثِ على ما كانت تُخبِرُه به الرُّسلُ ومن الحسابِ الذي هو سِرُّ البعثِ وخالصُه، وقد كان يقولُ: إنَّه يتخلَّصُ منه، على تقديرِ كونِه، بمالِه وجاهِه؛ قال مُعلِّلًا لتمنِّيه: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ ﴾[1].

ثم أخذ يتحسَّرُ على ما فرَّط من الخيرِ في الدنيا، بالإقبالِ على ما لم يَجِدْه في العالمِ الأَبَديِّ، فقال: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ ﴾، وفي هذا تعريضٌ بسادةِ مُشرِكي العربِ؛ مِثلَ: أبي جهلٍ، وأُميَّةَ بنِ خلفٍ[2].

ثم التفَت إلى مالِه وسلطانِه، فإذا هو وبالٌ عليه، لم يُقدِّمْ منه لآخرتِه، ولم ينفعْه في الافتداءِ من عذابِ اللهِ، فيقولُ: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ ﴾[3].

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾ [٢٩]

ولمَّا كان المالُ سببَ الوصولِ إلى السُّلطانِ، قال نافيًا لِما أوصله إليه مالُه، شارحًا لعدمِ إغنائِه: ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾[4].

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ [٣٠]

ولمَّا كان كأنَّه قيل: هذا ما قال، فما يُقالُ؟ أُجيبَ بأنَّه يُقالُ للزَّبانيةِ تعذيبًا لرُوحِه بالتَّوبيخِ والأمرُ بالتَّعذيبِ على رؤوسِ الأشهادِ: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٣٦).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٨٣).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٦٨).

(٥) نظم الدرر (٢٠/ ٣٦٨).

فحينئذٍ يُؤمَرُ بعذابِه، فيُقالُ للزَّبانيةِ الغِلاظِ الشِّدادِ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾[1].

﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١)﴾

ولمَّا كان الغُلُّ لِما بعدَه من العقابِ، قال مُعظِّمًا رتبةَ عقابِه في الشِّدَّةِ والهَوْلِ بالتعبيرِ بأداةِ التَّراخي: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾[2].

ثم في قولِه: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١)﴾ للتَّراخي الرُّتبي؛ لأنَّ مضمونَ الجملةِ المعطوفةِ بها أشدُّ في العقابِ من أخذِه ووضعِه في الأغلالِ[3].

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾

وعبَّر أيضًا بأداةِ التَّراخي لعلوِّ رتبةِ مدخولِها، فقال مُؤذِنًا بعدمِ الخلاصِ: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾[4].

﴿ثُمَّ﴾ مِن قولِه: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾ للتَّراخي الرُّتبي بالنِّسبةِ لمضمونِ الجملتينِ قبلَها؛ لأنَّ مضمونَ ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ أعظمُ من مضمونِ ﴿فَغُلُّوهُ﴾[5].

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣)﴾

ولمَّا ذكر علىٰ الإجمالِ عقابَه، أتبعه أسبابَه، فقال بادئًا بأعظمِها، مُؤكِّدًا لأنَّ كلَّ كافرٍ حتىٰ المُعطِّلَ يُقِرُّ باللهِ تعالىٰ نوعَ إقرارٍ، ويدَّعِي الإيمانَ به نوعَ ادِّعاءٍ؛ لأنَّه لا

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٨٨٣).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٦٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٣٧).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٦٩).

(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٣٧).

يقدرُ علىٰ غيرِ ذلك؛ لِما له سبحانه من غَلَبةِ الظُّهورِ، وانتشارِ الضِّياءِ والنُّورِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾(١).

جملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ في موضعِ العِلَّةِ للأمرِ بأخذِه، وإصلائِه الجحيمَ(٢).

لمَّا شرح هذا العذابَ الشَّديدَ، ذكر سببَه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾(٣).

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾

ولمَّا بيَّن عنادَه للمَلِكِ الأعظمِ بإفسادِه القُوَّةَ العلميَّةَ بين ما يُوجِبُه الكفرُ من احتقارِه للضُّعفاءِ إفسادًا للقُوَّةِ العمليَّةِ إعلامًا بأنَّه مُكلَّفٌ بفروعِ الشَّريعةِ كما أنَّه مُكلَّفٌ بأصولِها، وبيانًا لأنَّ عنادَه لمن فوقَه لرداءةِ طبعِه لا لعلوِّ هِمَّتِه، فقال مُعظِّمًا لهذا الذَّنبِ؛ لجعلِه في سياقِ الكفرِ، وبالتعبيرِ بالحضِّ مُشِيرًا به إلىٰ أنَّ فاعلَ ذلك شديدُ الاستغراقِ في حُبِّ الدنيا؛ لأنَّه لا يمنعُه من حثِّ غيرِه علىٰ الخيرِ إلَّا ادِّخاره لنفسِه: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾(٤).

عطفُ ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ علىٰ ﴿لَا يُؤْمِنُ﴾ داخلٌ في العِلَّةِ، وذلك يدلُّ علىٰ عِظَمِ ذنبِ مَن لا يحضُّ علىٰ إطعامِ المسكينِ، إذ جُعل قرينَ الكفرِ، وهذا حكمُ تركِ الحضِّ، فكيف يكونُ تركُ الإطعامِ؟(٥).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٣٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٣١).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٧١).

(٥) البحر المحيط (١٠/ ٢٦٢-٢٦٣).

﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥﴾

ولمَّا وصفه ﷻ بأقبحِ العقائدِ وأشنعِ الرَّذائلِ، سبَّب عنهما في مقابلةِ إفسادِ القُوَّتينِ العلميَّةِ والعمليَّةِ قولَه: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ﴾(١).

قولُه: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥﴾ من تمامِ الكلامِ الذي ابتُدئ بقولِه: ﴿خُذُوهُ﴾، وتفريعٌ عليه، والمقصودُ منه أن يسمعَه مَن أُوتِيَ كتابَه بشمالِه، فييأسَ من أن يجدَ مُدافِعًا يدفعُ عنه بشفاعةٍ، وتنديمٌ له علىٰ ما أضاعه في حياتِه من التَّزلُّفِ إلىٰ الأصنامِ وسَدَنَتِها وتمويهِهم عليه أنَّه يجدُهم عندَ الشَّدائدِ وإلمامِ المصائبِ(٢).

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ٣٦﴾

ولمَّا نفىٰ عنه الجاهَ؛ لانسلاخِه من حزبِ المَلِكِ الوَلِيِّ الودودِ، وتَحيُّزِه إلىٰ حزبِ الشَّيطانِ العدوِّ الجحودِ؛ أتبعه المقصودَ بالمالِ الذي تنشأُ عنه جميعُ الاستمتاعاتِ، ويُقصَدُ عندَه الاجتماعُ والأُنْسُ بالأصحابِ؛ لإخلادِه إلىٰ مالِه، وإعراضِه عن عيالِ المَلِكِ لأجلِ ضعفِهم الذي وهَبه المالَ وأمره بمواساتِهم فيه، فقال: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾(٣).

﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ٣٧﴾

ولمَّا حصر طعامَهم فيما لا يقربُه أحدٌ باختيارِه، حصر مَن يتناولُه مُعبِّرًا عنهم بالوصفِ الذي أوجب لهم أكلَه، فقال: ﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٣٩).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٣٧٢).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٧٣).

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨﴾

ولمَّا ذكر ﷻ الحاقَّةَ التي جعلها دارَ الحسابِ للمُحسِنِ والمُسِيءِ اللَّذينِ قسَّمتْهما القدرةُ واقتَضَتْهما الحكمةُ، وصوَّب إليهما القرآنَ الذي هو ذِكرٌ للعالمين بالوعدِ والوعيدِ، والبشارةِ والتَّهديدِ، ومن المعلومِ ببديهةِ العقلِ أنَّه لا يصحُّ أصلًا في حكمةِ أحدٍ أن يتركَ مَن تحتَ يدِه هَمَلًا؛ لا سِيَّما إن كان تقدَّم إليهم بالأمرِ والنَّهيِ، وأقام الدَّليلَ علىٰ قدرتِه عليها بتعذيبِ مَن استأصَلَهم لأجلِ تكذيبِ رسلِه؛ ليكونَ عذابُهم وتنجيةُ المُحسِنين منهم مَثَلًا محسوسًا تشهدُ فيه الحاقَّةُ؛ لأنَّ مَن قدَر علىٰ ذلك، كانت له القدرةُ التَّامَّةُ علىٰ كلِّ مُمكِنٍ، وذكر ما دلَّتِ الحكمةُ عليه من تنعيمِ الطَّائعِ وتعذيبِ العاصي بما هو أنسبُ الأشياءِ لعملِ كلٍّ منهما في هذه الأساليبِ المُعجِزةِ مفرداتٍ وتراكيبَ ومعانيَ، فدلَّ ذلك علىٰ آخر سورةِ «ن»؛ عادَ إلىٰ تقريرِه بوجهٍ آخرَ، وهو أنَّه -لتمامِ علمِه، وكمالِ قدرتِه- لا يُقرِّرُ مَن كذَب عليه علىٰ كذبِه، فضلًا عن أن يُؤيِّدَه، فقال مُسبِّبًا عن ذلك حينَ بلغ الأمرُ في الوضوحِ إلىٰ النِّهايةِ، ذاكرًا ما هو أبلغُ من القَسَمِ؛ لأنَّ بعضَ أهلِ الجدلِ إذا حجَّه خَصْمُه يقولُ: إنَّما غلَبْتَني بأنَّك أتقنُ مِنِّي في الجدلِ بالحقِّ، فإنَّ الحقَّ معي، فيحلفُ له صاحبُه أنَّه ما غالَطه ولا تعمَّد في جدلِه إلَّا الحقَّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾[1].

الفاءُ هنا لتفريعِ إثباتِ أنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ من عندِ اللهِ، ونفيِ ما نسبه المشركون إليه، تفريعًا علىٰ ما اقتضاه تكذيبُهم بالبعثِ من التَّعريضِ بتكذيبِ القرآنِ الذي أخبر بوقوعِه، وتكذيبهم الرسولَ ﷺ القائلَ: إنَّه مُوحًىٰ به إليه من اللهِ تعالىٰ[2].

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٧٣-٣٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٤١).

عنه، وهو -معَ مشاركتِه للسَّجعِ في التَّكلُّفِ النَّاقصِ للمعنىٰ- أعلىٰ منه بالوزنِ الذي يَكسِبُه الرَّونقَ والحلاوةَ، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾(١).

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ولمَّا كان مَن يعرفُ الشِّعرَ يعرفُ النَّثرَ، فهو أعلىٰ، فقدَّمه؛ أتبعه النَّثرَ، فقال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

عُطف ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ علىٰ جملةِ الخبرِ في قولِه: ﴿بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، و«لا» النَّافيةُ تأكيدٌ لنفيِ «ما»، وكُنِّيَ بنفيِ أن يكونَ قولَ شاعرٍ أو قولَ كاهنٍ عن تنزيهِ النبيِّ ﷺ عن أن يكونَ شاعرًا أو كاهنًا؛ ردًّا لقولِهم: هو شاعرٌ، أو هو كاهنٌ، وإنَّما خُصَّ هذانِ بالذِّكرِ دونَ قولِهم: افتراه، أو هو مجنونٌ؛ لأنَّ الوصفَ بـ﴿كَرِيمٍ﴾ كافٍ في نفيِ أن يكونَ مجنونًا أو كاذبًا؛ إذ ليس المجنونُ ولا الكاذبُ بكريمٍ، فأمَّا الشَّاعرُ والكاهنُ فقد كانا معدودينِ عندَهم من أهلِ الشَّرفِ(٣).

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا أثبت أنَّه قولُ الرسولِ الذي لا ينطقُ عن الهوىٰ، ونفىٰ عنه ما قد يلبسُ من الشِّعرِ والكهانةِ، ولم يذكرْ ما كانوا يرمونه به من السِّحرِ والأضغاثِ؛ لأنَّه عنادٌ محضٌ لا يرتابُ أحدٌ فيه، وكانت السُّورةُ مقصودًا فيها إثباتُ الحقائقِ التي قد تخفىٰ؛ وصفه بما يُحقِّقُ ما أُريدَ من نسبتِه إلىٰ الرسولِ ﷺ، فقال: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٧٦).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٧٧).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٤٢).
(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٧٩).

﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ٣٩﴾

جمع اللهُ في هذا القَسَمِ كلَّ ما الشَّأنُ أن يُقسَمَ به من الأمورِ العظيمةِ؛ من صفاتِ اللهِ تعالىٰ، ومن مخلوقاتِه الدَّالَّةِ علىٰ عظيمِ قدرتِه؛ إذ يجمعُ ذلك كلَّه الصِّلَتانِ ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾، فمِمَّا يُبصِرون: الأرضُ، والجبالُ، والبحارُ، والنُّفوسُ البشريَّةُ، والسَّماواتُ، والكواكبُ، وما لا يُبصِرون: الأرواحُ، والملائكةُ، وأمورُ الآخرةِ[1].

ثم عطَف عليه ما لا يُشاهَدُ ليدخلَ فيه كلُّ الخلقِ، بل يدخلَ في ذلك نفسُه المقدَّسةُ، فقال: ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤٠﴾

ولمَّا أكَّد غايةَ التَّأكيدِ بما قال من أنَّ الأمرَ وصل في الوضوحِ إلىٰ حدٍّ لا يحتملُ التَّأكيدَ، فكان ذلك تأكيدًا بعدمِ التَّأكيدِ؛ استأنف الخبرَ عمَّا أخبر أنَّه لا يحتاجُ إلىٰ إقسامٍ بإثباتِ أداةِ التَّأكيدِ لأجلِ إنكارِهم ليكونَ الكلامُ جامعًا بينَ التَّأكيدِ بالنَّفي وبينَ التَّأكيدِ بالإثباتِ، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[2].

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ٤١﴾

ولمَّا أثبت أنَّه قولُه سبحانه وتعالى؛ لأنَّه قولُ رسولِه ﷺ لنا، وهو لا ينطقُ عن الهوىٰ؛ نفىٰ عنه ما يتقوَّلونه عليه، فبدأ بالشِّعرِ وهو ما يقولُه الإنسانُ من تِلْقاءِ نفسِه علىٰ وزنٍ مقصودٍ صدقًا كان أو كذبًا، ولا بدَّ فيه للتَّقيُّدِ بالوزنِ والقافيةِ من التَّكلُّفِ الذي القرآنُ بعيدٌ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٤١).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٧٥).

القرآنُ لمَّا وُصف بأنَّه ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، ونُفي عنه أن يكونَ قولَ شاعرٍ أو قولَ كاهنٍ؛ ترقَّب السَّامعُ معرفةَ كُنْهِه، فبيَّن بأنَّه مُنزَّلٌ من ربِّ العالمين علىٰ الرسولِ الكريمِ ليقولَه للنَّاسِ ويتلوَه عليهم[(١)].

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤)﴾

ولمَّا كان قد بقي من الأقسامِ التي كانوا يتقوَّلونها عليه: الافتراءُ في الرِّسالةِ؛ بمعنىٰ أنَّه عثَر علىٰ بعضِ كتبِ اللهِ تعالىٰ التي نزلت علىٰ مَن قبلَه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فانتحَلها من غيرِ أن يُوحَىٰ إليه، وكان الدَّليلُ علىٰ أنَّ ذلك ليس كذلك أنَّ العادةَ تُحِيلُ أن يطَّلِعَ شخصٌ من النَّاسِ علىٰ شيءٍ لم يطَّلِعْ أحدٌ منهم؛ ولا سِيَّما إن كان ذلك الشَّخصُ قليلَ المخالطةِ للعلماءِ، فكيف إذا كان أُمِّيًّا لا يكتبُ ولا يقرأُ كما كان ﷺ؟ قال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فلو لم يكنْ تنزيلَ ربِّ العالمين عليه، لم يعجزوا عنه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾[(٢)].

هذه الجملةُ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩)﴾، فهي مشمولةٌ لِما أفادته الفاءُ من التَّفريعِ علىٰ ما اقتضاه تكذيبُهم بالبعثِ من تكذيبِهم القرآنَ، ومَن جاء به، وقال: إنَّه وحيٌ من اللهِ تعالىٰ، فمفادُ هذه الجملةِ استدلالٌ ثانٍ علىٰ أنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ من عندِ اللهِ تعالىٰ، وهو استدلالٌ بما هو مُقرَّرٌ في الأذهانِ من أنَّ اللهَ واسعُ القدرةِ، وأنَّه عليمٌ فلا يُقرِّرُ أحدًا علىٰ أن يقولَ عنه كلامًا لم يَقُلْه؛ أي: لو لم يكنِ القرآنُ مُنزَّلًا من عندِنا، ومحمدٌ ادَّعَىٰ أنَّه مُنزَّلٌ مِنَّا؛ لَما أَقرَرْناه علىٰ ذلك، ولَعَجَّلْنا بإهلاكِه، فعدمُ هلاكِه ﷺ دالٌّ علىٰ أنَّه لم يَتقوَّلْه علىٰ الله[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٤٣).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٧٩-٣٨٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٤٤).

﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥﴾

ثم هدَّد مَن تَقوَّلَ عليه بقولِه: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾.

ثم ذكر جوابَ «لو»، فقال: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾.

﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦﴾

ولمَّا صوَّر مبدأَ الإهلاكِ بأفظعِ صورةٍ، أتمَّه مُشِيرًا إلىٰ شِدَّةِ بشاعتِه بحرفِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾[1].

﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧﴾

ولمَّا أتمَّ تصويرَ ما يفعلُه الملوكُ بمن يغضبون عليه؛ من أن يأخذَ السَّيَّافُ أو أعوانُه بيمينِه، ويكبَحَه بالسَّيفِ فيضربَ عُنُقَه؛ سبَّب عنه قولَه إتمامًا لعَظَمتِه بقولِه: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾[2].

وأمَّا موقعُ تفريعِ قولِه: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾؛ فهو شديدُ الاتِّصالِ بما استتبَعَه فرضُ التَّقوُّلِ من تأييسِهم من أن يَتقوَّلَ علىٰ اللهِ كلامًا لا يَسُوؤهم، ففي تلك الحالةِ من أحوالِ التَّقوُّلِ لو أَخَذْنا منه باليمينِ فقطَعْنا منه الوتينَ، لا يستطيعُ أحدٌ منكم أو من غيرِكم أن يَحجُزَ عنه ذلك العقابَ، وبدونِ هذا الاتِّصالِ لا يظهرُ معنىٰ تعجيزِهم عن نصرِه؛ إذ ليسوا من الولاءِ له بمَظِنَّةِ نصرِه[3].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٨١).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٨٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٤٧).

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨﴾

ولمَّا كان هذا كنايةً عن هذا من غيرِ نظرٍ إلىٰ حقائقِ مفرداتِه، ولا معنىٰ شيءٍ منها علىٰ انفرادِه، فكان كأنَّه قيل: تنزيلٌ من ربِّ العالمين غيرُ مُتخيَّلٍ فيه الكذبُ بوجهٍ؛ عطف علىٰ ذلك قولَه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾(١).

فلمَّا أبطل طعنَهم في القرآنِ بأنَّه قولُ شاعرٍ، أو قولُ كاهنٍ؛ أعقب ببيانِ شرفِه ونفعِه، إمعانًا في إبطالِ كلامِهم بإظهارِ الفرقِ البيِّنِ بينَه وبينَ شِعرِ الشُّعراءِ وزمزمةِ الكُهَّانِ، إذ هو تذكرةٌ، وليس ما ألحقوه به من أقوالِ أولئك من التَّذكيرِ في شيءٍ(٢).

لمَّا بيَّن أنَّ القرآنَ تنزيلٌ من اللهِ الحقِّ بواسطةِ جبريلَ عليه السلام علىٰ محمدٍ ﷺ الذي من صفتِه أنَّه ليس بشاعرٍ ولا كاهنٍ؛ بيَّن بعدَ ذلك أنَّ القرآنَ ما هو؟ فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾(٣).

﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩﴾

ولمَّا عُلم من هذا أنَّه سبحانه عالمٌ بقِسْمَي المُسِيءِ والمُحسِنِ ظواهرِهم وبواطنِهم، صرَّح بالقسمِ الآخرِ، فقال مُؤكِّدًا لأجلِ إنكارِ الضَّلالِ: ﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾(٤).

﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾ هاتانِ جملتانِ مرتبطتانِ، وأولاهما تمهيدٌ وتوطئةٌ للثَّانيةِ، وهي مُعترِضةٌ بينَ التي قبلَها والتي بعدَها، والثَّانيةُ

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٨٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٤٨).
(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٣٥).
(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٨٣).

منهما معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فكان تقديمُ الجملةِ الأولىٰ علىٰ الثَّانيةِ اهتمامًا بتنبيهِ المكذِّبين إلىٰ حالِهم، وكانت أيضًا بمنزلةِ التَّتميمِ لجملةِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾[1].

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

ولمَّا كان سببُ التَّكذيبِ سترَ ما تُجلِّيه مرائي العقولِ من الدَّلائل، وكان التقديرُ: فإنَّه بشرىٰ للمؤمنين، ولكنَّه طواه لأنَّ السِّياقَ للتَّهديدِ بالحاقَّةِ؛ عطَف عليه قولَه مُؤكِّدًا لِما لهم من التَّكذيبِ به: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾

ولمَّا كان كلٌّ من الفريقينِ يذوقُ جزاءَه في الآخرةِ، وكان كلُّ أحدٍ سمع القرآنَ ذاقَ أنَّه لا يقدرُ علىٰ الإتيانِ بشيءٍ يُماثِلُه ولا يُدانِيه؛ قال مُؤكِّدًا تنزيلًا لهم في عدادِ الجاهلين: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[3].

عطفٌ علىٰ ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾، فيحتملُ أن يكونَ الضَّميرُ عائدًا علىٰ القرآنِ؛ لأنَّ هذه من صفاتِ القرآنِ، ويحتملُ أن يكونَ مرادًا به المذكورُ، وهو كونُ القرآنِ حسرةً علىٰ الكافرين؛ أي: إنَّ ذلك حقٌّ لا محالةَ؛ أي: هو جالبٌ لحسرتِهم في الدنيا والآخرةِ[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٤٩).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٨٤).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٣٨٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٥٠).

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٥٢﴾

ولمَّا كان البعثُ لهذا المقصدِ من أعظمِ الكمالِ، وكان عدمُه مُوجِبًا للنَّقصِ؛ سبَّب عن كلا الأمرينِ إشارةً وعبارةً قولَه آمرًا بعدَ الإخبارِ في أوَّلِ المُسبِّحاتِ: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾[1].

تفريعٌ على جميعِ ما تقدَّم من وصفِ القرآنِ وتنزيهِه على المطاعنِ وتنزيهِ النبيِّ ﷺ عمَّا افتراه عليه المشركون، وعلى ما أيَّده اللهُ به من ضربِ المثلِ للمكذِّبين به بالأُمَمِ التي كذَّبتِ الرُّسلَ، فأمر النبيَّ ﷺ بأن يُسبِّحَ اللهَ تسبيحَ ثناءٍ وتعظيمٍ؛ شكرًا له على ما أنعم به عليه من نعمةِ الرِّسالةِ، وإنزالِ هذا القرآنِ عليه[2].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٨٤-٣٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٥١).

سورة المعارج

﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢﴾

فكأنَّ قائلًا قال: لِمَنْ هذا العذابُ الواقعُ؟ فقيل: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾[(١)].

ثم ذكر مَن يختصُّ به العذابُ الواقعُ، فقال: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣﴾

فكأنَّ قائلًا قال: مِمَّن هذا العذابُ الواقعُ؟ فقيل: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾.

﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾

ودلَّ على ما دلَّت عليه الكثرةُ مع الدَّلالةِ على عجيبِ القدرةِ في تخفيفِها على الملائكةِ بقولِه: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾[(٢)].

استئنافٌ لبيانِ ارتفاعِ تلك المعارجِ وبُعْدِ مَداها[(٣)].

﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾

ولمَّا كان هذا كلُّه تسليةً للنَّبيِّ ﷺ عن استعجالِهم إيَّاه بالعذابِ استهزاءً وتكذيبًا، سواءٌ أُرِيدَ تصويرُ العَظَمةِ أو العذابِ؛ سبَّب عنه قولَه: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (١٠/ ٢٧١-٢٧٢).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٩١).
(٣) أنوار التنزيل (٥/ ٢٤٤).
(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٩٢).

فالفاءُ لتفريعِ الأمرِ بالصَّبرِ علىٰ جملةِ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ إذا كان ذلك السُّؤالُ بمعنيَيْه استهزاءً وتعريضًا بالتَّكذيبِ، فشأنُه أن لا تصبرَ عليه النُّفوسُ في العُرْفِ[(١)].

لمَّا كانوا قد سألوا استعجالَ العذابِ، وكان السُّؤالُ علىٰ سبيلِ الاستهزاءِ والتَّكذيبِ، وكانوا قد وُعدوا به؛ أمره تعالىٰ بالصَّبرِ[(٢)].

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦﴾

ولمَّا كان كونُه تعالىٰ بما تقدَّم في العَظَمةِ أمرًا معلومًا بما له من الآثارِ من هذا الكونِ وما فيه، وكان استبعادُهم لِما أَخبَرَ به أمرًا واهيًا ضعيفًا سَفْسافًا، لا يكادُ يُصدَّقُ أنَّ أحدًا يحاولُ أن يَرُدَّ به هذه الأمورَ التي هي في وضوحِها كالشَّمسِ لا خفاءَ بها أصلًا ولا لبسَ؛ قال مُؤكِّدًا: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾[(٣)].

تعليلٌ لجملتَيْ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾، ولجملةِ ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾؛ أي: سألوا استهزاءً؛ لأنَّهم يَرَوْنَه مُحالًا وعليك بالصَّبرِ؛ لأنَّا نعلمُ تَحقُّقَه؛ أي: وأنت تثقُ بأنَّه قريبٌ؛ أي: مُحقَّقُ الوقوعِ، وأيضًا هو تجهيلٌ لهم إذِ اغترُّوا بما هم فيه من الأمنِ ومُسالَمةِ العربِ لهم، ومن الحياةِ النَّاعمةِ، فرأَوُا العذابَ الموعودَ بعيدًا، إن كان في الدنيا فلأمنِهم، وإن كان في الآخرةِ فلإنكارِهم البعثَ[(٤)].

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾

ولمَّا كان كلُّ ما هو آتٍ قريبًا، قال: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾.

ثم أكَّد تحقُّقَ وقوعِه بقولِه: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٥٧).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ٢٧٢-٢٧٣).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٣٩٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٥٨).

﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨﴾

ولمَّا ذكر عن هذا اليومِ ما يبعثُ على السُّؤالِ عنه، استأنف بيانَه مُبيِّنًا عظمتَه، فقال: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾(١).

ثم بيَّن وقتَ وقوعِه، فقال: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾.

﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٩﴾

ولمَّا ذكر تأثيرَ العالمِ العُلْويِّ، ذكر العالمَ السُّفليَّ، فقال: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾.

﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ١٠﴾

ولمَّا كان ذلك سببًا في انخلاعِ القلبِ، وانزعاجِ اللُّبِّ، والذُّهولِ عن كلِّ أحدٍ؛ سبَّب عنه قولَه: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾.

﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١﴾

ولمَّا كان عدمُ السُّؤالِ قد يكونُ لعدمِ رؤيةِ بعضِهم بعضًا؛ لكثرةِ الجمعِ، وشِدَّةِ الزِّحامِ، وتفرُّقِ النَّاسِ فيه على حسَبِ مراتبِ أعمالِهم؛ استأنف الجوابَ لمن كأنَّه يقولُ: لعلَّ ذلك يُتركُ لعدمِ رؤيتِهم لهم، فقال دالًّا بالمجهولِ والتَّفعيلِ على عظمةِ ذلك التَّبصيرِ، وخروجِه عن العادةِ، جامعًا لأنَّ المقصودَ من الحميمِ الجنسُ، والجمعُ أدلُّ على عمومِ التَّبصيرِ: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ﴾(٢).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٩٤).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٩٥).

موقعُ ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ الاستئنافُ البيانيُّ لدفعِ احتمالِ أن يقعَ في نفسِ السامعِ أنَّ الأَحِمَّاءَ لا يرىٰ بعضُهم بعضًا يومئذٍ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ في شاغلٍ، فأُجِيبَ بأنَّهم يُكشَفُ لهم عنهم ليروا ما هم فيه من العذابِ، فيزدادوا عذابًا فوقَ العذابِ. ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ في موضعِ الحالِ؛ أي: لا يسألُ حميمٌ حميمًا في حالِ أنَّ كلَّ حميمٍ يُبصِرُ حميمَه يُقالُ له: انظر ماذا يُقاسِي فلانٌ(١).

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢﴾

ولمَّا ذكر ألصقَ النَّاسِ بالفؤادِ، وأعزَّ مَن يلزمُه لنصرِه والذَّبِّ عنه؛ أتبعه ما يليه في الرُّتبةِ والمودَّةِ، وما الافتداءُ به -لا سِيَّما عندَ العربِ- من أقبحِ العارِ، فقال: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾، ولمَّا ذكر الصَّاحبةَ لِما لها من تمامِ الوصلةِ، أتبعها الشَّقيقَ الذي لا يلزمُ من الذَّبِّ عنه ما يلزمُ من الذَّبِّ عن الحريمِ، وربما كان مُباينًا، فقال: ﴿وَأَخِيهِ﴾(٢).

الجملةُ استئنافٌ لبيانِ أنَّ اشتغالَ كلِّ مُجرمٍ بنفسِه بلغ إلىٰ حيث يتمنَّىٰ أن يفتديَ بأقربِ النَّاسِ إليه، وأعلقِهم بقلبِه، فضلًا أن يهتمَّ بحالِه ويسألَ عنها(٣).

﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ١٣﴾

ولمَّا كان مَن بقي من الأقاربِ بعدَ ذلك متقاربين في الرُّتبة، ذكر أقربَهم، فقال: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٦٠).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٩٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٣١).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٩٦).

﴿ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤ ﴾

ولمَّا كانت هذه الآيةُ في الفِدْيةِ، قدَّم الأبعدَ عن ذلك فالأبعدَ من جهةِ النَّفعِ والمعرَّةِ، ولمَّا كانت آيةُ «عَبَسَ» في الفرارِ والنُّفرةِ، قدَّم الألصقَ فالألصقَ، والأعلقَ في الأُنْسِ فالأعلقَ، ولمَّا خصَّ هنا عمَّ، فقال: ﴿ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾(١).

﴿ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ ﴾

ولمَّا كان هذا ممَّا قد يُطمِعُ في النَّجاة، فإنَّ بعضَ النَّاسِ يُطبَعُ علىٰ قلبِه فيستغويه الأطماعُ حتىٰ يَعُدَّ المُحالَ مُمكِنًا؛ قال مُعبِّرًا بمجمعِ الرَّوادعِ والزَّواجرِ الصَّوادعِ: ﴿ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾(٢).

﴿ كَلَّآ ﴾ حرفُ ردعٍ وإبطالٍ لكلامٍ سابقٍ، ولا يخلو من أن يُذكَرَ بعدَه كلامٌ، وهو هنا لإبطالِ ما يُخامِرُ نفسَ المجرمِ من الودادةِ، نُزِّلَ منزلةَ الكلامِ؛ لأنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عليه، أو لإبطالِ ما يتفوَّهُ به مِن تمنِّي ذلك(٣).

﴿ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ١٦ ﴾

ثم بيَّن شِدَّةَ إحراقِها، فقال: ﴿ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ﴾.

﴿ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ ﴾

ولمَّا كان الخلاصُ غيرَ مُمكِنٍ من الدَّاعي القادرِ علىٰ الإحضارِ، كنَّىٰ عن إحضارِها إيَّاهم وجذبِها لهم بقولِه: ﴿ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٩٧).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٩٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٦٢).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٣٩٩).

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ١٨﴾

ولمَّا كانت الدنيا والآخرةُ ضَرَّتينِ، فكان الإقبالُ على إحداهما دالًّا على الإعراضِ عن الأخرى؛ قال دالًّا على إدبارِه بقلبِه: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾[1].

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾

ولمَّا كان من أعجبِ العَجَبِ أن يُقبِلَ على الدنيا أحدٌ يسمعُ هذا التَّهديدَ بالعرضِ بينَ يدَيِ اللهِ، والعقاب لمن لم يُقبِلْ على عبادتِه سبحانه؛ بيَّن أنَّ ذلك لِما جبَله عليه سبحانه، وأنَّ الإنسانَ مقهورٌ مع جِبِلَّتِه إلَّا مَن حفظه اللهُ، وذلك دالٌّ من كلا الطَّرفينِ على عظيمِ قدرتِه سبحانه؛ قال مُؤكِّدًا لاقتضاءِ المقامِ للتَّأكيدِ؛ لأنَّ الإنسانَ لو خُوِّفَ بالعرضِ على بعضِ الأُمَراءِ، ما لابَس ما يُغضِبُه، فكيف بالعزيزِ الحكيمِ القديرِ العليمِ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾[2].

هي تذييلٌ لجملةِ ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ تنبيهًا على خصلةٍ تُخامِرُ نفوسَ البشرِ، فتَحمِلُهم على الحرصِ لنيلِ النَّافعِ، وعلى الاحتفاظِ به خشيةَ نفاذِه؛ لِما فيهم من خُلُقِ الهَلَعِ، وهذا تذييلُ لَوْمٍ، وليس في مساقِه عذرٌ لمن جمع فأوعى، ولا هو تعليلٌ لفعلِه، وموقعُ حرفِ التَّوكيدِ ما تَتضمَّنُه الجملةُ من التَّعجيبِ من هذه الخصلةِ البشريَّةِ، فالتَّأكيدُ لمجرَّدِ الاهتمامِ بالخبرِ، ولَفْتِ الأنظارِ إليه، والتَّعريضِ بالحذرِ منه[3].

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠﴾

ولمَّا كان الهَلَعُ شِدَّةَ الحرصِ وقِلَّةَ الصَّبرِ، نشر معناه، فقال مُقدِّمًا المعمولَ الذي هو الظَّرفُ على العاملِ بيانًا لإسراعِه في ذلك: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٩٩).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٦٦).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٠-٤٠١).

وفُسِّرَ الهَلُوعُ بأنَّه: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾[١].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾

ثم ذكر حالَ الإنسانِ إذا مسَّه الخيرُ، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فهو يُسارِعُ في آثارِ ما جُبل عليه ممَّا يترتَّبُ على الجزعِ ممَّا لا يجوزُ في الشرعِ، وممَّا يترتَّبُ على المنعِ من ذلك أيضًا، فيكونُ من أهلِ النَّارِ، وكان من القدرةِ البالغةِ أن يحفظَ سبحانه مَن أراد من الخِزْيِ مع جِبِلَّتِه، ويحملَه على كسرِ نفسِه مرَّةً بعدَ أخرى؛ حتى يتلاشى ما عندَه من جِبِلَّةِ الشَّرِّ، وتبقى الرُّوحُ على حالِها عندَ الفِطْرةِ الأولى، فلا تزال تَحُثُّه على المبادرةِ إلى طاعتِه ﷻ وحفظِ حدودِه، فكان لا كرامةَ أعظمُ من حفظِ المكلَّفِ لحدودِ الشرعِ مع المُنافاةِ لطَبْعِه، فيكونُ جامعًا للإيمانِ بنِصْفَيْهِ: الصبرِ والشكرِ؛ لِما جمع من هذه الأوصافِ الثمانِ المعادِلةِ لأبوابِ الجنَّةِ الثمانِ، فكانت أسبابًا لها؛ استثنى من هذا النوعِ الهَلُوعَ، ولذلك جمع، فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾[٢].

استثناءٌ مُنقطِعٌ ناشئٌ عن الوعيدِ المبتدأِ به من قولِه: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ الآيةَ، فالمعنى على الاستدراكِ، والتقديرُ: لكنَّ المُصَلِّينَ الموصوفين بكَيْتَ وكَيْتَ أولئك في جنَّاتٍ مُكرَمون[٣].

استثناءٌ للمُتَّصِفين بالنُّعوتِ الجليلةِ الآتيةِ من المطبوعين على القبائحِ الماضيةِ؛ لإنباءِ نعوتِهم عن الاستغراقِ في طاعةِ الحقِّ، والإشفاقِ على الخلقِ، والإيمانِ

(١) تفسير السعدي (ص: ٨٨٧).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠١-٤٠٢).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٧١).

بالجزاءِ، والخوفِ من العقوبةِ، وكسرِ الشَّهوةِ، وإيثارِ الآجلِ على العاجلِ على خلافِ القبائحِ المذكورةِ النَّاشئةِ من الانهماكِ في حُبِّ العاجلِ، وقصرِ النَّظرِ عليه(١).

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ٢٣﴾

ثم وصَفهم بما يُبيِّنُ عراقتَهم في الوصفِ لها، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾(٢).

ولمَّا كان وصفُ ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾ غلب على المسلمين، أتبع وصفَ ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾ في الآيةِ هذه بوصفِ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾؛ أي: مُواظِبون على صلاتِهم، لا يتخلَّفون عن أدائِها ولا يتركونها(٣).

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ٢٤﴾

ولمَّا ذكر زكاةَ الرُّوحِ، أتبعه زكاةَ عديلِها المالِ، فقال مُبيِّنًا للرُّسوخِ في الوصفِ بالعطفِ بالواوِ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾(٤).

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ٢٥﴾

ولمَّا كان في السُّؤالِ من بذلِ الوجهِ وكسرِ النَّفسِ ما يُوجِبُ الرِّقَّةَ مع وقايةِ النَّفسِ مع المذمَّةِ؛ قدَّم قولَه: ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾، ولمَّا كان في النَّاسِ مَن شرُفتْ هِمَّتُه وعَلَتْ رتبتُه على مهاوي الابتذالِ بذُلِّ السُّؤالِ من الإقلالِ بذَبِّ المُقبِلِ على اللهِ للتَّفطُّنِ والتَّوسُّمِ لأولئك، فقال: ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾(٥).

ثم ذكر المُستحِقَّ، فقال: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾.

---

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ٣٢).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٧١).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٣).

(٥) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٣).

﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) ﴾

ولمَّا كان المالُ قد يُصرَفُ لإصلاحِ الدنيا، بيَّن أنَّ النَّافعَ منه إنَّما هو المُصدِّقُ للإيمانِ، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾(١).

والتَّصديقُ بيومِ الدِّينِ هو الإيمانُ بوقوعِ البعثِ والجزاءِ، وهذا الوصفُ مقابلُ وصفِ الكافرين بقولِه: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾(٢).

ثم وصَفهم بالإيمانِ بالبعثِ والجزاءِ، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) ﴾

ولمَّا كان الدِّينُ معناه الجزاءُ من الثَّوابِ والعقابِ، وكان ربما صرَفه صارفٌ إلى الثَّوابِ فقطْ؛ للعلمِ بعمومِ رحمتِه سبحانه، وأنَّ رحمتَه غلبت غضبَه؛ صرَّح بالعقابِ، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾(٣).

ووصفُهم بأنَّهم من عذابِ ربِّهم مُشفِقون مقابلُ قولِه في حقِّ الكافرين: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ ﴾؛ لأنَّ سؤالَهم سؤالُ مُستخِفٍّ بذلك ومُحيلِه.

ثم وصَفهم بالخوفِ من تركِ الواجباتِ، أو الخوفِ من الإقدامِ على المحظوراتِ، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾(٤).

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) ﴾

ولمَّا كان المقامُ للتَّرهيب؛ ولذلك عبَّر عن الرَّجاءِ على فعلِ الطَّاعاتِ بالدِّينِ، فصار العذابُ مذكورًا مرَّتينِ تلويحًا وتصريحًا؛ زاده تأكيدًا بقولِه اعتراضًا مُؤكِّدًا لِما لهم من إنكارِه: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٤-٤٠٥).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٧٢).
(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٥).
(٤) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٤٥).
(٥) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٦).

ثم إنَّه تعالىٰ أكَّد ذلك الخوفَ، فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾[(١)].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا ذكر التَّحلِّيَ بتطهيرِ النَّفسِ بالصَّلاةِ، وتزكيةِ المالِ بالصَّدقةِ؛ ندب إلىٰ التَّخلِّي عن أمرٍ جامعٍ بينَ تدنيسِ المالِ والنَّفسِ، وهو الزِّنا الحاملُ عليه شهوةُ الفرجِ التي هي أعظمُ الشَّهواتِ حملًا للنَّفسِ علىٰ المُهلِكاتِ، فقال بعدَ ذِكْرِ التَّخويفِ بالعذابِ؛ إعلامًا بأنَّه أسرعُ إلىٰ صاحبِ هذه القاذورةِ وقوعًا من الذُّبابِ في أحلىٰ الشَّرابِ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾[(٢)].

ووصفُهم بأنَّهم لفروجِهم حافظون مُقابِلُ قولِه في تهويلِ حالِ المشركين يومَ الجزاءِ بقولِه: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾؛ إذ أخصُّ الأَحِمَّاءِ بالرَّجلِ زوجُه، فقصد التَّعريضَ بالمشركين بأنَّ هذا الهَوْلَ خاصٌّ بهم، بخلافِ المسلمين فإنَّهم هم وأزواجُهم يُحبَرون؛ لأنَّهم اتَّقَوُا اللهَ في العِفَّةِ عن غيرِ الأزواجِ.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾

ولمَّا ذكر هذا الحفظَ علىٰ هذا الوجهِ، ذكر ما أذن فيه في أسلوبِ الاستثناءِ؛ إشعارًا بأنَّه كأنَّه لم يُذكَرْ فيخرج إلَّا بعدَ تقريرِ عمومِ الحفظِ، لا أنَّه مقصودٌ ابتداءً بقصدِ الصِّفةِ، فقال: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[(٣)].

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾

ولمَّا أفهم ذلك تحريمَ غيرِ المستثنَىٰ، ووجوبَ الحفظِ للفروجِ عنه؛ صرَّح به علىٰ وجهٍ يشملُ المقدِّماتِ، فقال مُسبِّبًا عنه: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٤٥).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٦).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٦-٤٠٧).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٧).

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٣٢﴾

ولمَّا ذكر العاديَ، أتبعه الواقفَ عندَ الحدودِ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾(١).

وذكر رَعْيَ الأماناتِ والعهدِ لمناسبةِ وصفِ ما يَوَدُّ الكافرُ يومَ الجزاءِ أن يفتديَه من العذابِ بفصيلتِه التي تُؤْوِيه فيذهبُ منه رَعْيُ العهودِ التي يجبُ الوفاءُ بها للقبيلةِ وحَسْبُكَ من تشويهِ حالِه أنَّه قد نكَثَ العهودَ التي كانت عليه لقومِه من الدِّفاعِ عن حقيقتِهم بنفسِه وكان يفديهم بنفسِه، والمسلمُ لمَّا كان يرعىٰ العهدَ بما يُمْليه عليه دينُه، جازاه اللهُ بأن دفع عنه خِزْيَ ودادةِ فدائِه نفسَه بمَوالِيهِ وأهلِ عهدِه(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ۝٣٣﴾

ولمَّا كان أجلُّ العهودِ والأماناتِ ما كان بإشهادٍ، قال مُبيِّنًا لفضلِ الشَّهادةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾(٣).

قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ ذُكر لمناسبةِ ذِكْرِ رَعْيِ الأماناتِ؛ إذ الشَّهادةُ من جملةِ الأماناتِ؛ لأنَّ حقَّ المشهودِ له وديعةٌ في حفظِ الشَّاهِدِ، فإذا أدَّىٰ شهادتَه، فكأنَّه أدَّىٰ أمانةً لصاحبِ الحقِّ المشهودِ له كانت في حفظِ الشَّاهِدِ؛ ولذلك كان أداءُ الشَّهادةِ -إذا طُولِبَ به الشَّاهدُ- واجبًا عليه(٤).

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾

ولمَّا كانت أضدادُ هذه المذكوراتِ نقائصَ مُهلِكاتٍ، وكانت الأَنفُسُ -لِما لها من النَّقصِ- نزَّاعةً إلىٰ النَّقائصِ، ميَّالةً إلىٰ الدَّسائسِ؛ ذكَّر سبحانه بالدَّواءِ المُبْرِئِ من

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٧٣).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٧٤).

كلِّ داءٍ، فقال مُشِيرًا إلىٰ حفظِ أحوالِ الصَّلاةِ وأوصافِها، بعدَ ذِكْرِ الحفظِ لذواتِها وأعيانِها؛ تنبيهًا علىٰ شِدَّةِ الاهتمامِ بها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[(١)].

﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥)﴾

ولمَّا ذكر حُلاهم، أتبعه ما أعطاهم، فقال مُستأنِفًا ومُستنتِجًا من غيرِ فاءٍ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ رحمتَه هي التي أَوصَلَتْهم إلىٰ ذلك من غيرِ سببٍ منهم في الحقيقةِ: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾[(٢)].

ولمَّا أُجرِيَتْ عليهم هذه الصِّفاتُ الجليلةُ، أخبر عن جزائِهم عليها بأنَّهم مُكرَمون في الجنَّةِ[(٣)].

ثم وعد هؤلاء، وقال: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾[(٤)].

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦)﴾

ولمَّا تحرَّر بهذا الكلامِ الإلهيِّ الذي يَشُكُّ عاقلٌ في أنَّ مخلوقًا لا يقدرُ عليه، وأنَّه لا يقدرُ عليه إلَّا اللهُ الواحدُ الذي لا شريكَ له، العالمُ بكلِّ شيءٍ، القادرُ علىٰ كلِّ شيءٍ، أنَّه لا يتقصَّىٰ عن نقائصِ الإنسانِ حتىٰ يتخلَّصَ من ظلماتِ النُّقصانِ إلىٰ نورِ الإحسانِ إلَّا مَن لازَم هذه الأوصافَ، وزكَّىٰ نفسَه بها ليصيرَ كاملًا، مع العلمِ القطعيِّ عندَ المسلمِ والكافرِ أنَّ الكمالَ سببُ السَّعادةِ، وأنَّ الإنسانَ مطبوعٌ علىٰ ما صدَّر به سبحانه من النَّقائصِ؛ عُلم أنَّ المُتَّصِفين بهذه الأوصافِ هم المُخْتَصُّون بالسَّعادةِ الأُخْرويَّةِ، وكان الكفارُ يأتون النبيَّ ﷺ ويجلسون حولَه بالقربِ منه

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٩).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤١٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٧٥).

(٤) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٤٦).

ليسمعوا كلامَه ويُكذِّبوه ويهزؤوا به، وكان العاقلُ لا ينبغي له أن يأتيَ شيئًا -لا سِيَّما إن كان إتيانُه إليه علىٰ هيئةِ الإسراعِ- إلَّا لتحصيلِ السَّعادةِ؛ سبَّب عن ذلك قولَه مُعبِّرًا عن عَظَمةِ القرآنِ بما حاصلُه أنَّهم حينَ يسمعونه يصيرون لشِدَّةِ ما يُفزِعُهم أمرُه لا يتمالكون فيفعلون أفعالَ مَن لا وعيَ له: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾[1].

فرعُ استفهامٍ إنكاريٍّ وتعجيبيٍّ من تجمُّعِ المشركين إلىٰ النبيِّ ﷺ مُستهزِئين بما يسمعون من وعدِ المؤمنين بالجنَّةِ ووعيدِ المشركين بعذابِ جهنَّمَ[2].

ثم ذكر بعدَه ما يتعلَّقُ بالكفارِ، فقال: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾[3].

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾

ولمَّا كان الذي يتطيَّر فيُراعِي الأيامنَ والأشائمَ -علىٰ ما تقدَّم في «الصَّافَّاتِ»- لا يتركُ ذلك إلَّا في أمرٍ أدهش عقلَه وأطار لُبَّه، فلم يَدَعْه يتأمَّلُ؛ قال مُشيرًا إلىٰ شِدَّةِ اعتنائِهم بهذا الإهطاعِ مع عدمِ التَّحفُّظِ من شيءٍ: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾[4].

﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾﴾

ولمَّا كان هذا الإسراعُ علىٰ هذا الوجهِ لا ينبغي أن يكونَ إلَّا فيما يتحقَّقُ أنَّه مُسعَدٌ، ومعَ تحقُّقِ أنَّه مُسعَدٌ لا ينبغي أن يكونَ إلَّا فيما تَحصُلُ به السَّعادةُ الأبديَّةُ؛ قال مُنبِّهًا علىٰ ذلك، مُنكِرًا أن يكونَ لهم ما كان ينبغي ألَّا يكونَ فعلُهم ذلك إلَّا له، مع أنَّه كان من جملةِ استهزائِهم إذا تَحلَّقوا لسماعِ ما يقرأُ أن يقولوا: إن كان ما يقولُ حقًّا من أمرِ البعثِ والجنَّةِ، لَنكُونَنَّ أسعدَ بها منهم، كما أنَّا أسعدُ منهم في هذه الدَّارِ؛ وذلك

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤١١-٤١٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٧٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٤٦).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٤١٢).

أنَّه كثيرًا ما يأتي الغلطُ من أنَّ الإنسانَ يكونُ في خيرٍ في الدنيا، فيَظُنُّ أنَّ ذلك مانعٌ له من النَّارِ؛ لأنَّه خيرٌ في نفسِ الأمرِ، أو يَظُنُّ أنَّ إمهالَه وهو على الباطلِ رِضًى به، ولا يدري أنَّه لا يَضجَرُ ويقلَقُ ويعجلُ إلَّا مَن يخافُ الفَوْتَ، أو يكونُ شيءٌ بغيرِ إرادتِه: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾[1].

جملةُ ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بدلُ اشتمالٍ عن جملةِ ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ الآيةَ؛ لأنَّ التفافَهم حولَ النبيِّ ﷺ شأنُه أن يكونَ لطلبِ الهدى والنَّجاةِ، فشُبِّهَ حالُهم بحالِ طالِبي النَّجاةِ والهدى، فأُورِدَ استفهامٌ عليه[2].

﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ٣٩﴾

ولمَّا كان معنى الاستفهامِ الإنكاريِّ المفيدِ للنَّفيِ: لا يدخلْ؛ أكَّد ذلك مع إفهامِ الضَّجَرِ والاستصغارِ بالإتيانِ بأُمِّ الزَّواجرِ والرَّوادعِ، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾[3].

ثم ردَّ اللهُ سبحانه عليهم، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾[4].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾

ولمَّا كان في ذِكْرِ هذا الخلقِ مع ما تقدَّم إشارةٌ عظيمةٌ إلى ما كانوا يقولون: إنَّه إنْ كان الأمرُ كما يقولون من الحشرِ والجنَّةِ لَنكُونَنَّ آثَرَ عندَ اللهِ منكم، ولَندخُلَنَّها كما نحن الآنَ آثَرُ منكم عندَه بما لنا من الأموالِ، والبَسْطةِ في الدنيا والوجاهةِ والإقبالِ، وتنبيهٌ على أنَّ الكُلَّ مُتَساوُونَ في أنَّهم من نُطْفةٍ، فما فضَّلهم في هذه الدنيا بهذه النِّعَمِ الظَّاهرةِ

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤١٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٧٧).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤١٤).

(٤) فتح القدير (٥/ ٣٥٢).

إلَّا هو سبحانه، وقد فضَّل المؤمنين بالنِّعَمِ الباطنةِ التي زادَتْهم في التَّمكُّنِ فيها التَّزكيةُ بهذه الأوصافِ العمليَّةِ النَّاشئةِ عن الصِّفةِ العلميَّةِ، وهو قادرٌ علىٰ أن يَضُمَّ إلىٰ النِّعَمِ الباطنةِ النِّعَمَ الظَّاهرةَ؛ ولذلك سبَّب عنه قولَه، وأكَّد بنفيِ القَسَمِ المُشيرِ إلىٰ عدمِ الحاجةِ إليه لكثرةِ الأدلَّةِ المُغْنيةِ عنه؛ لِما لذلك المُقسَمِ عليه من الغرابةِ في ذلك الوقتِ لكثرةِ الكفارِ وقُوَّةِ شوكتِهم: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾[(١)].

انتقالٌ من إثباتِ الجزاءِ إلىٰ الاحتجاجِ علىٰ إمكانِ البعثِ إبطالًا لشبهتِهم الباعثةِ علىٰ إنكارِه[(٢)].

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١)﴾

فلمَّا أقسم، ذكر جوابَ القَسَمِ، فقال: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾.

هذا نتيجةٌ لِما سبق من الاستدلالِ علىٰ أنَّ اللهَ قادرٌ علىٰ الإحياءِ بعدَ الموتِ.

ثم ذكر دليلَ ذلك، فقال: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢)﴾

ولمَّا ثبت أنَّ له سبحانه العَظَمةَ البالغةَ الباهرةَ؛ من شمولِ العلمِ، وتمامِ القدرةِ، فأنتج اعتمادَ أهلِ حِزْبِه عليه، وإعراضَهم عن كلِّ ما سواه؛ سبَّب عن ذلك قولَه تهديدًا للمُخالِفين وتسليةً للمُؤالِفين: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾[(٣)].

تفريعٌ علىٰ ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦)﴾ من إرادتِهم -بفعلِهم ذلك، وقولِهم: إنَّنا ندخلُ الجنَّةَ- الاستهزاءَ بالقرآنِ والنبيِّ ﷺ، وبعدَ إبطالِه إجمالًا

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤١٥-٤١٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٧٨).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤١٨).

وتفصيلًا فرَّع عن ذلك أمرَ اللهِ رسولَه ﷺ بتركِهم للعلمِ بأنَّهم لم يُجْدِ فيهم الهَدْيُ والاستدلالُ، وأنَّهم مُصِرُّون على العنادِ والمُناوأةِ(١).

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

ولمَّا كان ما بعدَ النَّفخةِ الثَّانيةِ أعظمَه وأهولَه، أبدل منه قولَه: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾(٢).

ثم ذكر تعالى ذلك اليومَ الذي تقدَّم ذِكرُه، فقال: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾(٣).

ثم ذكر حالَ الخلقِ حينَ يُلاقُونَ يومَهم الذي يُوعَدون، فقال: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾(٤).

﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

ولمَّا كان إيفاضُهم إلى الأنصابِ على حالِ السُّرورِ، أخبر أنَّ هذا على خلافِ ذلك، وأنَّ ذِكرَ النُّصُبِ وتصويرَ حالةِ الإتيانِ إليه ما كان إلَّا تهكُّمًا بهم، فقال: ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٨١).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤١٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٤٨).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٨٨٨).

(٥) نظم الدرر (٢٠/ ٤٢١).

سورة نوح

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾

ولمَّا أخبر عن رسالتِه ومضمونِها بما أعلم من أنَّ الفسادَ كان غالبًا عليهم، استأنف قولَه بيانًا لامتثالِه: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾[1].

لم تُعطَفْ جملةُ ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ بالفاءِ التَّفريعيَّةِ على جملةِ ﴿ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ ﴾؛ لأنَّها في معنى البيانِ لجملةِ ﴿أَنذِرۡ قَوۡمَكَ ﴾؛ لدلالتِها على أنَّه أنذر قومَه بما أمره اللهُ أن يقولَه لهم، وإنَّما أدمج فيه فعلَ قومِ نوحٍ للدَّلالةِ على أنَّه أمر أن يقولَ فقال؛ تنبيهًا على مبادرةِ نوحٍ لإنذارِ قومِه في حينِ بلوغِ الوحيِ إليه من اللهِ بأن يُنذِرَ قومَه[2].

استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من حكايةِ إرسالِه عليه السلام بالوجهِ المذكورِ، كأنَّه قيل: ما فعل عليه السلام، فقيل: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٨٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٣٦).

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾

ولمَّا كان تركُ ما أنذرهم بسببِه من الكفرِ لا يُغنِيهم إلَّا إن آمنوا، وكان الإيمانُ مُخلِّصًا عن عواقبِ الإنذارِ؛ لأنَّه لا يصحُّ إلَّا مع تركِ جميعِ أنواعِ الكفرِ؛ فسَّر الإنذارَ بقولِه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾(١).

ثم إنَّه أمر القومَ بثلاثةِ أشياءَ: بعبادةِ اللهِ، وتقواه، وطاعةِ نفسِه، فالأمرُ بالعبادةِ يتناولُ جميعَ الواجباتِ والمندوباتِ من أفعالِ القلوبِ وأفعالِ الجوارحِ، والأمرُ بتقواه يتناولُ الزَّجرَ عن جميعِ المحظوراتِ والمكروهاتِ، وقولُه: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ يتناولُ أمرَهم بطاعتِه وجميعِ المأموراتِ والمَنْهِيَّاتِ، وهذا وإنْ كان داخلًا في الأمرِ بعبادةِ اللهِ وتقواه، إلَّا أنَّه خصَّه بالذِّكرِ تأكيدًا في ذلك التَّكليفِ، ومبالغةً في تقريرِه(٢).

﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾

ولمَّا كان الإنسانُ محلَّ النُّقصانِ، فلا ينفكُّ عن ذنبٍ، فلا ينفعُه إلَّا فناءُ الكرمِ؛ أشارَ إلىٰ ذلك مُرغِّبًا، مُستعطِفًا لهم؛ لئلَّا ييأسوا فيَهلِكوا، بقولِه جوابًا للأمرِ: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾(٣).

ثم إنَّه تعالىٰ لمَّا كلَّفهم بهذه الأشياءِ الثَّلاثةِ، وعَدهم عليها بشيئينِ؛ أحدُهما: أن يُزيلَ مَضارَّ الآخرةِ عنهم، والثَّاني: يُزيلَ عنهم مَضارَّ الدنيا بقدرِ الإمكانِ، وذلك بأن يُؤخِّرَ أجلَهم إلىٰ أقصىٰ الإمكانِ(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٢٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٤٩).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٢٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٤٩).

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ ﴾

ولمَّا كان عليه السلام أطولَ الأنبياءِ عمرًا، وكان قد طال نُصْحُه لهم وبلاؤه بهم؛ نبَّه على ذلك بقولِه مُستأنِفًا: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾[1].

جُرِّدَ فعلُ ﴿ قَالَ ﴾ هنا من العاطفِ؛ لأنَّه حكايةُ جوابِ نوحٍ عن قولِ اللهِ له: ﴿أَنْ أَنذِرْ﴾، عُومِلَ معاملةَ الجوابِ الذي يُتَلقَّىٰ به الأمرُ على الفورِ على طريقةِ المحاوراتِ؛ تنبيهًا على مبادرةِ نوحٍ بإبلاغِ الرِّسالةِ إلى قومِه، وتمامِ حرصِه في ذلك كما أفاده قولُه: ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، وحصولِ يأسِه منهم، فجُعل مراجعتُه ربَّه بعد مُهْلةٍ مستفادة من قولِه: ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ بمنزلةِ المراجعةِ في المقامِ الواحدِ بينَ المُتحاوِرَين، ولك أن تجعلَ جملةَ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ مُستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ السَّامعَ يترقَّبُ معرفةَ ماذا أجابَ قومُ نوحٍ دعوتَه، فكان في هذه الجملةِ بيانُ ما يترقَّبُه السَّامعُ، مع زيادةِ مراجعةِ نوحٍ ربَّه تعالى[2].

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ ﴾

ولمَّا تسبَّب عن ذلك ضِدُّ المرادِ، قال: ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴾[3].

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ﴾

ولمَّا كان الفرارُ مجازًا عن ردِّ كلامِه، عطف عليه ما يُبيِّنُه، فقال مُؤكِّدًا لأنَّ إعراضَهم -معَ هذا الدعاءِ الطَّويلِ- ممَّا لا يكادُ يُصدَّقُ: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٢٩-٤٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٩٣).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٣٠).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٤٣١).

اعلَمْ أنَّ نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إنَّما دعاهم إلىٰ العبادةِ والتَّقوىٰ والطَّاعةِ لأجلِ أن يُغفَرَ لهم، فإنَّ المقصودَ الأوَّلَ هو حصولُ المغفرةِ، وأمَّا الطَّاعةُ فهي إنَّما طُلِبَتْ ليُتوسَّلَ بها إلىٰ تحصيلِ المغفرةِ؛ ولذلك لمَّا أمرهم بالعبادةِ، قال: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾، فلمَّا كان المطلوبُ الأوَّلُ من الدَّعوةِ حصولَ المغفرةِ، لا جَرَمَ قال: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾[1].

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ﴾

ولمَّا ذكر دعاءَه في جميعِ الأوقاتِ مع إعراضِهم، وكان هذا مُؤْيِسًا ومُوجِبًا للإقلاعِ عن الدعاءِ، وإنْ وُجد الدعاءُ بعدَه في غايةِ البُعْدِ منه علىٰ إيجادِه مع الاستغراقِ به لجميعِ الحالاتِ كما استغرق جميعَ الأوقاتِ، فعبَّر بأداةِ التَّراخي للدَّلالةِ علىٰ تباعدِ الأحوالِ، فقال: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾[2].

ارتقىٰ في شكواه واعتذارِه بأنَّ دعوتَه كانت مُختلِفةَ الحالاتِ في القولِ مِن جهرٍ وإسرارٍ، فعطف الكلامَ بـ﴿ ثُمَّ ﴾ التي تفيدُ في عطفِها الجملَ أنَّ مضمونَ الجملةِ المعطوفةِ أهمُّ من مضمونِ المعطوفِ عليها؛ لأنَّ اختلافَ كيفيَّةِ الدَّعوةِ ألصقُ بالدَّعوةِ من أوقاتِ إلقائِها؛ لأنَّ الحالةَ أشدُّ ملابسةً بصاحبِها من ملابسةِ زمانِه، فذكر أنَّه دعاهم جهارًا؛ أي: علنًا[3].

﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ ﴾

ولمَّا كان الجهرُ قد لا يشيعُ ولا يُنشَرُ في جماعاتِهم، قال مُشِيرًا إلىٰ أنَّه أذاعَ ذلك، وأكَّد للإشارةِ إلىٰ ما فيه من الشِّدَّةِ، فقال: ﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٥١).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٣٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٩٧).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٤٣٥).

وارتقىٰ فذكَر أنَّه جمع بينَ الجهرِ والإسرارِ؛ لأنَّ الجمعَ بينَ الحالتينِ أقوىٰ في الدَّعوةِ، وأغلظُ من إفرادِ إحداهما، فقولُه: ﴿أَعۡلَنتُ لَهُمۡ﴾ تأكيدٌ لقولِه: ﴿دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا﴾[(١)].

﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠﴾

ولمَّا أخبر بأنَّه بالَغ في الدعوةِ إلىٰ حدٍّ لا مزيدَ عليه، فلم يَدَعْ من الأوقاتِ ولا من الأحوالِ شيئًا؛ سبَّب عنه بيانَ ما قال في دعوتِه، وهو التسبُّبُ في السعادةِ كلِّها بدفعِ المَضارِّ وجلبِ المَسارِّ، فقال مُقدِّمًا لطلبِ الغفرانِ بالتوبةِ عن الكفرِ؛ ليطهروا فيكونوا قابلين للتحليةِ بالمحاسنِ الدينيَّةِ بعد التخليةِ عن الأخلاقِ الدنِيَّةِ: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾[(٢)].

وفصل دعوتَه بفاءِ التَّفريعِ، فقال: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، فهذا القولُ هو الذي قاله لهم ليلًا ونهارًا، وجِهارًا وإسرارًا[(٣)].

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١﴾

ولمَّا قرَّر أمرَ التَّوبةِ، وبيَّن قبولَها، وقدَّمه اهتمامًا به؛ لأنَّه أصلُ ما يُبتنَىٰ عليه، ولأنَّ التَّخلِّيَ قبلَ التَّحلِّي، ودَرْءَ المفاسدِ قبلَ جلبِ المصالحِ والفوائدِ؛ رغَّب فيها بما يكونُ عنها من الزِّيادةِ في الإحسانِ علىٰ أصلِ القبولِ، وينشأُ عن الاستغفارِ من الآثارِ الكبارِ من الأفضالِ بجلبِ المَسارِّ بما هو مثالٌ للجنَّةِ التي كان سببُ الإخراجِ منها النِّسيانَ؛ لأنَّهم أحبُّ شيءٍ في الأرباحِ الحاضرةِ والفوائدِ العاجلةِ؛ لا سِيَّما بما يُبهِجُ النُّفوسَ، ويشرحُ الصُّدورَ لإذهابِه البُؤسَ، فقال مُجيبًا لفعلِ الأمرِ: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٩٧).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٣٧).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٩٧).
(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٤٣٨).

ولمَّا كانت المغفرةُ وعدًا بخيرِ الآخرةِ، رتَّب عليها وعدًا بخيرِ الدنيا بطريقِ جوابِ الأمرِ، فقال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾.

ورغَّبهم أيضًا بخيرِ الدنيا العاجلِ، فقال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[(١)].

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ⑫﴾

ثم عطَف عليه ما كانوا يُحِبُّونه من زينةِ الحياةِ الدنيا وطِيبِ العيشِ، فقال: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾.

لمَّا كذَّبوه بعدَ طولِ تكرارِ الدعاءِ، قحَطوا وأُعقِمَ نساؤهم، فبدأَهم في وعدِه بالمطرِ، ثم ثنَّى بالأموالِ والبنينَ، فقال: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾[(٢)].

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ⑬﴾

ولمَّا كان مَن رجا مَلِكًا عَمِلَ بما يُرضِيه، ومَن خافه تجنَّب ما يُسخِطُه؛ نبَّههم على ذلك بالإشارةِ إلى الجلالِ المُوجِبِ للتَّوقيرِ، والجمالِ بالإحسانِ إلى الخلقِ، مُصرِّحًا لهم بالتَّرغيبِ، مُلوِّحًا إلى التَّرهيبِ، فقال مُستأنِفًا في جوابِ مَن يقولُ منهم: هل بقي شيءٌ من قولِك؟ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[(٣)].

بدَّل خطابَه مع قومِه من طريقةِ النُّصحِ والأمرِ إلى طريقةِ التَّوبيخِ بقولِه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، وهو استفهامٌ صورتُه صورةُ السُّؤالِ عن أمرٍ ثبت لهم في حالِ انتفاءِ رجائِهم توقيرَ اللهِ، والمقصودُ أنَّه لا شيءَ يَثبُتُ لهم صارفٌ عن توقيرِ اللهِ، فلا عذرَ لكم في عدمِ توقيرِه[(٤)].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٨٨٩).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ٢٨٢).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٣٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٩٩).

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾

ولمَّا كان هذا إشارةً إلىٰ الاستدلالِ علىٰ البعثِ بما يعلمونه من أنفسِهم، صرَّح بعدَما لوَّح، فقال آتيًا بحرفِ التَّوقُّعِ لأنَّه مقامُه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[1].

واعلَمْ أنَّه لمَّا أمر في هذه الآيةِ بتعظيمِ اللهِ، استدلَّ علىٰ التَّوحيدِ بوجوهٍ من الدَّلائلِ؛ الأوَّلُ: قولُه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[2].

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾

ولمَّا كان هذا واضحًا ولكنَّهم قومٌ لُدٌّ، لا يَرُدُّهم إلَّا الشَّمسُ المُنِيرةُ في وقتِ الظَّهيرةِ؛ ذكَّرهم -بعدَ التَّذكيرِ بما في أنفسِهم- بما هو أكبرُ من ذلك من آياتِ الآفاقِ، وقسَّمها إلىٰ عُلْويٍّ وسُفْليٍّ، وبدأ بالأنفُسِ لأنَّها مع شرفِها أقربُ منظورٍ إليه لهم، وثنَّىٰ بالعُلْويِّ لأنَّه يليها في الشَّرفِ ووضوحِ الآياتِ، فقال دالًّا علىٰ القدرةِ علىٰ البعثِ والجزاءِ بالثَّوابِ والعقابِ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾[3].

إنْ كان هذا من حكايةِ كلامِ نوحٍ عليه السلام لقومِه، كما جرىٰ عليه كلامُ المفسِّرين؛ كان تخلُّصًا من التَّوبيخِ والتَّعريضِ إلىٰ الاستدلالِ عليهم بآثارِ وجودِ اللهِ ووحدانيَّته وقدرتِه، ممَّا في أنفسِهم من الدَّلائلِ، إلىٰ ما في العالمِ منها؛ لِما علمتَ من إيذانِ قولِه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ من تذكيرٍ بالنِّعمةِ وإقامةٍ للحُجَّةِ، فتخلَّص منه لذِكرِ حُجَّةٍ أخرىٰ، فكان قد نبَّههم علىٰ النَّظرِ في أنفسِهم أوَّلًا؛ لأنَّها أقربُ ما يُحِسُّونه ويشعرون به، ثم علىٰ النَّظرِ في العالمِ وما سُوِّيَ فيه من العجائبِ الشَّاهدةِ علىٰ الخالقِ العليمِ القديرِ، وإنْ كان من خطابِ اللهِ تعالىٰ للأُمَّةِ، وهو ما يسمحُ به سياقُ

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٤٠-٤٤١).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٥٣).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٤١-٤٤٢).

السورةِ من الاعتبارِ بأحوالِ الأُمَمِ الماضيةِ المُساويةِ لأحوالِ المشركين؛ كان هذا الكلامُ اعتراضًا للمناسبةِ(١).

الدَّليلُ الثَّاني على التَّوحيدِ قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾(٢).

لمَّا نبَّههم نوحٌ عليه السلام على الفِكْرِ في أنفسِهم، وكيف انتقلوا من حالٍ إلى حالٍ، وكانت الأنفُسُ أقربَ ما يُفكِّرون فيه منهم؛ أرشدهم إلى الفِكْرِ في العالمِ عُلْوِه وسُفْلِه، وما أودع تعالى فيه(٣).

ولمَّا ذكر من آياتِ الأَنفُسِ ما ذكر، أتبعه بشيءٍ من آياتِ الآفاقِ، ولبُعْدِ أحدِ الأمرينِ عن الآخرَ رتبةً، لم يأتِ بالعطفِ، بل قطَع، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾(٤).

واستدلَّ أيضًا عليهم بخلقِ السَّماواتِ التي هي أكبرُ من خلقِ النَّاسِ، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾(٥).

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦)﴾

ولمَّا كان المحيطُ لا يُتوصَّلُ إلى داخلِه إلَّا مُحِيطُ العلمِ والقدرةِ، قال دالًّا على كمالِ قدرتِه وتصرُّفِه، مُعبِّرًا بالجعلِ الذي يكونُ عن تصييرٍ وتسبيبٍ: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٠٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٥٣).

(٣) البحر المحيط (١٠/ ٢٨٣).

(٤) روح المعاني (١٥/ ٨٣).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٨٨٩).

(٦) نظم الدرر (٢٠/ ٤٤٢).

ثم ذكر ما أودع في السَّماءِ من الأنوارِ، فقال: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾

ولمَّا دلَّ على كمالِ علمِه وتمامِ قدرتِه بخلقِ الإنسانِ، ثم بخلقِ ما هو أكبرُ منه؛ أعادَ الدَّلالةَ بخلقِ الإنسانِ لأنَّه أعظمُ المُحدَثاتِ وأدلُّها على اللهِ ﷻ على وجهٍ آخرَ مُبيِّنٍ لبعضِ ما أشارَ إليه الأوَّلُ من التَّفصيلِ، مُصرِّحًا بالبعثِ، فقال مُستعيرًا الإنباتَ للإنشاءِ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[(١)].

أنشأ الاستدلالُ بخلقِ السَّماواتِ حضورَ الأرضِ في الخيالِ، فأعقب نوحٌ به دليلَه السَّابقَ استدلالًا بأعجبِ ما يَرَوْنَه من أحوالِ ما على الأرض، وهو حالُ الموتِ والإقبارِ، ومهَّد لذلك ما يتقدَّمُه من إنشاءِ النَّاسِ، وأدمج في ذلك تعليمَهم بأنَّ الإنسانَ مخلوقٌ من عناصرِ الأرضِ مثل النَّباتِ[(٢)].

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾

ولمَّا كان في الموتِ أيضًا دليلٌ على تمامِ العلمِ والقدرةِ، غيرَ أنَّه ليس كدلالةِ الابتداءِ بالابتداعِ، وكان مُسلَّمًا ليس فيه نزاعٌ؛ ذكره من غيرِ تأكيدٍ بالمصدرِ، فقال دالًّا على البعثِ والنُّشورِ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[(٣)].

وقد أدمج الإنذارَ بالبعثِ في خلالِ الاستدلالِ، ولكونِه أهمَّ رتبةً من الاستدلالِ عليهم بأصلِ الإنشاءِ عُطفت الجملةُ بـ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالَّةِ على التَّراخي الرُّتبيِّ في قولِه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ﴾؛ لأنَّ المقصودَ من الجملةِ هو فعلُ «يُخرِجُكم»،

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٤٣-٤٤٤).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٠٤).
(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٤٤).

وأمَّا قولُه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ﴾ فهو تمهيدٌ له، وأكَّد «يُخرِجُكم» بالمفعولِ المطلقِ لردِّ إنكارِهم البعثَ[١].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ١٩﴾

ولمَّا كان النَّابتُ من الشَّيءِ لا يتصرَّفُ في ذلك الشَّيءِ، دلَّ على كمالِ قدرتِه بخرقِ تلك العادةِ لهم على وجهِ الإنعامِ عليهم، فقال مُظهِرًا للاسمِ الشَّريفِ مرَّةً بعدَ أخرى تعظيمًا للأدلَّةِ؛ لئلَّا تُقيَّدَ القدرةُ بما يقترنُ به الاسمُ، دالًّا بالعالمِ السُّفليِّ بعدَ الإرشادِ بالعُلْويِّ وآخرَ السُّفليِّ؛ لأنَّ آياتِه على ظهورِها خَفِيَتْ بكثرةِ الإلفِ لها: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾[٢].

هذا استدلالٌ وامتنانٌ؛ ولذلك عُلِّقَ بفعلِ ﴿جَعَلَ﴾ مجرورٌ بلامِ التَّعليلِ، وهو ﴿لَكُمُ﴾؛ أي: لأجلِكم[٣].

﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ٢٠﴾

ثم علَّل ذلك، فقال: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[٤].

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ٢١﴾

ولمَّا كانوا جادَلوه عليه السلام بعدَ هذا البيانِ الذي لا يَشُكُّ في دلالتِه على المرادِ مَن تحقَّق لصفاءِ الإيقانِ، فأكثروا الجدالَ، ونسَبوه إلى الضَّلالِ، وعصَوْه أقبحَ العصيانِ،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٠٥).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٤٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٠٥).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٤٤٥).

وقابلوه بأشنع الأقوالِ والأفعالِ؛ طوىٰ ذلك مُشِيرًا إليه بقولِه مُستأنِفًا: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾[(١)].

هذه الجملةُ بدلٌ من جملةِ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ بدلَ اشتمالٍ؛ لأنَّ حكايةَ عصيانِ قومِه إيَّاه ممَّا اشتملت عليه حكايةُ أنَّه دعاهم، فيحتملُ أن تكونَ المقالتانِ في وقتٍ واحدٍ جاء فيه نوحٌ إلىٰ مُناجاةِ ربِّه بالجوابِ عن أمرِه له بقولِه: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فتكونُ إعادةُ فعلِ ﴿قَالَ﴾ من قَبِيلِ ذِكْرِ عاملِ المُبدَلِ منه في البدلِ، للرَّبطِ بينَ كلامَيْه لطولِ الفصلِ بينَهما، ويحتملُ أن تكونَ المقالتانِ في وقتينِ جمَعها القرآنُ حكايةً لجوابَيْه لربِّه، فتكونَ إعادةُ فعلِ ﴿قَالَ﴾ لِما ذكَرْنا، مع الإشارةِ إلىٰ تباعدِ ما بينَ القولينِ، ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ مُستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ما سبقها من قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ إلىٰ هنا ممَّا يُثِيرُ عجبًا من حالِ قومِه المَحْكيِّ بحيثُ يتساءلُ السَّامعُ عن آخِرِ أمرِهم، فابتُدِئ ذِكرُ ذلك بهذه الجملةِ وما بعدَها إلىٰ قولِه: ﴿أَنصَارًا﴾، وتأخيرُ هذا بعدُ عن قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ارتقاء في التَّذمُّرِ منهم؛ لأنَّ هذا حكايةُ حصولِ عصيانِهم بعدَ تقديمِ الموعظةِ إليهم بقولِه: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ إلىٰ قولِه: ﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾[(٢)].

لمَّا دعاهم إلىٰ اللهِ، ونبَّهَهم علىٰ هذه الدَّلائلِ الظَّاهرةِ؛ حكىٰ عنهم أنواعَ قبائحِهم وأقوالِهم وأفعالِهم، فالأوَّلُ قولُه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾؛ وذلك لأنَّه قال في أوَّلِ السورةِ: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾، فكأنَّه قال: قلتُ لهم: أَطِيعُونِ، فهم عَصَوْني[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٠٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٥٥).

﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ ﴾

ولمَّا كانت كثرةُ الرُّؤساءِ قُوَّةً أخرىٰ إلىٰ قُوَّتِهم بمتاعِ الدنيا، وكان التقديرُ: فأمرتُهم بالإيمانِ فأَبَوْا، وأمروهم بالكفرِ فانقادوا لهم؛ عطف عليه مُبيِّنًا لكثرتِهم بضميرِ الجمعِ العائدِ علىٰ ﴿مَن﴾ عاطفًا علىٰ ﴿لَّمۡ يَزِدۡهُ﴾ المفردةِ الضَّميرِ لِلَّفظِ جامعًا له للمعنىٰ لتجمعَ العبارةُ الحكمَ علىٰ المفردِ والجمعِ، فيكونَ أدلَّ شيءٍ علىٰ المرادِ منها، فقال: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾(١).

﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣ ﴾

ثم بيَّن مكرَهم المُتمثِّلَ في دعوتِهم إلىٰ التَّعصُّبِ علىٰ ما هم عليه من الشِّركِ، وأن لا يَدَعُوا ما عليه آباؤهم الأقدمون، ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾.

﴿ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ٢٤ ﴾

ولمَّا ذكر مكرَهم، وما أظهروا من قولِهم؛ عطف عليه ما توقَّع السَّامعُ من أمرِه، فقال: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾(٢).

﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ عطفٌ علىٰ ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾؛ أي: أَضَلُّوا بقولِهم هذا وبغيرِه من تقاليدِ الشِّركِ كثيرًا من الأُمَّةِ، بحيث ما آمَن مع نوحٍ إلَّا قليلٌ(٣).

ثم ذكر ما تسبَّب عن قولِهم، فقال: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾.

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٤٨).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٥١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢١٠).

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥﴾

ولمَّا فرغ من أمرِهم في ضلالِهم، ودعا رسولَهم ﷺ، فلم يَبْقَ إلَّا إهلاكُهم، وكان من مفهوماتِ الضَّلالِ المَحْقُ وإذهابُ العينِ كما يَضِلُّ الماءُ في اللَّبنِ؛ قال مُبيِّنًا إجابتَه لدعائِه، ذاكرًا الجهةَ التي أُهلِكوا بسببِها، وأكَّد بـ«ما» النَّافيةِ في الصُّورةِ لضِدِّ مضمونِ الكلامِ لاعتقادِ الكفارِ أنَّ الإنجاءَ والإهلاكَ عادةُ الدَّهرِ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾[(١)].

جملةٌ مُعترِضةٌ بينَ مقالاتِ نوحٍ عليه السلام، وليست من حكايةِ قولِ نوحٍ عليه السلام، فهي إخبارٌ من اللهِ تعالىٰ لرسولِه محمدٍ ﷺ بأنَّه قدَّر النَّصرَ لنوحٍ والعقابَ لمن عَصَوْه من قومِه قبلَ أن يسألَه نوحٌ استئصالَهم، فإغراقُ قومِ نوحٍ معلومٌ للنَّبيِّ ﷺ، وإنَّما قُصد إعلامُه بسببِه، والغرضُ من الاعتراضِ بها التَّعجيلُ بتسليةِ رسولِ اللهِ ﷺ علىٰ ما يُلاقيه من قومِه ممَّا يُماثِلُ ما لاقاه نوحٌ عليه السلام من قومِه[(٢)].

﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾

ولمَّا أتمَّ الخبرَ عن إغراقِهم، وقدَّمه للاهتمامِ بتعظيمِ الرسولِ ﷺ في إجابةِ دعوتِه؛ تحذيرًا للعربِ أن يُخرِجوا رسولَهم ﷺ فيُخرِجوه إلىٰ مِثْلِ ذلك؛ عطَف علىٰ قولِ نوحٍ عليه السلام من أوَّلِه قولَه عندَما أخبره تعالىٰ أنَّهم مُغرَقون، وأنَّه لا يُؤمِنُ منهم إلَّا مَن قد آمن بعدَما طال بلاؤه بهم، حتىٰ إنْ كان الرَّجلُ ليأتي بابنِه إليه فيقولُ له: احذَرْ هذا أن يُضِلَّك، وإنَّ أبي حذَّر به، وكانت صيغةُ العمومِ ليست بنَصٍّ في أفرادِها أبدًا؛ استنجازًا لوعدِه وتصريحًا بمرادِه: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٥٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢١٢).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٥٦).

عطفٌ على ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾، أعقبه بالدعاءِ عليهم بالإهلاكِ والاستئصالِ بأن لا يُبقِيَ منهم أحدًا[(١)].

لمَّا أَيِسَ نوحٌ عليه السلام من إيمانِهم وإقلاعِهم عن الكفرِ، دعا عليهم بالهلاكِ[(٢)].

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾

ولمَّا كان الرُّسلُ عليهم الصلاة والسلام لا يقولون ولا يفعلون إلَّا ما فيه مصلحةُ الدِّينِ، علَّل دعاءَه بقولِه، وأكَّده إظهارًا لجزمِه باعتقادِ ما أنزل عليه من مضمونِ قولِه تعالىٰ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، وإن كان ذلك خارجًا عن العادةِ: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[(٣)].

جملةُ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ تعليلٌ لسؤالِه أن لا يتركَ اللهُ علىٰ الأرضِ أحدًا من الكافرين، يريد أنَّه خَشِيَ أن يُضِلُّوا بعضَ المؤمنين، وأن يلدوا أبناءً ينشؤون علىٰ كفرِهم[(٤)].

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾

ولمَّا دلَّ هذا كلُّه علىٰ أنَّه دعا علىٰ أعداءِ اللهِ، دعا أيضًا لأوليائِه، وبدأ بنفسِه لأنَّه رأسُ تلك الأُمَّةِ، فقال مُسقِطًا علىٰ عادةِ أهلِ الخصوصِ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢١٣).

(٢) فتح القدير (٥/ ٣٦١).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٥٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢١٤).

(٥) نظم الدرر (٢٠/ ٤٥٨).

جعل الدعاءَ لنفسِه ووالديه خاتمةَ مناجاتِه، فابتدأ بنفسِه، ثم بأقربِ النَّاسِ به وهما والداه، ثم عمَّم أهلَه وذويه المؤمنين، فدخل أولادُه وبنوهم والمؤمناتُ من أزواجِهم، وعبَّر عنهم بـ«مَن دخل بيتَه»؛ كنايةً عن سُكْناهم معَه، فالمرادُ بقولِه: ﴿دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ دخولٌ مخصوصٌ، وهو الدُّخولُ المتكرِّرُ الملازمُ، ومنه سُمِّيتْ بطانةُ المرءِ دَخِيلَتَه ودُخْلَتَه، ثم عمَّم المؤمنين والمؤمناتِ، ثم عاد بالدعاءِ علىٰ الكَفَرةِ بأن يحرمَهم اللهُ النَّجاحَ، وهو علىٰ حدِّ قولِه المتقدِّمِ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ۝٢٤﴾[1].

لمَّا دعا علىٰ الكفارِ، قال بعدَه: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾؛ أي: فيما صدَر عنِّي من تركِ الأفضلِ، ويحتملُ أنَّه حينَ دعا علىٰ الكفارِ إنَّما دعا عليهم بسببِ تأذِّيه منهم، فكان ذلك الدعاءُ عليهم كالانتقامِ، فاستغفر عن ذلك؛ لِما فيه من طلبِ حظِّ النَّفسِ[2].

لمَّا دعا علىٰ الكفارِ، استغفر للمؤمنين، فبدأ بنفسِه، ثم بمَن وجَب بِرُّه عليه، ثم للمؤمنين، فكان هو ووالداه اندرَجوا في المؤمنين والمؤمناتِ[3].

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢١٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٥٩-٦٦٠).

(٣) البحر المحيط (١٠/ ٢٨٨).

سُورَةُ الجِنِّ

﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾

ولمَّا بيَّنوا فضلَه من جهةِ الإعجازِ وغيرِه، بيَّنوا المقصودَ بالذَّاتِ الدَّالَّ علىٰ غَوْصِهم علىٰ المعاني بعدَ علمِهم بحُسْنِ المباني، فقالوا: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾(1).

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣﴾

ولمَّا أظهروا القُوَّتينِ: العلميَّةَ بفهمِهم القرآنَ، والعمليَّةَ بما حصل لهم من الإذعانِ؛ أعملوا ما لهم في الدعاءِ إلىٰ اللهِ تعالىٰ من قُوَّةِ البيانِ، فبعدَ أن نزَّهوه سبحانه عن الشِّركِ عمومًا، خصُّوا مُؤكِّدين في قراءةِ ابنِ كثيرٍ والبصريَّينِ وأبي جعفرٍ بالكسرِ لِما تقدَّم من أنَّ مِثلَ هذه السُّهولةِ لا تكادُ تُصدَّقُ، فقالوا عطفًا علىٰ ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا﴾: ﴿وإنَّهُ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾(2).

لمَّا نَفَوْا عن أنفسِهم الشِّركَ، نزَّهوا ربَّهم عن الصَّاحبة والولد، فقالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾(3).

---

(1) نظم الدرر (٢٠/ ٤٦٦).

(2) نظم الدرر (٢٠/ ٤٦٧).

(3) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٦٦).

ولمَّا سمعوا القرآنَ، ووُفِّقوا للتوحيدِ والإيمانِ، تنبَّهوا علىٰ الخطأِ فيما اعتقده كَفرةُ الجِنِّ؛ من تشبيهِ اللهِ بخلقِه، واتِّخاذِه صاحبةً وولدًا، فاستعظموه، ونزَّهوه عنه، فقالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾[1].

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ٤﴾

ولمَّا تبيَّن لهم ما هو عليه سبحانه من النَّزاهةِ عن كلِّ شائبةِ نقصٍ، وصَفوا مَن قال بضِدِّه صيانةً لدينِهم وعِرْضِهم بالتَّرفُّعِ عن الخسائسِ والرَّذائلِ بعدمِ التَّمادي في الباطلِ مَقْتًا للخلقِ في ذاتِ الخالقِ مُؤكِّدين لِما للسَّامعِ في الغالبِ من تصديقِ ما يسمعُ والمُحاجَّةِ عنه، فقالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾[2].

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ٥﴾

ولمَّا ذكروا ما هُدُوا إليه من الحقِّ في اللهِ وفيمَن كان يحملُهم علىٰ الباطل، ذكروا عذرَهم في اتِّباعِهم للسَّفيهِ وفي وقوعِهم في مواقعِ التُّهَم، فقالوا مُؤكِّدين لأنَّ ما كانوا عليه من الكفرِ جديرٌ بأن يُظَنَّ أنَّه لا يخفىٰ علىٰ أحدٍ لشِدَّةِ وضوحِ بطلانِه: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[3].

ثم اعتذروا عن تقليدِهم لسفيهِهم، فقالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ٦﴾

ولمَّا عُلم من قولِهم أنَّ مُستنَدَ الضَّلالِ ظنونٌ وشُبَهٌ متىٰ حُكَّتْ علىٰ محكِّ النَّظرِ بانَ فسادُها، وأظهر زَيْفَها نُقَّادُها؛ أتبعه شبهةً أخرىٰ زادت الفريقينِ ضلالًا بعضَهم

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٣٣٠).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٦٩).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٧٠).

بعضٍ؛ للتَّقيُّدِ بالمحسوسات، والوقوفِ مع الخيالاتِ الموهوماتِ، فقال حاكيًا عنهم تنبيهًا علىٰ عدمِ الاغترارِ بالمدحِ والإطراءِ المُوجِبَينِ للغلطِ في النَّفسِ، وعلىٰ أنَّه يجبُ التَّثبُّتُ حتىٰ لا يقعَ الغلطُ في الأسبابِ المسخَّرةِ فيُظَنَّ أنَّها مُؤثِّرةٌ فيُتَجاوَزَ بها الحدُّ عن رتبةِ المُمكِناتِ إلىٰ رتبةِ الواجبِ، مُؤكِّدين لأنَّه لا يكادُ يُصدَّقُ أنَّ الجنَّ يُخاطِبُهم الإنسُ فيُكارِمونهم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[1].

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فضَلَّ كلٌّ من الفريقينِ بالآخر ضلالًا بعيدًا، حتىٰ أبعدوا عن الشرائعِ النَّبويَّة، واعتقدوا ما لا يجوزُ اعتقادُه من التعطيلِ واعتقادِ الطبيعة، فلا يزالُ الأمرُ هكذا: أرحامٌ تدفعُ وأرضٌ تبلعُ، ولا رسولَ يهديهم، ولا بعثَ للأرض علىٰ بارئِهم؛ عطف عليه قولَهم مُؤكِّدين في قراءةِ الكسرِ إشارةً إلىٰ ظهورِ دلائلِ البعث، وأنَّه لا يكادُ يُصدَّقُ أنَّ أحدًا يُكذِّبُ به مُنبِّهًا علىٰ أنَّ الأهواءَ والأغاليطَ قد يتطابقُ عليها الجمُّ الغفيرُ، حثًّا للمهتدي علىٰ أن لا يستوحشَ في طريقِ الهدىٰ لقِلَّةِ السالكين، ولا يُغرَّ بطرقِ الرَّدىٰ لكثرةِ الهالكين: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾[2].

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾

ولمَّا كان عدمُ البعثِ من خللٍ في القدرة، شرعوا في إثباتِ تمامِ القدرةِ علىٰ وجهٍ دالٍّ علىٰ صحَّةِ القرآنِ، وحراستِه من الجانِّ؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّه من نحوِ ما للكُهَّانِ، فقالوا

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٧١-٤٧٢).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٧٤-٤٧٥).

مُؤكِّدين في قراءةِ الكسرِ لاستبعادِ الوصولِ إلىٰ السَّماءِ حثًّا علىٰ طلبِ المهمَّاتِ وإن بعُد مكانُها: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾(١).

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ ﴾

ولمَّا أخبروا عن حالِها إذ ذاك؛ لأنَّه الأهمُّ عندَهم، أخبروا عن حالِها قبلُ، فقالوا مُؤكِّدين لِما للإنسِ من التكذيبِ بوصولِ أحدٍ إلىٰ السماء: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾(٢).

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ ﴾

ولمَّا أخبروا عن إيمانِهم أنَّه كان عَقِبَ سماعِهم من غيرِ توقُّفٍ، ثم ذكروا منعَهم من الاستراق؛ ذكروا أنَّه اشتبَه عليهم المنعُ فلم يعلموا سِرَّه؛ دلالةً علىٰ أنَّ جهلَ بعضِ المسائلِ الفرعيَّةِ لا يقدحُ، وندبًا إلىٰ رفعِ الهِمَّة عن الخوضِ في شيءٍ بغيرِ علمٍ، وحثًّا علىٰ التفويضِ إلىٰ علَّامِ الغيوب، فبيَّنوا الذي حمَلهم علىٰ ضربِ مشارقِ الأرضِ ومغاربِها حتىٰ وجدوا النبيَّ ﷺ يقرأُ القرآنَ، فقالوا مُؤكِّدين لأنَّ العربَ كانوا يَنسُبونهم إلىٰ علمِ المُغيَّباتِ وحلِّ المشكِلات: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾(٣).

وهذه نتيجةٌ ناتجةٌ عن قولِهم: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ إلخ؛ لأنَّ ذلك السمعَ كان لمعرفةِ ما يجري به الأمرُ من اللهِ للملائكة، وممَّا يُخبِرُهم به ممَّا يريدُ إعلامَهم به، فكانوا علىٰ علمٍ من بعضِ ما يتلقَّفونه، فلمَّا مُنعوا السمعَ، صاروا لا يعلمون شيئًا من ذلك، فأخبروا إخوانَهم بهذا؛ عساهم أن يعتبروا بأسبابِ هذا التغيُّرِ، فيؤمنوا

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٧٦).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٧٧).
(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٧٨-٤٧٩).

بالوحيِ الذي حرسه اللهُ من أن يطَّلِعَ عليه أحدٌ قبل الذي يُوحَىٰ به إليه، والذي يحملُه إليه(١).

لمَّا رأَوْا ما حدث من كثرةِ الرَّجْمِ ومنعِ الاستراقِ، قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾(٢).

وجزموا أنَّ اللهَ تعالىٰ أراد أن يُحدِثَ في الأرضِ حادثًا كبيرًا، من خيرٍ أو شرٍّ؛ فلهذا قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾(٣).

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾

ولمَّا أخبر سبحانه بسهولةِ إيمانِهم، فكان ربما ظُنَّ أنَّ ذلك ما كان إلَّا لأنَّ شأنَهم اللِّينُ، أتبعه ما يُعلِمُ أنَّ ذلك خارقةٌ لأجلِه ﷺ كانت، ولإعظامِه وإكرامِه وُجدت، فقال حكايةً عنهم مُؤكِّدين لأنَّ الكلامَ السابقَ ظاهرٌ في سلامةِ طِباعِ الكُلِّ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾(٤).

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢﴾

ولمَّا دلُّوا علىٰ قهرِهم عمَّا كانوا يقدرون عليه من أمرِ السماءِ بما ذكروا، وعلىٰ قهرِ مُفسِديهم بهذا القرآنِ عن كثيرٍ ممَّا كانوا يفعلونه بأهلِ الأرض، فقُهِروا بهذا القرآنِ العظيمِ الشأنِ في الحقيقةِ عن الخافقينِ فمنعنا منهم وحفظا به، ودلُّوا علىٰ أنَّهم موضعُ القهرِ بالتفرُّق، كان ذلك مُوجِبًا للعلمِ بشمولِ قدرتِه تعالىٰ حتىٰ لا يُدرِكَه طالبٌ، ولا ينجوَ منه هاربٌ؛ لِما أبدىٰ لهم من شؤونِ عظمتِه وقهرِه في الحراسةِ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٣٠).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ٢٩٧).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٦٦).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٤٧٩-٤٨٠).

وغيرِها، فذكر سبحانه ما أثَّر ذلك عندهم من الاعترافِ والإذعانِ للواحدِ القهَّار، فقال حاكيًا عنهم ذلك ندبًا إلىٰ الاقتداءِ بهم في معرفةِ النَّفسِ بالعِزِّ والذُّلِّ والضَّعفِ بالتفرُّقِ والانقسامِ، ومعرفةِ الرَّبِّ سبحانه بالقدرةِ الكاملةِ والسُّلطانِ والعَظَمةِ بالتفرُّدِ التَّامِّ الذي لا يقبلُ المماثلةَ ولا القِسمةَ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾[1].

لمَّا كان شأنُ الصَّلاحِ أن يكونَ مَرْضِيًّا عند الله تعالىٰ، وشأنُ ضِدِّه بعكسِ ذلك؛ أعقبوا لتعريضِ الإقلاعِ عن ضِدِّ الصَّلاحِ بما يقتضي أنَّ اللهَ قد أعدَّ لغيرِ الصالحين عقابًا، فأيقنوا أنَّ عقابَ الله لا يفلتُ من أحدٍ استحَقَّه، وقدموه علىٰ الأمرِ بالإيمانِ الذي في قولِه: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الآيةَ؛ لأنَّ درءَ المفاسدِ مُقدَّمٌ علىٰ جلبِ المصالحِ، والتَّخليةَ مُقدَّمةٌ علىٰ التَّحليةِ، وقد استفادوا علمَ ذلك ممَّا سمعوا من القرآنِ ولم يكونوا يعلمون ذلك من قبلُ، فلمَّا ألهمهم اللهُ لاستماعِ القرآنِ، وعلموا أصولَ العقائدِ؛ حذَّروا إخوانَهم اعتقادَ الشِّركِ، ووصفَ اللهِ بما لا يليقُ به؛ لأنَّ الاعتقادَ الباطلَ لا يُقِرُّه الإدراكُ المستقيمُ بعدَ تنبيهِه لبطلانِه، وقد جعل اللهُ هذا النَّفرَ من الجِنِّ نذيرًا لإخوانِهم، ومُرشِدًا إلىٰ الحقِّ الذي أرشدهم إليه القرآنُ[2].

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾

ولمَّا كان الظَّانُّ قد يُبادِرُ علىٰ العملِ بمُوجِبِ ظنِّه وقد لا، بيَّنوا أنَّ مرادَهم به العلمُ، وأنَّهم بادَروا إلىٰ العملِ بما دعا إليه، فقالوا مُؤكِّدين لِما للجِنِّ من الإباءِ والعُسْرِ: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٨١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٣٣).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٨٢).

بعدَ أن ذكَّروا قومَهم بعذابِ الله في الدنيا، أو اطمأنُّوا بتذكُّرِ ذلك في نفوسِهم؛ عادوا إلىٰ ترغيبِهم في الإيمانِ بالله وحده، وتحذيرِهم من الكفرِ بطريقِ المفهومِ، وأُرِيدَ بـ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾ القرآنُ؛ إذ هو المسموعُ لهم، ووصفوه بالهدىٰ للمبالغةِ في أنَّه هادٍ[(١)].

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾

ولمَّا كان هذا ظاهرًا في أنَّهم أسلموا كلُّهم، قالوا نافين لهذا الظاهرِ، مُؤكِّدين لأنَّ إسلامَهم مع شديدِ نُفْرتِهم لا يكادُ يُصدَّقُ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾[(٢)].

هذا تفصيلٌ لقولِهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّ فيه تصريحًا بأنَّ دونَ ذلك هو ضِدُّ الصَّلاحِ[(٣)].

﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾

ولمَّا عرفوا بالأمنِ الاعتصامَ بطاعةِ الله، نبَّهوا علىٰ خطرِ التعرُّضِ لبطشِه، فقالوا: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[(٤)].

ثم إنَّ الجِنَّ ذمُّوا الكافرين، فقالوا: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[(٥)].

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾

ولمَّا رغَّب ورهَّب سبحانه علىٰ ألسنةِ الجِنِّ بما هداهم له ونوَّر قلوبَهم به، وكانت الآيةُ السالفةُ آخِرَ ما حكىٰ عنهم، وكان التقديرُ: أُوحِيَ إليَّ أنَّ القاسطين من قومي

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٣٤).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٨٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٣٦).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٤٨٥).

(٥) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٧١).

وغيرِهم لو آمنوا فُعل بهم من الخيرِ ما فُعل بمؤمني الجِنِّ حينَ آمنوا، فأغناهم اللهُ في الدنيا بحلالِه عن حرامِه من غيرِ كُلْفةٍ، فكسا لهم كلَّ عظمٍ لقوه لحمًا أوفرَ ما كان، وأعاد لهم كلَّ رَوْثٍ رأَوْه أحسنَ ما كان، ببركةِ هذا النبيِّ الكريم -عليه أفضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم-، ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[1].

جملةُ ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، والواوُ من الحكايةِ لا من المَحْكيِّ، فمضمونُها شأنٌ ثانٍ ممَّا أُوحِيَ إلىٰ النبيِّ ﷺ وأمره اللهُ أن يقولَه للناس، والتقديرُ: وأُوحِيَ إليَّ أنَّه لو استقام القاسطون فأسلموا لَما أصابهم اللهُ بإمساكِ الغَيْثِ[2].

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا كانت نِعَمُه فضلًا منه، وليس مُستحَقَّةً عليه بعبادةٍ ولا غيرِها؛ قال تعالىٰ مُعرِّفًا أنَّ غايتَها استحقاقُ الثوابِ أو العقابِ، علىٰ ما كتبه علىٰ نفسِه سبحانه، ولا يُبدَّلُ القولُ لديه، وأنَّ جميعَ ما يُعامِلُ به عبادَه ﷻ من نفعٍ وضُرٍّ إنَّما هو فتنةٌ لهم، يستخرجُ ما جُبلوا عليه من حسنٍ أو قبيحٍ: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[3].

يتناسبُ التعليلُ بالإفتانِ في قولِه: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ مع الجملةِ السابقةِ، إذ يكونُ تعليلًا لِما تَضمَّنه معنىٰ إدامةِ الإسقاءِ، فإنَّه تعليلٌ للإسقاءِ الموجودِ حينَ نزولِ الآيةِ، وليس تعليلًا للإسقاءِ المفروضِ في جوابِ «لو»؛ لأنَّ جوابَ «لو» مُنْتَفٍ، فلا يصلحُ لأن يُعلَّلَ به، وإنَّما هم مفتونون بما هم فيه من النِّعمةِ، فأراد اللهُ أن يُوقِظَ قلوبَهم بأنَّ استمرارَ النِّعمةِ عليهم فتنةٌ لهم فلا تَغُرَّنَّهم، فلامُ التعليلِ في قولِه: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٨٦-٤٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٣٧).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٨٧).

ظرفٌ مُستقِرٌّ في موضعِ الحالِ من ﴿مَّآءً غَدَقًا﴾، وهو الماءُ الجاري لهم في العيونِ ومن السماءِ، تحت جنَّاتِهم وفي زروعِهم، فهي حالٌ مُقارِنةٌ[(١)].

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا كان التقديرُ: لأنَّه أوحىٰ إليَّ أن الأمرَ علىٰ ما تتعارفونه بينكم من أنَّ مَن خدَم غيرَ سيِّدِه عذَّبه أبدًا، عطف عليه قولَه مُبيِّنًا لسيرةِ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، وما يجبُ لهم من الكمالِ الذي يكونُ بقُوَّتَي العلمِ والعملِ، والتكميلِ الذي يكونُ بهما مع قُوَّةِ البيانِ، ومَن لم يكنْ كاملًا لم يُتَصوَّرْ منه تكميلٌ ليكونَ له ولدُ قلبٍ، كما أنَّ مَن لم يكنْ بالغًا لم يتحقَّقْ منه ولدُ صُلْبٍ، ومُبيِّنًا لِما يجوزُ عليهم وما يستحيلُ منهم، وما للهِ تعالىٰ من العنايةِ بشأنِهم: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[(٢)].

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ فهي معطوفةٌ علىٰ مرفوعِ ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، ومضمونُها ممَّا أُوحِيَ به إلىٰ النبيِّ ﷺ وأُمر بأن يقولَه، والمعنىٰ: قُلْ أُوحِيَ إليَّ أنَّ المساجدَ للهِ[(٣)].

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا كان مَن يدعو سيِّدَه وينقطعُ إليه عاملًا للواجبِ عليه، اللَّائقِ بأمثالِه، لا يُنكَرُ عليه ولا يُعجَّبُ منه، إنَّما يُعجَّبُ ممَّن دعا غيرَ سيِّدِه، أو مالَ إليه أدنىٰ ميلٍ، فيُسأَلُ عن سببِه؛ قال مُعجِّبًا من القاسطين من الجِنِّ والإنسِ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٨٣-٢٣٩).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٨٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٠).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٤٩٠).

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠﴾

ولمَّا استَشْرَفتْ -علىٰ قراءةِ الكسرِ- نفسُ السامعِ إلىٰ قولِه ﷺ لِمَن تراكموا عليه من ذلك، استأنف الجوابَ بقولِه مُبيِّنًا لِما يستحيلُ علىٰ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام من دعاءِ غيرِ اللهِ، ومن تركِ الدعاءِ إليه من مخالفةِ شيءٍ من أمرِه قال، أو لما تاقت نفسُه ﷺ -علىٰ قراءةِ الفتحِ- إلىٰ ما يدفعُ به ما رأىٰ منهم؛ قال تعالىٰ مُرشِدًا له إلىٰ ذلك: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾[(١)].

جملةُ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿يَدۡعُوهُ﴾[(٢)].

﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾

ولمَّا كان السامعُ ربما قال: ما له هو لا يُهلِكُهم أو يدعو ربَّه في دفعِ المُتلبِّدين عليه عنه بالإهلاكِ أو التوبةِ والمتابعةِ؛ أمره بما يُبيِّنُ عَظَمةَ ربِّه، وأنَّه لا يفعلُ إلَّا ما يريدُ بقولِه مُبيِّنًا أنَّه يستحيلُ عليه ﷺ ما يستحيلُ علىٰ جميعِ المُمكِناتِ من أن يُؤثِّرَ في شيءٍ بنفسِه أو يُخالِفَ ربَّه: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾[(٣)].

هذا استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو انتقالٌ من ذِكرِ ما أُوحِيَ به إلىٰ النبيِّ ﷺ إلىٰ توجيهِ خطابٍ مستأنَفٍ إليه، فبعد أن حُكي في هذه السُّورة ما أوحىٰ اللهُ إلىٰ رسولِه ﷺ ممَّا خفي عليه من الشؤونِ المتعلِّقةِ به من اتِّباعِ مُتابِعين وإعراضِ مُعرِضين، انتقل إلىٰ تلقينِه ما يَرُدُّ علىٰ الذين أظهروا له العنادَ والتَّورُّكَ[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٩١-٤٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٣).

(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٩٣-٤٩٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٣).

ثم أمره تعالىٰ أن يقولَ لهم ما يدلُّ علىٰ تبرُّئِه من القدرةِ علىٰ إيصالِ خيرٍ أو شرٍّ إليهم، وجعل الضَّرَّ مُقابِلًا للرَّشَدِ تعبيرًا به عن الغَيِّ، إذ الغَيِّ ثمرتُه الضَّررُ[(١)].

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا أجاب مَن تشوَّف إلىٰ عِلَّةِ صبرِه عن دفعِهم عنه بما حاصلُه أنَّه لا شيءَ بيدِه؛ لأنَّ إلهَه من العَظَمةِ في إحاطةِ العلمِ والقدرةِ، وأنَّه لا يخرجُ شيءٌ عن مرادِه، فلا يعجل في شيءٍ بحيث لا يفعلُ إلَّا ما يريدُ، سواءٌ سُئل أو لا، فكان ذلك ربما أوجب أن يُظَنَّ منه ﷺ موافقتُه لهم لئلَّا يَضُرُّوه؛ لأنَّهم يستعجلون في أذىٰ مَن خالفهم؛ أجاب ما حاصلُه أنَّه بينَ ضررينِ؛ أحدُهما منهم إن خالَفهم، والآخرُ منه ﷻ إن أعرض عنه، وهو ﷻ يَرُدُّ أذاهم إن أراد، وهم لا يقدرون علىٰ ردِّ أذاه بوجهٍ، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾[(٢)].

اعتراض رد لِما يُحاوِلونه منه أن يتركَ ما يُؤذِيهم، فلا يذكرُ القرآنُ إبطالَ معتقدِهم وتحقيرَ أصنامِهم[(٣)].

لمَّا تبرأ ﷺ من قدرتِه علىٰ نفعِهم وضَرِّهم، أمر بأن يُخبِرَهم بأنَّه مربوبٌ للهِ تعالىٰ، يفعلُ فيه ربُّه ما يريدُ، وأنَّه لا يمكنُ أن يُجِيرَه منه أحدٌ، ولا يجدَ من دونِه ملجأً يركنُ إليه[(٤)].

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كان من المعلومِ أنَّ هذا شيءٌ لا مَثْنَوِيَّةَ فيه، وكانت الرُّتَبُ التي دونَ شريفِ رُتْبَتِه سبحانه كثيرةً جدًّا؛ لِما له من العلوِّ المطلقِ، وكان ما يليها له حكمُ شرفِها

---

(١) البحر المحيط (١٠/ ٣٠٢).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٩٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٤).

(٤) البحر المحيط (١٠/ ٣٠٢).

وحقيقتِها، وكان أولُ ذلك البلاغَ منه سبحانه بلا واسطةٍ، ثم البلاغَ بواسطةِ ملائكتِه الكرامِ منه؛ استثنىٰ من ﴿مُلْتَحَدًا﴾ علىٰ طريقِ: لا ملجأ ولا مَنجَىٰ منك إلَّا إليك، ففِرّوا إلىٰ اللهِ، فقال: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ (١).

قولُه: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ استثناءٌ مُنقطِعٌ من ﴿ضَرًّا﴾ و﴿رَشَدًا﴾، وليس مُتَّصِلًا؛ لأنَّ الضَّرَّ والرَّشَدَ المَنْفِيَّينِ في قولِه: ﴿لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ هما الضَّرُّ والرَّشَدُ الواقعانِ في النَّفسِ بالإلجاءِ (٢).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾

ولمَّا ذكَر تلبُّدَهم عليه، وقدَّم ما هو الأهمُّ من أمرِه من كشفِ غمومِهم، بإعلامِهم أنَّ ذلك الذي أنكروه عليه هو الذي يَحِقُّ له، ومن أنَّه مع ضعفِه عن مقاواتهم هو عن الإعراضِ عن اللهِ أضعفُ؛ لأنَّ اللهَ أقوىٰ من كلِّ شيءٍ، وأنَّه لا يَسَعُه إلَّا امتثالُ أمرِه، وأشار إلىٰ أنَّهم عاجزون عن سطواتِه سبحانه بعدمِ القدرةِ علىٰ الإجارةِ عليه؛ صرَّح بذلك مُهدِّدًا لهم، فقال مُغيِّيًا لتلبُّدِهم عليه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ (٣).

كانوا إذا سمعوا آياتِ الوعدِ بنصرِ الرسولِ ﷺ والمسلمين في الدنيا والآخرةِ، وآياتِ الوعيدِ للمشركين بالانهزامِ وعذابِ الآخرة وعذابِ الدنيا؛ استَسخَروا من ذلك، فهم مغرورون بالاستدراجِ والإمهالِ؛ فلذلك عقَّب وعيدَهم بالغايةِ المُفادةِ من ﴿حَتَّىٰٓ﴾، فالغايةُ هنا متعلِّقةٌ بمحذوفٍ يدلُّ عليه الكلامُ من سُخْرِيَّةِ الكفار من

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٩٦).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٤).
(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٩٧-٤٩٨).

الوعيدِ، واستضعافِهم المسلمين في العُدَدِ والعَدَدِ، فإنَّ ذلك يُفهَمُ منه أنَّهم لا يزالون يحسبون أنَّهم غالبون فائزون، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ تحقَّقوا إخفاقَ آمالِهم[(١)].

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ٢٥﴾

ولمَّا كان من المعلومِ أنَّهم إذا سمعوا هذا الوعيدَ، قالوا استهزاءً، وعمًى عن طريقِ الصَّوابِ واستعلاءً: متىٰ يكونُ عجِّلْ به؛ استأنف قولَه جوابًا لهم جوابَ مَن لا يَستخِفُّه عَجَلةٌ ولا ضَجَرٌ؛ لأنَّه لا يخافُ الفَوْتَ، ولا يلحقُه ضررٌ ببقاءِ العدوِّ واجتهادِهم في أذىٰ أوليائِه، مُبيِّنًا ما يجوزُ علىٰ الرُّسلِ من أنَّه يخفىٰ عليهم ما علىٰ البشرِ، ويُطلِعُهم اللهُ تعالىٰ ما يخفىٰ علىٰ غيرِهم: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾[(٢)].

كان المشركون يُكثِرون أن يسألوا رسولَ الله ﷺ: متىٰ هذا الوعدُ؟ وعن الساعةِ: أيَّانَ مُرْساها؟ وتكرَّرت نسبةُ ذلك إليهم في القرآن، فلمَّا قال اللهُ تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ الآية، عُلم أنَّهم سيُعيدون ما اعتادوا قولَه من السؤالِ عن وقتِ حلولِ الوعيدِ، فأمر اللهُ رسولَه ﷺ أن يُعِيدَ عليهم ما سبق من جوابِه، فجملةُ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ القولَ المأمورَ بأن يقولَه جوابٌ لسؤالِهم المقدَّرِ[(٣)].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾

ولمَّا نفىٰ ﷺ علمَه عن نفسِه الشريفة، نفىٰ ذلك عن غيرِه علىٰ وجهٍ عامٍّ لجميعِ الغيبِ، جالٍ من عظَمةِ مُرسِلِه ما تنقطعُ دونَه الأعناقُ، فقال واصفًا له: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٥).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٩٩).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٦-٢٤٧).
(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٥٠٠).

جملةُ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ في موضعِ العِلَّةِ لجملةِ ﴿إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ الآيةَ[1].

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾

ولمَّا كان لا يعلمُ الغيبَ إلَّا ببروزِه على عالمِ الشهادة، وكان لأولِ مَن يطَّلِعُ عليه شرفٌ ينبغي أن يُعرَفَ له؛ قال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾[2].

ولمَّا كان مساقُ الكلامِ ممَّا قد يتوهَّمون منه أنَّه ﷺ لم يطَّلِعْ على شيءٍ من الغيب، عقَّب ﷻ الكلامَ بالاستثناءِ المنقطِع الذي هو بمعنى الاستدراكِ لدفعِ ذلك على أبلغِ وجهٍ، حيث عمَّم الأمرَ في الرُّسل المُرْتَضَيْنَ، وأقام كيفيَّةَ الإظهارِ مقامَ الإظهارِ، مع الإشارةِ إلى البعضِ الذي اطَّلَعوا عليه، المناسِبَ لمقامِ الدعوة، فقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾[3].

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾

ولمَّا كان هذا الدَّأْبُ من الحفظِ في كلِّ رسولٍ، بيَّن الغايةَ جامعًا تعيينًا لِما اقتضاه الجنسُ، وبيانًا لأنَّ الأفرادَ أولًا مرادٌ به الجمعُ، وأنَّه ما عبَّر به إلَّا لتشملَ الحراسةُ كلَّ فردٍ منهم، فقال: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٧).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٥٠٠).

(٣) روح المعاني (١٥/ ١٠٧).

(٤) نظم الدرر (٢٠/ ٥٠٣).

يتعلَّقُ ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ بقولِه: ﴿يَسۡلُكُ﴾؛ أي: يفعلُ اللهُ ذلك ليُبلِّغَ الغيبَ إلىٰ الرسولِ كما أُرسِلَ إليه، لا يُخالِطُه شيءٌ ممَّا يلبسُ عليه الوحي، فيعلمُ اللهُ أنَّ الرُّسلَ أبلغوا ما أُوحِيَ إليهم كما بعثه من دونِ تغيير، فلمَّا كان علمُ اللهِ بتبليغِ الرسول الوحيَ مُفرَّعًا ومُسبَّبًا عن تبليغِ الوحيِ كما أنزل اللهُ، جعل المسبَّبَ عِلَّةً، وأُقيم مقامَ السببِ؛ إيجازًا في الكلامِ؛ لأنَّ علمَ اللهِ بذلك لا يكونُ إلَّا علىٰ وَفْقِ ما وقع[1].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥٠).

سورة المزمل

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾

ولمَّا كان المُزَّمِّلُ عادةً ما يكونُ جالسًا أو مُضطجِعًا، أمره بالقيام، فقال: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣﴾

ولمَّا كان الليلُ اسمًا لِما بينَ غروبِ الشمسِ وطلوعِ الفجرِ، وكان قيامُه في غايةِ المشقَّةِ؛ حمل سبحانه من ثِقَلِ ذلك، فقال مُبيِّنًا لمرادِه بما حطَّ عليه الكلام بعد الاستثناء، ومُبدِلًا من جملةِ المستثنَىٰ والمستثنَىٰ منه: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾[(١)].

ثم بيَّن تعالىٰ قدرَ القيامِ مُخيِّرًا له بقولِه: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾[(٢)].

ثم قدَّر ذلك، فقال: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾[(٣)].

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾

قال: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾، وهو عَوْدٌ إلىٰ الترغيبِ في أن تكونَ مُدَّةُ القيامِ أكثرَ من نصفِ الليل؛ ولذلك لم يُقيِّدْ ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ بمثلِ ما قيَّد به ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾ لتكونَ الزيادةُ علىٰ النصف مُتَّسِعةً[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥٩).
(٢) محاسن التأويل (٩/ ٣٤٠).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٩٣).
(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥٩).

ثـم خيَّـره عليه الصلاة والسلام بـين أن يقـومَ نصـفَه، أو أقـلَّ منـه، أو أكثـرَ، فقـال: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾.

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾

ولمَّا كان المرادُ منه ﷺ الثباتَ للنُّبُوَّةِ، ومن أُمَّتِه الثباتَ في الاقتداءِ به في العملِ والأمرِ والنهيِ، وكان ذلك في غايةِ الصعوبة، وكان الإنسانُ عاجزًا إلَّا بإعانةِ مولاه، وكان العَوْنُ النافعُ إنَّما يكونُ لمن صَفَتْ نفسُه عن الأكدارِ وأشرقت بالأنوارِ، وكان ذلك إنَّما يكونُ بالاجتهادِ في خدمتِه سبحانه؛ علَّل هذا الأمرَ بقولِه مُبيِّنًا للقرآنِ الذي أمر بقراءتِه ما هو وما وصفُه، مُعلِمًا أنَّ التهجُّدَ يُعِدُّ للنفسِ من القوىٰ ما به يعالجُ المشقَّات، مُؤكِّدًا لأنَّ الإتيانَ بما هو خارجٌ عن جميعِ أشكالِ الكلامِ لا يكادُ يُصدَّقُ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1].

تعليلٌ للأمرِ بقيامِ الليل، وقع اعتراضًا بين جملةِ ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ وجملةِ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾، وهو جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا لحكمةِ الأمرِ بقيامِ الليل بأنَّها تهيئةُ نفسِ النبيِّ ﷺ ليحملَ شِدَّةَ الوحي، وفي هذا إيماءٌ إلىٰ أنَّ اللهَ يسَّر عليه ذلك، فتلك مناسبةُ وقوعِ هذه الجملةِ عَقِبَ جملةِ ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فهذا إشعارٌ بأنَّ نزولَ هذه الآيةِ كان في أولِ عهدِ النبيِّ ﷺ بنزولِ القرآنِ، فلمَّا قال له: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، أعقَب ببيانِ عِلَّةِ الأمرِ بترتيلِ القرآن[2].

هذه الجملةُ المؤكدة معترضةٌ بين الأمرِ بالقيام وتعليلِه الآتي لتسهيل ما كلَّفه عليه الصلاة والسلام من القيام، كأنَّه قيل: إنَّه سيَرِدُ عليك في الوحي المنزَّلِ تكاليفُ شاقَّةٌ، هذا بالنِّسبةِ إليها سهلٌ، فلا تُبالِ بهذه المشقَّةِ، وتمرَّنْ بها لِما بعدها[3].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦١).

(٣) روح المعاني (١٥/ ١١٦).

الجملةُ معلِّلةٌ للأمر بالترتيل، وأنَّ ثِقَلَه ممَّا يستدعيه(١).

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦﴾

ولمَّا أفهم هذا أنَّ التهجُّدَ في غايةِ العَظَمة، أكَّد ذلك حاثًّا على عدمِ الرضى بدونِ الأفضلِ الأجملِ الأكملِ بقولِه مُؤكِّدًا ليَخِفَّ أمرُ القيامِ على النفس: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾(٢).

تعليلٌ لتخصيصِ زمنِ الليل بالقيامِ فيه، فهي مرتبطةٌ بجملةِ ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾؛ أي: قُمِ الليلَ؛ لأنَّ ناشئتَه أشدُّ وطأً وأقومُ قِيلًا(٣).

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ٧﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه من أولِ السورةِ إلى هنا ما به صلاحُ الدينِ الذي هو عصمة الأمر وبه صلاحُ الدَّارينِ، وأظهر ما للتهجُّدِ من الفضائل، فكان التقديرُ حتمًا: فواظِبْ عليه لتنال هذه الثمراتِ؛ قال مُعلِّلًا، مُحققًا له، مُبيِّنًا ما به صلاحُ الدنيا التي هي فيها المعاشُ، وصلاحُها وسيلةٌ إلى صلاحِ المقصودِ وهو الدينُ، وهو الذي ينبغي له لئلَّا يكونَ كَلًّا على الناسِ؛ ليُحصِّلَ من الرزقِ ما يُعِينُه على دينِه، ويُوسِّعُ به على عبادِ اللهِ من غيرِ مللٍ، ولا ضجرٍ، ولا كسلٍ، ولا مبالغةٍ، مُؤكِّدًا لِما للنفسِ من الكسلِ عنه: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾(٤).

فصلُ هذه الجملةِ دونَ عطفٍ على ما قبلها يقتضي أنَّ مضمونَها ليس من جنسِ حكمِ ما قبلها، فليس المقصودُ تعيينَ صلاةِ النهارِ؛ إذ لم تكنِ الصلواتُ الخمسُ قد

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٣٤١).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٢).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٢-١٣).

فُرضت يومئذ علىٰ المشهورِ، ولم يُفرَضْ حينئذ إلَّا قيامُ الليل، فالذي يبدو أنَّ موقعَ هـذه الجملـةِ موقـعُ العِلَّـةِ لشـيءٍ ممَّـا في جملـةِ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، وذلك دائرٌ بين أن يكونَ تعليلًا لاختيارِ الليلِ لفرضِ القيـامِ عليه فيه، فيفيـدَ تأكيـدًا للمحافظةِ علىٰ قيامِ الليـل؛ لأنَّ النهـارَ لا يُغنِي غَناءَه، ويجوزُ أن يكـونَ تعليـلًا لِما تَضمَّنَه ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾؛ أي: إن نقصتَ من نصفِ الليلِ شيئًا لا يَفُتْكَ ثوابُ علمِه، فإنَّ لك في النهارِ مُتَّسَعًا للقيامِ والتلاوةِ[١].

هذا بيانٌ للداعي الخارجيِّ إلىٰ قيامِ الليل، بعد بيانٍ ما في نفسِه من الداعي[٢].

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فاجتهِدْ في التهجُّدِ، عطَف عليه قولَه حاثًّا علىٰ حضورِ الفِكْرِ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[٣].

عطفٌ علىٰ ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾، وقُصد بإطلاقِ الأمرِ عن تعيينِ زمانٍ إلىٰ إفادةِ تعميمِه؛ أي: اذكُرِ اسمَ ربِّك في الليل وفي النهار[٤].

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾

ولمَّا كان الواجبُ علىٰ كلِّ أحدٍ شكرُ المُنعِمِ، بيَّن أنَّه سبحانه الذي أنعم بسَكَنِ الليلِ الذي أمر بالتهجُّدِ فيه، ومُنتشِرِ النهارِ الذي أمر بالسَّبْحِ فيه، فقال واصفًا الرَّبَّ المأمورَ بذِكْرِه مُعظِّمًا له: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ٥١).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٥).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ١٥).

ووصَف اللهَ بأنَّه ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾؛ لمناسبةِ الأمرِ بذِكْرِه في الليلِ وذِكْرِه في النهارِ، وهما وقتا ابتداءِ غيابِ الشمسِ وطلوعِها، وذلك يُشعِرُ بامتدادِ كلِّ زمانٍ منهما إلىٰ أن يأتيَ ضِدُّه؛ فيصحُّ أن يكونَ المشرقُ والمغربُ جهتَيِ الشروقِ والغروبِ، فيكونَ لاستيعابِ جهاتِ الأرض؛ أي: ربُّ جميعِ العالمِ، وذلك يُشعِرُ بوقتَيِ الشروقِ والغروبِ، ويصحُّ أن يُرادَ بهما وقتا الشروقِ والغروبِ؛ أي: مبدأُ ذَيْنِك الوقتينِ ومُنْتَهاهما، كما يُقالُ: سبِّحوا اللهَ كلَّ مشرقِ شمسٍ، وكما يُقالُ: صلاةُ المغربِ[(١)].

لمَّا أمره بالذِّكْرِ أولًا، ثم بالتبتُّلِ ثانيًا؛ ذكر السببَ فيه، فقال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[(٢)].

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾

ولمَّا كانت الوكالةُ لا تكونُ إلَّا فيما يُعجِزُ، وكان الأمرُ بها مُشِيرًا إلىٰ أنَّه لا بدَّ أن يكونَ عن هذا القولِ الثقيلِ خُطُوبٌ طِوالٌ، وزلازلُ وأهوالٌ؛ قال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[(٣)].

عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، والمناسبةُ أنَّ الصَّبرَ علىٰ الأذىٰ يُستعانُ عليه بالتوكُّلِ علىٰ الله[(٤)].

فلمَّا أمره اللهُ بالصلاةِ خصوصًا، وبالذِّكْرِ عمومًا، وذلك يُحصِّلُ للعبدِ مَلَكةً قويَّةً في تحمُّلِ الأثقالِ، وفعلِ الثقيلِ من الأعمالِ؛ أمره بالصبرِ علىٰ ما يقولُ فيه المعانِدون له، ويَسُبُّونه ويَسُبُّون ما جاء به، وأن يمضيَ علىٰ أمرِ الله، لا يَصُدُّه عنه صادٌّ، ولا

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٨٧).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٩).

يَرُدُّه رادٌّ، وأن يهجرَهم هجرًا جميلًا؛ وهو الهجرُ حيث اقتضت المصلحةُ الهجرَ الذي لا أَذِيَّةَ فيه، فيقابلَهم بالهجرِ والإعراضِ عنهم وعن أقوالِهم التي تُؤْذِيه(١).

﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ١١ ﴾

ولمَّا كان في أمرِه هذا بما يفعلُ ما يَشُقُّ جدًّا بما فيه من احتمالِ علوِّهم، أعلَم بقُرْبِ فرجِه بتهديدِهم بأخذِهم سريعًا، فقال: ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾(٢).

﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ١٢ ﴾

ولمَّا كان هذا مُنادِيًا بعذابِهم، وكان وصفُهم بالنِّعمةِ مُفهِمًا لأنَّهم مُعْتادون بالمآكلِ الطَّيِّبةِ، وكان منعُ اللذيذِ من المآكلِ لمن اعتاده لا يبلغُ في نكايةِ النفسِ بحدِّ نكايةِ البدنِ إلَّا بعدَ تقدُّمِ إهانةٍ؛ استأنف قولَه بيانًا لنوعِ ما أفهَمه التهديدُ من مطلقِ العذابِ، وأكَّد لأجلِ تكذيبِهم: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴾(٣).

هذا تعليلٌ لجملةِ ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾؛ أي: لأنَّ لدينا ما هو أشدُّ عليهم من ردِّك عليهم، وهذا التعليلُ أفادَ تهديدَهم بأنَّ هذه النِّقَمَ أُعِدَّتْ لهم؛ لأنَّها لمَّا كانت من خزائنِ نقمةِ اللهِ تعالىٰ، كانت بحيث يضعُها اللهُ في المواضعِ المستأهِلةِ لها، وهم الذين بدَّلوا نعمةَ اللهِ كفرًا، فأعدَّ اللهُ لهم ما يكونُ عليهم في الحياةِ الأبديَّةِ ضدًّا لأصولِ النِّعمةِ التي خُوِّلُوها، فبَطِروا بها وقابلوا المُنعِمَ بالكفرانِ، فالأنكالُ مقابلُ كفرانِهم بنعمةِ الصحَّةِ والمقدرةِ؛ لأنَّ الأنكالَ: القيودُ، والجحيمَ -وهو نارُ جهنَّمَ- مقابلُ ما كانوا عليه من لذَّةِ الاستظلالِ والتبرُّدِ(٤).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٨٩٣).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٨).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧١).

ثم ذكَر كيفيَّةَ عذابِهم عند الله، فقال: ﴿ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴾[١].

الجملةُ تعليلٌ لقولِه تعالىٰ: ﴿ وَذَرۡنِي ﴾ وما عُطف عليه، فكأنَّه قيل: كِلْ أمرَهم إليَّ، ومَهِّلْهم قليلًا؛ لأنَّ عندي ما أنتقمُ به منهم أشدَّ الانتقامِ[٢].

﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣﴾

ولمَّا أتمَّ ما يقابلُ تكذيبَهم، أتبعَه ما يقابلُ النِّعمةَ، فقال: ﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴾[٣].

والطعامُ ذو الغُصَّةِ مقابلُ ما كانوا مُنهمِكين فيه من أَطعِمَتِهم الهنيئةِ من الثمراتِ والمطبوخاتِ والصيدِ، والعذابُ الأليمُ مقابلُ ما في النِّعمةِ من ملاذِّ البشرِ، فإنَّ الألَمَ ضِدُّ اللَّذَّةِ[٤].

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾

ولمَّا ذكَر هذا العذابَ، ذكَر ظرفَه، فقال: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ﴾[٥].

ثم إنَّه تعالىٰ لمَّا وصف العذابَ، أخبر أنَّه متىٰ يكونُ ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ﴾[٦].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٨٩).

(٢) روح المعاني (١٥/ ١١٩).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧١).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ٢١).

(٦) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٩٠).

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾

ولمَّا ذكَر العذابَ ووقتَه، وقدَّمهما ليكونَ السامعُ أقبلَ لِما يُطلَبُ منه، أتبَعهما السببَ فيه مُشيرًا إلىٰ ما به إصلاحُ أمرِ الآخرةِ، التي فيها المعادُ، وإليها المنتهىٰ والمآبُ، فقال مُؤكِّدًا لأجلِ تكذيبِهم: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾(1).

نُقل الكلامُ إلىٰ مخاطبةِ المشركين بعد أن كان الخطابُ مُوجَّهًا إلىٰ النبيِّ ﷺ، والمناسبةُ لذلك التخلُّصُ إلىٰ وعيدِهم بعد أن أمره بالصبرِ علىٰ ما يقولون وهجرِهم هجرًا جميلًا، فالكلامُ استئنافٌ ابتدائيٌّ، ولا يُعَدُّ هذا الخطابُ من الالتفاتِ؛ لأنَّ الكلامَ نُقل إلىٰ غرضٍ غيرِ الغرضِ الذي كان قبلَه(2).

لمَّا خوَّف المكذِّبين أُولِي النَّعمةِ بأهوالِ القيامة، خوَّفهم بعد ذلك بأهوالِ الدنيا، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾(3).

لمَّا هدَّد المكذِّبين بأهوالِ القيامة، ذكَّرهم بحالِ فرعونَ، وكيف أخذه اللهُ تعالىٰ إذ كذَّب موسىٰ عليه السلام، وأنَّه إن دام تكذيبُهم أهلكهم اللهُ تعالىٰ، فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾(4).

﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾

ولمَّا كان الإرسالُ سببًا للقبولِ أو الرَّدِّ، قال: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾(5).

---

(1) نظم الدرر (٢١/ ٢٣).

(2) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧٢).

(3) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٩٠).

(4) البحر المحيط (١٠/ ٣١٧).

(5) نظم الدرر (٢١/ ٢٥).

وتفريعُ ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ إيماءٌ إلىٰ أنَّ ذلك هو الغرضُ من هذا الخبرِ، وهو التهديدُ بأن يَحِلَّ بالمخاطَبين لمَّا عَصَوُا الرسولَ ﷺ مِثلُ ما حَلَّ بفرعونَ[1].

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا عُلم بهذا أنَّه سبحانه شديدُ الأخذِ، وأنَّه لا يُغنِي ذا الجَدِّ منه الجَدُّ؛ سبَّب عن ذلك قولَه مُحذِّرًا لهم الاقتداءَ بفرعونَ: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾[2].

الاستفهامُ بـ«كيف» مستعمَل في التعجيزِ والتوبيخِ، وهو متفرِّعٌ بالفاءِ علىٰ ما تضمَّنه الخطابُ السابقُ من التهديدِ علىٰ تكذيبِ الرسولِ ﷺ، وما أُدمِجَ فيه من التسجيلِ بأنَّ الرسولَ ﷺ شاهدٌ عليهم، فليس بعد الشهادةِ إلَّا المؤاخذةُ بما شهد به، وقد انتقل بهم من التهديدِ بالأخذِ في الدنيا -المستفادِ من تمثيلِ حالِهم بحالِ فرعونَ مع موسىٰ- إلىٰ الوعيدِ بعقابٍ أشدَّ، وهو عذابُ يومِ القيامة، وقد نشأ هذا الاستفهامُ عن اعتبارِهم أهلَ اتِّعاظٍ وخوفٍ من الوعيدِ بما حلَّ بأمثالِهم ممَّا شأنُه أن يُثِيرَ فيهم تفكيرًا من النجاةِ من الوقوعِ فيما هُدِّدوا به، وأنَّهم إن كانوا أهلَ جلادةٍ علىٰ تحمُّلِ عذابِ الدنيا؛ فماذا يصنعون في اتِّقاءِ عذابِ الآخرة؟ فدلَّتْ فاءُ التفريعِ واسمُ الاستفهامِ علىٰ هذا المعنىٰ[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧٣).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٥-٢٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧٤).

ثم إنَّه تعالىٰ عاد إلىٰ تخويفِهم بالقيامةِ مرَّةً أخرىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾(١).

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا عظيمًا، صوَّر بعضَ أهوالِه زيادةً في عِظَمِه، فقال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾(٢).

جملةُ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ صفةٌ ثانيةٌ، وهو ارتقاءٌ في وصفِ اليومِ بحدوثِ الأهوالِ فيه، فإنَّ انفطارَ السماءِ أشدُّ هَوْلًا ورُعْبًا ممَّا كُنِّيَ عنه بجملةِ ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾(٣).

ثم زاد في وصفِ ذلك اليوم بالشِّدَّة، فقال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾(٤).

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا كان ما مضىٰ من هذه السورةِ من الأحكامِ والترغيبِ والترهيبِ مُرشِدًا إلىٰ معالي الأخلاقِ، مُنقِذًا من كلِّ سوءٍ؛ قال مستأنِفًا، مُؤكِّدًا، تنبيهًا علىٰ عِظَمِها، وأنَّها ممَّا ينبغي التنبيهُ عليه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾(٥).

فعند هذا تمَّ البيانُ بالكُلِّيَّةِ، فلا جَرَمَ ختم ذلك الكلامَ بقولِه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾(٦).

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٩١).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٧).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧٥).
(٤) فتح القدير (٥/ ٣٨٣).
(٥) نظم الدرر (٢١/ ٢٨).
(٦) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٩٣).

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

ولمَّا كان ربما تغالىٰ بعضُ الناس في العبادةِ وشقَّ علىٰ نفسِه، وربما شقَّ علىٰ غيرِه؛ أشار ﷻ إلىٰ الاقتصادِ تخفيفًا لِما يلحقُ الإنسانَ من النَّصَبِ، مُشِيرًا إلىٰ ما يعملُ حالةَ اتِّصالِ الرُّوحِ بالجسد، وهي حالةُ الحياةِ؛ لأنَّ منفعتَها التزوُّدُ من كلِّ خيرٍ لِما أدناه هَوْلُ المقابر، فإنَّ الرُّوحَ في غايةِ اللَّطافةِ، والجسدَ في غايةِ الكثافةِ؛ لأنَّها من عالمِ الأمرِ، وهو ما يكونُ الإيجادُ فيه بمرَّةٍ واحدةٍ من غيرِ تدريجٍ وتطويرٍ، والجسدَ من عالمِ الخلقِ، فهي غريبةٌ فيه تحتاجُ إلىٰ التأنيسِ، وتأنيسُها بكُلِّ ما يُقرِّبُها إلىٰ العالمِ الرُّوحانيِّ المجرَّدِ عن علائقِ الأجسامِ؛ وذلك بصرفِ القلبِ كلِّه عن هذه الدَّنايا، والتلبُّسِ بالأذكارِ والصلواتِ وجميعِ الأعمالِ الصالحاتِ، فإنَّ ذلك هو المُعِينُ علىٰ اتِّصالِها بعالمِها العالي العزيزِ الغالي، وأعونُ ما يكونُ علىٰ ذلك الحكمةُ؛ وهي العدلُ في الأعمالِ، والاقتصادُ في الأقوالِ والأفعالِ، فقال مستأنِفًا الجوابَ عن تيسيرِ السبيلِ، وبنائِه علىٰ الحنيفيَّةِ السَّمْحةِ، بحيث صار لا مانعَ منه إلَّا يدُ القدرةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ (١).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٨-٢٩).

صريحُ هذه الآيةِ يُنادِي على أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقومُ من الليلِ قبلَ نزولِ الآيةِ، وأنَّ طائفةً من أصحابِه كانوا يقومون؛ عملًا بالأمرِ الذي في أولِ السورةِ من قولِه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾ الآيةَ، فتعيَّن أنَّ هذه الآيةَ نزلت للتخفيفِ عنهم جميعًا؛ لقولِه فيها: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾، فهي ناسخةٌ للأمرِ الذي في أولِ السورة[1].

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧٨).

سورة المدثر

﴿قُمْ فَأَنذِرْ ٢﴾

ولمَّا كان في حالِ تدثُّرِه قد لزم موضعًا واحدًا، فلزم من ذلك إخفاءُ نفسِه الشريفةِ؛ أمره ﷺ بالقيامِ، وسبَّب عنه الإنذارَ إشارةً إلىٰ أنَّ ما يُرادُ به من أنَّه يكونُ أشهرَ الخلقِ بالرسالةِ العامَّةِ مُقتَضٍ لتشميرِ الذَّيلِ والحملِ علىٰ النفسِ بغايةِ الجِدِّ والاجتهادِ اللازمِ عنه كثرةُ الانتشارِ، فهو مُنافٍ للتدثُّرِ بكلِّ اعتبارٍ، فقال: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾(١).

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ٣﴾

ولمَّا كان الإنذارُ يتضمَّنُ مواجهةَ الناسِ بما يكرهون، وذلك عظيمٌ علىٰ الإنسانِ، وكان المُفَتِّرُ عن اتِّباعِ الداعي أحدَ أمرينِ: تركَه ما يُؤمَرُ به، وطلبَه عليه الأجرَ، كما أنَّ المُوجِبَ لاتِّباعِه عملُه بما دعا إليه، وبُعْدُه عن أخذِ الأجرِ عليه؛ أمره بتعظيمِ مَن أرسله سبحانه، فإنَّه إذا عُظِّمَ حقَّ تعظيمِه، صغُر كلُّ شيءٍ دونَه، فهان عليه الدعاءُ، وكان له مُعِينًا علىٰ القبولِ، فقال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾(٢).

(١) نظم الدرر (٢١/ ٤٠).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٤٢).

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾

ولمَّا كان تنزيهُ العبدِ عن الأدناسِ لأجلِ تنزيهِ المعبودِ، قال آمرًا بتطهيرِ الظاهرِ والباطنِ، باستكمالِ القُوَّةِ النظريَّةِ في تعظيمِه سبحانه ليصلحَ أن يكونَ من أهلِ حضرتِه، وهو أولُ مأمورٍ به من رفضِ العاداتِ المذمومةِ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[(١)].

وأحسبُ أنَّ في ذِكْرِ التكبيرِ إيماءً إلىٰ شرعِ الصلاةِ التي أولُها التكبيرُ؛ وخاصَّةً اقترانَه بقولِه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، فإنَّه إيماءٌ إلىٰ شرعِ الطهارةِ، فلعلَّ ذلك إعدادٌ لشرعِ الصلاةِ[(٢)].

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾

ولمَّا أمر بمجانبةِ الـذَّرِّ في الثيابِ، وأراد الحِسِّيَّةَ والمعنويَّةَ، وكان ذلك ظاهرًا في الحِسِّيَّةِ، وجعل ذلك كنايةً عن تجنُّبِ الأقذارِ كلِّها؛ لأنَّ مَن جنَّب ذلك ملبسَه، أبعَدَه عن نفسِه من بابِ الأَولىٰ؛ حقَّق العمومَ وأكَّد، فقال: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[(٣)].

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾

ولمَّا بدأ بأحدِ سببَي القبولِ، أتبَعه الثانيَ المُبعِدِ عن قاصمةِ العملِ، من الإعجابِ والرياءِ والمللِ، فقال: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[(٤)].

مناسبةُ عطفِ ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ علىٰ الأمرِ بهجرِ الرُّجْزِ: أنَّ المَنَّ في العطيَّةِ كثيرٌ من خُلُقِ أهلِ الشرك، فلمَّا أمره اللهُ بهجرِ الرُّجْزِ، نهاه عن أخلاقِ أهلِ الرُّجْزِ نهيًا

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٩٧).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٤٣-٤٤).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٤٤).

يقتضي الأمرَ بالصدقةِ، والإكثارَ منها بطريقِ الكنايةِ، فكأنَّه قال: وتَصدَّقْ وأَكثِرْ من الصدقةِ ولا تَمنُنْ؛ أي: لا تَعُدَّ ما أعطيتَه كثيرًا فتُمسِكَ عن الازديادِ فيه، أو تتطرَّقَ إليك ندامةٌ علىٰ ما أعطيتَ(١).

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾

ولمَّا كان الإنذارُ شديدًا علىٰ النفوسِ، يحصلُ به من المعالجاتِ ما الموتُ دونَه؛ لأنَّ تركَ المألوفاتِ أصعبُ شيءٍ علىٰ النفوسِ، وكذا تركُ الفوائدِ؛ قال آمرًا بالتحلِّي بالعاصمِ بعد التخلِّي عن القاصمِ، مُعلِمًا بأنَّ الأذىٰ من المُنذَرين أمرٌ لا بدَّ منه فيدخل في الطاعةِ علىٰ بصيرةٍ، فاقتضىٰ الحالُ لذلك أنَّ الإنذارَ يهونُ بالغنىٰ عن الفانينَ والكون مع الباقي وحده، فأشار إلىٰ ذلك بتقديمِ الإلهِ مُعبِّرًا عنه بوصفِ الإحسانِ ترغيبًا، فقال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾(٢).

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾

ولمَّا كان المقامُ للإنذارِ، وكان مَن ردَّ الأوامرَ تكذيبًا كفَر، ومَن تهاوَنَ بها ما أطاع ولا شكَر؛ حذَّر من الفتورِ عنها بذِكْرِ ما للمكذِّبِ بها، فقال مُسبِّبًا عن ذلك، باعثًا علىٰ اكتسابِ الخيراتِ من غيرِ كسلٍ ولا توقُّفٍ، مُذكِّرًا بأنَّ المَلَكَ التقَم القَرْنَ وأصغىٰ بجبهتِه انتظارًا للأمرِ بالنَّفخِ، مُشِيرًا بالبناءِ للمفعولِ إلىٰ هوانِه لديه وخِفَّتِه عليه، مُؤذِنًا بأداةِ التحقُّقِ أنَّه لا بدَّ من وقوعِه: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾(٣).

الفاءُ لتسبُّبِ هذا الوعيدِ عن الأمرِ بالإنذارِ في قولِه: ﴿فَأَنذِرۡ﴾؛ أي: فأَنذِرِ المنذَرين، وأنذِرْهم وقتَ النَّقْرِ في الناقورِ، وما يقعُ يومئذ بالذين أُنذِروا فأعرَضوا عن التذكرة،

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٩٨).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٤٥).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٤٥-٤٦).

إذ الفاءُ يجبُ أن تكونَ مرتبطةً بالكلامِ الذي قبلها، ويجوزُ أن يكونَ معطوفًا على ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ بناءً على أنَّه أمرٌ بالصبر على أذى المشركين(١).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا تمَّمَ ما يتعلَّقُ بإرشادِ قدوةِ الأنبياءِ وهو محمدٌ ﷺ، عدَل عنه إلى شرحِ وعيدِ الأشقياءِ وهو هذه الآية(٢).

﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾

ولمَّا ذكر هذا الشرطَ هل الذي صوَّره بصورةٍ هائلةٍ؛ أجابه بقولِه: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾(٣).

ثم أشار إلى وقتِ النَّقْرِ، فقال: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾.

﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾

فكأنَّه قيل: يومٌ عسيرٌ لمن؟ فقيل: ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾.

﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١﴾

ولمَّا آذن هذا بأنَّ أكثرَ الخلقِ يُوافِي يومَ القيامةِ على كفرِه، وخُبْثِ طَوِيَّتِه وسُوءِ أمرِه، وكان ذلك ممَّا يهمُّ لشفقتِه ﷺ على الخلقِ، ولِما يعلمُ من نصبِهم للعداوةِ؛ هوَّن أمرَهم عليه، وحقَّر شأنَهم لديه، بوعدِه بالكفايةِ بقولِه مستأنِفًا، مُنبِّهًا على أسبابِ الهلاكِ التي أعظمُها الغرورُ، وهو شبهةٌ زوجتُها شهوةٌ: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٠٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٠٢).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٤٧).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٤٧-٤٨).

لمَّا جرىٰ ذِكرُ الكافرين في قولِه: ﴿ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾، وأُشِيرَ إلىٰ ما يلقاه الرسولُ ﷺ من الكافرين بقولِه: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ ﴾؛ انتقل الكلامُ إلىٰ ذِكْرِ زعيمٍ من زعماءِ الكافرين، ومُدبِّرِ مطاعنِهم في القرآن ودعوةِ الرسولِ ﷺ، وقولُه: ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ ﴾ استئنافٌ يُؤذِنُ بأنَّ حَدَثًا كان سببًا لنزولِ هذه الآيةِ عَقِبَ الآياتِ التي قبلها، وذلك حين فشا في مكَّةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ عاوَده الوحيُ بعد فترةٍ، وأنَّه أُمر بالإنذار[1].

﴿ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ ﴾

ولمَّا كان المُطغِي للإنسانِ المكنةَ التي قطبُ دائرتِها المالُ، قال: ﴿ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴾[2].

﴿ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ ﴾

ولمَّا كان أولُ ما يمتدُّ إليه النفسُ بعد كثرةِ المالِ الولدَ، وكان أحبُّ الولدِ الذَّكَرَ، قال: ﴿ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴾[3].

﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤ ﴾

ولمَّا كان هذا كنايةً عن سَعةِ الرزقِ وعِظَمِ الجاهِ، وكان مَن بُسط له في المالِ والولدِ والجاهِ تتوقُ نفسُه إلىٰ إتمامِ ذلك بالحفظِ والتيسيرِ؛ قال مستعطفًا لِما كان هكذا بالتذكيرِ بنِعَمِه: ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٠٢).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٤٨).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٤٩).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٤٩).

﴿ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ ﴾

ولمَّا كان قد فعل به ذلك سبحانه، فأورَثَتْه هذه النِّعمةُ من البَطَرِ والاستكبارِ علىٰ مَن خوَّله فيها ضِدَّ ما كان ينبغي له من الشُّكرِ والازدجارِ، قال مُحقِّقًا أنَّه سبحانه هو الذي وهَبَها له وهو الواحدُ القهارُ، مُشيرًا بأداةِ التراخي إلىٰ استبعادِ الزيادةِ له علىٰ حالتِه هذه من عدمِ الشُّكرِ: ﴿ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴾(١).

﴿ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: إنَّه لَيطمعُ في ذلك لأنَّ المالَ والجاهَ يَجُرَّانِ الشرفَ والعَظَمةَ بأيسرِ سعيٍ، هذا هو المعروفُ المتداوَلُ المألوفُ؛ استأنف زجرَه عن ذلك بمجامعِ الزَّجرِ؛ عَلَمًا من أعلامِ النُّبُوَّة، وبرهانًا قاطعًا علىٰ صحَّةِ الرسالة، فقال ما لا يصحُّ أن يقولَه غيرُه سبحانه؛ لأنَّه -مع أنَّه لا تردُّدَ فيه ولا افتراءَ- طابَقَ الواقعَ، فلم يَزِدْ بعدَ ذلك شيئًا، بل لم يَزَلْ في نقصانٍ حتىٰ هلَك، وتمَّتْ كلماتُ ربِّك صدقًا وعدلًا، لا مُبدِّلَ لكلماتِه: ﴿ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴾(٢).

ثم ردَعه اللهُ سبحانه وزجَره، فقال: ﴿ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴾(٣).

﴿ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا محزًّا للتشوُّفِ إلىٰ بيانِ هذا الرَّدعِ، وكان العنادُ غِلْظةً في الطَّبعِ، وشكاسةً في الخُلُقِ يُوجِبُ النَّكدَ والمشقَّةَ؛ جعل جزاءَه من جنسِه، فقال: ﴿ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾(٤).

(١) نظم الدرر (٢١/ ٥٠).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٥٠-٥١).
(٣) فتح القدير (٥/ ٣٩١).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٥١-٥٢).

جملةٌ معترِضةٌ قُصد بها تعجيلُ الوعيدِ له مساءةً له، وتعجيلُ المسرَّةِ للنبيِّ ﷺ[١].

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨﴾

ولمَّا حصل التشوُّفُ إلىٰ بعضِ ما عاند به الآياتِ، قال مُبيِّنًا لذلك، مُؤكِّدًا لاستبعادِ العقلاءِ لِما صنَع؛ لبُعْدِه عن الصوابِ، ومعرفةِ كلِّ ذي لُبٍّ أنَّه كذبٌ: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾[٢].

جملةُ ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ مُبيِّنةٌ لجملةِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ١٦﴾، فهي تكملةٌ وتبيينٌ لها[٣].

تعليلٌ للوعيدِ واستحقاقِه له، أو بيانٌ لعنادِه لآياتِه تعالىٰ[٤].

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ١٩﴾

ولمَّا كان تفكيرُه وتقديرُه قد أوقَع غيرَه في الهلاكِ بمنعِه من حياةِ الإيمانِ، أُصيبَ هو بما منعه من حياةٍ نافعةٍ في الدَّارينِ، وذلك هو الهلاكُ الدائمُ، ولمَّا كان الضَّارُّ إنَّما هو الهلاكُ لا كونُه من مُعيَّنٍ، سبَّب عن ذلك بانيًا للمفعولِ قولَه مُخبِرًا وداعيًا دعاءً مُجابًا لا يمكنُ تخلُّفُه: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[٥].

قولُه: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كلامٌ معترض بين ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ وبين ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾، وهو إنشاءُ شتمٍ مُفرَّعٌ علىٰ الإخبارِ عنه بأنَّه فكَّر وقدَّر؛ لأنَّ الذي ذُكر يُوجِبُ الغضبَ عليه،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٠٦).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٥٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٠٧).

(٤) إرشاد العقل السليم (٩/ ٥٧).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ٥٣).

فالفاءُ لتفريعِ ذمِّه عن سيِّئِ فعلِه، والتفريعُ لا ينافي الاعتراضَ؛ لأنَّ الاعتراضَ وضعُ الكلامِ بين كلامينِ مُتَّصِلينِ مع قطعِ النظرِ عمَّا تألَّف منه الكلامُ المعترِض، فإنَّ ذلك يجري علىٰ ما يتطلَّبُه معناه، والداعي إلىٰ الاعتراضِ هو التعجيلُ بفائدةِ الكلامِ للاهتمامِ بها(١).

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢٠﴾

ولمَّا كان وقوعُه في هذا الطعنِ عظيمًا جدًّا؛ لِما فيه من الكذبِ المفضوحِ، ومِن معاندةِ مَن هو القويُّ المتينُ، المنتقمُ القهَّارُ العظيمُ، ومن غيرِ ذلك من الوجوهِ المبعدةِ عن الوقوعِ فيه؛ أكَّد المعنىٰ زجرًا عن مثلِه، وحثًّا علىٰ التوبةِ منه، فقال مُعبِّرًا بأداةِ البُعْدِ دلالةً علىٰ عَظَمةِ هذا القتلِ بالتعبيرِ بها وبالتَّكرار: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾(٢).

قولُه: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تأكيدٌ لنظيرِه المفرَّعِ بالفاءِ، والعطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ يفيدُ أنَّ جملتَها أرقىٰ رتبةً من التي قبلها في الغرضِ المَسُوقِ له الكلامُ، فإذا كان المعطوفُ بها عينَ المعطوفِ عليه، أفادت أنَّ معنىٰ المعطوفِ عليه ذو درجاتٍ متفاوتةٍ مع أنَّ التأكيدَ يَكسِبُ الكلامَ قُوَّةً(٣).

﴿ثُمَّ نَظَرَ ٢١﴾

ولمَّا كان الماهرُ بالنظرِ إذا فكَّر وصحَّح فِكْرَه نظَر في لوازمِه، قال مُشِيرًا إلىٰ طولِ تَرَوِّيه: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٠٨).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٥٣).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٠٩).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٥٣-٥٤).

قولُه: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ عطفٌ على ﴿وَقَدَّرَ﴾، وهي ارتقاءٌ مُتَوالٍ فيما اقتضى التعجيبَ من حالِه والإنكارَ عليه، فالتراخي تراخي رتبةٍ لا تراخي زمنٍ[(١)].

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢﴾

ولمَّا كان مَن فعل كذلك، فظهر له فسادُ رأيِه، ووقَف مع حظِّ نفسِه، يصيرُ يعبسُ ويفعلُ أشياءَ تتغيَّرُ لها خِلْقَتُه من غيرِ اختيارِه؛ قال: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾[(٢)].

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ٢٣﴾

ولمَّا كان هذا النظرُ على هذا الوجهِ أمدحَ شيءٍ للمنظورِ فيه إذا لم يُوصَلْ منه إلى طعنٍ، وكان ظاهرُه أنَّه لتَطلُّبِ الحقِّ، فكان الإصرارُ معه على الباطلِ في غايةِ البُعْدِ؛ قال دالًّا على ذلك من المدحِ وعدمِ وجدانِ الطعنِ، مُعبِّرًا بأداةِ البُعْدِ: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾[(٣)].

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ٢٤﴾

وعطَف قولَه: ﴿فَقَالَ﴾ بالفاءِ؛ لأنَّ هذه المقالةَ لمَّا خطَرتْ ببالِه بعد اكتدادِ فِكْرِه، لم يتمالكْ أن نطق بها، فكان نطقُه بها حقيقًا بأن يُعطَفَ بحرفِ التعقيب، وصيغةُ الحصرِ في قولِه: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ مُشعِرةٌ بأنَّ استقراءَ أحوالِ القرآنِ بعدَ السَّبْرِ والتقسيمِ أنتج له أنَّه من قبيل السِّحْر، فهو قصرُ تعيينٍ لأحدِ الأقوالِ التي جالت في نفسِه؛ لأنَّه قال: ما هو بكلامِ شاعرٍ، ولا بكلامِ كاهنٍ، ولا بكلامِ مجنونٍ. ووُصف

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٠٩).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٥٤).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٥٥).

هذا السِّحرُ بأنَّه مأثورٌ؛ أي: مَرْويٌّ عن الأقدمين، يقولُ هذا ليدفعَ به اعتراضًا يَرِدُ عليه أنَّ أقوالَ السَّحَرةِ وأعمالَهم ليست مُماثِلةً للقرآنِ ولا لأحوالِ الرسولِ، فزعَم أنَّه أقوالٌ سِحْرِيَّةٌ غيرُ مألوفةٍ[١].

لمَّا ولَّىٰ واستكبر، ذكر هذه الشُّبهةَ، ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[٢].

الفاءُ للدَّلالةِ علىٰ أنَّ هذه الكلمةَ لمَّا خطَرتْ ببالِه، تَفوَّهَ بها من غيرِ تَلَعْثُمٍ وتلبُّثٍ[٣].

ثم ذكر قولَه فيه، ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾

ولمَّا كان السامعُ يجوزُ أن يكونَ مأثورًا عن اللهِ، فيُوجِبُ له ذلك الرغبةَ فيه؛ قال من غيرِ عاطفٍ كالمُبيِّنِ للأولِ والمُؤكِّدِ له، وساقه علىٰ وجهِ التأكيدِ بالحصرِ؛ لعلمِه أنَّ كلَّ ذي بصيرةٍ يُنكِرُ كلامَه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[٤].

جملةُ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ بدلُ اشتمالٍ من جملةِ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ بأنَّ السِّحرَ يكونُ أقوالًا وأفعالًا، فهذا من السِّحرِ القوليِّ، وهذه الجملةُ بمنزلةِ النتيجةِ لِما تقدَّم؛ لأنَّ مقصودَه من ذلك كلِّه أنَّ القرآنَ ليس وحيًا من الله[٥].

تأكيدٌ لِما قبله؛ ولذلك أُخلِيَ عن العاطفِ[٦].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣١٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٠٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٥٨).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٥٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣١٠).

(٦) إرشاد العقل السليم (٩/ ٥٨).

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ٢٦﴾

ولمَّا انقضىٰ بيانُ عنادِه، فحصل التشوُّفُ لتفصيلِ جزائِه في معادِه، قال مُبيِّنًا لبعضِ ما أفهَمه إرهاقُه الصَّعُودَ: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[(١)].

جملةُ ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨﴾ إلىٰ آخرِ الآياتِ، فذكر وعيده بعذابِ الآخرة[(٢)].

ولمَّا قال هذا القولَ الذي حكاه اللهُ عنه، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[(٣)].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧﴾

ولمَّا أثبت له هذا العذابَ، عظَّمه وهوَّلَه بقولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾[(٤)].

ثم بالَغ سبحانه في وصفِ النارِ وشِدَّةِ أمرِها، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾[(٥)].

﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾

ولمَّا أثبت لها هذه العَظَمةَ، زادها عِظَمًا ببيانِ فعلِها دونَ شرحِ ماهيَّتِها، فقال: ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾[(٦)].

ثم فسَّر حالَها، فقال: ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾، والجملةُ مستأنَفةٌ لبيانِ حالِ سَقَرَ، والكشفِ عن وصفِه[(٧)].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٥٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣١٠).
(٣) فتح القدير (٥/ ٣٩٣).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٥٩).
(٥) فتح القدير (٥/ ٣٩٣).
(٦) نظم الدرر (٢١/ ٥٩).
(٧) فتح القدير (٥/ ٣٩٣).

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ٢٩﴾

ولمَّا كان تغيُّرُ حالِ الإنسانِ إلىٰ دون ما هو عليه غائظًا له مُوجِعًا، إذا كان ذلك تغيَّر لونُه؛ لأنَّ الظاهرَ عنوانُ الباطنِ؛ قال اللهُ تعالىٰ دالًّا علىٰ شِدَّةِ فعلِها في ذلك: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ (١).

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾

ثم بعد وصفِها، ذكَر عددَ خَزَنَتِها، فقال: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ٣١﴾

ولمَّا كان هذا غيرَ مُميِّزٍ للمعدودِ، وكانت الحكمةُ في تعيينِ هذا العدد غيرَ ظاهرةٍ، وكان هذا العددُ ممَّا يَستقِلّه المتعنِّتُ فيزيدُه كفرًا؛ قال تعالىٰ مُبيِّنًا لذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ (٢).

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ تتميمٌ في إبطالِ توهُّمِ المشركين حقارةَ عددِ خَزَنةِ النارِ، وهو كلامٌ جارٍ علىٰ تقديرِ الأسلوبِ الحكيمِ؛ إذ الكلامُ قد أثار في النفوسِ تساؤلًا عن فائدةِ جعلِ خَزَنةِ جهنَّمَ تسعةَ عشرَ، وهلَّا كانوا

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٦٠).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٦٢).

آلافًا ليكونَ مرآهم أشدَّ هَوْلًا علىٰ أهلِ النار، أو هلَّا كانوا مَلَكًا واحدًا؛ فإنَّ قوىٰ الملائكةِ تأتي كلَّ عملٍ يُسخِّرُها اللهُ له، فكان جوابُ هذا السؤالِ: أنَّ هذا العددَ قد أظهر لأصنافِ الناسِ مبلغَ فهمِ الكفارِ للقرآن، وإنما حصلت الفتنةُ من ذِكْرِ عددِهم في الآيةِ السابقة[1].

لمَّا نزل قولُه تعالىٰ: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾، قال أبو جهلٍ لقريش: ثَكِلَتْكُم أُمَّهاتُكم! قال ابنُ أبي كَبْشةَ: إنَّ خَزَنةَ النارِ تسعةَ عشرَ، وأنتم الجمعُ العظيمُ؛ أيَعجِزُ كلُّ عشرةٍ منكم أن يبطشوا برجلٍ منهم؟! فقال أبو الأشدِّ بنُ أُسَيدِ بنِ كَلَدةَ الجُمَحيُّ -وكان شديدَ البطشِ-: أنا أكفيكم سبعةَ عشرَ، واكفُوني أنتم اثنينِ! فلمَّا قال أبو الأشدِّ بنُ أُسَيدٍ ذلك، قال المسلمون: وَيْحَكُمْ لا تُقاسُ الملائكةُ بالحدَّادين! فجرىٰ هذا مَثَلًا في كلِّ شيئينِ لا يُسوَّىٰ بينهما، والمعنىٰ: لا تُقاسُ الملائكةُ بالسَّجَّانين، والحدَّادُ: السَّجَّانُ الذي يحبسُ النارَ، فأنزل اللهُ تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾[2].

﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ٣٢﴾

ولمَّا كان حصرُها في الذِّكرىٰ ربما أوهَم نقصًا في أمرِها، يُوجِبُ لبعضِ المعانِدين رِيبةً في عِظَمِها، وأنَّه لا حقيقةَ لها ولا عذابَ فيها؛ قال رادعًا من ذلك، ومُنبِّهًا علىٰ الاستعدادِ والحذرِ بكلمةِ الرَّدعِ والتنبيهِ: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ﴾[3].

ثم ردَع سبحانه المكذِّبين وزجَرهم، فقال: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣١٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٠٩).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٦٧-٦٨).

(٤) فتح القدير (٥/ ٣٩٧).

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣﴾

ثم أقسَم بالليلِ بعد أن أقسَم بآيتِه، فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾.

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤﴾

هذه ثلاثةُ أيمانٍ لزيادةِ التأكيدِ، فإنَّ التأكيدَ اللفظيَّ إذا أُكِّدَ بالتَّكرارِ، يُكرَّرُ ثلاثَ مرَّاتٍ غالبًا، أقسم بمخلوقٍ عظيمٍ، وبحالينِ عظيمينِ من آثارِ قدرةِ الله تعالىٰ، ومناسبةُ القَسَمِ بالقمرِ وبالليلِ إذ أدبَر والصُّبحِ إذا أسفَر: أنَّ هذه الثلاثةَ تظهرُ بها أنوارٌ في خلالِ الظلامِ، فناسَبتْ حالَي الهدىٰ والضلالِ من قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾، ومن قولِه: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ٣١﴾، ففي هذا القَسَمِ تلويحٌ إلىٰ تمثيلِ حالِ الفريقينِ من الناسِ عند نزولِ القرآنِ بحالِ اختراقِ النُّورِ في الظُّلْمةِ[1].

ثم أقسَم بالصُّبحِ الذي يَعقُبُ الليلَ، فقال: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾.

﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ٣٥﴾

ولمَّا أقسَم علىٰ ما أخبر به من ذِكْراها، وأكَّده لإنكارِهم العظيمِ لبلاياها؛ استأنف تعظيمَها والتخويفَ منها، تأكيدًا للتخويفِ لِما تقدَّم من الإنكارِ، فقال: ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ﴾[2].

جملةُ ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ﴾ تعليلٌ للإنكارِ الذي أفادَتْه ﴿كَلَّا﴾، ويكونُ ضميرُ ﴿إِنَّهَا﴾ عائدًا إلىٰ ﴿سَقَرَ﴾؛ أي: هي جديرةٌ بأن يُتَذكَّرَ بها؛ فلذلك كان مَن لم يتذكَّرْ بها حقيقًا بالإنكارِ عليه وردعِه[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٢٢).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٦٨-٦٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٢١).

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ٣٦﴾

ولمَّا كانت سَقَرُ عظمىٰ العظائمِ، ناسَبتْ أن تكونَ نذارةً للبشرِ، وكفىٰ بها نذيرًا، وذلك قولُه: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾

ولمَّا كان التقدُّمُ عند الناسِ -لا سِيَّما العربِ- محبوبًا، والتأخُّرُ مكروهًا، وكان ﷻ قد خلق في الإنسانِ قُوَّةً واختيارًا بها يفعلُ ما قدَّره اللهُ له، وغطَّىٰ عنه علمَ العاقبةِ حتىٰ صار الفعلُ يُنسَبُ إليه وإن كان إنما هو بخلقِ الله؛ قال تعالىٰ باعثًا لهم علىٰ الخيرِ ومُبعِّدًا من الشَّرِّ، مستأنِفًا أو مُبدِلًا جوابًا لمن يقولُ: وما عسىٰ أن نفعلَ، أو ينفعَ الإنذارُ، وقد قال: إنَّه هو الهادي المُضِلُّ، يُضِلُّ اللهُ مَن يشاءُ ويهدي مَن يشاءُ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾[١].

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨﴾

ولمَّا كان التقدُّمُ والتأخُّرُ بالأفعالِ، وكان أكثرُ أفعالِ الإنسانِ الشَّرَّ؛ لِما جُبل عليه من النقصانِ، قال مُبيِّنًا لِما يُقدَّمُ وما يُؤخَّرُ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٢].

استئنافٌ بيانيٌّ يُبيِّنُ للسامعِ عُقبَىٰ الاختيارِ الذي في قولِه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾؛ أي: كلُّ إنسانٍ رَهْنٌ بما كسَب من التقدُّمِ أو التأخُّرِ أو غيرِ ذلك، فهو علىٰ نفسِه بصيرةٌ ليكسبَ ما يُفضِي به إلىٰ النَّعيم أو إلىٰ الجحيم[٣].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٦٩-٧٠).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٧٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٢٤).

﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩﴾

ولمَّا كان الرَّهْنُ تارةً يُفَكُّ وتارةً يُغلَقُ، وكان أكثرُ الخلقِ هالكًا؛ جُعل رهينةً بمعنىٰ: هالكةٍ، ثم استثنىٰ الممدوحَ، فقال: ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾[1].

﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠﴾

ولمَّا أخرجهم عن حكمِ الارتهانِ الذي أُطلِقَ علىٰ الإهلاكِ لأنَّه سببُه، استأنف بيانَ حالِهم، فقال: ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾[2].

الجملةُ استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ ممَّا قبله من استثناءِ أصحابِ اليمينِ، كأنَّه قيل: ما بالُهم؟ فقيل: هم ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾[3].

﴿عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤١﴾

فكأنَّه قيل: عن أيِّ شيءٍ يتساءلون؟ فقيل: ﴿عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢﴾

ولمَّا كان يومُ القيامةِ في غايةِ الصُّعوبةِ، وكان أحدٌ مشغولًا بنفسِه، فكان لا علمَ له بتفاصيلِ ما يتَّفِقُ لغيرِه، وكان أولياءُ اللهِ إذا دخلوا دارَ كرامتِه أرادوا العلمَ بما فُعل بأعدائِهم فيه سبحانه، فتساءلوا عن حالِهم، فقال بعضُهم لبعضٍ: لا علمَ لنا، فكشف اللهُ لهم عنهم حتىٰ رأَوْهم في النارِ وهي تُسعَّرُ بهم؛ ليُقِرَّ اللهُ أعينَهم بعذابِهم،

(١) نظم الدرر (٢١/ ٧١).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٧١-٧٢).
(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٦١).

زيادةً في نعيمِهم وثوابِهم، كما تقدَّم في «الصَّافَّاتِ» عند قولِه: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾، وكان بساطُ الكلامِ دالًّا على هذا كلِّه؛ أشار لنا سبحانه إليه بقولِه حكايةً عمَّا يقولُ لهم أولياؤهم توبيخًا وتعنيفًا وشماتةً وتقريعًا، تصديقًا لقولِه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ الآيةَ، ولتكونَ حكايةُ ذلك موعظةً للسامعين، وذكرى للذاكرين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾[1].

﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾

فحكى اللهُ أنَّهم لمَّا سألوهم، ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾[2].

فأجابوهم ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾

ولمَّا نفَوُا الوصلةَ بالخالقِ، أتبَعوه إفسادَ القُوَّةِ العمليَّةِ بعدمِ وصلةِ الخلائقِ بتركِ الشَّفَقةِ على خلقِ اللهِ، فقالوا: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾[3].

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ولمَّا سلَبهم التحلِّيَ بلباسِ الأولياءِ، أثبت لهم التحلِّيَ بلباسِ الأشقياءِ، بإفسادِ القُوَّةِ النُّطقيَّةِ، جامعًا القولَ إلى الفعلِ، فقالوا: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٧٢-٧٣).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٧٣).
(٣) نظم الدرر (٢١/ ٧٥).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٧٥).

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٤٦﴾

ولمَّا كان الإدمانُ على الباطلِ يَجُرُّ إلى غلبةِ الهُزْءِ والسُّخريَّةِ، وغلبةُ ذلك ولا بدَّ تُوجِبُ إفسادَ القُوَّةِ العلميَّةِ بتصديقِ الكذبِ وتكذيبِ الصِّدقِ؛ قالوا بيانًا لاستحبابِهم الخلودَ: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾(١).

وأجاب المجرِمون بذِكْرِ أسبابِ الزَّجِّ بهم في النارِ؛ لأنَّهم ما ظنُّوا إلَّا ظاهرَ الاستفهامِ، فذكروا أربعةَ أسبابٍ هي أصولُ الخطايا؛ وهي: أنَّهم لم يكونوا من أهلِ الصلاة، فحرَموا أنفسَهم من التقرُّبِ إلى الله، وأنَّهم لم يكونوا من المُطْعِمين المساكينَ، وذلك اعتداءٌ على ضعفاءِ الناسِ بمنعِهم حقَّهم في المالِ، وأنَّهم كانوا يخوضون خوضَهم المعهودَ الذي لا يعدو عن تأييدِ الشرك وأذى الرسولِ ﷺ والمؤمنين، وأنَّهم كذَّبوا بالجزاءِ فلم يتطلَّبوا ما يُنجِيهم؛ وهذا كنايةٌ عن عدمِ إيمانِهم، سلكوا بها طريقَ الإطنابِ المناسِب لمقامِ التحسُّرِ والتلهُّفِ على ما فاتَ، فكأنَّهم قالوا: لأنَّا لم نكنْ من المؤمنين؛ لأنَّ أهلَ الإيمانِ اشتهَروا بأنَّهم أهلُ الصلاةِ، وبأنَّهم في أموالِهم حقٌّ معلومٌ للسائلِ والمحرومِ، وبأنَّهم يؤمنون بالآخرةِ وبيومِ الدينِ ويُصدِّقون الرُّسلَ(٢).

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧﴾

ولمَّا كان التقديرُ: واستمرَّ تكذيبُنا لصيرورتِه لنا أوصافًا ثابتةً، بنَوْا عليه قولَهم: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٧٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٢٧).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٧٦).

جملةُ ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ غايةٌ للجملِ الأربعِ التي قبلها من قولِه: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ إلىٰ: ﴿بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ (١).

﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ٤٨﴾

ولمَّا أقرُّوا علىٰ أنفسِهم بما أوجَب العذابَ الدائمَ، فكانوا ممَّن فسَد مِزاجُه فتعذَّر علاجُه؛ سبَّب عنه قولَه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ (٢).

﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ٤٩﴾

ولمَّا كان هذا الإخبارُ بنعيمِ المنعَّمِ وعذابِ المعذَّبِ مُوجِبًا للتذكُّر، سبَّب عنه الإنكارَ عليهم، فقال: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ (٣).

تفريعٌ للتعجيبِ من إصرارِهم علىٰ الإعراضِ عن ما فيه تذكرةٌ، وجِيءَ باسمِ «التذكرةِ» الظاهرِ، دون أن يُؤتَىٰ بضميرٍ نحوِ أن يُقالَ: «عنها مُعرِضين»؛ لئلَّا يختصَّ الإنكارُ والتعجيبُ بإعراضِهم عن تذكرةِ الإنذارِ بسَقَرَ، بل المقصودُ التعميمُ لإعراضِهم عن كلِّ تذكرةٍ، وأعظمُها تذكرةُ القرآنِ (٤).

﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ٥٠﴾

وزاد ذلك عَجَبًا شِدَّةُ نفارِهم في إعراضِهم عن التذكرةِ، حتىٰ ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾ (٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٢٨).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٧٦).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٧٦-٧٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٢٩).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ٧٧).

ثم شبَّبهم في نفورِهم عن القرآنِ بالحُمُرِ، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾[١].

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾

ولمَّا كان ذلك لا يكونُ إلَّا لسببٍ عظيمٍ يُتَشوَّفُ إليه، استأنف قولَه: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾[٢].

جملةُ ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ بيانٌ لسببِ نفورِها[٣].

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾

ولمَّا كان الجوابُ قطعًا: لا شيءَ لهم في إعراضِهم هذا، أضرَب عنه بقولِه: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾[٤].

إضرابٌ انتقاليٌّ لذِكْرِ حالةٍ أخرىٰ من أحوالِ عنادِهم؛ إذ قال أبو جهلٍ وعبدُ اللهِ بنُ أبي أُميَّةَ وغيرُهما من كفارِ قريشٍ للنبيِّ ﷺ: لا نؤمنُ لك حتىٰ يأتيَ إلىٰ كلِّ رجلٍ مِنَّا كتابٌ فيه: «من اللهِ إلىٰ فلانِ بنِ فلانٍ»، وهذا من أفانينِ تكذيبِهم بالقرآنِ أنَّه مُنزَّلٌ من اللهِ[٥].

عطفٌ علىٰ مُقدَّرٍ يقتضيه المقامُ، كأنَّه قيل: لا يكتفون بتلك التذكرةِ ولا يَرْضَوْنَ بها، بل يريدُ كلُّ واحدٍ منهم أن يُؤتَىٰ قراطيسَ تُنشَرُ وتُقرأُ، وذلك أنَّهم قالوا لرسولِ اللهِ ﷺ: لن نتَّبِعَك حتىٰ تأتيَ كلَّ واحدٍ مِنَّا بكتبٍ من السماءِ عنوانُها: «مِن ربِّ العالمين إلىٰ فلانِ بنِ فلانٍ»، نُؤمَرُ فيها باتِّباعِك[٦].

---

(١) فتح القدير (٥/ ٤٠٠).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٧٨).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٣٠).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٧٨).
(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٣١).
(٦) إرشاد العقل السليم (٩/ ٦٣).

إضرابٌ انتقاليٌّ عن محذوفٍ هو جوابُ الاستفهامِ السابق، كأنَّه قيل: فلا جوابَ لهم عن هذا السؤالِ؛ أي: لا سببَ لهم في الإعراضِ، ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾(١).

﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ٥٣﴾

ولمَّا كان ذلك إنما هو تعنُّتٌ، لا أنَّه علىٰ حقيقتِه، قال: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾(٢).

﴿كَلَّا﴾ إبطالٌ لظاهرِ كلامِهم ومرادِهم منه، وردعٌ عن ذلك؛ أي: لا يكونُ لهم ذلك، ثم أضرَب علىٰ كلامِهم بإبطالٍ آخرَ بحرفِ الإضرابِ، فقال: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ٥٣﴾؛ أي: ليس ما قالوه إلَّا تنصُّلًا، فلو أُنزِلَ عليهم كتابٌ، ما آمنوا، وهم يخافون الآخرةَ؛ أي: لا يؤمنون بها، فكُنِّيَ عن عدمِ الإيمانِ بالآخرةِ بعدمِ الخوفِ منها؛ لأنَّهم لو آمنوا بها لخافوها، إذ الشأنُ أن يُخافَ عذابُها إذا كانت إحالتُهم الحياةَ الآخرةَ أصلًا لتكذيبِهم بالقرآنِ(٣).

ثم ردَعهم اللهُ سبحانه عن هذه المقالةِ وزجَرهم، فقال: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾(٤).

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ٥٤﴾

ولمَّا كان فعلُهم هذا فعلَ مَن يعتقدُ في القرآنِ أنَّه ليس بوعظٍ صحيحٍ يَستحِقُّ أن يُتَّبَعَ، قال رادعًا لهم عن هذا اللازمِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾(٥).

---

(١) فتح البيان (١٤/ ٤٢٣).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٧٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٣١).

(٤) فتح القدير (٥/ ٤٠٠).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ٧٨-٧٩).

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ ثانٍ مُؤكِّدٌ للردعِ الذي قبله؛ أي: لا يُؤْتَوْنَ صُحُفًا منشورةً، ولا يُوزَعون إلَّا بالقرآنِ، وجملةُ ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ تعليلٌ للرَّدعِ عن سؤالِهم أن تُنزَّلَ عليهم صُحُفٌ مُنشَّرةٌ، بأنَّ هذا القرآنَ تذكرةٌ عظيمةٌ[1].

ثم كرَّر الرَّدعَ والزَّجرَ لهم، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾[2].

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾

ولمَّا كان في غايةِ السهولةِ والحلاوةِ لكُلِّ مَن عرَفه بوجهٍ من الوجوهِ، وكان اللهُ سبحانه قد خلق القوىٰ والقُدَرَ، وجعل للعبدِ اختيارًا؛ قال مُسبِّبًا عن كونِه موضعًا للتذكُّرِ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾[3].

قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ تفريعٌ علىٰ أنَّه تذكرةٌ وتعريضٌ بالترغيبِ في التذكُّرِ[4].

﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ۝٥٦﴾

ولمَّا كان هذا ربما أوهَم أنَّ للعبدِ استقلالًا بالتصرُّف، قال مُعلِمًا بأنَّ هذا إنما هو كنايةٌ عمَّا له من السهولةِ والحلاوةِ والعذوبةِ التي تُوجِبُ عشقَه لكُلِّ ذي لُبٍّ، مُنبِّهًا علىٰ تركِ الإعجابِ، وإظهارِ الذُّلِّ والالتجاءِ والافتقارِ إلىٰ العزيزِ الغفَّارِ في طلبِ التوفيقِ لأقومِ طريقٍ: ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٣٢).

(٢) فتح القدير (٥/ ٤٠١).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٧٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٣٢).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ٨٠).

جملـةُ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ معترِضـة في آخـرِ الكـلامِ لإفـادةٍ تُعلِمُهـم بهـذه الحقيقةِ، والواوُ اعتراضيةٌ(١).

ثم رَدَّ سبحانه المشيئةَ إلىٰ نفسِه، فقال: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٣٢).

(٢) فتح القدير (٥/ ٤٠١).

سُورَةُ القِيَامَةِ

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾

ولـمَّا كان من المقرَّرِ المعلومِ الذي هو في أقصىٰ غاياتِ الظُّهورِ أنَّ مَن طلبه المَلِكُ طلبَ عرضٍ وحسابٍ وثوابٍ وعقابٍ، يلومُ نفسَه في كونِه لم يُبالِغْ في العملِ بما يُرضِي المَلِكَ، والإخلاصِ في مُوالاتِه، والتحيُّزِ إليه ومُصافاتِه، وكان أكثرُ لَوْمِ النَّفسِ واقعًا في ذلك اليومِ، وكان إدراكُها لِلَّوْمِ المرتَّبِ علىٰ إدراكِ الأمورِ الكُلِّيَّةِ والجزئيَّةِ، ومعرفةِ الخيرِ والشَّرِّ، والتمييزِ بينهما- من أعظمِ الدلائلِ علىٰ تمامِ قدرةِ الخالقِ وكمالِ عظمتِه، الموجِبِ لإيجادِ ذلك اليومِ لإظهارِ عظمتِه وحُكْمِه وحكمتِه؛ قال: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾(1).

ومناسبةُ القَسَمِ بها مع يومِ القيامة: أنَّها النفوسُ ذاتُ الفوزِ في ذلك اليومِ(2).

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣﴾

ولـمَّا كان التقديرُ قطعًا بما يُرشِدُ إليه جميعُ ما مضىٰ جوابًا للقَسَمِ: إنَّك واللهِ صادقٌ في إنذارِك، فلا بدَّ أن يُنقَرَ في النَّاقورِ بالنَّفخِ في الصُّورِ؛ قال بانيًا عليه بعد الإشارةِ إلىٰ تعظيمِ أمرِ القيامة، بما دلَّ عليه حذفُ الجوابِ من أنَّها في وضوحِ الأمرِ وتحتُّمِ

---

(1) نظم الدرر (21/ 85-86).

(2) التحرير والتنوير (29/ 339).

الكونِ علىٰ حالةٍ لا تخفىٰ علىٰ أحدٍ، مُنكِرًا علىٰ مَن يَشُكُّ فيها بعد ذلك: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾[1].

قولُه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ إلخ، دليلٌ علىٰ جوابِ القَسَمِ، إذ تقديرُ الجوابِ: لَنَجمَعَنَّ عظامَكم، ونبعثُكم للحسابِ[2].

ثم أخبَر مع هذا أنَّ بعضَ المعانِدين يُكذِّبُ بيومِ القيامة، فقال: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾[3].

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾

ولمَّا أسنَد الحُسْبانَ إلىٰ النوعِ؛ لأنَّ منهم مَن يقولُ: لا نُبعَثُ لأنَّنا نتفتَّتُ وننمحقُ؛ قال مُجيبًا له: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[4].

فرَدَّ عليه بقولِه: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[5].

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥﴾

ولمَّا تقدَّم ما أشار إلىٰ أنَّ القيامةَ في غايةِ الظُّهور، أضرَب عن هذا الإنكارِ، فقال بانيًا علىٰ ما تقديرُه: إنَّه لا يحسبُ عدمَ ذلك؛ لأنَّه من الظُّهورِ في حدٍّ لا يحتاجُ إلىٰ كبيرِ تأمُّلٍ، فلو مشىٰ مع عقلِه عرَف الحقَّ: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾[6].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٨٧).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٣٩).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٩٨).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٨٨).
(٥) تفسير السعدي (ص: ٨٩٨).
(٦) نظم الدرر (٢١/ ٨٩-٩٠).

﴿بَلْ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ إلىٰ ذِكْرِ حالٍ آخرَ من أحوالِ فجورِهم، فموقعُ الجملةِ بعد ﴿بَلْ﴾ بمنزلةِ الاستئنافِ الابتدائيِّ للمناسبةِ بين معنىٰ الجملتينِ؛ أي: لمَّا دُعُوا إلىٰ الإقلاعِ عن الإشراكِ وما يستدعيه من الآثامِ، وأُنذِروا بالعقابِ عليه يومَ القيامةِ؛ كانوا مُصمِّمين علىٰ الاسترسالِ في الكفرِ(١).

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦﴾

ولمَّا كان عريقًا في التلبُّسِ بهذا الوصف، أنتَج له الاستهزاءَ بهذا الخَطْبِ الأعظمِ، فترجم ذلك بقولِه: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾(٢).

يجوزُ أن تكونَ هذه الجملةُ مُتَّصِلةً بالتي قبلها علىٰ أنَّها بدلُ اشتمالٍ منها؛ لأنَّ إرادتَه الاسترسالَ علىٰ الفجورِ يشتملُ علىٰ التهكُّمِ بيومِ البعثِ، أو علىٰ أنَّها بدلٌ مُطابِقٌ علىٰ تفسيرِ ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ بالتكذيبِ بيومِ البعث، ويجوزُ أن تكونَ مستأنفةً للتعجيبِ من حالِ سؤالِهم عن وقتِ يومِ القيامةِ، وهو سؤالُ استهزاءٍ؛ لاعتقادِهم استحالةَ وقوعِه(٣).

استئنافٌ بيانيٌّ جِيءَ به تعليلًا لإرادةِ الدَّوامِ علىٰ الفجورِ(٤).

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾

ولمَّا كان الجوابُ: يومَ يكونُ كذا وكذا، عدل عنه إلىٰ ما سبَّب عن استبعادِه لأنَّه أَهْوَلُ، فقال دالًّا علىٰ خرابِ العالمِ لتجرُّدِ الإنسانِ عن مسكنِه وما أَلِفَه من أحوالِه، فيكونُ أهولَ، مُعبِّرًا بأداةِ التحقُّقِ لأنَّها موضعُها: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٤١).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٩١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٤٣).

(٤) إرشاد العقل السليم (٩/ ٦٥).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ٩١).

عُدل عن أن يُجابوا بتعيينِ وقتٍ ليومِ القيامةِ إلىٰ أن يُهدَّدوا بأهوالِه؛ لأنَّهم لم يكونوا جادِّين في سؤالِهم، فكان من مقتضىٰ حالِهم أن يُنذَروا بما يقعُ من الأهوالِ عندَ حلولِ هذا اليومِ مع تضمينِ تحقيقِ وقوعِه، فإنَّ كلامَ القرآنِ إرشادٌ وهدىٰ ما يتركُ فرصةً للهدىٰ والإرشادِ إلَّا انتهزها، وهذا تهديدٌ في ابتدائِه جاء في صورةِ التعيينِ لوقتِ يومِ القيامةِ إيهامًا بالجوابِ عن سؤالِهم، كأنَّه حملٌ لكلامِهم علىٰ خلافِ الاستهزاءِ علىٰ طريقةِ الأسلوبِ الحكيمِ، وفيه تعريضٌ بالتوبيخِ علىٰ أنْ فرَّطوا في التوقِّي من ذلك اليومِ واشتغلوا بالسؤالِ عن وقتِه، فإنَّ هذه الأحوالَ المذكورةَ في الآيةِ ممَّا يقعُ عند حلولِ الساعةِ وقيامِ القيامةِ، فكان ذلك شيئًا من تعيينِ وقتِه بتعيينِ أشراطِه[1].

ثم إنَّه تعالىٰ ذكَر علاماتِ القيامة، فقال: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾[2].

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾﴾

ولمَّا كانت آياتُ السماواتِ أخوفَ، ذكَرها بادئًا بما طبعُه البردُ؛ إشارةً إلىٰ شِدَّةِ الحرِّ والتوهُّجِ والأخذِ بالأنفاسِ المُوجِبِ لشِدَّةِ اليأسِ، فقال: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾[3].

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾

ولمَّا ذكَر ذهابَ نورِ القمرِ، ذكَر ذهابَ ضوءِ الشمسِ مع القمر، فقال: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٤٣-٣٤٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٢٣).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٩٢).

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ١٠﴾

ولمَّا عظَّم أمرَ القيامةِ بما تقدَّم، أكَّد ذلك بأنَّ الأمرَ فيه على غيرِ ما نعهدُه في الدنيا؛ من وجدانِ مهربٍ، أو حاكمٍ غيرِ الذي يخافُه المطلوبُ، أو شيءٍ من تشعُّبِ الكلمةِ وتفرُّقِها، فقال: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ (١).

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ١١﴾

ولمَّا كان ذلك اليومُ يومَ انقطاعِ الأسباب، قال نافيًا بما سأل عنه بأداةِ الرَّدعِ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (٢).

يجوزُ أن يكونَ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ كلامًا مستأنفًا من جانبِ اللهِ تعالىٰ جوابًا لمقالةِ الإنسان، أي: لا وَزَرَ لك، فينبغي الوقفُ علىٰ ﴿ٱلْمَفَرُّ﴾، ويجوزُ أن يكونَ من تمامِ مقالةِ الإنسان؛ أي: يقولُ: أين المفرُّ؟ ويُجِيبُ نفسَه بإبطالِ طمعِه فيقولُ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾؛ أي: لا وزرَ لي، وذلك بأن نظَر في جهاتِه فلم يجدْ إلَّا النارَ كما ورد في الحديثِ، فيَحسُنُ أن يُوصَلَ ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ بجملةِ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (٣).

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ١٢﴾

ولمَّا كان المعنىٰ: لا مفرَّ من اللهِ إلَّا إليه؛ لأنَّ مُلْكَه محيطٌ، وقدرتَه شاملةٌ؛ قال مُترجِمًا عنه، ذاكرًا صفةَ الإحسانِ لَوْمًا لنفسِه علىٰ عدمِ الشُّكرِ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ (٤).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٩٣).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٩٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٢٥).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٩٣).

استئنافٌ كالتعليلِ للجملةِ قبله، أو تحقيقٌ وكشفٌ لحقيقةِ الحال، والخطابُ فيه لسيِّدِ المخاطَبين ﷺ، ولا يَحسُنُ أن يكونَ من جملةِ ما يُخاطَبُ به القائلُ ذلك اليومَ، ولا ممَّا يقولُه لنفسِه فيه؛ لمكانِ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾[1].

﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۢ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣﴾

ولمَّا كان موضعُ السؤالِ عن عِلَّةِ هذا الاستقرار، قال مستأنِفًا بانيًا للمفعولِ؛ لأنَّ المُنكِيَ إنَّما هو كشفُ الأسرارِ، لا كونُه من كاشفٍ مُعيَّنٍ، وللدلالةِ علىٰ يُسْرِ ذلك عليه ﷻ بأنَّ مَن ندبه إلىٰ ذلك فعَله، كائنًا مَن كان: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۢ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[2].

جملةُ ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۢ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا أثاره قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾، أو بدلُ اشتمالٍ من مضمونِ تلك الجملة؛ أي: إلىٰ اللهِ مصيرُهم، وفي مصيرِهم يُنبَّؤون بما قدَّموا وما أخَّروا[3].

﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤﴾

ولمَّا عظَّم القيامةَ بكشفِ الأسرارِ فيها والإنباءِ بها، وكان الشأنُ أنَّ الإنسانَ لا يُنبَّأُ إلَّا بما هو جاهلٌ له أو غائبٌ عنه، وكان ممَّا يَخِفُّ علىٰ الإنسانِ في الدنيا النِّسيانُ، وكان ذلك اليومُ يومَ كشفِ الغطاءِ؛ زاده عِظَمًا بالإعلامِ بأنَّه يجلو بصيرةَ الإنسانِ، حتىٰ يصيرَ مُستحضِرًا لجميعِ ما له من شأنٍ، فكان التقديرُ: وليس جاهلًا بشيءٍ من ذلك، ولا مُحتاجًا إلىٰ الإنباءِ به؛ قال بانيًا عليه: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾[4].

---

(١) روح المعاني (١٥/ ١٥٥).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٩٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٤٦).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٩٥).

إضـرابٌ انتقـاليٌّ، وهـو للتَّرقِّـي مـن مضـمونِ ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ إلـىٰ الإخبارِ بأنَّ الكافرَ يعلمُ ما فعله؛ لأنَّهم تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يعملون[١].

لمَّا قال: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ بأعمالِه، قال: بل لا يحتاجُ إلىٰ أن يُنبِّئَه غيرُه؛ وذلك لأنَّ نفسَه شاهدةٌ بكونِه فاعلًا لتلك الأفعال[٢].

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾

ولمَّا كان الإنسانُ يعتذرُ في ذلك اليومِ عن كلِّ سوءٍ عَمِلَه، ويجادلُ أعظمَ مجادلةٍ، وكان المُجادِلُ في الغالبِ يظنُّ أنَّه لم يُذنِبْ أو لا يعلمُ له ذنبًا؛ قال: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[٣].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾

ولمَّا كان معنىٰ هذا كلِّه أنَّ الإنسانَ محجوبٌ في هذه الدارِ عن إدراكِ الحقائقِ، بما فيه من الحظوظِ والكسلِ والفتورِ؛ لِما فيه من النقائصِ، وكان النبيُّ ﷺ مُبرأً من ذلك؛ لخلقِ اللهِ له كاملًا، وترقيتِه بعد ميلادِه كلَّ يومٍ في مراقي الكمالِ، حتىٰ صار إلىٰ حدٍّ لا يشغلُه عن العلومِ شيءٌ، فكان بحيث يرىٰ مواقعَ الفِتَنِ خلالَ البيوتِ كمواقعِ القَطْرِ، ويرىٰ مِن ورائِه كما يرىٰ مِن أمامِه، ويقولُ: «واللهِ لا يخفىٰ عليَّ خشوعُكم ولا ركوعُكم، إنِّي أراكم من وراءِ ظهري»[٤]، وكان ﷺ يرىٰ في أشدِّ

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٤٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٢٦).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٩٦).

(٤) أخرجه البخاري (٧٤١)، ومسلم (٤٢٤).

الظلامِ وغيرِ ذلك ممَّا له ﷺ من رِقَّةِ الجوهرِ الذي لم يَنَلْه أحدٌ غيرُه؛ وذلك ممَّا يدلُّ على الكشفِ التَّامِّ، ولكنَّه كان ﷺ لتعظيمِه لهذا القرآنِ؛ لِما له في نفسِه من الجلالةِ، ولِما فيه من خزائنِ السعادةِ والعلومِ التي لا حدَّ لها فتُستقصىٰ، ولأنَّه كلامُ المَلِكِ الأعظمِ، وبأمرِه نزل إليه ﷺ مع رسولِه جبريلَ عليه السلام، يُعالِجُ عند سماعِه أولَ ما يأتيه شِدَّةً، فكان يُحرِّكُ به لسانَه استعجالًا بتعهُّدِه؛ ليحفظَه، ولا يَشِذَّ عنه منه شيءٌ، وكان قد ختم سبحانه ما قبلها بالمعاذيرِ، وكانت العَجَلةُ ممَّا يُعتذَرُ عنه، وكان الحاملُ علىٰ جميعِ ما يُوجِبُ الملامةَ والاعتذارَ ما طُبع عليه الإنسانُ من حُبِّ العاجلِ؛ قال سبحانه نتيجةً عن هذه المقدِّماتِ المُوجِبةِ لانكشافِ الأشياءِ للإنسانِ، المُوجِبِ للإخبارِ بها، والخوفِ من عواقبِها؛ لئلَّا يميلَ إلىٰ العاجلةِ، ولا يقعَ في مخالفةٍ لولا ما شغَله به من الحُجُبِ إعلامًا بأنَّه تعالى قد دفع عن النبيِّ ﷺ تلك الحُجُبَ، وأوصَله من رتبةِ «لو كُشف الغطاءُ ما ازددتُ يقينًا»[(١)] إلىٰ أنهاها، وأنَّه قادرٌ علىٰ ما يريدُ من كشفِ ما يريدُ لمن يريدُ كما يكشفُ لكُلِّ إنسانٍ عن أعمالِه في القيامة حتىٰ يصيرَ يعرفُ ما قدَّم منها وما أخَّر، وتنبيهًا علىٰ أنَّه ﷺ لا كسبَ له في هذا القرآنِ بغيرِ حُسْنِ التلقِّي؛ إبعادًا له عن قولِ البشرِ، وتمهيدًا بما يُحرِّكُ من لسانِه بالقرآنِ قبل تمامِ الإلقاءِ لذمِّ ما طُبع عليه الإنسانُ: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾[(٢)].

لمَّا ذكَر مُنكِرَ القيامةِ والبعثِ مُعرِضًا عن آياتِ اللهِ تعالىٰ ومعجزاتِه، وأنَّه قاصرٌ شهواتِه علىٰ الفجورِ، غيرَ مُكترثٍ بما يصدرُ منه؛ ذكَر حالَ مَن يثابرُ علىٰ تعلُّمِ آياتِ اللهِ وحفظِها وتلقُّفِها والنظرِ فيها وعرضِها علىٰ مَن يُنكِرُها رجاءَ قبولِه إيَّاها، فظهر بذلك تَبايُنُ مَن يرغبُ في تحصيلِ آياتِ الله ومَن يرغبُ عنها[(٣)].

---

(١) نسبه ابن القيم في "مدارج السالكين" (٣/ ١٧٦) إلىٰ عامر بن عبد قيس.

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٩٧-٩٩).

(٣) البحر المحيط (١٠/ ٣٥٠).

واعلَمْ أنَّ في بيانِ المناسبةِ وجوهًا؛ أولُها: يحتملُ أن يكونَ الاستعجالُ المنهيُّ عنه إنما اتَّفَق للرسولِ ﷺ عند إنزالِ هذه الآيات عليه، فلا جَرَمَ نُهي عن ذلك الاستعجالِ في هذا الوقتِ، وقيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، وهذا كما أن المدرِّسَ إذا كان يُلقِي علىٰ تلميذِه شيئًا، فأخذ التلميذُ يلتفتُ يمينًا وشمالًا، فيقولُ المدرِّسُ في أثناءِ ذلك الدرسِ: لا تلتفتْ يمينًا وشمالًا، ثم يعودُ إلىٰ الدرسِ، فإذا نقَل ذلك الدرسَ مع هذا الكلامِ في أثنائِه، فمَن لم يعرفِ السببَ يقولُ: إنَّ وقوعَ تلك الكلمةِ في أثناءِ ذلك الدرسِ غيرُ مناسبٍ، لكنَّ مَن عرَف الواقعةَ علِمَ أنَّه حسنُ الترتيبِ. وثانيها: أنَّه تعالىٰ نقل عن الكفارِ أنَّهم يُحِبُّون السعادةَ العاجلةَ، وذلك هو قولُه: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، ثم بيَّن أنَّ التعجيلَ مذمومٌ مطلقًا، حتىٰ التعجيلُ في أمورِ الدينِ، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، وقال في آخرِ الآيةِ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾. وثالثُها: أنَّه تعالىٰ قال: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، فها هنا كان الرسولُ ﷺ يُظهِرُ التعجيلَ في القراءةِ مع جبريلَ، وكان يجعلُ العذرَ فيه خوفَ النسيانِ، فكأنَّه قيل له: إنَّك إذا أتيتَ بهذا العذرِ لكنَّك تعلمُ أنَّ الحفظَ لا يحصلُ إلَّا بتوفيقِ اللهِ وإعانتِه، فاترُكْ هذا التعجيلَ، واعتمِدْ علىٰ هدايةِ اللهِ تعالىٰ، وهذا هو المرادُ من قولِه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾. ورابعُها: كأنَّه تعالىٰ قال: يا محمدُ، إنَّ غرضَك من هذا التعجيلِ أن تحفظَه وتُبلِّغَه إليهم، لكنْ لا حاجةَ إلىٰ هذا؛ فإنَّ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾، وهم بقلوبِهم يعلمون أنَّ الذي هم عليه -من الكفرِ، وعبادةِ الأوثانِ، وإنكارِ البعثِ- مُنكَرٌ باطلٌ، فإذا كان غرضُك من هذا التعجيلِ أن تُعرِّفَهم قُبْحَ ما هم عليه، ثم إنَّ هذه المعرفةَ حاصلةٌ عندهم، فحينئذ لم يَبْقَ لهذا التعجيلِ فائدةٌ، فلا جَرَمَ قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾. وخامسُها: أنَّه تعالىٰ حكىٰ عن الكافرِ أنَّه يقول: أين المفرُّ؟ ثم قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، فالكافرُ كأنَّه كان يَفِرُّ من اللهِ تعالىٰ إلىٰ غيرِه، فقيل لمحمدٍ ﷺ: إنَّك في

طلبِ حفظِ القرآنِ تستعينُ بالتَّكرار، وهذا استعانةٌ منك بغيرِ الله، فاترُكْ هذه الطريقةَ، واستَعِنْ في هذا الأمرِ بالله، فكأنَّه قيل: إنَّ الكافرَ يَفِرُّ من اللهِ إلىٰ غيرِه، وأمَّا أنت فكُنْ كالمضادِّ له، فيجبُ أن تَفِرَّ من غيرِ اللهِ إلىٰ اللهِ، وأن تستعينَ في كلِّ الأمورِ بالله، حتىٰ يحصلَ لك المقصودُ علىٰ ما قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، وقال في سورةٍ أخرىٰ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾؛ أي: لا تَستعِنْ في طلبِ الحفظِ بالتَّكرارِ، بل اطلُبْه من اللهِ تعالىٰ. وسادسُها: ما ذكره القفَّالُ؛ وهو أنَّ قولَه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ ليس خطابًا مع الرسولِ ﷺ، بل هو خطابٌ مع الإنسانِ المذكورِ في قولِه: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، فكان ذلك للإنسانِ حالَ ما يُنبَّأُ بقبائحِ أفعالِه، وذلك بأن يُعرَضَ عليه كتابُه، فيُقالَ له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، فإذا أخذ في القراءةِ، تَلَجْلَجَ لسانُه من شِدَّةِ الخوفِ وسرعةِ القراءة، فيُقالُ له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾؛ فإنَّه يجبُ علينا بحكمِ الوعدِ أو بحكمِ الحكمةِ أن نجمعَ أعمالَك عليك وأن نقرأَها عليك، فإذا قرأناه عليك فاتَّبِعْ قرآنَه بالإقرارِ بأنَّك فعلتَ تلك الأفعالَ، ثم إنَّ علينا بيانَ أمرِه وشرحَ مراتبِ عقوبتِه. وحاصلُ الأمرِ من تفسيرِ هذه الآيةِ أنَّ المرادَ منه: أنَّه تعالىٰ يقرأُ علىٰ الكافرِ جميعَ أعمالِه علىٰ سبيلِ التفصيل، وفيه أشدُّ الوعيدِ في الدنيا، وأشدُّ التهويلِ في الآخرةِ، ثم قال القفَّالُ: فهذا وجهٌ حسنٌ، ليس في العقلِ ما يدفعُه، وإن كانت الآثارُ غيرَ واردةٍ به[(١)].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾

ثم علَّل هذا النهيَ بقولِه مُؤكِّدًا لأنَّه من مجراته: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾[(٢)].

(١) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٢٧).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٠٠).

لمَّا كان ﷺ، لمثابرتِه علىٰ ذلك، كان يبادرُ للتحفُّظِ بتحريكِ لسانِه؛ أخبره تعالىٰ أنَّه يجمعُه له ويُوضِّحُه(١).

📖 ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ١٨﴾ 📖

ولمَّا نهاه، أمَرَه، فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾(٢).

📖 ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ 📖

ولمَّا كان بيانُ كلماتِه ونظومِه علىٰ أيِّ وجهٍ سمعه من مِثْلِ صلصلةِ الجرسِ وغيرِها، وبيانُ معانيه وما فيه من خزائنِ العلمِ من العَظَمةِ بمكانٍ يَقصُرُ عنه الوصفُ؛ أشار إليه بأداةِ التراخي، فقال دالًّا علىٰ جوازِ تأخيرِ البيانِ عن وقتِ الخطابِ إلىٰ وقتِ الحاجةِ، مُشعِرًا بأنَّه كان يَعجَلُ بالسؤالِ عن المعنىٰ كما كان يعجلُ بالقراءةِ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾(٣).

📖 ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ٢٠﴾ 📖

ولمَّا كان سبحانه وتعالى قد ختم الكلامَ في المكذِّبين بأنَّ أعمالَهم محفوظةٌ، وأنَّ كلَّ أحدٍ علىٰ نفسِه شاهدٌ؛ لأنَّه يعلمُ جميلَ ما يفعلُ من قبيحِه وإن اعتذَر، ولولاه ما اشتدَّ اتِّصالُه به، وختم بضمانِ البيانِ للقرآن، فكان شاهدًا بيِّنًا علىٰ كلِّ إنسانٍ بما له من عظيمِ البيانِ؛ قال نافيًا لِما يظنُّ من جهلِهم بقبيحِ أفعالِهم الذي اقتضاه اعتذارُهم، مُشعِرًا بأنَّ الآدميَّ مطبوعٌ علىٰ الاستعجالِ بعد النهي عن العجلةِ في أعزِّ الأشياءِ وأعلاها،

---

(١) البحر المحيط (١٠/ ٣٥٠).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٠١).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٠١).

وأهمِّها وأولاها؛ لأنَّه أصلُ الدين، ليكونَ ذلك مُؤكِّدًا للنهي عن العجلةِ بالقرآنِ، ومُؤكِّدًا لذمِّهم بحُبِّ العاجلةِ، مُغلِّظًا لتوبيخِهم علىٰ الميلِ مع الطبعِ، وتركِ ما يقتضيه العلمُ والعقلُ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾(١).

رجوعٌ إلىٰ مَهيَعِ الكلامِ الذي بُنِيَتْ عليه السورةُ، كما يرجعُ المتكلِّمُ إلىٰ وصلِ كلامِه بعد أن قطَعه عارضٌ أو سائلٌ، فكلمةُ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وإبطالٌ؛ يجوزُ أن يكونَ إبطالًا لِما سبق من قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾، فأُعِيدَ ﴿كَلَّا﴾ تأكيدًا لنظيرِه، ووصلًا للكلام بإعادةِ آخرِ كلمةٍ منه، ويجوزُ أن يكونَ إبطالًا لِما تَضمَّنه قولُه: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾، فهو استئنافٌ ابتدائيٌّ، والمعنىٰ: أنَّ معاذيرَهم باطلةٌ ولكنَّهم يُحِبُّون العاجلةَ ويَذَرُونَ الآخرةَ؛ أي: آثَروا شهواتِهم العاجلةَ، ولم يحسبوا للآخرةِ حسابًا(٢).

لمَّا فرغ من خطابِه ﷺ، رجع إلىٰ حالِ الإنسانِ السابقِ ذِكْرُه المُنكِرِ البعثِ، وأنَّ همَّه إنما هو في تحصيلِ حُطامِ الدنيا الفاني، لا في تحصيلِ ثوابِ الآخرةِ؛ إذ هو مُنكِرٌ لذلك(٣).

﴿وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾

ولأجلِ تَضارُرِ الدَّارينِ، وكونِهم يُحِبُّون العاجلةَ، قال: ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾(٤).

فأنتَج عن محبَّةِ الدنيا والعملِ لها قولَه: ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٠٢-١٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٥١).

(٣) البحر المحيط (١٠/ ٣٥٠).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٠٤).

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢)﴾

ولمَّا ذكَر الآخرةَ التي أعرَضوا عنها، ذكَر ما يكونُ فيها بيانًا بجهلِهم وسَفَهِهم وقِلَّةِ عقلِهم؛ ترهيبًا لمن أدبر عنها، وترغيبًا لمن أقبل عليها، لُطْفًا بهم ورحمةً لهم، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾[(١)].

لمَّا وبَّخهم بحُبِّ العاجلةِ وتركِ الاهتمامِ بالآخرةِ، تخلَّص إلىٰ شيءٍ من أحوالِ الآخرةِ، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾[(٢)].

ثم ذكَر ما يدعو إلىٰ إيثارِ الآخرة، ببيانِ حالِ أهلِها وتفاوتِهم فيها، فقال في جزاءِ المُؤْثِرين للآخرة علىٰ الدنيا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾[(٣)].

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾

وأخبر عنها خبرًا ثانيًا بقولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وظاهرُ لفظِ ﴿نَاظِرَةٌ﴾ أنَّه مِن نَظَرَ بمعنىٰ: عايَن ببصرِه؛ إعلانًا بتشريفِ تلك الوجوهِ أنَّها تنظرُ إلىٰ جانبِ الله تعالىٰ نظرًا خاصًّا، لا يشاركُها فيه مَن يكونُ دون رُتَبِهم[(٤)].

ولمَّا ذكَر أنَّ وجوهَهم بَهِيَّةٌ مُتهلِّلةٌ، ذكَر ما تسبَّب في كونِها بهذه الهيئةِ؛ وهو النظرُ إلىٰ وجهِ اللهِ الكريمِ في جنَّاتِ النعيم، فقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤)﴾

ولمَّا ذكَر أهلَ النِّعمة، أتبَعه أضدادَهم من أهلِ النِّقمةِ، فقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٠٤).
(٢) البحر المحيط (١٠/ ٣٥٠).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٩٩).
(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٥٣).
(٥) نظم الدرر (٢١/ ١٠٦).

ثم قال في المُؤْثِرين العاجلةَ على الآجِلة: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾[(١)].

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

ولمَّا كان ظنُّ الشَّرِّ كافيًا في الحذرِ منه، والمبالغةِ في استعمالِ ما يحمي منه، قال دالًّا على أنَّه عبَّر بالوجهِ عن الجملة: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[(٢)].

جملةُ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لبيانِ سببِ بُسُورِها[(٣)].

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾

ولمَّا ذكَر محبَّتَهم للعاجلةِ بالمضارعِ الدَّالِّ على التجدُّدِ والاستمرار، فاقتضى ذلك أنَّه حُبٌّ غيرُ مُنفَكٍّ التجدُّدِ أصلًا؛ أخبَر أنَّه ينقطعُ عن هَوْلِ المُطَّلَعِ مع الدلالةِ على تمامِ القدرة، وأنَّه لا يُرَدُّ قضاؤه، فقال رادعًا لمن يظنُّ عدمَ انقطاعه: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾[(٤)].

ردعٌ ثانٍ على قولِ الإنسانِ: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾، مُؤكِّدٌ للردعِ الذي قبله في قولِه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾، ومعناه زجرٌ عن إحالةِ البعث، فإنَّه واقعٌ غيرُ بعيدٍ، فكُلُّ أحدٍ يشاهدُه حينَ الاحتضارِ للموت؛ أتبَع توصيفَ أشراطِ القيامةِ المباشرةِ لحلولِه بتوصيفِ أشراطِ حلولِ التهيُّؤِ الأولِ للقائِه من مفارقةِ الحياة الأولى، فحالةُ الاحتضارِ هي آخرُ أحوالِ الحياةِ الدنيا، يَعقُبُها مصيرُ الرُّوح إلى تصرُّفِ الله تعالى مباشرةً، وهو ردعٌ عن إيثارِ الدنيا على الآخرة، كأنَّه قيل: ارتَدِعوا وتنبَّهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطعُ العاجلةُ وتنتقلون إلى الآجلةِ، فيكونُ ردعًا على محبَّةِ

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٩٠٠).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٠٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٥٦).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٠٧).

العاجلةِ وتركِ العنايةِ في الآخرة، فليس مُؤكِّدًا للردعِ الذي في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾، بل هو ردعٌ على ما تضمَّنه ذلك الردعُ من إيثارِ العاجلةِ على الآخرة(١).

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧)﴾

ولمَّا كان أهلُ الميت يشتدُّ انزعاجُهم إذ ذاك، ويشتدُّ تطلُّبُهم لِما يُنجِي المُحتضَرَ من غيرِ أن يفيدَهم ذلك شيئًا، فكان قولُهم كأنَّه لا قائلَ له على التعيين؛ بُني للمفعولِ قولُه: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾(٢).

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨)﴾

ولمَّا كان الإنسانُ مطبوعًا على الترجُّحِ بين الأمورِ الممكنة يتعلق، لِما يغلبُ عليه من طبعِ الإلف، وشِدَّةِ الرُّكون لِما يألفُه بأدنى شيءٍ؛ عبَّر عمَّا هو أهلٌ للتحقُّقِ بالظَّنِّ، فقال: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾(٣).

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩)﴾

ثم ذكَر أماراتِ الفِراق، فقال: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠)﴾

ولمَّا صوَّر وقتَ تأسُّفِه على الدنيا وإعراضِه عنها، ذكَر غايةَ ذلك، فقال مُفردًا النبيَّ ﷺ بالخطابِ؛ إشارةً إلى أنَّه لا يفهمُ هذا حقَّ فهمِه غيرُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٥٦).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٠٨).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٠٩).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١١٠).

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ بيانٌ للرَّدع، وتقريبٌ لإبطالِ الاستبعاد المَحْكيِّ عن مُنكِري البعثِ بقولِه: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[(١)].

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾

ولمَّا ذكَر كراهتَه للآخرة، ذكَر أنَّ سببَه إفسادُه ما آتاه اللهُ من قوىٰ العلمِ والعملِ، بتعطيلِهما عن الخيرِ، واستعمالِهما في الشَّرِّ، فقال مُبيِّنًا عملَ العبدِ المُوافِقِ والآبقِ، عاطفًا علىٰ ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ﴾ الذي معناه جحدُ البعثِ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾[(٢)].

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾

ولمَّا نفىٰ عنه أفعالَ الخير، أثبَت له أفعالَ الشَّرِّ، فقال: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[(٣)].

ثم أكَّد ذلك بذِكْرِ ما يُضادُّه بقولِه تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[(٤)].

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾

ولمَّا كان الإصرارُ علىٰ هذا عظيمًا، يَبعُدُ كلَّ البُعْدِ أن يعملَه أحدٌ؛ فكيف بالافتخارِ به والتكبُّرِ لأجلِه؟ أشار إليه بأداةِ البُعْدِ، فقال مُؤذِنًا بأنَّ الحاملَ علىٰ التكذيبِ الكِبْرُ، والحاملَ علىٰ الكِبْرِ التَّرَفُ، وسببُ ذلك: الانقيادُ أولًا مع الطبعِ في إفسادِ القُوَّتينِ العمليَّةِ والعلميَّةِ، حتىٰ نشأ عنهما هذا الخُلُقُ السَّيِّئُ؛ وهو عدمُ المبالاة، ولم يزلْ به ذلك حتىٰ صار مَلَكةً يفتخرُ به: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٥٧).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ١١١).
(٣) نظم الدرر (٢١/ ١١١-١١٢).
(٤) روح المعاني (١٥/ ١٦٤).
(٥) نظم الدرر (٢١/ ١١٢).

هذا ذِكرٌ لِما يتعلَّقُ بدنياه بعد ذِكرِ ما يتعلَّقُ بدينه، و﴿ثُمَّ﴾ للاستبعادِ؛ لأنَّ مَن صدر عنه مثلُ ذلك ينبغي أن يخافَ من حلولِ غضبِ اللهِ به، فيمشيَ خائفًا منه مُتطامِنًا، لا فَرِحًا مُتبختِرًا(١).

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤﴾

ولمَّا كان هذا غايةَ الفجور، وكان أهلُ الإنسانِ يُحِبُّونه إذا أقبل إليهم؛ لا سِيَّما إذا كان علىٰ هذه الحالةِ عند أغلب الناس؛ أخبَر بما هو حقيقٌ أن يُقالَ له في موضعِ تحيَّةِ أهلِه من التهديدِ العظيم، فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾(٢).

ثم دعا عليه بقُرْبِ المكروهِ منه، فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾.

﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥﴾

وأبلَغ ذلك التأكيدَ إشارةً إلىٰ أنَّه يَستحِقُّه علىٰ مدىٰ الأعصار، فقال مُشيرًا بأداةِ التراخي إلىٰ عظيمِ ما ارتكب، وقُوَّةِ استحقاقِه لهذا التأكيدِ: ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾(٣).

قولُه: ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ تأكيدٌ للدعاءِ عليه ولتأكيده السابق، وجِيءَ بحرفِ ﴿ثُمَّ﴾ لعطفِ الجملةِ دلالةً علىٰ أنَّ هذا التأكيدَ ارتقاءٌ في الوعيد، وتهديدٌ بأشدَّ ممَّا أفاده التهديدُ وتأكيدُه(٤).

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾

ولمَّا كان هذا فعلَ مَن أعرض عن اللهِ أصلًا، فلم يَخطُرْ شيءٌ من عظمتِه علىٰ بالِه، فكان ظانًّا أنَّه مُهمَلٌ لا مالكَ له، وأنَّه هو السَّيِّدُ لا عبوديَّةَ عليه، فلا يُؤمَرُ ولا يُنهَىٰ،

---

(١) فتح البيان (١٤/ ٤٤٧).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١١٣).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١١٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٦٤).

ولا يعملُ إلَّا بمقتضىٰ شهواتِه؛ قال مُنكِرًا عليه، مُعبرًّا بالحسبانِ الذي الحاملُ عليه نقصُ العقلِ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[١].

استئنافٌ ابتدائيٌّ عاد به الكلامُ إلىٰ الاستدلالِ علىٰ إمكانِ البعث، وهو ما ابتُدئ به فارتبط بقولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾، فكأنَّه قيل: أيحسبُ أن لن نجمعَ عظامَه، ويحسبُ أن نتركَه في حالةِ العدم[٢].

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾

ولمَّا كان الإنسانُ يجري علىٰ ما في طبعِه من النقائصِ، فيَغفُلُ عمَّا خُلق له، فتتراكمُ عليه ظلماتُه، فيُبعِدُ عن علمِ ذلك إمَّا بجهلٍ بالحكمةِ أو بجهلٍ بالقدرة؛ رحمه سبحانه بإعادةِ البرهان علىٰ المعادِ بأمرٍ يجمعُ القدرةَ والحكمةَ، وذلك أنَّه لا يجوزُ في عقلِ عاقلٍ أنَّ صانعًا يصنعُ شيئًا ويتركُه ضياعًا وهو حكيمٌ أو حاكمٌ، فكيف بأحكمِ الحكماءِ والحاكمين؟ فقال مُنكِرًا عليه ظنَّه أنَّه يُهمِلُه سبحانه مع علمِه بصنائعِه المُحكَمةِ فيه، مُقرِّرًا أحوالَ بدايتِه التي لا يسوغُ معها إنكارُ إعادتِه؛ لأنَّها أدلُّ علىٰ أنَّه لا مانعَ منها أصلًا، حاذفًا نونَ الكونِ إعلامًا بأنَّ الأمرَ في هذه النتيجةِ العظمىٰ ضاقَ عن أقلِّ شيءٍ يمكنُ الاستغناءُ عنه، كراهيةَ التمادي من الموعوظِ علىٰ ما وُعظ لأجلِه فيحصل له الهلاكُ، وإشارةً إلىٰ مهانةِ أصلِه وحقارتِه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾[٣].

استئنافٌ هو عِلَّةٌ وبيانٌ للإنكارِ المَسُوقِ للاستدلالِ بقولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ الذي جُعل تكريرًا وتأييدًا لمضمونِ قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾؛

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١١٤-١١٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٦٤).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١١٥-١١٦).

أي: إنَّ خلقَ الإنسانِ من مادَّةٍ ضعيفةٍ، وتدرُّجَه في أطوارِ كيانِه دليلٌ علىٰ إثباتِ القدرةِ علىٰ إنشائِه إنشاءً ثانيًا بعد تفرُّقِ أجزائِه واضمحلالِها، فيتَّصِلُ معنىٰ الكلامِ هكذا: أيحسبُ الإنسانُ أن لن نجمعَ عظامَه ويُعَدُّ ذلك مُتعذِّرًا، ألم نبدأ خلقَه إذ كوَّنَّاه نطفةً ثم تطوَّر خلقُه أطوارًا؛ فماذا يُعجِزُنا أن نُعِيدَ خلقَه ثانيًا كذلك؟[1].

لمَّا ذكَر حالَه في الموتِ وما كان من حالِه في الدنيا، قرَّر له أحوالَه في بدايتِه ليتأمَّلَها، فلا يُنكِرَ معها جوازَ البعثِ من القبورِ[2].

استئنافٌ واردٌ لإبطالِ الحُسْبانِ المذكورِ، فإنَّ مدارَه: لمَّا كان استبعادُهم للإعادةِ، استدلَّ علىٰ تحقُّقِها ببدءِ الخلقِ[3].

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾

ولمَّا كان تكثيرُ تلك النُّطفةِ وتحويلُها أمرًا عظيمًا عجيبًا، أشار إليه بأداةِ البُعْدِ مع إفادتِها للتَّراخي في الزمانِ أيضًا، فقال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾[4].

وعُطف فعلُ ﴿كَانَ عَلَقَةً﴾ بحرفِ ﴿ثُمَّ﴾ للدلالةِ علىٰ التراخي الرُّتبيِّ، فإنَّ كونَه عَلَقةً أعجبُ من كونِه نُطْفةً؛ لأنَّه صار عَلَقةً بعد أن كان ماءً، فاختلط بما تُفرِزُه رَحِمُ الأنثىٰ من البُوَيضاتِ، فكان من مجموعِهما عَلَقةً، ولمَّا كان تكوينُه عَلَقةً هو مبدأَ خلقِ الجسمِ، عطف عليه قولَه: ﴿فَخَلَقَ﴾ بالفاء؛ لأنَّ العَلَقةَ يَعقُبُها أن تصيرَ مُضْغةً، إلىٰ أن يتمَّ خلقُ الجسدِ وتُنفَخَ فيه الرُّوحُ، وكذلك عطفُ ﴿فَسَوَّىٰ﴾ بالفاء[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٦٦).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ٣٥٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٦٩).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١١٦-١١٧).

(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٦٧).

﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ٣٩ ﴾

ولمَّا كان استبعادُهم للقيامة إمَّا لاستبعادِ القدرة علىٰ إعادةِ الأجزاء بعد تفرُّقِها، أو لاستبعادِ القدرةِ علىٰ تمييزِ ترابِها من ترابِ الأرضِ بعد الاختلاط، وكان تمييزُ النُّطفةِ إلىٰ ذكَرٍ وأنثىٰ كافيًا في ردِّ الاستبعادينِ؛ قال: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾[(١)].

وعقَّب ذلك بخلقِه ذكَرًا أو أنثىٰ زوجينِ، ومنهما يكونُ التناسلُ أيضًا[(٢)].

﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ٤٠ ﴾

ولمَّا تقرَّر من حيث إتقانُ الاصطناعِ أنَّه لا يجوزُ معه الإهمالُ وانقطاعُ النِّزاعِ، وكان ربما توقَّف مِن حيث ظنَّ عدمَ القدرةِ علىٰ ذلك بعد الموت؛ قال مُنبِّهًا علىٰ تمامِ القدرة، مُقرِّرًا عليه، مُنكِرًا علىٰ مَن يتوقَّفُ فيه، مُوبِّخًا له، مُرتِّبًا علىٰ ما قام علىٰ القدرة علىٰ الإعادة من دليل القدرةِ الشُّهوديِّ علىٰ البداية: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ واقعةٌ موقعَ النتيجةِ من الدليل؛ لأنَّ خلقَ جسمِ الإنسان من عدمٍ -وهو أمرٌ ثابتٌ بضرورة المشاهدة- أحقُّ بالاستبعادِ من إعادةِ الحياة إلىٰ الجسم بعد الموت، سواءٌ بقي الجسمُ غيرَ ناقصٍ، أو نقَص بعضُه أو معظمُه، فهو إلىٰ بثِّ الحياة فيه وإعادةِ ما فَنِيَ من أجزائِه أقربُ من إيجادِ الجسم من عدمٍ، وقد جاء في هذا الختامِ بمُحسِّنِ ردِّ العَجُزِ علىٰ الصدرِ، فإنَّ السورةَ افتُتِحت بإنكارِ أن يحسبَ المشركون استحالةَ البعث، وتسلسل الكلامُ في ذلك بأفانينَ من الإثباتِ والتهديدِ والتشريطِ والاستدلالِ، إلىٰ أن أفضىٰ إلىٰ استنتاجِ أنَّ اللهَ قادرٌ علىٰ أن يُحيِيَ الموتىٰ، وهو المطلوبُ.

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١١٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٦٨).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١١٨).

سُورَةُ الإِنسَانِ

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾

ولمَّا ذكَر مطلقَ خلقِه، وقرَّر أنَّه خلاصةُ الكونِ، شرَع يذكرُ كيفيَّةَ خلقِه، ويدلُّ على ما لزم من ذلك؛ من أنَّه ما خلق الخلقَ إلَّا لأجلِه، وأنَّه لا يجوزُ أن يُهمَلَ، فقال مُعلِمًا بالحالِ -التي هي قيدُ الجملةِ ومحطُّ الفائدةِ- أنَّه ما خُلق إلَّا للآخرة، مُفصِّلًا أمرَ الإيجادِ بالفاعلِ والصورةِ والمادَّةِ والغايةِ، وأكَّده لإنكارِهم له: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[(١)].

استئنافٌ بيانيٌّ مترتِّبٌ على التقريرِ الذي دلَّ عليه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ لِما فيه من التشويق، والتقريرُ يقتضي الإقرارَ بذلك لا محالةَ؛ لأنَّه معلومٌ بالضرورة، فالسامعُ يتشوَّفُ لِما يَرِدُ بعد هذا التقريرِ، فقيل له: إنَّ اللهَ خلقه بعد أن كان معدومًا، فأوجَد نطفةً كانت معدومةً ثم استخرج منها إنسانًا، فثبت تعلُّقُ الخلقِ بالإنسان بعد عدمِه[(٢)].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٢٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٧٣).

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾

ولـمَّا كان كأنَّه قيل: هَبْهُ خُلق هكذا، فكان ماذا؟ قال شفاءً لعِيِّ هذا السؤالِ، وبيانًا لنعمةِ الإمداد: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(١).

استئنافٌ بيانيٌّ لبيانِ ما نشأ عن جملةِ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾، ولتفصيلِ جملةِ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، وتخلُّصٌ إلىٰ الوعيدِ علىٰ الكفرِ والوعدِ علىٰ الشُّكر(٢).

ولـمَّا كان تمامُ المِنَّةِ بالسمعِ والبصرِ بهِبَةِ العقلِ، أشار إليه بقولِه سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(٣).

ثم ذكَر سبحانه أنَّه أعطاه ما يصحُّ معه الابتلاءُ، فقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(٤).

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾

ولـمَّا قسَّمهم إلىٰ القسمينِ، ذكَر جزاءَ كلِّ قسمٍ، فقال مستأنِفًا جوابَ مَن يسألُ عن ذلك، مُبشِّرًا للشاكرِ الذي استعدَّ بعُروجِه في مراقي العباداتِ إلىٰ مَلكوتِ العُلْويَّاتِ لـرَوْحٍ وريحانٍ وجنَّةِ نعيمٍ، ومُنذِرًا للكافر الذي استعدَّ بالهبوط في دركاتِ المخالَفات إلىٰ التقيُّدِ بالسُّفْليَّاتِ لنُزُلٍ من حميمٍ وتصليةِ جحيمٍ، مُقدِّمًا للعاصي لأنَّ طريقَ النَّشرِ المشوَّشِ أفصحُ، وليعادلَ البداءةَ بالشَّاكرِ في أصلِ التقسيمِ ليتعادلَ الخوفُ والرجاءُ، وليكونَ الشَّاكرُ أولًا وآخرًا، ولأنَّ الانقيادَ بالوعيدِ أتمُّ؛ لأنَّه أدلُّ

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٣٢-١٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٧٥).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٣٧٣).

(٤) فتح القدير (٥/ ٤١٦).

علىٰ القدرةِ؛ لا سِيَّما في حقِّ أهلِ الجاهليَّةِ الذين بعُدتْ عنهم معرفةُ التكاليف الشرعيَّة، وأكثَر في القرآنِ العظيمِ من الدعاءِ بالترغيب والترهيب؛ لأنَّه الذي يفهمُه الجُهَّالُ -الذين هم أغلبُ الناسِ- دون الحُجَجِ والبراهينِ، فإنَّها لا يفهمُها إلَّا الخواصُّ، وأكَّد لأجل تكذيبِ الكفارِ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾[1].

أُريد التخلُّصُ إلىٰ جزاءِ الفريقينِ الشاكرِ والكَفُورِ، والجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ يُثِيرُ تطلُّعَ السامعين إلىٰ معرفةِ آثارِ هذينِ الحالينِ المتردِّدِ حالُه بينهما، فابتُدئ بجزاءِ الكافر لأنَّ ذِكرَه أقربُ[2].

ثم بيَّن سبحانه ما أعدَّ للكافرين، فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾[3].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾

ولمَّا أوجَز في جزاءِ الكافر، أتبَعه جزاءَ الشَّاكرِ، وأطنَب فيه تأكيدًا للترغيب، فإنَّ النفوسَ بعد كسرِ الوعيدِ لها تهتزُّ لأدنىٰ وعدٍ وأقلِّه، فكيف بأتمِّه وأجلِّه؟ فقال مستأنِفًا مُؤكِّدًا لتكذيبِ الكافرِ، مُبيِّنًا بذِكرِ الخمرِ علىٰ هذه الصِّفةِ أنَّهم في أنهىٰ ما يكونُ من رَغَدِ العيشِ؛ لأنَّه يلزمُ من شربِها جميعُ مقدِّماتِها ومتمِّماتِها: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٣٤-١٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٧٧).

(٣) فتح القدير (٥/ ٤١٦).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٣٥-١٣٦).

هذا استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن الاستئنافِ الذي قبله من قولِه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ﴾ إلخ، فإنَّ مَن عرف ما أُعِدَّ للكَفُورِ من الجزاءِ، يتطلَّعُ إلىٰ معرفةِ ما أُعِدَّ للشَّاكرِ من الثواب، وأخَّر تفصيلَه عن تفصيلِ جزاءِ الكفور، مع أنَّ ﴿شَاكِرًا﴾ مذكورٌ قبلَ ﴿كَفُورًا﴾، علىٰ طريقةِ اللَّفِّ والنشرِ المعكوسِ؛ ليتَّسِعَ المجالُ لإطنابِ الكلامِ علىٰ صفةِ جزاءِ الشاكرين، وما فيه من الخيرِ والكرامة؛ تقريبًا للموصوفِ من المشاهدةِ المحسوسة(١).

ثم إنَّه تعالىٰ ذكَر ما أعدَّ للشاكرين الموحِّدين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾(٢).

شروعٌ في بيانِ حُسْنِ حالِ الشاكرين إثرَ بيانِ سوءِ حالِ الكافرين، وإيرادُهم بعنوانِ البرِّ للإشعارِ بما استحقُّوا به ما نالوه من الكرامةِ السَّنِيَّة(٣).

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ⁦(٦)⁩﴾

ولمَّا كان الكافورُ أعلىٰ ما نعهدُه جامدًا، بيَّن أنَّه هناك ليس كذلك، فقال مُبدِلًا من «كافور»: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾(٤).

وانتصَب ﴿عَيْنًا﴾ عن البدلِ من ﴿كَافُورًا﴾؛ أي: ذلك الكافورُ تجري به عينٌ في الجنَّةِ من ماءٍ محلولٍ فيه، أو من زيتِه(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٧٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٤٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٧١).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٣٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٨١).

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾

ولـمَّا ذكَر جزاءَهم علىٰ بِرِّهم المبيِّنِ لشكرِهم، أتبَعه تفصيلَه، فقال مستأنِفًا بيانًا لأنَّ شكرَهم بالتعظيمِ لأمرِ اللهِ، والشَّفقةِ علىٰ خلقِ اللهِ، وعمارةِ الظاهرِ والباطنِ؛ لأنَّهم جمعوا بين كرمِ الطَّبعِ ولطافةِ المِزاجِ، الحاملِ علىٰ تجويزِ الممكِن، المقتضِي للإيمانِ بالغيب: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[1].

اعتراضٌ بين جملةِ ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ إلخ، وبين جملةِ ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ إلخ، وهذا الاعتراضُ استئنافٌ بيانيٌّ هو جوابٌ عن سؤالٍ مِن شأنِ الكلامِ السابقِ أن يُثيرَه في نفسِ السامعِ المغتبِط بأن ينالَ مِثلَ ما نالوا من النعيمِ والكرامةِ في الآخرة، فيهتمَّ بأن يفعلَ مثلَما فعلوا، فذكَر بعضَ أعمالِهم الصالحةِ التي هي من آثارِ الإيمان، مع التعريضِ لهم بالاستزادةِ منها في الدنيا، والكلامُ إخبارٌ عنهم صادرٌ في وقتِ نزولِ هذه الآيات، بعضُه وصفٌ لحالِهم في الآخرة، وبعضُه وصفٌ لبعضِ حالِهم في الدنيا الموجِبِ لنوالِ ما نالوه في الآخرة[2].

استئنافٌ مَسُوقٌ لبيانِ ما لأجلِه رُزقوا ما ذكر من النعيمِ، مشتملٌ علىٰ نوعِ تفصيلٍ لِما يُنبِئُ عنه اسمُ «الأبرار» إجمالًا، كأنَّه قيل: ماذا يفعلون حتىٰ ينالوا تلك الرُّتبةَ العاليةَ؟ فقيل: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[3].

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾

ولـمَّا كان مَن خاف شيئًا سعىٰ في الأمنِ منه بكُلِّ ما عساه ينفعُ فيه، وكان قد ذكر تذرُّعَهم بالواجب، أتبَعه المندوبَ دلالةً علىٰ أنَّهم لا ركونَ لهم إلىٰ الدنيا ولا وثوقَ

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٣٧).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٨٢).
(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٧٢).

بها، فقد جمعوا إلىٰ كرم الطَّبع بالوفاءِ ورِقَّةِ القلبِ شرفَ النفسِ بالانسلاخِ من الفاني، فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾(١).

النوعُ الثالثُ من أعمالِ الأبرارِ قولُه تعالىٰ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾، واعلَمْ أنَّ مجامعَ الطاعاتِ محصورةٌ في أمرينِ: التعظيمُ لأمرِ اللهِ تعالىٰ، وإليه الإشارةُ بقولِه: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾، والشفقةُ علىٰ خلقِ اللهِ، وإليه الإشارةُ بقولِه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾(٢).

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾

والحالُ أنَّهم يقولون بلسانِ الحالِ أو القالِ إنِ احتِيجَ إليه إزاحةً لتوهُّمِ المَنِّ أو توقُّعِ المكافأةِ، مُؤكِّدين إشارةً إلىٰ أنَّ الإخلاصَ أمرٌ عزيزٌ لا يكادُ أحدٌ يُصدِّقُ أنَّه يتأتَّىٰ لأحدٍ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾(٣).

ويقصدون بإنفاقِهم وإطعامِهم وجهَ اللهِ تعالىٰ، ويقولون بلسانِ الحالِ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾(٤).

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾

ولمَّا كانت الأَنفُسُ مجبولةً علىٰ حُبِّ الجزاءِ والثناء، فكان لا يكادُ يُصدِّقُ أحدٌ أنَّ أحدًا يفعلُ ما لا يقصدُ به شيئًا من ذلك، وكان اللهُ ﷻ قد مَنَّ علينا بأنْ جعل العبادةَ لأجلِ خوفِه ورجائِه لا يقدحُ في الإخلاصِ؛ علَّلوا قولَهم هذا علىٰ وجهِ التأكيدِ بقولِهم: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٣٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٤٦).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٣٩).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٩٠١).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ١٤٠-١٤١).

جملةُ ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ واقعةٌ موقعَ التعليلِ لمضمونِ جملةِ ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾(١).

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾

ولمَّا كان فعلُهم هذا خالصًا للهِ، سبَّب عنه جزاءَهم، فقال مُخبِرًا أنَّه دفع عنهم المضارَّ، وجلَب لهم المسارَّ: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾(٢).

تفريعٌ علىٰ قولِه: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ إلىٰ ﴿قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾، وفي هذا التفريعِ تلوينٌ للحديثِ عن جزاءِ الأبرارِ وأهلِ الشُّكورِ، وهذا برزخٌ للتخلُّصِ إلىٰ عَوْدِ الكلامِ علىٰ حُسْنِ جزائِهم أنَّ اللهَ وقاهم شرَّ ذلك اليومِ، وهو الشَّرُّ المستطيرُ المذكورُ آنفًا، وقاهم إيَّاه جزاءً علىٰ خوفِهم إيَّاه، وأنَّه لقَّاهم نضرةً وسرورًا جزاءً علىٰ ما فعلوا من خيرٍ(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عنهم أنَّهم أتَوْا بالطاعاتِ لغرضينِ: طلبِ رضا اللهِ، والخوفِ من القيامة؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه أعطاهم هذينِ الغرضينِ، أمَّا الحفظُ من هَوْلِ القيامة فهو المرادُ بقولِه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾، وأمَّا طلبُ رضاءِ اللهِ تعالىٰ فأعطاهم بسببِه نضرةً في الوجهِ، وسرورًا في القلب(٤).

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾

وأشار إلىٰ المسكنِ بقولِه: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٨٦).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٤١).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٨٧).
(٤) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٤٩).
(٥) نظم الدرر (٢١/ ١٤٢).

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر أنَّه كفاهم المَخُوفَ وحبَاهم الجنَّةَ، أتبَعه حالَهم فيها وحالَها، فقال دالًّا علىٰ راحتِهم الدائمةِ: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾[1].

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا كانت ترجمةُ هذا كما مضىٰ: جنَّةٌ ظليلةٌ ومعتدلةٌ؛ عطَف عليه بالواوِ -دلالةً علىٰ تمكُّنِ هذا الوصفِ، وعلىٰ اجتماعِه مع ما قبله- قولَه: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾[2].

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ ﴾

ولمَّا كان الدَّورانُ بالآنيةِ مُتجدِّدًا، عبَّر فيه بالمضارعِ، وبناه للمفعولِ أيضًا لأنَّه المقصودُ مطلقًا من غير تعيينِ طائفٍ، فقال: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴾[3].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ إلخ، كما اقتضاه التناسبُ بين جملةِ ﴿ يَشْرَبُونَ ﴾ وجملةِ «يُطافُ عليهم» في الفعليَّةِ والمضارعيَّةِ، وذلك من أحسنِ أحوالِ الوصل، عاد الكلامُ إلىٰ صفةِ مجالسِ شرابِهم، هذه الجملةُ بيانٌ لِما أُجمل في جملةِ ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾، وإنما عُطفت عليها لِما فيها من مغايرةٍ مع الجملةِ المعطوفِ عليها من صفةِ آنيةِ الشرابِ، فلهذه المناسبةِ أعقَب ذِكرَ مجالسِ أهلِ الجنَّةِ ومُتَّكآتِهم، بذِكرِ ما يستتبعُه ممَّا تعارفه أهلُ الدنيا من أحوالِ أهلِ البذخِ والتَّرَفِ واللَّذَّاتِ بشربِ الخمرِ، إذ يُدِيرُ عليهم آنيةَ الخمرِ سُقاةٌ، وهذا وعدٌ لهم

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٤٢).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٤٣).
(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٤٤).

بإعطاءِ مُتمنَّاهم في الدنيا، مع مزيدٍ عليه من نعيمِ الجنَّةِ ما لا عينٌ رأَتْ، ولا خطَر علىٰ قلبِ بشرٍ[١].

لمَّا وصف طعامَهم ولباسَهم ومسكنَهم، وصَف بعد ذلك شرابَهم، وقدَّم عليه وصفَ تلك الأواني التي فيها يشربون، فقال: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾[٢].

﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ١٦﴾

ولمَّا كان هذا رأسَ آيةٍ، وكان التعبيرُ بالقارورةِ ربما أفهَم أو أوهَم أنَّها من الزُّجاج، وكان في الزُّجاج من النقصِ سرعةُ الانكسارِ لإفراطِ الصلابة؛ قال مُعيدًا للفظِ أولِ الآيةِ الثانية؛ تأكيدًا للاتِّصافِ بالصالح من أوصافِ الزُّجاج، وبيانًا لنوعِها: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾[٣].

ولفظُ ﴿قَوَارِيرَا۟﴾ الثاني، يجوزُ أن يكونَ تأكيدًا لفظيًّا لنظيرِه لزيادةِ تحقيقِ أنَّ لها رِقَّةَ الزُّجاجِ، فيكونَ الوقفُ علىٰ ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ الأول، ويجوزُ أن يكونَ تكريرًا لإفادةِ التصنيف، فإنَّ حُسْنَ التنسيقِ في آنيةِ الشرابِ من مُكمِّلاتِ رَوْنَقِ مجلسِه[٤].

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ١٧﴾

ولمَّا ذكَر الأكوابَ، أتبعَها غايتَها، فقال تخصيصًا بالعطف علىٰ ما تقديرُه: يُسْقَوْنَ فيها ما تشتهي أنفسُهم وتَلَذُّ أعينُهم: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٩١).
(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٥١).
(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٤٥).
(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٩٣).
(٥) نظم الدرر (٢١/ ١٤٦).

أتبَع وصفَ الآنيةِ ومحاسنَها بوصفِ الشرابِ الذي يحويه وطِيبِه، فالكأسُ كأسُ الخمرِ، وهي من جملةِ عمومِ الآنيةِ المذكورةِ فيما تقدَّم، ولا تُسمَّىٰ آنيةُ الخمرِ كأسًا إلَّا إذا كان فيها خمرٌ، فكونُ الخمرِ فيها هو مُصحِّحُ تسميتِها كأسًا؛ ولذلك حسُن تعديةُ فعلِ السَّقْيِ إلىٰ الكأس؛ لأنَّ مفهومَ الكأس يتقوَّمُ بما في الإناءِ من الخمر[(١)].

واعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا وصف أوانيَ مشروبِهم، ذكَر بعد ذلك وصفَ مشروبِهم، فقال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾[(٢)].

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا كان الزَّنجبيلُ عندنا شجرًا يحتاجُ في تناولِه إلىٰ علاجٍ، أبانَ أنَّه هناك عينٌ لا يحتاجُ في صيرورتِه زنجبيلًا إلىٰ أن تُحِيلَه الأرضُ بتخميرِه فيها حتىٰ يصيرَ شجرًا ليتحوَّلَ عن طعمِ الماءِ إلىٰ طعمِ الزنجبيلِ خرقًا للعوائد، فقال: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾[(٣)].

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا ذكَر المَطُوفَ به لأنَّه الغايةُ المقصودةُ، وصَف الطائفَ لِما في طوافِه من العَظَمةِ المشهودةِ تصويرًا لِما هم فيه من المُلْكِ، بعدَ ما نَجَوْا منه من الهُلْكِ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾[(٤)].

هذا طوافٌ آخَرُ غيرُ طوافِ السُّقاةِ المذكورِ آنفًا بقولِه: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ إلخ، فهذا طوافٌ لأداءِ الخدمةِ، فيشملُ طوافَ السُّقاةِ وغيرِهم[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٩٤-٣٩٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٥٢).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٤٦-١٤٧).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٤٧).

(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٩٧).

ثم ذكَر بعد ذلك مَن يكونُ خادمًا في تلك المجالسِ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ (١).

لمَّا فرَغ سبحانه من وصفِ شرابِهم، ووصفِ آنيتِهم، وصَف السُّقاةَ الذين يسقونهم ذلك الشرابَ (٢).

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

ولمَّا ذكَر المخدومَ والخَدَمَ، شرَع في ذِكْرِ المكانِ، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ (٣).

لمَّا ذكَر تفصيلَ أحوالِ أهلِ الجنَّة، أتبَعه بما يدلُّ على أنَّ هناك أمورًا أعلى وأعظمَ من هذا القدرِ المذكورِ، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ (٤).

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾

ولمَّا ذكَر الدَّارَ وساكنيها من مخدومٍ وخَدَمٍ، ذكَر لباسَهم، بانيًا حالًا من الفاعلِ والمفعول: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (٥).

هذه أشياءُ من شعارِ الملوكِ في عُرْفِ الناسِ زمانَئذٍ، فهذا مرتبطٌ بقولِه: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ (٦).

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٥٢).

(٢) فتح القدير (٥/ ٤٢٣).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٤٨).

(٤) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٥٣).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ١٤٩).

(٦) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٩٨).

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

ولا يستحيلُ شيءٌ من شرابِهم إلىٰ نجاسةٍ من بولٍ ولا غيرِه، بل يصيرُ رشحًا كرشحِ المِسْكِ، ويُعطَىٰ الرجلُ شهوةَ مئةِ رجلٍ في الأكلِ وغيرِه، فإذا أكل، شَرِبَ، فطهُر باطنُه، ورشَح منه المِسْكُ، فعادت الشهوةُ، بل الحديثُ يدلُّ علىٰ أنَّ شهوتَهم لا تنقضي أصلًا؛ فإنَّه قال: «يجدُ لآخرِ لقمةٍ من اللَّذَّةِ ما يجدُ لأوَّلِها»[١]، يفعلُ بهم هذا سبحانه قائلًا لهم مُؤكِّدًا تسكينًا لقلوبِهم لئلَّا يظنُّوا أنَّ ما هم فيه علىٰ وجهِ الضِّيافةِ ونحوِها فيَظُنُّوا انقطاعَه: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[٢].

لمَّا تمَّم شرحَ أحوالِ السُّعَداء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[٣].

ثم يُقالُ لهم -تكريمًا لهم، وإحسانًا إليهم-: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا ذكَر أنَّه بيَّن للناس السبيلَ، فانقسموا إلىٰ مُبصِرٍ شاكرٍ وأعمىٰ كافرٍ، وأتبعه جزاءَ الكافرين والشاكرين، وختمه بالشرابِ الطَّهورِ الذي من شأنِه أن يُحيِيَ ميِّتَ الأراضي كما أنَّ العلمَ الذي منبعُه القرآنُ يُحيِي ميِّتَ القلوب، وسكَّن القلوبَ بتأييدِ الجزاءِ، وختم الكلامَ بالشُّكرِ كما بدأه به، وكان نصبُ ما يهدي جميعَ الناس أمرًا لا يكادُ يُصدَّقُ؛ قال ذاكرًا لِما شرَّف به النبيَّ ﷺ في الدنيا قبل الآخرة، وجعل الشرابَ الطَّهورَ جزاءً له لِما بينهما من المناسبةِ علىٰ سبيلِ التأكيد، وأكَّده ثانيًا بما أفاد التخصيصَ لِما لهم من الإنكارِ، ولتطمئنَّ أنفسُ أتباعِه بما حثَّ عليه من الصبرِ إلىٰ وقتِ الإذنِ في القتال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾[٤].

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ الموصلي في "مسنده" (٥٢٧٣).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٥١).
(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٥٦).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٥١-١٥٢).

استئنافٌ للانتقالِ من الاستدلالِ علىٰ ثبوتِ البعثِ بالحُجَّةِ والترهيبِ والوعيدِ للكافرين به، والترغيبِ والوعدِ للمؤمنين به، بمُرهِّباتٍ ومُرغِّباتٍ هي من الأحوالِ التي تكونُ بعد البعث، فلمَّا استوفىٰ ذلك، ثُني عِنانُ الكلامِ إلىٰ تثبيتِ الرسول ﷺ والربطِ علىٰ قلبِه، لدفاعِ أن تلحقَه آثارُ الغمِّ علىٰ تصلُّبِ قومِه في كفرِهم، وتكذيبِهم بما أُنزِلَ عليه ممَّا شأنُه أن يُوهِنَ العزيمةَ البشريَّة، فذكَّره اللهُ بأنَّه نزَّل عليه الكتابَ لئلَّا يعبأَ بتكذيبِهم، وفي إيرادِ هذا -بعد طولِ الكلامِ في أحوالِ الآخرة- قضاءٌ لحقِّ الاعتناءِ بأحوالِ الناس في الدنيا، فابتُدِئ بحالِ أشرفِ الناس وهو الرسولُ ﷺ(١).

ولمَّا ذكَر سبحانه أولًا حالَ الإنسانِ، وقسَّمه إلىٰ الطائعِ والعاصي، وأمعَن جَلَّ شأنُه فيما أعدَّه للطائع مُشِيرًا إلىٰ عِظَمِ سَعةِ الرحمة؛ ذكَر ما شرَّف به نبيَّه ﷺ؛ إزالةً لوحشتِه، وتقويةً لقلبِه، فقال عزَّ قائلًا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾(٢).

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾

ولمَّا تقرَّر أنَّ من الناسِ مَن ترك الهدىٰ الذي هو البيانُ، فعَمِيَ عنه لإعراضِه عنه؛ سبَّب عن هذا الإنزالِ وذاك الضلالِ قولَه مُنبِّهًا علىٰ أمراضِ القلوب، ومُرشِدًا إلىٰ دوائِها: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾(٣).

وفرَّع علىٰ هذا التمهيدِ أمرَه بالصبرِ علىٰ أعباءِ الرسالة، وما يلقاه فيها من أذىٰ المشركين، وشدَّ عزيمتَه أن لا تَخُورَ، وسمَّىٰ ذلك حُكْمًا؛ لأنَّ الرسالةَ عن اللهِ لا خِيرَةَ للمُرسَلِ في قبولِها والاضطلاعِ بأمورِها، ولأنَّ ما يَحُفُّ بها من مصاعبِ إصلاحِ الأُمَّة، وحملِها علىٰ ما فيه خيرُها في العاجلِ والآجل، وتلقِّي أصنافِ الأذىٰ في خلالِ ذلك حتىٰ يتمَّ ما أمر اللهُ به، كالحكمِ علىٰ الرسولِ بقبولِ ما يُبلِّغُ منتهىٰ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٠٢).

(٢) روح المعاني (١٥/ ١٨٢).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٥٣-١٥٤).

الطاقةِ إلىٰ أجلٍ مُعيَّنٍ عند الله، ولمَّا كان من ضروبِ إعراضِهم عن قبولِ دعوتِه ضربٌ فيه رغباتٌ منهم مثلَ أن يتركَ قرعَهم بقوارعِ التنزيلِ من تأفينِ رأيِهم، وتحقيرِ دينِهم وأصنامِهم، وربما عرَضوا عليه الصَّهرَ معهم، أو بذلَ المالِ منهم؛ أعقَب أمرَه بالصبرِ علىٰ ما هو من ضروبِ الإعراضِ في صلابةٍ وشِدَّةٍ، بأن نهاه عن أن يُطِيعَهم في الضربِ الآخرِ من ضروبِ الإعراضِ الواقعِ في قالبِ اللِّينِ والرغبةِ، وفي هذا النهيِ تأكيدٌ للأمرِ بالصبرِ؛ لأنَّ النهيَ عنه يشملُ كلَّ ما يرفعُ مُوجِباتِ الصبرِ المرادِ هنا، والمقصودُ من هذا النهيِ: تأييسُهم من استجابتِه لهم حين يقرأُ عليهم هذه الآيةَ؛ لأنَّهم يحسبون أنَّ ما عرَضوه عليه سيكونُ صارفًا له عمَّا هو قائمٌ به من الدعوةِ، إذ هم بُعَداءُ عن إدراكِ ماهيَّةِ الرسالةِ ونزاهةِ الرسولِ ﷺ[(١)].

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥﴾

ولمَّا نهىٰ عن طاعتِهما القاطعةِ عن اللهِ، أمر بملازمةِ المُوصِلِ إلىٰ الله -وهو الذِّكرُ- من غيرِ عائقٍ، الذي هو دواءٌ لِما عساه يلحقُ من الأدواءِ لمجرَّدِ رؤيةِ الآثمِ أو الكَفُورِ لأربابِ القلوبِ الصافية، والذِّكرُ مُقدَّمٌ علىٰ كلِّ عبادةٍ، وإن وضع العباد لِما كان طلبًا للتوصُّل إلىٰ نَيْلِ معرفةِ الله سبحانه، وكان التصوُّرُ بحسَبِ الاسمِ أولَ مراتبِ التصوُّرِ طبعًا، بدأ به وضعًا؛ وذلك لأنَّ النفسَ تُحِبُّ السُّفولَ؛ لِما لها من النقائص، فاحتاجت إلىٰ سببٍ مُشوِّقٍ لها إلىٰ الأعلىٰ، فوُضعت لها العباداتُ، وأجلُّها العبادةُ المشفوعةُ بالفِكْر، لأنَّه السببُ المُوصِلُ إلىٰ المقصودِ، ولا تفيدُ العبادةُ بدونه، فقال: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾[(٢)].

هذا إرشادٌ إلىٰ ما فيه عَوْنٌ له علىٰ الصبرِ علىٰ ما يقولون[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٠٣).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٥٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٠٥).

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾

ولمَّا أشار إلىٰ صلاةِ الصُّبحِ والظُّهرِ والعصرِ في الآيةِ السابقة، أشار هنا إلىٰ ما تبقَّىٰ من الصلواتِ الخمسِ: المغربِ والعشاءِ، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧﴾

ولمَّا أنهىٰ أمرَه بلازمِ النهي، علَّل النهيَ بقولِه مُحقِّرًا بإشارةِ القريبِ، مُؤكِّدًا لِما لهم من التعنُّتِ بالطعنِ في كلِّ ما يذكرُه ﷺ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾[(١)].

تعليلٌ للنهي عن إطاعتِهم في قولِه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾؛ أي: لأنَّ خُلُقَهم الانصبابُ علىٰ الدنيا مع الإعراضِ عن الآخرة، إذ هم لا يؤمنون بالبعثِ، فلو أعطاهم لتخلَّق بخُلُقِهم، فموقعُ ﴿إِنَّ﴾ موقعُ التعليلِ، وهي بمنزلةِ فاءِ السَّببيَّةِ[(٢)].

لمَّا خاطب رسولَه ﷺ بالتعظيمِ والنهيِ والأمرِ، عدَل إلىٰ شرحِ أحوالِ الكفارِ والمتمرِّدين، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾[(٣)].

﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ٢٨﴾

ولمَّا كان تركُهم لليومِ الثقيلِ علىٰ وجهِ التكذيبِ الذي هو أقبحُ التركِ، وكان تكذيبُهم لاعتقادِهم عدمَ القدرةِ عليه؛ قال دالًّا علىٰ الإعادةِ بالابتداءِ من بابِ الأَولىٰ: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٠٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٦٠).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٥٨).

لمَّا كـان الإخبـارُ عـنهم بـأنَّهم ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ يتضـمَّنُ أنَّهـم يُنكِـرون وقوعَ ذلك اليومِ كما قدَّمْناه، وكان الباعـثُ لهـم علىٰ إنكـارِه شبهةَ استحالةِ إعـادةِ الأجسادِ بعد بِلاها وفنائِها، وكان الكلامُ السـابقُ مَسُـوقًا مسـاقَ الـذَّمِّ لهـم والإنكـارِ عليهم؛ جِيءَ هنا بما هو دليلٌ للإنكارِ عليهم وإبطالٌ لشبهتِهم، ببيـانِ إمكـانِ إعـادةِ خلقِهم، يُعِيدُه الـذي خلَقهـم أولَ مـرَّةٍ كمـا قـال تعـالىٰ: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وغير ذلك من الآياتِ الحائمةِ حولَ هذا المعنىٰ[١].

لمَّا ذكَر أنَّ الداعيَ لهـم إلـىٰ هـذا الكفـرِ حُـبُّ العاجـلِ، قـال: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾[٢].

ثم استدلَّ عليهم وعلىٰ بعثِهم بدليلٍ عقليٍّ، وهو دليلُ الابتداءِ، فقال: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾[٣].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا كان هذا دليلًا عظيمًا علىٰ القدرةِ علىٰ البعثِ مُخزِيًا لهم، قال مُؤكِّدًا لإنكارِهم عنادًا: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[٤].

اسـتئنافٌ ابتـدائيٌّ للانتقـالِ مـن بسـطِ التـذكيرِ والاسـتدلالِ إلـىٰ فَذْلكـةِ الغـرضِ وحوصلتِه؛ إشعارًا بانتهاءِ المقصودِ، وتنبيهًا إلىٰ فائدتِه، ووجهِ الانتفاعِ بـه، والحـثِّ علىٰ التـدبُّرِ فيـه، واستثمارِ ثمرتِـه، وباعتبـارِ مـا تفـرَّع عـن هـذه الجملـةِ مـن قولِـه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ يقوىٰ موقعُ الفذلكةِ للجملةِ، وتأكيدُ الكـلامِ بحـرفِ ﴿إِنَّ﴾ لأنَّ حالَ المخاطَبين عدمُ اهتمامِهم بها، فهم يُنكِرون أنَّها تذكرةٌ[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٠٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٦٠).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٩٠٣).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٥٩-١٦٠).

(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤١١).

لمَّا شرَح أحوالَ السُّعداءِ وأحوالَ الأشقياءِ، قال بعدَه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾[١].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠﴾

ولمَّا أثبَت لهم المشيئةَ التي هي مناطُ التكليف، وهي الكسبُ، وكان ربما ظنَّ ظانٌّ أو ادَّعَىٰ مُدَّعٍ في خلقِ الأفعالِ كما قال أهلُ الاعتزالِ، قال نافيًا عنهم الاستقلالَ، لافتًا القولَ إلىٰ خطابِهم، وهو مع كونِه خطابَ قبضٍ استعطافًا بهم إلىٰ التذكُّرِ في قراءةِ الجماعةِ، وبالغيبِ علىٰ الأسلوبِ الماضي في قراءةِ ابنِ كثيرٍ وابنِ عامرٍ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾[٢].

لمَّا ناطَ اختيارَهم سبيلَ مرضاةِ اللهِ بمشيئتِهم، أعقَبه بالتنبيهِ إلىٰ الإقبالِ علىٰ طلبِ مرضاةِ اللهِ للتوسُّلِ برضاه إلىٰ تيسيرِ سلوكِ سُبُلِ الخيرِ لهم؛ لأنَّهم إذا كانوا منه بمحلِّ الرِّضىٰ والعنايةِ، لطَف بهم، ويسَّر لهم ما يَعسُرُ علىٰ النفوسِ من المصابرةِ علىٰ تركِ الشهواتِ المُهْلِكة، فإذا لم يَسْعَوْا إلىٰ مرضاةِ ربِّهم، وَكَلَهم إلىٰ أحوالِهم التي تعوَّدوها، فاقتحَمتْ بهم مَهامِهَ العمايةِ؛ إذ هم محفوفون بأسبابِ الضلالِ بما استقرَّتْ عليه جِبِلَّاتُهم من إيثارِ الشهواتِ، والاندفاعِ مع عصائبِ الضلالاتِ، فجملةُ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يجوزُ أن تكونَ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾، أو حالًا مِن ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وهي علىٰ كلا الوجهينِ تتميمٌ واحتراسٌ[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٦١).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٦٠-١٦١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤١٢).

﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾

ولَمَّا كان سبحانه بالغَ العلمِ والحكمةِ، فهو يمنعُ منعًا مُحكَمًا مِن أن يشاءَ غيرُه ما لم يأذنْ فيه، فمَن علم في جِبِلَّتِه خيرًا أعانه عليه، ومَن علم منه الشَّرَّ ساقه إليه وحمله عليه، وهو معنىٰ ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾[1].

يجوزُ أن تكونَ الجملةُ مستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن جملةِ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ إذ يتساءلُ السامعُ علىٰ أثرِ مشيئةِ اللهِ في حالِ مَن ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، ومَن لم يتَّخِذْ إليه سبيلًا، فيُجابُ بأنَّه يُدخِلُ في رحمتِه مَن شاء أن يتَّخِذَ إليه سبيلًا، وأنَّه أعدَّ لمن لم يتَّخِذْ إليه سبيلًا عذابًا أليمًا، وأولئك هم الظالمون، ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ خبرَ «إنَّ» في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾، وتكونَ جملةُ ﴿كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ معترِضةً بين اسمِ «إنَّ» وخبرِها أو حالًا، وهي علىٰ التقديرينِ مُنبئةٌ بأنَّ إجراءَ وصفَي العليمِ الحكيمِ علىٰ اسمِ الجلالةِ مرادٌ به التنبيهُ علىٰ أنَّ فعلَه كلَّه من جزاءٍ برحمةٍ أو بعذابٍ جارٍ علىٰ حسَبِ علمِه وحكمتِه[2].

بيانٌ لأحكامِ مشيئتِه المترتِّبةِ علىٰ علمِه وحكمتِه[3].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٦٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤١٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٧٦).

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢﴾

ولمَّا كان العُصُوفُ للعواصفِ يتعقَّبُ الهبوبَ؛ عطَف بالفاءِ تعقيبًا وتسبيبًا، فقال: ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا﴾[1].

﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ﴾ تفريعٌ علىٰ «المُرْسَلاتِ»؛ أي: تُرسَلُ فتَعصِفُ، والعَصْفُ يُطلَقُ علىٰ قُوَّةِ هُبُوبِ الرِّيحِ، فإنْ أُرِيدَ بـ«المُرْسَلاتِ» وصفُ الرِّياحِ؛ فالعصفُ حقيقةٌ، وإنْ أُرِيدَ بـ«المُرسَلاتِ» وصفُ الملائكةِ؛ فالعصفُ تشبيهٌ لنزولِهم في السُّرعةِ بشِدَّةِ الرِّيحِ، وذلك في المبادرةِ في سرعةِ الوصولِ بتنفيذِ ما أُمِرُوا به[2].

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣﴾

ولمَّا كان نشرُ الرِّياحِ للسَّحابِ مُتراخِيًا عن هبوبِها ومُتباطِئًا في الثَّورانِ، وكذا نشرُ الملائكةِ لأجنحتِها كما يفعلُ الطَّائرُ القويُّ في طيرانِه؛ عطَف بالواوِ الصَّالحةِ للمَعِيَّةِ والتَّعقُّبِ بمُهْلةٍ وغيرِها قولَه: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾[3].

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٢١).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٦٥).

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ إذا جُعل وصفًا للملائكةِ جاز أن يكونَ نشرُهم الوحيَ؛ أي: تكريرُ نزولِهم لذلك، وأن يكون النَّشرُ كنايةً عن الوضوحِ؛ أي: بالشَّرائعِ البيِّنةِ، وإذا جُعل وصفًا للرِّياحِ فهو نشرُ السَّحابِ في الأجواءِ، فيكونُ عطفُه بالواوِ دونَ الفاءِ للتنبيهِ علىٰ أنَّه معطوفٌ علىٰ «المُرْسَلاتِ» لا علىٰ «العاصفاتِ»؛ لأنَّ العصفَ حالةُ مَضَرَّةٍ والنَّشرَ حالةُ نفعٍ[(١)].

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾

ولمَّا كان السَّحابُ يجتمعُ بعدَ الثَّوَرانِ من مجالِ البُخاراتِ ويتكاثفُ ثم يحملُ الماءَ، وكان ذلك -معَ كونِه معروفًا- قد تقدَّم في «الذَّارياتِ» و«الرُّومِ» وغيرِهما، ثم بعدَ الحملِ تضغطُ السَّحابَ حتَّىٰ يتحاملَ بعضُه علىٰ بعضٍ فتَنفرِقَ هناك فُرَجٌ يخرجُ منها؛ طوىٰ ذلك وذكَر هذا فقال بالفاءِ الفصيحةِ: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾[(٢)].

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥﴾

ولمَّا كانت السَّحابُ عَقِبَ الفرقِ ينزلُ منها ما في ذلك السَّحابِ من ماءٍ، أو ثلجٍ، أو بَرَدٍ، أو صواعقَ، أو غيرِ ذلك ممَّا يريدُه اللهُ ممَّا يبعثُ علىٰ ذكرِ اللهِ ولا بدَّ، والملائكةُ تُلقِي ما معَها من الرُّوحِ المُحْيِي للقلوبِ؛ قال مُعبِّرًا بفاءِ التَّعقيبِ والتَّسبيبِ: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾[(٣)].

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾

ولمَّا ذكر هذه الأقسامَ؛ علَّلَها بقولِه: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٢١).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٦٦).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٦٦).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٦٦).

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ⑦﴾

ولمَّا تمَّتْ هذه الأقسامُ مُشتمِلةً على أمورٍ عِظامٍ، مُنبِّهةً على أنَّ أسبابَها من الرِّياحِ والمياهِ كانت مع النَّاسِ وهم لا يشعرون بها كما أنَّه يجوزُ أن تكونَ القيامةُ كذلك سواءً بسواءٍ؛ قال ذاكرًا للمُقسَمِ عليه، مُؤكِّدًا لأجلِ إنكارِهم: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾[1].

جملةُ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ جوابُ القَسَمِ، وزِيدَتْ تأكيدًا بـ«أنَّ» لتقويةِ تحقيقِ وقوعِ الجوابِ[2].

ثم ذكَر سبحانه جوابَ القَسَمِ، فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾[3].

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ⑧﴾

ولمَّا كان من المعلومِ أنَّهم يقولون استهزاءً: متى هو؟ وكان وقتُه ممَّا استأثَرَ اللهُ بعلمِه؛ لأنَّ إخفاءَه عن كلِّ أحدٍ أَوقَعُ في النُّفوسِ، وأَهْيَبُ عندَ العقولِ؛ سبَّب عن ذلك قولَه ذاكرًا ما لا تحتملُه العقولُ لتزدادَ الهَيْبةُ ويتعاظَمَ الخوفُ، مُعبِّرًا بأداةِ التَّحقُّقِ: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾[4].

الفاءُ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾؛ لأنَّه لمَّا أفادَ وقوعَ البعثِ، وكان المخاطَبون يُنكِرونه ويتعلَّلون بعدمِ التَّعجيلِ بوقوعِه؛ بيَّن لهم ما يَحصُلُ قبلَه زيادةً في تهويلِه عليهم[5].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٢٣).

(٣) فتح القدير (٥/ ٤٣١).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٦٨).

(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٢٣).

ثم إنَّه ذكر علاماتِ وقوعِ هذا اليومِ؛ أوَّلُها قولُه تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾[(١)].

ثم بيَّن سبحانه متىٰ يقعُ ذلك، فقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾[(٢)].

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩﴾

وأعادَ الظَّرفَ تأكيدًا للمعنىٰ زيادةً في التَّخويفِ، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾[(٣)].

وثاني علاماتِ وقوعِ هذا اليومِ قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾[(٤)].

ثم ذكر السَّماءَ بعدَ أنْ ذكَر زينتَها، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠﴾

وثالثُ علاماتِ وقوعِ هذا اليومِ قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾[(٥)].

وبعدَ أنْ ذكَر ما يَحدُثُ للعالمِ العُلْويِّ، ذكَر ما يَحدُثُ للعالمِ السُّفْليِّ، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١﴾

ولمَّا ذكَر تغييرَ السَّماءِ والأرضِ؛ ذكَر ما فعل ذلك لأجلِه، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾[(٦)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٦٨).

(٢) فتح القدير (٥/ ٤٣١).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٦٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٦٨).

(٥) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٦٨).

(٦) نظم الدرر (٢١/ ١٦٩).

جملـةُ ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ عطـفٌ علىٰ الجُمَـلِ المتقدِّمـةِ، فهـي تقييـدٌ لوقـتِ حـادثٍ يَحصُلُ، وهي ممَّا جُعل مضمونُها علامةً علىٰ وقوعِ ما يُوعَدون بـه، فيلـزمُ أن يكـونَ مضمونُها مُستقبَلَ الحصولِ[1].

ورابعُها قولُه تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾[2].

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢﴾

وحُذف العاملُ في «إذا» تهويلًا له؛ لتذهبَ النَّفسُ فيه كلَّ مذهبٍ، فيمكنُ أن يكـونَ تقـديرُه: وقَـع مـا تُوعَـدون فـرأيتم مـن هـذا الوعيـدِ مـا لا يُحتمَـلُ ولا يثبـتُ لوصـفِه العقول، وعلىٰ ذلك دلَّ قولُه مُلقِّنًا لِما ينبغي أن يُقالَ؛ وهو: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾[3].

ثم عظَّم هذا اليومَ وعجَّب من هَوْلِه، فقال: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾.

﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣﴾

ثم أجاب عن هذا السُّؤالِ بقولِه مُبدِلًا من ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ﴾: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾[4].

ثم إنَّه تعالىٰ بيَّن ذلك، فقال: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾[5].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤﴾

ثم هوَّلَه وعظَّمَه بقولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾[6].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٢٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٦٩).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٦٩-١٧٠).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٧٠).

(٥) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٧٠).

(٦) نظم الدرر (٢١/ ١٧٠).

ثم أَتبعَ ذلك تعظيمًا ثانيًا، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾[١].

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾

ولمَّا هوَّل أمرَه؛ ذكَر ما يقعُ فيه من الشِّدَّةِ علىٰ وجهِ الإجمالِ، فقال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾[٢].

حملُ هذه الجملةِ عن نظائرِها الآتيةِ في هذه السورةِ يقتضي أن تُجعَلَ استئنافًا لقصدِ تهديدِ المشركين الذين يسمعون القرآنَ، وتهويلِ يومِ الفصلِ في نفوسِهم ليَحذَروه، وهو مُتَّصِلٌ في المعنىٰ بجملةِ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ اتِّصالَ أجزاءِ النَّظْمِ، فموقعُ جملةِ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ابتداءُ الكلامِ، وموقعُ جملةِ ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ التَّأخُّرُ، وإنَّما قُدِّمَتْ لتُؤذِنَ بمعنىٰ الشَّرطِ، وقد حصل من تغييرِ النَّظمِ علىٰ هذا الوجهِ أنْ صارت جملةُ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بمنزلةِ التَّذييلِ، فحصَل في هذا النَّظمِ أسلوبٌ رائعٌ، ومعانٍ بدائعُ[٣].

ثم أَتبعَه بتهويلٍ ثالثٍ، فقال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾[٤].

ثم ذكَر حالَ الذين كذَّبوا بذلك اليومِ، فقال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾[٥].

﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦﴾

ولمَّا أَقسَمَ علىٰ وقوعِ الوعدِ والوعيدِ مطلقًا أعمَّ من أن يكونَ في الدنيا أو في الآخرةِ؛ لأنَّه قادرٌ علىٰ كلِّ ما يريدُ بأقسامٍ دلَّتْ علىٰ القدرةِ عليه دلالةً جَلِيَّةً، أَتبعَه دلالةً أَجلَىٰ

(١) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٧٠).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٧٠).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٢٧).
(٤) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٧٠).
(٥) فتح القدير (٥/ ٤٣١).

منها بما يشاهدُ من خرابِ العالمِ النَّفسيِّ، فقال مُنكِرًا علىٰ مَن يُكذِّبُ به تكذيبَهم مع ما كان منه سبحانه إلىٰ مَن كذَّب الرُّسُلَ ومَن آمَن بهم: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[(١)].

استئنافٌ بخطابٍ مُوجَّهٍ إلىٰ المشركين الموجودين الذين أَنكَروا البعثَ، مُعترِضٌ بينَ أجزاءِ الكلامِ المخاطَبِ به أهلُ الشِّركِ في المَحْشَرِ، ويتضمَّنُ استدلالًا علىٰ المشركين الذين في الدنيا، بأنَّ اللهَ انتقم من الذين كفروا بيومِ البعثِ من الأُمَمِ سابِقِهم ولاحِقِهم ليَحذَروا أن يَحِلَّ بهم ما حَلَّ بأولئك الأوَّلِين والآخِرين، والاستفهامُ للتَّقريرِ استدلالًا علىٰ إمكانِ البعثِ بطريقةِ قياسِ التَّمثيلِ[(٢)].

ثم ذكَر سبحانه ما فعل بالكفارِ من الأُمَمِ الخاليةِ، فقال: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[(٣)].

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا كان إهلاكُ مَن في زمنِ النبيِّ ﷺ إنْ لم يَنقُصْ عن إهلاكِ الأوَّلين لم يَزِدْ، وكان جوابُ هذا التقديرِ: بلىٰ قد أَهلَكتُهم؛ قال عاطفًا علىٰ هذا الذي أَرشَدَ السِّياقُ إليه إرشادًا ظاهرًا جعلَه كالمنطوقِ ما تقديرُه: نَعَمْ أهلَكْناهم ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾[(٤)].

حرفُ «ثم» للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ التَّهديدَ أهمُّ من الإخبارِ عن أهلِ المَحْشَرِ؛ لأنَّه الغرضُ من سَوْقِ هذا كلِّه، ولأنَّ إهلاكَ الآخِرين أشدُّ من إهلاكِ الأوَّلِين؛ لأنَّه مسبوقٌ بإهلاكٍ آخَرَ[(٥)].

ثم توعَّد مَن بعدَهم، فقال: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾.

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٧١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٢٨).

(٣) فتح القدير (٥/ ٤٣١).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٧١-١٧٢).

(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٢٩).

﴿ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٨ ﴾

ولمَّا هدَّد مَن واجَهَ الرُّسُلَ بالتَّكذيبِ تسليةً لهم؛ سلَّىٰ مَن قطَعوه من أتباعِهم ممَّا يجبُ وصلُه بهم من المعروفِ، فقال مُستأنِفًا مُنبِّهًا علىٰ الوصفِ المُوجِبِ لذلك الإهلاكِ: ﴿ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾[1].

وقَعتْ جملةُ ﴿ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ موقعَ البيانِ لجملةِ ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾، وهو كالتَّذييلِ يُبيِّنُ سببَ وقوعِ إهلاكِ الأوَّلِين، وأنَّه سببٌ لإيقاعِ الإهلاكِ بكُلِّ مُجرِمٍ؛ أي: تلك سُنَّةُ اللهِ في معاملةِ المجرمين، فلا مَحِيصَ لكم عنها[2].

ولمَّا بيَّن أنَّه يفعلُ بهؤلاء المتأخِّرين مِثلَ ما يفعلُ بأولئك المتقدِّمين؛ قال: ﴿ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾[3].

﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٩ ﴾

تقريرٌ لنظيرِه المتقدِّمِ؛ تأكيدًا للتَّهديدِ، وإعادةً لمعناه[4].

ثم ذكَر حالَ المكذِّبين بعذابِ الدنيا، فقال: ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾.

﴿ أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠ ﴾

ولمَّا ذكَر الإهلاكَ علىٰ ذلك الوجهِ الدَّالِّ علىٰ القدرةِ التَّامَّةِ علىٰ البعثِ وعلىٰ ما يُوعِدُ به بعدَ البعثِ؛ أَتبعَه الدَّلالةَ بابتداءِ الخلقِ، وهو أدلُّ، فقال مُقرِّرًا ومُنكِرًا علىٰ مَن يُخالِفُ علمُه بذلك عملَه: ﴿ أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٢٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٧١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٢٩).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ١٧٣).

تقريرٌ أيضًا يجري فيه ما تقدَّم في قولِه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ جِيءَ به علىٰ طريقةِ تَعْدادِ الخطابِ في مقامِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، وكلٌّ من التَّقريرِ والتَّقريعِ من مُقتضياتِ تركِ العطفِ لشَبَهِه بالتَّكريرِ في أنَّه تكريرُ معنًىٰ وإنْ لم يكنْ تكريرَ لفظٍ، والتَّكريرُ شبيهٌ بالأعدادِ المسرودةِ، فكان حقُّه تركَ العطفِ فيه، وقد جاء هنا التَّقريرُ علىٰ ثبوتِ الإيجادِ بعدَ العدمِ إيجادًا مُتقَنًا دالًّا علىٰ كمالِ الحكمةِ والقدرةِ ليُفضَىٰ بذلك التَّقريرِ إلىٰ التَّوبيخِ علىٰ إنكارِ البعثِ والإعادةِ، وإلىٰ إثباتِ البعثِ بإمكانِه بإعادةِ الخلقِ كما بُدِئَ أوَّلَ مرَّةٍ(١).

لمَّا ذكر إفناءَ الأوَّلين والآخِرين؛ ذكر ووقف علىٰ أصلِ الخِلْقةِ التي يقتضي النَّظرَ فيها تجويزَ البعثِ(٢).

ثم قال مُمتنًّا علىٰ خلقِه، ومُحتجًّا علىٰ الإعادةِ بالبَداءةِ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾(٣).

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾

ثم ذكر محلَّه الذي يستقرُّ فيه، فقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾.

قولُه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ تفصيلٌ لكيفيَّةِ الخلقِ علىٰ سبيلِ الإدماجِ مع مناسبتِه لأنَّ له دخلًا في تبيينِ إمكانِ الإعادةِ؛ إذْ شديدُ القدرةِ لا يُعجِزُه شيءٌ(٤).

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾

وبعدَ ذِكْرِ محلِّه، ذكَر مُدَّةَ حملِه، فقال: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٣٠).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ٣٧٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٩٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٣١).

﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣﴾

ولمَّا كان هذا عظيمًا؛ تَرجَمَه وبيَّنَه مُعظِّمًا له بقولِه: ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ (١).

الفاءُ في قولِه: ﴿فَقَدَرۡنَا﴾ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ٢١ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ أي: جعلْناه في الرَّحِمِ إلى انتهاءِ أَمَدِ الحملِ، فقدَّرْنا أطوارَ خلقِكم حتَّى أخرَجْناكم أطفالًا (٢).

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٢٤﴾

ثم تَوعَّدَهم سبحانه بعدَ أنْ بيَّن لهم هذه الآياتِ، فقال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥﴾

ولمَّا دَلَّ بابتداءِ الخلقِ على تمامِ قدرتِه؛ أَتبعَه الدَّلالةَ بانتهاءِ أمرِه وأثنائِه وما دبَّر فيهما من المصالحِ، فقال: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا﴾ (٣).

جاء هذا التَّقريرُ على سَنَنِ سابقيه في عدمِ العطفِ؛ لأنَّه على طريقةِ التَّكريرِ للتَّوبيخِ، وهو تقريرٌ لهم بما أَنعَمَ اللهُ به عليهم من خلقِ الأرضِ بما فيها ممَّا فيه منافعُهم (٤).

اعلَمْ أنَّ هذا هو النَّوعُ الرَّابعُ من تخويفِ الكفارِ؛ وذلك لأنَّه ذكَّرهم بالنِّعَمِ التي له عليهم في الأَنفُسِ، وفي هذه الآيةِ ذكَّرهم بالنِّعَمِ التي له عليهم في الآفاقِ (٥).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٧٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٣٢).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٧٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٣٢).

(٥) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٧٢).

ثم بيَّن لهم بديعَ صُنْعِه، وعظيمَ قدرتِه؛ ليعتبروا، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾[(١)].

﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾

ولمَّا كان من المعلومِ أنَّه حذف المفعولَ -وهو لكم-؛ أبدىٰ حالةً دالَّةً أيضًا عليه، فقال: ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾[(٢)].

ثم قسَّم الأرضَ إلىٰ حيٍّ وهو الذي يُنبِتُ، وإلىٰ ميِّتٍ وهو الذي لا يُنبِتُ، فقال: ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾

ولمَّا ذكَر ما تُغيِّبُه من جبالِ العلمِ والمُلْكِ وغيرِهما؛ أَتبعَه ما تُبرِزُه من الشَّواهقِ؛ إعلامًا بأنَّه لو كان الفعلُ للطَّبيعةِ، ما كان الأمرُ هكذا، فإنَّه لا يُخرِجُ هذه الجبالَ العظيمةَ -علىٰ ما لها من الكِبَرِ والرُّسوخِ والثِّقَلِ والصَّلابةِ وغيرِ ذلك من العَظَمةِ- إلَّا الخالقُ المختارُ، هذا إلىٰ ما يحفظُ في أعالِيها من المياهِ التي تُنبِتُ الأشجارَ، وتُخرِجُ العيونَ والأنهارَ، بل أكثرُ ما يخرجُ من المياهِ هو منها، وكذا غالبُ المنافعِ من المعادنِ وغيرِها؛ قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾[(٣)].

هذا امتنانٌ بخلقِ الجبالِ؛ لأنَّهم كانوا يَأْوُونَ إليها، وينتفعون بما فيها من كَلَأٍ وشجرٍ، وعطَف ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ لمناسبةِ ذِكْرِ الجبالِ؛ لأنَّها تنحدرُ منها المياهُ تجري في أسافلِها وهي الأوديةُ، وتَقِرُّ في قراراتٍ وحِياضٍ وبُحَيْراتٍ[(٤)].

---

(١) فتح القدير (٥/ ٤٣٢).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٧٤).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٧٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٣٤).

ثم ذكَر ما به ثباتُ الأرضِ، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

ولمَّا كان في هذا دلالةٌ ظاهرةٌ على قدرته على البعثِ وغيرِه؛ قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[(١)].

تكريرٌ للتَّوبيخِ والتَّقريعِ، مِثْلُ نظيرِه الواقعِ ثانيًا في هذه السورةِ[(٢)].

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا وصَلتْ أدلَّةُ السَّاعةِ في الظُّهورِ إلى حدٍّ لا مزيدَ عليه، وحكم على المكذِّبين بالويلِ مرَّةً، وأكَّد بثلاثٍ، فكان من حقِّ المخاطَبِ أن يؤمنَ فلم يؤمنْ؛ أمَر بما يدلُّ على الغضبِ، فقال تعالى مُعلِمًا لهم بما يُقالُ لهم يومَ القيامةِ إذْ يحلُّ بهم الويلُ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[(٣)].

هذا خطابٌ للمكذِّبين في يومِ الحشرِ، فهو مَقُولُ قولٍ محذوفٍ دلَّ عليه صيغةُ الخطابِ بالانطلاقِ دونَ وجودِ مُخاطَبٍ يُؤمَرُ به الآنَ، والضَّميرُ المقدَّرُ مع القولِ المحذوفِ عائدٌ إلى المكذِّبين؛ أي: يُقالُ للمكذِّبين[(٤)].

اعلَمْ أنَّ هذا هو النَّوعُ الخامسُ من وجوهِ تخويفِ الكفارِ، وهو بيانُ كيفيَّةِ عذابِهم في الآخرةِ[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٧٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٣٤).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٧٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٣٤).

(٥) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٧٣).

ومِن الويلِ الذي أعدَّ للمُجرِمين المكذِّبين، أن يُقالَ لهم يومَ القيامةِ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[1].

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ٣٠﴾

ولمَّا كان المرادُ زيادةَ تبكيتِهم وتقريعِهم والتَّهويلِ عليهم؛ كرَّر الأمرَ واصفًا ما أُمِرُوا بالانطلاقِ إليه، فقال: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾[2].

جملةُ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ...﴾ إلىٰ آخِرِها، بدلُ اشتمالٍ أو مُطابِقٌ من جملةِ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، وأُعِيدَ فعلُ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ علىٰ طريقةِ التَّكريرِ لقصدِ التَّوبيخِ أو الإهانةِ والدَّفعِ، ولأجلِه أُعِيدَ فعلُ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ وحرفُ ﴿إِلَىٰ﴾[3].

﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ٣١﴾

ولمَّا كان المُتبادِرُ من الظِّلِّ ما يُسْتَرَوحُ إليه، فظَنُّوا ذلك؛ أزالَ عنهم هذا التَّوهُّمَ علىٰ طريقِ التَّهكُّمِ بهم ليكونَ أشدَّ في النَّكالِ، فقال واصفًا لـ﴿ذِي﴾: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾[4].

الصِّفةُ الثَّانيةُ لذلك الظِّلِّ قولُه: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾، وهذا تهكُّمٌ بهم، وتعريضٌ بأنَّ ظِلَّهم غيرُ ظِلِّ المؤمنين، والصِّفةُ الثَّالثةُ قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾[5].

ثم وصَف سبحانه هذا الظِّلَّ تهكُّمًا بهم، فقال: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾[6].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٩٠٤).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٧٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٣٥).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٧٨).

(٥) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٧٤).

(٦) فتح القدير (٥/ ٤٣٣).

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾

ولمَّا بيَّن أنَّ هذا الظِّلَّ في العذابِ، وكان من المعلومِ أنَّه لا يكونُ دُخانٌ إلَّا من نارٍ؛ قال مُبيِّنًا أنَّه لو كان هناك ظِلٌّ ما أغنىٰ: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾[(١)].

يجوزُ أنْ يكونَ هذا من تمامِ ما يُقالُ للمكذِّبين الذين قيل لهم: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، فإنَّهم بعدَ أنْ حصَل لهم اليأسُ ممَّا يُنفِّسُ عنهم ما يَلْقَوْنَ من العذابِ، وقيل لهم: انطلِقوا إلىٰ دُخانِ جهنَّمَ؛ ربما شاهَدوا ساعتَئذٍ جهنَّمَ تقذفُ بشَرَرِها فيَرُوعُهم المنظرُ، أو يشاهدونها عن بُعْدٍ لا تتَّضِحُ منه الأشياءُ، وتظهرُ عليهم مَخائِلُ توقُّعِهم أنَّهم بالِغون إليه فيُزادون رَوْعًا وتهويلًا، فيُقالُ لهم: إنَّ جهنَّمَ ترمي بشَرَرٍ كالقصرِ. ويجوزُ أنْ يكونَ اعتراضًا في أثناءِ حكايةِ حالِهم، أو في ختامِ حكايةِ حالِهم، وإجراءُ تلك الأوصافِ في الإخبارِ عنها لزيادةِ التَّرويعِ والتَّهويلِ، فإنْ كانوا يَرَوْنَ ذلك الشَّرَرَ لقُرْبِهم منه؛ فوصفُه لهم لتأكيدِ التَّرويعِ والتَّهويلِ بتظاهرِ السَّمعِ مع الرُّؤيةِ، وإنْ كانوا علىٰ بُعْدٍ منه؛ فالوصفُ للكشفِ عنْ حالِه الفظيعةِ[(٢)].

الصِّفةُ الرَّابعةُ قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾[(٣)].

ثم ذكَر عِظَمَ شَرَرِ النَّارِ، الدَّالَّ علىٰ عِظَمِها وفظاعتِها وسوءِ منظرِها، فقال: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾[(٤)].

﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾

ولمَّا شبَّهه في عِظَمِه؛ شبَّهه في لونِه، فقال: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٧٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٣٦-٢٣٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٧٤).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٩٠٥).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ١٧٩).

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٤ ﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا هائلًا؛ كانت ترجمتُه: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[(١)].

تكريرٌ لقصدِ تهديدِ المشركين الأحياءِ، والقولُ فيه كالقولِ في نظيرِه الواقعِ ثانيًا في هذه السورةِ[(٢)].

﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ ﴾

ولمَّا دلَّتْ قراءةُ ﴿ انْطَلَقُوا ﴾ بالفتحِ على امتثالِهم للأمرِ من غيرِ أن يَنبِسوا بكلمةٍ؛ صرَّح به فقال دالًّا على ما هم فيه من المَقْتِ والغضبِ: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾[(٣)].

﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦ ﴾

ولمَّا كانوا لا يقدرون على شيءٍ ما إلَّا بإذنِ اللهِ، وكان المُوجِعُ لهم عدمَ الإذنِ؛ بُني للمفعولِ قولُه دلالةً على عدمِ ناصرٍ لهم أو فرجٍ يأتيهم: ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾[(٤)].

ولمَّا نفى عنهم النُّطقَ؛ نفى عنهم الإذنَ في الاعتذارِ، فقال: ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧ ﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا فظيعًا؛ تَرجَمَه بقولِه: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[(٥)].

تكريرٌ لتهديدِ المشركين[(٦)].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٧٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٣٩).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٧٩).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٨٠).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ١٨٠).

(٦) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤١).

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾

ولمَّا ذكَر حَيْرَتِهم ودَهْشَتَهم التي هي أمارةُ قولِ الحكمِ، وكانت مواطنُ ذلك اليومِ تُسمَّىٰ أيَّامًا لتمامِ الأحكامِ في كلِّ موطنٍ منها، وتَميُّزِه بذلك عمَّا عداه؛ قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾[(١)].

تكريرٌ لتوبيخِهم بعدَ جملةِ ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ شُيِّعَ به القولُ الصَّادرُ بطردِهم وتحقيرِهم، فإنَّ المطرودَ يُشيَّعُ بالتَّوبيخِ، فهو ممَّا يُقالُ لهم يومَئذٍ، ولم تُعطَفْ بالواوِ لأنَّها وقَعتْ موقعَ التَّذييلِ للطَّردِ، وذلك من مُقتضَياتِ الفصلِ، سواءٌ كان التَّكريرُ بإعادةِ اللَّفظِ والمعنىٰ، أم كان بإعادةِ المعنىٰ والغرضِ[(٢)].

اعلَمْ أنَّ هذا هو النَّوعُ السَّابعُ من أنواعِ تهديدِ الكفارِ، وهذا القسمُ من بابِ التَّعذيبِ بالتَّقريعِ والتَّخجيلِ[(٣)].

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾

ثم أشار إلىٰ انقطاعِ الأسبابِ، فقال مُسبِّبًا عن ذلك: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾[(٤)].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

ولمَّا كانوا أقلَّ من أن يُجِيبوا عن هذا، وأحقرَ من أن يُمهَلوا للكلامِ؛ قال مُتَرجِمًا لحالِهم بعدَ هذا الكلامِ، مُنبِّهًا علىٰ أنَّهم لو عقَلوا بَكَوْا علىٰ أنفسِهم الآنَ؛ لأنَّه لا حِيلةَ إذ ذاك: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[(٥)].

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٨٠-١٨١).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٤١).
(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٧٩).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٨١).
(٥) نظم الدرر (٢١/ ١٨١).

تكريرٌ للوعيدِ والتَّهديدِ، وهو مُتَّصِلٌ بما قبلَه كاتِّصالِ نظيرِه المذكورِ آنفًا(١).

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾

ولمَّا كان الواقعُ بعدَ الفصلِ قرارَ كلٍّ في دارِه، وكان قد بدأ بالمكذِّبين؛ لأنَّ التَّحذيرَ في السورةِ أعظمُ، ففصلهم عن المصدِّقين، فقال: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ ...﴾ إلىٰ آخرِه؛ ثنَّىٰ بأضدادِهم الفريقِ النَّاجي، فقال مُؤكِّدًا لأجلِ تكذيبِ الكفارِ بتلك الدَّارِ، وبأن يكونَ المؤمنون أسعدَ منهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾(٢).

يجوزُ أن يكونَ هذا ختامَ الكلامِ الذي هو تقريعٌ للمشركين، حُكي لهم فيه نعيمُ المؤمنين الذي لا يُشاهِدُه المشركون لبُعْدِهم عن مكانِه، فيُحكَىٰ لهم يومَئذٍ فيما يُقالُ لهم؛ ليكونَ ذلك أشدَّ حسرةً عليهم، وتنديمًا لهم علىٰ ما فرَّطوا فيه ممَّا بادَر إليه المتقون المؤمنون ففازوا، فيكونُ هذا من جملةِ القولِ الذي حُذف فعلُه عندَ قولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ ...﴾ إلخ، ويجوزُ أن يكونَ هذا ابتداءَ كلامٍ مُستأنَفٍ انتقل به إلىٰ ذِكْرِ نعيمِ المؤمنين المتقين تنويهًا بشأنِهم، وتعريضًا لترغيبٍ من المشركين الموجودين في الإقلاعِ عنه لينالوا كرامةَ المتقين(٣).

اعلَمْ أنَّ هذا هو النَّوعُ الثَّامنُ من أنواعِ تهديدِ الكفارِ وتعذيبِهم؛ وذلك لأنَّ الخصومةَ الشَّديدةَ والنُّفْرةَ العظيمةَ كانت في الدنيا قائمةً بينَ الكفارِ والمؤمنين، فصارت تلك النُّفرةُ بحيثُ إنَّ الموتَ كان أسهلَ علىٰ الكافرِ من أن يرىٰ للمؤمنِ دولةً وقُوَّةً، فلمَّا بيَّن اللهُ تعالىٰ في هذه السورةِ اجتماعَ أنواعِ العذابِ والخِزْيِ والنَّكالِ علىٰ الكفارِ؛ بيَّن في هذه الآيةِ اجتماعَ أنواعِ السَّعادةِ والكرامةِ في حقِّ المؤمنِ، حتَّىٰ إنَّ الكافرَ حالَ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٢).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٨٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٣).

ما يرىٰ نفسَه في غايةِ الذُّلِّ والهوانِ والخِزْيِ والخسرانِ، ويرىٰ خصمَه في نهايةِ العِزِّ والكرامةِ والرِّفعةِ والمَنْقَبةِ؛ تتضاعَفُ حسرتُه، وتتزايدُ غمومُه وهمومُه[(١)].

لمَّا ذكَر عقوبةَ المكذِّبين؛ ذكَر ثوابَ المحسنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ﴾[(٢)].

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ولمَّا ذكَر العيونَ؛ أَتبعَها ما ينشأُ عنها، فقال دالًّا علىٰ أنَّ عَيْشَهم كلَّه لَذَّةٌ: ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾[(٣)].

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا فُهِم من التعبيرِ بـ﴿فِى﴾ أنَّهم مُتَمكِّنون من هذا جميعِه تَمكُّنَ المظروفِ من ظرفِه؛ قال مُنبِّهًا علىٰ أنَّه أُرِيدَ بالفاكهةِ جميعُ المآكلِ، وإنَّما عبَّر بها إعلامًا بأنَّ كلَّ أكلٍ فيها تَفكُّهٌ، ليس منه شيءٌ لجلبِ نفعٍ غيرَ اللَّذَّةِ ولا دفعِ ضُرٍّ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٤)].

جملةُ ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ مَقُولُ قولٍ محذوفٍ، وذلك المحذوفُ في موقعِ الحالِ من ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾، والتقديرُ: مَقُولًا لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾، والمقصودُ من ذلك القولِ كرامتُهم بعرضِ تناولِ النَّعيمِ عليهم كما يفعلُه المُضِيفُ بضيوفِه، فالأمرُ في ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ مُستعمَلٌ في العرضِ[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٧٩).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٩٠٥).
(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٨٣).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٨٣).
(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٣).

ثم يُقالُ لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١].

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

ولمَّا كان ربما تَوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ هذا لناسٍ مُعيَّنينَ في زمنٍ مخصوصٍ؛ قال مُعلِمًا بالتَّعميمِ، مُؤكِّدًا ردًّا علىٰ مَن يُنكِرُ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

جملةُ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يجوزُ أن تكونَ ممَّا يُقالُ للمتقين بعدَ أنْ قيل لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ ...﴾ إلخ، مَسُوقة إليهم مَساقَ زيادةِ الكرامةِ بالثَّناءِ عليهم؛ أيْ: هذا النَّعيمُ الذي أنعمتُ به عليكم هو سُنَّتُنا في جزاءِ المحسنين، فإذْ قد كنتم من المحسنين فذلك جزاءٌ لكم نِلْتُمُوه بأنَّكم من أصحابِ الحقِّ في مِثْلِه، ففي هذا هَزٌّ من أعطافِ المنعَمِ عليهم. ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ مُوجَّهةً إلىٰ المكذِّبين الموجودين بعدَ أن وصف لهم ما يُنعَّمُ به المتقون إثرَ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ...﴾ إلخ، قُصد منها التَّعريضُ بأنَّ حرمانَهم من مِثْلِ ذلك النَّعيمِ هم الذين قَضَوْا به علىٰ أنفسِهم؛ إذ أَبَوْا أن يكونوا من المحسنين، تكملةً لتنديمِهم وتحسيرِهم الذي بُودِئوا به من قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ...﴾ إلىٰ آخرِه؛ أي: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ دونَ أمثالِكم المسيئين، وموقعُ الجملةِ علىٰ كلا الاعتبارينِ موقعُ التَّعليلِ لِما قبلَها[٣].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ولمَّا كان هذا النَّعيمُ عذابًا عظيمًا علىٰ مَن لا ينالُه؛ قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[٤].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٩٠٥).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٨٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٤٤).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٨٤).

﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) ﴾

ولمَّا ذكر نعيمَ أهلِ الجنَّةِ الذي لا ينقضي؛ لأنَّ لهم غايةَ المكنةِ فيه، وكان ذلك آجلًا، وكان المكذِّبون في اتِّساعٍ في الدنيا، وكان الشقاءُ متىٰ وقع بعد نعيمٍ نسَخَه وعدُ النعيمِ -ولو كان كثيرًا طويلًا- قليلًا؛ قال نتيجةً لجوابِ القَسَمِ ضدَّ ما يُقالُ للمتقين -تسليةً لهم، وتحزينًا للمكذِّبين- بناءً علىٰ ما تقديرُه: إنَّ المكذِّبين في هذه الدنيا في استدراجٍ وغرورٍ، ويقولُ لهم لسانُ الحالِ المُعْرِبُ عن أحوالِهم في المآلِ توبيخًا وتهديدًا: ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾[(١)].

استئنافٌ ناشئٌ عن قولِه: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾؛ إذ يُثِيرُ في نفوسِ المكذِّبين المخاطَبين بهذه القوارعِ ما يَكثُرُ خُطُورُه في نفوسِهم، من أنَّهم في هذه الدنيا في نعمةٍ مُحقَّقةٍ، وأنَّ ما يُوعَدون به غيرُ واقعٍ، فقيل لهم: ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾[(٢)].

كلامٌ مُستأنَفٌ خُوطِبَ به المكذِّبون في الدنيا بعدَ بيانِ مآلِ حالِهم[(٣)].

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) ﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا فظيعًا؛ ترجَمَه بقولِه: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[(٤)].

هو مِثلُ نظيرِه المذكورِ ثانيًا في هذه السورةِ، ويزيدُ علىٰ ذلك بأنَّ له ارتباطًا خاصًّا بجملةِ ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا ﴾؛ لِما في «تَمَتَّعُوا قَلِيلًا» من الكنايةِ عن تَرقُّبِ سوءِ عاقبةٍ لهم، فيقعُ قولُه: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ موقعَ البيانِ لتلك الكنايةِ؛ أيْ: ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا ﴾ الآنَ، وويلٌ لكم يومَ القيامةِ[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٨٤-١٨٥).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٤٥).
(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٨٢).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٨٠).
(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٤٦).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ٤٨﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فإنَّهم كانوا في دارِ العملِ إذا قيل لهم: آمِنُوا، لا يؤمنوا؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾(١).

يجوزُ أنْ يكونَ عطفًا على قولِه: ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، والتقديرُ: والذين إذا قيل لهم: اركعوا، لا يركعون. فإنَّ «أل» الدَّاخلةَ على الأوصافِ المشتقَّةِ بمنزلةِ اسمِ الموصولِ غالبًا؛ ولذلك جعلها النُّحاةُ في عدادِ أسماءِ الموصولِ، وجعلوا الوصفَ الدَّاخلةَ عليه صلةً لها. ويجوزُ أنْ يكونَ عطفًا على جملةِ ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾، والانتقالُ من الخطابِ إلى الغَيْبةِ التفاتٌ. وعلى كلا الوجهينِ فهو من الإدماجِ لِيَنعَى عليهم مخالفتَهم المسلمين في الأعمالِ الدَّالَّةِ على الإيمانِ الباطنِ، فهو كنايةٌ عن عدمِ إيمانِهم؛ لأنَّ الصَّلاةَ عمادُ الدِّينِ(٢).

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٩﴾

هذه الجملةُ مِثلُ نظيرِها الموالِيةِ هي له؛ إذ يجوزُ أن تكونَ مُتَّصِلةً بقولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾، ويكونُ التعبيرُ بـ«المكذِّبين» إظهارًا في مقامِ الإضمارِ لقصدِ وصفِهم بالتَّكذيبِ، والتقديرُ: ويلٌ يومَئذٍ لهم، أو لكم، فهي تهديدٌ ناشئٌ عن جملةِ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾، ويكونُ اليومُ المُشارُ إليه بـ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ الزَّمانَ الذي يُفيدُه «إذا» من قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ﴾ الذي يُجازَى فيه بالوَيْلِ للمُجرِمين الذين إذا قيل لهم: اركَعوا، لا يركعون(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٨٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٤٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٤٧).

ولمَّا امتنعوا عن الرُّكوعِ؛ أَنتجَ عن ذلك الدعاءَ عليهم بالوَيْلِ، فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

ولمَّا أَعلَمَ هذا أنَّ لهم الوَيْلَ دائمًا؛ ذكَر أنَّ سببَه عدمُ الإيمانِ بالقرآنِ، وأنَّ مَن لم يُؤمِنْ بالقرآنِ لم يُؤمِنْ بشيءٍ أبدًا، فقال مُسبِّبًا عن معنى الكلامِ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

الفاءُ فصيحةٌ تُنبِئُ عن شرطٍ مُقدَّرٍ، تقديرُه: إنْ لم يؤمنوا بهذا القرآنِ؛ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾، وقد دلَّ على تعيينِ هذا المقدَّرِ ما تكرَّرَ في آياتِ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ فإنَّ تكذيبَهم بالقرآنِ وما جاء فيه من وقوعِ البعثِ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في الإنكارِ التَّعجيبيِّ من حالِهم؛ أيْ: إذا لم يُصدِّقوا بالقرآنِ مع وضوحِ حُجَّتِه فلا يؤمنون بحديثٍ غيرِه، والمقصودُ أنَّ القرآنَ بالغُ الغايةِ في وضوحِ الدَّلالةِ ونهوضِ الحُجَّةِ، فالذين لا يؤمنون به لا يؤمنون بكلامٍ يسمعونه عَقِبَ ذلك(٢).

لمَّا بالَغ في زَجْرِ الكفارِ من أوَّلِ هذه السورةِ إلى آخِرِها، وحَثَّ على التَّمسُّكِ بالنَّظرِ والاستدلالِ والانقيادِ للدِّينِ الحقِّ؛ ختَم السُّورةَ بالتَّعجُّبِ من الكفارِ، وبيَّن أنَّهم إذا لم يؤمنوا بهذه الدَّلائلِ اللَّطيفةِ مع تَجلِّيها ووضوحِها، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٤٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٨١-٧٨٢).

سُورَةُ النَّبَإِ

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾

ولمَّا فخَّم ما يتساءلون عنه مُعجِّبًا منهم فيه؛ بيَّنَه بقولِه إعلامًا بأنَّ ذلك الإيهامَ ما كان إلَّا للإعظامِ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[1].

بيانٌ لشأنِ المسؤولِ عنه إثرَ تفخيمِه بإبهامِ أمرِه، وتوجيهِ أذهانِ السَّامعين نحوَه، وتنزيلِهم منزلةَ المُسْتَفهِمين؛ فإنَّ إيرادَه على طريقةِ الاستفهامِ مِن علَّامِ الغيوبِ للتنبيهِ على أنَّه -لانقطاعِ قرينِه، وانعدامِ نظيرِه- خارجٌ عن دائرةِ علومِ الخلقِ، خَليقٌ بأنْ يُعتنَى بمعرفتِه ويُسأَلَ عنه، كأنَّه قيل: عنْ أيِّ شيءٍ يتساءلون، هل أُخبِرُكم به؟ ثم قيل بطريقِ الجوابِ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[2].

ثم ذكَر سبحانه تساؤلَهم عن ماذا، وبيَّنَه فقال: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[3].

﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣﴾

وعظَّم توبيخَهم بقولِه: ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٩١).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ٨٤).

(٣) فتح القدير (٥/ ٤٣٨).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٩١).

﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾

ولمَّا كان الأمرُ من العَظَمةِ في هذا الحدِّ؛ قال مُؤكِّدًا لأنَّ ما اختلَفوا فيه وسألوا عنه ليس موضعًا للاختلافِ والتَّساؤلِ بأداةِ الرَّدعِ، فقال تهديدًا لهم وتوكيدًا لوعيدِهم: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾[(١)].

﴿كَلَّا﴾ حرفُ رَدْعٍ وإبطالٍ لشيءٍ يسبقُه غالبًا في الكلامِ يقتضي رَدْعَ المنسوبِ إليه وإبطالَ ما نُسب إليه، وهو هنا رَدْعٌ للذين ﴿يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ على ما يحتملُه التَّساؤلُ من المعاني المتقدِّمةِ، وإبطالٌ لِما تَضمَّنَتْه جملةُ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ من تساؤلٍ معلومٍ للسَّامعين، فموقعُ الجملةِ موقعُ الجوابِ عن السُّؤالِ؛ ولذلك فُصِلَتْ ولم تُعطَفْ لأنَّ ذلك طريقةُ السُّؤالِ والجوابِ[(٢)].

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ ﴾

وعظَّم رتبةَ هذا الرَّدعِ والتَّهديدِ والزَّجرِ والوعيدِ بقولِه: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾[(٣)].

ارتقاءٌ في الوعيدِ والتَّهديدِ؛ فإنَّ ﴿ثُمَّ﴾ لمَّا عطَفتِ الجملةَ فهي للتَّرتيبِ الرُّتْبيِّ؛ وهو أنَّ مدلولَ الجملةِ التي بعدَها أرقى رتبةً في الغرضِ من مضمونِ الجملةِ التي قبلَها، ولمَّا كانت الجملةُ التي بعدَ ﴿ثُمَّ﴾ مِثلَ الجملةِ التي قبلَ ﴿ثُمَّ﴾؛ تعيَّن أن يكونَ مضمونُ الجملةِ التي بعدَ ﴿ثُمَّ﴾ أرقى درجةً من مضمونِ نظيرِها، ومعنى ارتقاءِ الرُّتبةِ أنَّ مضمونَ ما بعدَ ﴿ثُمَّ﴾ أقوى من مضمونِ الجملةِ التي قبلَ ﴿ثُمَّ﴾، وهذا المضمونُ هو الوعيدُ، فلمَّا استُفيدَ تحقيقُ وقوعِ المتوعَّدِ به بما أفاده التَّوكيدُ اللَّفظيُّ

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١١).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٩٤).

-إذِ الجملةُ التي بعدَ ﴿ثُمَّ﴾ أكَّدتِ الجملةَ التي قبلَها-؛ تعيَّن انصرافُ معنىٰ ارتقاءِ رتبةِ معنىٰ الجملةِ الثَّانيةِ هو أنَّ المتوعَّدَ به الثَّانيَ أعظمُ ممَّا يحسبون(١).

تكريرٌ للرَّدعِ والوعيدِ للمبالغةِ في التَّأكيدِ والتَّشديدِ(٢).

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾

ولمَّا حقَّق لهم أمرَه تحقيقَ مَن هو علىٰ غايةِ الوثوقِ بما يقولُ؛ دلَّ علىٰ ذلك بما لا يحتملُ شكًّا ولا وقفةً أصلًا، فقال مُقرِّرًا لهم، ومُنكِرًا عليهم التَّساؤلَ بما ندَب إليه من التَّأمُّلِ وقرَّر به من النَّظرِ في باهرِ آياتِه وغرائبِ مخلوقاتِه التي أبدَعَها من العدمِ دلالةً تامَّةً عظيمةً علىٰ كمالِ القدرةِ مع تمامِ الحكمةِ المُوجِبِ للقطعِ بكُلِّ ما نبَّهَتْ عليه الرُّسُلُ من الشَّرائعِ والبعثِ والجزاءِ، بادئًا بما هم له أشدُّ مُلابَسةً وهو الظَّرفُ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾(٣).

لمَّا كان أعظمُ نبأٍ جاءهم به القرآنُ: إبطالَ إلهيَّةِ أصنامِهم، وإثباتَ إعادةِ خلقِ أجسامِهم؛ وهما الأصلانِ اللَّذانِ أثارا تكذيبَهم بأنَّه من عندِ اللهِ، وتألُّبَهم علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ، وترويجَهم تكذيبَه؛ جاء هذا الاستئنافُ بيانًا لإجمالِ قولِه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، وجمعُ اللهِ لهم في هذه الآياتِ للاستدلالِ علىٰ الوحدانيَّةِ بالانفرادِ بالخلقِ، وعلىٰ إمكانِ إعادةِ الأجسادِ للبعثِ بعدَ البِلَىٰ بأنَّها لا تَبلُغُ مبلغَ إيجادِ المخلوقاتِ العظيمةِ، ولكونِ الجملةِ في موقعِ الدَّليلِ، لم تُعطَفْ علىٰ ما قبلَها(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ٨٦).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٩٥).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٢-١٣).

لمَّا حكىٰ عنهم إنكارَ البعثِ والحشرِ، وأرادَ إقامةَ الدَّلالةِ علىٰ صحَّةِ الحشرِ؛ قدَّم لذلك مُقدِّمةً في بيانِ كونِه تعالىٰ قادرًا علىٰ جميعِ المُمْكِناتِ، عالمًا بجميعِ المعلوماتِ؛ وذلك لأنَّه مهما ثبَت هذانِ الأصلانِ ثبَت القولُ بصحَّةِ البعثِ، وإنَّما أَثبَتَ هذينِ الأصلينِ بأنْ عدَّد أنواعًا من مخلوقاتِه الواقعةِ علىٰ وجهِ الإحكامِ والإتقانِ، فإنَّ تلك الأشياءَ من جهةِ حدوثِها تدلُّ علىٰ القدرةِ، ومن جهةِ إحكامِها وإتقانِها تدلُّ علىٰ العلمِ، ومتىٰ ثبَت هذانِ الأصلانِ، وثبَت أنَّ الأجسامَ متساويةٌ في قبولِ الصِّفاتِ والأعراضِ؛ ثبَت لا محالةَ كونُه تعالىٰ قادرًا علىٰ تخريبِ الدنيا بسماواتِها وكواكبِها وأرضِها، وعلىٰ إيجادِ عالمِ الآخرةِ، فهذا هو الإشارةُ إلىٰ كيفيَّةِ النَّظمِ(١).

استئنافٌ مَسُوقٌ لتحقيقِ النَّبأِ المُتَساءَلِ عنه بتَعْدادِ بعضِ الشَّواهدِ النَّاطقةِ بحقيقتِه إثْرَ ما نبَّه عليها بما ذكر من الرَّدعِ والوعيدِ(٢).

ثم ذكَّرهم تعالىٰ بدلائلِ قدرتِه وآياتِ رحمتِه، بقولِه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾(٣).

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾

ومناسبةُ ذِكْرِ الجبالِ دعا إليها ذِكرُ الأرضِ وتشبيهُها بالمِهادِ الذي يكونُ داخلَ البيتِ، فلمَّا كان البيتُ من شأنِه أن يَخطُرَ ببالِ السَّامعِ من ذِكْرِ المِهادِ؛ كانت الأرضُ مُشبَّهةً بالبيتِ علىٰ طريقةِ المَكْنيَّةِ، فشُبِّهَتْ جبالُ الأرضِ بأوتادِ البيتِ تخييلًا للأرضِ مع جبالِها بالبيتِ ومهادِه وأوتادِه. وأيضًا فإنَّ كثرةَ الجبالِ النَّاتئةِ علىٰ وجهِ الأرضِ قد يَخطُرُ في الأذهانِ أنَّها لا تُناسِبُ جعلَ الأرضِ مِهادًا، فكان تشبيهُ الجبالِ بالأوتادِ مُستملَحًا بمنزلةِ حُسْنِ الاعتذارِ، فيجوزُ أن تكونَ الجبالُ مُشبَّهةً بالأوتادِ في

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٨).
(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ٨٦).
(٣) محاسن التأويل (٩/ ٣٨٩).

مُجرَّدِ الصُّورةِ مع هذا التَّخييلِ كقولِهم: «رأيتُ أُسُودًا غابُها الرِّماحُ». ويجوزُ أن تكونَ الجبالُ مُشبَّهةً بأوتادِ الخيمةِ في أنَّها تَشُدُّ الخيمةَ من أن تقلعَها الرِّياحُ أو تُزَلزِلَها، بأن يكونَ في خلقِ الجبالِ للأرضِ حكمةٌ لتعديلِ سَبْحِ الأرضِ في الكُرَةِ الهوائيَّةِ؛ إذ نُتُوُّ الجبالِ على الكُرَةِ الأرضيَّةِ يجعلُها تكسرُ تيَّارَ الكُرَةِ الهوائيَّةِ المحيطةِ بالأرضِ فيعتدلُ تيَّارُه حتَّى تكونَ حركةُ الأرضِ في كُرَةِ الهواءِ غيرَ سريعةٍ[1].

ثم ذكَر ما تَثبُتُ به الأرضُ، فقال: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾.

﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ٨﴾

ولمَّا ذكَر بما في الظَّرفِ الذي هو فرشُهم من الدَّلالةِ على تمامِ القدرةِ؛ أَتبَعَه التَّذكيرَ بما في المظروفِ -وهو أنفسُهم- لتجتمعَ آياتُ الأَنفُسِ والآفاقِ فيتبيَّن لهم أنَّه الحقُّ، فقال: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾[2].

معطوفٌ على التَّقريرِ الذي في قولِه: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦﴾، والتقديرُ: وخلَقْناكم أزواجًا، فكان التَّقريرُ هنا على أصلِه؛ إذِ المقرَّرُ عليه هو وقوعُ الخلقِ، فلذلك لم يَقُلْ: أَلَمْ نخلقْكم أزواجًا؟[3].

﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ٩﴾

ولمَّا ذكَر ما هو سببٌ لبقاءِ النَّوعِ؛ ذكَر ما هو سببٌ لحفظِه من إسراعِ الفسادِ، فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٥).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٩٦).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٥).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٩٦).

انتقَل من الاستدلالِ بخلقِ النَّاسِ إلىٰ الاستدلالِ بأحوالِهم، وخَصَّ منها الحالةَ التي هي أقوىٰ أحوالِهم المعروفةِ شبهًا بالموتِ الذي يَعقُبُه البعثُ؛ وهي حالةٌ مُتكرِّرةٌ لا يَخْلُونَ من الشُّعورِ بما فيها من العِبرةِ؛ لأنَّ تدبيرَ نظامِ النَّومِ وما يطرأُ عليه من اليقظةِ أشبهُ حالٍ بحالِ الموتِ وما يَعقُبُه من البعثِ[١].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾

ولـمَّا ذكَر النَّومَ؛ أَتبعَه وقتَه الأليقَ به مُذكِّرًا بنعمةِ الظَّرفِ الزَّمانيِّ بعدَ التَّذكيرِ بالظَّرفِ المكانيِّ، فقال دالًّا بمظهرِ العَظَمةِ علىٰ عِظَمِه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾[٢].

من إتمامِ الاستدلالِ الذي قبلَه وما فيه من المِنَّةِ؛ لأنَّ كونَ اللَّيلِ لِباسًا حالةٌ مُهيِّئةٌ لتكيُّفِ النَّومِ، ومُعِينةٌ علىٰ هنائِه والانتفاعِ به؛ لأنَّ اللَّيلَ ظُلْمةٌ عارضةٌ في الجوِّ من مُزايَلةِ ضوءِ الشَّمسِ عن جزءٍ من كُرَةِ الأرضِ، وبتلك الظُّلْمةِ تحتجبُ المرئيَّاتُ عن الإبصارِ فيَعسُرُ المشيُ والعملُ والشُّغلُ، ويَنحَطُّ النَّشاطُ، فتتهيَّأُ الأعصابُ للخمولِ، ثم يغشاها النَّومُ، فيَحصُلُ السُّباتُ بهذه المقدِّماتِ العجيبةِ، فلا جَرَمَ كان نظامُ اللَّيلِ آيةً علىٰ انفرادِ اللهِ تعالىٰ بالخلقِ وبديعِ تقديرِه، وكان دليلًا علىٰ أنَّ إعادةَ الأجسامِ بعدَ الفناءِ غيرُ مُتعذِّرةٍ عليه تعالىٰ، فلو تأمَّلَ المُنكِرون فيها لعَلِموا أنَّ اللهَ قادرٌ علىٰ البعثِ، فلمَّا كذَّبوا خبرَ الرسولِ ﷺ به، وفي ذلك امتنانٌ عليهم بهذا النِّظامِ الذي فيه اللُّطفُ بهم وراحةُ حياتِهم، لو قدَروه حقَّ قَدْرِه؛ لَشكَروه وما أَشرَكوا، فكان تَذكُّرُ حالةِ اللَّيلِ سريعَ الخُطُورِ بالأذهانِ عندَ ذِكْرِ حالةِ النَّومِ، فكان ذِكرُ النَّومِ مُناسَبةً للانتقالِ إلىٰ الاستدلالِ بحالةِ اللَّيلِ علىٰ حَسَبِ أفهامِ السَّامعين[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٨).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٩٧).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٠).

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾

لمَّا ذُكر خلقُ نظامِ اللَّيلِ؛ قُوبِلَ بخلقِ نظامِ النَّهارِ، فالنَّهارُ: الزَّمانُ الذي يكونُ فيه ضوءُ الشَّمسِ مُنتشِرًا علىٰ جزءٍ كبيرٍ من الكُرَةِ الأرضيَّةِ. وفيه عِبرةٌ بدِقَّةِ الصُّنعِ وإحكامِه؛ إذْ جُعل نظامانِ مختلفانِ منشؤُهما سطوعُ نورِ الشَّمسِ واحتجابُه فوقَ الأرضِ، وهما نعمتانِ للبشرِ مختلفتانِ في الأسبابِ والآثارِ، فنعمةُ اللَّيلِ راجعةٌ إلىٰ الرَّاحةِ والهدوءِ، ونعمةُ النَّهارِ راجعةٌ إلىٰ العملِ والسَّعيِ؛ لأنَّ النَّهارَ يَعقُبُ اللَّيلَ فيكونُ الإنسانُ قد استَجَدَّ راحتَه، واستعادَ نشاطَه، ويَتمكَّنُ من مُختلِفِ الأعمالِ بسببِ إبصارِ الشُّخوصِ والطُّرقِ، ولمَّا كان مُعظَمُ العملِ في النَّهارِ لأجلِ المَعاشِ أخبر عن النَّهارِ بأنَّه معاشٌ، وقد أَشعَرَ ذِكرُ النَّهارِ بعدَ ذِكْرِ كلٍّ من النَّومِ واللَّيلِ بملاحظةِ أنَّ النَّهارَ ابتداءُ وقتِ اليقظةِ التي هي ضِدُّ النَّومِ، فصارت مقابلتُهما بالنَّهارِ في تقديرِ: وجعَلْنا النَّهارَ واليقظةَ فيه معاشًا، ففي الكلامِ اكتفاءٌ دلَّتْ عليه المقابلةُ، وبذلك حصَل بينَ الجملِ الثَّلاثِ مطابقتانِ من المحسِّناتِ البديعيَّةِ لفظًا وضمنًا[(١)].

ووجهُ النَّظمِ أنَّه لمَّا ذكَر خلقَهم أزواجًا، استَوفَىٰ أحوالَهم مُقترِنينَ ومُفترِقينَ[(٢)].

ثم ذكَر ما يَعقُبُ اللَّيلَ في الطُّلوعِ، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾

ولمَّا ذكَر المِهادَ وما فيه؛ أَتبَعَه السَّقفَ الذي بدورانِه يكونُ الوقتُ والزَّمانُ وما يحويه من القناديلِ الزَّاهرةِ والمنافعِ الظَّاهرةِ لإحياءِ المِهادِ ومَن فيه من العبادِ، فقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢١).

(٢) روح المعاني (١٥/ ٢٠٧).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٩٧).

ناسَب بعدَ ذِكْرِ اللَّيلِ والنَّهارِ -وهما من مظاهرِ الأُفُقِ المسمَّىٰ سماءً- أن يُتبِعَ ذلك وما سبقه من خلقِ العالمِ السُّفليِّ بذِكْرِ خلقِ العوالمِ العُلْويَّةِ[١].

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾

ولمَّا ذكَر السَّقفَ؛ ذكَر بعضَ ما فيه من أُمَّهاتِ المنافعِ، فقال دالًّا بمظهرِ العَظَمةِ علىٰ عِظَمِها: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾[٢].

ذِكرُ السَّماواتِ يُناسِبُه ذِكرُ أعظمِ ما يُشاهِدُه النَّاسُ في فضائِها؛ وذلك الشَّمسُ، ففي ذلك -معَ العِبْرةِ بخلقِها- عِبْرةٌ في كونِها علىٰ تلك الصِّفةِ، ومِنَّةٌ علىٰ النَّاسِ باستفادتِهم من نورِها فوائدَ جمَّةً[٣].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤﴾

ولمَّا ذكَر ما يَمحَقُ الرُّطوبةَ بحرارتِه؛ أَتبَعَه ما يُطفِئُ الحرارةَ برطوبتِه وبرودتِه، فينشأُ عنه المأكلُ والمشربُ، التي بها تمامُ الحياةِ، ويكونُ تَولُّدُها من الظَّرفِ بالمِهادِ والسَّقفِ، وجعل ذلك أشبهَ شيءٍ بما يَتولَّدُ بينَ الزَّوجينِ من الأولادِ، فالسَّماءُ كالزَّوجِ، والأرضُ كالمرأةِ، والماءُ كالمَنِيِّ، والنَّباتُ من النَّجمِ والشَّجرِ كالأولادِ، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾[٤].

استدلالٌ بحالةٍ أخرىٰ من الأحوالِ التي أَودَعَها اللهُ تعالىٰ في نظامِ الموجوداتِ، وجعَلَها منشأً شبيهًا بحياةٍ بعدَ شبيهٍ بموتٍ أو اقترابٍ منه، ومنشأَ تَخلُّقِ موجوداتٍ من

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٢).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٩٧-١٩٨).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٣).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ١٩٨).

ذرَّاتٍ دقيقةٍ. وتلك حالةُ إنزالِ ماءِ المطرِ من الأَسْحِبَةِ علىٰ الأرضِ، فتُنبِتُ الأرضُ به سنابلَ حَبٍّ وشجرًا وكلأً، وتلك كلُّها فيها حياةٌ قريبةٌ من حياةِ الإنسانِ والحيوانِ -وهي حياةُ النَّماءِ-، فيكونُ ذلك دليلًا للنَّاسِ علىٰ تَصوُّرِ حالةِ البعثِ بعدَ الموتِ بدليلٍ من التَّقريبِ الدَّالِّ علىٰ إمكانِه حتَّىٰ تَضمحِلَّ من نفوسِ المُكابِرين شُبَهُ إحالةِ البعثِ. ففي الآيةِ استدلالانِ: استدلالٌ بإنزالِ الماءِ من السَّحابِ، واستدلالٌ بالإنباتِ، وفي هذا أيضًا مِنَّةٌ علىٰ المُعرِضين عن النَّظرِ في دلائلِ صُنْعِ اللهِ التي هي دَواعٍ لشكرِ المُنعِمِ بها؛ لِما فيها من منافعَ للنَّاسِ من رزقِهم ورزقِ أنعامِهم، ومن تَنعُّمِهم وجمالِ مَرائيهم؛ فإنَّهم لو شكَروا المُنعِمَ بها لكانوا -عندَما يَبلُغُهم عنه أنَّه يدعوهم إلىٰ النَّظرِ في الأدلَّةِ- مُستعِدِّين للنَّظرِ، بتَوقُّعِ أن تكونَ الدَّعوةُ البالغةُ إليهم صادقةَ العَزْوِ إلىٰ اللهِ، فما خَفِيَتْ عنهم الدَّلالةُ. ومناسبةُ الانتقالِ من ذِكْرِ السَّماواتِ إلىٰ ذِكْرِ السَّحابِ والمطرِ قويَّةٌ[(١)].

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ١٥﴾

ولـمَّا ذكَر بدايته؛ أَتبَعَها نهايته، فقال: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾[(٢)].

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ١٦﴾

ولـمَّا كان من المشاهَدِ الذي لا يسوغُ إنكارُه أنَّ في الأرضِ من البساتينِ ما يفوتُ الحصرَ؛ عبَّر بجمعِ القِلَّةِ تحقيرًا له بالنِّسبةِ إلىٰ باهرِ العَظَمةِ ونافذِ الكلمةِ، فقال: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٥).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ١٩٨).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ١٩٩).

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا ذكَر ما دلَّ على غايةِ القدرةِ ونهايةِ الحكمةِ، فدَلَّ قطعًا على الوحدانيَّةِ؛ لأنَّه لو كان التَّعدُّدُ لم تكنِ الحكمةُ ولم تَتِمَّ القدرةُ، فأثمَرَ المحبَّةَ لِمَنِ اتَّصفَ بذلك، فأَنتَجَ للطَّائعِ الشَّوقَ إلى لقائِه والتَّرامي إلى مطالعةِ كمالِ نَعْمائِه، وللعاصي ما هو حقيقٌ به من الخوفِ من لقائِه ليَرُدَّه ذلك عن إعراضِه وإبائِه؛ أَتبَعَ ما أَعلَمَ أنَّه ما ذكَره إلَّا للدَّلالةِ على النَّبأِ العظيمِ في لقاءِ العزيزِ الرَّحيمِ، فقال مُنتِجًا عمَّا مضى من الوعيدِ وما دلَّ على تمامِ القدرةِ، مُؤكِّدًا لأجلِ إنكارِهم: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾[(١)].

هذا بيانٌ لِما أَجمَلَه قولُه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، وهو المقصودُ من سياقِ الفاتحةِ التي افتُتِحَتْ بها السُّورةُ، وهيَّأَتْ للانتقالِ مناسبةُ ذِكْرِ الإخراجِ من قولِه: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا...﴾ إلخ؛ لأنَّ ذلك شُبِّهَ بإخراجِ أجسادِ النَّاسِ للبعثِ. وهو استئنافٌ بيانيٌّ أَعقَبَ به قولَه: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ...﴾ الآيةَ، فيما قصَد به من الإيماءِ إلى دليلِ البعثِ. وأكَّد الكلامَ بحرفِ التَّأكيدِ لأنَّ فيه إبطالًا لإنكارِ المشركين وتكذيبِهم بيومِ الفصلِ[(٢)].

شروعٌ في بيانِ سِرِّ تأخيرِ ما يتساءلون عنه ويستعجلون به قائلين: متى هذا الوعدُ إنْ كنتم صادقين؟ ونوعُ تفصيلٍ لكيفيَّةِ وقوعِه وما سيَلْقَوْنَه عندَ ذلك من فنونِ العذابِ، حَسَبَما جرى به الوعيدُ إجمالًا[(٣)].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا ذكَره؛ ذكَر ما فيه تعظيمًا له وحثًّا على الطَّاعةِ، فقال مُبدِلًا منه أو مُبيِّنًا له: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ١٩٩-٢٠٠).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٩).
(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٨٨).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٠٠).

بدلٌ من ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أو عطفُ بيانٍ له مُفِيدٌ لزيادةِ تفخيمِه وتهويلِه، ولا ضَيْرَ في تأخُّرِ الفصلِ عن النَّفخِ، فإنَّه زمانٌ مُمتَدٌّ، يقعُ في مَبْدَئِه النَّفخةُ، وفي بقيَّتِه الفصلُ ومبادئُه وآثارُه(١).

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ١٩﴾

ولمَّا ذكَر الآيةَ في أنفسِهم؛ ذكَر بعضَ آياتِ الآفاقِ، وبدأ بالعُلْويِّ لأنَّه أشرفُ، فقال بانيًا للمفعولِ لأنَّ المُفْزِعَ مُطلَقُ التَّفتيحِ، ولأنَّ ذلك أدلُّ على قدرةِ الفاعلِ وهوانِ الأمورِ عليه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾(٢).

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ٢٠﴾

ولمَّا ذكَر السَّقفَ؛ ذكَر أقربَ الأرضِ إليه وأشدَّها، فقال على طريقةِ كلامِ القادرين أيضًا: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾(٣).

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ٢١﴾

ولمَّا بيَّن أنَّ يومَ الفصلِ هو النَّبأُ العظيمُ -بعدَ أنْ دَلَّ عليه، وذكَر ما فيه من المَسِيرِ-؛ ذكَر ما إليه من الدَّارينِ المصيرُ، فقال -بعدَ التَّذكيرِ بما في الجبالِ من العذابِ بحُزُونتِها، وما فيها من السِّباعِ، والحشراتِ، والأشجارِ الشَّائكةِ، والقواطعِ المُتَشابِكةِ، وغيرِ ذلك من عجائبِ التقديرِ- مُؤَكِّدًا لتكذيبِهم: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾(٤).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ٨٩).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٠٢).
(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٠٢).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٠٣).

يجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ في موضعِ خبرٍ ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾ من قولِه: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾، والتقديرُ: إنَّ يومَ الفصلِ إنَّ جهنَّمَ كانت مِرْصادًا فيه للطَّاغِينَ، والعائدُ محذوفٌ دَلَّ عليه قولُه: ﴿مِرْصَادًا﴾؛ أي: مِرْصادًا فيه؛ أي: في ذلك اليومِ؛ لأنَّ معنىٰ «المِرْصادِ» مُقترِبٌ من معنىٰ «المِيقاتِ»؛ إذْ كلاهما مُحدَّدٌ لجزاءِ الطَّاغِينَ. ويجوزُ أن تكونَ مُستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا عن جملةِ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ وما لَحِقَ بها؛ لأنَّ ذلك ممَّا يُثِيرُ في نفوسِ السَّامعين تَطلُّبَ ماذا سيكونُ بعدَ تلك الأهوالِ، فأُجِيبَ بمضمونِ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ...﴾ الآيةَ، وابتُدِئَ بذِكْرِ جهنَّمَ لأنَّ المقامَ مقامُ تهديدٍ؛ إذِ ابتُدِئَتِ السُّورةُ بذِكْرِ تكذيبِ المشركين بالبعثِ[(١)].

اعلَمْ أنَّ الأحوالَ المذكورةَ إلىٰ ها هنا هي أحوالٌ عامَّةٌ، ومِن ها هنا يصفُ أهوالَ جهنَّمَ وأحوالَها، فأوَّلُها قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾[(٢)].

شروعٌ في تفصيلِ أحكامِ الفصلِ الذي أُضِيفَ إليه اليومُ إثرَ بيانٍ هو له، ووجهُ تقديمِ بيانِ حالِ الكفارِ غنيٌّ عن البيانِ[(٣)].

﴿لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا كان دَرْءُ المفاسدِ أَوْلَىٰ من جَلْبِ المصالحِ؛ قدَّم ذِكْرَ المَخُوفِ، فقال: ﴿لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[(٤)].

ثم ذكَر مَن هي مَرْصَدٌ له، فقال: ﴿لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٩٠).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٠٤).

(٥) فتح القدير (٥/ ٤٤٢).

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾

ولمَّا ذكَر مصيرَهم إليها؛ ذكَر إقامتَهم فيها، فقال: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾[١].

لمَّا بيَّن أنَّ جهنَّمَ مآبٌ للطَّاغِينَ؛ بيَّن كَمِّيَّةَ استقرارِهم هناك، فقال: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾[٢].

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ٢٤﴾

ولمَّا كان المسكنُ لا يَصلُحُ إلَّا بالاعتدالِ والماءِ الذي هو حياةُ كلِّ شيءٍ؛ قال ذاكرًا حالَ هذا اللُّبْثِ: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾[٣].

﴿إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ٢٥﴾

واستثناءُ ﴿حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا﴾ مِن ﴿بَرۡدٗا﴾ أو ﴿شَرَابًا﴾ على طريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المرتَّبِ، وهو استثناءٌ مُنقطِعٌ؛ لأنَّ الحميمَ ليس من جنسِ البردِ في شيءٍ؛ إذْ هو شديدُ الحَرِّ، ولأنَّ الغَسَّاقَ ليس من جنسِ الشَّرابِ؛ إذْ ليس المُهْلُ من جنسِ الشَّرابِ، وصورةُ الاستثناءِ هنا من تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه في الصُّورةِ[٤].

﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا ٢٦﴾

ولمَّا حكَم عليهم بهذا العذابِ الذي لا يُطاقُ؛ ذكَر حكمتَه، قال: إنَّه جزاهم بذلك ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾[٥].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٠٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٥).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٠٥).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٨).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ٢٠٦).

واعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا شرَح أنواعَ عقوبةِ الكفارِ بيَّن فيما بعدَه أنَّه ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[(١)].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾

ثم علَّل عذابَهم بقولِه، مُؤكِّدًا تنبيهًا علىٰ أنَّ الحسابَ من الوضوحِ بحالةٍ يُصدِّقُ به كلُّ أحدٍ، فلا يكادُ يُصدَّقُ أنَّ أحدًا يُكذِّبُ به فلا يُجوِّزُه، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾[(٢)].

موقعُ هذه الجملةِ موقعُ التَّعليلِ لجملةِ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا...﴾ إلىٰ قولِه: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾، ولذلك فُصِلَتْ[(٣)].

لمَّا بيَّن علىٰ الإجمالِ أنَّ ذلك الجزاءَ كان علىٰ وَفْقِ جُرْمِهم؛ شرَح أنواعَ جرائمِهم، وهي بعدَ ذلك نوعانِ: أوَّلُهما قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾[(٤)].

تعليلٌ لاستحقاقِهم الجزاءَ المذكورَ[(٥)].

وذكَر أعمالَهم التي استحَقُّوا بها هذا الجزاءَ، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾[(٦)].

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾

ولمَّا دَلَّ انتفاءُ رجائِهم علىٰ تكذيبِهم المُفْسِدِ للقُوَّةِ العلميَّةِ؛ صرَّح به علىٰ وجهٍ أعمَّ، فقال: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾[(٧)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٧).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٠٦).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩).
(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٨).
(٥) إرشاد العقل السليم (٩/ ٩١).
(٦) تفسير السعدي (ص: ٩٠٧).
(٧) نظم الدرر (٢١/ ٢٠٧).

النَّوعُ الثَّاني من قبائحِ أفعالِهم قولُه: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابٗا﴾[(١)].

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فكُلَّ شيءٍ جعَلْنا له وزنًا؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾[(٢)].

اعتراضٌ بينَ الجملِ التي سِيقَتْ مساقَ التَّعليلِ وبينَ جملةِ ﴿فَذُوقُواْ﴾، وفائدةُ هذا الاعتراضِ: المبادرةُ بإعلامِهم أنَّ اللهَ لا يخفىٰ عليه شيءٌ من أعمالِهم، فلا يدعُ شيئًا من سيِّئاتِهم إلَّا يُحاسِبُهم عليه، ما ذكر هنا وما لم يذكرْ[(٣)].

لمَّا بيَّن أنَّ فسادَ حالِهم في القُوَّةِ العمليَّةِ وفي القُوَّةِ النَّظريَّةِ بلَغ إلىٰ أقصىٰ الغاياتِ وأعظمِ النِّهاياتِ؛ بيَّن أنَّ تفاصيلَ تلك الأحوالِ في كَمِّيَّتِها وكيفيَّتِها معلومةٌ له، وقَدْرَ له ما يستحقُّ عليه من العقابِ معلومٌ له، فقال: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾[(٤)].

﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾

ولمَّا ذكَر عذابَه ووجهَ موافقتِه لجزائِهم؛ سبَّب عن تكذيبِهم ما يُقالُ لهم بلسانِ الحالِ أو المقالِ إهانةً وزيادةً في الجزاءِ علىٰ طريقِ الالتفاتِ المُؤْذِنِ بشِدَّةِ الخِزْيِ والغضبِ عليهم وكمالِ القدرةِ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقال، ويجوزُ أن يكونَ سببًا عن مُقدَّرٍ بعد ﴿كِتَٰبٗا﴾ نحو: ليُجازِيَهم علىٰ كلِّ شيءٍ منه، قائلًا لهم علىٰ لسانِ الملائكةِ أو لسانِ الحالِ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٨).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١).

(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٩).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ٢٠٨).

الفاءُ للتَّفريعِ والتَّسبُّبِ على جملةِ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ وما اتَّصَلَ بها، ولمَّا غيَّر أسلوبَ الخبرِ إلى الخطابِ بعدَ أنْ كان جاريًا بطريقِ الغَيْبةِ -ولم يكنْ مضمونُ الخبرِ ممَّا يجري في الدنيا فيُظَنَّ أنَّه خطابُ تهديدٍ للمشركين-؛ تَعيَّن أنْ يكونَ المُفرَّعُ قولًا محذوفًا دَلَّ عليه فعلُ «ذُوقُوا» الذي لا يُقالُ إلَّا يومَ الجزاءِ، فالتقديرُ: فيُقالُ لهم: «ذُوقُوا ...» إلى آخِرِه؛ ولهذا فليس في ضميرِ الخطابِ التفاتٌ، فالمفرَّعُ بالفاءِ هو فعلُ القولِ المحذوفِ(١).

لمَّا شرَح أحوالَ العقابِ أوَّلًا، ثم ادَّعى كونَه ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾، ثم بيَّن تفاصيلَ أفعالِهم القبيحةِ، وظهَر صحَّةُ ما ادَّعاه أوَّلًا من أنَّ ذلك العقابَ كان ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾؛ لا جَرَمَ أعادَ ذِكْرَ العقابِ. وقولُه: ﴿فَذُوقُواْ﴾، والفاءُ للجزاءِ، فنبَّه على أنَّ الأمرَ بالذَّوْق مُعلَّلٌ بما تَقدَّمَ شرحُه من قبائحِ أفعالِهم، فهذا الفاءُ أفادَ عينَ فائدةِ قولِه: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾(٢).

هذه الجملةُ مُسبَّبةٌ عن كفرِهم وتكذيبِهم بالآياتِ(٣).

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾

ولمَّا ذكَر جزاءَ الكافرين، وأَشعَرَ آخِرُه بكونِه إخزاءً؛ ذكَر جزاءَ المؤمنين المُخالِفِينَ لهم، فقال مُستأنِفًا مُؤكِّدًا لتكذيبِ الكافرين به: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾(٤).

جرى هذا الانتقالُ على عادةِ القرآنِ في تعقيبِ الإنذارِ للمُنذَرِينَ بتبشيرِ مَن هم أهلٌ للتَّبشيرِ، فانتقَل من ترهيبِ الكافرين بما سيُلاقُونَه إلى ترغيبِ المتقين فيما أعدَّ لهم في الآخرةِ من كرامةٍ ومن سلامةٍ ممَّا وقع فيه أهلُ الشِّركِ، فالجملةُ مُتَّصِلةٌ بجملةِ

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٢٠).

(٣) فتح القدير (٥/ ٤٤٣).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٠٩).

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾، وهي مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا بمناسبةِ مقتضىٰ الانتقالِ[(١)].

شروعٌ في بيانِ محاسنِ أحوالِ المؤمنين إثْرَ بيانِ سوءِ أحوالِ الكفَرةِ[(٢)].

﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾

ثم فسَّره أو أَبدَلَ منه على حذفِ مضافٍ؛ أي: فَوْز: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾[(٣)].

ثم فسَّر سبحانه هذا المفازَ، فقال: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾[(٤)].

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾

ولمَّا ذكَر المساكنَ النَّزِهةَ المُؤنِقةَ المُعجِبةَ؛ ذكَر ما يَتمتَّعُ به وهو جامعٌ لإلذاذِ الحواسِّ: البصرِ واللَّمسِ والذَّوقِ، فقال: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾[(٥)].

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾

ولمَّا ذكَر النِّساءَ؛ ذكَر المُلائِمَ لعِشْرتِهِنَّ، فقال: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾[(٦)].

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾

ولمَّا كانت مجالسُ الخمرِ في الدنيا ممتلئةً بما يُنغِّصُها من اللَّغوِ والكذبِ، إلَّا عندَ مَن لا مروءةَ له فلا يُنغِّصُه القبيحُ؛ قال نافيًا عنها ما يُكدِّرَ لَذَّةَ السَّمعِ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾[(٧)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٣).
(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ٩٢).
(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٠٩).
(٤) فتح القدير (٥/ ٤٤٥).
(٥) نظم الدرر (٢١/ ٢٠٩).
(٦) نظم الدرر (٢١/ ٢١٠).
(٧) نظم الدرر (٢١/ ٢١٠).

الجملةُ صفةٌ ثانيةٌ لـ«كَأْسًا»، والمقصودُ منها أنَّ خمرَ الجنَّةِ سليمةٌ ممَّا تُسبِّبُه خمرُ الدنيا من آثارِ العَرْبَدةِ من هَذَيانٍ وكذبٍ وسِبابٍ، واللَّغوُ والكذبُ من العيوبِ التي تَعرِضُ لِمَن تَدِبُّ الخمرُ في رؤوسِهم؛ أيْ: فأهلُ الجنَّةِ يُنعَّمون بلذَّةِ السُّكْرِ المعروفةِ في الدنيا قبلَ تحريمِ الخمرِ، ولا تأتي الخمرُ علىٰ كمالاتِهم النَّفسيَّةِ كما تأتي عليها خمرُ الدنيا، فلمَّا أحاطَ بأهلِ جهنَّمَ أشدُّ الأذىٰ بجميعِ حواسِّهم من جرَّاءِ حرقِ النَّارِ وسَقْيِهِمُ الحميمَ والغَسَّاقَ لينالَ العذابُ بواطنَهم كما نالَ ظاهرَ أجسادِهم؛ كذلك نفىٰ عن أهلِ الجنَّةِ أقلَّ الأذىٰ؛ وهو أذىٰ سماعِ ما يكرهُه النَّاسُ، فإنَّ ذلك أقلُّ الأذىٰ(١).

﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا كان العطاءُ إذا كان علىٰ المعاوضةِ كان أَطْيَبَ لنفسِ الآخذِ؛ قال: ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾(٢).

﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه سعةَ فضلِه؛ وصَفَ نفسَه الأَقْدَسَ بما يدلُّ علىٰ عظمتِه زيادةً في شرفِ المُخاطَبِ ﷺ؛ لأنَّ عَظَمةَ العبدِ علىٰ حَسَبِ عَظَمةِ السَّيِّدِ، فقال -مُبدِلًا علىٰ قراءةِ الجماعةِ، وقاطعًا بالرَّفعِ علىٰ المدحِ عندَ الحجازيِّينَ وأبي عمرٍو: ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾(٣).

لمَّا بالَغ في وصفِ وعيدِ الكفارِ ووعدِ المتقين؛ ختَم الكلامَ في ذلك بقولِه: ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٥).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢١١).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢١١).

(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٢٣).

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾

ولمَّا كان هذا ربما أَفهَمَ سدَّ بابِ الشَّفاعةِ عندَه سبحانه، وكان الكلامُ إنَّما ينشأُ من الرُّوحِ، وكان الملائكةُ أقربَ شيءٍ إلى الرُّوحيَّةِ؛ أكَّد هذا المعنى مُزيلًا ما قد يُوهِمُه في الشَّفاعةِ، فقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾(١).

﴿يَوْمَ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾؛ أيْ: لا يتكلَّمُ أحدٌ يومَئذٍ إلَّا مَن أَذِنَ له اللهُ. وجملةُ ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ مُؤكِّدةٌ لجملةِ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أُعِيدَتْ بمعناها لتقريرِ المعنى؛ إذْ كان المقامُ حقيقًا، فالتَّقريرُ لقصدِ التَّوصُّلِ به إلى الدَّلالةِ على إبطالِ زَعْمِ المشركين شفاعةَ أصنامِهم لهم عندَ اللهِ، وهي دلالةٌ بطريقِ الفحوى، فإنَّه إذا نُفِيَ تكلُّمُهم بدونِ إذنٍ، نُفِيَتْ شفاعتُهم؛ إذِ الشَّفاعةُ كلامُ مَن له وجاهةٌ وقَبُولٌ عندَ سامعِه(٢).

لمَّا ذكَر أنَّ أحدًا من الخلقِ لا يُمكِنُه أن يُخاطِبَ اللهَ في شيءٍ، أو يُطالِبَه بشيءٍ؛ قرَّر هذا المعنى وأكَّدَه، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾(٣).

﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾﴾

ولمَّا عظَّم ذلك اليومَ بالسُّكوتِ خوفًا من ذي الجبروتِ؛ أشار إليه بما يَستحِقُّه زيادةً في عَظَمتِه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢١٣).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥١).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ٢٤).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢١٤).

استئنافٌ ابتدائيٌّ كالفَذْلَكةِ لِما تَقدَّمَ من وعيدٍ ووعدٍ، وإنذارٍ وتبشيرٍ، سِيقَ مَساقَ التَّنويهِ بـ﴿يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾ الذي ابتُدِئَ الكلامُ عليه من قولِه: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا﴾، والمقصودُ التَّنويهُ بعظيمِ ما يقعُ فيه من الجزاءِ بالثَّوابِ والعقابِ، وهو نتيجةُ أعمالِ النَّاسِ من يومِ وجودِ الإنسانِ في الأرضِ[(١)].

لمَّا قرَّر أحوالَ المكلَّفين في درجاتِ الثَّوابِ والعقابِ، وقرَّر عَظَمةَ يومِ القيامةِ؛ قال بعدَه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾[(٢)].

﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾

ولمَّا قدَّم في هذه السورةِ من شرحِ هذا النَّبأِ العظيمِ ما قدَّم؛ من الحِكَمِ والمواعظِ واللَّطائفِ، والوعدِ والوعيدِ؛ لخَّصَه في قولِه مُؤكِّدًا لِما لهم من التَّكذيبِ: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[(٣)].

المقصودُ من هذه الجملةِ الإعذارُ للمُخاطَبِينَ بقوارعِ هذه السورةِ، بحيثُ لم يَبْقَ بينَهم وبينَ العلمِ بأسبابِ النَّجاةِ وضِدِّها شبهةٌ ولا خفاءٌ[(٤)].

ثم إنَّه تعالىٰ زادَ في تخويفِ الكفارِ، فقال: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٣).
(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٢٥).
(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢١٥).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٥).
(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ٢٦).

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

﴿وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشۡطٗا ۝٢﴾

ولمَّا ذكَر الشَّدَّ مُبتدِئًا به لأنَّه أَهْوَلُ؛ أَتبَعَه الرِّفقَ، فقال: ﴿وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشۡطٗا﴾ (١).

عطَفَها علىٰ «النَّازِعاتِ» عطفَ نوعٍ علىٰ نوعٍ، أو عطفَ صِنْفٍ علىٰ صِنْفٍ (٢).

﴿وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبۡحٗا ۝٣﴾

ولمَّا ذكَر نوعَي السَّلِّ بالشِّدَّةِ والرِّفقِ؛ ذكَر فعلَها في إقبالِها إليه ورجوعِها عنه، فقال: ﴿وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبۡحٗا﴾ (٣).

﴿فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾

عطفُ ﴿فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ﴾ بالفاءِ يُؤذِنُ بأنَّ هذه الصِّفةَ مُتفرِّعةٌ عن التي قبلَها؛ لأنَّهم يَعطِفون بالفاءِ الصِّفاتِ التي من شأنِها أن يَتفرَّعَ بعضُها عن بعضٍ؛ فلذلك ﴿فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ﴾ هي السَّابقاتُ من «السَّابحاتِ»، فقولُه تعالىٰ: ﴿فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبۡقٗا﴾ يَصلُحُ للحملِ علىٰ هذه المعاني علىٰ اختلافِ مَحامِلِ وصفِ «السَّابحاتِ» بما يُناسِبُ كلَّ احتمالٍ علىٰ حِيالِه؛ بأنْ يُرادَ: السَّائراتُ سيرًا سريعًا فيما تعلمُه، أو المُبادِراتُ. وإذا

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٣).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢١٩).

كان «السَّابحاتُ» بمعنىٰ: الخيلِ؛ كان «السَّابقاتُ» -إنْ حُمل علىٰ معنىٰ: المُسْرِعاتِ- كنايةً عن عدمِ مُبالاةِ الفرسانِ بعَدُوِّهم، وحرصِهم علىٰ الوصولِ إلىٰ أرضِ العَدُوِّ، أو علىٰ معنىٰ: غَلَبِهم أعداءَهم[١].

عطَف «السَّابقاتِ» بالفاءِ؛ لأنَّها مُسبَّبةٌ من التي قبلَها[٢].

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾

ولمَّا بانَ بذلك حُسْنُ امتثالِها للأوامرِ؛ بانَ به عظيمُ نظرِها في العواقبِ، فدَلَّ علىٰ ذلك بالفاءِ في قولِه: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾[٣].

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾

ولمَّا أَقسَمَ علىٰ القيامِ بتلك الأفعالِ العِظامِ، التي ما أَقدَرَ أهلَها عليها إلَّا المَلِكُ العلَّامُ؛ ذكَر ما يكونُ فيه من الأعلامِ تهويلًا لأمرِ السَّاعةِ؛ لأنَّ النُّفوسَ المحسوساتِ نزَّاعةٌ، فالغائباتُ عندَها مَنْسِيَّةٌ مُضاعةٌ، فقال ناصبًا الظَّرفَ بذلك المحذوفِ لأنَّه لشِدَّةِ وضوحِه كالملفوظِ به: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾[٤].

جملةُ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ جوابُ القَسَمِ، وصريحُ الكلامِ موعظةٌ، فكان في هذا الجوابِ تهويلٌ ليومِ البعثِ، وفي طَيِّه تحقيقُ وقوعِه، فحصَل إيجازٌ في الكلامِ جامعٌ بينَ الإنذارِ بوقوعِه والتَّحذيرِ ممَّا يجري فيه[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٤).

(٢) فتح القدير (٥/ ٤٥٠).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٢٠).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٢٢).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٥).

﴿ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ ﴾

ولمَّا ذكَر الصَّيحةَ الأولىٰ؛ أَتبَعَها الثَّانيةَ حالًا منها دلالةً علىٰ قُرْبِها قُرْبًا معنويًّا لتَحقُّقِ الوقوعِ، ولأنَّ ذلك كلَّه في حكمِ يومٍ واحدٍ، فصَحَّ مجيءُ الحالِ وإنْ بعُد زمنُه من زمنِ صاحبِه، فقال: ﴿ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾[1].

الجملةُ حالٌ من ﴿ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾ مُصحِّحةٌ لوقوعِ «اليومِ» ظرفًا للبعثِ؛ لإفادتِها امتدادَ الوقتِ وسَعَتَه؛ حيثُ أفادت أنَّ «اليومَ» زمانُ الرَّجفةِ المقيَّدةِ بتَبَعِيَّةِ «الرَّادفةِ» لها، وتَبَعِيَّةُ الشَّيءِ الآخرَ فرعُ وجودِ ذلك الشَّيءِ، فلا بدَّ من امتدادِ «اليومِ» إلىٰ «الرَّادفةِ»[2].

﴿ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ ﴾

ولمَّا ذكَر البعثَ؛ ذكَر حالَ المكذِّبِ به؛ لأنَّ السِّياقَ له، فقال مُبتدِئًا بنكرةٍ موصوفةٍ: ﴿ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ﴾[3].

ثم ذكَر حالَ قلوبِ الكفارِ، فقال: ﴿ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ﴾.

﴿ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ ﴾

ولمَّا وصَفَها بالاضطرابِ، وكان قد يخفىٰ سببُه -لكونِه قد يكونُ عندَ السُّرورِ العظيمِ كما قد يكونُ عندَ الوَجَلِ الشَّديدِ-؛ أَخبَرَ عنه بما يُحقِّقُ معناه، فقال: ﴿ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ﴾[4].

جملةُ ﴿ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ﴾ خبرٌ ثانٍ عن «قلوب»، وقد زاد المرادَ من الوَجِيفِ بيانًا قولُه: ﴿ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ﴾؛ أيْ: أبصارُ أصحابِ القلوبِ[5].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) روح المعاني (١٥/ ٢٢٧).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٢٣).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٢٤).

(٥) البحر المحيط (١٠/ ٣٩٧).

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠﴾

ولمَّا وصَفَها بالاضطرابِ والذُّلِّ؛ علَّله ليُعرَفَ منه أنَّ مَن يقولُ ضِدَّ قولِهم، يكونُ له ضِدُّ وصفِهم من الثَّباتِ والسُّكونِ والعِزِّ الظَّاهرِ، فقال: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾(١).

استئنافٌ إمَّا ابتدائيٌّ بعدَ جملةِ القَسَمِ وجوابِه؛ لإفادةِ أنَّ هؤلاء هم الذين سيكونون أصحابَ القلوبِ الواجفةِ والأبصارِ الخاشعةِ يومَ ترجُفُ الرَّاجفةُ، وإمَّا استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ القَسَمَ وما بعدَه من الوعيدِ يُثيرُ سؤالًا في نفسِ السَّامعِ عن الدَّاعي لهذا القَسَمِ، فأُجيبَ بـ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾؛ أيْ: مُنكِرونَ البعثَ؛ ولذلك سلَكَ في حكايةِ هذا القولِ أسلوبَ الغَيْبةِ، شأنُ التَّحدُّثِ عن غيرِ حاضرٍ(٢).

حكايةٌ لِما يقولُه المنكِرون للبعثِ، المكذِّبون بالآياتِ النَّاطقةِ به إثرَ بيانِ وقوعِه بطريقِ التَّوكيدِ القَسَميِّ، وذِكْرِ مُقدِّماتِه الهائلةِ وما يَعرِضُ عندَ وقوعِها للقلوبِ والأبصارِ(٣).

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١﴾

ولمَّا وصَف قلوبَهم بهذا الإنكارِ الذي ينبغي لصاحبِه أن يذوبَ منه خجلًا إذا فرَّط منه مرَّةً واحدةً، وأشارَ إلى شِدَّةِ وقاحتِهم بتكريرِه؛ أتبَعَه التَّصريحَ بتكريرِهم له على وجهٍ مُشيرٍ إلى العِلَّةِ الحاملةِ لهم على قولِه؛ وهو قولُهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ﴾(٤).

هذا الاستفهامُ إنكاريٌّ مُؤكِّدٌ للاستفهامِ الأوَّلِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذه الحالةَ جَديرةٌ بزيادةِ إنكارِ الإرجاعِ إلى الحياةِ بعدَ الموتِ، فهما إنكارانِ لإظهارِ شِدَّةِ إحالتِه(٥).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٢٤).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٨).
(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٩٧).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٢٥).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٧٠-٧١).

تأكيدٌ لإنكارِ الرَّدِّ ونفيه بنسبتِه إلىٰ حالةٍ مُنافِيةٍ له[(١)].

﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ١٢﴾

ولمَّا كان العاملُ في ﴿إِذًا﴾ مُقدَّرًا بنحوِ أنْ يُقالَ: نُردُّ إذْ ذاكَ إلىٰ حالتِنا الأولىٰ، ونقومُ كما كُنَّا؟! دَلَّ علىٰ هذا المحذوفِ قولُه تعالىٰ عنهم: ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[(٢)].

﴿قَالُواْ﴾ بدلُ اشتمالٍ من جملةِ ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾، وأُعِيدَ فعلُ القولِ لمقاصدَ؛ منها: الدَّلالةُ علىٰ أنَّ قولَهم هذا في غرضٍ آخرَ غيرِ القولِ الأوَّلِ، فالقولُ الأوَّلُ قصدُهم منه الإنكارُ والإبطالُ، والقولُ الثَّاني قصدوا منه الاستهزاءَ والتَّورُّكَ؛ لأنَّهم لا يؤمنون بتلك الكَرَّةِ، فوصفُهم إيَّاها بـ﴿خَاسِرَةٌ﴾ من بابِ الفرضِ والتقديرِ؛ أيْ: لو حصَلتْ كَرَّةٌ لكانت خاسرةً. ومنها: دفعُ تَوهُّمِ أن تكونَ جملةُ ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ استئنافًا من جانبِ اللهِ تعالىٰ[(٣)].

النَّوعُ الثَّالثُ من الكلماتِ التي حكاها اللهُ تعالىٰ عن مُنكِري البعثِ: ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[(٤)].

حكايةٌ لكفرٍ آخرَ لهم مُتفرِّعٍ علىٰ كفرِهم السَّابقِ، ولعلَّ توسيطَ ﴿قَالُواْ﴾ بينَهما للإيذانِ بأنَّ صدورَ هذا الكفرِ عنهم ليس بطريقِ الاطِّرادِ والاستمرارِ مِثلَ كفرِهم السَّابقِ المستمرِّ صدورُه عنهم في كافَّةِ أوقاتِهم، حَسَبَما يُنْبِئُ عنه حكايتُه بصيغةِ المضارعِ[(٥)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ٩٨).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٢٥).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٧١).

(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٣٧).

(٥) إرشاد العقل السليم (٩/ ٩٨).

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾

ولـمَّا كان التقديرُ: نَعَمْ واللهِ لَتُردُّنَّ يا هؤلاءِ، إنَّما هذا الذي تقولونه كلُّه استبعادٌ منكم كما أنَّكم مُقِرُّون بسهولتِه لو عَقَلْتُمْ، أمَّا من جهةِ القدرةِ: فلأنَّ الابتداءَ أصعبُ من الإعادةِ، وأنتم مُقِرُّون بالابتداءِ، ولأنَّ الاستبعادَ إنْ كان من جهةِ وقوعِ الظَّنِّ بأنَّ مَن صار ترابًا يصيرُ عَوْدُه مُحالًا من جهةِ تَعذُّرِ تمييزِ ترابِه من ترابِ غيرِه، فتمييزُ النَّازعِ والنَّاشطِ من الملائكةِ للرُّوحِ من الجسدِ أصعبُ من ذلك بكثيرٍ، وكذا غيرُ هذا ممَّا تُدبِّرُه الملائكةُ من الأمورِ؛ فكيف يَصعُبُ على ربِّهم سبحانه شيءٌ يَسهُلُ مِثلُه عليهم؟! وأمَّا من جهةِ العوائدِ: فإنَّ أحدًا لا يَدَعُ رَعِيَّةً له بغيرِ حسابٍ أصلًا. وأمَّا من جهةِ الوعدِ: فقد تَقدَّمَ به، وليس من شِيَمِ الكرامِ -فضلًا عن الملوكِ- إخلافُ الوعدِ ولا إقرارُ الظُّلمِ؛ فلا تُكذِّبوا بها ولا تستصعبوها؛ قال مُسبِّبًا عن هذا المقدَّرِ، مُهدِّدًا لأصحابِ الشُّبهةِ المقلِّدين: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾(١).

الفاءُ فصيحةٌ للتَّفريعِ على ما يُفيدُه قولُهم: ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ من إحالتِهم الحياةَ بعدَ البِلَى والفناءِ، فتقديرُ الكلامِ: فلا عَجَبَ في ذلك، فما هي إلَّا زَجْرةٌ واحدةٌ، فإذا أنتم حاضِرون في الحشرِ(٢).

تعليلٌ لمقدَّرٍ يقتضيه إنكارُهم لإحياءِ العِظامِ النَّخِرةِ التي عبَّروا عنها بـ«الكَرَّةِ»، فإنَّ مدارَه لما كان استصعابُهم إيَّاها رَدَّ عليهم ذلك، فقيل: لا تَستصعِبوها، ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٧٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٩٨).

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

وفاءُ ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ للتَّفريعِ علىٰ جملةِ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾، و«إذا» للمفاجأةِ؛ أي: الحصولِ دونَ تأخيرٍ، فحصَل تأكيدُ معنىٰ التَّفريعِ الذي أفادَتْه الفاءُ، وذلك يفيدُ عدمَ التَّرتُّبِ بينَ الزَّجْرةِ والحصولِ في السَّاهرةِ(١).

فتَسبَّبَ عن هذه النَّفخةِ الثَّانيةِ أنَّهم فُوجِئُوا بغايةِ السُّرعةِ كونَهم أحياءً قائمينَ، فذلك قولُه: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾

ولمَّا كانت قصَّةُ موسىٰ عليه السلام مع القِبْطِ أَشْبَهَ شيءٍ بالقيامةِ؛ لِما حصَل فيها من التَّقلُّباتِ والتَّغيُّراتِ، وإيجادِ المعدوماتِ من الجرادِ والقُمَّلِ والضَّفادعِ علىٰ تلك الهيئاتِ الخارجةِ عن العاداتِ في أسرعِ وقتٍ، وقهرِ الجبابرةِ، والمَنِّ علىٰ الضُّعفاءِ حتَّىٰ كان آخِرُ ذلك أنْ حشَر بني إسرائيلَ فنشَطَهم من القِبْطِ نَشْطًا رقيقًا كلَّهم وجميعَ ما لهم مع دوابِّهم إلىٰ ربِّهم، وحشَر جميعَ القِبْطِ وراءَهم فنزَعَهم نزعًا كلَّهم بحشرِ فرعونَ لهم بأصواتِ المُنادِينَ عنه في أسرعِ وقتٍ وأيسرِ أمرٍ، إلىٰ هلاكِهم، كما يحشرُ الأمواتَ بعدَ إحيائِهم بالصَّيحةِ إلىٰ السَّاهرةِ، ثم كانتِ العاقبةُ في الطَّائفتينِ بما للمُدبِّراتِ أمرًا أنَّ نجا بنو إسرائيلَ بالبحرِ كما ينجو يومَ البعثِ المؤمنون بالصِّراطِ، وهلَك فرعونُ وآلُه به كما يتساقطُ الكافرون بالصِّراطِ، وذلك أنَّه رأىٰ فرعونُ وجنودُه البحرَ قد انفلَق لبني إسرائيلَ، فلم يَعتبِروا بذلك، ثم دخلوا فيه وراءَهم، ولم يُجوِّزوا أنَّ الذي حسَره عن مكانِه قادرٌ علىٰ أنْ يُعِيدَه كما ابتدأه فيُغرِقَهم، واستَمَرُّوا في عماهم حتَّىٰ ردَّه اللهُ فأَغرَقَهم به، كما أنَّ مَن يُكذِّبُ بالقيامةِ رأىٰ بَدْءَ اللهِ له ولغيرِه، وإفناءَه بعدَ إبدائِه، ثم إنَّه لم يُجوِّزْ أنْ يُعِيدَه كما بدأه أوَّلَ مرَّةٍ؛ وصَل بذلك قولَه تعالىٰ جوابًا لِمَنْ يقولُ: هل لذلك من دليلٍ؟ مُخاطِبًا لأشرفِ

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٧٢).

الخلقِ؛ إشارةً إلىٰ أنَّه لا يَعتبِرُ هذا حقَّ اعتبارِه إلَّا أنت، مُستفهِمًا عن الإتيانِ للتنبيهِ والحثِّ علىٰ جمعِ النَّفسِ علىٰ التَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ والاعتبارِ، مُقرِّرًا ومُسلِّيًا له ﷺ، ومُهدِّدًا للمكذِّبين أَنْ يكونَ حالُهم -وهم أضعفُ أهلِ الأرضِ؛ لأنَّه لا مُلْكَ لهم- كحالِ فرعونَ في هذا، وقد كان أقوىٰ أهلِ الأرضِ بما كان له من المُلْكِ، وكثرةِ الجنودِ، وقُوَّتِهم، وسِحْرِهم، ومُرُودِهم في خداعِهم ومكرِهم، ورأىٰ من الآياتِ ما لم يَرَهُ أحدٌ قبلَه، فلمَّا أصرَّ علىٰ التَّكذيبِ، ولم يرجعْ ولا أفاده التَّأديبُ؛ أغرَقَه اللهُ وآلَه فلم يُبْقِ منهم أحدًا، وقد كانوا لا يُحْصَوْنَ عددًا، بحيثُ إنَّه قيل: إنَّ طليعتَه كانت علىٰ عددِ بني إسرائيلَ سِتَّمئةِ ألفٍ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾(١).

هذه الآيةُ اعتراضٌ بينَ جملةِ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾، وبينَ جملةِ ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾ الذي هو الحُجَّةُ علىٰ إثباتِ البعثِ ثم الإنذارِ بما بعدَه، دَعَتْ إلىٰ استطرادِه مناسبةُ التَّهديدِ لمُنْكِري ما أَخبَرَهم به الرسولُ ﷺ من البعثِ لتَماثُلِ حالِ المشركين في طغيانِهم علىٰ اللهِ ورسولِه ﷺ بحالِ فرعونَ وقومِه، وتَماثُلِ حالِ الرسولِ ﷺ مع قومِه بحالِ موسىٰ عليه السلام مع فرعونَ؛ ليَحصُلَ من ذِكْرِ قصَّةِ موسىٰ تسليةٌ للرَّسولِ ﷺ، وموعظةٌ للمشركين وأئمَّتِهم -مِثلَ: أبي جهلٍ، وأُميَّةَ بنِ خَلَفٍ، وأضرابِهما-؛ لقولِه في آخِرِها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦﴾(٢).

وجهُ المناسبةِ بينَ هذه القصَّةِ وبينَ ما قبلَها من وجهينِ؛ الأوَّلُ: أنَّه تعالىٰ حكىٰ عن الكفارِ إصرارَهم علىٰ إنكارِ البعثِ حتَّىٰ انتهَوْا في ذلك الإنكارِ إلىٰ حدِّ الاستهزاءِ في قولِهم: ﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢﴾، وكان ذلك يَشُقُّ علىٰ محمدٍ ﷺ، فذكَر قصَّةَ موسىٰ عليه السلام، وبيَّن أنَّه تَحمَّلَ المشقَّةَ الكثيرةَ في دعوةِ فرعونَ؛ ليكونَ ذلك كالتَّسليةِ للرَّسولِ ﷺ. الثَّاني: أنَّ فرعونَ كان أقوىٰ من كُفَّارِ قريشٍ، وأكثرَ جمعًا، وأشدَّ

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٢٧-٢٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٧٣).

شَوْكةً، فلمَّا تَمرَّدَ على موسى؛ أخذه اللهُ نكالَ الآخرةِ والأولى؛ فكذلك هؤلاء المشركون في تَمرُّدِهم عليك، إنْ أصرُّوا؛ أخذهم اللهُ وجعَلَهم نكالًا[١].

كلامٌ مُستأنَفٌ واردٌ لتسليةِ رسولِ اللهِ ﷺ من تكذيبِ قومِه بأنَّه يُصِيبُهم مِثلُ ما أصابَ مَن كان أقوى منهم وأعظمَ[٢].

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦)﴾

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ ظرفٌ للحديثِ لا للإتيانِ لاختلافِ وقتَيْهما[٣].

ثم ذكَر حديثَه، فقال: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧)﴾

ولمَّا ذكر المُناداةَ؛ فسَّر ثمرتَها بقولِه مُستأنِفًا مُنبِّهًا لأصحابِ الشَّهوةِ المُعْجَبِينَ المتكبِّرين، وقد أَرشَدَ السِّياقُ إلى أنَّ التقديرَ: ناداه قائلًا: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[٤].

جملةُ ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿نَادَاهُ رَبُّهُ﴾، وجملةُ ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ تعليلٌ للأمرِ في قولِه: ﴿اذْهَبْ﴾[٥].

﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨)﴾

ثم سبَّب عن الذَّهابِ إليه قولَه: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾[٦].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٣٨).
(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ٩٨).
(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٩٩).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٣٠).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٧٥).
(٦) نظم الدرر (٢١/ ٢٣٠).

ثم أمره أن يقولَ له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾.

﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾

ولمَّا أشارَ له إلىٰ الطَّهارةِ عن الشِّركِ؛ أتبعَها الأعمالَ، فقال: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾[1].

ولمَّا حثَّه علىٰ أن يَستعِدَّ لتخليصِ نفسِه من العقيدةِ الضَّالَّةِ التي هي خُبْثٌ مَجازِيٌّ في النَّفسِ، فيقبلَ إرشادَ مَن يُرشِدُه إلىٰ ما به زيادةُ الخيرِ، فإنَّ فعلَ المُطاوَعةِ يُؤذِنُ بفعلِ فاعلٍ يُعالِجُ نفسَه ويُروِّضُها إذْ كان لم يَهْتَدِ أنْ يُزكِّيَ نفسَه بنفسِه؛ ولذلك أعقبَه بعطفِ: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾؛ أيْ: إنْ كان فيك إعدادُ نفسِك للتَّزكيةِ؛ يَكُنْ إرشادي إيَّاكَ فتخشَىٰ، فكان ترتيبُ الجُمَلِ في الذِّكرِ مُراعًىٰ فيه ترتُّبُها في الحصولِ؛ فلذلك لم يَحْتَجْ إلىٰ عطفِه بفاءِ التَّفريعِ[2].

ثم أمر اللهُ تعالىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنْ يُفسِّرَ له التَّزكِّيَ الذي دعاه إليه بقولِه: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾[3].

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٢٠﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فذهَب إليه كما أمره اللهُ تعالىٰ، فقال له ذلك، فطلَب الدَّليلَ علىٰ صحَّةِ الرِّسالةِ، واستبعَدَ أن يختصَّ عنه بهذه المنزلةِ العَلِيَّةِ وقد ربَّاه وليدًا: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٣١).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٧٧).

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٤٣٣).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٣١-٢٣٢).

الفاءُ في قولِه: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ فصيحةٌ، وتفريعٌ علىٰ محذوفٍ يقتضيه قولُه: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾، والتقديرُ: فذهَب فدعاه، فكذَّبه، فأراه الآيةَ الكبرىٰ؛ وذلك لأنَّ قولَه: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ يُؤذِنُ بأنَّه سيُلاقِي دعوةَ موسىٰ بالاحتقارِ والإنكارِ؛ لأنَّ الطُّغيانَ مَظِنَّةُ ذَيْنِكَ، فعرَض موسىٰ عليه إظهارَ آيةٍ تدلُّ علىٰ صدقِ دعوتِه لعلَّه يُوقِنُ، فتلك هي الآيةُ الكبرىٰ المرادةُ هنا(١).

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ٢١﴾

فتَسبَّبَ عن رؤيةِ الآيةِ قولُه: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾(٢).

أَعقَبَ فعلَ ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ بفعلِ ﴿فَكَذَّبَ﴾ للدَّلالةِ علىٰ شِدَّةِ عنادِه ومُكابَرتِه، حتَّىٰ إنَّه رأىٰ الآيةَ فلم يَتردَّدْ ولم يَتمهَّلْ حتَّىٰ ينظرَ في الدَّلالةِ، بل بادَرَ إلىٰ التَّكذيبِ والعصيانِ(٣).

﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢﴾

ولمَّا كان التَّمادي علىٰ التَّكذيبِ ممَّن رأىٰ وعرَف الحقَّ -ولا سِيَّما إذا كان كبيرًا- مُستبعَدًا جدًّا؛ أشارَ إليه بأداةِ التَّراخي مع دلالتِها علىٰ حقيقةِ التَّراخي أيضًا، فقال: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ﴾(٤).

وعطَف ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ﴾ بـ﴿ثُمَّ﴾ للدَّلالةِ علىٰ التَّراخي الرُّتْبيِّ كما هو شأنُها في عطفِ الجُمَلِ، فأفادت ﴿ثُمَّ﴾ أنَّ مضمونَ الجملةِ المعطوفِ بها أعلىٰ رتبةً في الغرضِ

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٧٨).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٣٢).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٧٨).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٣٢).

الذي تَضمَّنَتْه الجملةُ قبلَها؛ أي: إنَّه ارتقىٰ من التَّكذيبِ والعصيانِ إلىٰ ما هو أشدُّ؛ وهو الإدبارُ والسَّعيُ وادِّعاءُ الإلهيَّةِ لنفسِه؛ أيْ: بعدَ أنْ فكَّر مَلِيًّا، لم يقتنعْ بالتَّكذيبِ والعصيانِ، فخَشِيَ أنَّه إنْ سكَت ربما تَرُوجُ دعوةُ موسىٰ بينَ النَّاسِ، فأرادَ الحَيْطةَ لدفعِها وتحذيرَ النَّاسِ منها[(١)].

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾

فتسبَّبَ عن إدبارِه ساعيًا وتَعقُّبِه قولُه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾[(٢)].

والعملُ الذي ﴿يَسْعَىٰ﴾ إليه يُبيِّنُه قولُه تعالىٰ: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فثلاثتُها مُرتَّبةٌ علىٰ ﴿يَسْعَىٰ﴾، فجملةُ ﴿فَحَشَرَ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿يَسْعَىٰ﴾؛ لأنَّ فرعونَ بذَل حرصَه ليُقنِعَ رَعِيَّتَه بأنَّه الرَّبُّ الأعلىٰ؛ خشيةَ شيوعِ دعوةِ موسىٰ لعبادةِ الرَّبِّ الحقِّ، وعطف ﴿فَنَادَىٰ﴾ بالفاءِ لإفادةِ أنَّه أَعلَنَ هذا القولَ لهم بفَوْرِ حضورِهم لفَرْطِ حرصِه علىٰ إبلاغِ ذلك إليهم[(٣)].

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾

والقولُ الذي نادىٰ به هو تذكيرُ قومِه بمُعتقَدِهم فيه؛ فإنَّهم كانوا يعتبرون مَلِكَ مصرَ إلهًا؛ لأنَّ الكَهَنةَ يُخبِرُونهم بأنَّه ابنُ «آمون رع» الذي يجعلونه إلهًا ومَظهَرُه الشَّمسُ. وصيغةُ الحصرِ في ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ﴾ لرَدِّ دعوةِ موسىٰ. وقولُه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ بدلٌ من جملةِ ﴿فَنَادَىٰ﴾ بدلًا مُطابِقًا بإعادةِ حرفِ العطفِ وهو الفاءُ؛ لأنَّ البدلَ قد يَقترِنُ بمِثْلِ العاملِ في المُبْدَلِ منه لقصدِ التَّأكيدِ، ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ﴾

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٧٩).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٣٢).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٧٩).

عطفًا علىٰ جملةِ ﴿يَسْعَىٰ﴾ علىٰ أن يكونَ فرعونُ أمر بهذا القولِ في أنحاءِ مملكتِه، وليس قاصرًا علىٰ إعلانِه في الحشرِ الذين حشَرَهم حولَ قصرِه(١).

فلمَّا جمَعَهم؛ قام فيهم خطيبًا، ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ (٢٥)﴾

ولمَّا أَخبرَ سبحانه عنه بهذه الكلمةِ الشَّنعاءِ القادحةِ في المَلِكِ، وكان الملوكُ لا يَحتمِلون ذلك بوجهٍ؛ سبَّب عنها وعقَّب قولَه: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾(٢).

جملةُ ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ مُفرَّعةٌ عن الجملِ التي قبلَها؛ أيْ: كان ما ذكر من تكذيبِه وعصيانِه وكيدِه سببًا لأَنْ أخذه اللهُ، وهذا هو المقصودُ من سَوْقِ القصَّةِ، وهو مَناطُ موعظةِ المشركين وإنذارِهم، مع تسليةِ النبيِّ ﷺ وتثبيتِه(٣).

لمَّا حكىٰ عنه أفعالَه وأقوالَه؛ أَتبعَه بما عامَلَه به، وهو قولُه تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾(٤).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ (٢٦)﴾

ولمَّا لخَّص ﷻ ما مضىٰ من قصصِه في هذه الكلماتِ اليسيرةِ أحسنَ تلخيصٍ وأقربَه، مع عدمِ المُخالَفةِ لشيءٍ ممَّا مضىٰ؛ لأنَّ المُفصَّلَ موضعُ الاختصارِ، أمَّا باعتبارِ النُّزولِ؛ فإنَّه نزَل أوَّلًا، فكان تقريبُ القصصِ للنَّاسِ بالاقتصارِ علىٰ ما لا بدَّ منه أَولىٰ ليستأنسوا به، وأمَّا من جهةِ التَّرتيبِ؛ فلتذكيرِهم بما مضىٰ ليجتمعَ في

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٨٠).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٣٥).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٨١).
(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٤١).

المُخيِّلةِ(١) في أقربِ وقتٍ، ويُتَذكَّرَ به ذلك المبسوطُ، وختَمَه بأخذِه هذا الأخذَ الغريبَ؛ أَرشَدَ إلىٰ ما في القصَّةِ من العِبرةِ، مُشِيرًا إلىٰ استحضارِ ما مضىٰ كلِّه، فقال مُؤكِّدًا مُقرِّرًا للمُكذِّبِ ومُنبِّهًا للمُصدِّقِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾(٢).

جاء في آخِرِ القصَّةِ بحَوْصَلةٍ وفَذْلَكةٍ لِما تَقدَّمَ، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾، فهو في معنىٰ البيانِ لمضمونِ جملةِ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ...﴾ الآياتِ، والإشارةُ بقولِه: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ إلىٰ ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، وفي هذا تعريضٌ بالمشركين بأنَّهم ليسوا بأهلٍ للانتفاعِ بمِثْلِ هذا كما لم ينتفعْ بمِثْلِه فرعونُ وقومُه، وفي القصَّةِ كلِّها تعريضٌ بسادةِ قريشٍ من أهلِ الكفرِ -مِثْلِ أبي جهلٍ- بتنظيرِهم بفرعونَ، وتنظيرِ الدَّهْماءِ بالقومِ الذين حشَرَهم فرعونُ ونادىٰ فيهم بالكفرِ، وقد علم المسلمون مَضرِبَ هذا المَثَلِ، فكان أبو جهلٍ يُوصَفُ عندَ المسلمين بـ«فرعون هذه الأُمَّة»(٣).

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾

ولمَّا ختَم قصَّةَ فرعونَ -لعنه اللهُ- بالعِبرةِ، وكان أعظمُ عِبْرتِها القدرةَ التَّامَّةَ؛ لا سِيَّما علىٰ البعثِ، كما هي مُشِيرةٌ إليه بأوَّلِها وآخِرِها، والعقوبةَ علىٰ التَّكذيبِ به؛ لأنَّ التَّكذيبَ به يجمعُ مَجامعَ الشَّرِّ، والتَّصديقَ به يجمعُ مَجامِعَ الخيرِ، وكانوا يستبعدونه لاستبعادِ القدرةِ عليه؛ وصل به ما هو كالنَّتيجةِ منه، فقال مُقرِّرًا مُخاطِبًا لأصحابِ الشُّبْهةِ الشَّاكِّينَ، مُوقِفًا لهم علىٰ القدرةِ، مُنكِرًا عليهم استبعادَهم ذلك مُلتفِتًا بعدَ تخصيصِ الخطابِ به ﷺ لِما تَقدَّمَ من دِقَّةِ فهمِه وجلالةِ علمِه ﷺ إلىٰ عمومِ الخطابِ لوضوحِ هذا البرهانِ لكُلِّ إنسانٍ استعطافًا بهم في توبيخٍ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾(٤).

---

(١) أي: القوة التي تخيِّل الأشياءَ وتصوِّرها في العقل.

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٣٦-٢٣٧).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٨٢).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٣٨).

انتقالٌ من الاعتبارِ بأمثالِهم من الأُمَمِ الذي هو تخويفٌ وتهديدٌ على تكذيبِهم الرسولَ ﷺ إلى إبطالِ شبهتِهم على نفيِ البعثِ، وهي قولُه: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾﴾ وما أعقبُوه به من التَّهكُّمِ المبنيِّ على توهُّمِ إحالةِ البعثِ، وإذ قد فرَضوا استحالةَ عَوْدِ الحياةِ إلى الأجسامِ الباليةِ إذْ مثَّلُوها بأجسادِ أنفسِهم، إذْ قالوا: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ جاء إبطالُ شبهتِهم بقياسِ خلقِ أجسادِهم على خلقِ السَّماواتِ، فقيل لهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾[1].

لمَّا ختَم هذه القصَّةَ؛ رجَع إلى مُخاطَبةِ مُنكِري البعثِ، فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾[2].

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾

ثم بيَّن البناءَ بقولِه: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾[3].

جملةُ ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ مُبيِّنةٌ لجملةِ ﴿بَنَىٰهَا﴾، أو بدلُ اشتمالٍ منها، وسلَك طريقَ الإجمالِ ثم التَّفصيلِ لزيادةِ التَّصويرِ[4].

ثم بيَّن كيفيَّةَ خلقِها بقولِه: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾[5].

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا كان كلٌّ من ذلك يدلُّ على القدرةِ على البعثِ؛ لأنَّه إيجادُ ما هو أشدُّ من خلقِ الآدميِّ من عدمٍ؛ أتبعَه ما يُتصوَّرُ به البعثُ في كلِّ يومٍ وليلةٍ مرَّتينِ، فقال: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾[6].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٨٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٤٢).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٣٩).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٨٣).

(٥) محاسن التأويل (٩/ ٤٠١).

(٦) نظم الدرر (٢١/ ٢٣٩).

جملةُ ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿بَنَىٰهَا﴾، وليست معطوفةً علىٰ ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾؛ لأنَّ إغطاشَ وإخراجَ الضُّحىٰ ليس ممَّا يَبِينُ به البناءُ. وإضافةُ «ليلٍ» و«ضُحًىٰ» إلىٰ ضميرِ «السَّماءِ»: إنْ كان السَّماءُ الدنيا؛ فلأنَّهما يَلُوحانِ للنَّاسِ في جوِّ السَّماءِ، فيَلُوحُ الضُّحىٰ أَشِعَّةً مُنتشِرةً من السَّماءِ، صادرةً من جهةِ مَطلِعِ الشَّمسِ، فتقعُ الأَشِعَّةُ علىٰ وجهِ الأرضِ، ثم إذا انحجَبتِ الشَّمسُ بدورةِ الأرضِ في اليومِ واللَّيلةِ؛ أخذ الظَّلامُ يحلُّ محلَّ ما يَتقلَّصُ من شعاعِ الشَّمسِ في الأُفُقِ إلىٰ أن يصيرَ ليلًا حالكًا مُحِيطًا بقسمٍ من الكُرَةِ الأرضيَّةِ. وإنْ كان السَّماءُ جنسًا للسَّماواتِ؛ فإضافةُ «ليلٍ» و«ضُحًىٰ» إلىٰ السَّماواتِ لأنَّهما يَلُوحانِ في جهاتِها[١].

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾

ولمَّا بدأ بدلالةِ العالمِ العُلْويِّ؛ لأنَّه أَدَلُّ لِما فيه من العجائبِ والمنافعِ مع كونِه أشرفَ، فذكَر أنَّه أتقن السَّماء التي هي كالذَّكرِ؛ ثنَّىٰ بأنَّه سوَّىٰ ما هي لها كالأنثىٰ، فقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[٢].

انتقَل الكلامُ من الاستدلالِ بخلقِ السَّماءِ إلىٰ الاستدلالِ بخلقِ الأرضِ؛ لأنَّ الأرضَ أقربُ إلىٰ مُشاهَدتِهم، وما يُوجَدُ علىٰ الأرضِ أقربُ إلىٰ علمِهم بالتَّفصيلِ، أو الإجمالِ القريبِ من التَّفصيلِ[٣].

لمَّا وصَف كيفيَّةَ خلقِ السَّماءِ؛ أَتبَعَه بكيفيَّةِ خلقِ الأرضِ[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٨٥).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٤٠).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٨٦).

(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٤٦).

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١)﴾

ولمَّا ذكَر الدَّحْوَ؛ أَتبعَه ما استلزَمه من المنافعِ؛ لتوقُّفِ السُّكْنَىٰ المقصودةِ بالدَّحْوِ عليه، فقال كالمُبيِّنِ له من غيرِ عاطفٍ: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾[1].

جملةُ ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ بدلُ اشتمالٍ من جملةِ ﴿دَحَاهَا﴾؛ لأنَّ المقصدَ من دَحْوِها بمقتضىٰ ما يُكمِلُ تيسيرَ الانتفاعِ بها[2].

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢)﴾

ولمَّا ذكَر الأرضَ ومنافعَها؛ ذكَر المراسيَ التي تمَّ بها نفعُها، فقال: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾[3].

ولعلَّ تقديمَ إخراجِ الماءِ والمرعىٰ ذكرًا مع تَقدُّمِ الإرساءِ عليه وجودًا، وشِدَّةِ تَعلُّقِه بالدَّحْوِ؛ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بأمرِ المأكلِ والمشربِ، مع ما فيه من دفعِ تَوهُّمِ رجوعِ ضميرَيِ «الماءِ» و«المرعىٰ» إلىٰ «الجبالِ»، وهذا -كما ترىٰ- يدلُّ بظاهرِه علىٰ تأخُّرِ دَحْوِ الأرضِ عن خلقِ السَّماءِ وما فيها[4].

﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾

ولمَّا كانت الإعادةُ واضحةً من تناولِ الحيوانِ المأكلَ والمشربَ وغيرَهما من المتاعِ، فإنَّه كُلَّما نقَص منه شيءٌ؛ تَناوَلَ ما قُدِّرَ له ليعودَ ذلك أو بعضُه؛ قال مُنبِّهًا

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٨٧).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٤٠).

(٤) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٠٢).

علىٰ أنَّه كلَّ يومٍ في إعادةٍ بانيًا حالًا ممَّا تقدَّمَ تقديرُه: حالَ كونِها ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾(١).

ولمَّا بيَّن كيفيَّةَ خلقِه الأرضَ، وكَمِّيَّةَ منافعِها؛ بيَّن فائدةَ ذلك، فقال: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤﴾

ولمَّا ذكَر ما دَلَّ علىٰ البعثِ؛ أَتبعَه ما يكونُ عن البعثِ مُسبَّبًا عنه دلالةً علىٰ أنَّ الوجودَ ما خُلق إلَّا لأجلِ البعثِ؛ لأنَّه مَحَطُّ الحكمةِ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾(٢).

يجوزُ أن يكونَ التَّفريعُ علىٰ الاستدلالِ الذي تَضمَّنَه قولُه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ...﴾ الآياتِ، فإنَّ إثباتَ البعثِ يقتضي الجزاءَ؛ إذْ هو حكمتُه، وإذا اقتضىٰ الجزاءَ؛ كان علىٰ العاقلِ أن يعملَ لجزاءِ الحسنىٰ، ويجتنبَ ما يُوقِعُ في الشَّقاءِ، وأن يهتمَّ بالحياةِ الدَّائمةِ فيُؤْثِرَها، ولا يكترثَ بنعيمٍ زائلٍ فيتورَّطَ في اتِّباعِه؛ فلذلك فُرِّعَ علىٰ دليلِ إثباتِ البعثِ تذكيرٌ بالجزاءينِ، وإرشادٌ إلىٰ النَّجْدَيْنِ، وإذْ قد قُدِّمَ قبلَ الاستدلالِ تحذيرٌ إجماليٌّ بقولِه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ...﴾ الآيةَ، كما يُذكَرُ المطلوبُ قبلَ القياسِ في الجدلِ؛ جِيءَ عَقِبَ الاستدلالِ بتفصيلِ ذلك التَّحذيرِ مع قَرْنِه بالتَّبشيرِ لِمَن تَحلَّىٰ بضِدِّه؛ فلذلك عبَّر عن البعثِ ابتداءً بـ«الرَّاجفةِ»؛ لأنَّها مَبْدَؤُه، ثم بـ«الزَّجْرةِ»، وأخيرًا بـ«الطَّامَّةِ الكبرىٰ»؛ لِما في هذينِ الوصفينِ من معنًىٰ يشملُ «الرَّاجفةَ» وما بعدَها من الأهوالِ إلىٰ أن يستقرَّ كلُّ فريقٍ في مَقَرِّه. ومن تمامِ المناسبةِ للتَّذكيرِ بيومِ الجزاءِ: وقوعُه عَقِبَ التَّذكيرِ بخلقِ الأرضِ، والامتنانُ بما هيَّأ منها للإنسانِ متاعًا

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٤١).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٤١).

به؛ للإشارةِ إلىٰ أنَّ ذلك ينتهي عندَما يَحِينُ يومُ البعثِ والجزاءِ. ويجوزُ أن يُجعَلَ قولُـه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ مُفرَّعًـا علـىٰ قولِـه: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾؛ فإنَّ «الطَّامَّةَ» هي «الزَّجْرةُ»، ومَناطُ التَّفريعِ هو ما عقَّبه من التَّفصيلِ بقولِه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ...﴾ إلخ؛ إذْ لا يَلْتَئِمُ تفريعُ الشَّيءِ علىٰ نفسِه[(١)].

أنَّه تعالىٰ ذكَر كيفيَّةَ خلقِه السَّماءَ والأرضَ؛ ليستدلَّ بها علىٰ كونِه قادرًا علىٰ الحشرِ والنَّشرِ، فلمَّا قرَّر ذلك، وبيَّن إمكانَ الحشرِ عقلًا؛ أَخبرَ بعدَ ذلك عن وقوعِه، فقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾[(٢)].

شروعٌ في بيانِ أحوالِ مَعادِهم إثرَ بيانِ أحوالِ مَعاشِهم[(٣)].

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾

ولمَّا كان الشَّيءُ لا يُعرَفُ قدرُه إذا كان غائبًا إلَّا بما يكونُ فيه؛ قال مُبدِلًا منه: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾[(٤)].

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ بدلٌ من جملةِ ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ بدلَ اشتمالٍ؛ لأنَّ ما أُضِيفَ إليه «يومٌ» هو من الأحوالِ التي يشتملُ عليها زمنُ مَجِيءِ «الطَّامَّةِ»؛ وهو يومُ القيامةِ ويومُ الحسابِ[(٥)].

ثم إنَّه تعالىٰ وصَف ذلك اليومَ بوصفينِ: الأوَّلُ قولُه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾[(٦)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٨٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٤٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٠٣).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٤١).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٩٠).

(٦) مفاتيح الغيب (٣١/ ٤٨).

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا أشارَ إلىٰ الحسابِ؛ ذكَر ما بعدَه، فقال: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾[١].

الصِّفةُ الثَّانيةُ قولُه تعالىٰ: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾[٢].

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾

ولمَّا كان جوابُ «إذا» -كما مضىٰ- محذوفًا، وكان تقديرُه أنْ قسَّم النَّاسَ قسمينِ: قسمٌ للجحيمِ، وقسمٌ للنَّعيمِ؛ قال تعالىٰ مُسبِّبًا عنه مُفصِّلًا: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾[٣].

لمَّا وصَف حالَ القيامةِ في الجملةِ؛ قسَّم المكلَّفِينَ قسمينِ: الأشقياءُ والسُّعداءُ، فذكر حالَ الأشقياءِ، فقال تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾[٤].

﴿ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ ﴾

ولمَّا كان الذي بعدَ حدودِ اللهِ هو الدنيا؛ صرَّح به فقال: ﴿ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾[٥].

وقدَّم ذِكرَ الطُّغيانِ علىٰ إيثارِ الحياةِ الدنيا؛ لأنَّ الطُّغيانَ من أكبرِ أسبابِ إيثارِ الحياةِ الدنيا، فلمَّا كان مُسبَّبًا عنه؛ ذُكِرَ عَقِبَه مُراعاةً للتَّرتُّبِ الطَّبيعيِّ[٦].

﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾

ولمَّا كان الإنسانُ مُؤاخَذًا بما اكتسَب؛ سبَّب عن أعمالِه هذه قولَه مُؤكِّدًا لتكذيبِهم ذلك: ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[٧].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٤٢).
(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٤٨).
(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٤٢).
(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٤٩).
(٥) نظم الدرر (٢١/ ٢٤٢).
(٦) التحرير والتنوير (٣٠/ ٩١).
(٧) نظم الدرر (٢١/ ٢٤٣).

ثم ذكَر مصيرَ مَن فعل ذلك، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

ولمَّا ذكَر الطَّاغيَ؛ أتبعَه المُتَّقيَ، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[1].

قولُه: ﴿مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ مُقابِلُ قولِه: ﴿مَن طَغَىٰ﴾؛ لأنَّ الخوفَ ضِدُّ الطُّغيانِ، وقولُه: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ مُقابِلُ قولِه: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[2].

ثم ذكَر القسمَ الثَّانيَ من القسمينِ، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[3].

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

ولمَّا كان مقامَ ترغيبٍ؛ ربَط الجزاءَ بالعملِ كما صنَع في التَّرهيبِ، فقال وأكَّد لأجلِ تكذيبِ الكفارِ: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[4].

ثم ذكَر مصيرَ مَن فعَل ذلك، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾

ولمَّا قسَّمَهم هذا التَّقسيمَ المُفهِمَ أنَّ هذا شيءٌ لا بدَّ منه؛ استأنَفَ ذِكرَ استهزائِهم تعجيبًا منهم، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٤٣).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٩٢).
(٣) فتح القدير (٥/ ٤٥٩).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٤٤).
(٥) نظم الدرر (٢١/ ٢٤٤).

استئنافٌ بيانيٌّ منشؤُه أنَّ المشركين كانوا يسألون عن وقتِ حلولِ السَّاعةِ التي يَتوعَّدُهم بها النبيُّ ﷺ، كما حكاه اللهُ عنهم غيرَ مرَّةٍ في القرآنِ، وكان سؤالُهم استهزاءً واستخفافًا؛ لأنَّهم عقَدوا قلوبَهم على استحالةِ وقوعِ السَّاعةِ، وربما طلبوا التَّعجيلَ بوقوعِها، وأَوهَمُوا أنفسَهم وأشياعَهم أنَّ تأخُّرَ وقوعِها دليلٌ على اليأسِ منها؛ لأنَّهم يَتوهَّمون أنَّهم إذا فعلوا ذلك مع الرسولِ ﷺ لو كان صادقًا لحَمِيَ غضبُ اللهِ مُرسِلِه سبحانه، فبادَرَ بإراءتِهم العذابَ، وهم يَتوهَّمون شؤونَ الخالقِ كشؤونِ النَّاسِ، إذا غَضِبَ أحدُهم عجَّل بالانتقامِ طَيْشًا وحَنَقًا! فلا جَرَمَ لمَّا قُضِيَ حقُّ الاستدلالِ على إمكانِ البعثِ بإقامةِ الدَّليلِ وضربِ الأمثالِ، وعرَّض بعقابِ الذين استَخَفُّوا بها في قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾؛ كان ذلك مَثارًا لسؤالِهم أن يقولوا: هل لمجيءِ هذه الطَّامَّةِ الكبرى وقتٌ معلومٌ؟ فكان الحالُ مُقتضِيًا هذا الاستئنافَ البيانيَّ قضاءً لحقِّ المقامِ وجوابًا عن سابقِ الكلامِ[(١)].

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا كان إيرادُ هذا هكذا مُفهِمًا للإنكارِ عليهم في هذا السُّؤالِ، وكان من المعلومِ أنَّه يقولُ: إنَّهم لَيَسألُونني، وربما تَحرَّكَتْ نفسُه الشَّريفةُ ﷺ إلى إجابتِهم؛ لحرصِه على إسلامِهم شفقةً عليهم، فطَمَّه عن ذلك، وصرَّح بالإنكارِ بقولِه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾[(٢)].

قولُه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ واقعٌ موقعَ الجوابِ عن سؤالِهم عن السَّاعةِ باعتبارِ ما يظهرُ من حالِ سؤالِهم عن السَّاعةِ من إرادةِ تعيينِ وقتِها، وصرفِ النَّظرِ عن إرادتِهم به الاستهزاءَ، فهذا الجوابُ من تخريجِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ، وهو من

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٩٤).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٤٥).

تَلَقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يَتطلَّبُ؛ تنبيهًا له على أنَّ الأَولىٰ به أن يهتمَّ بغيرِ ذلك، وهذا ما يُسمَّىٰ بالأسلوبِ الحكيمِ. والخطابُ وإنْ كان مُوجَّهًا إلىٰ النبيِّ ﷺ، فالمقصودُ بلوغُه إلىٰ مسامعِ المشركين؛ فلذلك اعتُبر اعتبارَ جوابٍ عن كلامِهم، وذلك مقتضىٰ فصلِ الجملةِ عن التي قبلَها شأنُ الجوابِ والسُّؤالِ(١).

إنكارٌ وردٌّ لسؤالِ المشركين عنها(٢).

فأجابهم اللهُ بقوله: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾(٣).

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤﴾

ثم عرَّفها بما لا يمكنُ المزيدُ عليه ممَّا أفادته الجملةُ التي قبلُ من أنَّه لا يمكنُ علمُها لغيرِه ﷻ، فقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾(٤).

جملةُ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ في موقعِ العِلَّةِ للإنكارِ الذي اقتضاه قولُه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾؛ ولذلك فُصِلَتْ، وفي الكلامِ تقديرُ مضافٍ، والمعنىٰ: إلىٰ ربِّك علمُ منتهاها، وتقديمُ المجرورِ علىٰ المبتدأ في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ لإفادةِ القصرِ؛ أيْ: لا إليكَ، وهذا قصرُ صفةٍ علىٰ موصوفٍ.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ٤٥﴾

ولمَّا كان غايةُ أمرِهم أنَّهم يقولون: إنَّه مُتقوِّلٌ من عندِ نفسِه؛ قلَب عليهم الأمرَ، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٩٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٠٥).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٩١٠).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٤٥).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ٢٤٥).

قولُه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن جملةِ ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾، وهو أن يسألَ السَّامعَ عن وجهِ إكثارِ النبيِّ ﷺ ذكرَها، وأنَّها قريبةٌ، فأُجيبَ بأنَّ النبيَّ ﷺ حظُّه التَّحذيرُ من بَغْتَتِها، وليس حظُّه الإعلامَ بتعيينِ وقتِها، علىٰ أنَّ المشركين قد اتَّخَذوا إعراضَ القرآنِ عن تعيينِ وقتِها حُجَّةً لهم علىٰ إحالتِها؛ لأنَّهم بجهلِهم بالحقائقِ يَحسَبون أنَّ من شأنِ النبيِّ ﷺ أن يعلمَ الغيبَ؛ ولذلك تكرَّرَ في القرآنِ تَبْرِئَةُ النبيِّ ﷺ من ذلك[(١)].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ علىٰ الوجهِ الأوَّلِ تقريرٌ لِما قبلَه من قولِه تعالىٰ: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾، وتحقيقٌ لِما هو المرادُ منه، وبيانٌ لوظيفتِه عليه الصلاة والسلام في ذلك الشَّأنِ، فإنَّ إنكارَ كونِه عليه الصلاة والسلام في شيءٍ من ذِكْراها ممَّا يُوهِمُ بظاهرِه أنْ ليس له عليه الصلاة والسلام أن يذكرَها بوجهٍ من الوجوهِ، فأُزِيحَ ذلك ببيانِ أنَّ المنفيَّ عنه عليه الصلاة والسلام ذِكْرُها لهم بتعيينِ وقتِها حَسَبَما كانوا يسألونه عليه الصلاة والسلام عنها، فالمعنىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾، وظيفتُك: الامتثالُ بما أُمِرتَ به؛ من بيانِ اقترابِها، وتفصيلِ ما فيها من فنونِ الأهوالِ كما تُحِيطُ به خُبْرًا، لا تعيينُ وقتِها الذي لم يُفوَّضْ إليك؛ فما لهم يسألونك عمَّا ليس من وظائفِك بيانُه؟ وعلىٰ الوجهِ الثَّاني هو تقريرٌ لقولِه تعالىٰ: ﴿أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ ببيانِ أنَّ إرسالَه عليه الصلاة والسلام وهو خاتمُ الأنبياءِ عليهم السلام مُنذِرٌ بمجيءِ السَّاعةِ، كما ينطقُ به قولُه عليه الصلاة والسلام: «بُعِثتُ أنا والساعةَ كهاتينِ، إنْ كادت لَتَسبِقُني»[(٢)(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٩٤٧)، وأوَّلُه في البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٨٦٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٠٥).

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

ولمَّا أَثْبَتَ أنَّه مُنذِرٌ، وكان أَخْوَفُ الإنذارِ الإسراعَ؛ قال مُستأنِفًا -مُحقِّرًا لهم الدنيا، مُزهِّدًا لهم فيها-: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ (١).

جوابٌ عمَّا تَضمَّنَه قولُه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ باعتبارِ ظاهرِ حالِ السُّؤالِ من طلبِ المعرفةِ بوقتِ حلولِ السَّاعةِ واستبطاءِ وقوعِها الذي يَرْمُونَ به إلىٰ تكذيبِ وقوعِها، فأُجِيبوا علىٰ طريقةِ الأسلوبِ الحكيمِ؛ أيْ: إنْ طالَ تأخُّرُ حصولِها؛ فإنَّها واقعةٌ، وأنَّهم يومَ وقوعِها كأنَّه ما لَبِثُوا في انتظارٍ إلَّا بعضَ يومٍ (٢).

إمَّا تقريرٌ وتأكيدٌ لِما يُنبِئُ عنه الإنذارُ من سرعةِ مجيءِ المُنذَرِ به؛ لا سِيَّما علىٰ الوجهِ الثَّاني؛ أي: كأنَّهم يومَ يَرَوْنَها لم يَلْبَثُوا بعدَ الإنذارِ بها إلَّا عَشِيَّةَ يومٍ واحدٍ أو ضُحَاه، فلمَّا تُرك اليومُ؛ أُضِيفَ ضُحَاه إلىٰ عَشِيَّتِه، وإمَّا رَدٌّ لِما أَدْمَجُوه في سؤالِهم، فإنَّهم كانوا يسألون عنها بطريقِ الاستبطاءِ مُستعجِلينَ بها، وإنْ كان علىٰ نهجِ الاستهزاءِ بها، ويقولون: متىٰ هذا الوعدُ إنْ كنتم صادقين؟ (٣).

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٩٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٠٦).

سورة عبس

﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾

ثم ذكَر سببَ العُبُوسِ والتَّولِّي، فقال: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾

ولمَّا عُرف بسياقِ الغَيْبةِ ما أُرِيدَ من الإجلالِ، وكان طولُ الإعراضِ مُوجِبًا للانقباضِ؛ أَقبلَ عليه ﷺ فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾[(1)].

ثم ذكَر الفائدةَ في الإقبالِ عليه، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾[(2)].

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾

جملةُ ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ عطفٌ على ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾؛ أيْ: ما يُدرِيكَ أنْ يحصلَ أحدُ الأمرينِ -وكلاهما مُهِمٌّ-؛ أيْ: تَحصُلَ الذِّكرىٰ في نفسِه بالإرشادِ لِما لم يكنْ يعلمُه، أو تذكر لِما كان في غفلةٍ عنه[(3)].

ولمَّا ذكَر التَّخْلِيةَ؛ ذكر بعدَها التَّحْلِيةَ، فقال: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾.

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٥١).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٩١٠).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٠٧).

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾

ولمَّا ذكَر العُبُوسَ والتَّولِّيَ عنه، فأَفهَما ضِدَّهما لِمَنْ كان مُقبِلًا عليهم؛ بيَّن ذلك فقال: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾(١).

ثم أكَّد تعالىٰ عَتْبَ نبيِّه ﷺ بقولِه: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾(٢).

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾

ثم ذكَر حالَه معَه، فقال: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾

ولمَّا كان فعلُه ذلك فعلَ مَن يخشىٰ أن يكونَ عليه في بقائِهم علىٰ كفرِهم مَلامةٌ؛ بيَّن له أنَّه سالمٌ من ذلك، فقال: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾(٣).

ثم حقَّر من شأنِه بقولِه: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾

ولمَّا ذكَر المُستغنِيَ؛ ذكَر مُقابِلَه، فقال: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾(٤).

ثم زادَ سبحانه في مُعاتَبةِ رسولِه ﷺ، فقال: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾(٥).

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾

ثم أثنىٰ علىٰ هذا السَّاعي بقولِه: ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾.

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٥٢).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٤٣٧).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٥٥).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٥٥).

(٥) فتح القدير (٥/ ٤٦٣).

ثم ذكَر السَّببَ الذي لأجلِه جاء يسعىٰ، فقال: ﴿ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾.

﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ ﴾

ثم ذكَر حالَه معَه، فقال: ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾.

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ ﴾

ولمَّا كان العِتابُ -الذي هو من شأنِ الأحبابِ- مُلوِّحًا بالنَّهيِ عن الإعراضِ عمَّنْ وقَع العِتابُ عليه وكلِّ مَن كان حالُه كحالِه، والتَّشاغلِ عن راغبٍ؛ صرَّح به فقال: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾[(١)].

رَدْعٌ له ﷺ عمَّا عُوتِبَ عليه من التَّصدِّي لِمَنِ استغنىٰ عمَّا دعاه إليه من الإيمانِ والطَّاعةِ وما يُوجِبُهما من القرآنِ الكريمِ مُبالِغًا في الاهتمامِ بأمرِه، مُتَهالِكًا علىٰ إسلامِه، مُعرِضًا بسببِ ذلك عن إرشادِ مَن يَسترشِدُه[(٢)].

﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ ﴾

ولمَّا كان سبحانه قد خلق للإنسانِ عقلًا واختيارًا، ويسَّر أمرَ القرآنِ في الحفظِ والفهمِ لِمَنْ أَقبَلَ عليه؛ سبَّب عن ذلك قولَه: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾[(٣)].

وجملةُ ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ مُعترضةٌ بينَ قولِه: ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ وقولِه: ﴿ فِي صُحُفٍ ﴾، والفاءُ لتفريعِ مضمونِ الجملةِ علىٰ جملةِ ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾؛ فإنَّ الجملةَ المُعترِضةَ تقترنُ بالفاءِ إذا كان معنىٰ الفاءِ قائمًا، فالفاءُ من جملةِ الاعتراضِ؛ أيْ: هي تذكرةٌ لك بالأصالةِ، وينتفعُ

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٥٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٠٩).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٥٧).

بها مَن شاء أن يَتذكَّرَ علىٰ حَسَبِ استعدادِه. وفي قولِه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ تعريضٌ بأنَّ موعظةَ القرآنِ نافعةٌ لكلِّ أحدٍ تَجرَّدَ عن العِنادِ والمُكابَرةِ، فمَنْ لم يتَّعِظْ بها فلأنَّه لم يَشَأْ أن يتَّعِظَ[1].

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ١٣﴾

ولمَّا كان التقديرُ: حالَ كونِ القرآنِ مُثبَتًا، أو حالَ كونِ الذَّاكِرِ له مُثبِتًا؛ قال واصفًا لـ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، مُبيِّنًا لشرفِها بتشريفِ ظرفِها وظرفِ ظرفِها: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾[2].

ثم أَخبرَ سبحانه عن عِظَمِ هذه التَّذكرةِ وجلالتِها، فقال: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾[3].

ثم ذكَر محلَّ هذه التَّذكرةِ، وعظَّمَها، ورفَع قَدْرَها، فقال: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾[4].

﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ١٤﴾

ولمَّا كانت نازلةً من فوقِ السَّماءِ؛ قال: ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ١٥﴾

وعلَّق أيضًا بمُثبِتٍ -بالفتحِ أو الكسرِ، علىٰ اختلافِ المعنيينِ- قولَه مُبيِّنًا شرفَ ذلك الظَّرفِ لذلك الظَّرفِ إشارةً إلىٰ نهايةِ الشَّرفِ للمظروفِ: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾[5].

وبعدَ أنْ ذكَر عِظَمَ هذه الصُّحفِ وجلالتَها؛ ذكَر عِظَمَ حامِلِها، فقال: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١١٥).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٥٧).

(٣) فتح القدير (٥/ ٤٦٣).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٩١١).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ٢٥٨).

﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) ﴾

ثم أثنىٰ سبحانه علىٰ السَّفَرةِ، فقال: ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ (١).

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) ﴾

ولمَّا كان الوصفُ بهذه الأوصافِ العاليةِ للكَتَبَةِ الذين أيديهم ظرفٌ للصُّحفِ التي هي ظرفٌ للتَّذكرةِ؛ للتنبيهِ علىٰ عُلُوِّ المكتوبِ، وجلالةِ مقدارِه، وعظمةِ آثارِه، وظهورِ ذلك لِمَنْ تدبَّرَه وتأمَّلَه حقَّ تأمُّلِه وأنعَمَ نظرَه؛ عقَّبَه بقولِه ناعيًا علىٰ مَن لم يُقبِلْ بكُلِّيَّتِه عليه، داعيًا بأعظمِ شدائدِ الدنيا التي هي القتلُ في صيغةِ الخبرِ لأنَّه أبلغُ: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ (٢).

استئنافٌ ابتدائيٌّ نشأ عن ذِكرِ مَن استغنىٰ، فإنَّه أُرِيدَ به مُعيَّنٌ واحدٌ أو أكثرُ، وذلك يُبيِّنُه ما وقع من الكلامِ الذي دارَ بينَ النبيِّ ﷺ وبينَ صناديدِ المشركين في المجلسِ الذي دخَل فيه ابنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، والمناسبةُ وصفُ القرآنِ بأنَّه تذكرةٌ لمن شاء أن يَتذكَّرَ، وإذ قد كان أكبرُ دواعِيهم علىٰ التَّكذيبِ بالقرآنِ أنَّه أَخبرَ عن البعثِ وطالَبهم بالإيمانِ به؛ كان الاستدلالُ علىٰ وقوعِ البعثِ أهمَّ ما يُعتنَىٰ به في هذا التَّذكيرِ، وذلك من أفنانِ قولِه: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) ﴾ (٣).

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) ﴾

ولمَّا كان أكثرُ انصبابِ التَّعجيبِ منه ناظرًا إلىٰ تكذيبِه بالسَّاعةِ لأجلِ ظهورِ أدلَّتِها في القرآنِ جدًّا، ولأنَّه توالَتْ في هذه السُّوَرِ إقامةُ الأدلَّةِ عليها ممَّا لا مزيدَ عليه؛ شرَع في إقامةِ الدَّليلِ عليها بآيةِ الأنفُسِ من ابتداءِ الخلقِ في أسلوبٍ مُبيِّنٍ لخِسَّتِه وحقارتِه،

---

(١) فتح القدير (٥/ ٤٦٤).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٥٨-٢٥٩).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ١١٩-١٢٠).

وأنَّ مَن أَلبَسَه أثوابَ الشَّرفِ بعدَ تلك الخِسَّةِ والحقارةِ جديرٌ منه بالشُّكرِ لا بالكفرِ، فقال مُنبِّهًا له بالسُّؤالِ: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ (١).

جملةُ ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿قُتِلَ الْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾؛ لأنَّ مَفادَ هذه الجملةِ الاستدلالُ علىٰ إبطالِ إحالتِهم البعثَ، وذلك الإنكارُ من أكبرِ أصولِ كفرِهم، وجِيءَ في هذا الاستدلالِ بصورةِ سؤالٍ وجوابٍ للتَّشويقِ إلىٰ مضمونِه؛ ولذلك قَرَن الاستفهامَ بالجوابِ عنه علىٰ الطَّريقةِ المتقدِّمةِ، والاستفهامُ صُوريٌّ، وجعَل المُستفهَمَ عنه تعيينَ الأمرِ الذي به خلَق الإنسانَ؛ لأنَّ المقامَ هنا ليس لإثباتِ أنَّ اللهَ خلق الإنسانَ، بل المقامُ لإثباتِ إمكانِ إعادةِ الخلقِ بتنظيرِه بالخلقِ الأوَّلِ (٢).

شروعٌ في بيانِ إفراطِه في الكفرانِ بتفصيلِ ما أفاضَ عليه من مبدأِ فِطْرَتِه إلىٰ مُنتهَىٰ عُمُرِه من فنونِ النِّعَمِ المُوجِبةِ بالشُّكرِ والطَّاعةِ مع إخلالِه بذلك (٣).

ثم ذكَر سبحانه ما كان ينبغي لهذا الكافرِ أن ينظرَ فيه حتَّىٰ ينزجرَ عن كفرِه، ويَكُفَّ عن طغيانِه، فقال: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ (٤).

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾

ثم أجابَ إشارةً إلىٰ أنَّ الجوابَ واضحٌ لا يحتاجُ فيه إلىٰ وقفةٍ أصلًا، فقال مُبيِّنًا حقارتَه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ (٥).

ثم بيَّن ذلك الشَّيءَ الذي خلق منه، فقال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ (٦).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٢٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١١٠).

(٤) فتح القدير (٥/ ٤٦٤).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ٢٦٠).

(٦) البحر المحيط (١٠/ ٤٠٩).

ثم فسَّر ذلك، فقال: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾[(١)].

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠﴾

حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ مِن قولِه: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ لأنَّ تيسيرَ سبيلِ العملِ الإنسانيِّ أَعْجَبُ في الدَّلالةِ علىٰ بديعِ صُنْعِ اللهِ؛ لأنَّه أثرُ العقلِ، وهو أعظمُ ما في خلقِ الإنسانِ وهو أقوىٰ في المِنَّةِ[(٢)].

وبعدَ أنْ خَلَقَه أطوارًا، وأتمَّ خَلْقَه؛ يسَّر خروجَه، فقال: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١﴾

وبعدَ أنْ سهَّل له أمرَه في خروجِه بأنْ فتَح فمَ الرَّحِمِ، وأَلْهَمَه أنْ ينتكسَ، وذلَّل له سبيلَ الخيرِ والشَّرِّ، وجعل له عقلًا يقودُه إلىٰ ما يسَّر له منهما، وفيه إيماءٌ إلىٰ أنَّ الدنيا دارُ الممرِّ، والمَقصَدُ غيرُها وهو الأخرىٰ التي تدلُّ عليها الدنيا؛ ولذلك عقَّبه بقولِه عادًّا الموتَ من النِّعَمِ؛ لأنَّه لو دامَ الإنسانُ حيًّا مع ما يصلُ إليه من الضَّعفِ والخوفِ لَكانَ في غايةِ البشاعةِ والشَّماتةِ لأعدائِه، والمَساءةِ لأوليائِه، علىٰ أنَّ الموتَ سببُ الحياةِ الأَبَديَّةِ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾[(٣)].

عطفُ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ علىٰ ﴿يَسَّرَهُۥ﴾ بحرفِ التَّراخي هو لتراخي الرُّتبةِ؛ فإنَّ انقراضَ تلك القوىٰ العقليَّةِ والحِسِّيَّةِ بالموتِ، بعدَ أنْ كانت راسخةً زمنًا ما، انقراضٌ عجيبٌ دونَ تدريجٍ ولا انتظارِ زمانٍ يُساوي مُدَّةَ بقائِها، وهذا إدماجٌ للدَّلالةِ علىٰ عظيمِ

---

(١) فتح القدير (٥/ ٤٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٢٣).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٦١-٢٦٢).

القدرةِ. ومن المعلومِ بالضَّرورةِ أنَّ الكثيرَ الذي لا يُحصَىٰ من أفرادِ النَّوعِ الإنسانيِّ قد صار أمرُه إلىٰ الموتِ، وأنَّ مَن هو حيٌّ آيلٌ إلىٰ الموتِ لا مَحالةَ[(١)].

وبعدَ أنْ ذكَر الولادةَ؛ ذكَر الوفاةَ، فقال: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا كانت مُدَّةُ البرزخِ طويلةً، وكان البعثُ أمرًا مُحقَّقًا غيرَ معلومِ الوقتِ بالعينِ بغيرِه تعالىٰ؛ عبَّر عن المعاني الثَّلاثةِ بأداتَي التَّراخي والتَّحقُّقِ، فقال: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾[(٢)].

جملةُ ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ رجوعٌ إلىٰ إثباتِ البعثِ، وهي كالنتيجةِ عَقِبَ الاستدلالِ[(٣)].

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كان إخبارُه بأنَّه مع الذي يسَّر له السَّبيلَ قد يُفهِمُ أنَّه لا يعملُ إلَّا بما يُرضِيه؛ نفىٰ ذلك علىٰ سبيلِ الرَّدعِ، فقال: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾[(٤)].

موقعُ ﴿كَلَّا﴾ جزءٌ من استئنافٍ، وموقعُ جملةِ ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ نشأ عن مضمونِ جملةِ ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ إلىٰ قولِه: ﴿أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾؛ أيْ: إنَّما لم يَهْتَدِ الكافرُ إلىٰ دلالةِ الخلقِ الأوَّلِ علىٰ إمكانِ الخلقِ الثَّاني، لأنَّه لم يَقْضِ حقَّ النَّظرِ الذي أمره اللهُ[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٢٤).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٦٢).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٢٧).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٦٢).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٢٥).

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا رَدَعَه بعدَ تفصيلِ ما له في نفسِه من الآياتِ، وأشارَ إلىٰ ما له من النَّقائصِ؛ شرَع يُقِيمُ الدَّليلَ علىٰ تقصيره بأنَّه لا يقدرُ علىٰ شكرِ نعمةِ المُنعِمِ فيما له من المَطعَمِ الذي به قِوامُه فكيف بغيرِها، في أسلوبٍ دالٍّ علىٰ الإنشارِ بآياتِ الآفاقِ مُنبِّهٌ علىٰ سائرِ النِّعَمِ في مُدَّةِ بقائِه المُستلزِمِ لدوامِ احتياجِه إلىٰ ربِّه، فقال مُسبِّبًا عن ذلك: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾(١).

إمَّا مُفرَّعٌ علىٰ قولِه: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ فيكونُ ممَّا أمره اللهُ به من النَّظرِ، وإمَّا علىٰ قولِه: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ فيكونُ هذا النَّظرُ ممَّا يُبطِلُ ويُزِيلُ شِدَّةَ كفرِ الإنسانِ، والفاءُ مع كونِها للتَّفريعِ تفيدُ معنىٰ الفصيحةِ؛ إذِ التقديرُ: إنْ أرادَ أنْ يقضيَ ما أمره فَلْيَنظُرْ إلىٰ طعامِه، أو إنْ أرادَ نَقْضَ كفرِه فَلْيَنظُرْ إلىٰ طعامِه، وهذا استدلالٌ آخَرُ علىٰ تقريبِ كيفيَّةِ البعثِ، انتقل إليه في مَعرِضِ الإرشادِ إلىٰ تداركِ الإنسانِ ما أَهمَلَه، وكان الانتقالُ من الاستدلالِ بما في خلقِ الإنسانِ من بديعِ الصُّنعِ من دلائلَ قائمةٍ بنفسِه في آيةِ ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ إلىٰ الاستدلالِ بأحوالٍ موجودةٍ في بعضِ الكائناتِ شديدةِ المُلازَمةِ لحياةِ الإنسانِ ترسيخًا للاستدلالِ، وتَفنُّنًا فيه، وتعريضًا بالمِنَّةِ علىٰ الإنسانِ في هذه الدَّلائلِ، ومِن نعمةِ النَّباتِ الذي به بقاءُ حياةِ الإنسانِ وحياةِ ما ينفعُه من الأنعامِ(٢).

واعلَمْ أنَّ عادةَ اللهِ تعالىٰ جاريةٌ في القرآنِ بأنَّه كُلَّما ذكَر الدَّلائلَ الموجودةَ في الأَنفُسِ، فإنَّه يذكرُ عَقِيبَها الدَّلائلَ الموجودةَ في الآفاقِ، فجرىٰ ها هنا علىٰ تلك العادةِ، وذكَر دلائلَ الآفاقِ، وبدأ بما يحتاجُ الإنسانُ إليه، فقال: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٢٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ٥٩).

لمَّا ذكَر -جَلَّ ثناؤه- ابتداءَ خلقِ الإنسانِ؛ ذكَر ما يسَّر من رزقِه(١).

شروعٌ في تَعْدادِ النِّعَمِ المتعلِّقةِ ببقائِه بعدَ تفصيلِ النِّعَمِ المتعلِّقةِ بحدوثِه(٢).

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥﴾

ولمَّا كان المقصودُ النَّظَرَ إلىٰ صنائعِ اللهِ تعالىٰ فيه، وكانت أفعالُ الإنسانِ وأقوالُه في تكذيبِه بالبعثِ أفعالَ مَن يُنكِرُ ذلك الصُّنعَ؛ قال سبحانه مُفصِّلًا لِما يشترِكُ في علمِه الخاصُّ والعامُّ من صنائعِه في الطَّعامِ، مُؤكِّدًا تنبيهًا علىٰ أنَّ التَّكذيبَ بالبعثِ يستلزمُ التَّكذيبَ بإبداعِ النَّباتِ وإعادتِه، وذلك في أسلوبٍ مُبيِّنٍ أنَّ الإنسانَ مُحتاجٌ إلىٰ جميعِ ما في الوجودِ، ولو نقَص منه شيءٌ اختَلَّ أمرُه، وبدأ أوَّلًا بالسَّماويِّ لأنَّه أشرفُ، وبالماءِ الذي هو حياةُ كلِّ شيءٍ؛ تنبيهًا له علىٰ ابتداءِ خلقِه: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾(٣).

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ لتفصيلِ ما أُجمِلَ هنالِكَ علىٰ وجهِ الإيجازِ(٤).

ثم بيَّن ذلك سبحانه فقال: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾(٥).

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾

وثنَّىٰ بالأرضِ التي هي كالأنثىٰ بالنِّسبةِ إلىٰ السَّماءِ، فقال: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾(٦).

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٢٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١١١).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٦٤).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣١).

(٥) فتح القدير (٥/ ٤٦٥).

(٦) نظم الدرر (٢١/ ٢٦٥).

ثم ذكَر ما يَنتُجُ عن صَبِّ الماءِ من السَّماءِ، فقال: ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا﴾.

﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧﴾

ثم سبَّب عن الشَّقِّ ما هو كالتَّفسيرِ له مُبيِّنًا الاحتياجَ إلىٰ النَّباتِ بقولِه: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾[1].

ثم بيَّن سببَ هذا الشَّقِّ وما وقع لأجلِه، فقال: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾[2].

﴿وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨﴾

ولمَّا كان الحَبُّ قُوتًا، فبدأ به لأنَّه الأصلُ في القِوامِ؛ عطَف عليه ما هو فاكهةٌ وقُوتٌ، فقال: ﴿وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا﴾[3].

﴿وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩﴾

ولمَّا ذكَر ما لا يَصلُحُ أنْ يُؤكَلَ إلَّا رطبًا من غيرِ تأخيرٍ؛ أَتبَعَه ما لا يَفسُدُ بحالٍ لا علىٰ أمه ولا بعدَ القِطافِ ويَصلُحُ بعدَ القِطافِ فيُؤكَلُ أو يُعصَرُ، فيكونُ له دُهْنٌ للاستصباحِ والادِّهانِ والائتدامِ، وفيه تقويةٌ للعِظامِ والأعصابِ، ولا يُفسِدُه الماءُ بوجهٍ، كما أنَّ العِنَبَ يُعصَرُ فيكونُ منه دِبْسٌ وخَلٌّ وغيرُهما، ومتىٰ خالَطَه الماءُ فسَد، فقال: ﴿وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٦٥).

(٢) فتح القدير (٥/ ٤٦٥).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٦٥).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٦٦).

﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ٣٠ ﴾

ولمَّا ذكَر هذه الأشياءَ من الأقواتِ والفواكهِ لكثرةِ منافعِها، وكانت البساتينُ تَجمَعُها وغيرَها مع ما لها من بهجةِ العينِ، وسرورِ النَّفسِ، وبسطِ الخاطرِ، وشرحِ القلبِ؛ قال: ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴾[١].

وعطفُ «الحدائقِ» علىٰ «النخلِ» من عطفِ الأعمِّ علىٰ الأخصِّ، ولأنَّ في ذِكْرِ «الحدائقِ» إدماجًا للامتنانِ بها؛ لأنَّها مواضعُ تَنزُّهِهم واخترافِهم[٢][٣].

﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ٣١ ﴾

ولمَّا ذكَر ما يُتَفكَّهُ ويُدَّخَرُ؛ جمَع فقال: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾[٤].

﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ٣٢ ﴾

ولمَّا جمَع ما يُقْتاتُ وما يُتَفكَّهُ، فدَلَّ دلالةً واضحةً علىٰ تمامِ القدرةِ؛ ذكَّر بالنِّعمةِ فيه قارعًا بأسلوبِ الخطابِ لتعميمِ الأفرادِ بعدَ سياقِ العتابِ؛ للتَّصريحِ بأنَّ الكُلَّ عاجزون عن الوفاءِ بالشُّكرِ، فكيف إذا انضَمَّ إليه الكفرُ؟ فقال: ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾[٥].

ولمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ ما يَغتَذِي به النَّاسُ والحيوانُ؛ قال: ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾[٦].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٦٧).

(٢) أي: اجتنائهم.

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣٢).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٦٧).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ٢٦٧-٢٦٨).

(٦) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦٠).

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر عجائبَ الصُّنعِ في الطَّعامِ، وكان ذلك يُقطَفُ فيعودُ؛ لا سِيَّما المرعىٰ، فإنَّه يأتي عليه الخريفُ فيَنْشَفُ، ثم يَتحطَّمُ من الرِّياحِ ويَتفرَّقُ في الأرضِ، ثم يصيرُ ترابًا، ثم يبعثُ اللهُ المطرَ فيجمعُه من الأرضِ بعدَ أنْ صار ترابًا، ثم يُنْبِتُه كما كان، وكان ذلك مِثلَ إحياءِ الموتىٰ سواءً، فتَحقَّق لذلك ما تَقدَّمَ من أمرِ الإنشارِ بعدَ الإقبارِ، وكان ذلك أيضًا مُذكِّرًا بأمرِ أبينا آدمَ عليه السلام لمَّا أمره اللهُ بالأكلِ من الجنَّةِ إلَّا من الشَّجرةِ التي نهاه عنها، فلمَّا أكل منها؛ أَخرَجه من الجنَّةِ فسجَنَه في دارٍ ليست بجنَّةٍ ولا نارٍ ولا غيرِهما، بل هي من مُمْتَزِجِ الدَّارينِ وكالبرزخِ بينَهما، فيها ما يُذكِّرُ بهذه وما يُذكِّرُ بتلك، وفيها أمثلةُ الموجوداتِ كلِّها؛ قال مُسبِّبًا عمَّا ثبت به الإحياءُ للبعثِ إلىٰ المحشرِ، مُعبِّرًا بأداةِ التَّحقُّقِ لأنَّ السَّاعةَ ممَّا لا بدَّ منه ولا مَحِيدَ عنه؛ لأنَّها سِرُّ الكونِ، فإنَّ فيها حسابَ الذين استُخلِفوا في هذا الوجودِ، وأُفِيضَتْ عليهم النِّعَمُ التي أَودَعَها فيه، وأشارَ إلىٰ أنَّهم عاجزون عن القيامِ بشكرِها، وكثيرٌ منهم -بل أكثرُهم- زادَ علىٰ ذلك بكفرِها، فأَوجَبَ ذلك -ولا بدَّ- حسابَهم علىٰ ما فعلوا فيما استُخلِفوا فيه واستَرْعَوْه، كما هي عادةُ كُلِّ مُسْتَرْعٍ ومُستخلِفٍ: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾(١).

الفاءُ للتَّفريعِ علىٰ اللَّوْمِ والتَّوبيخِ في قولِه: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾، وما تَبِعَه من الاستدلالِ علىٰ المشركين من قولِه: ﴿ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ﴾، ففُرِّعَ علىٰ ذلك إنذارٌ بيومِ الجزاءِ، مع مناسبةِ وقوعِ هذا الإنذارِ عَقِبَ التَّعريضِ والتَّصريحِ بالامتنانِ في قولِه: ﴿ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾، وقولِه: ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ علىٰ نحوِ ما تقدَّمَ في قولِه: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾ من سورةِ «النَّازعاتِ»(٢).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣٤).

شروعٌ في بيانِ أحوالِ معادِهم إثرَ بيانِ مبدأِ خلقِهم ومعاشِهم، والفاءُ للدَّلالةِ على ترتُّبِ ما بعدَها على ما قبلَها من فنونِ النِّعَمِ عن قريبٍ، كما يُشعِرُ لفظُ «المتاعِ» بسرعةِ زوالِها وقُرْبِ اضمحلالِها[(١)].

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤)﴾

ولمَّا كان وصفُها بما يقعُ فيها أَهْيَبَ؛ قال مُبدِلًا من «إذا» ما يدلُّ على جوابِها من نحوِ: اشتَغَلَ كُلٌّ بنفسِه، ولم يكنْ عندَه فراغٌ ما لغيرِه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾[(٢)].

ثم إنَّه تعالى وصف هَوْلَ ذلك اليومِ بقولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾[(٣)].

﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥)﴾

ولمَّا كانت الأُمُّ مُشارِكةً له في الإلفِ، ويلزمُ من حمايتِها أكثرُ ممَّا يلزمُ الأخَ -وهو لها آلِفٌ، وإليها أَحَنُّ، وعليها أَرَقُّ وأَعطَفُ-؛ قال: ﴿وَأُمِّهِ﴾، ولمَّا كان الأبُ أعظمَ منها في الإلفِ؛ لأنَّه أقربُ في النَّوعِ، وللولدِ عليه من العاطفةِ -لِما له من مزيدِ النَّفعِ- أكثرُ ممَّن قبلَه؛ قال: ﴿وَأَبِيهِ﴾[(٤)].

فابتُدِئَ بالأخِ لشِدَّةِ اتِّصالِه بأخيه من زمنِ الصِّبا، فينشأُ بذلك إلفٌ بينَهما يَستمِرُّ طولَ الحياةِ، ثم ارتُقِيَ من الأخِ إلى الأبوينِ وهما أشدُّ قربًا لابنَيْهما، وقُدِّمَتِ الأُمُّ في الذِّكْرِ لأنَّ إلفَ ابنِها بها أقوى منه بأبيه، وللرَّعْيِ على الفاصلةِ[(٥)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ١١٢).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٧٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦١).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٧٠).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣٥).

﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا كانت الزَّوجةُ التي هي أهلٌ لِأَنْ تُصحَبَ أَلْصَقَ بالفؤادِ، وأَعرَقَ في الودادِ، وكان الإنسانُ أَذَبَّ عنها عندَ الاشتدادِ؛ قال: ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ ﴾، ولمَّا كان للوالدِ إلىٰ الولدِ من المحبَّةِ والعاطفةِ والإباحةِ بالسِّرِّ والمُشاوَرةِ في الأمرِ ما ليس لغيرِه، ولذلك يُضيِّعُ عليه رزقَه وعُمُرَه؛ قال: ﴿ وَبَنِيهِ ﴾[1].

وانتقَل إلىٰ الزَّوجةِ والبنينَ؛ وهما مُجتمَعُ عائلةِ الإنسانِ، وأشدُّ النَّاسِ قربًا به ومُلازَمةً[2].

﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكر فرارَه الذي منَعَه قرارَه؛ علَّلَه فقال: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[3].

جملةُ ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا لزيادةِ تهويلِ اليومِ، وتنوينُ ﴿ شَأْنٌ ﴾ للتَّعظيمِ، وحيثُ كان فِرارُ المرءِ من الأقرباءِ الخمسةِ يقتضي فرارَ كُلِّ قريبٍ من أولئك من مِثْلِه؛ كان الاستئنافُ جامعًا للجميعِ تصريحًا بذلك المقتضَىٰ، فقال: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾؛ أيْ: عن الاشتغالِ بغيرِه من المذكوراتِ، بَلْهِ الاشتغالِ عمَّنْ هو دونَ أولئك من القرابةِ والصُّحْبةِ[4].

لمَّا ذكَر هذا الفرارَ؛ أَتبعَه بذِكْرِ سببِه، فقال تعالىٰ: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣٥).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٧١).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣٦).

(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦١).

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

ولمَّا ذكر اليومَ؛ قسَّم أهلَه إلىٰ القسمينِ المقصودينِ بالتَّذكرةِ أوَّلَ السورةِ، فقال دالًّا علىٰ البواطنِ بأشرفِ الظَّواهرِ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾(١).

جملةُ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ جوابُ «إذا»؛ أي: إذا جاءت الصَّاخَّةُ؛ كان النَّاسُ صِنفَيْنِ: صِنفٌ وجوهُهم مُسْفِرةٌ وصِنفٌ وجوهُهم مُغْبَرَّةٌ، وقدَّم هنا ذِكرَ وجوهِ أهلِ النَّعيمِ علىٰ وجوهِ أهلِ الجحيمِ؛ لأنَّ هذه السُّورةَ أُقِيمَتْ علىٰ عمادِ التَّنويهِ بشأنِ رجلٍ من أفاضلِ المؤمنين، والتَّحقيرِ لشأنِ عظيمٍ من صناديدِ المشركين، فكان حظُّ الفريقينِ مقصودًا مَسُوقًا إليه الكلامُ، وكان حظُّ المؤمنين هو المُلْتفَتُ إليه ابتداءً، وذلك في قولِه: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ... ﴾ إلىٰ آخِره.

بيانٌ لمآلِ أمرِ المذكورين، وانقسامِهم إلىٰ السُّعَداءِ والأشقياءِ، بعدَ ذِكْرِ وقوعِهم في داهيةٍ دَهْياءَ(٢).

﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

ثم زادَ في وصفِها بقولِه: ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾.

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر أهلَ السَّعادةِ الذين هم المُقْبِلونَ علىٰ الخيرِ، المُصابُونَ في أنفسِهم بما يُكفِّرُ سيِّئاتِهم ويُعلِي درجاتِهم؛ ذكَر أضدادَهم، فقال تعالىٰ: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٧١).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١١٣).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٧٢).

﴿ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ ﴾

ثم وصَفَها بالسَّوادِ، ولا أَوْحَشَ من اجتماعِ الغَبَرةِ والسَّوادِ في الوجهِ، فقال: ﴿ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ۝٤٢ ﴾

ولمَّا كان هذا الأمرُ هائلًا، وكان الفاجرُ -لِما علىٰ قلبِه من الرَّيْنِ، وله من القساوةِ- قليلَ الخوفِ من الأجلِ، عديمَ الفِكْرِ فيما يأتي به غدٌ؛ لِما غلَب عليه من الشَّهوتينِ: السَّبُعِيَّةِ والبهيميَّةِ، بخلافِ المُتَّقِي في كلِّ ذلك؛ استأنف الإخبارَ زيادةً في التَّهويلِ، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴾[1].

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٧٣).

سورة التكوير

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾

ولمَّا كان التَّأثيرُ في الأعظمِ دالًّا على التَّأثيرِ فيما دونَه بطريقِ الأَولى؛ أَتبَعَ ذلك قولَه مُعمِّمًا بعدَ التَّخصيصِ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾[1].

وإذا زالَ ضَوْءُ الشَّمسِ؛ انكَدَرَتِ النُّجومُ؛ لأنَّ مُعظَمَها يستنيرُ من انعكاسِ نورِ الشَّمسِ عليها[2].

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣﴾

ولمَّا بدأ بأعلامِ السَّماءِ؛ لأنَّها أشهرُ وأعمُّ تخويفًا وإرهابًا، وذكَر منها اثنينِ هما أشهرُ ما فيها وأعمُّها نفعًا؛ أَتبَعَها أعلامَ الأرضِ، فقال مُكرِّرًا للظَّرفِ لمزيدِ الاعتناءِ بالتَّهويلِ: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾[3].

﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤﴾

ولمَّا ذكَر أعلامَ الجمادِ؛ أَتبَعَه أعلامَ الحيوانِ النَّافعِ الذي هو أعزُّ أموالِ العربِ وأغلبُها، على وجهٍ دَلَّ على عِظَمِ الهَوْلِ، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٧٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٤١).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٧٦).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٧٧).

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾

ولمَّا ذكَر المُقرِّعاتِ الدَّالَّاتِ علىٰ إرادةِ أمرٍ عظيمٍ؛ قرَّب ذلك الأمرَ بإفهامِ أنَّه الحشرُ، ودلَّ علىٰ عمومِه بذِكْرِ ما يُظَنُّ إهمالُه، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾(١).

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾

ولمَّا أَفهَمَ هذا الحشرَ؛ ذكَر ما يدلُّ علىٰ ما ينالُ أهلَ الموقفِ من الشَّدائدِ من شِدَّةِ الحرِّ، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾(٢).

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾

ولمَّا ذكَر من الآياتِ العُلْوِيَّةِ من عالمِ الملكِ اثنينِ، ومن السُّفْلِيَّةِ أربعةً، فأَفهَمَ جميعَ الخلقِ أنَّ الأمرَ في غايةِ الخطرِ، فتَشوَّفَتِ النُّفوسُ إلىٰ ما يفعلُ؛ قال ذاكرًا لِما أرادَ من عالمِ الغيبِ والملكوتِ، وهو أمورٌ سِتَّةٌ علىٰ عددِ ما مضىٰ من عالمِ الملكِ والشَّهادةِ؛ ترغيبًا في الأعمالِ الصَّالحةِ والقُرَناءِ الصَّالحين؛ لِئَلَّا يُزوَّجَ بما يَسُوءُه، وابتدأ بما يُناسِبُ تكويرَ الشَّمسِ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾(٣).

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ شروعٌ في ذِكْرِ الأحوالِ الحاصلةِ في الآخرةِ يومَ القيامةِ، وقد انتقل إلىٰ ذِكْرِها لأنَّها تَحصُلُ عَقِبَ السِّتَّةِ التي قبلَها، وابتُدِئَ بأوَّلِها وهو تزويجُ النُّفوسِ(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٧٧-٢٧٨).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٧٨).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٧٩).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٤٣).

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾

ولمَّا صرَّح الأمرَ، فكانتِ القلوبُ أَحَرَّ من الجمرِ؛ ذكَر ما هو المقصودُ الأعظمُ؛ وهو السُّؤالُ علىٰ وجهٍ يُفهِمُ العمومَ، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾(١).

وبمناسبةِ ذِكْرِ تزويجِ النُّفوسِ بالأجسادِ، خَصَّ سؤالَ الموءودةِ بالذِّكرِ دونَ غيرِه ممَّا يُسأَلُ عنه المُجرِمون يومَ الحسابِ؛ ذلكَّ لأنَّ إعادةَ الأرواحِ إلىٰ الأجسادِ كان بعدَ مُفارَقتِها بالموتِ، والموتُ إمَّا بعارضٍ جسديٍّ من انحلالٍ أو مرضٍ، وإمَّا باعتداءٍ عدوانيٍّ من قتلٍ أو قتالٍ، وكان من أفظعِ الاعتداءِ علىٰ إزهاقِ الأرواحِ من أجسادِها اعتداءُ الآباءِ علىٰ نفوسِ أطفالِهم بالوَأْدِ، فإنَّ اللهَ جعل في الفِطْرةِ حِرصَ الآباءِ علىٰ استحياءِ أبنائِهم، وجعل الأبوينِ سببَ إيجادِ الأبناءِ، فالوَأْدُ أَفظَعُ أعمالِ أهلِ الشِّركِ، وسؤالُ الموءودةِ سؤالٌ تعريضيٌّ مرادٌ منه تهديدُ وائِدِها ورُعْبُه بالعذابِ، وظاهرُ الآيةِ أنَّ سؤالَ الموءودةِ وعقوبةَ مَن وَأَدَها أوَّلُ ما يُقضَىٰ فيه يومَ القيامةِ كما يقتضي ذلك جعلَ هذا السُّؤالِ وقتًا تعلمُ عندَه كُلُّ نفسٍ ما أُحضِرَتْ، فهو من أوَّلِ ما يُعلَمُ به حينَ الجزاءِ(٢).

﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾

ثم قِيلَ علىٰ طريقِ الاستئنافِ تخويفًا للوالدينِ: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾(٣).

جملةُ ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿سُئِلَتْ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٧٩).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٤٤).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٨٠).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٤٦).

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾

ولمَّا دَلَّ هذا على عمومِ السُّؤالِ؛ ذكَر ما ينشأُ عنه ممَّا يدلُّ على النَّعيمِ أو النَّكالِ، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾(١).

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾

ولمَّا ذكَر ما يُطلَقُ ويُنشَرُ؛ أَتبعَه ما يُطوَى ويُحصَرُ؛ ليبدوَ ما فوقَه من العجائبِ ويُنظَرَ، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾(٢).

وأخَّر ذِكرَه لمناسبةِ ذِكْرِ نشرِ الصُّحُفِ؛ لأنَّ الصُّحُفَ تَنشُرُها الملائكةُ -وهم من أهلِ السَّماءِ-، فيكونُ هذا الكشطُ من قَبيلِ الانشقاقِ(٣).

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢﴾

ولمَّا زالتِ الموانعُ؛ ظهَرتْ عجائبُ الصَّنائعِ، التي هي غاياتُ المَطالِبِ، ونهاياتُ الرَّغائبِ والرَّهائبِ، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾(٤).

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾

ولمَّا ذكَر دارَ الأعداءِ البُعَداءِ ترهيبًا؛ أَتبعَه دارَ المُقرَّبِينَ السُّعَداءِ ترغيبًا، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٨١).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٨١).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٤٩).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٨٢).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ٢٨٢).

📖 ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ 📖

ولمَّا كانت هذه الأشياءُ لِهَوْلِها مُوجِبةً لاجتماعِ الهمِّ وصرفِ الفِكْرِ عمَّا يَشغَلُه من زينةٍ أو لهوٍ أو لعبٍ أو سهوٍ، فكان مُوجِبًا للعلمِ بما يُرجِي نعيمًا أو يُوجِبُ جحيمًا، وكان ذلك مُوجِبًا لتَشوُّفِ السَّامعِ إلىٰ ما يكونُ؛ قال تعالىٰ كاشفًا تلك النِّعمةَ بالعاملِ في «إذا» وما عُطِف عليها: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾(١).

لمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ هذه الأمورَ الاثنَيْ عَشَرَ؛ ذكَر الجزاءَ المرتَّبَ علىٰ الشُّروطِ، الذي هو مجموعُ هذه الأشياءِ، فقال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾(٢).

📖 ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾ 📖

ولمَّا كان السِّياقُ للتَّرهيبِ؛ سبَّب عن هذا التَّهديدِ قولَه مُقسِمًا بما دَلَّ علىٰ عظيمِ قدرِ المُقْسَمِ عليه بتركِ الإقسامِ بأشياءَ هي من الإجلالِ والإعظامِ في أسنىٰ مقامٍ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾(٣).

الفاءُ لتفريعِ القَسَمِ وجوابِه علىٰ الكلامِ السَّابقِ للإشارةِ إلىٰ ما تَقدَّمَ من الكلامِ هو بمنزلةِ التَّمهيدِ لِما بعدَ الفاءِ، فإنَّ الكلامَ السَّابقَ أفادَ تحقيقَ وقوعِ البعثِ والجزاءِ، وهم قد أنكروه وكذَّبوا القرآنَ الذي أَنذَرَهم به، فلمَّا قُضِيَ حقُّ الإنذارِ به، وذُكر أشراطُه؛ فُرِّعَ عنه تصديقُ القرآنِ الذي أَنذَرَهم به، وأنَّه مُوحًىٰ به من عندِ اللهِ. فالتَّفريعُ هنا تفريعُ معنًىٰ وتفريعُ ذِكْرٍ معًا، وقد جاء تفريعُ القَسَمِ لمجرَّدِ تفريعِ ذِكْرِ كلامٍ علىٰ كلامٍ آخَرَ. والقَسَمُ مُرادٌ به تأكيدُ الخبرِ وتحقيقُه، وأَدمَجَ فيه أوصافَ الأشياءِ المُقْسَمِ بها للدَّلالةِ علىٰ تمامِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٨٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٦٧).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٥٢).

﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ١٦﴾

ثم أَبدَلَ منها أعظمَها، فقال: ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾(١).

ثم وَصَفَها بقولِه: ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٧﴾

ولمَّا ذكَر غيابَها، ففُهِمَ منه محلُّه وهو النَّهارُ؛ ذكَر محلَّ ظهورِها، فأَفهَمَ الظُّهورَ، فقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾(٢).

ثم عطَف القَسَمَ بـ«اللَّيلِ» علىٰ القَسَمِ بـ«الكواكبِ»؛ لمناسبةِ جَرَيانِ الكواكبِ في اللَّيلِ، ولأنَّ تَعاقُبَ اللَّيلِ والنَّهارِ من أجلِّ مظاهرِ الحكمةِ الإلهيَّةِ في هذا العالمِ(٣).

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾

ولمَّا كان ربما ظَنَّ ظانٌّ أنَّ ما نقَص بالظَّلامِ عن صلاحيةِ الإقسامِ يَتأهَّلُ ذلك بزوالِه؛ قال نافيًا لذلك: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾(٤).

وعطَف عليه القَسَمَ بالصُّبحِ حينَ تَنفُّسِه -أي: انشقاقِ ضوئِه- لمناسبةِ ذِكْرِ اللَّيلِ، ولأنَّ تَنفُّسَ الصُّبحِ من مظاهرِ بديعِ النِّظامِ الذي جعله اللهُ في هذا العالمِ(٥).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٨٥).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٨٦).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٥٤).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٨٧).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٥٤).

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾

ولمَّا بيَّن أنَّ هذه الأشياءَ -التي لولاها لَما طابَ لهم عَيْشٌ، ولا تَهنَّؤُوا بحياةٍ، وهي من الفضلِ بحيثُ لا يعلمُه إلَّا خالقُها- تَصغُرُ عن أن يُقسَمَ بها علىٰ شيءٍ من فضائلِ القرآنِ؛ لِما له من عظيمِ الشَّأنِ، الذي لا يُطِيقُ التعبيرَ عنه البيانُ، ويتضاءلُ دونَه اللِّسانُ؛ قال مُجِيبًا لذلك إخبارًا عمَّا هو مُحقَّقٌ في نفسِ الأمرِ أعظمَ من تَحقُّقِ هذه الأشياءِ المُقْسَمِ بها؛ هادٍ إلىٰ مصالحِ الدَّارينِ أكثرَ من هدايتِها، مُبيِّنًا للسَّفيرينِ به المَلَكيِّ والبشريِّ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ والتَّحيَّةُ والإكرامُ، مُؤكِّدًا لِما يَستحِقُّه السِّياقُ كما يَستحِقُّه مع ما لهم من الإنكارِ، تنبيهًا علىٰ ضعفِ عقولِهم وعظيمِ سَفَهِهم، بعدَ أنْ أَقسَمَ بثلاثةِ أقسامٍ، فإنَّ نفيَ الإقسامِ بها بما ذُكِرَ من نقائصِها كالإقسامِ بها مع بيانِ أنَّ المُقْسَمَ عليه أعظمُ منها بما لا يُقايَسُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾(١).

ثم ذكَر سبحانه جوابَ القَسَمِ، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾(٢).

﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠﴾

ولمَّا اقتضىٰ هذا القُوَّةَ؛ صرَّح به تأكيدًا، فقال: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾(٣).

ثم وصَف الرسولَ المذكورَ بأوصافٍ محمودةٍ، فقال: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٢) فتح القدير (٥/ ٤٧٣).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٨٩).

(٤) فتح القدير (٥/ ٤٧٣).

﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾

ولمَّا كان المُتَمكِّنُ في نفسِه قد لا يكونُ له أعوانٌ؛ قال: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[1].

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا وصَف السَّفيرَ المَلَكيَّ -وهو جبريلُ عليه السلام- بهذه الصِّفاتِ الخمسِ، التي أزالَتْ عن القرآنِ كلَّ لَبْسٍ، وكان وصفُه بها إنَّما هو لأجلِ إثباتِ شرفِ الرسولِ البشريِّ الذي هو بينَ الحقِّ وعامَّةِ الخلقِ -وهو النبيُّ ﷺ- بأنَّ ما يقولُه كلامُ اللهِ حقًّا، وكانوا يَصِفُونه بما هو في غايةِ النَّزاهةِ عنه وهم يعلمون ذلك؛ أبطَلَه مُبكِّتًا لهم بالكذبِ، ومُوبِّخًا بالبلادةِ، بقولِه زيادةً في شرفِه حيثُ كان هو المُدافِعَ عنه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[2].

عطفٌ على جملةِ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، فهو داخلٌ في خبرِ القَسَمِ جوابًا ثانيًا عن القَسَمِ، فبعدَ أنْ أثنى اللهُ على القرآنِ بأنَّه قولُ رسولٍ مُرسَلٍ من اللهِ، وكان قد تَضمَّنَ ذلك ثناءً على النبيِّ ﷺ بأنَّه صادقٌ فيما بلَّغه عن اللهِ تعالى؛ أعقبَه بإبطالِ بهتانِ المشركين فيما اختَلَقُوه على النبيِّ ﷺ من قولِهم: «مُعلَّمٌ مجنونٌ»[3].

ولمَّا ذكَر فضلَ الرسولِ المَلَكيِّ الذي جاء بالقرآنِ؛ ذكَر فضلَ الرسولِ البشريِّ الذي نزل عليه القرآنُ، ودعا إليه النَّاسَ، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٩٠).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٩٠).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٥٧).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٩١٣).

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كان المجنونُ لا يُثبِتُ ما يسمعُه ولا ما يُبصِرُه حقَّ الإثباتِ، فكان التقديرُ بعدَ هذا النَّفي: فلقد سَمِعَ مِن رسولِنا إليه ما أُرسِلَ به حقَّ السَّمعِ، ما التَبَسَ عليه فيه حقٌّ بباطلٍ؛ عطَف عليه الإخبارَ برفعةِ شأنِه في رؤيةِ ما لم يَرَهُ غيرُه وأمانتِه وجُودِه، فقال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾[1].

عطفٌ على جملةِ ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾، والمناسبةُ بينَ الجملتينِ أنَّ المشركين كانوا إذا بلَغَهم أنَّ الرَّسول ﷺ يُخبِرُ أنَّه نزل عليه جبريلُ بالوحيِ من وقتِ غارِ حِرَاءٍ فما بعدَه؛ استَهْزَؤوا وقالوا: إنَّ ذلك الذي يَتراءَىٰ له هو جِنِّيٌّ، فكذَّبَهم اللهُ بنفيِ الجنونِ عنه، ثم بتحقيقِ أنَّه إنَّما رأىٰ جبريلَ القويَّ الأمينَ[2].

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

ولمَّا انتفىٰ ما يُظَنُّ مِن لَبْسِ السَّمعِ وزَيْغِ البصرِ؛ لم يَبْقَ إلَّا ما يَتعلَّقُ بالتَّأديةِ، فنفىٰ ما يُتوهَّمُ من ذلك بقولِه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[3].

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

ولمَّا أثبت له الأمانةَ والجودَ بعدَ أنْ نفىٰ عنه ما بَهَتُوه به، وكان الجنونُ أظهرَ من قولِ المجنونِ؛ لأنَّ بعضَ المجانينِ ربما تكلَّمَ الكلامَ المُنْتَظِمَ في بعضِ الأوقاتِ، فنفاه لذلك، وكان قولُ الكاهنِ أظهرَ من الكِهانةِ؛ نفىٰ القولَ، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٩٢).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٥٩).
(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٩٣).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٩٣-٢٩٤).

عطفٌ على ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، وهذا رجوعٌ إلىٰ ما أُقسِمَ عليه من أنَّ القرآنَ قولُ رسولٍ كريمٍ، بعدَ أنِ استُطرِدَ بينَهما بتلك المُسْتَطرَداتِ الدَّالَّةِ علىٰ زيادةِ كمالِ هذا القولِ بقُدُسيَّةِ مصدرِه، ومكانةِ حاملِه عندَ اللهِ، وصدقِ مُتَلَقِّيه منه عن رؤيةٍ مُحقَّقةٍ لا تَخيُّلَ فيها، فكان التَّخلُّصُ إلىٰ العَوْدِ لتنزيهِ القرآنِ بمناسبةِ ذِكْرِ الغيبِ في قولِه تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾، فإنَّ القرآنَ من أمرِ الغيبِ الذي أُوحِيَ به إلىٰ محمدٍ ﷺ، وفيه كثيرٌ من الأخبارِ عن أمورِ الغيبِ: الجنَّةِ، والنَّارِ، ونحوِ ذلك[1].

لمَّا ذكَر جلالةَ كتابِه وفضلَه بذِكْرِ الرَّسولينِ الكريمينِ اللَّذينِ وصل إلىٰ النَّاسِ علىٰ أيدِيهما، وأثنىٰ اللهُ عليهما بما أثنىٰ؛ دفَع عنه كلَّ آفةٍ ونقصٍ ممَّا يقدحُ في صدقِه، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾[2].

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦﴾

ولمَّا لم يَدَعْ وجهًا يُلبَّسُ به علىٰ مَن لا يعرفُ حالَه ﷺ؛ سبَّب عنه قولَه مُوبِّخًا مُنكِرًا: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[3].

جملةُ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ مُعترِضةٌ بينَ جملةِ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ وقولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، والفاءُ لتفريعِ التَّوبيخِ والتَّعجيزِ علىٰ الحُجَجِ المتقدِّمةِ المُثْبِتةِ أنَّ القرآنَ لا يجوزُ أن يكونَ كلامَ كاهنٍ، وأنَّه وحيٌ من اللهِ بواسطةِ المَلَكِ[4].

ثم بكَّتَهم سبحانه ووَبَّخَهم، فقال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٦٣).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٩١٣).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٩٤).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٦٤).

(٥) فتح القدير (٥/ ٤٧٤).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

ولمَّا كان الحالُ قد صار في الوضوحِ إلىٰ أنَّه إذا نبَّه صاحبَه بمِثْلِ هذا القولِ، نظَر أدنىٰ نظرٍ، فقال من غيرِ وقفةٍ: لا أين؛ قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[(١)].

بعدَ أنْ أفاقَهم من ضلالتِهم، أَرشَدَهم إلىٰ حقيقةِ القرآنِ بقولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾، وهذه الجملةُ تَتنزَّلُ منزلةَ المؤكِّدةِ لجملةِ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾؛ ولذلك جُرِّدَتْ عن العاطفِ، ذلك أنَّ القصرَ المُستفادَ من النَّفيِ والاستثناءِ في قولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يفيدُ قصرَ القرآنِ علىٰ صفةِ الذِّكرِ؛ أيْ: لا غيرَ ذلك، وهو قصرٌ إضافيٌّ قُصد منه إبطالُ أن يكونَ قولَ شاعرٍ، أو قولَ كاهنٍ، أو قولَ مجنونٍ، فمِن جملةِ ما أفاده القصرُ نفيُ أن يكونَ قولَ شيطانٍ رجيمٍ، وبذلك كان فيه تأكيدٌ لجملةِ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾[(٢)].

ثم بيَّن أنَّ القرآنَ ما هو، فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[(٣)].

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾

ولمَّا تَشرَّفَ الوجودُ كلُّه بإظهارِه فيه نوعَ تَشرُّفٍ؛ أَطلَقَ هذه العبارةَ، ولمَّا كان الذي ثَمَّ شرفُه المهتدي، فكان الوعظُ والشَّرفُ إنَّما هو له في الحقيقةِ؛ قال: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[(٤)].

أَبدَلَ من ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ قولَه: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ بدلَ بعضٍ من كُلٍّ، وأُعِيدَ مع البدلِ حرفُ الجرِّ العاملُ مِثلُه في المُبدَلِ منه لتأكيدِ العاملِ، وإذا كان القرآنُ ذِكرًا

(١) نظم الدرر (٢١/ ٢٩٥).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٦٥).
(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ٧١).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٩٥).

لهم وهم من جملةِ العالمين؛ كان ذِكرُ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ من بقيَّةِ العالمين أيضًا بحكمِ قياسِ المساواةِ، ففي الكلامِ كنايةٌ عن ذلك، وفائدةُ هذا الإبدالِ التنبيهُ علىٰ أنَّ الذين تَذكَّروا بالقرآنِ -وهم المسلمون- قد شاؤوا الاستقامةَ لأنفسِهم فنَصَحُوا أنفسَهم، وهو ثناءٌ عليهم، وفي مفهومِ الصِّلةِ تعريضٌ بأنَّ الذين لم يَتذكَّروا بالقرآنِ ما حالَ بينَهم وبينَ التَّذكُّرِ به إلَّا أنَّهم لم يشاؤوا أن يستقيموا، بل رَضُوا لأنفسِهم بالاعوجاجِ[(١)].

ثم خصَّص تعالىٰ مَن شاء الاستقامةَ بالذِّكْرِ تشريفًا وتنبيهًا، فقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾[(٢)].

ثم بيَّن مَن ينتفعُ بهذا الذِّكرِ، فقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾

ولمَّا كان ذلك ربما تَعنَّتَ به المُتعنِّتُ في خلقِ الأفعالِ؛ قال نافيًا لاستقلالِهم، ومُثْبِتًا للكَسْبِ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[(٣)].

يجوزُ أنْ تكونَ تذييلًا أو اعتراضًا في آخِرِ الكلامِ، ويجوزُ أنْ تكونَ حالًا، والمقصودُ التَّكميلُ والاحتراسُ في معنىٰ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾؛ أي: ولِمَنْ شاءَ له ذلك من العالمين[(٤)].

ثم بيَّن أنَّ مشيئةَ الاستقامةِ موقوفةٌ علىٰ مشيئةِ اللهِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٦٦).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٤٤٥).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٢٩٥-٢٩٦).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٦٧).

(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ٧١).

سُورَةُ الانفطار

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾

ولمَّا كان يلزمُ من انفطارِها وَهْيُها(١) وعدمُ إمساكِها لِما أُثبِتَ بها؛ ليكونَ ذلك أشدَّ تخويفًا لِمَنْ تحتَها بأنَّهم يَترقَّبون كلَّ وقتٍ سقوطَها أو سقوطَ طائفةٍ منها فوقَهم، فيكونون بحيثُ لا يَقِرُّ لهم قرارٌ؛ قال: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾(٢).

وعندَ انتقاضِ تركيبِ السَّماءِ، لا بدَّ من انتثارِ الكواكبِ علىٰ الأرضِ؛ فلذلك قال: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾(٣).

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣﴾

ولمَّا كان إخبارُه بما دَلَّ علىٰ وَهْيِ السَّماءِ مُشعِرًا بوَهْيِ الأرضِ؛ لأنَّها أتقنُ منها وأشرفُ؛ إذ هي للأرضِ بمنزلةِ الذَّكَرِ للأنثىٰ، وكان الانفعالُ ربما أَوهَمَ أنَّ ذلك يكونُ بغيرِ فاعلٍ؛ صرَّح بوَهْيِ الأرضِ مُعبِّرًا بالبناءِ للمفعولِ دلالةً علىٰ أنَّ الكُلَّ بفعلِه، وأنَّ ذلك عليه يسيرٌ، فقال مُخبِرًا بانفطارِ الأراضي أيضًا ليجمعَ بينَ التَّخويفِ بالمطلِ والتَّرويعِ بالمقلِ: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾(٤).

---

(١) أي: ضَعْفُها.

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٢٩٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ٧٢).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٢٩٩-٣٠٠).

ثم إنَّه تعالىٰ بعدَ تخريبِ السَّماءِ والكواكبِ، يُخرِبُ كلَّ ما علىٰ وجه الأرضِ، وهو قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾[١].

ولمَّا ذكَر الظَّواهرَ العُلْويَّةَ؛ ذكَر الظَّواهرَ السُّفْليَّةَ، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾

ولمَّا كان ذلك مُقتضِيًا لغَمْرِ القبورِ، فأَوهَمَ أنَّ أهلَها لا يقومون، كما كان العربُ يعتقدون أنَّ مَن ماتَ فاتَ؛ قال دافعًا لذلك علىٰ نَمَطِ كلامِ القادِرينَ إشارةً إلىٰ سهولةِ ذلك عليه: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾[٢].

ثم إنَّه تعالىٰ يُخرِبُ آخِرَ الأمرِ الأرضَ التي هي البناءُ، وذلك هو قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، فإنَّه إشارةٌ إلىٰ قلبِ الأرضِ ظهرًا لبطنٍ، وبطنًا لظهرٍ[٣].

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾

ولمَّا كانت هذه الشُّروطُ كلُّها -التي جُعِلَتْ أشراطًا علىٰ السَّاعةِ- مُوجِبةً لعلومٍ دقيقةٍ، وتكشفُ كلُّ واحدةٍ منها عن أمورٍ عجيبةٍ، وكانت كلُّها دالَّةً علىٰ الانتقالِ من هذه الدَّارِ إلىٰ دارٍ أخرىٰ لخرابِ هذه الدَّارِ؛ ناسَبَ أن يُجِيبَ «إذْ» بقولِه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[٤].

جملةُ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ جوابٌ لِما في «إذا» مِن معنىٰ الشَّرطِ، ويتنازعُ التَّعلُّقَ به جميعُ ما ذُكر من كلماتِ «إذا» الأربعِ، وهذا العلمُ كنايةٌ عن الحسابِ علىٰ ما قدَّمَتِ النُّفوسُ وأخَّرَتْ[٥].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٧٣).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٠٠).
(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ٧٣).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٠٠-٣٠١).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٧٢).

ثم ذكَر سبحانه الجوابَ عمَّا تَقدَّمَ، فقال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾

ولمَّا كان ذلك خالعًا للقلوبِ، وكان الإنسانُ إذا اعتقَد البعثَ قد يقولُ تهاونًا ببعضِ المعاصي: المَرجِعُ إلىٰ كريمٍ، ولا يفعلُ بي إلَّا خيرًا؛ أَنتجَ قولَه مُناديًا بأداةِ البُعْدِ لأنَّ أكثرَ الخلقِ مع ذلك مُعرِضٌ، مُنكِرًا ﷻ علىٰ مَن يقولُ هذا اغترارًا بخُدَعِ الشَّيطانِ إنكارًا يَهُدُّ الأركانَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[2].

استئنافٌ ابتدائيٌّ لأنَّ ما قبلَه بمنزلةِ المقدِّمةِ له؛ لتهيئةِ السَّامعِ لتلقِّي هذه الموعظةِ؛ لأنَّ ما سبقه من التَّهويلِ والإنذارِ يُهيِّئُ النَّفسَ لقبولِ الموعظةِ، إذ الموعظةُ تكونُ أشدَّ تَغَلْغُلًا في القلبِ حينَئذٍ؛ لِما يَشعُرُ به السَّامعُ من انكسارِ نفسِه ورِقَّةِ قلبِه، فيزولُ عنه طغيانُ المُكابَرةِ والعنادِ، فخطَر في النُّفوسِ تَرقُّبُ شيءٍ بعدَ ذلك[3].

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا أَخبَرَ في الآيةِ الأولىٰ عن وقوعِ الحشرِ والنَّشرِ؛ ذكَر في هذه الآيةِ ما يدلُّ عقلًا علىٰ إمكانِه أو علىٰ وقوعِه، وذلك أنَّ الإلهَ الكريمَ الذي لا يجوزُ من كرمِه أن يقطعَ مَوائِدَ نِعَمِه عن المُذْنِبينَ، كيف يجوزُ في كرمِه أن لا ينتقمَ للمظلومِ من الظَّالمِ؟[4].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾

ولمَّا ذكَر هذينِ الوصفينِ الدَّالَّينِ علىٰ الكمالينِ بالجلالِ؛ دَلَّ عليهما تقريرًا لهما بإفاضةِ الجودِ في التَّربيةِ بوصفِ الجمالِ بالإكرامِ؛ لئلَّا يعتقدَ الإنسانُ -بما له من الطُّغيانِ- أنَّه حُرٌّ مالكٌ لنفسِه يفعلُ ما يشاءُ، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾[5].

---

(١) فتح القدير (٥/ ٤٧٩).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٠١-٣٠٢).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٧٣).
(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٧٤).
(٥) نظم الدرر (٢١/ ٣٠٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا وصَف نفسَه بالكرمِ، ذكَر هذه الأمورَ الثَّلاثةَ كالدَّلالةِ علىٰ تَحقُّقِ ذلك الكرمِ، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾(١).

صفةٌ ثانيةٌ مُقرِّرةٌ للرُّبوبيَّةِ، مُبيِّنةٌ للكرمِ، مُنبِّهةٌ علىٰ أنَّ مَن قدَر علىٰ ذلك بدءًا قدَر عليه إعادةً(٢).

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾

ولمَّا أضاءَ بهذا إضاءةَ الشَّمسِ أنَّه عظيمُ القدرةِ علىٰ كلِّ ما يريدُ؛ أَنتَجَ قولَه مُعلِّقًا بـ«ركَّب»: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾(٣).

هذه الجملةُ بيانٌ لقولِه: ﴿فَعَدَلَكَ﴾؛ فلذلك لم تُعطَفْ.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾

ولمَّا أَوضَح سبحانه غايةَ الإيضاحِ الدَّليلَ علىٰ قدرتِه علىٰ الإعادةِ بالابتداءِ، وبيَّن تعالىٰ أنَّه ما أَوجَبَ للإنسانِ الخسارَ بنسيانِ هذا الدَّليلِ الدَّالِّ علىٰ تلك الدَّارِ إلَّا الاغترارُ، وكان الاغترارُ يُطلَقُ علىٰ أدنىٰ المعنىٰ؛ بيَّن أنَّه ارتقىٰ به الذِّروةَ، فقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾(٤).

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ عمَّا هو غرورٌ باللهِ أو بالغَرورِ ممَّا تَضمَّنَه قولُه: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ من حصولِ ما يَغُرُّ الإنسانَ بالشِّركِ، ومِن إعراضِه عن نِعَمِ اللهِ تعالىٰ بالكفرِ، أو من كونِ حالةِ المشركِ كحالةِ المغرورِ، ويكونُ قولُه بعدَه: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ إضرابًا انتقاليًّا

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٧٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٢١).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٣٠٤).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٠٥).

من غرضِ التَّوبيخ والزَّجرِ على الكفرِ إلى ذِكرِ جُرْمٍ فظيعٍ آخَرَ؛ وهو التَّكذيبُ بالبعثِ والجزاءِ[١].

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا بيَّن بالدَّلائلِ العقليَّةِ صحَّةَ القولِ بالبعثِ والنُّشورِ على الجملةِ؛ فرَّع عليها شرحَ تفاصيلِ الأحوالِ المتعلِّقةِ بذلك[٢].

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾

عطفٌ على جملةِ ﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ تأكيدًا لثبوتِ الجزاءِ على الأعمالِ[٣].

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ حالٌ من فاعلِ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ مُفيدةٌ لبطلانِ تكذيبِهم، وتَحقُّقِ ما يُكذِّبون به[٤].

جملةٌ مستأنَفةٌ مَسُوقةٌ لبيانِ ما يُبطِلُ تكذيبَهم[٥].

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾

ولمَّا أَثبَتَ لهم الحفظَ؛ نزَّهَهم عن الزِّيادةِ والنَّقصِ، فقال: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾[٦].

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾

ولمَّا أَفهَمَ الاستعلاءُ والتعبيرُ بالوصفِ إحاطةَ الاطِّلاعِ على ما يَبرُزُ من الأعمالِ؛ صرَّح به فقال: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٧].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٧٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٧٧).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٧٩).

(٤) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٢١).

(٥) فتح القدير (٥/ ٤٨٠).

(٦) نظم الدرر (٢١/ ٣٠٥).

(٧) نظم الدرر (٢١/ ٣٠٦).

ثم وصَفَهم بالعلمِ بعدَ وصفِهم بالكرمِ والكتابةِ، فقال: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

ولمَّا كانت نتيجةُ حفظِ الأعمالِ الجزاءَ عليها؛ أَنتجَ ذلك بيانَ ما كانت الكتابةُ لأجلِه تفريقًا بينَ المُحسِنِ والمُسِيءِ الذي لا يصحُّ في حكمةِ حكيمٍ ولا كرمِ كريمٍ غيرُه، بقولِه علىٰ سبيلِ التأكيدِ، لأجلِ تكذيبِهم: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾[(١)].

فُصِلَتْ هذه الجملةُ عن التي قبلَها لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ جوابٌ عن سؤالٍ يَخطُرُ في نفسِ السَّامعِ يُثيرُه قولُه: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ﴾ الآيةَ لتشوُّفِ النَّفسِ إلىٰ معرفةِ هذا الجزاءِ ما هو، وإلىٰ معرفةِ غايةِ إقامةِ الملائكةِ لإحصاءِ الأعمالِ ما هي، فبيَّن ذلك بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ الآيةَ، وأيضًا تتضمَّنُ هذه الجملةُ تقسيمَ أصحابِ الأعمالِ، فهي تفصيلٌ لجملةِ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾، وذلك من مُقتضَياتِ فصلِ الجملةِ عن التي قبلَها[(٢)].

لمَّا وصف الكِرامَ الكاتبين لأعمالِ العبادِ؛ ذكَر أحوالَ العاملين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾[(٣)].

استئنافٌ مَسُوقٌ لبيانِ نتيجةِ الحفظِ والكتابِ من الثَّوابِ والعقابِ[(٤)].

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾

ثم ذكَر الفريقَ الثَّانيَ، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾.

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٨١).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ٧٩).

(٤) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٢٢).

﴿ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥ ﴾

ولمَّا كان السِّياقُ للتَّرهيبِ؛ وصَف عذابَ الفُجَّارِ، فقال: ﴿ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ (١).

استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ من تهويلِها، كأنَّه قِيلَ: ما حالُهم فيها؟ فقيل: ﴿ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ (٢).

﴿ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ ﴾

ولمَّا كان العذابُ علىٰ ما نَعهَدُه لا بدَّ أن ينقضيَ؛ بيَّن أنَّ عذابَه علىٰ غيرِ ذلك، فقال: ﴿ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ (٣).

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ﴾

ولمَّا عُلم أنَّ الوعيدَ الأعظمَ يومُ الدِّينَ؛ هوَّل أمرَه بالسُّؤالِ عنه، إعلامًا بأنَّه أهلٌ لِأَنْ يُصرَفَ العُمرُ إلىٰ الاعتناءِ بأمرِه، والسُّؤالِ عن حقيقةِ حالِه، سؤالَ إيمانٍ وإذعانٍ، لا سؤالَ كفرانٍ وطغيانٍ؛ ليكونَ أَقعَدَ في الوعيدِ به، فقال: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ (٤).

تفخيمٌ لشأنِ يومِ الدِّينِ الذي يُكذِّبون به إثْرَ تفخيمٍ وتهويلٍ لأمرِه بعدَ تهويلٍ ببيانِ أنَّه خارجٌ عن دائرةِ درايةِ الخلقِ علىٰ أيِّ صورةٍ تَصوَّرَه فهو فوقَها، وكيفَما تَخيَّلُوه فهو أَطَمُّ من ذلك وأعظمُ (٥).

ثم عظَّم سبحانه ذلك اليومَ، فقال: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ (٦).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٠٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٢٢).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٣٠٧).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٠٨).

(٥) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٢٢).

(٦) فتح القدير (٥/ ٤٨٠).

﴿ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ ﴾

ولـمَّا كانت أهوالُه زائدةً على الحدِّ؛ كرَّر ذلك السُّؤالَ لذلك الحالِ، فقال مُعبِّرًا بأداةِ التَّراخي زيادةً في التَّهويلِ: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾[1].

تكريرٌ للتَّهويلِ تكريرًا يُؤذِنُ بزيادتِه؛ أيْ: تَجاوَزَ حدَّ الوصفِ والتعبيرِ، فهو من التَّوكيدِ اللَّفظيِّ، وقرَن هذا بحرفِ ﴿ثُمَّ﴾ الذي شأنُه إذا عطَف جملةً على أخرى أنْ يُفِيدَ التَّراخيَ الرُّتْبيَّ؛ أيْ: تَباعُدَ الرُّتبةِ في الغرضِ المَسُوقِ له الكلامُ، وهي في هذا المقامِ رتبةُ العَظَمةِ والتَّهويلِ، فالتَّراخي فيها هو الزِّيادةُ[2].

ثم كرَّرَه تعظيمًا لقَدْرِه، وتفخيمًا لشأنِه، وتهويلًا لأمرِه، فقال: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾[3].

﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩ ﴾

ولـمَّا بيَّن أنَّه من العَظَمةِ بحيثُ لا تُدرِكُه درايةُ دارٍ وإنْ عظُم وإنِ اجتهَد؛ لخَّص أمرَه في شرحِ ما يحتملُه العقولُ منه على سبيلِ الإجمالِ، دافعًا ما قد يقولُه بعضُ مَن لا عقلَ له: إنْ كان انضَمَمتَ والتَجَأْتَ إلى بعضِ الأكابرِ، وقصَدتَ بعضَ الأماثلِ؛ فأَخلِصْ قهرًا أو بشفاعةٍ ونحوِها، فقال: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٠٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٨٤).

(٣) فتح القدير (٥/ ٤٨٠).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٠٨).

بيانٌ إجماليٌّ لشأنِ يومِ الدِّينِ إثرَ إبهامِه، وبيانُ خروجِه عن علومِ الخلقِ بطريقِ إنجازِ الوعدِ، فإنَّ نفيَ إدرائِهم مُشعِرٌ بالوعدِ الكريمِ بالإدراءِ[1].

ثم فسَّر تعالىٰ بعضَ شأنِه بقولِه: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾[2].

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٢٣).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٤٢٦).

سورة المطففين

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢﴾

صفةٌ كاشفةٌ للمُطَفِّفِينَ، شارحةٌ لكيفيَّةِ تطفيفِهم الذي استَحَقُّوا به الذَّمَّ والدعاءَ بالوَيْلِ[(١)].

وفسَّر اللهُ المُطَفِّفِينَ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾[(٢)].

﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾

ولمَّا أَفهَمَ تقديمُ الجارِ الاختصاصَ، فأَفهَمَ أنَّهم إذا فعلوا من أنفسِهم لا يكونُ كذلك؛ صرَّح به فقال: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾[(٣)].

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤﴾

ولمَّا ذكَر سُبحانَه وتَعالى أنَّهم أَدمَنُوا على هذه الرَّذائلِ حتَّى صارت لهم خُلُقًا مَرَنُوا عليه[(٤)] وأَنِسُوا به وسكَنوا إليه، وكان ذلك لا يكونُ إلَّا ممَّنْ أَمِنَ العقابَ وأنكر الحسابَ؛

---

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٢٤).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٩١٥).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٣١٣).

(٤) أي: اعتادوه.

أَنتجَ ذلك الإنكارَ عليهم على أبلغِ الوجوهِ؛ لإفهامِه أنَّ حالَهم أهلٌ لِأَنْ يُتَعجَّبَ منه ويُستفهَمَ عنه، وأنَّ المُسْتَفهَمَ عن حصولِه عندَهم الظَّنُّ، وأمَّا اليقينُ فلا يُتَخيَّلُ فيهم؛ لبُعْدِ أحوالِهم الجافيةِ وأفهامِهم الجامدةِ عنه، فقال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾[(١)].

استئنافٌ ناشئٌ عن الوعيدِ والتَّقريعِ لهم بالويلِ علىٰ التَّطفيفِ، وما وُصفوا به من الاعتداءِ علىٰ حقوقِ المُبْتَاعِينَ[(٢)].

استئنافٌ واردٌ لتهويلِ ما ارتكبوه من التَّطفيفِ، والتَّعجيبِ من اجترائِهم عليه[(٣)].

ثم تَوعَّدَ تعالىٰ المُطَفِّفِينَ، وتَعجَّبَ من حالِهم وإقامتِهم علىٰ ما هم عليه، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾[(٤)].

﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥﴾

اللَّامُ في قولِه: ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ لامُ التَّوقيتِ، وفائدةُ لامِ التَّوقيتِ إدماجُ الرَّدِّ علىٰ شبهتِهم الحاملةِ لهم علىٰ إنكارِ البعثِ باعتقادِهم أنَّه لو كان بعثٌ لبُعِثَتْ أمواتُ القرونِ الغابرةِ، فأَومَأَ قولُه: ﴿لِيَوۡمٍ﴾ أنَّ للبعثِ وقتًا مُعيَّنًا يقعُ عندَه لا قبلَه، ووُصِفَ «يومٌ» بـ﴿عَظِيمٖ﴾ باعتبارِ عَظَمةِ ما يقعُ فيه من الأهوالِ[(٥)].

فكأنَّه قيل: متىٰ؟ فقيل: ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣١٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٩٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٢٥).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٩١٥).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٩٣).

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾

ولمَّا عظَّم ذلك اليومَ تحذيرًا منه، وزادَه تعظيمًا بأنْ أتبعَه على سبيلِ القطعِ قولَه ناصبًا بتقديرِ: أَعنِي؛ إعلامًا بأنَّ الجَحْدَ فيه بأَعيُنِ جميعِ الخلائقِ، فهو فضيحةٌ لا يُشبِهُها فضيحةٌ: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(١).

ثم أَخبرَ عن ذلك اليومِ، فقال: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(٢).

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧﴾

ولمَّا أنهى سبحانه ما أرادَ من تعظيمِ ذلك اليومِ، والتَّعجيبِ ممَّنْ لم يُفِدْه براهينُه أن يُجوِّزَه، والإنكارِ عليه، وكان مع ما فيه من التَّقريعِ مُفهِمًا للتَّقريرِ؛ نفى بأداةِ الرَّدعِ -للمُبالَغةِ في النَّفيِ- مضمونَ ما وقَع الاستفهامُ عنه، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾(٣).

﴿كَلَّآ﴾ إبطالٌ وردْعٌ لِما تَضمَّنَتْه جملةُ ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ من التَّعجيبِ من فعلِهم التَّطفيفَ. ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ بمناسبةِ ذِكْرِ يومِ القيامةِ، وهو تعريضٌ بالتَّهديدِ للمُطَفِّفِينَ بأنْ يكونَ عملُهم مُوجِبًا كَتْبَه في كتابِ الفُجَّارِ(٤).

واعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا بيَّن عِظَمَ هذا الذَّنبِ، أَتبعَه بذِكْرِ لواحقِه وأحكامِه(٥).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣١٦).

(٢) فتح القدير (٥/ ٤٨٣).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٣١٧).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٩٤).

(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ٨٦).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨﴾

ثم زادَ في هَوْلِه بالإخبارِ بأنَّه أهلٌ لأَنْ يُسأَلَ عنه، ويُضرَبَ إلىٰ العالِمِ به -إنْ كان يُمكِنُ- آباطُ الإبلِ، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾[1].

جملةُ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ مُعترضةٌ بينَ جملةِ ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾، وجملةِ ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾، وهو تهويلٌ لأمرِ «السِّجِّينِ» تهويلَ تفظيعٍ لحالِ الواقِعِينَ فيه[2].

ثم ذكَر ما يدلُّ علىٰ تهويلِه وتعظيمِه، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾[3].

﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩﴾

ولمَّا أتَمَّ ما أرادَ من وصفِه؛ أَعرَضَ عن بيانِه إشارةً إلىٰ أنَّه من العَظَمةِ بحيثُ إنَّه يَكِلُّ عنه الوصفُ، واستأْنَفَ أمرَ الكتابِ المسجونِ فيه، فقال مُحذِّرًا منه، مُهوِّلًا لأمرِه: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾[4].

ثم فسَّر «سِجِّينًا»، فقال: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾[5].

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠﴾

ولمَّا أَعلَمَ هذا بما للكتابِ من الشَّرِّ؛ استأنَفَ الإخبارَ بما أَنتَجه ممَّا لأصحابِه، فقال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾[6].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣١٩).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٩٥).

(٣) فتح القدير (٥/ ٤٨٤).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣١٩).

(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ٨٧).

(٦) نظم الدرر (٢١/ ٣١٩-٣٢٠).

جملةُ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ يجوزُ أن تكونَ مُبيِّنةً لمضمونِ جملةِ ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ويجوزُ أن تكونَ ابتدائيَّةً، وبينَ المكذِّبين بيومِ الدِّينِ والمُطفِّفينَ عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ، فمِن المكذِّبين مَن هم مُطفِّفون، ومِن المطفِّفين مسلمون وأهلُ كتابٍ لا يُكذِّبون بيومِ الدِّينِ، فتكونُ هذه الجملةُ إدماجًا لتهديدِ المشركين المكذِّبين بيومِ الدِّينِ وإنْ لم يكونوا من المطفِّفين[(١)].

﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾﴾

ولمَّا أَخبرَ عن وَيْلِهم؛ وَصَفَهم بما يُبيِّنُ ما كذَّبوا به ويُبلِغُ في ذمِّهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾[(٢)].

ثم بيَّن سبحانه هؤلاء المكذِّبين، فقال: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾[(٣)].

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾

ثم إنَّه تعالىٰ أَخبرَ عن صفةِ مَن يُكذِّبُ بيومِ الدِّينِ، فقال: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[(٤)].

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

ولمَّا أَثبتَ له الإبلاغَ في الإثمِ؛ دَلَّ عليه بقولِه بأداةِ التَّحقُّقِ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٩٦).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٢٠).

(٣) فتح القدير (٥/ ٤٨٥).

(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ٨٧).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ٣٢٠).

📖 ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ 📖

ولمَّا كان هذا قد صارَ كالأنعامِ في عدمِ النَّظرِ، بل هو أضلُّ سبيلًا؛ لأنَّه قادرٌ علىٰ النَّظرِ دونَها؛ قال رادعًا له ومُكذِّبًا ومُبيِّنًا لِما أدَّىٰ به إلىٰ هذا القولِ وهو لا يعتقدُه: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(١).

﴿ كَلَّا ﴾ اعتراضٌ بالرَّدعِ، وبيانٌ له؛ لأنَّ ﴿ كَلَّا ﴾ رَدْعٌ لقولِهم: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: إنَّ قولَهم باطلٌ، وحرفُ ﴿بَلْ﴾ للإبطالِ تأكيدًا لمضمونِ ﴿ كَلَّا ﴾، وبيانًا وكشفًا لِما حَمَلَهم علىٰ أن يقولوا في القرآنِ ما قالوا، وأنَّه ما أعمىٰ بصائرَهم مِن الرَّيْنِ(٢).

📖 ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ 📖

ولمَّا كان ادِّعاؤُهم إنَّما هو قولٌ قالوه بأفواهِهم لا يتجاوزُها عظيمًا جدًّا؛ أعادَ رَدْعَهم عنه وتكذيبَهم فيه، فقال: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾(٣).

ثم كرَّر سبحانه الرَّدعَ والزَّجرَ، فقال: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾(٤).

ولمَّا حَجَبَهم في الدنيا عن توحيدِه؛ حَجَبَهم في الآخرةِ عن رؤيتِه، فقال: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾.

📖 ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾ 📖

ولمَّا بيَّن ما لهم من العذابِ بالحجابِ الذي هو عذابُ القلبِ الذي لا عذابَ أشدُّ منه؛ لأنَّه يَتفرَّعُ عنه جميعُ العذابِ؛ شرَع يُبيِّنُ بعضَ ما تَفرَّعَ عنه من عذابِ القالبِ،

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٢١).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٩٨-١٩٩).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٣٢٣).

(٤) فتح القدير (٥/ ٤٨٥).

مُؤكِّدًا لأجلِ إنكارِهم، مُعبرًا بأداةِ التَّراخي إعلامًا بعُلُوِّ رُتْبَتِه في أنواعِ العذابِ، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾(١).

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا بيَّن ما لهم من الفعلِ الذي هو للقلبِ والقالبِ؛ أَتبعَه القولَ بالتَّوبيخِ والتَّبكيتِ الذي هو عذابُ النَّفسِ، وبناه للمفعولِ لأنَّ المُنْكِئَ سماعُه لا كونُه من مُعيَّنٍ، وإشارةً إلىٰ أنَّه يَتمكَّنُ من قولِه لهم كلُّ مَن يصحُّ منه القولُ من خَزنَةِ النَّارِ ومن أهلِ الجنَّةِ وغيرِهم؛ لأنَّه لا مَنَعةَ عندَهم: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾(٢).

ثم إذا دخلوا النَّارَ، وُبِّخُوا بتكذيبِهم بالبعثِ والجزاءِ، ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾(٣).

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا كان هذا ربما أَفهَمَ أنَّهم يَرَوْنَ جميعَ عذابِهم إذ ذاكَ؛ نفاه بقولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾(٤).

لمَّا ذكَر حالَ الفُجَّارِ المُطفِّفِينَ؛ أَتبعَه بذِكْرِ حالِ الأبرارِ الذين لا يُطفِّفون، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾(٥).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أمرَ كتابِ الفُجَّارِ؛ عقَّبه بذِكْرِ كتابِ ضِدِّهم ليَتبيَّنَ الفرقُ(٦).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٢٤).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٢٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ٩٠).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٢٥).

(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ٩٠).

(٦) البحر المحيط (١٠/ ٤٣٠).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا عظيمًا؛ زادَ في تعظيمِه بقولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾(١).

﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠﴾

ولمَّا عظَّم المكانَ فعُلِمَتْ عَظَمةُ الكتابِ؛ ابتدأ الإخبارَ عنه على سبيلِ القطعِ زيادةً في عَظَمَتِه، فقال: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾(٢).

ثم فسَّره بقولِه: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾.

﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾

ولمَّا عظَّمه في نفسِه وفي مكانِه؛ عظَّمه في حُضَّارِه، فقال: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾(٣).

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢﴾

ولمَّا عظَّم كتابَهم بهذه الفضائلِ؛ التفَتَتِ النَّفسُ إلى معرفةِ حالِهم، فقال شافيًا لعِيِّ هذا الالتفاتِ، مُؤكِّدًا لأجلِ مَن يُنكِرُ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾(٤).

مضمونُ هذه الجملةِ قَسِيمٌ لمضمونِ جملةِ ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ...﴾ إلى آخِرِها؛ ولذلك جاءت على نسيجِ نظمِ قَسِيمَتِها افتتاحًا وتوصيفًا وفصلًا، وهي مُبيِّنةٌ لجملةِ ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾، فموقعُها موقعُ البيانِ، أو موقعُ بدلِ

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٢٦).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٢٦).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٣٢٦).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٢٧).

الاشتمالِ على كلا الوجهينِ في موقعِ التي قبلَها، على أنَّه يجوزُ أن تكونَ من الكلامِ الذي يُقالُ لهم، وهو المَحْكِيُّ بقولِه: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾، فيكونُ قولُ ذلك لهم تحسيرًا وتنديمًا على تفريطِهم في الإيمانِ[(١)].

اعلَمْ أنَّه ﷻ لمَّا عظَّم كتابَهم في الآيةِ المتقدِّمةِ، عظَّمَ بهذه الآيةِ منزلتَهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾[(٢)].

ثم ذكَر سبحانه حالَهم في الجنَّةِ بعدَ ذِكْرِ كتابِهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾[(٣)].

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣﴾

ولمَّا كان لا شيءَ أَنعَمُ للإنسانِ من شيءٍ عالٍ يجلسُ عليه، ويَمُدُّ بصرَه إلى ما يشتهي ممَّا لديه؛ قال مُبيِّنًا لذلك النَّعيمِ: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾[(٤)].

ثم وصَف كيفيَّةَ ذلك النَّعيمِ بأمورٍ ثلاثةٍ؛ أوَّلُها قولُه: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾[(٥)].

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤﴾

ولمَّا وصَف نعيمَهم، أَخبَرَ أنَّهم من عَراقتِهم فيه يعرفُهم به كلُّ ناظرٍ إليهم، فقال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾[(٦)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٠٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٩١).

(٣) فتح القدير (٥/ ٤٨٧).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٢٧).

(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ٩١).

(٦) نظم الدرر (٢١/ ٣٢٨).

📖 ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥﴾ 📖

ولمَّا كانت مجالسُ الأُنْسِ -لا سِيَّما في الأماكنِ النَّضِرةِ- لا تَطِيبُ إلَّا بالمآكلِ والمشاربِ، وكان الشَّرابُ يدلُّ على الأكلِ؛ قال مُقتصِرًا عليه؛ لأنَّ هذه السُّوَرَ قِصارٌ، يُقصَدُ فيها الجمعُ مع الاختصارِ، قال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾[1].

📖 ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦﴾ 📖

ولمَّا كان الختمُ حينَ الفكِّ لا بدَّ أن ينزلَ من فُتاتِه في الشَّرابِ، قال: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[2].

جملةُ ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ نعتٌ لـ﴿رَّحِيقٍ﴾، أو بدلُ مُفصَّلٍ من مُجمَلٍ، أو استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن وصفِ الرَّحيقِ بأنَّه مختومٌ أن يسألَ سائلٌ عن ختامِها: أيُّ شيءٍ هو من أصنافِ الختامِ؟ لأنَّ غالبَ الختامِ أن يكونَ بطِينٍ أو سِدادٍ[3].

📖 ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧﴾ 📖

ولمَّا ذكر الشَّرابَ، أَتبعَه مِزاجَه على ما يَتعارَفُه أهلُ الدنيا لكنْ بما هو أشرفُ منه، فقال مُبيِّنًا لحالِ هذا المَسْقِيِّ: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾[4].

📖 ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ 📖

ولغرابةِ ذلك احتِيجَ إلى تبيينِه بقولِه: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٢٨).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٢٩).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٠٦).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٣٠).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٠٨).

ثم بيَّن ذلك فقال: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[(١)].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه جزاءَ الكافرِ بالجحيمِ، وجزاءَ المؤمنِ بالنَّعيمِ، وكان من أجلِّ النَّعيمِ الشَّماتةُ بالعَدُوِّ؛ علَّل جزاءَ الكافرِ بما فيه شماتةُ المؤمنِ به لأنَّه اشتغَل في الدنيا بما لا يُغنِي، فلَزِمَ من ذلك تفويتُه لِما يُغنِي، فقال مُؤكِّدًا لأنَّ ذا المروءاتِ والهِمَمِ العالياتِ والطَّبعِ السَّليمِ والمِزاجِ القويمِ لا يكادُ يُصدِّقُ مِثلَ هذا، وأكَّده إشارةً إلىٰ أنَّ مِن حقِّه أن لا يكونَ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴾[(٢)].

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا وصَف كرامةَ الأبرارِ في الآخرةِ، ذكَر بعدَ ذلك قُبْحَ معاملةِ الكفارِ معَهم في الدنيا في استهزائِهم وضَحِكِهم، ثم بيَّن أنَّ ذلك سينقلبُ علىٰ الكفارِ في الآخرةِ، والمقصودُ منه تسليةُ المؤمنين وتقويةُ قلوبِهم[(٣)].

ثم ذكَر سبحانه بعضَ قبائحِ المشركين، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴾[(٤)].

﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

ثم ذكَر قبيحةً أخرىٰ من قبائحِ المشركين، فقال: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

ولمَّا وصَفَهم في مواضعِ التَّردُّدِ والتَّقلُّبِ، وصَفَهم في المنازلِ، فقال: ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴾[(٥)].

---

(١) فتح القدير (٥/ ٤٨٩).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٣٠-٣٣١).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ٩٤).

(٤) فتح القدير (٥/ ٤٨٩).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ٣٣١).

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾

ولمَّا ذكَر مرورَهم بهم، ذكَر مُطلَقَ رؤيتِهم لهم، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾(١).

جملةُ ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ حَكَتْ ما يقولُه الذين أَجرَموا في المؤمنين إذا شاهدوهم؛ أي: يجمعون بينَ الأذىٰ بالإشاراتِ وبالهيئةِ، وبسوءِ القولِ في غَيْبتِهم وسوءِ القولِ إعلانًا به علىٰ مسامعِ المؤمنين لعلَّهم يرجعون عن الإسلامِ إلىٰ الكفرِ، أم كان قولًا يقولُه بعضُهم لبعضٍ إذا رأَوُا المؤمنين كما يفكهون بالحديثِ عن المؤمنين في خَلَواتِهم، وبذلك أيضًا فارَق مضمونُ هذه الجملةِ مضمونَ الجملِ التي قبلَها مع ما في هذه الجملةِ من عمومِ أحوالِ رؤيتِهم، سواءٌ كانت في حالِ المرورِ بهم أو مشاهدةٍ في مقرِّهم(٢).

﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ٣٣﴾

جملةُ ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ في موضعِ الحالِ؛ أيْ: يَلمِزُوهم بالضَّلالِ في حالِ أنَّهم لم يُرسِلْهم مُرسِلٌ ليكونوا مُوكَّلِينَ بأعمالِهم، فدَلَّ علىٰ أنَّ حالَهم كحالِ المرسَلِ؛ ولذلك نُفِيَ أن يكونوا أُرسِلوا حافظين عليهم، فإنَّ شِدَّةَ الحرصِ علىٰ أن يقولوا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ كُلَّما رَأَوْهم، يُشبِهُ حالَ المرسَلِ ليتتبَّعَ أحوالَ أحدٍ، ومِن شأنِ الرسولِ الحرصُ علىٰ التَّبليغِ. والخبرُ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ بالمشركين(٣).

ثم تَهكَّمَ بهم كما تَهكَّموا بالمؤمنين، فقال: ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾.

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢١٣).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢١٤).

﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤﴾

ولمَّا كان لا نعيمَ أفضلُ من الشَّماتةِ بالعَدُوِّ؛ لا سِيَّما إذا كانت علىٰ أعلىٰ طبقاتِ الشَّماتةِ؛ قال تعالىٰ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾[(١)].

تفريعٌ علىٰ ما قبلَه؛ للدَّلالةِ علىٰ أنَّه جزاءُ سُخْرِيَّتِهم في الدنيا[(٢)].

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥﴾

ولمَّا كان لا شيءَ أَنعَمُ للإنسانِ من شيءٍ عالٍ يجلسُ عليه، ويَمُدُّ بصرَه إلىٰ مَن كان يسخرُ منه ويرميه بالضَّلالِ؛ قال مُبيِّنًا لذلك النَّعيمِ: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾.

﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾

فَذْلَكةٌ لِما حُكي من اعتداءِ المشركين علىٰ المؤمنين، وما تَرَتَّبَ عليه من الجزاءِ يومَ القيامةِ، فالمعنىٰ: فقد جُوزِيَ الكفارُ بما كانوا يفعلون، وهذا من تمامِ النداءِ الذي يُعلَّقُ به يومُ القيامةِ[(٣)].

﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، الجملةُ مستأنَفةٌ لبيانِ أنَّه قد وقع الجزاءُ للكُفَّارِ بما كان يقعُ منهم في الدنيا من الضَّحِكِ من المؤمنين والاستهزاءِ بهم، والاستفهامُ للتَّقريرِ[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٣٣).
(٢) محاسن التأويل (٩/ ٤٣٦).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢١٥).
(٤) فتح القدير (٥/ ٤٨٩).

سُورَةُ الانْشِقَاق

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾

ولمَّا كان هذا ربما أَوهَمَ أنَّه بغيرِ أمره ﷻ، قال: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[1].

ثم بيَّن أنَّها مُسخَّرةٌ مُدبَّرةٌ، فقال: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾

ولمَّا بدأ بالعالمِ العُلْويِّ؛ لكونِه أشرفَ؛ لأنَّه أعلىٰ مكانةً ومكانًا، ثنَّىٰ بالسُّفْليِّ، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾[2].

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾

ولمَّا كان الجلدُ جديرًا بأنَّه إذا مُدَّ أن يُبينَ عن كلِّ ما فيه من غيرِه، قال: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾[3].

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾

ولمَّا كان هذا ربما أَوهَمَ أنَّه بغيرِ أمرِه ﷻ، قال: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٣٧).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٣٦).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٣٣٧).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٣٧).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦ ﴾

ولمَّا كان الجوابُ ما ذكَرتُه، أَتبعَه شرحَه، فقال مُنادِيًا بأداةٍ صالحةٍ للبُعْدِ؛ لأنَّ المناديٰ أدنىٰ الأسنانِ، بادئًا بالأولياءِ؛ لأنَّ آخِرَ التَّطفيفِ الذي هذا شرحٌ له إدخالُ السُّرورِ عليهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴾(١).

﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ ﴾

ولمَّا كان من المعلومِ أنَّ عَبيدَ المَلِكِ إذا عُرِضُوا عليه، كان فيهم المقبولُ والمردودُ، بسببِ أنَّ كَدْحَهم تارةً يكونُ حسنًا وتارةً يكونُ سيِّئًا؛ قال مُعرِّفًا أنَّ الأمرَ في لقائِه كذلك علىٰ ما نعهدُ، فمَن كان مقبولًا أُعطِيَ كتابَ حسناتِه بيمينِه؛ لأنَّه كان في الدنيا من أهلِ اليمينِ؛ أي: الدِّينِ المَرْضِيِّ، ومَن كان مردودًا أُعطِيَ كتابَه بشمالِه؛ لأنَّه كان في الدنيا مع أهلِ الشِّمالِ، وهو الدِّينُ الباطلُ، الذي يعملُ من غيرِ إذنِ المالكِ، فكأنَّه يفعلُ من ورائِه، فترجَمَ هذا الغرضَ بقولِه ﷻ مُفصِّلًا للإنسانِ المرادِ به الجنسُ، جامعًا للضَّميرِ بعدَ أنْ أَفرَدَه تنصيصًا علىٰ حشرِ كلِّ فردٍ: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾(٢).

هذا تفصيلُ الإجمالِ الذي في قولِه: ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦ ﴾(٣).

﴿ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ ﴾

ثم ذكَر حسابَه بعدَ إعطاءِ كتابِه، فقال: ﴿ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴾.

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٣٨).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٣٩-٣٤٠).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٢٢).

﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ ﴾

ولمَّا كان هذا دالًّا على العفوِ، أَتبعَه ما يدلُّ على الإكرامِ، فقال: ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾(١).

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ ﴾

ثم ذكَر أصحابَ الشِّمالِ بعدَ ذِكْرِ أصحابِ اليمينِ، فقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾.

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ ﴾

ثم ذكَر حالَه بعدَ أخذِ كتابِه، فقال: ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴾.

﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ ﴾

ولمَّا كان ذلك لا يكونُ إلَّا لبلاءٍ كبيرٍ، أَتبعَه ما يمكنُ أن يكونَ عِلَّةً له، فقال: ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾(٢).

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ ﴾

ولمَّا ذكَر هذا العذابَ الذي لا يُطاقُ، أَتبعَه سببَه؛ ترهيبًا منه، واستعطافًا إلى التَّوبةِ، وتحذيرًا من السُّرورِ في دارِ الحزنِ، فقال مُؤكِّدًا تنبيهًا على أنَّه لا ينبغي أن يُصدَّقَ أنَّ عاقلًا يَثبُتُ له سرورٌ في الدنيا: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٤٠).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٤٤).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٣٤٤).

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤﴾

ثم علَّل ثباتَ سرورِه، فقال مُؤَكِّدًا تنبيهًا أيضًا علىٰ أنَّه لا يُصدَّقُ أنَّ أحدًا يُنكِرُ البعثَ مع ما له من الدَّلائلِ التي تفوتُ الحصرَ: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾(١).

موقعُ جملةِ ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤﴾ موقعُ التَّعليلِ لمضمونِ جملةِ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ١٠ ...﴾ إلىٰ آخرِها(٢).

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ١٥﴾

حرفُ ﴿بَلَىٰٓ﴾ يُجابُ به الكلامُ المنفيُّ لإبطالِ نفيِه، وجملةُ ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ مُبيِّنةٌ للإبطالِ الذي أفاده حرفُ ﴿بَلَىٰٓ﴾ علىٰ وجهِ الإجمالِ؛ يعني: أنَّ ظنَّه باطلٌ لأنَّ ربَّه أنبأه بأنَّه يُبعَثُ(٣).

ثم أجابَ علىٰ ظنِّه في عدمِ رجوعِه إلىٰ ربِّه بعدَ موتِه، فقال: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾.

ثم أَوجَبَ المنفيَّ وعلَّله، فقال: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦﴾

ولمَّا أَخبرَ سبحانه بإنكارِه لِما أتاه به الرُّسلُ من الحشرِ علىٰ وجهٍ مُوضِّحٍ للدَّليلِ علىٰ بطلانِ إنكارِه، ولم يرجعْ؛ سبَّب عنه الإقسامَ علىٰ صحَّةِ ذلك؛ لأنَّه ليس عندَ النَّذيرِ النَّاصحِ الشَّفُوقِ بعدَ إقامةِ الأدلَّةِ إلَّا الأيمانُ علىٰ صحَّةِ ما قال؛ نظرًا منه للمنصوحِ، وشَفَقةً عليه، وكان تركُ الحَلِفِ علىٰ ما هو ظاهرٌ أبلغَ من الحلفِ؛ لِما في ذلك التَّركِ من تنبيهِ المخاطَبِ علىٰ النَّظرِ والتَّأمُّلِ، فقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٢٤).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٢٥).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٤٥-٣٤٦).

الفاءُ لتفريعِ القَسَمِ وجوابِه علىٰ التَّفصيلِ الذي في قولِه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ⑦﴾ إلىٰ هنا، فإنَّه اقتضىٰ أنَّ ثمَّةَ حسابًا وجزاءً بخيرٍ وشرٍّ، فكان هذا التَّفريعُ فَذْلَكةً وحَوْصَلةً لِما فُصِّلَ من الأحوالِ، وكان أيضًا جمعًا إجماليًّا لِما يعترِضُ في ذلك من الأهوالِ(١).

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ⑰﴾

ولمَّا أَقسَمَ بالحُمْرةِ التي تُرىٰ في أُفُقِ المغربِ بعدَ الغروبِ، أَقسَمَ باللَّيلِ الذي يَعقُبُها، فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾.

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ⑱﴾

مناسبةُ الأمورِ المقسَمِ بها هنا للمُقسَمِ عليه؛ لأنَّ «الشَّفَقَ» و«اللَّيلَ» و«القمرَ» تُخالِطُ أحوالًا بينَ الظُّلْمةِ وظهورِ النُّورِ معَها، أو في خلالِها، وذلك مُناسِبٌ لِما في قولِه: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ من تفاوتِ الأحوالِ التي يختبطُ فيها النَّاسُ يومَ القيامةِ أو في حياتِهم الدنيا، أو من ظهورِ أحوالِ خيرٍ من خلالِ أحوالِ شرٍّ، أو انتظارِ تَغيُّرِ الأحوالِ إلىٰ ما يُرضِيهم إنْ كان الخطابُ للمسلمين خاصَّةً. ولعلَّ ذِكرَ «الشَّفَقِ» إيماءٌ إلىٰ أنَّه يُشبِهُ حالةَ انتهاءِ الدنيا؛ لأنَّ غروبَ الشَّمسِ مِثلُ حالةِ الموتِ، وأنَّ ذِكرَ «اللَّيلِ» إيماءٌ إلىٰ شِدَّةِ الهَوْلِ يومَ الحسابِ، وذِكرَ «القمرِ» إيماءٌ إلىٰ حصولِ الرَّحمةِ للمؤمنين(٢).

ثم أَقسَمَ بآيةِ اللَّيلِ، فقال: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٢٦).

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾

ولمَّا كانت هذه الأمورُ عظيمةً جدًّا، لا يقدرُ عليها إلَّا اللهُ تعالىٰ، ولها من المنافعِ ما لا يعلمُه حقَّ علمِه إلَّا هو ﷻ، وكُلٌّ منها -معَ ذلك- دالٌّ علىٰ تمامِ قدرتِه تعالىٰ علىٰ الذي يُرادُ تقريرُه في العقولِ وإيضاحُه من القدرةِ التَّامَّةِ علىٰ إعادةِ الشَّيءِ كما كان سواءً، ونفيُ الإقسامِ بها دليلًا علىٰ أنَّ ذلك في غايةِ الظُّهورِ، فالأمرُ فيه غنيٌّ عن الإقسامِ؛ قال في موضعِ جوابِ القَسَمِ مقرونًا باللَّامِ الدَّالَّةِ علىٰ القَسَمِ، ذاكرًا ما هو في الظُّهورِ والبداهةِ بحيثُ لا يحتاجُ إلىٰ تنبيهٍ عليه بغيرِ ذِكْرِه: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾(١).

ثم ذكَر جوابَ القَسَمِ، فقال: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾.

﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾

ولمَّا ظهر المرادُ، ولم يَبْقَ إلَّا العنادُ؛ سبَّب عن ذلك الإنكارَ عليهم والتَّوبيخَ والتَّقريعَ والتَّهديدَ، فقال مُعرِضًا عن خطابِهم إلىٰ الغَيْبةِ؛ إيذانًا باستحقاقِهم للأخذِ إنْ لم يرجعوا: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(٢).

يجوزُ أن يكونَ التَّفريعُ علىٰ ما ذُكر من أحوالِ مَن أُوتِيَ كتابَه وراءَ ظهرِه، وأُعِيدَ عليه ضميرُ الجماعةِ لأنَّ المرادَ بـ«مَن» الموصولةِ كُلُّ مَن تَحِقُّ فيه الصِّلةُ، فجرىٰ الضَّميرُ علىٰ مدلولِ «مَن» وهو الجماعةُ، والمعنىٰ: فما لهم لا يخافون أهوالَ يومِ لقاءِ اللهِ فيؤمنوا، ويجوزُ أن يكونَ مُفرَّعًا علىٰ قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾؛ أي: إذا تَحقَّقْتَ ذلك فكيف لا يُؤمِنُ بالبعثِ الذين أنكروه؟! وجِيءَ

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٤٧).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٤٨).

بضميرِ الغَيْبةِ لأنَّ المقصودَ من الإنكارِ والتَّعجُّبِ خصوصُ المشركين مِن الذين شَمِلَهم لفظُ «الإنسانِ» في قولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾؛ لأنَّ العنايةَ بموعظتِهم أهمُّ، فالضَّميرُ التفاتٌ، ويجوزُ أن يكونَ تفريعًا علىٰ قولِه: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، فيكونَ مخصوصًا بالمشركين باعتبارِ أنَّهم أهمُّ في هذه المواعظِ، والضَّميرُ أيضًا التفاتٌ، ويجوزُ تفريعُه علىٰ ما تَضمَّنَه القَسَمُ من الأحوالِ المقسَمِ بها باعتبارِ تَضمُّنِ القَسَمِ بها أنَّها دلائلُ علىٰ عظيمِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ وتَفرُّدِه بالإلهيَّةِ، ففي ذِكْرِها تذكرةٌ بدلالتِها علىٰ الوحدانيَّةِ، والالتفاتُ هو هو[(١)].

﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ ﴾

وبعدَ أنْ أَنكَرَ عليهم عدمَ الإيمانِ، أَنكَرَ عليهم عدمَ التَّأثُّرِ بالقرآنِ، فقال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴾.

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ولـمَّا كان هذا استفهامًا إنكاريًّا معناه النَّفيُ، فكان التقديرُ: إنَّهم لا يؤمنون ولا عُذْرَ لهم في ذلك أصلًا؛ أَضرَبَ عنه بقولِه: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾[(٢)].

يجوزُ أنَّه إضرابٌ انتقاليٌّ من التَّعجيبِ من عدمِ إيمانِهم وإنكارِه عليهم، إلىٰ الإخبارِ عنهم بأنَّهم مُستمِرُّون علىٰ الكفرِ والطَّعنِ في القرآنِ، فالكلامُ ارتقاءٌ في التَّعجيبِ والإنكارِ. فالإخبارُ عنهم بأنَّهم يُكذِّبون مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ والإنكارِ؛ فلذلك عبَّر

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٣٠).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٤٩).

عنه بالفعلِ المضارعِ الذي يُستروَحُ منه استحضارُ الحالةِ. ويجوزُ أن يكونَ ﴿بَلِ﴾ إضرابًا إبطاليًّا؛ أيْ: لا يوجدُ ما لأجلِه لا يؤمنون ولا يُصدِّقون بالقرآنِ، بل الواقعُ بضِدِّ ذلك؛ فإنَّ بواعثَ الإيمانِ من الدَّلائلِ مُتوفِّرةٌ، ودواعيَ الاعترافِ بصدقِ القرآنِ والخضوعِ لدعوتِه مُتظاهِرةٌ، ولكنَّهم يُكذِّبون؛ أي: يَستمِرُّون على التَّكذيبِ عنادًا وكبرياءَ[1].

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣﴾

اعتراضٌ بينَ جملةِ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢﴾ وجملةِ ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤﴾، وهو كنايةٌ عن الإنذارِ والتَّهديدِ بأنَّ اللهَ يُجازِيهم بسوءِ طَوِيَّتِهم[2].

ثم توعَّدَهم بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾.

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤﴾

ولمَّا كان هذا مُوجِبًا لشديدِ الإنذارِ، وضَع موضعَه -تهكُّمًا بهم، وإعلامًا بأنَّ الغضبَ قد بلغ منتهاه- قولَه: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3].

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مُرتَّبٌ على الإخبارِ بعلمِه تعالى بما يُوعُون مُرادًا به مُجازاتُهم به. وقيل: على تكذيبِهم. وقيل: الفاءُ فصيحةٌ؛ أيْ: إذا كان حالُهم ما ذُكر، ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٣٣).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٣٥٠).

(٤) روح المعاني (١٥/ ٢٩٢).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾

ولمَّا أَخبرَ عنهم بهذا الهوانِ، وكان قد عبَّر عنهم بأدنىٰ الأسنانِ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ منهم مَن يقبلُ الإيمانَ؛ استثنىٰ منهم، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾[1].

يجوزُ أن يكونَ الاستثناءُ مُتَّصِلًا، إمَّا علىٰ أنَّه استثناءٌ من الضَّميرِ في قولِه: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ جَرْيًا علىٰ تأويلِه بركوبِ طِباقِ الشَّدائِدِ والأهوالِ يومَ القيامةِ، وما هو في معنىٰ ذلك من التَّهديدِ، وإمَّا علىٰ أنَّه استثناءٌ من ضميرِ الجمعِ في ﴿فَبَشِّرْهُم﴾، والمعنىٰ: إلَّا الذين يؤمنون من الذين هم مُشرِكونَ الآنَ[2].

سورة البروج

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢﴾

ولمَّا كانت هذه الجملةُ من القَسَمِ دالَّةً على البعثِ، قال تصريحًا: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾(١).

مناسبةُ القَسَمِ باليومِ الموعودِ فلأنَّه يومُ القيامةِ باتِّفاقِ أهلِ التَّأويلِ؛ لأنَّ اللهَ وعَد بوقوعِه، مع ما في القَسَمِ به من إدماجِ الإيماءِ إلى وعيدِ أصحابِ القصَّةِ المُقْسَمِ على مضمونِها، ووعيدِ أمثالِهم المُعرَّضِ بهم(٢).

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشۡهُودٍ ٣﴾

ولمَّا كان الجمعُ لأجلِ العرضِ، وكان العرضُ لا بدَّ فيه من شهودٍ ومشهودٍ عليهم وجدالٍ على عهودٍ؛ قال مُنكرًا للإبهامِ للتَّعظيمِ والتَّعميمِ: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشۡهُودٍ﴾(٣).

لمَّا ذكَر ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢﴾ -وهو يومُ القيامةِ باتِّفاقٍ-، ناسَب أن يكونَ المُقْسَمُ به مَن يشهدُ في ذلك اليومِ ومَن يُشهَدُ عليه(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٣٨).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٣٥٥).

(٤) البحر المحيط (١٠/ ٤٤٣).

📖 ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤﴾ 📖

ولمَّا كان جوابُ القَسَمِ على ما دَلَّ عليه مقصودُ السورةِ وسوابقُها ولواحقُها: لنثوبن الفريقينِ الأولياءَ والأعداءَ، ولَنُدِينَنَّ كُلًّا بما عمل؛ دَلَّ عليه بأفعالِه في الدنيا ببعضِ الجبابرةِ فيما مضى، وفيما يفعلُ بجبابرةِ مَن كذَّب النبيَّ ﷺ، فقال بادئًا بمَن عُذِّبَ بعذابِ اللهِ في القيامةِ للبَداءةِ في آخِرِ «الانشقاقِ» بقسمِ المكذِّبين وهم المُحدَّثُ عنهم، مُعبِّرًا بما يَصلُحُ للدُّعاءِ والحقيقةِ تسليةً للمؤمنين وتثبيتًا لهم بما وقَع لأمثالِهم، وتحذيرًا ممَّا كان لأشكالِهم: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾[1].

ثم ذكَر جوابَ القَسَمِ، فقال: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾.

📖 ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥﴾ 📖

ولمَّا ذَمَّهم ﷻ، بيَّن وجهَ ذَمِّهم ببدلِ اشتمالٍ من أُخدُودِهم، فقال: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾[2].

وقولُه: ﴿النَّارِ﴾ بدلٌ من ﴿الْأُخْدُودِ﴾ بدلَ اشتمالٍ أو بعضٍ من كُلٍّ؛ لأنَّ المرادَ بـ﴿الْأُخْدُودِ﴾: الحفيرُ بما فيه[3].

ثم فسَّر «الأُخدُودَ» بقولِه: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾[4].

📖 ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾ 📖

يَتعلَّقُ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ بفعلِ ﴿قُتِلَ﴾؛ أي: لُعِنُوا وغَضِبَ اللهُ عليهم حينَ قعَدوا على الأخدودِ[5].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٥٥).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٥٦).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٤٢).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٩١٨).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٤٢).

ثم ذكَر مكانَهم من النَّارِ بعدَ أن وصَف عَظَمَتَها، فقال: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦﴾

أُعِيدَ ضميرُ ﴿هُمْ﴾ في قولِه: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ليَتعيَّنَ أن يكونَ عائدًا إلىٰ بعضِ أصحابِ الأخدودِ. وضميرُ ﴿يَفْعَلُونَ﴾ يجوزُ أن يعودَ إلىٰ «أصحابِ الأخدودِ»، فمعنىٰ كونِهم شهودًا علىٰ ما يفعلونه: أنَّ بعضَهم يشهدُ لبعضٍ عندَ المَلِكِ بأنَّ أحدًا لم يُفرِّطْ فيما وُكِّلَ به من تحريقِ المؤمنين، فضمائرُ الجمعِ وصِيغَتُه مُوزَّعةٌ. ويجوزُ أن يعودَ الضَّميرُ إلىٰ ما تقتضيه دلالةُ الاقتضاء من تقسيمِ أصحابِ الأخدودِ إلىٰ أمراءَ ومأمورين، شأنُ الأعمالِ العظيمةِ، فلمَّا أَخبَرَ عن أصحابِ الأخدودِ بأنَّهم قُعُودٌ علىٰ النَّارِ، عُلم أنَّهم الموكَّلون بمراقبةِ العُمَّالِ، فعُلم أنَّ لهم أتباعًا من سَعَّارِين ووَزَعةٍ[1]، فهم معادُ ضميرِ ﴿يَفْعَلُونَ﴾، وعلىٰ هذا الوجهِ، يجوزُ أن يكونَ ﴿شُهُودٌ﴾ جمعَ شاهدٍ، بمعنىٰ: مُخْبِرٍ بحَقٍّ، وأن يكونَ بمعنىٰ: حاضِرٍ ومُراقِبٍ؛ لظهورِ أنَّ أحدًا لا يشهدُ علىٰ فعلِ نفسِه، وجملةُ ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ في موضعِ الحالِ من ضميرِ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾، كأنَّه قيل: قُعُودٌ شاهدين علىٰ فعلِهم بالمؤمنين، علىٰ الوجهينِ المتقدِّمينِ في معادِ ضميرِ ﴿يَفْعَلُونَ﴾، وفائدةُ هذه الحالِ تفظيعُ ذلك القعودِ وتعظيمُ جُرْمِه؛ إذ كانوا يُشاهِدون تعذيبَ المؤمنين لا يَرْأَفُون في ذلك ولا يَشْمَئِزُّون، وبذلك فارَق مضمونُ هذه الجملةِ مضمونَ جملةِ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ باعتبارِ تَعلُّقِ قولِه: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾. وفي الإتيانِ بالموصولِ في قولِه: ﴿مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من الإبهامِ ما يفيدُ أنَّ لمُوقِدِي النَّارِ من الوَزَعةِ والعَمَلةِ ومَن يُباشِرون إلقاءَ المؤمنين فيها غِلْظةً وقسوةً في تعذيبِ المؤمنين وإهانتِهم والتَّمثيلِ بهم، وذلك زائدٌ علىٰ الإحراقِ[2].

---

(١) أي: أعوان.

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٤٣).

ثم بيَّن ملازمتَهم لهذه المقاعِد، فقال: ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾.

﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا الفعلُ العظيمُ لا يكونُ من عاقلٍ إلَّا لسببٍ يليق به، بيَّن أنَّه إنَّما هو لسببٍ يَبعُدُ منه، فقال: ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ في موضعِ الحالِ، والواوُ واوُ الحالِ، أو عاطفةٌ علىٰ الحالِ التي قبلَها. والمقصودُ التَّعجيبُ من ظلمِ أهلِ الأخدودِ أنَّهم يأتون بمِثْلِ هذه الفظاعةِ لا لجُرْمٍ من شأنِه أن يُنقَمَ من فاعلِه، فإنْ كان الذين خدَّدوا الأخدودَ يهودًا -كما كان غالبُ أهلِ اليمنِ يومَئذٍ- فالكلامُ من تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه[(٢)].

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾

وقرَّر ذلك بقولِه: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[(٣)].

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لزيادةِ تقريرِ أنَّ ما نقَموه منهم ليس من شأنِه أن يُنقَمَ، بل هو حقيقٌ بأن يُمدَحوا به؛ لأنَّهم آمَنوا بربٍّ حقيقٍ بأن يُؤمَنَ به لأجلِ صفاتِه التي تقتضي عبادتَه ونَبْذَ ما عداه؛ لأنَّه ينصرُ مواليَه ويُثيبُهم، ولأنَّه يَملِكُهم، وما عداه ضعيفُ العِزَّةِ، لا يَضُرُّ ولا ينفعُ ولا يملكُ منهم شيئًا، فيقوىٰ التَّعجيبُ منهم بهذا[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٤٤).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٣٥٨).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٤٤).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ١٠﴾

ومَن هو بهذه الصِّفاتِ العظيمةِ لا يُهمِلُ أولياءَه أصلًا، بل لا بدَّ أن ينتقمَ لهم من أعدائِه ويُعلِيَهم بعلائِه؛ ولذلك قال مُستأنِفًا جوابًا لِمَنْ يقولُ: فما فعَل بهم؟ مُؤكِّدًا لإنكارِ الكفارِ ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾(١).

إنْ كان هذا جوابًا للقَسَمِ على قولِ بعضِ المفسِّرين كما تَقدَّم؛ كان ما بينَ القَسَمِ وما بينَ هذا كلامًا مُعترِضًا يُقصَدُ منه التَّوطِئةُ لوعيدِهم بالعذابِ والهلاكِ، بذِكْرِ ما تَوعَّدَ به نظيرَهم، وإنْ كان الجوابُ في قولِه: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ٤﴾؛ كان قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بمنزلةِ الفَذْلكةِ لِما أَقسَمَ عليه؛ إذ المقصودُ بالقَسَمِ وما أُقسِمَ عليه هو تهديدُ الذين فتَنوا المؤمنين والمؤمناتِ من مُشرِكي قريشٍ(٢).

لمَّا ذكَر قصَّةَ أصحابِ الأخدودِ، أَتبعَها بما يَتفرَّعُ عليها من أحكامِ الثَّوابِ والعقابِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾(٣).

ثم وعَدَهم، وأَوعَدَهم، وعرَض عليهم التَّوبةَ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٥٨-٣٥٩).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٤٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ١١٢).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٩١٨).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

ولمَّا ذكَر عقابَ المُعانِدين بادئًا به لأنَّ المقامَ له، أَتبعَه ثوابَ العابدين، فقال مُؤكِّدًا لِما لأعدائِهم من إنكارِ ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾(١).

يجوزُ أن يكونَ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن قولِه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ المقتضي أنَّهم إنْ تابوا، لم يكنْ لهم عذابُ جهنَّمَ، فيَتشوَّفُ السَّامعُ إلىٰ معرفةِ حالِهم: أمقصورةٌ علىٰ السَّلامةِ من عذابِ جهنَّمَ، أو هي فوق ذلك؟ فأَخبَرَ بأنَّ لهم جناتٍ، فإنَّ التَّوبةَ الإيمانُ؛ فلذلك جِيءَ بصِلَةِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ دونَ «تابوا» ليَدُلَّ علىٰ أنَّ الإيمانَ والعملَ الصَّالحَ هو التَّوبةُ من الشِّركِ الباعثِ علىٰ فَتْنِ المؤمنين، وهذا الاستئنافُ وقَع مُعترِضًا. ويجوزُ أن يكونَ اعتراضًا بينَ جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وجملةِ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ اعتراضًا بالبشارةِ في خلالِ الإنذارِ لترغيبِ المنذَرين في الإيمانِ، ولتثبيتِ المؤمنين علىٰ ما يُلاقُونه من أذىٰ المشركين، علىٰ عادةِ القرآنِ في إردافِ الإرهابِ بالتَّرغيبِ(٢).

ولمَّا ذكَر عقوبةَ الظَّالمين، ذكَر ثوابَ المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٤٧).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٩١٩).

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾

ولمَّا كان لا يُثِيبُ ويُعذِّبُ على هذا الوجهِ إلَّا مَن كان في غايةِ العَظَمةِ، قال مُعلِّلًا لفعلِه ذلك، دالًّا بذلك التَّعلُّلِ على ما له من العَظَمةِ التي تَتقاصَرُ الأفكارُ دونَ عليائِها، مُؤكِّدًا لِما للأعداءِ من الإنكارِ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾[1].

جملةُ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ عِلَّةٌ لمضمونِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ إلى قولِه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾؛ أي: لأنَّ بطشَ اللهِ شديدٌ على الذين فتَنوا الذين آمنوا به، فموقعُ ﴿إِنَّ﴾ في التَّعليلِ يُغني عن فاءِ التَّسبُّبِ[2].

لمَّا ذكَر وعيدَ الذين فتَنوا المؤمنين والمؤمناتِ أوَّلًا، وذكَر وعدَ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ ثانيًا؛ أَردَفَ ذلك الوعدَ والوعيدَ بالتَّأكيدِ، فقال لتأكيدِ الوعيدِ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾[3].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾

ولمَّا كان هذا البطشُ لا يَتأتَّى إلَّا لكاملِ القدرةِ، دَلَّ على كمالِ قدرتِه واختصاصِه بذلك بقولِه مُؤكِّدًا لِما لهم من الإنكارِ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾[4].

تَصلُحُ لأن تكونَ استئنافًا ابتدائيًّا انتقل به من وعيدِهم بعذابِ الآخرةِ إلى توعُّدِهم بعذابٍ في الدنيا يكونُ من بطشِ اللهِ، أَردَفَ به وعيدَ عذابِ الآخرةِ؛ لأنَّه أَوقَعُ في

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٦١).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٤٧).
(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ١١٤).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٦١).

قلوبِ المشركين، إذ هم يحسبون أنَّهم في أمنٍ من العقابِ، إذْ هم لا يُصدِّقون بالبعثِ، فحَسِبوا أنَّهم فازوا بطَيِّبِ الحياةِ الدنيا، وتَصلُحُ لأن تكونَ تعليلًا لجملةِ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ لأنَّ الذي يُبدِئُ ويُعيدُ قادرٌ علىٰ إيقاعِ البطشِ الشَّديدِ في الدنيا وهو الإبداءُ، وفي الآخرةِ إعادةُ البطشِ، وتَصلُحُ لأن تكونَ إدماجًا للاستدلالِ علىٰ إمكانِ البعثِ؛ أي: أنَّ اللهَ يُبدِئُ الخلقَ ثم يُعيدُه[1].

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ١٤﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه بطشَه، وكان القادرُ علىٰ العنفِ قد لا يقدرُ علىٰ اللُّطفِ، وإنْ قدَر فربما لم يقدرْ علىٰ الإبلاغِ في ذلك، وكان لا يقدرُ علىٰ مَحْوِ الذُّنوبِ أعيانِها وآثارِها علىٰ كلِّ أحدٍ بحيثُ لا يحصلُ لصاحبِها عقابٌ ولا عتابٌ من أحدٍ أصلًا إلَّا مَن كان قادرًا علىٰ كلِّ شيءٍ؛ قال مُبيِّنًا لجميعِ ذلك دليلًا علىٰ أنَّه الفاعلُ المختارُ، ومُؤكِّدًا لخروجِه عن العوائدِ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾[2].

جملةٌ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، ومضمونُها قَسِيمٌ لمضمونِ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ لأنَّه لمَّا أُفِيدَ تعليلُ مضمونِ جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ إلىٰ آخِرِه، ناسَب أن يُقابَلَ بتعليلِ مضمونِ جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ ...﴾ إلىٰ آخِرِه، فعلَّل بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾، فهو يغفرُ للذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحاتِ ما فرَط منهم، وهو يُحِبُّ التَّوَّابينَ ويَوَدُّهم[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٤٨).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٦٢).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٤٩).

ولمَّا ذكَر شِدَّةَ بطشِه، ذكَر كونَه غفورًا ساترًا لذنوبِ عبادِه، وَدُودًا لطيفًا بهم، مُحسِنًا إليهم[(١)].

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾

وزادَ الأمرَ تأكيدًا بذِكْرِ ما لا يُنازَعُ أصلًا في اختصاصِه به تشريفًا له وتنبيهًا على أنَّه أعظمُ المخلوقاتِ: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾[(٢)].

ولمَّا ذكَر اللهُ من صفاتِه ما تَعلُّقُه بمخلوقاتِه بحَسَبِ ما يستأهلونه من جزاءٍ، أَعقبَ ذلك بصفاتِه الذَّاتيَّةِ على وجهِ الاستطرادِ والتَّكملةِ بقولِه: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ تنبيهًا للعبادِ إلى وجوبِ عبادتِه لاستحقاقِه العبادةَ لجلالِه كما يعبدونه لاتِّقاءِ عقابِه ورجاءَ نوالِه[(٣)].

﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾

ولمَّا كان الاختصاصُ يدلُّ قطعًا على كمالِ القدرةِ، أَنتَجَ ذِكرَ هذه الاختصاصاتِ قولُه: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾[(٤)].

ثم ذَيَّل ذلك بصفةٍ جامعةٍ لعَظَمَتِه الذَّاتيَّةِ وعَظَمةِ نِعَمِه بقولِه: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾؛ أيْ: إذا تَعلَّقَتْ إرادتُه بفعلٍ، فعَلَه على أكملِ ما تَعلَّقَتْ به إرادتُه، لا يَنقُصُه شيءٌ، ولا يُبطِئُ به ما أرادَ تعجيلَه، فصيغةُ المبالغةِ في قولِه: ﴿فَعَّالٞ﴾ للدَّلالةِ على الكثرةِ في الكَمِّيَّةِ والكيفيَّةِ[(٥)].

---

(١) البحر المحيط (١٠/ ٤٤٦).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٦٢-٣٦٣).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٤٩).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٦٣).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٥٠).

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ١٧﴾

ولمَّا تمَّتِ الدَّلالةُ علىٰ أنَّ بطشَه شديدٌ، قرَّره بما وجد من ذلك وذكَّره به تخويفًا وتسليةً له؛ لأنَّ النَّظرَ في المحسوساتِ أمكَنُ في النُّفوسِ، فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾[(١)].

مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، فالخطابُ للنَّبيِّ ﷺ للاستدلالِ علىٰ كونِ بطشِه تعالىٰ شديدًا ببَطْشَيْنِ بطَشَهما بفرعونَ وثمودَ، بعدَ أن علَّل ذلك بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾، فذلك تعليلٌ، وهذا تمثيلٌ ودليلٌ. والاستفهامُ مُستعمَلٌ في إرادةٍ لتهويلِ حديثِ الجنودِ بأنَّه يسألُ عن علمِه، وفيه تعريضٌ للمشركين بأنَّهم قد يَحِلُّ بهم ما حَلَّ بأولئك. والخطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ ممَّنْ يُرادُ موعظتُه من المشركين كنايةٌ عن التَّذكيرِ بخبرِهم؛ لأنَّ حالَ المُتَلبِّسين بمِثْلِ صنيعِهم، الرَّاكبين رؤوسَهم في العنادِ، كحالِ مَن لا يعلمُ خبرَهم فيُسأَلُ: هل بلَغه خبرُهم أو لا؟ أو خطابًا لغيرِ مُعيَّنٍ تعجيبًا من حالِ المشركين في إعراضِهم عن الاتِّعاظِ بذلك، فيكونُ الاستفهامُ مُستعمَلًا في التَّعجيبِ[(٢)].

استئنافٌ مُقرِّرٌ لشِدَّةِ بطشِه تعالىٰ بالظَّلَمةِ العُصاةِ، والكَفَرةِ والعُتاةِ، وكونُه فعَّالًا لِما يريدُ مُتضمِّنٌ لتسليتِه عليه السلام بالإشعارِ بأنَّه سيُصِيبُ قومَه ما أصابَ الجنودَ[(٣)].

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ١٨﴾

ولمَّا كان المعلومُ من السِّياقِ أنَّ المرادَ من حديثِهم ما حصل لهم من البطشِ لتكذيبِ الرُّسُلِ؛ لا سِيَّما في البعثِ الذي السِّياقُ له، وكان الواقعُ من بيانِه بآياتِ

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٥٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٣٩).

موسىٰ وصالحٍ عليهما الصلاة والسلام أَبْيَنَ ممَّا وقَع بآياتِ غيرِهم ممَّن تَقدَّم زمنُه علىٰ هذه الأزمنةِ، وكانت أُمَّةُ كلِّ نبيٍّ من النبيِّينَ وأتباعِ فرعونَ تحوي أصنافًا من الخلقِ كثيرةً، حُكي أنَّ طليعتَه يومَ تَبِعَ بني إسرائيلَ وغَرِقَ كانت سِتَّمئةِ ألفٍ؛ أَبدَلَ من ﴿ٱلْجُنُودِ﴾ إعلامًا بأنَّهم أعداءُ اللهِ قولَه: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ [(١)].

وأَبدَلَ ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ من ﴿ٱلْجُنُودِ﴾ بدلًا مُطابِقًا؛ لأنَّه أُرِيدَ العِبرةُ بهؤلاء. وضُرب المثلُ بفرعونَ لأبي جهلٍ، وكان يُلقَّبُ عندَ المسلمين بـ«فرعون هذه الأُمَّة»، وضُرب المثلُ للمشركين بقومِ فرعونَ؛ لأنَّهم أكبرُ أُمَّةٍ تَألَّبَتْ علىٰ رسولٍ من رُسُلِ اللهِ بعثه اللهُ لإعتاقِ بني إسرائيلَ من ذُلِّ العبوديَّةِ لفرعونَ، وناووه لأنَّه دعا إلىٰ عبادةِ الرَّبِّ الحقِّ، فغاظَ ذلك فرعونَ الزَّاعمَ أنَّه إلهُ القِبْطِ وابنُ آلهتِهم. وتخصيصُ «ثمودَ» بالذِّكرِ من بقيَّةِ الأُمَمِ التي كذَّبتِ الرُّسُلَ من العربِ مِثلَ عادٍ وقومِ تُبَّعٍ، ومن غيرِهم مِثلَ قومِ نوحٍ وقومِ شُعَيبٍ؛ لِما اقتَضَتْه الفاصلةُ السَّابعةُ الجاريةُ علىٰ حرفِ الدَّالِ من قولِه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾، فإنَّ ذلك لمَّا استقامت به الفاصلةُ، ولم يكنْ في ذِكْرِه تكلُّفٌ؛ كان من محاسنِ نظمِ الكلامِ إيثارُه [(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن حالَ أصحابِ الأخدودِ في تأذِّي المؤمنين بالكفارِ، بيَّن أنَّ الذين كانوا قبلَهم كانوا أيضًا كذلك، واعلَمْ أنَّ ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلْجُنُودِ﴾، وأرادَ بـ﴿فِرْعَوْنَ﴾: إيَّاه وقومَه، كما في قولِه: ﴿مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾، و«ثمودُ» كانوا في بلادِ العربِ، وقِصَّتُهم عندَهم مشهورةٌ، فذكَر تعالىٰ من المتأخِّرين «فرعونَ»، ومن المتقدِّمين «ثمودَ»، والمقصودُ بيانُ أنَّ حالَ المؤمنين مع الكفارِ في جميعِ الأزمنةِ مُستمِرَّةٌ علىٰ هذا النَّهجِ [(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٥١).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ١١٥).

ثم بيَّنهم، فقال: ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾(١).

📖 ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩﴾ 📖

ولمَّا كان التقديرُ: نَعَمْ، قد أتاني ذلك، وعَلِمتُ من خبرِهما وغيرِه أنَّك قادرٌ علىٰ ما تريدُ، ولكنَّ الكفارَ لا يُصدِّقونني؛ عطَف عليه قولَه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾(٢).

إضرابٌ انتقاليٌّ إلىٰ إعراضِهم عن الاعتبارِ بحالِ الأُمَمِ الذين كذَّبوا الرُّسلَ، وهو أنَّهم مُستمِرُّون علىٰ التَّكذيبِ، مُنغمِسون فيه انغماسَ المظروفِ في الظَّرفِ، فجعَل تَمكُّنَ التَّكذيبِ من نفوسِهم كتَمكُّنِ الظَّرفِ بالمظروفِ، وفيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ إحاطةَ التَّكذيبِ بهم إحاطةُ الظَّرفِ بالمظروفِ، لا يتركُ لتذكُّرِ ما حَلَّ بأمثالِهم من الأُمَمِ مَسلَكًا لعقولِهم؛ ولهذا لم يَقُلْ: بل الذين كفروا يُكذِّبون(٣).

ثم أَضرَبَ عن مماثلةِ هؤلاء الكفارِ الموجودين في عصرِه ﷺ لِمَن تَقدَّم ذِكرُه، وبيَّن أنَّهم أشدُّ منهم في الكفرِ والتَّكذيبِ، فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾(٤).

📖 ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾ 📖

ولمَّا كان هذا ربما أَوهَمَ أنَّ تكذيبَهم علىٰ غيرِ مرادِه ﷻ، قال دافعًا لذلك، مُؤكِّدًا قدرتَه علىٰ أخذِهم تحذيرًا لهم وتسليةً لِمَن كذَّبوه: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾(٥).

---

(١) فتح القدير (٥/ ٥٠٢).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٦٥).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٥٢).

(٤) فتح القدير (٥/ ٥٠٢).

(٥) نظم الدرر (٢١/ ٣٦٦).

لمَّا طيَّب قلبَ الرسولِ ﷺ بحكايةِ أحوالِ الأوَّلِين في هذا البابِ، سلَّاه بعدَ ذلك من وجهٍ آخرَ؛ وهو قولُه: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾[1].

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١﴾

ولمَّا كان من تكذيبِهم -وهو أعظمُ تكذيبِهم- طعنُهم في أعظمِ آياتِ القرآنِ بأنْ يقولوا: هو كذبٌ مُختلَقٌ، إنَّما هو أساطيرُ الأوَّلِينَ؛ أي: أُكذُوباتُهم، لا حقائقُ لِما يُخبِرُ به، مع أنَّه قد أقامَ الدَّليلَ الأعظمَ لنفسِه بنفسِه بما له من الإعجازِ على أنَّه حقٌّ؛ قال مُعبِّرًا بالضَّميرِ إيذانًا بأنَّه لعِظَمِه في كلِّ قلبٍ لا غَيْبةَ له أصلًا، ليس لأحدٍ حديثٌ إلَّا فيه، بانيًا على ما تقديرُه: ليس الأمرُ كما يزعمُ الكفارُ في القرآنِ: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾[2].

إضرابُ إبطالٍ لتكذيبِهم؛ لأنَّ القرآنَ جاءهم بدلائلَ بيِّنةٍ، فاستمرارُهم على التَّكذيبِ ناشئٌ عن سوءِ اعتقادِهم صدقَ القرآنِ، إذ وصَفوه بصفاتِ النَّقصِ، من قولِهم: «أساطيرُ الأوَّلِينَ»، «إفكٌ مُفترًى»، «قولُ كاهنٍ»، «قولُ شاعرٍ»، فكان التَّنويهُ به جامعًا لإبطالِ جميعِ تُرَّهاتِهم على طريقةِ الإيجازِ[3].

ولمَّا ذكَر أنَّهم في تكذيبٍ، وأنَّ التَّكذيبَ عَمَّهم حتى صار كالوعاءِ لهم، وكان ﷺ قد كذَّبوه وكذَّبوا ما جاء به وهو القرآنُ؛ أَخبرَ تعالى عن الذي جاء به وكذَّبوا، فقال: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١١٥-١١٦).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٥٢).

(٤) البحر المحيط (١٠/ ٤٤٧).

ثم رَدَّ سبحانه تكذيبَهم بالقرآنِ، فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾[1].

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا وصَفه في نفسِه ممَّا يأبىٰ له لحاقُ شيءٍ من شبهةٍ، وصَف محلَّه في الملأِ الأعلىٰ؛ إعلامًا بأنَّه لا يطرأُ عليه ما يُغيِّرُه، فقال: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[2].

ثم وصَف القرآنَ بصفةٍ أخرىٰ، فقال: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾.

(١) فتح القدير (٥/ ٥٠٢).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٦٨).

سورة الطارق

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢﴾

ولمَّا كان «الطَّارقُ» يُطلَقُ على غيرِ النَّجمِ، أَبهَمَه أوَّلًا، ثم عظَّم المُقسَمَ به بقولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾[1].

وأَبهَمَ الموصوفَ بـ«الطَّارقِ» ابتداءً، ثم زِيدَ إبهامًا مَشُوبًا بتعظيمِ أمرِه بقولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾[2].

﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣﴾

ثم زاده تهويلًا بتفسيرِه بعدَ إبهامِه مرَّةً أخرى بقولِه تعالى: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾[3].

الجملةُ استئنافٌ وقع جوابًا عن استفهامٍ نشأ ممَّا قبلَه، كأنَّه قيل: ما هو؟ فقيل: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾[4].

ثم فسَّر «الطَّارقَ» بقولِه: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٥٨).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٣٧٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٤٠).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٩١٩).

﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤﴾

ولمَّا ذكَر الذي دَلَّ به علىٰ حفظِ القرآنِ عن التَّلبيسِ وعلىٰ حفظِ الإنسانِ، ذكَر جوابَه في حفظِ النُّفوسِ التي جعل فيها قابليَّةً لحفظِ القرآنِ في الصُّدورِ، ودَلَّ علىٰ حفظِ ما خلق لأجلِها من هذه الأشياءِ المُقسَمِ بها علىٰ حفظِ الإنسانِ؛ لأنَّها إذا كانت محفوظةً عن أدنىٰ زَيْغٍ وهي مخلوقةٌ لتدبيرِ مصالحِه؛ فما الظَّنُّ به؟ فقال مُؤكِّدًا غايةَ التَّأكيدِ لِما للكَفَرةِ من إنكارِ ذلك والطَّعنِ فيه: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾[1].

وجوابُ القَسَمِ هو قولُه: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾، جُعل كنايةً تلويحيَّةً رمزيَّةً عن المقصودِ؛ وهو إثباتُ البعثِ، فهو كالدَّليلِ علىٰ إثباتِه، فإنَّ إقامةَ الحافظِ تستلزمُ شيئًا يحفظُه؛ وهو الأعمالُ خيرُها وشرُّها، وذلك يستلزمُ إرادةَ المحاسبةِ عليها والجزاءِ بما تقتضيه جزاءً مُؤخَّرًا بعدَ الحياةِ الدنيا؛ لِئَلَّا تذهبَ أعمالُ العاملين سُدًىٰ، وذلك يستلزمُ أنَّ الجزاءَ مُؤخَّرٌ إلىٰ ما بعدَ هذه الحياةِ، إذِ المُشاهَدُ تَخلُّفُ الجزاءِ في هذه الحياةِ بكثرةٍ، فلو أُهمِلَ الجزاءُ لكان إهمالُه مُنافِيًا لحكمةِ الإلهِ الحكيمِ مُبدِعِ هذا الكونِ، وهذا الجزاءُ المؤخَّرُ يستلزمُ إعادةَ حياةٍ للذَّواتِ الصَّادرةِ منها الأعمالُ، فهذه لوازمُ أربعةٌ بها كانت الكنايةُ تلويحيَّةً رمزيَّةً، وقد حصل مع هذا الاستدلالِ إفادةُ أنَّ علىٰ الأنفُسِ حَفَظةً، فهو إدماجٌ[2].

جوابٌ للقَسَمِ، وما بينَهما اعتراضٌ جِيءَ به لِما ذُكر من تأكيدِ فخامةِ المقسَمِ به، المُسْتَتبعِ لتأكيدِ مضمونِ الجملةِ المقسَمِ عليها[3].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٧٢-٣٧٣).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٦٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٤٠).

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: لأنَّه لا بدَّ له من العرضِ علىٰ الخالقِ ﷻ؛ لأنَّ التَّوكيلَ بالإنسانِ لا يكونُ إلَّا لعرضِه علىٰ المَلِكِ الدَّيَّانِ، صاحبِ الأمرِ والبرهانِ، ومحاسبتِه له علىٰ ما كان؛ كان التقديرُ: يحفظُ أعمالَها ويكتبُها ليُحاسِبَها الملكُ علىٰ ذلك، فتَسبَّب عنه قولُه تعالىٰ: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾[1].

الفاءُ لتفريعِ الأمرِ بالنَّظرِ في الخلقةِ الأولىٰ، علىٰ ما أُرِيدَ من قولِه: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ من لوازمِ معناه، وهو إثباتُ البعثِ الذي أنكروه علىٰ طريقةِ الكنايةِ التَّلويحيَّةِ الرَّمزيَّةِ كما تَقدَّمَ آنفًا، فالتقديرُ: فإنْ رأيتم البعثَ مُحالًا فَلْيَنظُرِ الإنسانُ مِمَ خُلق ليعلمَ أنَّ الخلقَ الثَّانيَ ليس بأبعدَ من الخلقِ الأوَّلِ، فهذه الفاءُ مفيدةٌ مفادَ فاءِ الفصيحةِ[2].

لمَّا ذكَر أنَّ كلَّ نفسٍ عليها حافظٌ، أَتبَع ذلك بوصيَّةِ الإنسانِ بالنَّظرِ في أوَّلِ نشأتِه الأولىٰ؛ حتَّىٰ يعلمَ أنَّ مَن أنشأه قادرٌ علىٰ إعادتِه وجزائِه، فيعملَ لذلك، ولا يُملِيَ علىٰ حافظِه إلَّا ما يَسُرُّه في عاقبتِه[3].

﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ ﴾

ولمَّا نبَّه بالاستفهامِ علىٰ أنَّ هذا أمرٌ مُهِمٌّ جدًّا، ينبغي لكُلِّ أحدٍ أن يتركَ جميعَ مُهِمَّاتِه ويَتفرَّغَ للنَّظرِ فيه، فإنَّه يَكسِبُه السَّعادةَ الأبديَّةَ الدَّائمةَ، وكان الإنسانُ

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٧٦-٣٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٦١).

(٣) البحر المحيط (١٠/ ٤٥١).

-معَ كونِه ضعيفًا عاجزًا- لا ينفكُّ عن شاغلٍ ومُفتَرٍّ، فلا يكادُ يصحُّ له نظرٌ، تَولَّىٰ ﷻ شرحَ ذلك عنه، فأجاب الاستفهامَ بقولِه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾(١).

جوابُ الاستفهامِ ما بعدَه؛ وهو: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾(٢).

استئنافٌ وقع جوابًا عن استفهامٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه قيل: مِمَّ خُلق؟ فقيل: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾(٣).

﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾

ولمَّا كان المرادُ به ماءَ الرَّجلِ وماءَ المرأةِ، قال: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾(٤).

ثم وصَف هذا الماءَ، فقال: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾(٥).

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨﴾

ولمَّا عُلم -بالحفظِ والخلقِ في الأطوارِ المُشارِ إليها- أنَّه خُلق لأمرٍ عظيمٍ وهو الحسابُ، وثبت -بالقدرةِ علىٰ ابتدائِه من هذا الماءِ، وبتطويرِه في الحالاتِ المُشارِ إليها بذِكْرِ الماءِ، المعلومةِ لكُلِّ أحدٍ- القدرةُ علىٰ الإعادةِ بلا فرقٍ إلَّا كونَ الإعادةِ علىٰ ما نعرفُ أسهلَ، وكان العربُ يُنكِرُونها؛ قال مُؤكِّدًا استئنافًا لِمَنْ يقولُ: قد نظَرتُ في ذلك فَمَهْ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾(٦).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٧٧).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ٤٥١).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٤١).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٧٨).

(٥) فتح القدير (٥/ ٥٠٩).

(٦) نظم الدرر (٢١/ ٣٧٩).

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾؛ لأنَّ السَّامعَ يتساءلُ عن المقصدِ من هذا الأمرِ بالنَّظرِ في أصلِ الخلقةِ، وإذ قد كان ذلك النَّظرُ نظرَ استدلالٍ، فهذا الاستئنافُ البيانيُّ له يَتنزَّلُ منزلةَ نتيجةِ الدَّليلِ، فصار المعنىٰ: إنَّ الذي خلق الإنسانَ من ماءٍ دافقٍ، قادرٌ علىٰ إعادةِ خلقِه بأسبابٍ أخرىٰ، وبذلك يَتقرَّرُ إمكانُ إعادةِ الخلقِ، ويزولُ ما زعَمه المشركون من استحالةِ تلك الإعادةِ(١).

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩)﴾

ولمَّا كان هذا يُحرِّكُ السَّامعَ غايةَ التَّحريكِ لأنْ يقولَ: متىٰ تكونُ رَجْعُه له؟ قال مُجِيبًا له: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾(٢).

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿رَجْعِهِ﴾؛ أي: يَرجِعُه يومَ القيامةِ(٣).

لمَّا أقام الدَّليلَ علىٰ صحَّةِ القولِ بالبعثِ والقيامةِ، وصَف حالَه في ذلك اليومِ، فقال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾(٤).

﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)﴾

ولمَّا كان المانعُ من جزائِه عندَ إظهارِ سرائِره إمَّا هو نفسُه أو أحدٌ ينصرُه، قال مُسبِّبًا عن إظهارِ ما يجتهدُ في إخفائِه: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾(٥).

ولمَّا كان بَلْوُ السَّرائرِ مُؤذِنًا بأنَّ اللهَ عليمٌ بما يسترُه النَّاسُ من الجرائمِ، وكان قولُه: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ مُشعِرًا بالمؤاخذةِ علىٰ العقائدِ الباطلةِ والأعمالِ الشَّنيعةِ؛ فرَّع عليه

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٦٤).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٨٠).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٦٥).
(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٢١).
(٥) نظم الدرر (٢١/ ٣٨١).

قولَه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾، فالضَّميرُ عائدٌ إلىٰ الإنسانِ، والمقصودُ المشركون من النَّاسِ؛ لأنَّهم المَسُوقُ لأجلِهم هذا التَّهديدُ(١).

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١﴾

ولمَّا اشتَمَلَتْ هذه الجملُ -علىٰ وجازتِها- علىٰ الذِّروةِ العليا من البلاغةِ في إثباتِ البعثِ والجزاءِ والوحدانيَّةِ له ﷻ، إلىٰ غيرِ ذلك من بحورِ العلومِ، فثبت أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ ﷻ، فثبت أنَّ كلَّ ما فيه حقٌّ، مع مُنازَعتِهم في ذلك كلِّه؛ اقتضىٰ الحالُ الإقسامَ علىٰ حقيقتِه، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾(٢).

بعدَ أن تَبيَّنَ الدَّليلُ علىٰ إمكانِ البعثِ، أَعقَبَ بتحقيقِ أنَّ القرآنَ حقٌّ، وأنَّ ما فيه قولٌ فَصْلٌ؛ إبطالًا لِما مُوِّهَ عليهم من أنَّ أخبارَه غيرُ صادقةٍ، إذ قد أَخبَرَهم بإحياءِ الرِّمَمِ الباليةِ، فالجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ لغرضٍ من أغراضِ السورةِ، وافتُتِحَ الكلامُ بالقَسَمِ تحقيقًا لصدقِ القرآنِ في الإخبارِ بالبعثِ في غيرِ ذلك ممَّا اشتمل عليه من الهدىٰ؛ ولذلك أُعِيدَ القَسَمُ بـ«السَّماءِ» كما أَقسَمَ بها في أوَّلِ السورةِ، وذكر من أحوالِ السَّماءِ ما له مناسبةٌ بالمُقسَمِ عليه؛ وهو الغيثُ الذي به صلاحُ النَّاسِ، فإنَّ إصلاحَ القرآنِ للنَّاسِ كإصلاحِ المطرِ. وفي اسمِ «الرَّجْعِ» مناسبةٌ لمعنىٰ البعثِ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾، وفيه مُحسِّنُ الجِناسِ التَّامِّ، وفي مُسمَّىٰ «الرَّجْعِ» -وهو المطرُ المُعاقِبُ لمطرٍ آخَرَ- مناسبةٌ لمعنىٰ «الرَّجعِ»: البعثِ؛ فإنَّ البعثَ حياةٌ مُعاقِبةٌ بحياةٍ سابقةٍ(٣).

ثم أَقسَمَ قَسَمًا ثانيًا علىٰ صحَّةِ القرآنِ، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٦٥).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٨١-٣٨٢).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٦٦).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٩٢٠).

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢﴾

ولمَّا ذكر الأمرَ العُلْويَّ بادئًا به لشرفِه، أَتبعَه السُّفْليَّ، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾[1].

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣﴾

ولمَّا كانت هذه كلُّها براهينَ قاطعةً، ودلائلَ باهرةً ساطعةً علىٰ حَقِّيَّةِ القرآنِ، وإتيانِه بأعلىٰ البيانِ، فكان من المستبعَدِ جدًّا طعنُهم في القرآنِ بعدَ هذا البيانِ؛ قال تعالىٰ مُنبِّهًا علىٰ ذلك بالتَّأكيدِ، مُعبِّرًا بالضَّميرِ إشارةً لِما مضىٰ إلىٰ أنَّه المحدَّثُ عنه الآنَ، فهو الثَّابتُ في جميعِ الأذهانِ، لا غَيْبَةَ له عن شيءٍ منها أصلًا: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾[2].

ثم إنَّه تعالىٰ أَردَفَ هذا القَسَمَ بالمقسَمِ عليه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾[3].

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾

ثم أكَّد الأمرَ لشِدَّةِ إنكارِهم وجَحْدِهم، وتغطيتِهم الحقَّ بالباطلِ، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾[4].

وعطَف ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ بعدَ الثَّناءِ علىٰ القرآنِ بأنَّه قولٌ فَصْلٌ، يَتعيَّنُ علىٰ المفسِّرِ أن يَتبيَّنَ وجهَ هذا العطفِ ومناسبتَه، والذي أراه في ذلك: أنَّه أَعقَبَ به الثَّناءَ علىٰ القرآنِ ردًّا علىٰ المشركين، إذ كانوا يزعمون أنَّ النبيَّ ﷺ جاء يَهزِلُ؛ إذْ يُخبِرُ بأنَّ الموتىٰ سيَحْيَوْنَ، يريدون تضليلَ عامَّتِهم حينَ يسمعون قوارعَ القرآنِ وإرشادَه وجزالةَ معانيه، يختلقون لهم تلك المعاذيرَ ليصرفوهم عن أن يَتدبَّروا القرآنَ، فالهزلُ علىٰ

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٨٢).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٨٣).
(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٢٣).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٨٣-٣٨٤).

هذا الوجهِ هو ضِدُّ الجِدِّ؛ أعني المزحَ واللَّعِبَ، ومِثْلُ هذه الصِّفةِ إذا ورَدتْ في الكلامِ البليغِ لا محملَ لها إلَّا إرادةُ التَّعريضِ، وإلَّا كانت تقصيرًا في المدحِ؛ لا سِيَّما إذا سبَقَتْها مَحمَدةٌ من المحامدِ العظيمةِ[(١)].

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ١٥﴾

ولمَّا كان ثباتُ هذا على هذا الوجهِ مُقتضِيًا ولا بدَّ رجوعَهم عن العنادِ، فكان ذلك مُحرِّكًا للسَّامعِ إلى تَعرُّفِ ما كان من أمرِهم؛ استأنَفَ قولَه دلالةً على بقائِهم على الإنكارِ، وأكَّده تنبيهًا على أنَّ بقاءَهم على العنادِ مع هذا مُستبعَدٌ جدًّا: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾[(٢)].

استئنافٌ بيانيٌّ يُنبِئُ عن سؤالِ سائلٍ يَعجَبُ من إعراضِهم عن القرآنِ، مع أنَّه قولٌ فصلٌ، ويَعجَبُ من معاذيرِهم الباطلةِ؛ مِثلَ قولِهم: هو هَزْلٌ، أو هَذَيانٌ، أو سِحْرٌ؛ فبيَّن للسَّامعِ أنَّ عملَهم ذلك كَيْدٌ مقصودٌ. فهم يتظاهرون بأنَّهم ما يَصرِفُهم عن التَّصديقِ بالقرآنِ إلَّا ما تَحقَّقوه من عدمِ صدقِه، وهو إنَّما يَصرِفُهم عن الإيمانِ به الحفاظُ على سيادتِهم، فيُضلِّلون عامَّتَهم بتلك التَّعلُّلاتِ الملفَّقةِ[(٣)].

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦﴾

قولُه: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ تتميمٌ، وإدماجٌ، وإنذارٌ لهم حينَ يسمعونه، وتثبيتٌ للرَّسولِ ﷺ، ووعدٌ بالنَّصرِ[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٦٧).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٨٤).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٦٧).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٦٨).

وبعدَ أن ذكَر كيدَهم، ذكَر كيدَه بهم، فقال: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾.

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا كان هذا مُعلِمًا بأنَّهم عَدَمٌ، لا اعتبارَ بهم، قال مُسبِّبًا عنه تهديدًا لهم يا له من تهديدٍ ما أَصعَبَه! ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾(١).

الفاءُ لتفريعِ الأمرِ بالإمهالِ على مجموعِ الكلامِ السَّابقِ من قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾ بما فيه من تصريحٍ وتعريضٍ وتبيينٍ ووعدٍ بالنَّصرِ؛ أي: فلا تَستعجِلْ لهم بطلبِ إنزالِ العقابِ، فإنَّه واقعٌ بهم لا محالةَ(٢).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٦٨).

سُورَةُ الأَعْلَىٰ

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾

ولمَّا كان الإبداعُ أَدَلَّ ما يكونُ -معَ التَّنزُّهِ- علىٰ الكمالِ؛ لا سِيَّما النُّورُ الذي هو سببُ الانكشافِ والظُّهورِ، مع أنَّه تفصيلٌ لقولِه: ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾، وهو أدلُّ شيءٍ علىٰ البعثِ المذكورِ، ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾؛ قال مُبيِّنًا للفاعلِ الذي أبهَمَه لوضوحِه في ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾، مُرغِّبًا في الفِكْرِ في أفعالِه ﷻ الذي هو السَّببُ الأقربُ للسَّعادةِ بالدَّلالةِ عليه بما له من الجائزاتِ بعدَ التَّرغيبِ في الذِّكرِ الذي هو المهيِّئُ للفِكْرِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾[1].

ثم ذكَر صفةً أخرىٰ للرَّبِّ، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾.

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾

ولمَّا كان جعلُ الأشياءِ علىٰ أقدارٍ مُتفاوِتةٍ، مع الهدايةِ إلىٰ ما وقع الخلقُ له علىٰ أوجهٍ مُتفاضِلةٍ، مع التَّساوي في العناصرِ ممَّا يلي التَّسويةَ، وهو من خواصِّ الملكِ الذي لا يكونُ إلَّا مع الكمالِ؛ أَتبعَه به بالواوِ دلالةً علىٰ تَمكُّنِ الأوصافِ، فقال: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[2].

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٩٠).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٩٢).

وبعدَ أنْ ذكَر خلقتَه، ذكَر هدايتَه، فقال: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ (٤)﴾

ولمَّا كانت دلائلُ التَّوحيدِ تارةً بالنَّفسِ وتارةً بالآفاقِ، ونبَّه بآياتِ النَّفسِ، فلم يَبْقَ إلَّا آياتُ الآفاقِ، وكان النَّباتُ من آياتِها أدلَّ المخلوقاتِ على البعثِ؛ قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾(١).

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا بيَّن ما يختصُّ به النَّاسُ، أَتبَعَه بذِكْرِ ما يختصُّ به غيرُ النَّاسِ من النِّعَمِ، فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾(٢).

وهذه الهدايةُ العامَّةُ، التي مضمونُها أنَّه هدى كلَّ مخلوقٍ لمصلحتِه، وتُذكَر فيها نِعَمُه الدُّنيويَّةُ؛ ولهذا قال فيها: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾(٣).

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ (٥)﴾

ولمَّا كان إيباسُه وتسويدُه -بعدَ اخضرارِه ونُمُوِّه- في غايةِ الدَّلالةِ على تمامِ القدرةِ وكمالِ الاختيارِ بمعاقبةِ الأضدادِ على الذَّاتِ الواحدةِ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾(٤).

وفي وصفِ إخراجِ اللهِ المرعى، وجعلِه غُثاءً أحوى، مع ما سبقه من الأوصافِ في سياقِ المناسبةِ بينَها وبينَ الغرضِ المَسُوقِ له الكلامُ إيماءً إلى تمثيلِ حالِ القرآنِ

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٩٢-٣٩٣).
(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٢٩).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٩٢٠).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٣٩٣).

وهدايتِه، وما اشتمَل عليه من الشَّريعةِ التي تنفعُ النَّاسَ، بحالِ الغيثِ الذي يَنبُتُ به المرعىٰ فتنتفعُ به الدَّوابُّ والأنعامُ، وإلىٰ أنَّ هذه الشَّريعةَ تكمُلُ ويَبلُغُ ما أرادَ اللهُ فيها كما يَكمُلُ المرعىٰ ويَبلُغُ نُضجَه حينَ يصيرُ غُثاءً أحوىٰ، علىٰ طريقةٍ تمثيليَّةٍ مَكْنِيَّةٍ، رُمز إليها بذِكْرِ لازمِ الغيثِ وهو المرعىٰ، ويجوزُ أن يكونَ المقصودُ من جملةِ ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ إدماجَ العِبْرةِ بتصاريفِ ما أَودَعَ اللهُ في المخلوقاتِ من مُختلِفِ الأطوارِ من الشَّيءِ إلىٰ ضِدِّه للتَّذكيرِ بالفناءِ بعدَ الحياةِ؛ للإشارةِ إلىٰ أنَّ مُدَّةَ نضارةِ الحياةِ للأشياءِ تُشبِهُ المُدَّةَ القصيرةَ، فاستُعِيرَ لعطفِ جعلِه غُثاءً الحرفُ الموضوعُ لعطفِ ما يحصلُ فيه حكمُ المعطوفِ عليه(١).

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾

ولمَّا استوفىٰ ﷻ وصفَ مَن أمره ﷺ بتسبيحِه بما دَلَّ علىٰ أوصافِ جمالِه ونعوتِ كبريائِه وجلالِه، وشرح ما له سبحانه من القدرةِ التَّامَّةِ علىٰ الإبداعِ والهدايةِ والتَّصرُّفِ في الأرواحِ الحِسِّيَّةِ والمعنويَّةِ بالنَّشرِ والطَّيِّ والقبضِ والبسطِ، فدَلَّ علىٰ تمامِ أصولِ الدِّينِ بالدَّلالةِ علىٰ وجودِه سبحانه علىٰ سبيلِ التَّنزُّلِ من ذاتِه إلىٰ صفاتِه ثم إلىٰ أفعالِه، فتَمَّ ما للخالقِ؛ أَتبَعَه ما للخلائقِ، وبدأ بما لأشرفِ خلقِه المنزَّلِ عليه هذا الذِّكرُ؛ تقديرًا للنُّبُوَّةِ التي بها تَتِمُّ السَّعادةُ بالحقائقِ الواصلةِ من الحقِّ إلىٰ عبدِه، التي بها يتمُّ أمرُه من القُوَّتينِ العلميَّةِ ثم العمليَّةِ بقبولِ الرِّسالةِ بعدَ التَّوحيدِ؛ لأنَّ حياةَ الإنسانِ لا يتمُّ طِيبُها إلَّا بمُقتدًىٰ يُقتدَىٰ به من أقوالِه وأفعالِه وسائرِ أحوالِه، ولا مُقتدًىٰ مِثلُ المعصومِ عن كلِّ مَيْلٍ، المُوجِبِ ذلك الحُبَّ من كلِّ ما يعرفُ حالَه، والحبُّ في اللهِ أعظمُ دعائمِ الدِّينِ، فقال مُعلِّلًا للأمرِ بالتَّسبيحِ للموصوفِ بالجلالِ

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٧٩).

والجمالِ دالًّا علىٰ أنَّه يُحيِي ميِّتَ الأرواحِ بالعلمِ كما يُحيِي ميِّتَ الأشباحِ بالأرواحِ: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾(١).

قد عرفتَ أنَّ الأمرَ بالتَّسبيحِ في قولِه: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ بشارةٌ إجماليَّةٌ للنَّبيِّ ﷺ بخيرٍ يَحصُلُ له، فهذا موقعُ البيانِ الصَّريحِ بوعدِه بأنَّه سيَعصِمُه من نسيانِ ما يُقرِئُه فيُبلِّغُه كما أُوحِيَ إليه، ويحفظُه من التَّفلُّتِ عليه؛ ولهذا تكونُ هذه الجملةُ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ البشارةَ تُنشِئُ في نفسِ النبيِّ ﷺ ترقُّبًا لوعدٍ بخيرٍ يأتيه، فبشَّره بأنَّه سيَزيدُه من الوحيِ، مع ما فرَّع علىٰ قولِه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ من قولِه: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾. وإنَّما ابتُدِئَ بقولِه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ تمهيدًا للمقصودِ الذي هو ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وإدماجًا للإعلامِ بأنَّ القرآنَ في تزايدٍ مُستمِرٍّ، فإذا كان قد خافَ من نسيانِ بعضِ ما أُوحِيَ إليه علىٰ حينِ قِلَّتِه، فإنَّه سيتتابعُ ويتكاثرُ، فلا يَخْشَ نسيانَه، فقد تكفَّلَ له عدمَ نسيانِه مع تزايدِه(٢).

لمَّا أمر محمدًا ﷺ بالتَّسبيحِ، فقال: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾، وعلَّم محمدًا ﷺ أنَّ ذلك التَّسبيحَ لا يتمُّ ولا يكملُ إلَّا بقراءةِ ما أنزله اللهُ تعالىٰ عليه من القرآنِ؛ لِما بيَّنَّا أنَّ التَّسبيحَ الذي يليقُ به هو الذي يرتضيه لنفسِه، فلا جَرَمَ كان يَتذكَّرُ القرآنَ في نفسِه مخافةَ أن ينسىٰ، فأزال اللهُ تعالىٰ ذلك الخوفَ عن قلبِه بقولِه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾(٣).

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ بيانٌ لهدايةِ اللهِ تعالىٰ الخاصَّةِ برسولِ اللهِ ﷺ إثرَ بيانِ هدايتِه تعالىٰ العامَّةِ لكافَّةِ مخلوقاتِه، وهي هدايتُه عليه الصلاة والسلام لتلقِّي الوحيِ وحفظِ القرآنِ الذي هو هُدًىٰ للعالمين، وتوفيقُه عليه الصلاة والسلام لهدايةِ النَّاسِ أجمعين(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٩٥).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٧٩).
(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٣٠).
(٤) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٤٤).

📖 ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧﴾ 📖

ولمَّا كان ﷻ ينسخُ من الشَّريعةِ ما يشاءُ بحسَبِ المصالحِ؛ تخفيفًا لِما له بهذه الأُمَّةِ من الرِّفقِ، قال لافتًا القولَ إلىٰ سياقِ الغَيْبةِ إعلامًا بأنَّ ذِكرَ الجلالةِ أعظمُ من التَّصريحِ بأداةِ العَظَمةِ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾[(١)].

الاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مُفرَّغٌ من فعلِ ﴿تَنسَىٰٓ﴾، و﴿مَا﴾ موصولةٌ هي المستثنىٰ، والتقديرُ: إلَّا الذي شاء اللهُ أن تنساه، فحُذف مفعولُ فعلِ المشيئةِ جريًا علىٰ غالبِ استعمالِه في كلامِ العربِ[(٢)].

📖 ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨﴾ 📖

ولمَّا ذكَر الإلهيَّاتِ والنُّبُوَّةَ، وأُشِيرَ إلىٰ النَّسخِ؛ أشار إلىٰ أنَّ الدِّينَ المشروعَ له هو الحنيفيَّةُ السَّمْحةُ، وأنَّه ﷻ لا يُقيمُه في شيءٍ بنسخٍ أو غيرِه إلَّا كان هو الأيسرَ له والأرفقَ؛ لأنَّ الرِّفقَ والعنفَ يتغيَّرانِ بحسَبِ الزمانِ، فقال مُبيِّنًا للقُوَّةِ العمليَّةِ أثَرَ بيانِه للعلميَّةِ: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[(٣)].

عطفٌ علىٰ ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾، وجملةُ ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧﴾ مُعترضةٌ كما علمتَ، وهذا العطفُ من عطفِ الأعمِّ علىٰ الأخصِّ في المآلِ، وإنْ كان مفهومُ الجملةِ السَّابقةِ مُغايِرًا لمفهومِ التَّيسيرِ؛ لأنَّ مفهومَها الحفظُ والصِّيانةُ، ومفهومُ المعطوفةِ تيسيرُ الخيرِ له[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٩٥-٣٩٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٨٠).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٣٩٧).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٨١).

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ عطفٌ على ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ كما يُنبِئُ عنه الالتفاتُ إلى الحكايةِ، وما بينَهما اعتراضٌ واردٌ لِما ذُكر من التَّعليلِ، وتعليقُ التَّيسيرِ به ﷺ -معَ أنَّ الشَّائعَ تعليقُه بالأمورِ المسخَّرةِ للفاعلِ- للإيذانِ بقُوَّةِ تمكينِه ﷺ من اليسرى، والتَّصرُّفِ فيها بحيثُ صار ذلك مَلَكةً راسخةً له، كأنَّه ﷺ جُبل عليها[١].

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩﴾

ولمَّا كمَّله ﷺ وهيَّأه ﷻ للأيسرِ، ويسَّره غايةَ التَّيسيرِ؛ سبَّب عنه وجوبَ التَّذكيرِ لكُلِّ أحدٍ في كلِّ حالةٍ تكميلًا لغيرِه شَفَقةً على خلقِ اللهِ بعدُ لِما له في نفسِه، فإنَّ للهِ ساعاتٍ له فيها نفحاتٌ تُقضَى فيها الحاجاتُ؛ وذلك لأنَّه قد صار كالطَّبيبِ الحاذقِ في علاجِ المرضى، فيقومُ بنفعِ عبادِه لشكرِه بعدَ ذِكْرِه بإذنٍ منه؛ إشارةً إلى أنَّ التِّلميذَ يحتاجُ إلى إذنِ المشايخِ وتزكيتِهم، وإلى أنَّ أعظمَ الأدواءِ أن يقتصرَ الإنسانُ على ما عندَه، ولا يطلبَ الازديادَ ممَّا ليس عندَه من خيرِ الزَّادِ، فقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾[٢].

بعدَ أن ثبَّت اللهُ رسولَه ﷺ، تكفَّل له ما أزالَ فَرَقَه[٣] من أعباءِ الرِّسالةِ، وما اطمأنَّتْ به نفسُه مِن دفعِ ما خافه من ضعفٍ عن أدائِه الرِّسالةَ على وجهِها، وتكفَّل له دفعَ نسيانِ ما يُوحَى إليه إلَّا ما كان إنساؤُه مرادًا للهِ تعالى، ووعَده بأنَّه وفَّقه وهيَّأه لذلك ويسَّره عليه؛ إذ كان الرسولُ ﷺ وهو في مبدأِ عهدِه بالرِّسالةِ -إذْ كانت هذه السُّورةُ ثامنةَ السُّوَرِ- لا يعلمُ ما سيَتعهَّدُ اللهُ به، فيخشى أن يُقصِّرَ عن مرادِ اللهِ، فيَلحَقَه

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٤٥).

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٩٧-٣٩٨).

(٣) أي: خَوْفَه.

غضبٌ منه أو مَلامٌ؛ أَعقَبَ ذلك بأنْ أمره بالتَّذكيرِ؛ أي: التَّبليغ؛ أي: بالاستمرارِ عليه، إرهافًا لعزمِه، وشحذًا لنشاطِه؛ ليكونَ إقبالُه على التَّذكيرِ بشَراشِرِه[1]، فإنَّ امتثالَ الأمرِ إذا عاضَدَه إقبالُ النَّفسِ على فعلِ المأمورِ به؛ كان فيه مَسَرَّةٌ للمأمورِ، فجمع بينَ أداءِ الواجبِ وإرضاءِ الخاطرِ. فالفاءُ للتَّفريعِ على ما تَقدَّمَ تفريعَ النَّتيجةِ على المقدِّماتِ[2].

ثم أمره بالتَّذكيرِ، فقال: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾.

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ⑩ ﴾

ولمَّا أمره بالتَّذكيرِ لكُلِّ أحدٍ، قسَّم النَّاسَ له إلى قسمينِ: قسمٌ يقبلُ العلاجَ، وقسمٌ لا يقبلُه؛ إعلامًا بأنَّه ﷻ عالِمٌ بكُلٍّ من القسمينِ جملةً وأفرادًا على التَّعيينِ، ولم يَزَلْ عالمًا بذلك، ولكنَّه لم يُعيِّنِ ابتلاءً منه لعبادِه؛ لتقومَ له الحُجَّةُ عليهم بما يتعارفونه بينَهم -وله الحُجَّةُ البالغةُ-، فقال حاثًّا على شُكْرِ الجوائحِ من العقلِ ونحوِه، والجوارحِ من القلبِ واللِّسانِ وغيرِهما: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾[3].

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿ فَذَكِّرْ ﴾، وما لَحِقَه من الاعتراضِ بقولِه: ﴿ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ المُشْعِرِ بأنَّ التَّذكيرَ لا ينتفعُ به جميعُ المُذكَّرِين[4].

لمَّا قال: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ الذي تنفعُه الذِّكرى مَن هو، ولمَّا كان الانتفاعُ بالذِّكرى مبنيًّا على حصولِ الخشيةِ في القلبِ، وصفاتُ القلوبِ ممَّا لا اطِّلاعَ لأحدٍ عليها إلَّا اللهَ سبحانه؛ وجَب على الرسولِ تعميمُ

(١) أي: بكُلِّيَّتِه.

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٨٤).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٣٩٨-٣٩٩).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٨٤-٢٨٥).

الدَّعوةِ تحصيلًا للمقصودِ، فإنَّ المقصودَ تذكيرُ مَن ينتفعُ بالتَّذكيرِ، ولا سبيلَ إليه إلَّا بتعميمِ التَّذكيرِ(١).

ثـم بـيَّن سـبحانه الفـرقَ بـينَ مَـن تنفعُـه الـذِّكرىٰ ومَـن لا تنفعُـه، فقـال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾(٢).

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾

ولمَّا ذكَر مَن يحبُّ حبَّه في اللهِ، ذكَر مَن يبغضُ في اللهِ، وعلامةُ الحبِّ الاقتداءُ، وعلامةُ البُغْضِ التجنُّبُ والانتهاءُ، والابتداعُ والإباءُ، فقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾(٣).

ثم ذكَر غيرَ المنتفِعين بالذِّكرىٰ، فقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾.

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾

ولمَّـا ذكَـر وصـفَه الـذي أوجَـبَ لـه العمـلَ السَّيِّئَ، ذكَـر جـزاءَه، فقـال: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾(٤).

ثم وصَف الأشقىٰ، فقال: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾(٥).

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾

ولمَّا كان ما هذا شأنُه يَهلِكُ -علىٰ ما جَرَتْ به العادةُ- في أسرعِ وقتٍ، فإذا كـان مـن شأنِه مع هذا العِظَمِ أنَّه لا يَهلِكُ؛ كان ذلك دليلًا واضحًا علىٰ أنَّه لا يعلمُ كُنْهَ عَظَمةِ مُقدَّرِه إلَّا هو ﷻ، فأشار إلىٰ ذلك بالتعبيرِ بـأداةِ التَّراخي؛ إعلامًـا بـأنَّ مراتـبَ هـذه

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٣٣).
(٢) فتح القدير (٥/ ٥١٦).
(٣) نظم الدرر (٢١/ ٣٩٩).
(٤) نظم الدرر (٢١/ ٤٠٠).
(٥) فتح القدير (٥/ ٥١٦).

الشِّدَّةِ في التَّردُّدِ بينَ الموتِ والحياةِ لا يعلمُ عُلُوَّها عن شِدَّةِ الصِّلِيِّ[1] إلَّا اللهُ تعالىٰ، فقال: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[2].

جملةُ ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، فهي صِلَةٌ ثانيةٌ، و﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتْبيِّ، تدلُّ علىٰ أنَّ معطوفَها مُتَراخِي الرُّتبةِ في الغرضِ المَسُوقِ له الكلامُ؛ وهو شِدَّةُ العذابِ، فإنَّ تَردُّدَ حالِه بينَ الحياةِ والموتِ وهو في عذابِ الاحتراقِ عذابٌ أشدُّ ممَّا أفاده أنَّه في عذابِ الاحتراقِ، ضرورةَ أنَّ الاحتراقَ واقعٌ، وقد زِيدَ فيه درجةَ أنَّه لا راحةَ منه بموتٍ ولا مُخلِّصَ منه بحياةٍ[3].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾

ولمَّا ثبَت بهذا أنَّ لهذا هذا الشَّقاءَ الأعظمَ، فكان التقديرُ: لأنَّه لم يُزَكِّ نفسَه -لأنَّه ما كان مطبوعًا علىٰ الخشيةِ- أَنتجَ ولا بدَّ قولَه تعالىٰ دالًّا علىٰ الدِّينِ التَّكليفيِّ وهو اجتنابٌ واجتلابٌ، فجمعَ الاجتنابَ والاجتلابَ بالتَّزكيةِ بالتَّبتُّلِ بالأبوابِ، والملازمةِ للأعتابِ، بامتثالِ الأمرِ واجتنابِ النَّهي بالمجاهَداتِ المقرِّباتِ إليه ﷻ، المُنْجِياتِ بعدَ ما حذَّر من المُهْلِكاتِ، للمُسارَعةِ في مَحابِّه ومَراضِيه اجتماعًا علىٰ العبادةِ المُوصِلةِ للخالقِ بعدَ حصولِ الكمالِ والتَّكميلِ؛ فإنَّه لا بدَّ في الحياةِ الطَّيِّبةِ -بعدَ الانتماءِ إلىٰ ذي الجاهِ العريضِ، والاقتداءِ بمَن لا يَزيغُ- من الارتباطِ بطريقةٍ مُثلَىٰ يحصلُ بها الاغتباطُ؛ ليصلَ بها إلىٰ المقصودِ، ويَعمُرَ أوقاتَه بوظائفِها؛ لئلَّا يحصلَ له خللٌ، ولا ضياعٌ لنفائسِ الأوقاتِ، ولا غفلةٌ يستهويه بها قُطَّاعُ الطَّريقِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[4].

---

(١) أي: مُقاساة شِدَّةِ حَرِّ النار.

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٤٠١-٤٠٢).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٨٦).

(٤) نظم الدرر (٢١/ ٤٠٢-٤٠٣).

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ذِكرَ ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾، وذِكرَ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ يُثِيرُ استشرافَ السَّامعِ لمعرفةِ أثرِ ذلك، فابتُدِئَ بوصفِ أثرِ الشَّقاوةِ، فوُصفَ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ بأنَّه ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، وأُخِّرَ ذِكرُ ثوابِ الأتقىٰ تقديمًا للأهمِّ في الغرضِ؛ وهو بيانُ جزاءِ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ الذي يَتجنَّبُ الذِّكرىٰ، وبقي السَّامعُ ينتظرُ أن يعلمَ جزاءَ مَن يخشىٰ ويَتذكَّرُ، فلمَّا وُفِّيَ حقَّ الموعظةِ والتَّرهيبةِ، استُؤنِفَ الكلامُ لبيانِ المثوبةِ والتَّرغيبِ(١).

أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر وعيدَ مَن أعرضَ عن النَّظرِ والتَّأمُّلِ في دلائلِ اللهِ تعالىٰ، أَتبَعه بالوعدِ لمن تزكَّىٰ وتطهَّر من دَنَسِ الشِّركِ(٢).

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾

ولمَّا كان أعظمُ الأعمالِ المُزكِّيةِ الذِّكرَ والصَّلاةَ، قال تعالىٰ: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾(٣).

وقدَّم التَّزكِّيَ علىٰ ذِكْرِ اللهِ والصَّلاةِ؛ لأنَّه أصلُ العملِ بذلك كلِّه، فإنَّه إذا تَطهَّرتِ النَّفسُ، أَشرَقَتْ فيها أنوارُ الهدايةِ، فعَلِمتْ منافعَها، وأَكثَرتْ من الإقبالِ عليها، وقد رُتِّبَتْ هذه الخِصالُ الثَّلاثُ في الآيةِ علىٰ ترتيبِ تولُّدِها، فأصلُها: إزالةُ الخباثةِ النَّفسيَّةِ من عقائدَ باطلةٍ وحديثِ النَّفسِ بالمضمَراتِ الفاسدةِ، وهي المشارُ إليه بقولِه: ﴿تَزَكَّىٰ﴾، ثم استحضارُ معرفةِ اللهِ بصفاتِ كمالِه وحكمتِه ليخافَه ويرجوَه، وهو المشارُ بقولِه: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾، ثم الإقبالُ علىٰ طاعتِه وعبادتِه، وهو المشارُ إليه بقولِه: ﴿فَصَلَّىٰ﴾، والصَّلاةُ تشيرُ إلىٰ العبادةِ، وهي في ذاتِها طاعةٌ وامتثالٌ يأتي بعدَه ما يُشرَعُ من الأعمالِ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٨٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٣٥).

(٣) نظم الدرر (٢١/ ٤٠٣).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٨٨).

﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦﴾

ولمَّا كان التقديرُ: وأنتم لا تفعلون ذلك، أو وهم لا يفعلونه، علىٰ القراءتينِ؛ عطَف عليه قولَه بالخطابِ في قراءةِ الجماعةِ علىٰ الالتفاتِ الدَّالِّ علىٰ تَناهِي الغضبِ، مُنبِّهًا علىٰ المعاملاتِ بسببِ التَّداوي الرَّابعِ؛ وهو الاستفراغُ بنفيِ الرَّذائلِ والخبائثِ بالذَّمِّ علىٰ ما ينبغي البراءةُ منه، والحثِّ علىٰ ما يتعيَّنُ تحصيلُه تحصيلًا لحسنِ الرِّعايةِ: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾[1].

﴿بَلۡ﴾ هنا عاطفةٌ جملةً عطفًا صوريًّا، فيجوزُ أن تكونَ لمجرَّدِ الانتقالِ من ذِكْرِ المنتفِعين بالذِّكرىٰ والمتجنِّبين لها، إلىٰ ذِكْرِ سببِ إعراضِ المتجنِّبين -وهم الأَشْقَوْنَ- بأنَّ السَّببَ إيثارُهم الحياةَ الدنيا، وذلك علىٰ قراءةِ أبي عمرٍو ظاهرٌ، وأمَّا علىٰ قراءةِ الجمهورِ فهو إضرابٌ عن حكايةِ أحوالِ الفريقينِ بالانتقالِ إلىٰ توبيخِ أحدِ الفريقينِ وهو الفريقُ الأشقىٰ، فالخطابُ مُوجَّهٌ إليهم علىٰ طريقةِ الالتفاتِ لتجديدِ نشاطِ السَّامعِ لكي لا تنقضيَ السُّورةُ كلُّها في الإخبارِ عنهم بطريقِ الغَيْبةِ، ويجوزُ أن يكونَ الإضرابُ إبطالًا لِما تَضمَّنَه قولُه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ من التَّعريضِ للذين شَقُوا بتحريضِهم علىٰ طلبِ الفلاحِ لأنفسِهم؛ ليلتحقوا بالذين يَخْشَوْنَ ويتزكَّوْن ليبطلَ أن يكونوا مَظِنَّةَ تحصيلِ الفلاحِ[2].

إضرابٌ عن مُقدَّرٍ ينساقُ إليه الكلامُ، كأنَّه قيل إثرَ بيانِ ما يُؤدِّي إلىٰ الفلاحِ: لا تفعلون ذلك، بل تُؤثِرون اللَّذَّاتِ العاجلةَ الفانيةَ فتَسْعَوْنَ لتحصيلِها[3].

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٤٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٨٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٤٦).

﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

جملةُ ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ التَّوبيخِ عطفَ الخبرِ علىٰ الإنشاءِ؛ لأنَّ هذا الخبرَ يزيدُ إنشاءَ التَّوبيخِ توجيهًا وتأييدًا بأنَّهم -في إعراضِهم عن النَّظرِ في دلائلِ حياةٍ آخِرةٍ- قد أعرَضوا عمَّا هو خيرٌ وأبقىٰ[(١)].

ولمَّا ذكر حُبَّهم للحياةِ الدنيا، رغَّب في الآخرةِ، فقال: ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

ولمَّا كانت هذه النَّتيجةُ -التي هي الفلاحُ بالتَّزكيةِ وما تَبِعَها- خالصةَ الكتبِ المنزَلةِ التي بها تدبيرُ البقاءِ الأوَّلِ، وصَفَها ترغيبًا فيها بوصفٍ جمَع القِدَمَ المستلزِمَ للصِّحَّةِ بتواردِ الأفكارِ علىٰ تعاقبِ الأعصارِ، لأنَّ ما مَضَتْ عليه السِّنونَ ومرَّتْ علىٰ قَبولِه الدُّهورُ تكونُ النَّفسُ أقبلَ للإذعانِ له وأدعىٰ إلىٰ إلزامِه، وأفاد مع القِدَمِ أنَّ المنزَلَ عليه ﷺ ليس بِدْعًا من الرُّسلِ عليهم الصلاة والسلام، بل هو علىٰ منهاجِهم، فرَدُّ رسالتِه من بينِهم لا يقولُ به مُنصِفٌ؛ لا سِيَّما وقد زاد عليهم في المعجزاتِ وسائرِ الكراماتِ، بقولِه مُؤكِّدًا لأجلِ مَن يُكذِّبُ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾[(٢)].

تذييلٌ للكلامِ، وتنويهٌ به بأنَّه من الكلامِ النَّافعِ الثَّابتِ في كتبِ إبراهيمَ وموسىٰ عليهما السلام، قُصد به الإبلاغُ للمشركين الذين كانوا يعرفون رسالةَ إبراهيمَ ورسالةَ موسىٰ؛ ولذلك أكَّد هذا الخبرَ بـ﴿ إِنَّ ﴾ ولامِ الابتداءِ؛ لأنَّه مَسُوقٌ إلىٰ المنكِرين[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٩٠).
(٢) نظم الدرر (٢١/ ٤٠٦-٤٠٧).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٩٠).

﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا كان ذلك عامًّا، خَصَّ مِن بينِه -تعظيمًا لقدرِ هذه الموعظةِ- أعظمَ الأنبياءِ الأقدمين، فقال مُبدِلًا مُشيرًا إلى الاستدلالِ بالتَّجربةِ: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾(١).

﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ بدلٌ مِن ﴿ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾، وفي إبهامِها ووصفِها بالقِدَمِ ثم بيانِها وتفسيرِها من تفخيمِ شأنِها ما لا يخفى(٢).

---

(١) نظم الدرر (٢١/ ٤٠٧-٤٠٨).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٤٧).

سورة الغاشية

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ ﴾

ولمَّا هوَّل أمرَها بانبهامِها وعمومِها، زاد في التَّهويلِ بما ذكَر من أحوالِها في تفصيلِ النَّاسِ إلىٰ شقيٍّ وسعيدٍ، وبدأ بالشَّقِيِّ لأنَّ المقامَ لإنذارِ المُؤثِرين للحياةِ الدنيا، وسوَّغ الابتداءَ بالنَّكرةِ التَّفصيلُ، فقال: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾[1].

استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ من الاستفهامِ التَّشويقيِّ، كأنَّه قيل مِن جهتِه ﷺ: ما أتاني حديثُها، فما هو؟ فقيل: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾[2].

ثم أَخبرَ عن وصفِ كلا الفريقينِ، فقال في وصفِ أهلِ النَّارِ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾.

﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ ﴾

خبرانِ آخرانِ لـ﴿ وُجُوهٌ ﴾؛ إذِ المرادُ بها أصحابُها[3].

ثم وصَفها بعدَ ذِلَّتِها بأنَّها ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾.

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢-٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٤٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٤٨).

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾

ولمَّا كان العذابُ لا يكونُ إلَّا على ما يكرهُه المعذَّبُ، دَلَّ على ذلك -وعلى أنَّه على أنهى ما يكونُ- ببناءِ الفعلِ للمفعولِ، في قراءةِ أبي عمرٍو ويعقوبَ وأبي بكرٍ عن عاصمٍ، فقال: ﴿تُصلَى نَارًا حَامِيَةً﴾(١).

اعلَمْ أنَّه تعالى بعدَ أن وصَفهم بهذه الصِّفاتِ الثَّلاثةِ، شرَح بعد ذلك كيفيَّةَ مكانِهم ومَشرَبِهم ومَطعَمِهم -نعوذُ باللهِ منها، أمَّا مكانُهم فقولُه تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾(٢).

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥﴾

ولمَّا كان مَن في الحَرِّ أَحْوجَ شيءٍ إلى ما يُبرِّدُ باطنَه، قال بانيًا عندَ الكُلِّ للمفعولِ جريًا على قراءةِ أبي عمرٍو في الذي قبلَه: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾(٣).

وأَخبَرَ عن «وجوهٍ» خبرًا خامسًا بجملةِ ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾، أو هو حالٌ من ضميرِ ﴿تَصْلَىٰ﴾؛ لأنَّ ذِكرَ الاحتراقِ بالنَّارِ يُحضِرُ في الذِّهنَ تَطلُّبَ إطفاءِ حرارتِها بالشَّرابِ، فجعل شرابَهم ﴿مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾(٤).

أمَّا مشروبُهم قولُه تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾(٥).

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾

ولمَّا ذكَر ما يُسْقَوْنَه على وجهٍ عُلم منه أنَّه لا يَلذُّ ولا يروي من عطشٍ، أَتبعَه ما يُطعَمونه، فقال حاصرًا له: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾(٦).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٤).
(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٣٩).
(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٤-٥).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٩٦).
(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٤٠).
(٦) نظم الدرر (٢٢/ ٥).

وذِكرُ السَّقيِ يُخطِرُ في الذِّهنِ تَطلُّبَ معرفةِ ما يُطعَمونه، فجِيءَ به خبرًا سادسًا، أو حالًا من ضميرِ ﴿تُسْقَىٰ﴾ بجملةِ ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾؛ أي: يُطعَمون طعامَ إيلامٍ وتعذيبٍ، لا نفعَ فيه لهم، ولا يدفعُ عنهم ألمًا[١].

بيانٌ لطعامِهم إثرَ بيانِ شرابِهم[٢].

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾

ولمَّا حصَر أكلَهم في هذا، وكان الضَّريعُ المعروفُ عندَ العربِ قد يَتصوَّرُ مُتصوِّرٌ أنَّه لو أُكرِهَ شيءٌ علىٰ أكلِه أَسمَنَه أو سَدَّ جُوعتَه، وكان الضَّريعُ المأكولُ لهم في القيامةِ شَوْكًا من نارٍ، كما ورد تفسيرُه عن ابنِ عبَّاسٍ ﷺ مرفوعًا إلىٰ النبيِّ ﷺ؛ نفىٰ عنه فائدةَ الطَّعامِ، فقال واصفًا الضَّريعَ، أو الطَّعامَ المقدَّرَ بعدَ ﴿إِلَّا﴾ بما يُفهِمُه تَحامِي الإبلِ -التي ترعىٰ كلَّ نابتٍ، وهي أعظمُ الحيواناتِ إقبالًا علىٰ أنواعِ الشَّوكِ- له مِن أنَّه ضُرٌّ بلا نفعٍ: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾[٣].

ووصفُ ﴿ضَرِيعٍ﴾ بأنَّه ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ لتشويهِه، وأنَّه تَمحَّضَ للضُّرِّ، فلا يعودُ علىٰ آكِليه بسِمَنٍ يُصلِحُ بعضَ ما التفَح من أجسادِهم، ولا يُغنِي عنهم دفعَ ألمِ الجوعِ، ولعلَّ الجوعَ من ضروبِ تعذيبِهم، فيَسألون الطَّعامَ فيُطعَمون الضَّريعَ فلا يدفعُ عنهم ألمَ الجوعِ[٤].

ثم وصَف سبحانه الضَّريعَ، فقال: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٩٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٤٩).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٧).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٩٧).

(٥) فتح القدير (٥/ ٥٢٢).

📖 ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ﴿٨﴾﴾ 📖

ولمَّا ذكَر الأعداءَ وقدَّمَهم لِما تَقدَّم، أَتبَعَه الأولياءَ، فقال مُستأنِفًا ذِكرَ ما لهم من ضِدِّ ما ذُكر للأعداءِ: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾(١).

يتبادرُ في باديءِ الرَّأيِ أنَّ حقَّ هذه الجملةِ أن تُعطَفَ علىٰ جملةِ ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾ بالواوِ؛ لأنَّها مُشارِكةٌ لها في حكمِ البيانِ لحديثِ الغاشيةِ، فيَتَّجِهُ أن يُسأَلَ عن وجهِ فصلِها عن التي قبلَها، ووجهُ الفصلِ: التنبيهُ علىٰ أنَّ المقصودَ من الاستفهامِ في ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾ الإعلامُ بحالِ المعرَّضِ بتهديدِهم؛ وهم أصحابُ الوجوهِ الخاشعةِ، فلمَّا حصل ذلك الإعلامُ بجملةِ ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ ...﴾ إلىٰ آخرِها، تَمَّ المقصودُ، فجاءت الجملةُ بعدَها مفصولةً؛ لأنَّها جُعلت استئنافًا بيانيًّا، جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ تُثيرُه الجملةُ السَّابقةُ، فيتساءل السَّامعُ: هل من حديثِ الغاشيةِ ما هو مُغايرٌ لهذا الهَوْلِ؟ أي: ما هو أُنْسٌ ونعيمٌ لقومٍ آخرين؛ ولهذا النَّظمِ صارت هذه الجملةُ بمنزلةِ الاستطرادِ والتَّتميمِ، لإظهارِ الفرقِ بينَ حالَيِ الفريقينِ، ولتعقيبِ النِّذارةِ بالبشارةِ، فموقعُ هذه الجملةِ المستأنَفةِ موقعُ الاعتراضِ، ولا تَنافِيَ بينَ الاستئنافِ والاعتراضِ، وذلك مُوجِبٌ لفصلِها عمَّا قبلَها، وفيه جَرْيُ القرآنِ علىٰ سَنَنِه من تعقيبِ التَّرهيبِ والتَّرغيبِ(٢).

شروعٌ في روايةِ حديثِ أهلِ الجنَّةِ، وتقديمُ حكايةِ حالِ أهلِ النَّارِ؛ لأنَّه أَدخَلُ في تهويلِ الغاشيةِ وتفخيمِ حديثِها، ولأنَّ حكايةَ حُسْنِ حالِ أهلِ الجنَّةِ بعدَ حكايةِ سوءِ حالِ أهلِ النَّارِ ممَّا يزيدُ المحكيَّ حُسْنًا وبهجةً(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٩٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٤٩).

﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ٩﴾

لمَّا ذكَر وعيدَ الكفارِ، أَتبَعَه بشرحِ أحوالِ المؤمنين، فذكَر وصفَ أهلِ الثَّوابِ أوَّلًا، ثم وصَف دارَ الثَّوابِ ثانيًا. أمَّا وصفُ أهلِ الثَّوابِ فبأمرينِ؛ أحدُهما: في ظاهِرِهم، وهو قولُه: ﴿نَّاعِمَةٞ﴾؛ أي: ذاتُ بهجةٍ وحُسْنٍ، والثَّاني: في باطنِهم، وهو قولُه تعالىٰ: ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾[1].

ثم ذكَر عملَها الذي كان سببًا في نعيمِها، فقال: ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ١٠﴾

ولمَّا ذكَر السَّعيَ، أَتبَعَه ثوابَه، فقال: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾[2].

﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ١١﴾

ولمَّا كان ما كان من هذا لا يصفو، وفيه ما يُكرَهُ من الكلامِ؛ قال مُنزِّهًا لها عن كلِّ سوءٍ: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾[3].

ابتُدِئَ في تَعْدادِ صفاتِ الجنَّةِ بصفتِها الذَّاتيَّةِ؛ وهو كونُها عاليةً، وثُنِّيَ بصفةِ تنزيهِها عمَّا يُعَدُّ من نقائصِ مجامعِ النَّاسِ ومساكنِ الجماعاتِ؛ وهو الغَوْغاءُ واللَّغوُ، وقد جُرِّدتْ هذه الجملةُ من أن تُعطَفَ علىٰ ﴿عَالِيَةٖ﴾ مراعاةً لعدمِ التَّناسبِ بينَ المفرداتِ والجملِ، وذلك حقيقٌ بعدمِ العطفِ؛ لأنَّه أشدُّ من كمالِ الانقطاعِ في عطفِ الجملِ، وهذا وصفٌ للجنَّةِ بحُسْنِ سُكَّانِها[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٤١).
(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٩).
(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٩).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٠٠).

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ١٢﴾

ولمَّا وصَف الجنَّةَ بأوَّلِ ما يُعتبرُ فيها؛ وهو عدمُ المُنغِّصِ، أَتبعَه ما يُطلَبُ بعدَه؛ وهو تَناوُلُ المُلْتَذَّاتِ، وكان الأكلُ قد فُهم من ذِكْرِ لفظِ «الجنَّةِ»، ذُكر المشروبُ لذلك، ولدلالتِه -إذا كان جاريًا- على زيادةِ حُسْنِ الجنَّةِ، وكثرةِ ما فيها من النَّباتاتِ المُقِيتةِ والمُفكِّهةِ؛ من النَّجمِ والأشجارِ، والرِّيِّ والأطيارِ، فقال لأنَّه ليس كلُّ جنَّةٍ ممَّا نعرفُه فيه ماءٌ جارٍ بنفسِه: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾[(١)].

صفةٌ ثالثةٌ لـ﴿جَنَّةٍ﴾، وهذا وصفٌ للجنَّةِ باستكمالِها محاسنَ الجنَّاتِ. وإنَّما لم تُعطَفْ على الجملةِ التي قبلَها؛ لاختلافِهما بالفعليَّةِ في الأولى والاسميَّةِ في الثَّانيةِ، وذلك الاختلافُ من مُحسِّناتِ الفصلِ، ولأنَّ جملةَ ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ مقصودٌ منها التَّنزُّهُ عن النَّقائصِ، وجملةَ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ مقصودٌ منها إثباتُ بعضِ محاسنِها[(٢)].

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ١٣﴾

ولمَّا لم يَبْقَ بعدَ الأكلِ والشُّربِ إلَّا الاتِّكاءُ، قال مُفهِمًا أنَّهم ملوكٌ: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾[(٣)].

صفةٌ رابعةٌ لـ﴿جَنَّةٍ﴾، وأُعِيدَ قولُه: ﴿فِيهَا﴾ دونَ أن يُعطَفَ ﴿سُرُرٌ﴾ على ﴿عَيْنٌ﴾ عطفَ المفرداتِ؛ لأنَّ عطفَ «السُّرَرِ» على ﴿عَيْنٌ﴾ يبدو نابيًا عن الذَّوقِ؛ لعَدِّ الجامعِ بينَ عينِ الماءِ والسُّرَرِ في الذِّهنِ لولا أنْ جمَعها الكونُ في الجنَّةِ؛ فلذلك كُرِّرَ ظرفُ ﴿فِيهَا﴾ تصريحًا بأنَّ تلك الظَّرفيَّةَ هي الجامعُ، ولأنَّ بينَ ظرفيَّةِ العينِ الجاريةِ

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٩-١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٠١).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١١).

في الجنَّةِ وبينَ ظرفيَّةِ السُّرَرِ وما عُطف عليه من متاعِ القصورِ والأثاثِ تفاوتًا؛ ولذلك عُطف ﴿وَأَكْوَابٌ﴾، ﴿وَنَمَارِقُ﴾، ﴿وَزَرَابِيُّ﴾؛ لأنَّها مُتماثِلةٌ في أنَّها من متاعِ المساكنِ الفائقةِ، وهذا وصفٌ لمحاسنِ الجنَّةِ بمحاسنِ أثاثِ قصورِها(١).

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ١٤﴾

ولمَّا كان المُستريحُ يحتاجُ إلىٰ تكْرارِ الشُّربِ وما يشربُ فيه، قال: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾(٢).

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ١٥﴾

ولمَّا كان مَن هو بهذه المثابةِ يحتاجُ إلىٰ المَساندِ والفُرُشِ الزَّائدةِ، قال تعالىٰ: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾(٣).

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ١٦﴾

ثم عطَف عليها البُسُطَ التي تكونُ عليها الوسائدُ، فقال: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ١٧﴾

ولمَّا أنهىٰ سبحانه ما أرادَ من تصويرِ تلك الدَّارِ، علىٰ ما يليقُ بهذه السُّوَرِ القِصارِ، وكانوا يُنكِرون غايةَ الإنكارِ، فوبَّخهم بما يَعصِمُهم من الزَّيغِ عن العقائدِ الحقَّةِ في استفهامٍ إنكاريٍّ، مُذكِّرًا لهم بأمورٍ هم في غايةِ المعرفةِ بها، وهي في غايةِ الوضوحِ في

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٠١).
(٢) نظم الدرر (٢٢/ ١٢).
(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١٢).

نفسِها؛ لأنَّ نزولَ هذه السُّوَرِ كان في أوَّلِ الأمرِ قبلَ أن يتمرَّنوا على المعارفِ تدلُّ على قدرتِه على البعثِ، وعلى قدرتِه على ما ذُكر ما هذه الأمورِ التي أودَعَها الجِنانَ لِلَذَّةِ الإنسانِ؛ وذلك لِما في هذه الأمورِ التي ذكَّر بها سبحانه من عجائبِ الصُّنعِ، مع تفاوتِه في جعلِ بعضِها ذا اختيارٍ في الخفضِ والرَّفعِ، وبعضِها على كيفيَّةٍ واحدةٍ لا قدرةَ له على الانفكاكِ عنها من عُلْوٍ أو سُفُولٍ مع التَّمهُّدِ أو التَّوعُّرِ، فقال مُسبِّبًا عمَّا مضى من الإخبارِ عن أحوالِ الفريقينِ في الآخرةِ وعن قدرتِه على ما ذُكر: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾[(1)].

لمَّا تَقدَّم التَّذكيرُ بيومِ القيامةِ، ووصفُ حالِ أهلِ الشَّقاءِ بما وُصفوا به، وكان قد تَقرَّر فيما نزل من القرآنِ أنَّ أهلَ الشَّقاءِ هم أهلُ الإشراكِ باللهِ؛ فُرِّعَ على ذلك إنكارٌ عليهم إعراضَهم عن النَّظرِ في دلائلِ الوحدانيَّةِ، فالفاءُ في قولِه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ تفريعُ التَّعليلِ على المعلَّلِ؛ لأنَّ فظاعةَ ذلك الوعيدِ تجعلُ المقامَ مقامَ استدلالٍ على أنَّهم محقوقون بوجوبِ النَّظرِ في دلائلِ الوحدانيَّةِ التي هي أصلُ الاهتداءِ، إلى تصديقِ ما أخبرهم به القرآنُ من البعثِ والجزاءِ، وإلى الاهتداءِ إلى أنَّ مُنشِئَ النَّشأةِ الأولى عن عدمٍ -بما فيها من عظيمِ الموجوداتِ كالجبالِ والسَّماءِ- لا يُستبعَدُ في جانبِ قدرتِه إعادةُ إنشاءِ الإنسانِ بعدَ فنائِه عن عدمٍ، وهو دونَ تلك الموجوداتِ العظيمةِ الأحجامِ، فكان إعراضُهم عن النَّظرِ مَجْلَبَةً لِما يُجشِّمُهم من الشَّقاوةِ، وما وقع بينَ هذا التَّفريعِ وبينَ المفرَّعِ عنه من جملةِ ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ كان في موقعِ الاعتراضِ[(2)].

لمَّا حكَم بمجيءِ يومِ القيامةِ، وقسَّم أهلَ القيامةِ إلى قسمينِ: الأشقياءِ والسُّعداءِ، ووصف أحوالَ الفريقينِ، وعُلم أنَّه لا سبيلَ إلى إثباتِ ذلك إلَّا بواسطةِ إثباتِ الخالقِ الحكيمِ؛ لا جَرَمَ أَتبَعَ ذلك بذِكرِ هذه الدَّلالةِ، فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٢-١٣).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٠٣).

كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾، وجهُ الاستدلالِ بذلك على صحَّةِ المعادِ: أنَّها تدلُّ على وجودِ الخالقِ الحكيمِ(١).

ثم أقام تعالى الحُجَّةَ على مُنكِري قدرتِه على بعثِ الأجسادِ، بأنْ وقَّفَهم على موضعِ العِبرة في مخلوقاتِه، فقال: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴾(٢).

استئنافٌ مَسُوقٌ لتقريرِ ما فُصِّلَ من حديثِ الغاشيةِ، وما هو مبنيٌّ عليه من البعثِ الذي هم فيه مُختلِفون، بالاستشهادِ عليه بما لا يستطيعون إنكارَه(٣).

﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ ﴾

ولمَّا ذكر ﷻ هذا المخلوقَ المفردَ الذي هو أدلُّ ما يكونُ على هذا القولِ بالطَّبيعةِ، أَتبعَه ذِكرَ السَّماءِ؛ ليتذكَّرَ السَّامعُ ذلك فيُباعِدَ مَن يقولُ به، فقال: ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴾(٤).

ونُقل بهم إلى التَّدبُّرِ في عظيمِ خلقِ السَّماءِ، إذْ هم ينظرونها نهارَهم وليلَهم، في إقامتِهم وظَعْنِهم، يَرقُبون أنواءَ المطرِ، ويَشِيمون لَمْعَ البُرُوقِ، فقد عُرف العربُ بأنَّهم بنو ماءِ السَّماءِ(٥).

﴿ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ ﴾

ولمَّا ذكر العاليَ من الحيوانِ، المُلابِسَ للإنسانِ، والعاليَ من الأكوانِ؛ أتبعه أعلى الأرضِ، فقال تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴾(٦).

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦٣).
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٤٧٤).
(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٥٠).
(٤) نظم الدرر (٢٢/ ١٥-١٦).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٠٥).
(٦) نظم الدرر (٢٢/ ١٦).

وأَتبعَ ذِكرَ السَّماءِ بذِكْرِ الجبالِ، وكانت الجبالُ منازلَ لكثيرٍ منهم؛ مِثلَ جَبَلَيْ أَجَأٍ وسَلْمَىٰ لطَيِّءٍ، وينزلون سُفُوحَها ليكونوا أقربَ إلىٰ الاعتصامِ بها عندَ الخوفِ، ويتَّخِذون فيها مراقبَ للحراسةِ[1].

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾

ولمَّا كان الخفضُ لا يكونُ إلَّا بخافضٍ قاهرٍ، كما أنَّ الرَّفعَ كذلك؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[2].

ثم ذكَر الأرضَ التي تُثبِّتُها الجبالُ، فقال: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾.

ثم نزَل بأنظارِهم إلىٰ الأرضِ وهي تحتَ أقدامِهم، وهي مَرْعاهم ومُفْتَرَشُهم، وقد سطَحها اللهُ؛ أي: خلَقها مُمهَّدةً للمشيِ والجلوسِ والاضطجاعِ. وقد عُدَّتْ أشياءُ أربعةٌ هي من النَّاظرين عن كَثَبٍ لا تغيبُ عن أنظارِهم، وعُطف بعضُها علىٰ بعضٍ، فكان اشتراكُها في مَرْآهم جهةً جامعةً بينَها بالنِّسبةِ إليهم، فإنَّهم المقصودون بهذا الإنكارِ والتَّوبيخِ، فالذي حسَّن اقترانَ الإبلِ مع السَّماءِ والجبالِ والأرضِ في الذِّكر هنا: هو أنَّها تنتظمُ في نظرِ جمهورِ العربِ من أهلِ تِهامةَ، والحجازِ، ونجدٍ، وأمثالِها من بلادِ أهلِ الوَبَرِ والانتجاعِ[3].

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١﴾

ولمَّا دَلَّ ما ذُكر من عجائبِ صُنْعِه في أنواعِ المخلوقاتِ من البسائطِ والمركَّباتِ العُلْويَّاتِ والسُّفْليَّاتِ علىٰ كمالِ قدرتِه علىٰ كلِّ شيءٍ، فدَلَّ علىٰ كمالِ قدرتِه علىٰ البعثِ وعلىٰ كُلِّ ما ذُكر أنَّه يفعلُه في الجنَّةِ والنَّارِ، وكان الحثُّ علىٰ النَّظرِ في هذه

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٠٦).
(٢) نظم الدرر (٢٢/ ١٧).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٠٥).

الأشياءِ باستفهامٍ إنكاريٍّ، وكان ذلك مفيدًا لانتفاءِ النَّظرِ؛ قال سبحانه مُسبِّبًا عنه: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾[1].

الفاءُ فصيحةٌ تفريعٌ علىٰ مُحصَّلِ ما سبق من أوَّلِ السورةِ -الذي هو التَّذكيرُ بالغاشيةِ، وما اتَّصَلَ به من ذِكرِ إعراضِهم وإنذارِهم-؛ رتَّب علىٰ ذلك أمرَ اللهِ رسولَه ﷺ بالدَّوامِ علىٰ تذكيرِهم، وأنَّه لا يُؤْيِسُه إصرارُهم علىٰ الإعراضِ وعدمُ ادِّكارِهم بما ألقىٰ إليهم من المواعظِ، وتثبيتَه بأنَّه لا تَبِعةَ عليه من عدمِ إصغائِهم؛ إذ لم يُبعَثْ مُلجِئًا لهم علىٰ الإيمانِ[2].

ثم أمر تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالتَّذكيرِ بهذه الآياتِ ونحوِها، فقال: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾[3].

﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾

لمَّا كان ما علىٰ الرسولِ إلَّا البلاغُ، قال: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾.

ولمَّا وصَفه بأنَّه مُذكِّرٌ، نفىٰ عنه أن يكونَ مُسيطِرًا علىٰ النَّاسِ، فقال: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣﴾

ولمَّا نفىٰ عنهم تَسلُّطَ الدنيا، وكان التقديرُ: فمَن أقبل وآمن فإنَّ اللهَ يُنعِّمُه النَّعيمَ الأكبرَ؛ قال مُستدرِكًا قَسِيمَهم في صورةِ الاستثناءِ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٧-١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٠٦).

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٤٧٥).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ١٩).

﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ثم أجاب الشَّرطَ بقولِه مُسبِّبًا عنه: ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾[(١)].

فأَنتجَ عن كفرِه وتَولِّيه عذابَه، وذلك قولُه: ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾.

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾

ثم علَّل إخبارَه عنه عذابَه في الآخرةِ بقولِه مُؤكِّدًا لِما لهم من التَّكذيبِ: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾[(٢)].

تعليلٌ لجملةِ ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾؛ أي: لستَ مُكلَّفًا بجَبْرِهم علىٰ التَّذكُّرِ والإيمانِ؛ لأنَّا نُحاسِبُهم حينَ رجوعِهم إلينا في دارِ البقاءِ. وقد جاء حرفُ ﴿ إِنَّ ﴾ علىٰ استعمالِه المشهورِ، إذا جِيءَ به لمجرَّدِ الاهتمامِ دونَ ردِّ إنكارٍ، فإنَّه يفيدُ مع ذلك تعليلًا وتَسبُّبًا، كما تقدَّمَ غيرَ مرَّةٍ[(٣)].

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾

ولمَّا كان الحسابُ مُتأخِّرًا عن ذلك كُلِّه، وعظيمًا كَمًّا وكيفًا؛ عظَّمه بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾[(٤)].

عُطِفَتْ جملةُ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ بحرفِ (ثم) لإفادةِ التراخي الرُّتبيِّ؛ فإنَّ حسابَهم هو الغرضُ من إيابِهم، وهو أوقعُ في تهديدِهم علىٰ التولِّي. وهذه الجملةُ هي المقصودُ من التعليلِ قبلها، بمعنىٰ التمهيدِ لها، والإدماجِ لإثباتِ البعثِ، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ تأخيرَ عقابِهم إمهالٌ، فلا يحسبوه انفلاتًا من العقابِ[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٩).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٢٠).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٠٨).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٢٠).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٠٩).

سورة الفجر

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾

ولمَّا ذكَر هذا اليومَ بما العبارةُ به عنه أَدَلُّ علىٰ البعثِ؛ لأنَّه ينفجرُ عن صبحٍ قد أضاء، ونهارٍ قد انبرَم وانقضىٰ، لا فرقَ بينَه وبينَ ما مضىٰ؛ عَمَّ فقال مُعبِّرًا بالمقابلِ: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[1].

ومناسبةُ عطفِ «ليالٍ عشرٍ» علىٰ «الفجرِ»: أنَّ الفجرَ وقتُ انتهاءِ اللَّيلِ، فبينَه وبينَ اللَّيلِ جامعُ المُضادَّةِ، واللَّيلُ مظهرٌ من مظاهرِ القدرةِ الإلهيَّةِ، فلمَّا أُرِيدَ عطفُه علىٰ الفجرِ بقولِه: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾، خُصَّتْ قبلَ ذِكْرِه بالذِّكرِ ليالٍ مباركةٌ؛ إذ هي من أفرادِ اللَّيلِ، وكانت اللَّيالي العشرُ مُعيَّنةً من اللهِ تعالىٰ في شرعِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم غُيِّرتْ مواقيتُها بما أدخله أهلُ الجاهليَّةِ علىٰ السَّنةِ القمريَّةِ من النَّسيءِ، فاضطَرَبَتِ السِّنينُ المقدَّسةُ التي أمر اللهُ بها إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا يُعرَفُ متىٰ بدأ ذلك الاضطرابُ، ولا مقاديرُ ما أُدخِلَ عليها من النَّسيءِ، ولا ما يضبطُ أيَّامَ النَّسيءِ في كلِّ عامٍ؛ لاختلافِ اصطلاحِهم في ذلك وعدمِ ضبطِه، فبذلك يَتعذَّرُ تعيينُ اللَّيالي العشرِ المأمورِ بها من جانبِ اللهِ تعالىٰ، ولكنَّنا نُوقِنُ بوجودِها من خلالِ السَّنةِ إلىٰ أن أوحىٰ اللهُ إلىٰ نبيِّه محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنةِ عشرٍ من الهجرةِ -عامِ حجَّةِ الوداعِ- بأنَّ أشهُرَ الحجِّ في تلك

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٢).

السَّنةِ وافَقتْ ما كانت عليه السَّنةُ في عهدِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال النبيُّ ﷺ في خُطْبتِه في حجَّةِ الوداعِ: «إنَّ الزَّمانَ استدارَ كَهَيْئَتِه يومَ خلَقَ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ»(١)، وهذا التَّغييرُ لا يرفعُ بركةَ الأيَّامِ الجاريةِ فيها المناسكُ قبلَ حجَّةِ الوداعِ؛ لأنَّ اللهَ عظَّمها لأجلِ ما يقعُ فيها من مناسكِ الحجِّ، إذ هو عبادةٌ للهِ خاصَّةٌ(٢).

﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣﴾

ومناسبةُ الابتداءِ بالشَّفعِ: أنَّه اليومُ العاشرُ، فناسَب قولَه: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾، وأنَّ الوترَ يومُ عرفةَ، رواه أحمدُ بنُ حنبلٍ والنَّسائيُّ(٣). وعلىٰ هذا التَّفسيرِ، فذِكرُ الشَّفعِ والوترِ تخصيصٌ لهذينِ اليومينِ بالذِّكرِ للاهتمامِ، بعدَ شمولِ اللَّيالي العشرِ لهما، وتنكيرُ «ليالٍ» وتعريفُ «الشَّفعِ والوترِ» مُشِيرٌ إلىٰ أنَّ اللَّياليَ العشرَ ليالٍ مُعيَّنةٌ، وهي عشرُ ليالٍ في كلِّ عامٍ، وتعريفُ «الشَّفعِ والوترِ» يُؤذِنُ بأنَّهما معروفانِ، وبأنَّهما الشَّفعُ والوترُ من اللَّيالي العشرِ(٤).

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤﴾

ولمَّا كان تَعاقُبُ اللَّيلِ والنَّهارِ أدلَّ علىٰ القدرةِ، وأظهرَ في النِّعمةِ، قال رادًّا لآخِرِ القَسَمِ علىٰ أوَّلِه، ومُذكِّرًا بالنِّعمةِ وكمالِ القدرةِ؛ لأنَّ اللَّيلَ أخفاهما سُرًىٰ وسِرًّا، فهو أعظمُهما في ذلك أمرًا؛ لأنَّ سَيْرَ النَّهارِ ظاهرٌ لسرايتِه، بخلافِ اللَّيلِ فإنَّه محوىٰ صرفِه، فكان أدلَّ علىٰ القدرةِ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٧)، ومسلم (١٦٧٩).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣١٣).

(٣) أخرجه أحمد في "المسند" (١٤٥١١)، والنَّسائي في الكبرىٰ (٤٠٨٦).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣١٤).

(٥) نظم الدرر (٢٢/ ٢٢).

﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ عطفٌ علىٰ «ليالٍ عشرٍ» عطفَ الأعمِّ علىٰ الأخصِّ، أو عطفٌ علىٰ «الفجرِ» بجامعِ التَّضادِّ، وأَقسَمَ به لِما أنَّه مظهرٌ من مظاهرِ قدرةِ اللهِ وبديعِ حكمتِه، والقَسَمُ بهذه الأزمانِ من حيثُ إنَّ بعضَها دلائلُ بديعِ صُنْعِ اللهِ وسَعةِ قدرتِه فيما أَوجَدَ من نظامٍ يُظاهِرُ بعضُه بعضًا، من ذلك: وقتُ الفجرِ الجامعُ بينَ انتهاءِ ظُلْمةِ اللَّيلِ وابتداءِ نورِ النَّهارِ، ووقتُ اللَّيلِ الذي تَمخَّضَتْ فيه الظُّلْمةُ، وهي مع ذلك أوقاتٌ لأفعالٍ من البِرِّ وعبادةِ اللهِ وحدَه؛ مِثلَ اللَّيالي العشرِ، واللَّيالي الشَّفعِ، واللَّيالي الوترِ(١).

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾

لمَّا كان هذا قَسَمًا عظيمًا في ذِكْرِ تلك اللَّيالي، المتضمِّنَ لذِكْرِ المشاعرِ وما فيها من الجموعِ والبكاءِ، وفي تذكيرِه بالبعثِ، ودلالتِه عليه دلالةً عقليَّةً واضحةً بالإيجادِ بعدَ الإعدامِ، مع ما لهذه الأشياءِ في أنفسِها وفي نفوسِ المخاطَبينَ بها من الجلالةِ؛ نبَّهَ علىٰ ذلك ﷻ بقولِه: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾(٢).

جملةٌ مُعترِضةٌ بينَ القَسَمِ وما بعدَه من جوابِه أو دليلِ جوابِه(٣).

ووقَفَ تعالىٰ علىٰ هذه الأقسامِ العِظامِ: هل فيها مَقنَعٌ وحَسْبُ لذي عقلٍ؟ فقال: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾(٤).

تحقيقٌ وتقريرٌ لفخامةِ الأشياءِ المذكورةِ المقسَمِ بها، وكونِها مُستحِقَّةً لِأَنْ تُعظَّمَ بالإقسامِ بها، فيدلُّ علىٰ تعظيمِ المقسَمِ عليه، وتأكيدِه من طريقِ الكنايةِ، فذلك إشارةٌ إلىٰ المقسَمِ به، وما فيه من معنىٰ البُعْدِ لزيادةِ تعظيمِه(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣١٢).
(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٢٤).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣١٦).
(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٤٧٧).
(٥) روح المعاني (١٥/ ٣٣٦).

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ كما هدىٰ إليه السِّياقُ: لَيُبْعَثُنَّ كلُّهم صاغرين ثم لَيُحْشَرُنَّ ثم لَيُحاسَبُنَّ فيُجازَىٰ كلُّ أحدٍ بما عمل، فإنْ آمَنوا بذلك نجَوْا، وإلَّا عذَّبهم الذي ثبَتَتْ قدرتُه علىٰ العذابِ الأكبرِ بعدَ العذابِ الأدنىٰ بسببِ قدرتِه علىٰ البعثِ بسببِ قدرتِه علىٰ ما رأيتم من خلقِ الإبلِ والسَّماءِ والجبالِ والأرضِ علىٰ ما في كلٍّ من العجائبِ بسببِ قدرتِه علىٰ كلِّ شيءٍ، وهذا هو المقصودُ بالذَّاتِ، حُذف زيادةً في تعظيمِه، واعتمادًا علىٰ معرفتِه بما هدىٰ إليه من السِّياقِ في جميعِ السورةِ وما قبلَها، ولما طوىٰ جواب القَسَم لإرشادِ السِّياقِ إليه وتعويلِ المعنىٰ عليه، وتهويلًا له مع العلمِ بأنَّه لا يكونُ قَسَمٌ بغيرِ مُقسَمٍ عليه، وكان قد علمتَ القدرةَ عليه ممَّا أُشِيرَ إليه بالمقسَمِ به، أوضح تلك القدرةَ بأمرِ العذابِ الأدنىٰ للأُمَمِ الماضيةِ، فقال مُخاطِبًا لِمَنْ قال له في آخِرِ تلك: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ تسليةً له ﷺ، وإشعارًا بأنَّه لا يَتدبَّرُه حقَّ تدبُّرِه غيرُه، وتهديدًا لِمَنْ كذَّب من قومِه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾[(١)].

لا يَصلُحُ هذا أن يكونَ جوابًا للقَسَمِ، ولكنَّه إمَّا دليلُ الجوابِ، إذ يدلُّ علىٰ أنَّ المقسَمَ عليه من جنسِ ما فعل بهذه الأُمَمِ الثَّلاثِ؛ وهو الاستئصالُ الدَّالُّ عليه قولُه: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾، فتقديرُ الجوابِ: لَيَصُبَّنَّ ربُّك علىٰ مُكذِّبيكَ سَوْطَ عذابٍ كما صَبَّ علىٰ عادٍ وثمودَ وفرعونَ، وإمَّا تمهيدٌ للجوابِ ومُقدِّمةٌ له إنْ جعلتَ الجوابَ قولَه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾، وما بينَه وبينَ الآياتِ السَّابقةِ اعتراضٌ جُعل كمُقدِّمةٍ لجوابِ القَسَمِ، فالاستفهامُ في قولِه: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تقريريٌّ، والمخاطَبُ به النبيُّ ﷺ تثبيتًا له، ووعدًا بالنَّصرِ، وتعريضًا للمُعانِدين بالإنذارِ بمِثْلِه، فإنَّ ما فُعل بهذه الأُمَمِ الثَّلاثِ موعظةٌ وإنذارٌ للقومِ الذين فعلوا مِثلَ فعلِهم من تكذيبِ رُسُلِ اللهِ، قُصد منه تقريبُ وقوعِ ذلك وتوقُّعُ حلولِه؛ لأنَّ التَّذكيرَ بالنَّظائرِ

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٦).

واستحضارَ الأمثالِ يُقرِّبُ إلىٰ الأذهانِ الأمرَ الغريبَ الوقوعِ؛ لأنَّ بُعْدَ العهدِ بحدوثِ أمثالِه يُنسِيه النَّاس، وإذا نُسِيَ استبعد النَّاسُ وقوعَه، فالتَّذكيرُ يُزِيلُ الاستبعادَ[1].

ثم ذكَر سبحانه علىٰ طريقةِ الاستشهادِ ما وقَع من عذابِه علىٰ بعضِ طوائفِ الكفارِ، بسببِ كفرِهم وعنادِهم وتكذيبِهم للرُّسُلِ؛ تحذيرًا للكُفَّارِ في عصرِ نبيِّنا ﷺ، وتخويفًا لهم أن يُصِيبَهم ما أصابهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾[2].

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾

ثم قال مُبيِّنًا لهم علىٰ حذفِ مُضافٍ: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾[3].

عطفُ بيانٍ لـ«عادٍ» للإشارةِ إلىٰ أنَّ المرادَ بـ«عادٍ»: القبيلةُ التي جَدُّها الأدنىٰ هو عادُ بنُ عوصِ بنِ إِرَمَ؛ وهو «عاد» الموصوفةُ بالأولىٰ في قولِه تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المتحدَّثَ عنهم قبيلةٌ أخرىٰ تُسمَّىٰ «عادًا» أيضًا، كانت تنزلُ مكَّةَ مع العَمالِيقِ، يُقالُ: إنَّهم بقيَّةٌ من «عادٍ الأولىٰ»، وإِرَمُ اسمانِ لقبيلةِ «عادٍ الأولىٰ»[4].

﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾

ولمَّا كان بناءً عاليًا ثابتًا بالأعمدةِ التي لم يكنْ في هذه الدَّارِ مِثلُها؛ ولذا قال: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣١٧).

(٢) فتح القدير (٥/ ٥٢٨).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٢٧).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣١٩).

(٥) نظم الدرر (٢٢/ ٢٧).

صفةٌ أخرىٰ لـ«إرمَ»؛ أي: لم يُخلَقْ مِثلُهم في عِظَمِ الأجرامِ والقُوَّةِ[١].

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾

ولمَّا بدأ بهؤلاءِ لأنَّ أمرَهم كان أعجبَ، وقِصَّتَهم أنزهُ وأغربُ؛ ثنَّىٰ بأقربِ الأُمَمِ إليهم زمانًا، وأشبهِهم بهم شأنًا؛ لأنَّهم أُترِفوا بما حُبُوا به من جنَّاتٍ وعيونٍ، وزروعٍ ونخلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ، فجعَلوا موضعَ ما لَزِمَهم من الشُّكرِ الكفرَ، واستَحَبُّوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ، مع ما في آيتِهم -وهي النَّاقةُ- من عظيمِ الدَّلالةِ علىٰ القدرةِ، فقال: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾[٢].

ثم عطَف سبحانه القبيلةَ الآخِرةَ -وهي ثمودُ- علىٰ قبيلةِ عاد، فقال: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾[٣].

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾

ولمَّا ذكَر القبيلتينِ من العربِ، ذكَر بعضَ مَن جاوَرَهم من طُغاةِ العجمِ؛ لِما في قِصَّتِهم من العُتُوِّ والجبروتِ، مع ما حَوَتْهُ من الغرائبِ وخوارقِ العجائبِ؛ لا سِيَّما في القدرةِ علىٰ البعثِ بقلبِ العصا حيَّةً وإعادتِها جمادًا مع التَّكرُّرِ، وبإيجادِ الضَّفادعِ والقُمَّلِ من كُثْبانِ الأرضِ، وغيرِ ذلك، فقال: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾[٤].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٥٥).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٢٩).

(٣) فتح القدير (٥/ ٥٣٠).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٣٠).

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِى ٱلۡبِلَٰدِ ١١﴾

ولمَّا كان المرادُ بـ«فرعونَ»: هو وجنودَه؛ لأنَّ الرَّأسَ يُكْنَىٰ به عن البدنِ؛ لأنَّه جِماعُه، وبه قِوامُه؛ وصَفَه بوصفٍ يجمعُ قومَه وجميعَ مَن ذُكر هنا، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِى ٱلۡبِلَٰدِ﴾[(١)].

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِى ٱلۡبِلَٰدِ﴾ يجوزُ أن يكونَ شاملًا لجميعِ المذكورين: «عادٍ، وثمودَ، وفرعونَ»، ويجوزُ أن يكونَ نعتًا لـ«فرعونَ»؛ لأنَّ المرادَ: هو وقومُه[(٢)].

﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢﴾

ولمَّا كان بلدُهم من جملةِ البلادِ؛ أي: أرض الأقوام، كان طغيانُهم في بلدِهم قد أَوقَعَ الطُّغيانَ في البلادِ؛ لأنَّ فسادَ البعضِ آئِلٌ إلىٰ فسادِ الجميعِ بسَنِّ سُنَنِ السُّوءِ؛ ولذلك تَسبَّبَ عليه ما فُرِّعَ عنه من قولِه: ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾؛ لأنَّ الطُّغيانَ يُجرِّئُ صاحبَه علىٰ دحضِ حقوقِ النَّاسِ، فهو من جهةٍ يكونُ قدوةَ سوءٍ لأمثالِه ومَلَئِه، فكُلُّ واحدٍ منهم يطغىٰ علىٰ مَن هو دونَه، وذلك فسادٌ عظيمٌ؛ لأنَّ به اختلالَ الشَّرائعِ الإلهيَّةِ والقوانينِ الوضعيَّةِ الصَّالحةِ، وهو من جهةٍ أخرىٰ يُثِيرُ الحفائظَ والضَّغائنَ في المطغيِّ عليه من الرَّعِيَّةِ، فيُضمِرون السُّوءَ للطَّاغِينَ، وتنطوي نفوسُهم علىٰ كراهيةِ ولاةِ الأمورِ وتَربُّصِ الدَّوائرِ بها، فيكونون لها أعداءً غيرَ مُخلِصِي الضَّمائرِ، ويكونُ رجالُ الدَّولةِ مُتوجِّسِينَ منهم خِيفةً، فيَظُنُّون بهم السُّوءَ في كلِّ حالٍ ويَحذَرُونهم، فتَتوزَّعُ قُوَّةُ الأُمَّةِ علىٰ أفرادِها عِوَضَ أن تَتَّحِدَ علىٰ أعدائِها، فتصبحُ للأُمَّةِ أعداءٌ في الخارجِ وأعداءٌ في الدَّاخلِ، وذلك يُفضِي إلىٰ فسادٍ عظيمٍ، فلا جَرَمَ كان الطُّغيانُ سببًا لكثرةِ الفسادِ[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٢١).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٢١).

ثم فسَّر طغيانَهم بقولِه تعالىٰ: ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾[(١)].
فتَسبَّب عن الطُّغيانِ قولُه: ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾

ولمَّا كان ذلك مُوجِبًا للعذابِ، سبَّب عنه قولَه: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾[(٢)].
وكان ما أَكثَروه من الفسادِ سببًا في غضبِ اللهِ عليهم، واللهُ لا يُحِبُّ الفسادَ، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، وكان العذابُ الذي أصاب هؤلاء عذابًا مُفاجِئًا قاضيًا، فأمَّا «عادٌ» فرأَوْا عارِضَ الرِّيحِ فحَسِبوه عارضَ مطرٍ، فما لَبِثُوا حتَّىٰ أطارَتْهم الرِّيحُ كلَّ مطيرٍ، وأمَّا «ثمودُ» فقد أخذَتَهْم الصَّيحةُ، وأمَّا «فرعونُ» فحَسِبوا البحرَ مُنحسِرًا فما راعَهم إلَّا وقد أحاطَ بهم[(٣)].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾

ثم علَّل أخذَه لكُلِّ ظالمٍ، وانتقامَه من كلِّ مُفسِدٍ، بأنَّه رقيبٌ، فقال مُمثِّلًا أنَّ العُصاةَ لا يفوتونه، مُؤكِّدًا تنبيهًا علىٰ أنَّ أعمالَ مَن يُنكِرُ ذلك أو لا يَخطُرُ ببالِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[(٤)].
جملةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ تذييلٌ وتعليلٌ لإصابتِهم بسَوْطِ عذابٍ إذا قُدِّر جوابُ القَسَمِ محذوفًا، ويجوزُ أن تكونَ جوابَ القَسَمِ كما تقدَّم آنفًا، فعلىٰ كونِ الجملةِ تذييلًا تكونُ تعليلًا لجملةِ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ تثبيتًا للنَّبيِّ ﷺ بأنَّ اللهَ ينصرُ رسلَه، وتصريحًا للمُعانِدين بما عرض لهم به من تَوقُّعِ مُعامَلتِه إيَّاهم بمِثْلِ ما

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٥٤).
(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٣٠).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٢٢).
(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٣١).

عامَل به المكذِّبين الأوَّلين؛ أي: إنَّ اللهَ بالمِرصادِ لكُلِّ طاغٍ مُفسِدٍ، وعلىٰ كونِها جوابَ القَسَمِ تكونُ كنايةً عن تسليطِ العذابِ علىٰ المشركين، إذ لا يُرادُ من الرَّصدِ إلَّا دفعُ المعتدي من عدوٍّ ونحوِه، وهو المقسَمُ عليه وما قبلَه اعتراضًا تَفنُّنًا في نظمِ الكلامِ، إذ قُدِّمَ علىٰ المقصودِ بالقَسَمِ ما هو استدلالٌ عليه وتنظيرٌ بما سبق من عقابِ أمثالِهم من الأُمَمِ من قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ...﴾ إلخ، وهو أسلوبٌ من أساليبِ الخطابةِ، إذ يُجعَلُ البيانُ والتَّنظيرُ بمنزلةِ المقدِّمةِ، ويُجعَلُ الغرضُ المقصودُ بمنزلةِ النَّتيجةِ والعِلَّةِ إذا كان الكلامُ صالحًا للاعتبارينِ مع قصدِ الاهتمامِ بالمقدَّمِ والمبادرةِ به(١).

تعليلٌ لِما قبلَه، وإيذانٌ بأنَّ كُفَّارَ قومِه ﷺ سيُصِيبُهم مِثلُ ما أصابَ المذكورين من العذابِ، كما يُنبِئُ عنه التَّعرُّضُ لعنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلىٰ ضميرِه ﷺ(٢).

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ١٥﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه أنَّ عادةَ هؤلاء الفِرَقِ كانت الطُّغيانَ، وذكَر أنَّ عادةَ الرَّبِّ سبحانه فيمَن تولَّىٰ وكفَر أنَّه يُعذِّبُه كما هدَّد به آخِرَ تلك، ودَلَّ علىٰ ذلك بما شُوهِدَ في الأُمَمِ، وعلَّل ذلك بأنَّه لا يَغفُلُ؛ ذكَر عادةَ الإنسانِ من حيثُ هو من غيرِ تقييدٍ بهؤلاء الفِرَقِ عن الابتلاءِ في حالَيِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، فقال مُشِيرًا إلىٰ جوابِ ما كانت الكفارُ تقولُه من أنَّهم آثَرُ عندَ اللهِ من المسلمين، لا يساعدُ عليهم في الدنيا، وتَقلُّلِ الصَّحابةِ رضي الله عنهم من الدنيا، مُسبِّبًا عمَّا مضىٰ عطفًا علىٰ ما تقديرُه: هذه كانت عادةَ هؤلاء الأُمَمِ وعادةَ اللهِ فيهم: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٢٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٥٦).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٣٢).

دلَّتِ الفاءُ علىٰ أنَّ الكلامَ الواقعَ بعدها مُتَّصِلٌ بما قبلها، ومُتفرِّعٌ عليه لا محالةَ. ودلَّت «أمَّا» علىٰ معنىٰ: مهما يكنْ من شيءٍ، وذلك أصلُ معناها ومقتضىٰ استعمالِها، فقَوِيَ بها ارتباطُ جوابِها بما قبلها وقبل الفاءِ المتَّصِلةِ بها، فلاحَ ذلك بَرْقًا وامضًا، وانجلىٰ بلَمْعِه ما كان غامضًا؛ إذ كان تفريعُ ما بعد هذه الفاءِ علىٰ ما قبلها خَفِيًّا، فَلْنُبيِّنْهُ بيانًا جليًّا؛ ذلك أنَّ الكلامَ السابقَ اشتمَل علىٰ وصفِ ما كانت تتمتَّعُ به الأممُ الممثَّلُ بها، ممَّا أنعم اللهُ عليها به من النِّعَمِ، وهم لاهونَ عن دعوةِ رسلِ اللهِ، ومُعرِضون عن طلبِ مرضاةِ ربِّهم، مُقتحِمون المَناكِرَ التي نُهُوا عنها، بَطِرُونَ بالنِّعمةِ، مُعجَبون بعَظَمتِهم، فعقَّب ذِكرَ ما كانوا عليه وما جازاهم اللهُ به عليه من عذابٍ في الدنيا، باستخلاصِ العِبْرةِ؛ وهو تذكيرُ المشركين بأنَّ حالَهم مُماثِلٌ لحالِ أولئك ترفًا وطغيانًا وبطرًا، وتنبيهُهم علىٰ خطئهم، إذْ كانت لهم من حالِ التَّرفِ والنِّعمةِ شبهةٌ توهَّموا بها أنَّ اللهَ جعلهم محلَّ كرامةٍ، فحَسِبوا أنَّ إنذارَ الرسولِ ﷺ إيَّاهم بالعذابِ ليس بصدقٍ؛ لأنَّه يُخالِفُ ما هو واقعٌ لهم من النِّعمةِ، فتوهَّموا أنَّ فعلَ اللهِ بهم أدلُّ علىٰ كرامتِهم عنده ممَّا يُخبِرُ به الرسولُ ﷺ أنَّ اللهَ أمرهم بخلافِ ما هم عليه، ونفوا أن يكونَ بعد هذا العالمِ عالمٌ آخرُ يُضادُّه، وقصَروا عطاءَ اللهِ علىٰ ما عليه عبادُه في هذه الحياةِ الدنيا، فكان هذا الوهَمُ مُسوِّلًا لهم التكذيبَ بما أُنذِروا به من وعيدٍ، وبما يُسَرُّ المؤمنون من ثوابٍ في الآخرة، فحصَروا جزاءَ الخيرِ في الثروةِ والنِّعمةِ، وقصَروا جزاءَ السُّوءِ علىٰ الخَصاصةِ(١) وقَتْرِ الرِّزقِ(٢)، ففاءُ التفريعِ مرتبطةٌ بجملةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ بما فيها من العموم الذي اقتضاه كونُها تذييلًا(٣).

(١) أي: الفقر والحاجة.

(٢) أي: تضييق الرزق.

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٢٤).

لمَّا ذكَر سبحانه أنَّه بالمِرْصادِ، ذكَر ما يدلُّ علىٰ اختلافِ أحوالِ عبادِه عندَ إصابةِ الخيرِ وعندَ إصابةِ الشَّرِّ، وأنَّ مَطمَحَ أنظارِهم ومُعظَمَ مقاصدِهم هو الدنيا، فقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾[1].

﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

وبعدَ أن ذكَر حالَه عندَ النَّعماءِ، ذكَر حالَه عندَ البلاءِ، فقال: ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾.

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا كان نسبةُ هذا إليه توبيخًا وتقريعًا؛ لقصورِ نظرِه، فإنَّ الإقتارَ قد يُؤدِّي إلىٰ سعادةِ الدَّارينِ، والتَّوسِعةَ قد تُؤدِّي إلىٰ شقاوتِهما، وهذا أكثرُ ما يُوجَدُ؛ قال ردعًا عن مثلِ هذا القولِ بأعظمِ أدواتِ الزَّجرِ، مُعلِّلًا للتَّوسِعةِ والإقتارِ: ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾[2].

حرفُ ﴿ كَلَّا ﴾ زجرٌ عن قولِ الإنسانِ: ﴿ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾ عند حصولِ النِّعمة، وقولِه: ﴿ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ عندما ينالُه تقتيرٌ، فهو ردعٌ عن اعتقادِ ذلك، فمناطُ الرَّدعِ كلا القولينِ؛ لأنَّ كلَّ قولٍ منهما صادرٌ عن تأوُّلٍ باطلٍ. ﴿ بَل ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ، والمناسبةُ بين الغرضينِ -المنتقَلِ منه والمنتقَلِ إليه- مناسبةُ المقابلةِ لمضمونِ ﴿ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ ﴾ من جهةِ ما توهَّموه أنَّ نعمةَ مالِهم وسَعةَ عيشِهم تكريمٌ من اللهِ لهم، فنبَّهَهم اللهُ علىٰ أنَّهم إنْ أكرَمَهم اللهُ فإنَّهم لم يُكرِموا عبيدَه شُحًّا بالنِّعمةِ، إذْ حرَموا أهلَ الحاجةِ من فضولِ أموالِهم، وإذْ يستزيدون من المالِ ما لا يحتاجون إليه، وذلك دحضٌ لتفاخُرِهم بالكرمِ والبذلِ، فجملةُ ﴿ لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ استئنافٌ كما يقتضيه الإضرابُ، فهو إمَّا استئنافُ ابتداءِ كلامٍ، وإمَّا اعتراضٌ بينَ ﴿ كَلَّا ﴾ وأختِها[3].

---

(١) فتح القدير (٥/ ٥٣٣).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٣٤).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٣١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عنهم تلك الشُّبهةَ، قال: ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴾[١].

﴿ كَلَّا ﴾ ردعٌ للإنسانِ عن مقالتِه المحكيَّةِ، وتكذيبٌ له فيها في كلتا الحالتينِ، وقولُه تعالىٰ: ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴾ انتقالٌ من بيانِ سوءِ أقوالِه إلىٰ بيانِ سوءِ أفعالِه[٢].

﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾

ولمَّا كان الإنسانُ لا يمنعُه من حثِّ غيرِه علىٰ الخيرِ إلَّا حبُّ الدنيا، إن كان المحثوثُ أعظمَ منه فيدَّخِرُه لحوائجِه، وإن كان مِثلَه فإنَّه يخشىٰ أن يُقارِضَه بذلك فيَحُثُّه علىٰ مسكينٍ آخَرَ، وكان الإحسانُ بالحثِّ علىٰ الإعطاءِ أعظمَ من الإعطاءِ؛ لأنَّه يلزمُ منه الإعطاءُ بخلافِ العكسِ؛ قال: ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴾[٣].

﴿ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ ﴾

ولمَّا دَلَّ علىٰ حُبِّ الدنيا بأمرٍ خارجيٍّ، دَلَّ عليه بأمرٍ في الإنسانِ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴾[٤].

﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك قد يُفعَلُ عن ضرورةٍ مع الكراهةِ، قال ما هو صريحٌ في المقصودِ: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴾[٥].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٥٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٥٦).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٣٥).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٣٦).

(٥) نظم الدرر (٢٢/ ٣٦).

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ ﴾

ولمَّا كان السِّياقُ هاديًا إلىٰ أنَّ التقديرَ: يَحسَبون أنَّ ذلك يُوفِّرُ أموالَهم، ويُحسِّنُ أحوالَهم، ويُصلِحُ بالَهم؛ زجَر عنه بمَجامِعِ الزَّجرِ، فقال: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴾(1).

﴿ كَلَّآ ﴾ زجرٌ وردعٌ عن الأعمالِ المعدودةِ قبلَه، وهي عدمُ إكرامِهم اليتيمَ، وعدمُ حضِّهم علىٰ طعامِ المسكينِ، وأكلُهم التُّراثَ الذي هو مالُ غيرِ آكلِه، وعن حُبِّ المالِ حُبًّا جمًّا. ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ انتُقل به من تهديدِهم بعذابِ الدنيا الذي في قولِه: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ... ﴾ الآياتِ، إلىٰ الوعيدِ بعذابِ الآخرةِ، فإنِ استَخَفُّوا بما حَلَّ بالأممِ قبلَهم، أو أُمهِلوا فأُخِّرَ عنهم العذابُ في الدنيا؛ فإنَّ عذابًا لا مَحِيصَ لهم عنه ينتظرُهم يومَ القيامةِ حينَ يتذكَّرون قسرًا فلا ينفعُهم التَّذكُّرُ، ويندمون ولاتَ ساعةَ مَندَمٍ(2).

﴿ كَلَّآ ﴾ ردعٌ لهم عن ذلك، وقولُه تعالىٰ: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴾ استئنافٌ جِيءَ به بطريقِ الوعيدِ تعليلًا للرَّدعِ(3).

﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ ﴾

ولمَّا دلَّتِ التَّسويةُ علىٰ مجيءِ أمرٍ عظيمٍ، فإنَّ العادةَ في الدنيا أنَّ الطُّرقَ لا تُعَمُّ بالكنسِ أو الرَّشِّ أو التَّسويةِ إلَّا لحضورِ عظيمٍ كالسُّلطانِ؛ قال مُتلطِّفًا بالمخاطَبِ من أواخرِ سورةِ «البُرُوجِ» إلىٰ هنا بذِكرِ صفةِ الإحسانِ علىٰ وجهٍ يُفتِّتُ أكبادَ أضدادِه: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴾(4).

---

(1) نظم الدرر (٢٢/ ٣٧).

(2) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٣٥).

(3) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٥٧).

(4) نظم الدرر (٢٢/ ٣٧).

وإذا وُطِئَتِ الأرضُ وسُوِّيَتْ جبالُها، وقام الخلائقُ من قبورِهم لربِّهم؛ جاء اللهُ تعالىٰ لفصلِ القضاءِ بينَ عبادِه في ظُلَلٍ من الغمامِ، وتجيءُ الملائكةُ الكرامُ أهلُ السماواتِ كلُّهم، وذلك قولُه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾(١).

﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كانت جهنَّمُ لا تأتي بنفسِها؛ لأنَّها لو أتت بنفسِها لربما ظُنَّ أنَّها خارجةٌ عن القدرةِ، بل تقودُها الملائكةُ، فكُلَّما عالَجوها ذهابًا وإيابًا، حصَل للنَّاسِ من ذلك من الهَوْلِ ما لا يعلمُه إلَّا اللهُ تعالىٰ، وكان المَهُولُ نفسَ المجيءِ بها لا تعيينَ الفاعلين؛ لذلك بُني للمفعولِ قولُه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾(٢).

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾

ولمَّا كان النَّدمُ يقتضي أن يعملَ الإنسانُ ما يُنافِيه، بيَّن أنَّه ليس هناك عملٌ إلَّا إظهارَ النَّدمِ، فاستأنَفَ قولَه: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾(٣).

جملةُ ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ يجوزُ أن يكونَ قولًا باللِّسانِ تحسُّرًا وتندُّمًا، فتكونَ الجملةُ حالًا من «الإنسانِ»، أو بدلَ اشتمالٍ من جملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾؛ فإنَّ تذكُّرَه مُشتمِلٌ علىٰ تحسُّرٍ وندامةٍ، ويجوزُ أن يكونَ قولُه في نفسِه، فتكونَ الجملةُ بيانًا لجملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾(٤).

ثم شرَح تعالىٰ ما يقولُه هذا الإنسانُ، فقال تعالىٰ: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾(٥).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٩٢٤).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٣٩).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٤٠).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٣٩).

(٥) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦٠).

﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ بدلُ اشتمالٍ من ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، أو استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ منه، كأنَّه قيل: ماذا يقولُ عندَ تذكُّرِه؟ فقيل: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ (١).

﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥﴾

ولمَّا كان هذا غيرَ نافعٍ له، سبَّب عنه قولَه: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ (٢).

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦﴾

ولمَّا جرت العادةُ بأنَّ المعذَّبَ يُستوثَقُ منه بسجنٍ أو غيرِه، ويُمنَعُ من كلِّ شيءٍ يمكنُ أن يقتلَ به نفسَه؛ خوفًا من أن يهربَ أو يُهلِكَ نفسَه؛ قال: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ (٣).

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾

ولمَّا عُلم أنَّ هذا الجزاءَ المذكورَ لا يكونُ إلَّا للهَلُوعِ الجَزُوعِ، المُضطرِبِ النَّفسِ، الطَّائشِ في حالِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، الذي لا يُكرِمُ اليتيمَ ولا المسكينَ ويُحِبُّ الدنيا، وكان من المعلومِ أنَّ من النَّاسِ مَن ليس هو كذلك؛ تَشوَّفتِ النَّفسُ إلىٰ جزائِه، فشفىٰ عِيَّ هذا التَّشوُّفِ بقولِه، إعلامًا بأنَّه يُقالُ لنفوسِهم عندَ النَّفخِ في الصُّورِ، وبَعْثَرةِ ما في القبورِ للبعثِ والنُّشورِ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ (٤).

لمَّا استوعَبَ ما اقتضاه المقامُ من الوعيدِ والتَّهديدِ والإنذارِ، ختَم الكلامَ بالبشارةِ للمؤمنين الذين تذكَّروا بالقرآنِ واتَّبَعوا هَدْيَه، علىٰ عادةِ القرآنِ في تعقيبِ النِّذارةِ بالبشارةِ والعكسِ، فإنَّ ذلك يزيدُ رغبةَ النَّاسِ في فعلِ الخيرِ، ورهبتَهم من أفعالِ

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٥٨).
(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٤١).
(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٤١).
(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٤٢).

الشَّرِّ. واتِّصالُ هذه الآيةِ بالآياتِ التي قبلَها في التِّلاوةِ وكتابةِ المصحفِ، الأصلُ فيه أن تكونَ نزَلتْ مع الآياتِ التي قبلَها في نَسَقٍ واحدٍ، وذلك يقتضي أنَّ هذا الكلامَ يُقالُ في الآخرةِ، فيجوزُ أن يُقالَ يومَ الجزاءِ، فهو مَقُولُ قولٍ محذوفٍ هو جوابُ ﴿إِذَا﴾ في ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ ...﴾ الآيةَ، وما بينَهما مُستطرَدٌ واعتراضٌ، فهذا قولٌ يَصدُرُ يومَ القيامةِ من جانبِ القُدُسِ من كلامِ اللهِ تعالىٰ أو من كلامِ الملائكةِ، ويجوزُ أن تكونَ الآيةُ استئنافًا ابتدائيًّا جرىٰ علىٰ مناسبةِ ذِكْرِ عذابِ الإنسانِ المشركِ، فتكونَ خطابًا من اللهِ تعالىٰ لنفوسِ المؤمنين المُطمئِنَّةِ(١).

لمَّا وصَف حالَ مَن اطمَأَنَّ إلىٰ الدنيا، وصَف حالَ مَن اطمَأَنَّ إلىٰ معرفتِه وعبوديَّتِه، فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾(٢).

حكايةٌ لأحوالِ مَن اطمَأَنَّ بذِكْرِ اللهِ ﷻ وطاعتِه إثرَ حكايةِ أحوالِ مَن اطمَأَنَّ بالدنيا، وُصِفَتْ بالاطمئنانِ لأنَّها تترقَّىٰ في معارجِ الأسبابِ والمسبَّبات إلىٰ المبدأِ المؤثِّرِ بالذَّاتِ، فتَستقِرُّ دونَ معرفتِه، وتستغني به في وجودِها وسائرِ شؤونِها عن غيرِه بالكُلِّيَّةِ(٣).

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ٢٨﴾

ثم ذكَر ما يُقالُ لها، فقال: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾.

وبعدَ أن أثنىٰ عليها، بشَّرَها بقولِه: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾.

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ٢٩﴾

ثم بيَّن ما أُجمِلَ من الرُّجوعِ، فقال سبحانه: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٤٠).
(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦١).
(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٥٨).
(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٤٣).

وفرَّع علىٰ هذه البشرىٰ الإجماليَّةِ تفصيلَ ذلك بقولِه: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾، فهو تفصيلٌ بعدَ الإجمالِ لتكريرِ إدخالِ السُّرورِ علىٰ أهلِها[1].

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾

وتكريرُ فعلِ ﴿وَٱدۡخُلِي﴾، فلم يَقُلْ: «فادخُلِي جنَّتِي في عبادي»؛ للاهتمامِ بالدُّخولِ بخصوصِه تحقيقًا للمَسَرَّةِ لهم، وإضافةُ «جنَّةٍ» إلىٰ ضميرِ الجلالةِ إضافةُ تشريفٍ، وهذه الإضافةُ هي ممَّا يَزِيدُ الالتفاتَ إلىٰ ضميرِ التَّكلُّمِ حُسْنًا بعدَ طريقةِ الغَيْبةِ بقولِه: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾[2].

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ عطفٌ علىٰ الجملةِ قبلَها، داخلةٌ معَها في حيِّزِ الفاءِ المُفِيدةِ لكونِ ما بعدَها عَقِيبَ ما قبلَها من غيرِ تراخٍ، وكأنَّ الأمرَ بالدُّخولِ في جملةِ عبادِ اللهِ تعالىٰ الصَّالحين إشارةٌ إلىٰ السَّعادةِ الرُّوحانيَّةِ؛ لكمالِ استئناسِ النَّفسِ بالجليسِ الصَّالحِ، والأمرَ بدخولِ الجنَّةِ إشارةٌ إلىٰ السَّعادةِ الجِسْمانيَّةِ، ولفضلِ الأولىٰ علىٰ الثَّانيةِ قُدِّمَ الأمرُ الأوَّلُ، وجِيءَ بالثَّاني علىٰ وجهِ التَّتميمِ، ونُكْتةُ الالتفاتِ فيهما ظاهرةٌ بأدنىٰ التفاتٍ[3].

ولمَّا أمرها بالدُّخولِ في جملةِ عبادِه الصَّالحين، أمرها بالدُّخولِ في جنَّتِه التي أَعَدَّها لهم، فقال: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٤٤).

(٣) روح المعاني (١٥/ ٣٤٦).

سُورَةُ البَلَدِ

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾

ولمَّا عظَّم «البلدَ» بالإقسامِ به، زادَه عِظَمًا بالحالِ به؛ إشعارًا بأنَّ شرفَ المكانِ بشرفِ السُّكَّانِ، وذلك في جملةٍ حاليَّةٍ، فقال: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾[1].

جملةُ ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ مُعترضةٌ بينَ المُتعاطِفاتِ المقسَمِ بها، والواوُ اعتراضيَّةٌ، والمقصودُ من الاعتراضِ يختلفُ باختلافِ مَحمَلِ معنىٰ ﴿وَأَنتَ حِلٌّ﴾، فيجوزُ أن يكونَ ﴿حِلٌّ﴾ اسمَ مصدرِ «أَحَلَّ»؛ أي: أَباحَ، فالمعنىٰ: وقد جعَلك أهلُ مكَّةَ حلالًا بهذا البلدِ الذي يَحرُمُ أذىٰ صيدِه وعَضْدُ[2] شجرِه، وهم مع ذلك يُحِلُّون قتلَك وإخراجَك، قال هذا شُرَحْبيلُ بنُ سعدٍ، فيكونُ المقصودُ من هذا الاعتراضِ التَّعجيبَ من مضمونِ الجملةِ؛ وعليه فالإخبارُ عن ذاتِ الرسولِ ﷺ بوصفِ ﴿حِلٌّ﴾ يُقدَّرُ فيه مُضافٌ يُعيِّنُه ما يَصلُحُ للمقامِ؛ أي: وأنت حلالٌ منك ما حرُم مِن حقِّ ساكنِ هذا البلدِ من الحُرْمةِ والأمنِ، والمعنىٰ التَّعريضُ بالمشركين في عدوانِهم وظلمِهم الرسولَ ﷺ في بلدٍ لا يَظلِمون فيه أحدًا. والمناسبةُ ابتداءُ القَسَمِ بمكَّةَ الذي هو إشعارٌ بحرمتِها المقتضِيةِ حرمةَ مَن يَحِلُّ بها؛ أي: فهم يُحرِّمون أن يتعرَّضوا بأذىٰ

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٤٦-٤٧).

(٢) أي: قَطْع.

للدَّوابِّ، ويَعْتَدُون علىٰ رسولٍ جاءهم برسالةٍ من اللهِ! ويجوزُ أن يكونَ ﴿حِلٌّ﴾ اسمًا مُشتَقًّا من «الحِلِّ» وهو ضِدُّ المنعِ؛ أي: الذي لا تَبِعةَ عليه فيما يفعلُه. قال مجاهدٌ والسُّدِّيُّ: أي: ما صنعتَ فيه من شيءٍ فأنت في حِلٍّ، أو أنت في حِلٍّ ممَّن قاتَلَك أن تُقاتِلَه. فهذا الاعتراضُ تسليةٌ للرَّسولِ ﷺ، قُدِّمتْ له قبلَ ذِكرِ إعراضِ المشركين عن الإسلامِ، ووعد بأنَّه سيُمكِّنُه منهم. وعلىٰ كلا الوجهينِ في مَحمَلِ صفةِ ﴿حِلٌّ﴾ هو خصوصيَّتُه للنَّبيِّ ﷺ، وقد خصَّصه النبيُّ ﷺ بيومِ الفتحِ، فقال: «وإنَّما أُحِلَّتْ لِي ساعةً من نهارٍ ...» الحديث[(١)][(٢)].

أنَّه تعالىٰ لمَّا أَقسَمَ بهذا البلدِ، دَلَّ ذلك علىٰ غايةِ فضلِ هذا البلدِ، ثم قال: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾؛ أي: وأنت مَن حَلَّ هذه البلدةَ المعظَّمةَ المكرَّمةَ، وأهلُ هذا البلدِ يعرفون أصلَك ونَسَبَك وطهارتَك وبراءتَك طولَ عمرِك من الأفعالِ القبيحةِ، فيكونُ الغرضُ شرحَ منصبِ رسولِ اللهِ ﷺ بكونِه من هذا البلدِ[(٣)].

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ إمَّا لتشريفِه عليه الصلاة والسلام بجعلِ حلولِه به مناطًا لإعظامِه بالإقسامِ به، أو للتنبيهِ من أوَّلِ الأمرِ علىٰ تحقُّقِ مضمونِ الجوابِ بذِكْرِ بعضِ موادِّ المُكابَدةِ علىٰ نهجِ براعةِ الاستهلالِ، وبيان أنَّه عليه الصلاة والسلام -معَ جلالةِ قدرِه وعِظَمِ حرمتِه- قد استَحَلُّوه في هذا البلدِ الحرامِ، وتعرَّضوا له بما لا خيرَ فيه، وهَمُّوا بما لم ينالوا. عن شُرَحْبِيلَ: «يُحرِّمون أن يقتلوا بها صيدًا ويَعضُدوا بها شجرةً، ويَستحِلُّون إخراجَك وقتلَك». أو لتسليتِه عليه الصلاة والسلام بالوعدِ بفتحِه، علىٰ معنىٰ: وأنت حِلٌّ به في المستقبلِ تصنعُ فيه ما تريدُ من القتلِ والأَسْرِ، وقد كان كذلك حيثُ أحلَّ له عليه الصلاة والسلام مكَّةَ وفتَحَها عليه، وما فُتِحَتْ

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢)، ومسلم (١٣٥٣).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ٤٧٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦٥).

علىٰ أحدٍ قبلَه ولا أُحِلَّتْ له؛ فأَحَلَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيها ما شاء وحرَّم ما شـاء، قتَل ابـنَ خطـلٍ وهو مُتعلِّقٌ بأستارِ الكعبةِ، ومقيسَ بنَ صبابةَ، وغيرَهما[(١)].

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾

ولمَّا أَفهَمَتْ هذه الحالُ أنَّ القَسَمَ إنَّما هو في الحقيقةِ به ﷺ، كـرَّر الإقسـامَ بـه علـىٰ وجهٍ يشملُ غيرَه، فقال: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾[(٢)].

﴿وَوَالِدٍ﴾ وقَع مُنكَّرًا، فهـو تنكيرُ تعظيمٍ؛ إذ لا يحتمـلُ غيـرَ ذلـك في سياقِ القَسَـمِ، فتعيَّن أن يكونَ المـرادُ والـدًا عظيمًـا، والـرَّاجحُ عمـلُ والـدٍ علـىٰ المعنـىٰ الحقيقـيِّ، بقرينةِ قولِه: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾، والذي يُناسِـبُ القَسَـمَ بهـذا البلـدِ أن يكـونَ المـرادُ بـ«والـدٍ» إبـراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنـه الـذي اتَّخـذَ ذلـك البلـدَ لإقامـةِ ولـدِه إسـماعيلَ وزَوْجِـه هـاجرَ، وإبـراهيمُ والـدُ سُـكَّانِ ذلـك البلـدِ الأصـليِّين، ولأنَّـه والـدُ محمـدٍ ﷺ، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ موصولٌ وصِلَةٌ، والضَّميرُ المُستتِرُ في ﴿وَلَدَ﴾ عائدٌ إلىٰ «والدٍ»، والمقصودُ: وما ولَده إبراهيمُ من الأبناءِ والذُّرِّيَّةِ، وذلك مخصوصٌ بالـذين اقتفَـوْا هَدْيَـه، فيشـملُ محمـدًا ﷺ. وفي هذا تعريضٌ للتنبيهِ بالمشركين من ذُرِّيَّـةِ إبـراهيمَ بـأنَّهم حـادُوا عـن طريقـةِ أبيهم من التَّوحيدِ، والصَّلاحِ، والدَّعوةِ إلىٰ الحقِّ، وعمارةِ المسجدِ الحرامِ[(٣)].

أمَّـا قولُـه: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾؛ فـاعلَمْ أنَّ هـذا معطـوفٌ علـىٰ قولِـه: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾، والوالـدُ آدمُ، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ ذُرِّيَّتُـه، أَقسَـمَ بهـم إذْ هـم مـن أعجـبِ خلـقِ اللهِ علـىٰ وجـهِ الأرضِ؛ لِما فيهم مـن البيـانِ والنُّطقِ والتَّدبيرِ واستخراجِ العلومِ، وفيهم الأنبياءُ والـدُّعاةُ إلىٰ اللهِ تعـالىٰ والأنصـارُ لدينِـه، وكـلُّ مـا في الأرضِ مخلـوقٌ لهـم، وأمَـر

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٦٠).
(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٤٨).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٤٩).

الملائكةَ بالسُّجودِ لآدمَ، وعلَّمه الأسماءَ كلَّها، فيكونُ القَسَمُ بجميعِ الآدميِّين صالحِهم وطالحِهم، لِما ذكَرْنا من ظهورِ العجائبِ في هذه البنيةِ والتَّركيبِ. وقيل: هو قَسَمٌ بآدمَ والصَّالحين من أولادِه؛ بناءً علىٰ أنَّ الطَّالحين كأنَّهم ليسوا من أولادِه، وكأنَّهم بهائمُ(١).

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾

ولعلَّه خصَّ هذه الأشياءَ بالإقسامِ تسليةً للنَّبيِّ ﷺ، وتثبيتًا له علىٰ احتمالِ الأذىٰ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ مَن كان قد حُكم عليه بأنَّه لا يزالُ في نكَدٍ، كان الذي ينبغي له أن يختارَ أن يكونَ ذلك النَّكدُ فيما يُرضِي الله ﷻ؛ وذلك لأنَّ النبيَّ ﷺ كان في مكَّةَ المشرَّفةِ في أعظمِ شِدَّةٍ ممَّا يُعانيه من أذىٰ الكفارِ في نفسِه وأصحابِه ﵃؛ لعُلُوِّ مقامِه، فإنَّ شِدَّةَ البلاءِ للأمثلِ فالأمثلِ كما مضىٰ، مع أمرِه ﷺ بالصَّبرِ والصَّفحِ، وكلُّ والدٍ ومولودٍ في شِدَّةٍ بالوالديَّةِ والمولوديَّةِ، وغير ذلك ممَّا لا يُحصَىٰ من الأنكادِ البشريَّةِ، من حينِ هو نُطْفةٌ في ظُلُماتٍ ثلاثٍ؛ في ضِيقِ مَمَرٍّ ومَقَرٍّ، ثم ولادةٍ وربطٍ في تابوتٍ وفِطامٍ عن الإلفِ والأهلِ من المؤدِّبِ والمعلِّمِ وتوبيخٍ من المشايخِ ومُعانَدةٍ من الأقرانِ، ومَن يَتسلَّطُ عليه من النِّسوانِ، مع أنَّه عُرْضةٌ للأمراضِ، وسائرِ ما يكرهُ من الأعراضِ والأغراضِ، والفاقاتِ والنَّوائبِ والآفاتِ، والمطالبِ والحاجاتِ، لا يحظىٰ بهواه، ولا يَبلُغُ مُناه، ولا يُدرِكُ ما اجتَباه، ولا ينجو غالبًا ممَّا يخشاه، وتفاصيلُ هذا الإجمالِ لا تُحصَىٰ، ولا حدَّ لها فتُستقصَىٰ، إلىٰ الموتِ وما بعدَه؛ فلذلك كان المُقسَمُ عليه قولَه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾(٢).

جملةُ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ جوابُ القَسَمِ، وهو الغرضُ من السورةِ(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦٥).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٥٠).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٥٠).

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ٥﴾

ولأجلِ ما عُلم من كونِ الإنسانِ لا يزالُ في نكَدٍ وشِدَّةٍ ونَصَبٍ؛ من حيث احتياجُه أوَّلًا إلىٰ مُطلَقِ الحركةِ والسُّكونِ، وثانيًا إلىٰ المأكلِ والمشربِ، وثالثًا إلىٰ ما يترتَّبُ عليهما، إلىٰ غيرِ ذلك ممَّا يُعيِي عَدُّه ويُجهَلُ حدُّه؛ توجَّه الإنكارُ في قولِه تعالىٰ بيانًا للأسبابِ المُوقِعةِ له في النَّكدِ؛ وهي شهوتانِ: نفسيَّةٌ وحِسِّيَّةٌ، والنَّفسيَّةُ مُنحصِرةٌ في أربعٍ: الأولىٰ أنَّه يشتهي أن يكونَ كلُّ مَن في الوجودِ في قبضتِه، فأشار إليها ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾(١).

هذه الجملةُ بدلُ اشتمالٍ من جملةِ ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والتَّخطئةِ(٢).

﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦﴾

ولمَّا كان الإنسانُ لا يفتخرُ بالإنفاقِ إلَّا إذا أفضىٰ إلىٰ الإملاقِ، فعُلم أنَّ مرادَ الإشارةِ إلىٰ أنَّ معَه أضعافَ ما أنفق من حيثُ إنَّه حقَّره بلفظِ الإهلاكِ، إشارةً إلىٰ الثَّانيةِ والثَّالثةِ من شهواتِه النَّفسيَّةِ؛ وهما: إرادتُه أن يكونَ له الفَخارُ والامتنانُ علىٰ جميعِ الموجوداتِ، وإرادتُه أن يكونَ عندَه من الأموالِ ما لا تُحِيطُ به الأفكارُ، ولا تحويه الأقطارُ؛ كما يُشيرُ إليه حديثُ: «لو أنَّ لابنِ آدمَ وادٍ من ذهبٍ»، و«لا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلَّا التُّرابُ»(٣)؛ علَّل ﷻ جهلَه في حسابِه ذلك وما تَبِعَه بقولِه: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٥١).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٣٩).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٥٣-٥٤).

أُعقِبَتْ مَساوِي نفسِه بمَذامِّ أقوالِه؛ وهو التَّفخُّرُ الكاذبُ، والتَّمدُّحُ بإتلافِ المالِ في غيرِ صلاحٍ، وقد كان أهلُ الجاهليَّةِ يتبجَّحون بإتلافِ المالِ، ويَعُدُّونه مَنقَبةً؛ لإيذانِه بقِلَّةِ اكتراثِ صاحبِه به[(١)].

ثم أَخبَر سبحانه عن مقالِ هذا الإنسانِ، فقال: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾[(٢)].

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ٧﴾

ولمَّا كان الشَّيءُ لا يُعنَىٰ إلَّا إذا كان مجهولًا ولو من بعضِ الجهاتِ، أنكَر عليه هذا الظَّنَّ علىٰ تقديرِ وقوعِه، فإنَّه لا يُوصَلُ إلىٰ ما ظنَّه إلَّا به، بقولِه مُشِيرًا إلىٰ شهوتِه النفسيَّةِ الرابعة؛ وهي أن تكونَ أمورُه مستورةً فلا يظهرَ علىٰ غيِّه أحدٌ أصلًا: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ بدلُ اشتمالٍ من جملةِ ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ يصدرُ منه وهو يحسبُ أنَّه راجَ كذبُه علىٰ جميعِ النَّاسِ وهو لا يخلو من ناسٍ يَطَّلِعون علىٰ كذبِه، والاستفهامُ إنكارٌ وتوبيخٌ، وهو كنايةٌ عن علمِ اللهِ تعالىٰ بدَخِيلَتِه، وأنَّ افتخارَه بالكرم باطلٌ[(٤)].

ثم قال اللهُ مُتوعِّدًا هذا الذي يفتخرُ بما أنفق في الشَّهواتِ: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾[(٥)].

﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨﴾

ولمَّا أنكر عليه ﷻ هذه النَّقائصَ، قرَّره علىٰ ما أوجب شهوتَه الحِسِّيَّةَ المتفرِّعةَ إلىٰ أنواعٍ بما يستلزمُ أن يكونَ فاعلُه له المانُّ عليه به من بعضِ فيضِه، عالمًا بجميعِ أمرِه،

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٥٢).

(٢) فتح القدير (٥/ ٥٤٠).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٥٤).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٥٣).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٩٢٥).

قادرًا علىٰ نفعِه وضُرِّه بنفسِه وبمَن أراد من جندِه، فقال مُشِيرًا إلىٰ ما يترتَّبُ علىٰ نظرِ العينِ الباصرةِ الجائلةِ في العالمِ الحِسِّيِّ، ونظرِ عينِ البصيرةِ الجائلةِ في العالمِ المعنويِّ من شهوتِه أن يحصلَ علىٰ كلِّ ما يراه بعينِ باصرتِه ويعلمَه بعينِ بصيرتِه من مليحٍ، ويخلص من كلِّ ما يراه من قبيحٍ، ومُذكِّرًا له بما كان يجبُ عليه من الشُّكرِ باستعمالِ هذه المشاعرِ فيما شرع له، وكفِّها عمَّا منع اللهُ منه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾[(١)].

تعليلٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ في قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، أو قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾؛ أي: هو غافلٌ عن قدرةِ اللهِ تعالىٰ، وعن علمِه المحيطِ بجميعِ الكائناتِ، الدَّالِّ عليهما أنَّه خلق مشاعرَ الإدراكِ التي منها العينانِ، وخلق آلاتِ الإبانةِ وهي اللِّسانُ والشَّفتانِ، فكيف يكونُ مُفيضُ العلمِ علىٰ النَّاسِ غيرَ قادرٍ وغيرَ عالمٍ بأحوالِهم؟! والاقتصارُ علىٰ العينينِ لأنَّهما أنفعُ المشاعرِ، ولأنَّ المعلَّلُ إنكارُ ظنِّه أن لم يَرَهُ أحدٌ[(٢)].

لمَّا حكىٰ عن ذلك الكافرِ قولَه: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، أقام الدَّلالةَ علىٰ كمالِ قدرتِه، فقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾[(٣)].

ثم عدَّد تعالىٰ علىٰ الإنسانِ نِعَمَه، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾[(٤)].

﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾

ولمَّا قدَّره سبحانه علىٰ ما ينشأُ عنه شهوتا تحصيلِ المليحِ ونفي القبيحِ، أَتبَعَ ذلك ما ينشأُ عنه شهوتا الأمرِ والنَّهيِ وأنواعِ الكمالاتِ الكماليَّةِ، فقال: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٥٥-٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٥٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦٧).

(٤) البحر المحيط (١٠/ ٤٨٢).

(٥) نظم الدرر (٢٢/ ٥٦).

وذكَر الشَّفَتينِ مع اللِّسانِ لأنَّ الإبانةَ تَحصُلُ بهما معًا، فلا ينطقُ اللِّسانُ بدونِ الشَّفتينِ، ولا تنطقُ الشَّفتانِ بدونِ اللِّسانِ(١).

﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠ ﴾

ولمَّا كان للهِ تعالىٰ علىٰ كلِّ أحدٍ في كلِّ لمحةٍ مِنَّةٌ جديدةٌ في إبقاءِ هذه الآلاتِ الثَّلاثِ، عبَّر فيها بالمضارعِ، ولمَّا كانت النِّعمةُ في العقلِ إنَّما هي بهِبَتِه أوَّلًا ثم بحَمْلِه به علىٰ الخيرِ ثانيًا، وكان أمرُه خَفِيًّا، وكان من المعلومِ أنَّ كلَّ أحدٍ غيرُ مَهْديٍّ في كلِّ حركاتِه وسكناتِه إلىٰ ما يُسعِدُه، بل كان هذا المنكرُ عليه لم يُؤهَّلْ لطريقِ الخيرِ؛ اختِيرَ له لفظُ الماضي لذلك تحقيقًا لكونِه وجعله غريزةً لا تتحوَّلُ وطبيعةً لا تتبدَّلُ، بل هي غالبةٌ علىٰ صاحبِها، قائدةٌ إلىٰ مَضارِّه، أو مَحابِّه ومَسارِّه وإنْ كَرِهَ، وهو السَّببُ الذي يكونُ به الخلاصُ من شرِّ تلك الأنكادِ في دارِ الإسعادِ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴾(٢).

وأَعقَبَ ما به اكتسابُ العلمِ، وما به الإبانةُ عن المعلوماتِ، بما يُرشِدُ الفكرَ إلىٰ النَّظرِ والبحثِ؛ وذلك قولُه: ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴾، فاستكمَلَ الكلامُ أصولَ التَّعلُّمِ والتَّعليمِ، فإنَّ الإنسانَ خُلق مُحِبًّا للمعرفةِ، مُحِبًّا للتَّعريفِ بمشاعرِ الإدراكِ، يكتسبُ المشاهداتِ وهي أصولُ المعلوماتِ اليقينيَّةِ، وبالنطقِ يفيدُ ما يُعلِّمُه لغيرِه، وبالهُدَىٰ إلىٰ الخيرِ والشَّرِّ يُميِّزُ بينَ معلوماتِه ويُمحِّصُها.

ثم قال في نِعَمِ الدِّينِ: ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٥٤).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٥٧).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٩٢٥).

﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ ﴾

ولمَّا كان معنىٰ ما مضىٰ أنَّ هذا الإنسانَ عاجزٌ وإنْ تناهَتْ قُوَّتُه، وبلَغتِ الذِّروةَ قدرتُه، وأنَّه معلومٌ جميعُ أمرِه، مفضوحٌ في سِرِّه كما هو مفضوحٌ في جهرِه، فهو موصولٌ إليه، مقدورٌ عليه، وأنَّه كان يجبُ عليه الشُّكرُ علىٰ ما جعل له ﷻ من القوىٰ التي جعلها لسوءِ كسبِه آلاتٍ للكفرِ؛ سبَّب ﷻ عنه قولَه تفصيلًا للأشياءِ المُوصِلةِ إلىٰ الرَّاحةِ في العُقبَىٰ، نافيًا لفعلِها عنه علىٰ سبيلِ الحقيقةِ دلالةً علىٰ عجزِه: ﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴾[1].

يجوزُ أن يكونَ ﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴾ تفريعَ إدماجٍ بمناسبةِ قولِه: ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠ ﴾؛ أي: هَدَيْناه الطَّريقينِ، فلم يَسلُكْ النَّجْدَ المُوصِلَ إلىٰ الخيرِ، ويجوزُ أن يكونَ تفريعًا علىٰ جملةِ ﴿ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦ ﴾، وما بينَهما اعتراضًا، وتكونُ ﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ ﴾ استفهامًا حُذف منه أداتُه، وهو استفهامُ إنكارٍ، والمعنىٰ: أنَّه يدَّعِي إهلاكَ مالٍ كثيرٍ في الفسادِ من مَيْسِرٍ وخمرٍ ونحوِ ذلك، أَفَلا أَهلَكَه في القُرَبِ والفضائلِ؛ بفَكِّ الرِّقابِ، وإطعامِ المساكينِ في زمنِ المجاعةِ، فإنَّ الإنفاقَ في ذلك لا يخفىٰ علىٰ النَّاسِ، خلافًا لِما يَدَّعِيه من إنفاقٍ[2].

ثم إنَّه ﷻ دَلَّ عبادَه علىٰ الوجوهِ الفاضلةِ التي تُنفَقُ فيها الأموالُ، وعرَّف هذا الكافرَ أنَّ إنفاقَه كان فاسدًا وغيرَ مفيدٍ، فقال تعالىٰ: ﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٥٩).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٥٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦٨).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢﴾

ولمَّا بيَّن أنَّه لا خلاصَ من النَّكدِ إلَّا بهذا الاقتحامِ، شرَع في تفسيرِ «العَقَبةِ» بادئًا بتهويلِ أمرِها لعظيمِ قدرِها، فقال مُعبرًا بالماضي الذي جَرَتْ عادةُ القرآنِ بأنَّه إذا عبَّر به شرَح المُستفهَمَ عنه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾[1].

قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ حالٌ من «العَقَبةِ» في قولِه: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾؛ للتَّنويهِ بها، وأنَّها لأهمِّيَّتِها يسألُ عنها المخاطَبُ: هل أَعلَمَه مُعلِّمٌ ما هي؟ أي: لِمَ يقتحمِ العَقَبةَ في حالِ جدارتِها بأن تُقتحَمَ؟ وهذا التَّنويهُ يفيدُ التَّشويقَ إلىٰ معرفةِ المرادِ من «العَقَبةِ»[2].

ثم عظَّم اللهُ تعالىٰ أمرَ «العَقَبةِ» في النُّفوسِ بقولِه سبحانه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾[3].

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣﴾

فلمَّا تفرَّغ القلبُ بالاستفهامِ عمَّا لا يعرفُه، وكان الإنسانُ أشهىٰ ما إليه تَعرُّفُ ما أَشكَلَ عليه، فتَشوَّفَتِ النُّفوسُ إلىٰ علمِها، قال مُشِيرًا إلىٰ الأولىٰ اِلتي هي العِفَّةُ التي ثمرتُها السَّخاءُ وإصلاحُ قُوَّةِ الشَّهوةِ، مُعبِّرًا بالفكِّ الذي هو أدنىٰ ما يكونُ من العتقِ؛ لأنَّه الإعانةُ فيه ولو بما قَلَّ، كما ورد في حديثِ البراءِ ﵁: «أَعتِقِ النَّسَمَةَ، وفُكَّ الرَّقَبَةَ»[4]، وعتقُها أن تفردَ به، وفكُّها أن تُعِينَ في ثمنِها، وفُسِّرَ المرادُ بهذه «العَقَبةِ» بما دلَّ علىٰ مُعادِلٍ، لا كما يأتي تعيينُ تقديرِه، فإنَّها لا تُستعمَلُ إلَّا مُكرَّرةً، قال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٦١).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٥٧).

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٤٨٥).

(٤) أخرجه أحمد في "المسند" (١٨٦٤٧).

(٥) نظم الدرر (٢٢/ ٦٢).

ثم بيَّن سبحانه «العَقَبَةَ»، فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾(١).

﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤﴾

ثم فسَّر «العَقَبَةَ» بأمرٍ آخَرَ؛ وهو إخراجُ المالِ في وقتِ القحطِ والضَّرورةِ، فقال: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾.

﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥﴾

ثم خصَّص أصنافًا مُعيَّنَةً للإطعامِ، فذكَر الصِّنفَ الأوَّلَ، فقال: ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾.

﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦﴾

ثم ذكَر الصِّنفَ الثَّانيَ، فقال: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾.

ولـمَّا ذكَر معدومَ الأبِ، ذكَر معدومَ المالِ، فقال: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾

ولـمَّا كانت هذه الأفعالُ خيرًا في نفسِها، تدلُّ على جودةِ الطَّبعِ، وعُلُوِّ الهِمَّةِ، وكرمِ العنصرِ، وإباءِ النَّفسِ؛ إشارةً إلى شِدَّةِ حُسْنِها؛ لأنَّه لا يُوفَّقُ لها إلَّا مُخلِصٌ، وإنْ كان غيرَ مُستنِدٍ إلى شرعٍ، وإلى ما يُفيدُه من سلاسةِ الطَّبعِ، وسهولةِ الانقيادِ، وإلى عَظَمةِ الإيمانِ، بالتعبيرِ بأداةِ التَّراخي في قولِه مُشيرًا إلى العَقَبةِ الثَّانيةِ؛ وهي الحكمةُ المزكِّيةُ للقُوَّةِ النُّطقيَّةِ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾(٢).

---

(١) فتح القدير (٥/ ٥٤١).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٦٣).

جملةُ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾، و﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ، فتدلُّ على أنَّ مضمونَ الجملةِ المعطوفةِ بها أرقى رتبةً في الغرضِ المَسُوقِ له الكلامُ من مضمونِ الكلامِ المعطوفةِ عليه، فيصيرُ تقديرُ الكلامِ: فلا اقتحَم العَقَبَةَ بفَكِّ رقبةٍ أو إطعامٍ بعدَ كونِه مؤمنًا؟ وفي فعلِ ﴿كَانَ﴾ إشعارٌ بأنَّ إيمانَه سابقٌ على اقتحامِ «العَقَبةِ» المطلوبةِ فيه بطريقةِ التَّوبيخِ على انتفائِها عنه(١).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا كان ذلك من معالي الأخلاقِ، ومُوجِباتِ الفواقِ والوفاقِ؛ كانت نتيجتُه لا محالةَ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾(٢).

لمَّا نوَّه بالذين آمنوا، أَعقَبَ التَّنويهَ بالثَّناءِ عليهم وبشارتِهم مُفتتِحًا باسمِ الإشارةِ لتمييزِهم أكملَ تمييزٍ لإحضارِهم بصفاتِهم في ذِهْنِ السَّامعِ، مع ما في اسمِ الإشارةِ من إرادةِ التَّنويهِ والتَّعظيمِ(٣).

لمَّا وصَف هؤلاء المؤمنين، بيَّن أنَّهم مَن هم في القيامةِ، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾(٤).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا أرشد السِّياقُ لمعادلةِ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ إلى أنَّ التقديرَ: ولا أَحجَمَ عن المَعطَبةِ، التي هي الأفعالُ المُوجِبةُ للمَعتَبةِ، مع كونِها مُتعِبةً؛ بل قطَع مَن يستحقُّ

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٦٠).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٦٦).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٦٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٧١).

الوصلَ، ووصَل مَن يستأهلُ القطعَ، ثم كان من الذين كفروا وتَواصَوْا بالمَلْأَمةِ، واكتَسَبوا السَّيِّئاتِ، واتَّبَعوا الشَّهواتِ، وعاملوا بالقسوةِ؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾[1].

جملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ تتميمٌ لِما سِيقَ من ذَمِّ الإنسانِ المذكورِ آنفًا؛ إذ لم يُعقِبْ ذَمَّه هنالك بوعيدِه عنايةً بالأهمِّ، وهو ذِكرُ حالةِ أضدادِه ووعدهم، فلمَّا قُضي حقُّ ذلك، ثُني العنانُ إلىٰ ذلك الإنسانِ، فحصل من هذا النَّظمِ البديعِ مُحسِّنُ ردِّ العَجُزِ علىٰ الصَّدرِ، ومُحسِّنُ الطِّباقِ بينَ «الميمنةِ» و«المشأمة»[2].

﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾

ولمَّا كان معنىٰ هذا أنَّهم في الجانبِ الذي فيه الشُّؤمُ والهَلَكةُ، والبُعْدُ من كلِّ بركةٍ؛ أَنتجَ قولَه: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾[3].

جملةُ ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ بدلُ اشتمالٍ من جملةِ ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾، أو استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن الإخبارِ عنهم بأنَّهم أصحابُ المشأمةِ، و﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾، وقُدِّمَ علىٰ عاملِه للاهتمامِ بتَعلُّقِ الغلقِ عليهم تعجيلًا للتَّرهيبِ[4].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٦٣).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٦٨).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٦٣).

سورة الشمس

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢﴾

ولمَّا افتتَح بذِكْرِ آيةِ النَّهارِ، أَتبعَه ذِكرَ آيةِ اللَّيلِ، فقال: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾(١).

والقمرُ يتبعُ الشَّمسَ في أحوالٍ كثيرةٍ؛ منها استهلالُه، فالهلالُ يظهرُ للنَّاظِرين عَقِبَ غروبِ الشَّمسِ، ثم يبقىٰ كذلك ثلاثَ ليالٍ، وهو أيضًا يتلو الشَّمسَ حينَ يُقارِبُ الابتدارَ وحينَ يصيرُ بدرًا، فإذا صار بدرًا، صار تُلُوُّه الشَّمسَ حقيقةً؛ لأنَّه يظهرُ عندَما تَغرُبُ الشَّمسُ، وقريبًا من غروبِها قبلَه أو بعدَه، وهو أيضًا يضيءُ في أكثرِ ليالي الشَّهرِ، جعَله اللهُ عِوَضًا عن الشَّمسِ في عِدَّةِ ليالٍ في الإنارةِ؛ ولذلك قُيِّدَ القَسَمُ بحينِ تُلُوِّه؛ لأنَّ تُلُوَّه للشَّمسِ حينَئذٍ تظهرُ منه مظاهرُ التُّلُوِّ للنَّاظِرين، فهذا الزَّمانُ مِثلُ زمانِ الضُّحىٰ في القَسَمِ به، فكان بمنزلةِ قَسَمٍ بوقتِ تُلُوِّه الشَّمسَ، فحصَل القَسَمُ بذاتِ القمرِ وبتُلُوِّه الشَّمسَ. وفي الآيةِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ نورَ القمرِ مُستفادٌ من نورِ الشَّمسِ؛ أي: من تَوجُّهِ أشعَّةِ الشَّمسِ إلىٰ ما يقابلُ الأرضَ من القمرِ، وليس نيِّرًا بذاتِه، وهذا إعجازٌ علميٌّ من إعجازِ القرآنِ. وابتُدِئَ بالشَّمسِ لمناسبةِ المقامِ إيماءً للتَّنويهِ بالإسلامِ؛ لأنَّ هَدْيَه كنورِ الشَّمسِ لا يتركُ للضَّلالِ مسلكًا، وفيه إشارةٌ إلىٰ الوعدِ بانتشارِه في العالمِ كانتشارِ نورِ الشَّمسِ في الأُفُقِ، وأُتبِعَ بالقمرِ لأنَّه يُنِيرُ في الظَّلامِ كما أنارَ الإسلامُ في ابتداءِ ظهورِه في ظُلْمةِ الشِّركِ(٢).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٦٧).

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣﴾

ولمَّا ذكر الآيتينِ، ذكر ما هما آيتاه، وبدأ بهما لأنَّه لا صلاحَ له إلَّا بهما، كما أنَّه لا صلاحَ للبدنِ إلَّا بالنَّفسِ والعقلِ، فقال: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾(١).

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾

ولمَّا ذكر مَعدِنَ الضِّياءِ، ذكر محلَّ الظَّلامِ، فقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾(٢).

أَعقَبَ القَسَمَ بالنَّهارِ بالقَسَمِ باللَّيلِ؛ لأنَّ اللَّيلَ مُقابِلُ وقتِ النَّهارِ، فهو وقتُ الإظلامِ(٣).

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥﴾

ولمَّا ذكَر الآيتينِ ومحلَّ أثرِهما، ذكَر محلَّ الكُلِّ، فقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾(٤).

﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦﴾

ولمَّا ذكَر البناءَ، ذكَر المِهادَ، فقال: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾(٥).

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧﴾

ولمَّا أتمَّ الإشارةَ إلى النُّفوسِ لأهلِ البصائرِ، صرَّح بالعبارةِ لِمَنْ دونَهم، فقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾(٦).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٧١).
(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٧١).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٦٨).
(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٧٢).
(٥) نظم الدرر (٢٢/ ٧٣).
(٦) نظم الدرر (٢٢/ ٧٥).

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾

ولمَّا كان أعجبُ أمورِها الفجورَ؛ لِما غلَّب سبحانه عليها من الحظوظِ والشَّهواتِ، وهي تعلمُ -بما لها من زاجرِ العقلِ بصحيحِ النَّقلِ- أنَّ الفجورَ أقبحُ القبيحِ، والتَّقوىٰ لِما أقامَ عليها من ملكِ العقلِ المَلَكيِّ، وغريزةِ العلمِ النُّورانيِّ أحسنُ الحسنِ، وتذوق أنَّ الفجورَ أشهىٰ شهي، وأنَّ التقوىٰ أمرُّ شيءٍ وأصعبُه، وأثقلُه وأتعبُه؛ قال مُعلِمًا أنَّ هذا لا يقدرُ عليه سواه؛ لأنَّه أعجبُ من جميعِ ما مضىٰ؛ لأنَّ البهيمةَ لا تُقدِمُ علىٰ ما يَضُرُّها وهي تُبصِرُ ولو قُطِعَتْ، والآدميُّ يُقدِمُ علىٰ ما يَضُرُّه وهو يعلمُ، ويُقاتِلُ مَن منَعه منه، فقال مُسبِّبًا عمَّا حُذف من جوابِ القَسَمِ: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[١].

عُطف ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ علىٰ ﴿ سَوَّاهَا ﴾ بالفاءِ؛ لأنَّ الإلهامَ ناشئٌ عن التَّسويةِ، فالتَّسويةُ حاصلةٌ من وقتِ تمامِ خِلْقةِ الجنينِ من أوَّلِ أطوارِ الصِّبا؛ إذ التَّسويةُ تعديلُ الخِلْقةِ، وإيجادُ القوىٰ الجسديَّةِ والعقليَّةِ، ثم تزدادُ كيفيَّةُ القوىٰ فيَحصُلُ الإلهامُ[٢].

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ ﴾

ولمَّا كان من المعلومِ أنَّ مَن سمع هذا الكلامَ يعلمُ أنَّ التَّقوىٰ لا يكونُ إلَّا مأمورًا بها، والفجورَ لا يكونُ إلَّا منهيًّا عنه، فيتوقَّعُ ما يُقالُ فيهما ممَّا يتأثَّرُ عنهما، قال تعالىٰ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾[٣].

يجوزُ أن تكونَ الجملةُ جوابَ القَسَمِ، وأنَّ المعنىٰ تحقيقُ فلاحِ المؤمنين وخَيْبةِ المشركين، ويجوزُ أن تكونَ جملةً مُعترِضةً بينَ القَسَمِ والجوابِ؛ لمناسبةِ ذِكْرِ إلهامِ

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٧٦-٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٦٩).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٧٨).

الفجورِ والتَّقوىٰ؛ أي: أَفلَحَ مَن زكَّىٰ نفسَه واتَّبَعَ ما ألهمه اللهُ من التَّقوىٰ، وخابَ مَن اختارَ الفجورَ بعدَ أن أُلهِمَ التَّمييزَ بينَ الأمرينِ بالإدراكِ والإرشادِ الإلهيِّ[١].

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾

قُدِّمَ الفلاحُ علىٰ الخيبةِ لمناسبتِه للتَّقوىٰ، وأُردِفَ بخيبةِ مَن دسَّىٰ نفسَه لتهيئةِ الانتقالِ إلىٰ الموعظةِ بما حصَل لثمودَ من عقابٍ علىٰ ما هو أثرُ التَّدْسِيَةِ[٢].

وبعدَ أن ذكَر مَن طهَّر نفسَه ونمَّاها بالطَّاعةِ، ذكَر مَن أخفىٰ نفسَه ونقصها بالمعصيةِ، فقال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١﴾

ولمَّا كان السِّياقُ للتَّرهيبِ بما دلَّتْ عليه سورةُ «البلدِ» وتقديمِ الفجورِ هنا، وكان التَّرهيبُ أحثَّ علىٰ الزَّكاءِ؛ قال دالًّا علىٰ خيبةِ المُدسِّي ليعتبرَ به مَن سمع خبرَه؛ لا سِيَّما إنْ كان يعرفُ أثرَه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾[٣].

إنْ كانت جملةُ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ إلخ مُعترِضةً، كانت هذه جوابًا للقَسَمِ باعتبارِ ما فُرِّعَ عليها بقولِه: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾؛ أي: حقًّا لقد كان ذلك لذلك، ولامُ الجوابِ محذوفٌ تخفيفًا لاستطالةِ القَسَمِ، والمقصودُ: التَّعريضُ بتهديدِ المشركين الذين كذَّبوا الرسولَ طغيانًا هم يعلمونه من أنفسِهم كما كذَّبتْ ثمودُ رسولَهم طغيانًا، وذلك هو المحتاجُ إلىٰ التَّأكيدِ بالقَسَمِ؛ لأنَّ المشركين لم يهتدوا إلىٰ أنَّ ما حَلَّ بثمودَ من الاستئصالِ كان لأجلِ تكذيبِهم رسولَ اللهِ إليهم،

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٧١).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٨٠).

فنبَّهَهم اللهُ بهذا ليتدبَّروا، أو لتنزيلِ علم من علم ذلك منهم منزلةَ الإنكارِ لعدمِ جَرْيِ أمرِهم على موجبِ العلمِ، فكأنَّه قيل: أَقسَمَ لَيُصِيبَنَّكم عذابٌ كما أصابَ ثمودَ، ولقد أصابَ المشركين عذابُ السَّيفِ بأيدي الذين عادوهم وآذوهم وأخرجوهم، وذلك أقسىٰ عليهم وأنكىٰ(١).

ولمَّا ذكَر تعالىٰ صفةَ مَن دسَّىٰ، ذكَر فرقةً فعلت ذلك؛ ليعتبرَ بهم، وينتهيَ عن مِثْلِ فعلِهم(٢).

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢﴾

ولمَّا ذكَر تكذيبَهم، دَلَّ عليه بقولِه: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾(٣).

﴿إِذِ﴾ ظرفٌ للزَّمنِ الماضي يتعلَّقُ ﴿بِطَغۡوَىٰهَآ﴾؛ لأنَّ وقتَ انبعاثِ أشقاها لعَقْرِ النَّاقةِ هو الوقتُ الذي بَدَتْ فيه شِدَّةُ طَغْواها، فبعَثوا أشقاهم لعقرِ النَّاقةِ التي جُعِلَتْ لهم آيةً، وذلك منتهىٰ الجرأةِ(٤).

﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣﴾

فتسبَّبَ عن الانبعاثِ أو التَّكذيبِ قولُه: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾(٥).

الفاءُ من قولِه: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ عاطفةٌ علىٰ ﴿كَذَّبَتۡ﴾ فتُفِيدُ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ كما هو الغالبُ فيها، ويكونُ معنىٰ الكلامِ: كذَّبوا رسولَ اللهِ فتَحدَّاهم بآيةِ النَّاقةِ

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٧٢).
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٤٨٨).
(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٨١).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٧٣).
(٥) نظم الدرر (٢٢/ ٨١).

وحذَّرهم من التَّعرُّضِ لها بسوءٍ ومِن منعِهم شُرْبَها في نَوْبَتِها من السُّقْيا، وهذا يقتضي أنَّ آيةَ النَّاقةِ أُرسِلَتْ لهم بعدَ أن كذَّبوا، وهو الشَّأنُ في آياتِ الرُّسُلِ، وهو ظاهرُ ما جاء في سورةِ «هودٍ»، ويجوزُ أن تكونَ الفاءُ للتَّرتيبِ الذِّكْريِّ المجرَّدِ، وهي تفيدُ عطفَ مُفصَّلٍ على مُجمَلٍ[1].

ولمَّا قامَ أشقى ثمودَ لعقرِ ناقةِ صالحٍ عليه السلام، نهاهم صالحٌ عن مَسِّها بسوءٍ، وأنذَرَهم عاقبةَ المخالفةِ، ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤﴾

ثم بيَّن تعالى أنَّ القومَ لم يمتنعوا عن تكذيبِ صالحٍ وعن عقرِ النَّاقةِ بسببِ العذابِ الذي أنذَرَهم اللهُ تعالى به، فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾[2].

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾

جملةُ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ تذييلٌ للكلامِ، وإيذانٌ بالختامِ، ويجوزُ أن يكونَ قولُه: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ تمثيلًا لحالِهم في الاستئصالِ بحالِ مَن لم يترك مَن يثأرُ له، فيكونُ المَثَلُ كنايةً عن هلاكِهم عن بكرةِ أبيهم، لم يَبْقَ منهم أحدٌ[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٧٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٧٩).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٧٥).

سورة الليل

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾

وابتُدِئَ في هذه السورةِ بذِكْرِ اللَّيلِ ثم ذِكْرِ النَّهارِ، عكسُ ما في سورةِ «الشَّمسِ»؛ لأنَّ هذه السُّورةَ نزلت قبلَ سورةِ «الشَّمسِ» بمُدَّةٍ، وهي سادسةُ السُّوَرِ، وأيَّامَئذٍ كان الكفرُ مُخيِّمًا علىٰ النَّاسِ إلَّا نفرًا قليلًا، وكان الإسلامُ قد أخذ في التَّجلِّي، فناسَب تلك الحالةَ بإشارةٍ إلىٰ تمثيلِها بحالةِ اللَّيلِ حينَ يَعقُبُه ظهورُ النَّهارِ[(١)].

ثم أَقسَمَ بما يكونُ بعدَ اللَّيلِ، فقال: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾

ولمَّا ذكَر المُتَخالِطَيْنِ معنًىٰ، أَتبَعَهما المُتَخالِطَينِ حِسًّا، فقال مُصرِّحًا فيهما بما هو مرادٌ في الأوَّلِ، وخَصَّ هذا بالتَّصريحِ تنبيهًا علىٰ أنَّه -لكونِه عاقلًا- عاقدٌ يغلطُ في نفسِه فيدَّعي الإلهيَّةَ أو الاتِّحادَ، أو غيرَ ذلك من وجوهِ الإلحادِ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[(٢)].

ثم أَقسَمَ اللهُ بأثرٍ من آثارِ قدرتِه؛ وهو خلقُ الزَّوجينِ وما يقتضيه من التَّناسلِ، فقال: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٧٨).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٨٧).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٧٩).

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾

ولمَّا ذكَر ما هو محسوسُ التَّخالفِ من المعاني والأجرامِ، أَتبَعَه ما هو معقولُ التَّباينِ من الأعراضِ، فقال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾[(١)].

جملةُ ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ جوابُ القَسَمِ[(٢)].

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾

ولمَّا طابَق بينَ القَسَمِ والمُقسَمِ عليه، ونبَّه بالقَسَمِ والتَّأكيدِ مع ظهورِ المُقسَمِ عليه علىٰ أنَّهم في أمنِهم مع التَّحذيرِ كمَنْ يدَّعِي أنَّه لا فرقَ، وأنَّ مآلَ الكُلِّ واحدٌ كما يقولُه أصحابُ الوحدةِ -عليهم الخِزيُّ واللَّعنةُ-، شرَع في بيانِ تشتُّتِ المساعي وبيانِ الجزاءِ لها، فقال مُسبِّبًا عن اختلافِهم ما هو مركوزٌ في الطِّباعِ، من أنَّه لا يجوزُ تسويةُ المُحسِنِ بالمُسيءِ، ناشرًا لِمَنْ زكَّىٰ نفسَه أو دسَّاها نشرًا مُسْتَوِيًا إيذانًا بأنَّ المُطيعَ في هذه الأُمَّةِ -وللهِ الحمدُ- كثيرٌ بشارةً لنبيِّها ﷺ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾[(٣)].

﴿فَأَمَّا﴾ تفريعٌ وتفصيلٌ للإجمالِ في قولِه: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾، فحرفُ «أمَّا» يفيدُ الشَّرطَ والتَّفصيلَ، وهو يتضمَّنُ أداةَ شرطٍ وفعلَ شرطٍ؛ لأنَّه بمعنىٰ: مهما يكنْ من شيءٍ، والتَّفصيلُ: التَّفكيكُ بينَ مُتعدِّدٍ اشترَكَتْ آحادُه في حالةٍ وانفرَد بعضُها عن بعضٍ بحالةٍ هي التي يُعتنَىٰ بتمييزِها، والمحتاجُ للتَّفصيلِ هنا هو السَّعيُ المذكورُ، ولكنْ جعَل التَّفصيلَ ببيانِ السَّاعِينَ بقولِه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾؛ لأنَّ المُهمَّ هو اختلافُ أحوالِ السَّاعِينَ ويُلازِمُهم السَّعيُ، فإيقاعُهم في التَّفصيلِ بحسَبِ مَساعِيهم يساوي

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٧٩).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٨٩-٩٠).

إيقاعَ المساعي في التَّفصيلِ، وهذا تَفنُّنٌ من أفانينِ الكلامِ الفصيحِ يَحصُلُ منه معنيانِ(١).

ثم إنَّه سبحانه بيَّن معنىٰ اختلافِ الأعمالِ فيما قلناه من العاقبةِ المحمودةِ والمذمومةِ، والثَّوابِ والعقابِ، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾(٢).

تفصيلٌ لتلك المساعي المُشتَّتةِ، وتبيينٌ لأحكامِها(٣).

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾

ولمَّا كان الإيمانُ أمرًا مُعتنًىٰ به في نفسِه، أُخِّرَ عن الاتِّقاءِ ليكونَ ذِكرُه بعدَه من بابِ ذِكْرِ الخاصِّ بعدَ العامِّ، مع ما في ذلك من رعايةِ الفاصلةِ(٤).

ثم ذكَر خصلةً أخرىٰ له، فقال: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾

وعدَل الكلامُ إلىٰ مظهرِ العَظَمةِ؛ إشارةً إلىٰ صعوبةِ الطَّاعةِ علىٰ النَّفسِ، وإنْ كانت في غايةِ اليسرِ في نفسِها؛ لأنَّها في غايةِ الثِّقَلِ علىٰ النَّفسِ، فقال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾(٥).

ثم ذكَر عاقبةَ هذا الأعمالِ، فقال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾

ولمَّا ذكَر المُزكِّيَ وثمرتَه، أَتبعَه المُدسِّيَ وشِقْوتَه، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٨١).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٨٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٦١).

(٤) روح المعاني (١٥/ ٣٦٧).

(٥) نظم الدرر (٢٢/ ٩٠).

(٦) نظم الدرر (٢٢/ ٩١).

﴿ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ ﴾

ثم ذكَر خصلةً أخرىٰ له أشدَّ من الأولىٰ، فقال: ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾.

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾

ثم ذكَر عاقبةَ هذه الأعمالِ، فقال: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾.

﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ ﴾

ولمَّا كان أهلُ الدنيا إذا وقَعوا في ورطةٍ تَخلَّصوا منها بأموالِهم، قال: ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾(١).

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ ﴾

ولمَّا كان ربما قال المُتعنِّتُ الجاهلُ بما له سبحانه وتعالى من العَظَمةِ التي لا اعتراضَ لأحدٍ عليها: ما له لا يُيسِّرُ الكُلَّ للحسنىٰ؛ استأنَفَ جوابَه مُبيِّنًا ما ألزَمَ به نفسَه من المصالحِ تفضُّلًا منه بما له من اللُّطفِ والكرمِ، وما يفعلُه ممَّا هو له من غيرِ نظرٍ إلىٰ ذلك بما له من الجبروتِ والكِبْرِ، فقال مُؤكِّدًا تنبيهًا علىٰ أنَّه يُحِبُّ العلمَ بأنَّه لا حقَّ لأحدٍ عليه أصلًا: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾(٢).

استئنافٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ الكلامِ السَّابقِ من قولِه: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿ لِلْعُسْرَىٰ ﴾؛ وذلك لإلقاءِ التَّبِعةِ علىٰ مَن صار إلىٰ العسرىٰ بأنَّ اللهَ أعذَرَ إليه؛ إذ هداه بدعوةِ الإسلامِ إلىٰ الخيرِ فأعرَضَ عن الاهتداءِ باختيارِه(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٩١-٩٢).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٩٢).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٩٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا عرَّفَهم أنَّ سَعْيَهم شتَّىٰ في العواقبِ، وبيَّن ما للمُحسِنِ من اليسرىٰ وللمُسِيءِ من العسرىٰ؛ أَخبرَهم أنَّه قد قضىٰ ما عليه من البيانِ والدَّلالةِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والإرشادِ والهدايةِ، فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[1].

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾

ولمَّا بيَّن ما أَلزَمَه نفسَه المُقدَّسَ، فصار كأنَّه عليه لتحتُّمِ وقوعِه، فكان ربما أَوهَمَ أنَّه يلزمُه شيءٌ؛ أَتبَعَه ما ينفيه ويفيدُ أنَّ له غايةَ التَّصرُّفِ فلا يَعسُرُ عليه شيءٌ أراده، فقال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾[2].

عطفُ ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ علىٰ جملةِ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ تتميمٌ وتنبيهٌ علىٰ أنَّ تَعهُّدَ اللهِ لعبادِه بالهدىٰ فضلٌ منه، وإلَّا فإنَّ الدَّارَ الآخرةَ مِلكُه والدَّارَ الأولىٰ مِلكُه بما فيهما، فله التَّصرُّفُ فيهما كيف يشاءُ، فلا يَحسَبوا أنَّ عليهم حقًّا علىٰ اللهِ تعالىٰ إلَّا ما تفضَّل به[3].

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾

ولمَّا أَخبرَ ﷻ أنَّه ألزم نفسَه المقدَّسَ البيانَ، وأنَّ له كلَّ شيءٍ، المُستلزِمَ لإحاطةِ العلمِ وشمولِ القدرةِ؛ شرَح ذلك بما سبَّب عنه من قولِه لافتًا القولَ إلىٰ تجريدِ الضَّميرِ من مظهرِ العَظَمةِ للتَّرقِّي بالمُخاطَبين في تبعيدِ الوهمِ وتقريبِ الفهمِ، فقال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٨٥).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٩٢).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٨٨-٣٨٩).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٩٣).

يجوزُ أن تكونَ الفاءُ لمجرَّدِ التَّفريعِ الذِّكريِّ إذا كان فعلُ «أنذرتُكم» مستعملًا في ماضيه حقيقةً، وكان المرادُ الإنذارَ الذي اشتمل عليه قولُه: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ إلىٰ قولِه: ﴿تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾، وهذه الفاءُ يُشبِهُ معناها معنىٰ فاءِ الفصيحةِ؛ لأنَّها تدلُّ علىٰ مراعاةِ مضمونِ الكلامِ الذي قبلَها، وهو تفريعُ إنذارٍ مُفصَّلٍ علىٰ إنذارٍ مُجمَلٍ، ويجوزُ أن تكونَ الفاءُ للتَّفريعِ المعنويِّ، فيكونُ فعلُ «أنذرتُكم» مرادًا به الحالُ، وإنَّما صِيغَ في صيغةِ المُضِيِّ لتقريبِ زمانِ الماضي من الحالِ كما في: «قد قامتِ الصَّلاةُ»، وقولِهم: «عزَمتُ عليك إلَّا ما فعلتَ كذا»؛ أي: أَعزِمُ عليك، ومِثلَ ما في صِيَغِ العقودِ كـ«بِعْتُ»، وهو تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾، والمعنىٰ: هَدْيكم، فأنذرتُكم إبلاغًا في الهَدْيِ[1].

﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥﴾

ولمَّا كان قد تقدَّم غيرَ مرَّةٍ تخصيصُ كلٍّ من المُحسِنِ والمُسِيءِ بدارِه بطريقِ الحصرِ إنكارًا لأن يُسوَّىٰ مُحسِنٌ بمُسِيءٍ في شيءٍ، وكان الحصرُ بـ«لا» و«إلَّا» أصرحَ أنواعِه؛ قال: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾[2].

جملةُ ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾ صفةٌ ثانيةٌ، أو حالٌ من ﴿نَارًا﴾ بعدَ أن وُصِفَتْ[3].

ثم بيَّن أنَّها لِمَنْ هي بقولِه: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾[4].

﴿ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾

ثم وصَف الأشقىٰ، فقال: ﴿ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٨٩).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٩٤).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩٠).

(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٨٦).

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧﴾

وبعدَ أن ذكَر الشَّقِيَّ، ذكَر التَّقِيَّ، فقال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾.

﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨﴾

ولمَّا ذكَر ما يتعلَّقُ بالقُوَّةِ العلميَّةِ، أَتبعَه ما ينظرُ إلىٰ القُوَّةِ العمليَّةِ، فقال: ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾[1].

ثم ذكَر سبحانه صفةَ ﴿ٱلۡأَتۡقَى﴾، فقال: ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾[2].

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩﴾

ولمَّا كان الإنسانُ قد يُعطِي ليُزكِّيَ نفسَه بدفعِ مانِّه ومكافأةِ نِعَمِه، قال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾[3].

استئنافٌ مُقرِّرٌ لكونِ إيتائِه للتَّزكِّي خالصًا لوجهِ اللهِ تعالىٰ[4].

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾

ولمَّا نفىٰ أن يكونَ بذلك قصَد مُكافأةً، قال مُبيِّنًا قصدَه باستثناءٍ مُنقطِعٍ: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٩٥).

(٢) فتح القدير (٥/ ٥٥٣).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٩٥).

(٤) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٦٢).

(٥) نظم الدرر (٢٢/ ٩٥).

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

ولـمَّا كان هذا مقامًا ليس فوقَه مقامٌ، قال تعالىٰ بعدَ وعدِه من الإنجاءِ من النَّارِ: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[1].

قولُه: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ وعدٌ بالثَّوابِ الجزيلِ الذي يُرضِي صاحبَه، وهذا تتميمٌ لقولِه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾؛ لأنَّ ذلك ما أفادَ إلَّا أنَّه ناجٍ من عذابِ النَّارِ؛ لاقتضاءِ المقامِ الاقتصارَ علىٰ ذلك لقصدِ المقابلةِ مع قولِه: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾، فتُمِّمَ هنا بذِكْرِ ما أعدَّ له من الخيراتِ[2].

ثم وعَده بالثَّوابِ الذي يُرضِيه، فقال: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٩٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩٢).

سورة الضحى

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾

ولمَّا ذكَر النَّهارَ بأشرفِ ما فيه مناسبةً لأجلِ المُقسَمِ لأجلِه، أَتبعَه اللَّيلَ مُقيِّدًا له بما يُفهِمُ إخلاصَه؛ لأنَّه ليس لأشرفِ ما فيه اسمٌ يَخُصُّه، فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[1].

ومناسبةُ القَسَمِ بـ«الضُّحَىٰ» و«اللَّيلِ»: أنَّ «الضُّحَىٰ» وقتُ انبثاقِ نورِ الشَّمسِ، فهو إيماءٌ إلىٰ تمثيلِ نزولِ الوحيِ وحصولِ الاهتداءِ به، وأنَّ «اللَّيلَ» وقتُ قيامِ النبيِّ ﷺ بالقرآنِ، وهو الوقتُ الذي كان يسمعُ فيه المشركون قراءتَه من بيوتِهم القريبةِ من بيتِه، أو من المسجدِ الحرامِ؛ ولذلك قيَّد «اللَّيلَ» بظرفِ ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾، فلعلَّ ذلك وقتُ قيامِ النبيِّ ﷺ[2].

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾

ولمَّا أَقسَمَ بهذا القَسَمِ المُناسِبِ لحالِه ﷺ، أجابه بقولِه تعالىٰ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[3].

جملةُ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ جوابُ القَسَمِ[4].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٠١).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩٤-٣٩٥).
(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١٠٢).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩٥).

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤﴾

ولمَّا ذكَر حالَه في الدنيا بأنَّه لا يزالُ يُواصِلُه بالوحيِ والكرامةِ، ومنه ما هو مفتوحٌ علىٰ أُمَّتِه من بعدِه، رُوي عن أنسٍ رضي الله عنه أنَّه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «أُرِيتُ ما هو مفتوحٌ علىٰ أُمَّتِي مِن بعدي كَفْرًا كَفْرًا[1]، فسَرَّني ذلك»[2]، فلمَّا كان ذلك، وكان ذِكرُه علىٰ وجهٍ شَمِلَ الدَّارينِ؛ صرَّح بالآخرةِ التي هي أعلىٰ وأجلُّ، ولأدنىٰ مَن يدخلُها فيها ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خطَر علىٰ قلبِ بشرٍ؛ فكيف بما له ﷺ؟! فقال مُؤكِّدًا لذلك كما أكَّد الأوَّلَ بالقَسَمِ بما لهم فيه من الإنكارِ: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾[3].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١﴾، فهو كلامٌ مُبتدأٌ به، والجملةُ معطوفةٌ علىٰ الجملِ الابتدائيَّةِ، وليست معطوفةً علىٰ جملةِ جوابِ القَسَمِ، بل هي ابتدائيَّةٌ، فلمَّا نُفي القِلَىٰ، بُشِّرَ بأنَّ آخِرتَه خيرٌ من أُولاه، وأنَّ عاقبتَه أحسنُ من بَدْأَتِه، وأنَّ اللهَ خاتِمٌ له بأفضلَ ممَّا قد أعطاه في الدنيا وفي الآخرةِ[4].

واعلَمْ أنَّ في اتِّصالِه بما تقدَّم وجوهًا؛ أحدُها: أن يكونَ المعنىٰ: أنَّ انقطاعَ الوحيِ لا يجوزُ أن يكونَ؛ لأنَّه عزلٌ عن النُّبُوَّةِ، بل أقصىٰ ما في البابِ أن يكونَ ذلك لأنَّه حصَل الاستغناءُ عن الرِّسالةِ، وذلك أمارةُ الموتِ، فكأنَّه يُقالُ: انقطاعُ الوحيِ متىٰ حصَل دَلَّ علىٰ الموتِ، لكنَّ الموتَ خيرٌ لك، فإنَّ ما لك عندَ اللهِ في الآخرةِ خيرٌ وأفضلُ ممَّا لك في الدنيا. وثانيها: لمَّا نزَل: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، حصَل له بهذا تشريفٌ عظيمٌ، فكأنَّه استعظَمَ هذا التَّشريفَ، فقيل له: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ أي: هذا التَّشريفُ وإنْ كان عظيمًا إلَّا أنَّ ما لك عندَ اللهِ في الآخرةِ خيرٌ وأعظمُ. وثالثُها: ما

---

(١) أي: قريةً قريةً.

(٢) أخرجه الطبري في "التفسير" (٢٤/ ٤٨٨).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١٠٧).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩٧).

يَخطُرُ ببالي، وهو أن يكونَ المعنىٰ: ولَلأحوالُ الآتيةُ خيرٌ لك من الماضيةِ، كأنَّه تعالىٰ وعَده بأنَّه سيَزِيدُه كلَّ يوم عِزًّا إلىٰ عزٍّ، ومَنصِبًا إلىٰ منصبٍ، فيقولُ: لا تَظُنَّ أنِّي قَلَيتُك، بل تكونُ كلَّ يومٍ يأتي فإنِّي أَزِيدُك منصبًا وجلالًا[١].

ولمَّا ذكَر حالَه في الحالِ، ذكَر حالَه في الاستقبالِ، فقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه الدنيا والآخرةَ، ذكَر ما يشملُهما ممَّا زادَه من فضلِه، فقال مُصدِّرًا بحرفِ الابتداءِ تأكيدًا للكلامِ؛ لأنَّهم يُنكِرُونه، وليست للقَسَمِ؛ لأنَّها إذا دخَلتْ علىٰ المضارعِ لَزِمَتْه النُّونُ المُؤكِّدةُ، وضمُّ هذه اللَّامِ إلىٰ كلمةِ التَّنفيسِ للدَّلالةِ علىٰ أنَّ العطاءَ -وإنْ تأخَّرَ وقتُه لحكمةٍ- كائنٌ لا محالةَ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[٢].

هو كذلك عطفٌ علىٰ جملةِ القَسَمِ كلِّها، وحرفُ الاستقبالِ لإفادةِ أنَّ هذا العطاءَ الموعودَ به مُستمِرٌّ لا ينقطعُ[٣].

اعلَمْ أنَّ اتِّصالَه بما تقدَّم من وجهينِ؛ الأوَّلُ: هو أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ الآخرةَ خيرٌ له من الأولىٰ، ولكنَّه لم يُبيِّنْ أنَّ ذلك التَّفاوتَ إلىٰ أيِّ حدٍّ يكونُ، فبيَّن بهذه الآيةِ مقدارَ ذلك التَّفاوتِ، وهو أنَّه ينتهي إلىٰ غايةِ ما يتمنَّاه الرسولُ ويرتضيه. الوجهُ الثَّاني: كأنَّه تعالىٰ لمَّا قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾، فقيل: ولِمَ قلتَ: إنَّ الأمرَ كذلك؟ فقال: لأنَّه يُعطِيه كلَّ ما يريدُه، وذلك ممَّا لا تتَّسِعُ الدنيا له، فثبَت أنَّ الآخرةَ خيرٌ له من الأولىٰ[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٩٣).
(٢) نظم الدرر (٢٢/ ١٠٨).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩٨).
(٤) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٩٤).

﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ ﴾

ولمَّا وعَده بأنَّه لا يزالُ في كلِّ لحظةٍ يُرقِّيه في مراقي العُلَا والشَّرفِ، ذكَّره بما رقَّاه به قبلَ ذلك من حينِ تُوُفِّيَ أبوه وهو حَمْلٌ، وماتت أُمُّه وهو ابنُ ثمان سنينَ، فتمَّ يُتْمُه من الأبوينِ قبلَ بلوغِه لئلَّا يكونَ عليه -كما قال جعفرٌ الصَّادقُ- حقٌّ لمخلوقٍ، فقال مُقرِّرًا له: ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴾[1].

استئنافٌ مَسُوقٌ مساقَ الدَّليلِ علىٰ تحقُّقِ الوعدِ؛ أي: هو وعدٌ جارٍ علىٰ سننِ ما سبق من عنايةِ اللهِ بك من مبدأِ نشأتِك ولُطْفِه في الشَّدائدِ باطِّرادٍ بحيثُ لا يحتملُ أن يكونَ ذلك من قَبِيلِ الصُّدَفِ؛ لأنَّ شأنَ الصُّدَفِ أن لا تتكرَّرَ، فقد عُلم أنَّ اطِّرادَ ذلك مرادٌ للهِ تعالىٰ، والمقصودُ من هذا إيقاعُ اليقينِ في قلوبِ المشركين بأنَّ ما وعَده اللهُ به مُحقَّقُ الوقوعِ قياسًا علىٰ ما ذكَّره به من مُلازَمةِ لُطْفِه به فيما مضىٰ، وهم لا يجهلون ذلك؛ عسىٰ أن يُقلِعوا عن العنادِ، ويُسرِعوا إلىٰ الإيمانِ، وإلَّا فإنَّ ذلك مَساءةٌ تبقىٰ في نفوسِهم، وأشباحُ رعبٍ تُخالِجُ خواطِرَهم، ويَحصُلُ مع ذلك المقصودِ امتنانٌ علىٰ النبيِّ ﷺ، وتقويةٌ لاطمئنانِ نفسِه بوعدِ اللهِ تعالىٰ إيَّاه[2].

لمَّا وعَده هذا الموعودَ الجليلَ، ذكَّره بنِعَمِه عليه في حالِ نشأتِه[3].

﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴾ تعديدٌ لِما أفاضَ عليه عليه الصلاة والسلام من أوَّلِ أمرِه إلىٰ ذلك الوقتِ، من فنونِ النَّعْماءِ العِظامِ؛ ليستشهدَ بالحاضرِ الموجودِ علىٰ المُترقَّبِ الموعودِ، فيطمئنَّ قلبُه، وينشرحَ صدرُه[4].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٠٩).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩٩).

(٣) البحر المحيط (١٠/ ٤٩٧).

(٤) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٧٠).

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾

ولمَّا كان يلزمُ من اليُتْمِ في الغالبِ عدمُ العلمِ لليتيمِ لتهاونِ الكافلِ، ومن عدمِ العلمِ الضَّلالُ؛ قال مُبيِّنًا أنَّ يُتْمَه وإهمالَه من الحملِ علىٰ دينِهم كان نعمةً عظيمةً عليه؛ لأنَّه لم يكنْ علىٰ دينِ قومِه في حينٍ من الأحيانِ أصلًا: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾[(١)].

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾

ولمَّا كان العيالُ يمنعون من التَّفرُّغِ لعلمٍ أو غيرِه، قال: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾[(٢)].

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ ﴾

ولمَّا ذكَّره بما أَنعمَ عليه به من هذه النِّعَمِ الثَّلاثِ، أوصاه بما يفعلُ في ثلاثٍ مُقابلةٍ لها، فقال مُسبِّبًا عنه، مُقدِّمًا معمولَ ما بعدَ الفاءِ عليها اهتمامًا: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾[(٣)].

قولُه: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ مُقابِلٌ لقولِه: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ لا محالةَ؛ أي: فكما آواك ربُّك، وحَفِظَك من عوارضِ النَّقصِ المعتادِ لليُتْمِ؛ فكُنْ أنت مُكرِمًا للأيتامِ، رفيقًا بهم[(٤)].

ولمَّا عدَّد اللهُ تعالىٰ عليه هذه النِّعَمَ الثَّلاثَ، وصَّاه بثلاثِ وصايا، في كلِّ نعمةٍ وصيَّةٌ مُناسِبةٌ لها، فبإزاءِ قولِه تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ قولُه تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٠٩).
(٢) نظم الدرر (٢٢/ ١١٠).
(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١١٠).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٠١).
(٥) المحرر الوجيز (٥/ ٤٩٤).

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠﴾

ولمَّا بدأ بما كان بدايةً له، ثنَّىٰ بما هو نهايةٌ له من حيثُ كونُه يصيرُ رأسَ الخلقِ، فيصيرُ محطَّ الرِّجالِ في كلِّ سؤالٍ من علمٍ ومالٍ، فقال مُقدِّمًا له اهتمامًا به إشارةً إلىٰ أنَّ جبرَ الخواطرِ واستئلافَ الخلقِ من أعظمِ المقاصدِ في تمامِ الدِّينِ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[1].

قولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ مُقابِلُ قولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾؛ لأنَّ الضَّلالَ يستعدي السُّؤالَ عن الطَّريقِ، فالضَّالُّ مُعتبَرٌ من نصفِ السَّائلين[2].

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١﴾

ولمَّا ذكَر له تفصيلَ ما يفعلُ في اليتيمِ والفقيرِ والجاهلِ، أمَره بما يفعلُ في العلمِ الذي آتاه إيَّاه؛ إعلامًا بأنَّه الآلةُ التي يستعملُها في الأمرينِ الماضيينِ وغيرِهما؛ لأنَّها أشرفُ أحوالِ الإنسانِ، وهي أوفَقُ الأمورِ لأن يكونَ مقطعَ السورةِ لتوافقَ مطلعَها، فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[3].

قولُه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ مُقابِلُ قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾؛ فإنَّ الإغناءَ نعمةٌ، فأمره اللهُ أن يُظهِرَ نعمةَ اللهِ عليه بالحديثِ عنها وإعلانِ شكرِها[4].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١١١).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٠٢).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١١١).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٠٣).

سورة الشرح

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ﴾

ولمَّا كانت سَعةُ الصَّدرِ بالعلمِ والحكمةِ هي الجمالَ باجتماعِ المحاسنِ، وكان ذلك مع حملِ ما يعني من أعظمِ النَّكدِ، وكان الجمالُ بجمعِ المحاسنِ لا يَكمُلُ إلَّا إذا جُمع إلىٰ الجمالِ الجلالُ بانتفاءِ الرَّذائلِ، وكان الاستفهامُ الإنكاريُّ إذا اجتمَع مع النَّفيِ صارَ إثباتًا؛ لأنَّه نفيٌ للنَّفيِ؛ قال عاطفًا عليه ما لا يُعطَفُ إلَّا مع الإثباتِ: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾[(١)].

﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾

ثم وصَف هذا الوِزْرَ، فقال: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾.

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾

ولمَّا شرَّفه في نفسِه بالكمالِ الجامعِ للجلالِ إلىٰ الجلالِ، وكان ذلك لا يصفو إلَّا مع الشَّرفِ عندَ النَّاسِ؛ قال: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾[(٢)].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١١٧).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ١٢٠).

ثم ذكَر سبحانه مِنَّتَه عليه وكرامتَه، فقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[(١)].

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾﴾

لمَّا ذكَر هذه المآثرَ الشَّريفةَ التي هي الكمالُ، وكان الكمالُ لا يصفو إلَّا مع مساعدةِ الأقدارِ، فإنَّ الهِمَمَ إذا عظُمتِ اتَّسعت مجالاتُها، فإذا حصل فيها تعطيلٌ، حصل فيها نكدٌ علىٰ حَسَبِه؛ بيَّن أنَّه أزالَ عنه العوائقَ في عبارةٍ دالَّةٍ علىٰ أنَّ سببَ المنحةِ بهذه الكمالاتِ هو ما كان ﷺ فيه من الصَّبرِ علىٰ الأكدارِ، وتَجرُّعِ مراراتِ الأقدارِ، فقال مُؤكِّدًا ترغيبًا في حملِ مِثْلِ ذلك رجاءً في الإثابةِ بما يليقُ من هذه المعالي، مُبالِغًا في الحثِّ علىٰ تحمُّلِه بذِكْرِ المعيَّةِ؛ إشارةً إلىٰ تقاربَ الزَّمنينِ بحيثُ إنَّهما كانا كالمتلازمينِ، مُسبِّبًا عمَّا مضىٰ ذِكرُه من حالِه من «الضُّحىٰ»: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[(٢)].

الفاءُ فصيحةٌ، تُفصِحُ عن كلامٍ مُقدَّرٍ يدلُّ عليه الاستفهامُ التَّقريريُّ هنا؛ أي: إذا علمتَ هذا وتقرَّر، تعلم أنَّ اليُسْرَ مُصاحِبٌ للعسرِ، وإذ كان اليسرُ نقيضَ العسرِ، كانت مصاحبةُ اليسرِ للعسرِ مُقتضِيةً نقضَ تأثيرِ العسرِ ومُبطِلةً لعملِه، فهو كنايةٌ رمزيَّةٌ عن إدراكِ العنايةِ الإلهيَّةِ به فيما سبق، وتعريضٌ بالوعدِ باستمرارِ ذلك في كلِّ أحوالِه، وسياقُ الكلامِ وعدٌ للنَّبيِّ ﷺ بأن يُيسِّرَ اللهُ له المصاعبَ كُلَّما عرَضتْ له، فاليسرُ لا يتخلَّفُ عن اللَّحاقِ بتلك المصاعبِ، وذلك من خصائصِ كلمةِ «مع» الدَّالَّةِ علىٰ المصاحبةِ[(٣)].

---

(١) فتح البيان (١٥/ ٢٩١).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ١٢١).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١٣).

وجهُ تَعلُّقِ هذه الآيةِ بما قبلَها: أنَّ المشركين كانوا يُعيِّرون رسولَ اللهِ ﷺ بالفقرِ، ويقولون: إنْ كان غرضُك من هذا الذي تدَّعِيه طلبَ الغنىٰ، جمَعْنا لك مالًا حتَّىٰ تكونَ كأيسرِ أهلِ مكَّةَ، فشَقَّ ذلك علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ حتَّىٰ سبق إلىٰ وهمِه أنَّهم إنَّما رَغِبوا عن الإسلامِ لكونِه فقيرًا حقيرًا عندَهم، فعدَّد اللهُ تعالىٰ عليه مِنَنَه في هذه السورةِ، وقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾؛ أي: ما كنتَ فيه من أمرِ الجاهليَّةِ، ثم وعَده بالغنىٰ في الدنيا ليُزِيلَ عن قلبِه ما حصَل فيه من التَّأذِّي بسببِ أنَّهم عيَّروه بالفقرِ، والدَّليلُ عليه دخولُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، كأنَّه تعالىٰ قال: لا يَحزُنْكَ ما يقولُ وما أنت فيه من القِلَّةِ، فإنَّه يَحصُلُ في الدنيا يُسْرٌ كاملٌ[(١)].

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ تقريرٌ لِما قبلَه، ووعدٌ كريمٌ بتيسيرِ كلِّ عسيرٍ له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين، كأنَّه قيل: خوَّلْناكَ ما خوَّلْناكَ من جلائلِ النِّعَمِ، فكُنْ علىٰ ثقةٍ بفضلِ اللهِ تعالىٰ ولُطْفِه؛ فإنَّ مع العسرِ يسرًا كثيرًا[(٢)].

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾

ولمَّا كان العسرُ مكروهًا إلىٰ النُّفوسِ، وكان للهِ سبحانه وتعالى فيه حِكَمٌ عظيمةٌ، وكانت الحِكَمُ لا تتراءىٰ إلَّا للأفرادِ من العبادِ؛ كرَّره سبحانه وتعالى علىٰ طريقِ الاستئنافِ لجوابِ مَن يقولُ: وهل بعدَه من عُسْرٍ؟ مُؤكِّدًا له ترغيبًا في أمرِه، ترقُّبًا لِما يتسبَّبُ عنه، مُبشِّرًا بتكريرِه مع وحدةِ العسرِ وإنْ كان حَمْلُ كلِّ واحدٍ منهما علىٰ شيءٍ غيرِ ما قُصد به الآخرُ مُمكِنًا، فقال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٠٨).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٧٣).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١٢٣).

جملةُ ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ مُؤكِّدةٌ لجملةِ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، وفائدةُ هذا التَّأكيدِ تحقيقُ اطِّرادِ هذا الوعدِ وتعميمُه؛ لأنَّه خبرٌ عجيبٌ(١).

ثم زادَ سبحانه هذا الوعدَ تقريرًا وتأكيدًا، فقال مُكرِّرًا له بلفظِ: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾(٢).

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾

ولمَّا عُلم من هذا أنَّ المواد تكونُ بحسَبِ الأورادِ الشِّدادِ؛ لِما على الممدودِ من الشُّكرِ، ولمَّا عُلم للشَّاكرِ من الوعدِ بالمزيدِ؛ قال مُسبِّبًا عمَّا أعطاه من اليسرِ بعدَ ذلك العسرِ، ندبًا له إلى الشُّكرِ، وإعلامًا بأنَّه لا ينفكُّ عن تحمُّلِ أمرٍ في اللهِ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾(٣).

تفريعٌ على ما تقرَّر من التَّذكيرِ باللُّطفِ والعنايةِ ووعدِه، وبتيسيرِ ما هو عسيرٌ عليه في طاعتِه التي أعظمُها تبليغُ الرِّسالةِ دونَ مللٍ ولا ضجرٍ(٤).

لمَّا عدَّد تعالى نِعَمَه السَّابقةَ عليه ﷺ، ووعَده بتيسيرِ ما عسُر؛ أمَره بأن يَدأَبَ في العبادةِ إذا فرَغ من مِثْلِها ولا يَفتُرَ(٥).

ثم أمر اللهُ رسولَه ﷺ أصلًا، والمؤمنين تبَعًا، بشكرِه والقيامِ بواجبِ نِعَمِه، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١٥).
(٢) فتح القدير (٥/ ٥٦٤).
(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١٢٨).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١٦).
(٥) البحر المحيط (١٠/ ٥٠١).
(٦) تفسير السعدي (ص: ٩٢٩).

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ٨﴾

عُطِفَ علىٰ تفريعِ الأمرِ بالشُّكرِ علىٰ النِّعَمِ أمرٌ بطلبِ استمرارِ نِعَمِ اللهِ تعالىٰ عليه[1].

وبعدَ أنْ أمره بالاجتهادِ في العبادةِ، أمره بالاجتهادِ في الدعاءِ، فقال: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤١٧).

سُورَةُ التِّينِ

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾

ولمَّا كان مع ذلك مُشارًا بهما إلىٰ مواضعِ نباتِهما، وهي الأرضُ المقدَّسةُ من جميعِ بلادِ الشَّامِ؛ إيماءً إلىٰ مَن كان بها من الأنبياءِ والتَّابعين لهم بإحسانٍ؛ لا سِيَّما إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي كانت مُهاجَرَه، فأحياها اللهُ تعالىٰ بعبادِه وتَردُّدِ الملائكةِ إليه بالوحيِ، ومِن بعدِه أولادُه الذين طهَّرها اللهُ بهم من الشِّركِ، وأنارَها بهم بالتَّوحيدِ، وختَمَهم بعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أحدِ أُولِي العزمِ، المُشرَّفِ بكونِه من أُمَّةِ محمدٍ ﷺ، وعلىٰ نبيِّنا أفضلُ الصلاةِ والسلامِ، وكانت الكنايةُ بالشَّجرتينِ عن البلدِ المرادِ به سُكَّانُه أبلغَ من التَّصريحِ بالمرادِ من أوَّلِ وَهْلةٍ؛ ساقه علىٰ هذا المنهجِ العزيزِ، ولم يَبْقَ ممَّن لم يَسكُنْها من أشرافِهم إلَّا موسىٰ وهارونُ وإسماعيلُ ومحمدٌ عليهم الصلاة والسلام، فأشار إلىٰ الأوَّلَينِ بقولِه مُعبِّرًا بما يدلُّ علىٰ أحسنِ التَّقويمِ؛ لأنَّ الطُّورَ: الجبلُ ذو النَّبتِ من النَّجمِ والشَّجرِ المُثمِرِ وغيره: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾[1].

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾

وأشارَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلىٰ الأخيرينِ من أولادِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ختامًا للقَسَمِ بأكملِ المُقسَمِ به، كما جعلَ المُنزَّلَ عليه ذلك الذي هو ختامُ الرُّسُلِ أكملَ النَّوعِ المُقسَمِ لأجلِه؛ ليكونَ في

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٣٥).

البدءِ بما يَرِدُ بعدَ حُسْنِ التَّقويمِ إلىٰ الفسادِ، والختمِ بما هو أشرفُ المذكورين بكُلِّ اعتبارٍ، طباقٌ حازَ أعلىٰ الأسرارِ: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾[1].

وعلىٰ ما تقدَّم ذِكرُه من المَحمَلينِ الثَّانيينِ للتِّينِ والزَّيتونِ تتمُّ المناسبةُ بينَ الإيمانِ، وتكونُ إشارةً إلىٰ مواردِ أعظمِ الشَّرائعِ الواردةِ للبشرِ، فـ«التِّينُ» إيماءٌ إلىٰ رسالةِ نوحٍ وهي أوَّلُ شريعةٍ لرسولٍ، و«الزَّيتونُ» إيماءٌ إلىٰ شريعةِ إبراهيمَ، فإنَّه بنىٰ المسجدَ الأقصىٰ، كما ورد في الحديثِ، وقد تقدَّم في أوَّلِ «الإسراءِ»، و«طُورُ سِينِينَ» إيماءٌ إلىٰ شريعةِ التَّوراةِ، و«البلدُ الأمينُ» إيماءٌ إلىٰ مهبطِ شريعةِ الإسلامِ، ولم يقعْ إيماءٌ إلىٰ شريعةِ عيسىٰ لأنَّها تَكمِلةٌ لشريعةِ التَّوراةِ، وقد يكونُ «الزَّيتونُ» علىٰ تأويلِه بالمكانِ، وبأنَّه المسجدُ الأقصىٰ إيماءً إلىٰ مكانِ ظهورِ شريعةِ عيسىٰ عليه السلام؛ لأنَّ المسجدَ الأقصىٰ بناه سليمانُ عليه السلام، فلم تنزلْ فيه شريعةٌ قبلَ شريعةِ عيسىٰ، ويكونُ قولُه: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ إيماءً إلىٰ شريعةِ إبراهيمَ وشريعةِ الإسلامِ، فإنَّ الإسلامَ جاء علىٰ أصولِ الحنيفيَّةِ، وبذلك يكونُ إيماءُ هذه الآيةِ ما صرَّح به في قولِه تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾، وبذلك يكونُ ترتيبُ الإيماءِ إلىٰ شرائعِ نوحٍ وموسىٰ وعيسىٰ ومحمدٍ عليهم الصلاة والسلام غيرَ جارٍ علىٰ ترتيبِ ظهورِها، فتوجيهُ مخالفةِ التَّرتيبِ الذِّكْريِّ للتَّرتيبِ الخارجيِّ أنَّه لمراعاةِ اقترانِ الاسمينِ المنقولينِ عن اسمَي الثَّمرتينِ، ومقارنة الاسمينِ الدَّالَّينِ علىٰ نوعينِ من أماكنِ الأرضِ، ليتأتَّىٰ مُحسِّنُ مراعاةِ النَّظيرِ، ومُحسِّنُ التَّوريةِ، وليُناسِبَ ﴿سِينِينَ﴾ فواصلَ السورةِ[2].

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٣٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٢٢).

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾

ولمَّا كان هذا القَسَمُ مع كونِه جامعًا لبدائعِ المصنوعاتِ التي هي لِما ذُكر من حِكَمِها دالَّةٌ على كمالِ علمِ خالقِها وتمامِ قدرتِه جامعًا لأكثرِ الذين آمنوا، وكان إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام لكونِه أباهم مذكورًا مرَّتينِ بالأرضِ المُقدَّسةِ من القدسِ ومكَّةَ، فتوقَّع أكملُ الخلقِ وأفطنُهم المُخاطَبُ بهذا الذِّكرِ المُقسَمِ عليه علمًا منه ببلوغِ القَسَمِ إلى غايتِه، واستوائِه على نهايتِه، أُجِيبَ بقولِه تعالى مُحقِّقًا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(١).

جملةُ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ مع ما عُطف عليه هو جوابُ القَسَمِ(٢).

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾﴾

ولمَّا كان الإنسانُ مع هذه المحاسنِ قد سلَّط اللهُ سبحانه وتعالى عليه شهواتٍ، وهيَّأ طبعَه لرذائلَ وأخلاقٍ دنيئاتٍ، وأَهْوِيَةٍ وحظوظٍ للأنفُسِ مُميلاتٍ، وكان أكثرُ الخلقِ بها هالكًا؛ لتَتبيَّنَ قدرةُ اللهِ سبحانه وتعالى؛ لم يَسْتَثْنِ، بل حكم على الجنسِ كلِّه بها كما حكم عليه بالتَّقويمِ، فقال تعالى دالًّا بأداةِ التَّراخي على أنَّ اعوجاجَه بعدَ ذلك العقلِ الرَّصينِ والذِّهنِ الصَّافي المُستنيرِ في غايةِ البعدِ لولا القدرةُ الباهرةُ والقُوَّةُ القاسرةُ القاهرةُ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾(٣).

جملةُ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، و﴿ثُمَّ﴾ لإفادةِ التَّراخي الرُّتْبيِّ كما هو شأنُها في عطفِ الجملِ؛ لأنَّ الرَّدَّ أسفلَ سافلين بعدَ خلقِه مَحُوطًا بأحسنِ تقويمٍ عجيبٌ؛ لِما فيه من انقلابِ ما جُبل عليه،

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٣٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٢٣).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١٤٢).

وتغييرُ الحالةِ الموجودةِ أعجبُ من إيجادِ حالةٍ لم تكن، ولأنَّ هذه الجملةَ هي المقصودُ من الكلامِ لتحقيقِ أنَّ الذين حادُوا عن الفِطْرةِ صاروا أسفلَ سافلين(١).

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾

ولمَّا حكم بهذا الرَّدِّ على جميعِ النَّوعِ؛ إشارةً إلى كثرةِ المُتَّصِفِ به منهم، وكان الصَّالحُ قليلًا جدًّا؛ جعله محطَّ الاستثناءِ، فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾(٢).

استثناءٌ مُتَّصِلٌ من عمومِ الإنسانِ، فلمَّا أخبر عن الإنسانِ بأنَّه رُدَّ أسفلَ سافلين، ثم استثنى من عمومِه الذين آمنوا؛ بَقِيَ غيرُ المؤمنين في أسفلِ سافلين(٣).

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ ﴾

ولمَّا ثبت بهذا أنَّه لا يجوزُ في الحكمةِ تركُهم بغيرِ جزاءٍ، مع ما يُشاهَدُ من ظلمِ بعضِهم لبعضٍ مُعانَدةً لِما يقتضيه قويمُ العقلِ الذي لا شكَّ فيه، فكان ذلك بحيثُ لا يرضاه أحدٌ منهم، ولا يُقِرُّ مخلوقٌ عبيدًا في مُلْكِه على مِثْلِه بأن يبغيَ بعضُهم على بعضٍ فيُهمِلَهم، بل لا بدَّ أن يَحجُزَ بينَهم، أو يأخذَ للمظلومِ من الظَّالمِ، ولو كان ذلك المالكُ أقلَّ النَّاسِ وأجهلَهم؛ فكيف إنْ كان عاقلًا؟ فكيف إنْ كان حاكمًا؟ فكيف إنْ كان لا يخافُ أحدًا؟ فكيف إنْ كان عدلًا مُقسِطًا، قد ثبَتَتْ إحاطةُ علمِه وقدرتِه سبحانه وتعالى؟ حسُن كلَّ الحُسْنِ أن يكونَ ذلك سببًا للإنكارِ على مَن يَظُنُّ أنَّ اللهَ يُهمِلُ عبادَه من الحكمِ بينَهم لمجازاةِ كلٍّ من المُطِيعِ والعاصي بما عمل، مع ما ترى من ظلمِ بعضِهم لبعضٍ، وأنَّ الظَّالمَ قد يموتُ قبلَ القصاصِ، فقال مُسبِّبًا عن الوعدِ

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٢٧).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ١٤٥).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٢٩).

بما أفصح به الكتابُ من إثابةِ المؤمنين الذي طالما بغىٰ عليهم الظَّلَمةُ، وانتَقَصَهم حقوقَهم الفَسَقةُ، والوعيد بما أفهمه الخطابُ لعتابِ المجرمين الذين طالما بغَوْا علىٰ غيرِهم: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾[1].

تفريعٌ علىٰ جميعِ ما ذُكر من تقويمِ خلقِ الإنسانِ، ثم رَدِّه أسفلَ سافلين؛ لأنَّ ما بعدَ الفاءِ من الكلامِ مُسبَّبٌ عن البيانِ الذي قبلَ الفاءِ؛ أي: فقد بانَ لك أنَّ غيرَ الذين آمنوا هم الذين رُدُّوا إلىٰ أسفلِ سافلين، فمَن يُكذِّبُ منهم بالدِّينِ الحقِّ بعدَ هذا البيانِ؟[2].

ثم خاطَب الإنسانَ علىٰ طريقِ الالتفاتِ؛ لتشديدِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ، فقال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾

ولمَّا صحَّ أنَّ تاركَ الظَّالمِ بغيرِ انتقامٍ، والمُحسِنِ بلا إكرامٍ، ليس علىٰ منهاجِ العدلِ الذي شرَعه اللهُ تعالىٰ؛ حسُن جدًّا تكريرُ الإنكارِ بقولِه سُبحانَه وتعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[3].

جملةُ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ يجوزُ أن تكونَ خبرًا عن «ما»، والرَّابطُ محذوفٌ تقديرُه: بأحكمِ الحاكمين فيه، ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ دليلًا علىٰ الخبرِ المُخبَرِ به عن «ما» الموصولةِ، وحُذف إيجازًا اكتفاءً بذِكرِ ما هو كالعِلَّةِ له، فالتقديرُ: فالذي يُكذِّبُك بالدِّينِ يتولَّىٰ اللهُ الانتصافَ منه، أليس اللهُ بأحكمِ الحاكمين؟ والاستفهامُ تقريريٌّ[4].

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٤٧-١٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٣٠).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١٤٩).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٣١).

سورة العلق

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ﴾

ولمَّا كان الحيوانُ أكملَ المخلوقاتِ، وكان الإنسانُ أكملَ الحيوانِ وزُبْدةَ مَخْضِه، ولُبابَ حقيقتِه وسِرَّ مَحْضِه، وأدلَّ على تمامِ القدرةِ؛ لكونِه جامعًا لجميعِ ما في الأكوانِ، فكان خلقُه أبدعَ من خلقِ غيرِه، فكان لذلك أدلَّ على كمالِ الصَّانعِ، وعلى وجوبِ إفرادِه بالعبادةِ؛ خصَّه فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾[1].

جملةُ ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ يجوزُ أن تكونَ بدلًا من جملةِ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ بدلَ مُفصَّلٍ من مُجمَلٍ إن لم يُقدَّرْ له مفعولٌ، أو بدلَ بعضٍ إنْ قُدِّرَ له مفعولٌ عامٌّ، وسُلك طريقُ الإبدالِ لِما فيه من الإجمالِ ابتداءً لإقامةِ الاستدلالِ على افتقارِ المخلوقاتِ كلِّها إليه تعالى؛ لأنَّ المقامَ مقامُ الشُّروعِ في تأسيسِ مِلَّةِ الإسلامِ، ففي الإجمالِ إحضارٌ للدَّليلِ مع الاختصارِ مع ما فيه من إفادةِ التَّعميمِ، ثم يكونُ التَّفصيلُ بعدَ ذلك لزيادةِ تقريرِ الدَّليلِ، ويجوزُ أن تكونَ بيانًا من ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ إذا قُدِّرَ لفعلِ ﴿ خَلَقَ ﴾ الأوَّلِ مفعولٌ دَلَّ عليه بيانُه، فيكونُ تقديرُ الكلامِ: اقرَأْ باسمِ ربِّك الذي خلَق الإنسانَ من عَلَقٍ، وخصَّ خلقَ الإنسانِ بالذِّكرِ من بينِ بقيَّةِ المخلوقاتِ؛ لأنَّه المُطَّرِدُ في مقامِ الاستدلالِ، إذْ لا يَغفُلُ أحدٌ من النَّاسِ عن نفسِه، ولا يخلو من أن يَخطُرَ له خاطرُ

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٥٥).

البحثِ عن الذي خلَقه وأَوجَدَه، وفيه تعريضٌ بتحميقِ المشركين الذين ضَلُّوا عن توحيدِ اللهِ تعالىٰ مع أنَّ دليلَ الوحدانيَّةِ قائمٌ في أنفسِهم(١).

ثم فسَّره بقولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ تفخيمًا لخلقِ الإنسانِ، ودلالةً علىٰ عجيبِ فِطْرَتِه(٢).

ثم مثَّل لهم من المخلوقاتِ ما لا مُدافَعةَ فيه، وما يجدُه كلُّ مفطورٍ في نفسِه، فقال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾(٣).

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾

ولمَّا أتمَّ سبحانه ما أرادَ من أمرِ الخلقِ؛ وهو الإيجادُ بالأسبابِ بالتَّدريجِ، أخذ في التنبيهِ علىٰ عالمِ الأمرِ؛ وهو الإبداعُ من غيرِ أسبابٍ، فقال مُكرِّرًا للأمرِ بالقراءةِ تنبيهًا علىٰ عِظَمِ شأنِها، وتأنيسًا له ﷺ، ومُسكِّنًا لرَوْعِه، ومُعلِمًا أنَّ مَن جاءه الأمرُ مِن قِبَلِه ليس كأربابِهم: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾(٤).

ثم جاء الأمرُ ثانيًا تأنيسًا له، كأنَّه قيل: امْضِ لِما أُمِرتَ به، وربُّك ليس مِثلَ هذه الأربابِ، بل هو الأكرمُ الذي لا يَلحَقُه نقصٌ(٥).

ولمَّا كانت القراءةُ من المَلَكاتِ التي لا تكسِبُها النَّفسُ إلَّا بالتَّكرارِ والتَّعوُّدِ، علىٰ ما جَرَتْ به العادةُ في النَّاسِ؛ نابَ تكرارُ الأمرِ الإلهيِّ عن تكرارِ المقروءِ، في تصييرِها مَلَكةً للنَّبيِّ ﷺ؛ فلهذا كرَّر الأمرَ بقوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٣٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢١٦).

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٥٠١).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ١٥٨-١٥٩).

(٥) البحر المحيط (١٠/ ٥٠٧).

(٦) محاسن التأويل (٩/ ٥٠٨).

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾

وأشارَ إلىٰ أنَّ مِن ذلك أنَّه يُفِيضُ علىٰ أُمَّتِه الأُمِّيَّةِ مِن العلمِ والحظِّ ما لم يُفِضْه علىٰ أُمَّةٍ قبلَها، علىٰ قِصَرِ أعمارِهم، فقال مُشِيرًا إلىٰ العلمِ التَّعليمَ، مُشعِرًا بوصفِه سبحانه بالمنحِ بالعلمِ إلىٰ ترتيبِ الحكمِ بالأكرميَّةِ علىٰ هذا الوصفِ النَّاقلِ للإنسانِ من الحالِ العقليِّ السَّافلِ إلىٰ هذا الحالِ العالي الكاملِ: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾[1].

ثم عدَّد تعالىٰ نعمةَ الكتابِ بالقلمِ علىٰ النَّاسِ، وهي موضعُ عِبْرةٍ، وأعظمُ منفعةٍ في المُخاطَباتِ وتخليدِ المعارفِ، فقال: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾[2].

ثم أرادَ أن يزيدَه اطمئنانًا بهذه الموهبةِ الجديدةِ، فوصَف مانحَها بأنَّه ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾[3].

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾

ولمَّا نبَّه بذلك علىٰ ما في الكتابةِ من المنافعِ التي لا يُحِيطُ بها غيرُه سبحانه وتعالى؛ لأنَّها انبنَتْ عليها استقامةُ أمورِ الدنيا والدِّين في الدنيا والآخرةِ، وهي كافيةٌ في الدَّلالةِ علىٰ دقيقِ حكمتِه تعالىٰ ولطيفِ تدبيرِه؛ زادَ ذلك عَظَمةً علىٰ وجهٍ يَعُمُّ غيرَه، فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[4].

جملةُ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ خبرٌ عن قولِه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾، وما بينَهما اعتراضٌ، وتعريفُ «الإنسانِ» يجوزُ أن يكونَ تعريفَ الجنسِ، فيكونَ ارتقاءً في الإعلامِ بما قدَّره اللهُ تعالىٰ من تعليمِ الإنسانِ بتعميمِ التَّعليمِ بعدَ تخصيصِ التَّعليمِ بالقلمِ، وقد

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٥٩).
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٥٠٢).
(٣) محاسن التأويل (٩/ ٥٠٨).
(٤) نظم الدرر (٢٢/ ١٦٠).

حصَلتْ من ذِكْرِ التَّعليمِ بالقلمِ والتَّعليمِ الأعمِّ إشارةٌ إلىٰ ما يتلقَّاه الإنسانُ من التَّعاليمِ، سواءٌ كان بالدَّرسِ أم بمُطالَعةِ الكتبِ، وأنَّ تحصيلَ العلومِ يعتمدُ أمورًا ثلاثةً؛ أحدُها: الأخذُ عن الغيرِ بالمراجعةِ والمطالعةِ، وطريقُهما الكتابةُ وقراءةُ الكتبِ، فإنَّ بالكتابةِ أَمكَنَ للأُمَمِ تدوينُ آراءِ علماءِ البشرِ، ونقلُها إلىٰ الأقطارِ النَّائيةِ وفي الأجيالِ الجائيةِ. والثَّاني: التَّلقِّي من الأفواهِ بالدَّرسِ والإملاءِ. والثَّالثُ: ما تنقدحُ به العقولُ من المُستنبَطاتِ والمُختَرَعاتِ. وهذانِ داخلانِ تحتَ قولِه تعالىٰ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، وفي ذلك اطمئنانٌ لنفسِ النبيِّ ﷺ بأنَّ عدمَ معرفتِه الكتابةَ لا يَحُولُ دونَ قراءتِه؛ لأنَّ اللهَ علَّم الإنسانَ ما لم يعلمْ، فالذي علَّم القراءةَ لأصحابِ المعرفةِ بالكتابةِ قادرٌ علىٰ أن يُعلِّمَك القراءةَ دونَ سَبْقِ معرفةٍ بالكتابةِ[(١)].

ثم أرادَ أن يقطعَ الشُّبهةَ من نفسِه، ويُبعِدَ عنه استغرابَ أن يقرأَ ولم يكنْ قارئًا، فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[(٢)].

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾

ولـمَّا كان الدَّمُ أكثرَ الأخلاطِ وأشدَّها هيجانًا، فإنَّ مرضَه لا يُشبِهُه شيءٌ من أمراضِ بقيَّةِ الأخلاطِ، وكان مع ذلك سريعَ البُرْءِ إن أُصِيبَ علاجُه وعُولِجَ بأمرٍ قاهرٍ أقوىٰ منه، وكان العلمُ قرينَ الغنىٰ في الأغلبِ، وكان زلَّةُ العالِمِ تَفُوقَ زَلَّةَ غيرِه؛ قال مُعرِّفًا بعدَ التَّعريفِ بالإلهيَّاتِ بأمرِ النَّفسِ، مُبيِّنًا لقسمِ الإنسانِ المردودِ أسفلَ سافلين، مُقرِّرًا لحالِه، ورادعًا له عن ضلالِه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٤١).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٥٠٨).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١٦١).

ولمَّا أنَّه خلَقه من عَلَقةٍ، وأَنعَمَ عليه بالنِّعَمِ وأغناه، وزادَ في النِّعمةِ عليه، وكان من طبعِ الإنسانِ أن يطغىٰ ويتجاوزَ الحدَّ في المعاصي واتِّباعِ هوىٰ النَّفسِ؛ ناسَب أن يتوعَّدَه ويزجرَه عن هذه الطَّريقةِ، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾.

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾

ثم ذكَر عِلَّةَ طغيانِه، فقال: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾

ولمَّا كان لا دواءَ لذلك مِثلُ تذكُّرِ الجزاء، قال مُعرِّفًا أنَّ الإنسانَ لا يزالُ مُفتقِرًا إلىٰ مولاه في حياتِه ومماتِه، وغِناه وفقرِه، مُحذِّرًا له سوءَ حالاتِه، مُؤكِّدًا لأجلِ إنكارِهم ذلك: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾[1].

جملةُ ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ مُعترِضةٌ بينَ المقدِّمةِ والمَقصَدِ، والخطابُ للنَّبيِّ ﷺ؛ أي: مرجعُ الطَّاغي إلىٰ اللهِ، وهذا موعظةٌ وتهديدٌ علىٰ سبيلِ التَّعريضِ لِمَنْ يسمعُه من الطُّغاةِ، وتعليمٌ للنَّبيِّ ﷺ وتثبيتٌ له؛ أي: لا يَحزُنْك طغيانُ الطَّاغي، فإنَّ مَرجِعَه إليَّ، ومَرجِعَ الطَّاغي إلىٰ العذابِ، وهو موعظةٌ للطَّاغي بأنَّ غِناه لا يدفعُ عنه الموتَ، والموتُ رجوعٌ إلىٰ اللهِ، وفيه معنًىٰ آخَرُ؛ وهو أنَّ استغناءَه غيرُ حقيقيٍّ؛ لأنَّه مُفتقِرٌ إلىٰ اللهِ في أهمِّ أمورِه، ولا يدري ماذا يُصيِّرُه إليه ربُّه من العواقبِ، فلا يَزِدْه بغنًىٰ زائفٍ في هذه الحياةِ، فيكونَ الرُّجعَىٰ مُستعمَلًا في مجازِه، وهو الاحتياجُ إلىٰ المرجوعِ إليه، وتأكيدُ الخبرِ بـ«إنَّ» مُراعًىٰ فيه المعنىٰ التَّعريضيُّ؛ لأنَّ مُعظَمَ الطُّغاةِ يَنسُون هذه الحقيقةَ بحيث ينزلون منزلةَ مَن يُنكِرُها[2].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٦٢-١٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٤٦).

هـذا الكـلامُ واقـعٌ علـىٰ طريقـةِ الالتفـاتِ إلـىٰ الإنسـانِ تهديـدًا لـه، وتحـذيرًا مـن عاقبةِ الطُّغيانِ(١).

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩﴾

ولمَّـا أَخبَـرَ بطغيانِـه، وعجَّـل بـذِكْرِ دوائِـه؛ لأنَّ المبـادرةَ بالـدَّواءِ لـئلَّا يـتحكَّمَ الـدَّاءُ واجبةٌ؛ دَلَّ علىٰ طغيانِه مُخوِّفًا من عواقبِ الرُّجعَىٰ في أسلوبِ التَّقريرِ؛ لأنَّـه أَوقَـعُ في النَّفسِ، وأَروَعُ لِلُّبِ؛ لأنَّ أبا جهلٍ قـال: «لَـئِنْ رأيـتُ محمـدًا يُعفِّـرُ وجهَـه لأَفضَـخَنَّ رأسَه بصخرةٍ، فجاء ليفعلَ ما زعَم، فنكَص علىٰ عَقِبَيْـهِ، ويَبِسَـتْ يـداه علـىٰ حجـرِه، فسُئل عمَّا دهاه، فقال: إنَّ بيني وبينَه لَهَـوْلًا وأجنحـةً. وفي روايـةٍ: لَخَنـدَقًا مـن النَّـارِ. وفي روايةٍ: لَفَحلًا من الإبلِ، فمـا رأيـتُ مِثلَـه، ولـو دنَـوتُ منـه لأَكَلَنـي»(٢)، وأصـلُ الحديثِ في «صحيحِ مسلمٍ» عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾(٣).

جملـةُ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ إلـىٰ آخِرِهـا هـي المقصـودُ مـن الـرَّدعِ الـذي أفـادَه حـرفُ ﴿كَلَّآ﴾، فهذه الجملـةُ مسـتأنَفةٌ استئنافًا ابتـدائيًّا مُتَّصِـلًا باسـتئنافِ جملـةِ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾، والذي ينهىٰ اتَّفَقوا علىٰ أنَّه أُرِيدَ به أبو جهلٍ، إذ قال قولًا يريدُ بـه نهـيَ النبـيِّ ﷺ أن يُصلِّيَ في المسجدِ الحرامِ، فقال في نادِيه: لَئِنْ رأيتُ محمدًا يُصـلِّي في الكعبـةِ لَأَطَأَنَّ علىٰ عُنُقِه. فإنَّه أرادَ بقولِـه ذلـك أن يَبلُـغَ إلـىٰ النبـيِّ ﷺ، فهـو تهديـدٌ يتضـمَّنُ النَّهيَ عن أن يُصلِّيَ في المسجدِ الحرامِ(٤).

ثم ذكَر بعضَ آثارِ الطُّغيانِ، فقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾.

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٢١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٩٧).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١٦٣-١٦٤).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٤٦).

﴿عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠﴾

ولـمَّا كان أفحشَ ما يكونُ صَدُّ العبدِ عن خدمةِ سَيِّدِه، قال مُعبِّرًا بالعبوديَّةِ، مُنكِرًا للمبالغةِ في تقبيحِ النَّهيِ والدَّلالةِ على كمالِ العبوديَّةِ: ﴿عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾[1].

ثم استَعظَمَ النَّهيَ، وفخَّم مقامَ المنهيِّ بقولِه: ﴿عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾.

﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١﴾

ولـمَّا كان هذا أمرًا خارجًا عن الحدِّ في الطُّغيانِ، وكان السُّؤالُ إنَّما هو عن رؤيةِ حالِه في نَهْيِه العبدَ عن الصَّلاةِ، لا عن رؤيةِ ذاتِه، فتشوَّف السَّامعُ إلى معرفةِ ذلك الحالِ؛ كرَّر التَّقريرَ بزيادةِ التَّعجيبِ من حالِه والتَّحذيرِ، فقال مُكرِّرًا العاملَ زيادةً في التَّأكيدِ، وبيانًا لأنَّ هذا في الحقيقةِ أوَّلُ السُّؤالِ عن الحالِ: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾[2].

تعجيبٌ آخَرُ من حالٍ مفروضٍ وقوعُه؛ أي: أَتظُنُّه ينهى أيضًا عبدًا مُتمكِّنًا من الهدى، فتعجَّب من نهيِه، والتقديرُ: أرأيتَه إن كان العبدُ على الهدى؛ أينهاه عن الهدى؟[3].

﴿أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢﴾

ولـمَّا ذكَر ما لعلَّه يكونُ عليه في تكميلِ نفسِه، ذكَر ما لعلَّه يُعانيه من إنجاءِ غيرِه، فقال: ﴿أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٦٤).
(٢) نظم الدرر (٢٢/ ١٦٤).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٤٧).
(٤) نظم الدرر (٢٢/ ١٦٥).

﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ حتمًا -كما هدىٰ إليه السِّياقُ- ما قدَّرتُه من جوابِ السُّؤالينِ، بنىٰ عليه قولَه زيادةً في التَّوبيخِ والتَّعجيبِ والتَّقريعِ استفهامًا عن حالٍ لهذا النَّاهي مُنافٍ للحالِ الأوَّلِ، مُعِيدًا الفعلَ إيضاحًا لذلك: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾[١].

جملةٌ مستأنَفةٌ للتَّهديدِ والوعيدِ علىٰ التَّكذيبِ والتَّولِّي[٢].

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا عجَّب من حالتِه البعيدةِ عن العقلِ مع نفسِه ومعَ أبناءِ جنسِه، أنكر عليه مُعجِّبًا من كونِه يعلمُ أنَّه ليس بيدِه شيءٌ، المُنتِجِ لأنَّه مُراقَبٌ وحالُه مضبوطٌ غايةَ الضَّبطِ وينسىٰ ذلك، فقال ذاكرًا مفعولَ ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾ الثَّانيَ، وهو لا يكونُ إلَّا جملةً استفهاميَّةً: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾[٣].

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا الخبيثُ مُعرِضًا عن هذا العلمِ الذي هو مُعترِفٌ به كلِّه، وإنَّما كان إعراضُه لِما عندَه من الحظوظِ والشَّهواتِ المُوقِعةِ له -بحكمِ الرَّدِّ أسفلَ سافلينَ- إلىٰ رُتْبةِ البهائمِ؛ أتىٰ بأعظمِ أدواتِ الرَّدعِ، فقال: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾[٤].

﴿ كَلَّا ﴾ أكَّد الرَّدعَ الأوَّلَ بحرفِ الرَّدعِ الثَّاني في آخرِ الجملةِ، وهو الموقعُ الحقيقُ لحرفِ الرَّدعِ، إذ كان تقديمُ نظيرِه في أوَّلِ الجملةِ، لما دعا إليه المقامُ من التَّشويقِ، وأعقب الرَّدعَ بالوعيدِ علىٰ فعلِه إذا لم يَرتدِعْ ويَنْتَهِ عنه[٥].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٤٨).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١٦٦).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ١٦٨-١٦٩).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٤٩).

ثم توعَّدَه إنِ استمَرَّ علىٰ حالِه، فقال: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾(١).

﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا كان من المعلومِ أنَّ مَن صار في القبضةِ علىٰ هذه الهيئةِ المُهينةِ المُزْرِيةِ فهو هالكٌ، اغتنىٰ به عن أن يقولَ: وَلَنسحَبَنَّه بها علىٰ وجهِه إلىٰ النَّارِ، ووصَفها بما يدلُّ علىٰ ذلك فقال مُبدِلًا لأنَّ البدلَ وصف بما قربه من المعرفةِ: ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾(٢).

ثم وصَفها بما يدلُّ علىٰ عِلَّةِ السَّفْعِ وشمولِه لكُلِّ مَن وُجد فيه ذلك، فقال: ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾.

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا هو غايةَ الإهانةِ، وكان الكفارُ إنَّما يَقصِدون بإعراضِهم الشَّماخةَ والأَنَفةَ والعِزَّ عن أن يكونوا أتباعًا أذنابًا، وإنَّما عِزُّهم بقومِهم، وأقربُ من يعتزُّ به الإنسانُ أهلُ نادِيه، وهم القومُ الذين يجتمعون نهارًا ليُحدِّثَ بعضُهم بعضًا ويَستروِحَ بعضُهم إلىٰ بعضِهم؛ لِما عندَهم من التَّصافي؛ لأنَّهم لا يتركون أشغالَهم نهارًا ويجتمعون لذلك إلَّا عن ذلك، قال تعالىٰ مُسبِّبًا عن أخذِه علىٰ هذا الوجهِ المُزرِي: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾(٣).

أنَّ أبا جهلٍ هدَّد النبيَّ ﷺ بكثرةِ أنصارِه؛ وهم أهلُ نادِيه، فرَدَّ اللهُ عليه بأن أَمَرَه بدعوةِ نادِيه(٤).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٩٣٠).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ١٧٠).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١٧١).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٥٢).

﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨﴾

لمَّا كان كأنَّه قيل: فلو دعا نادِيَه، يكونُ ماذا؟ قال: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[1].

قولُه: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ جوابُ الأمرِ التَّعجيزيِّ؛ أي: فإنْ دعا ناديَه، دَعَوْنا لهم الزَّبانيةَ[2].

﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ١٩﴾

لمَّا كان الذي تَقدَّمَ نهيَ النَّاهي للمُصلِّي والسَّفْع بناصيتِه إنْ لم يَنْتَهِ، وأمره بدعاءِ نادِيه، وكان الحكمُ في الأوَّلِ أنَّه لا يُجِيبُه إلى تركِ الصَّلاةِ، وفي الثَّاني أنَّ النَّاهيَ لا ينتهي عن عصيانِه بالتَّهديدِ، وأنَّه لا يفيدُه دعاءُ نادِيه، فالكُلُّ منفيٌّ؛ حسُن كلَّ الحُسْنِ الإتيانُ بأداةِ الرَّدعِ، فقال: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩﴾[3].

ثم كرَّر الرَّدعَ والزَّجرَ، فقال: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩﴾[4].

ثم أمره اللهُ أن لا يُصغِيَ إلى هذا النَّاهي، ولا ينقادَ لنَهْيِه، فقال: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٧١).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٥٢).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١٧٢).

(٤) فتح القدير (٥/ ٥٧٤).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٩٣٠).

سُورَةُ القَدْرِ

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢﴾

لمَّا عُلم من السِّياقِ تعظيمُها بعَظَمةِ ما أُنزِلَ فيها، وبالتعبيرِ عنها بهذا؛ قال مُؤكِّدًا لذلك التَّعظيمِ، حثًّا على الاجتهادِ في إحيائِها؛ لأنَّ للإنسانِ من الكسلِ والتَّداعي إلى البطالةِ ما يُزهِّدُه في ذلك: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ (1).

ثم فخَّم شأنَها، وعظَّم مقدارَها، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ (2).

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾

لمَّا ثبَتتْ عَظَمتُها بالتنبيهِ على أنَّها أهلٌ لِأَنْ يُسأَلَ عن خصائصِها، قال مُستأنِفًا: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ (3).

ثم إنَّه تعالى بيَّن فضيلتَها من ثلاثةِ أوجهٍ؛ الأوَّلُ: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ (4).

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ فإنَّه بيانٌ إجماليٌّ لشأنِها إثرَ تشويقِه ﷺ إلى درايتِها (5).

---

(1) نظم الدرر (٢٢/ ١٧٨-١٧٩).

(2) تفسير السعدي (ص: ٩٣١).

(3) نظم الدرر (٢٢/ ١٧٩).

(4) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٣١).

(5) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٨٢).

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ ﴾

ولمَّا ثبَتَتْ عَظَمتُها بالتنبيهِ علىٰ أنَّها أهلٌ لأن يُسأَلَ عن خصائِصِها، قال مُستأنِفًا: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾[1].

واعلَمْ أنَّ موقعَ قولِه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، من جملةِ ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ موقعُ الاستئنافِ البيانيِّ، أو موقعُ بدلِ الاشتمالِ، فلمراعاةِ هذا الموقعِ فُصِلَتِ الجملةُ عن التي قبلَها، ولم تُعطَفْ عليها مع أنَّهما مشتركانِ في كونِ كلٍّ واحدةٍ منهما تفيدُ بيانًا لجملةِ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾، فأُوثِرَتْ مراعاةُ موقعِها الاستئنافيِّ أو البدليِّ علىٰ مراعاةِ اشتراكِهما في كونِها بيانًا لجملةِ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾؛ لأنَّ هذا البيانَ لا يفوتُ السَّامعَ عندَ إيرادِها في صورةِ البيانِ أو البدلِ، بخلافِ ما لو عُطِفَتْ علىٰ التي قبلَها بالواوِ؛ لفواتِ الإشارةِ إلىٰ أنَّ تنزُّلَ الملائكةِ فيها من أحوالِ خيريَّتِها[2].

الوجهُ الثَّاني من فضائلِ هذه اللَّيلةِ قولُه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾[3].

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لمناطِ فضلِها علىٰ تلك المُدَّةِ المُتطاوِلةِ[4].

جملةُ ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ مستأنَفةٌ مُبيِّنةٌ لوجهِ فضلِها، مُوضِّحةٌ للعِلَّةِ التي صارت بها خيرًا من ألفِ شهرٍ[5].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٨٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٦٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٣٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٨٣).

(٥) فتح القدير (٥/ ٥٧٦).

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه هذه الفضائلَ، كانت النَّتيجةُ أنَّها مُتَّصِفةٌ بالسَّلامةِ التَّامَّةِ كاتِّصافِ الجنَّةِ -التي هي سببُها- بها، فكان ذلك أدلَّ على عَظَمتِها، فقال تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾[1].

جملةُ ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ بيانٌ لمضمونِ ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٍ﴾، وهو كالاحتراسِ لأنَّ تَنزُّلَ الملائكةِ يكونُ للخيرِ ويكونُ للشَّرِّ لعقابِ مُكذِّبي الرُّسلِ، فأخبر هنا أنَّ تَنزُّلَ الملائكةِ ليلةَ القدرِ لتنفيذِ أمرِ الخيرِ للمسلمين الذين صاموا رمضانَ وقاموا ليلةَ القدرِ، فهذه بشارةٌ[2].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٨١).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٦٤-٤٦٥).

سُورَةُ البَيِّنَةِ

📖 ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾ 📖

والبيِّنةُ هو الرسولُ وما معَه من الآياتِ التي أعظمُها الكتابُ، سواءٌ كان التَّوراةَ أو الإنجيلَ أو الزَّبُورَ أو الفرقانَ؛ ولذلك أَبدَلَ منها قولَه: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ (١).

اعلَمْ أنَّه يجوزُ أن يكونَ الكلامُ انتهىٰ عندَ قولِه: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، فيكونَ الوقفُ هناك، ويكونَ قولُه: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ آخِرِها جملةً مُستأنفةً استئنافًا بيانيًّا، وهو قولُ الفرَّاءِ؛ أي: هي رسولٌ من اللهِ؛ يعني لأنَّ ما في البيِّنةِ من الإبهامِ يُثِيرُ سؤالَ سائلٍ عن صفةِ هذه البيِّنةِ، وهي جملةٌ مُعترِضةٌ بينَ جملةِ ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ إلىٰ آخِرِها، وبينَ جملةِ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ويجوزُ أن يكونَ ﴿رَسُولٌ﴾ بدلًا من «البيِّنةِ»، فيقتضي أن يكونَ من تمامِ لفظِ «بيِّنةٍ»، فيكونَ من حكايةِ ما زعَموه أُرِيدَ إبطالُ معاذيرِهم وإقامةُ الحُجَّةِ عليهم بأنَّ البيِّنةَ التي ينتظرونها قد حلَّتْ ولكنَّهم لا يتدبَّرون، أو لا يُنصِفون، أو لا يفقهون (٢).

ثم فسَّر تلك البيِّنةَ، فقال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ (٣).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٨٧-١٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٧٥).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٩٣١).

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾

ولمَّا عظَّمه بأنْ وصَف صُحُفَه التي هي محلُّ المكتوبِ بالطَّهارةِ، بيَّن سببَ ذلك، فقال: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ (١).

ثم وصَف الصُّحُفَ بصفةٍ أخرىٰ، فقال: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝٤﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فإذا أَتَتْهم، انفكُّوا، فلقد تَفرَّقَ المشركون بعدَ إتيانِك، وأَتَتِ البيِّنةُ العظمىٰ إليهم، إلىٰ مُهتَدٍ وضالٍّ، والضَّالُّ إلىٰ مُجاهِرٍ ومُساتِرٍ، وكذا أهلُ الكتابِ، ثم ما اجتمَع العربُ علىٰ الهدىٰ إلَّا من بعدِ ما جاءتهم البيِّنةُ؛ عطَف علىٰ هذا الذي أَفهَمَه السِّياقُ قولَه مُعلِمًا بزيادةِ القبحِ في وقوعِ الذَّنبِ من العالمِ بإفرادِهم بالتَّصريحِ عن المشركين: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (٢).

ارتقاءٌ في الإبطالِ، وهو إبطالٌ ثانٍ لدعواهم بطريقِ النَّقضِ الجدليِّ المسمَّىٰ بالمُعارَضةِ؛ وهو تسليمُ الدَّليلِ والاستدلالُ لِما يُنافِي ثبوتَ المدلولِ، وهذا إبطالٌ خاصٌّ بأهلِ الكتابِ اليهودِ والنَّصارىٰ؛ ولذلك أَظهَرَ فاعلَ ﴿تَفَرَّقَ﴾، ولم يَقُلْ: وما تَفرَّقوا إلَّا مِن بعدِ ما جاءتهم البيِّنةُ، إذ لو أُضمِرَ لَتُوُهِّمَتْ إرادةُ المشركين من جملةِ معادِ الضَّميرِ، بعدَ أنْ أَبطَلَ زعمَهم بقولِه: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ ارتقىٰ إلىٰ إبطالِ مزاعمِهم إبطالًا مَشُوبًا بالتَّكذيبِ وبشهادةِ ما حصل في الأزمانِ الماضيةِ، فيجوزُ أن تكونَ الواوُ للعطفِ عاطفةً إبطالًا علىٰ إبطالٍ، ويجوزُ أن تكونَ واوَ الحالِ (٣).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٨٨).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ١٩٠).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٧٨).

كلامٌ مَسُوقٌ لغايةِ تشنيعِ أهلِ الكتابِ خاصَّةً، وتغليظِ جناياتِهم ببيانِ أنَّ ما نُسب إليهم من الانفكاكِ لم يكنْ لاشتباهٍ ما في الأمرِ؛ بل كان بعدَ وضوحِ الحقِّ، وتبيُّنِ الحالِ، وانقطاعِ الأعذارِ بالكُلِّيَّةِ، وهو السِّرُّ في وصفِهم بإيتاءِ الكتابِ المُنبِئِ عن كمالِ تَمكُّنِهم من مطالعتِه والإحاطةِ بما في تضاعيفِه من الأحكامِ والأخبارِ التي من جملتِها نُعُوتُ النبيِّ ﷺ بعدَ ذِكْرِهم فيما سبق بما هو جارٍ مجرىٰ اسمِ الجنسِ للطَّائفتينِ، ولمَّا كان هؤلاء والمشركون -باعتبارِ اتِّفاقِهم علىٰ الرَّأيِ المذكورِ- في حكمِ فريقٍ واحدٍ، عبَّر عمَّا صدَر عنهم عَقِيبَ الاتِّفاقِ عندَ الإخبارِ بوقوعِه بالانفكاكِ، وعندَ بيانِ كيفيَّةِ وقوعِه بالتَّفرُّقِ اعتبارًا لاستقلالِ كلٍّ مِن فريقَيْ أهلِ الكتابِ، وإيذانًا بأنَّ انفكاكَهم عن الرَّأيِ المذكورِ ليس بطريقِ الاتِّفاقِ علىٰ رأيٍ آخَرَ؛ بل بطريقِ الاختلافِ القديمِ(١).

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ هذه الجملةُ مستأنفةٌ لتوبيخِ أهلِ الكتابِ وتقريعِهم، وبيانِ أنَّ ما نُسب إليهم من عدمِ الانفكاكِ لم يكنْ لاشتباهِ الأمرِ؛ بل كان بعدَ وضوحِ الحقِّ وظهورِ الصَّوابِ(٢).

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾

ولمَّا كان حالُ مَن ضَلَّ علىٰ علمٍ أَشنَعَ، زادَ في فضيحتِهم، فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾(٣).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٨٥).

(٢) فتح القدير (٥/ ٥٨٠).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١٩٢).

هذا إبطالٌ ثالثٌ لتَنصُّلِهم من متابعةِ الإسلامِ بعِلَّةِ أنَّهم لا يتركون ما هم عليه حتَّىٰ تأتيَهم البيِّنةُ، وزعمهم أنَّ البيِّنةَ لم تَأْتِهم، وهو إبطالٌ بطريقِ القولِ بالموجبِ في الجدلِ؛ أي: إذا سلَّمْنا أنَّكم موصون بالتَّمسُّكِ بما أنتم عليه، لا تَنفكُّون عنه حتَّىٰ تأتيَكم البيِّنةُ؛ فليس في الإسلامِ ما يُنافِي ما جاء به كتابُكم يأمرُ بما أمر به القرآنُ، وهو عبادةُ اللهِ وحدَه دونَ إشراكٍ، وذلك هو الحنيفيَّةُ، وهي دينُ إبراهيمَ الذي أُخذ عليهم العهدُ به؛ فذلك دينُ الإسلامِ، وذلك ما أُمِرتُم به في دينِكم، فلك أن تجعلَ الواوَ عاطفةً علىٰ جملةِ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلخ، ولك أن تجعلَ الواوَ للحالِ، فتكونَ الجملةُ حالًا من الضَّميرِ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، والمعنىٰ: والحالُ أنَّ البيِّنةَ قد أَتَتْهم إذ جاء الإسلامُ بما صدَّق قولَ اللهِ تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام: «أُقِيمُ لهم نبيًّا من وسطِ إخوتِهم، وأجعلُ كلامي في فمِه»، وقولَ عيسىٰ عليه السلام: «فهو يُعلِّمُكم كلَّ شيءٍ، ويُذكِّرُكم بكُلِّ ما قلتُه لكم»[1].

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ حاليَّةٌ مفيدةٌ لغايةِ قبحِ ما فعلوا، وتقريعِهم، وتوبيخِهم بما فعلوا من التَّفرُّقِ بعدَ مجيءِ البيِّنةِ[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾

ثم دَلَّ علىٰ ما قدَّرتُه في أمرِ المشركين بذِكْرِهم في نتيجةِ ما مضىٰ في قولِه مُؤكِّدًا لأجلِ إنكارِهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٧٩).

(٢) فتح البيان (١٥/ ٣٣٤).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ١٩٥-١٩٦).

بعدَ أنْ أنحىٰ علىٰ أهلِ الكتابِ والمشركين معًا، ثم خصَّ أهلَ الكتابِ بالطَّعنِ في تعلُّلاتِهم، والإبطالِ لشبهاتِهم التي يُتابِعُهم المشركون عليها؛ أَعقَبَه بوعيدِ الفريقينِ جمعًا بينَهما كما ابتدأ الجمعَ بينهما في أوَّلِ السورةِ؛ لأنَّ ما سبق من الموعظةِ والدَّلالةِ كافٍ في تدليلِ أنفسِهم للموعظةِ، فالجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ، وقدَّم أهلَ الكتابِ علىٰ المشركين في الوعيدِ؛ استتباعًا لتقديمِهم عليهم في سببِه كما تقدَّم في أوَّلِ السورةِ، ولأنَّ معظمَ الرَّدِّ كان مُوجَّهًا إلىٰ أحوالِهم[١].

لمَّا ذكَر حالَ الكفارِ أوَّلًا في قولِه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ثم ذكَر ثانيًا حالَ المؤمنين في قولِه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أعادَ في آخرِ هذه السورةِ ذِكرَ كلا الفريقينِ، فبدأ أيضًا بحالِ الكفارِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[٢].

بيانٌ لحالِ الفريقينِ في الآخرةِ بعدَ بيانِ حالِهم في الدنيا، وذكَر المشركين لئلَّا يُتوهَّمَ اختصاصُ الحكمِ بأهلِ الكتابِ حَسَبَ اختصاصِ مشاهدةِ شواهدِ النُّبُوَّةِ في الكتابِ بهم[٣].

ثم ذكَر جزاءَ الكافرين بعدَما جاءتهم البيِّنةُ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٨٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٤٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٨٦).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٩٣٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾

ولمَّا ذكَر الأعداءَ وبدأ بهم؛ لأنَّ السِّياقَ لذمِّ مَن جمد من المألوفِ وترك المعروفَ؛ أَتبعَه الأولياءَ، فقال مُؤكِّدًا لِما للكُفَّارِ من الإنكارِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[(١)].

قُوبِلَ حالُ الكَفَرةِ من أهلِ الكتابِ وحالُ المشركين بحالِ الذين آمنوا بعدَ أن أُشِيرَ إليهم بقولِه: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ استيعابًا لأحوالِ الفرقِ في الدنيا والآخرةِ، وجريًا علىٰ عادةِ القرآنِ في تعقيبِ نذارةِ المُنذَرين ببشارةِ المُطمئِنِّين، وما ترتَّب علىٰ ذلك من الثَّناءِ عليهم، وقدَّم الثَّناءَ عليهم علىٰ بشارتِهم -علىٰ عكسِ نظمِ الكلامِ المتقدِّمِ في ضِدِّهم- ليكونَ ذِكرُ وعدِهم كالشُّكرِ لهم علىٰ إيمانِهم وأعمالِهم، فإنَّ اللهَ شكورٌ، والجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن تكرُّرِ ذِكْرِ الذين كفروا من أهلِ الكتابِ والمشركين، فإنَّ ذلك يثيرُ في نفوسِ الذين آمنوا من أهلِ الكتابِ والمشركين تساؤلًا عن حالِهم؛ لعلَّ تأخُّرَ إيمانِهم إلىٰ ما بعدَ نزولِ الآياتِ في التَّنديدِ عليهم يجعلُهم في انحطاطٍ درجةً، فجاءت هذه الآيةُ مُبيِّنةً أنَّ مَن آمن منهم هو معدودٌ في خيرِ البريئةِ[(٢)].

ثم بيَّن حالَ الفريقِ الآخرِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٩٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٨٥).

(٣) فتح القدير (٥/ ٥٨١).

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾

ولمَّا خصَّصهم بالخيريَّةِ، ذكَر ثوابَهم، فقال ذاكرًا جنَّةَ أبدانِهم، مُعظِّمًا لهم بالتعبيرِ عن إنعامِه عليهم بلفظِ «الجزاءِ» المُؤذِنِ بأنَّه مقابلةُ ما وُصفوا به: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[1].

وبعدَ أن أثنىٰ عليهم، ذكَر جزاءَهم، فقال: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾.

(١) نظم الدرر (٢٢/ ١٩٧).

سورة الزلزلة

﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ ﴾

ولمَّا كان الاضطرابُ العظيمُ يكشفُ عن الخفيِّ في المُضطرِبِ، قال: ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾[1].

﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ ﴾

ولمَّا كان الإنسانُ إذا رأىٰ هذا، عَجِبَ له، ولم يُدرِكْ سببَه؛ لأنَّه أمرٌ عظيمٌ فظيعٌ يُبهِرُ عقلَه، ويَضِيقُ عنه ذَرْعُه؛ عبَّر عنه بقولِه: ﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾[2].

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ ﴾

ولمَّا طالَ الكلامُ، وأُرِيدَ التَّهويلُ؛ أَبدَلَ من «إذا» قولَه مُعرِّفًا للإنسانِ ما سأل عنه: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٠٤).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٢٠٥).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٢٠٥).

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾

ولمَّا كان من المُقرَّرِ أنَّه لا يكونُ شيءٌ إلَّا بإذنِه تعالىٰ، وكان قد بنىٰ الأفعالَ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه، فكان الجاهلُ ربما خَفِيَ عليه فاعلُ ذلك؛ قال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾(١).

ثم ذكَر سببَ تحديثِها، فقال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦﴾

ولمَّا أخبرَ تعالىٰ بإخراجِ الأثقالِ التي منها الأمواتُ، اشتدَّ التَّشوُّفُ إلىٰ هيئةِ ذلك الإخراجِ وما يتأثَّرُ عنه، فقال مُكرِّرًا ذِكرَ اليومِ زيادةً في التَّهويلِ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾(٢).

وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ بدلٌ من جملةِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، والجوابُ هو فعلُ ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾، وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يتعلَّقُ به، وقُدِّمَ علىٰ مُتعلَّقِه للاهتمامِ، وهذا الجوابُ هو المقصودُ من الكلامِ؛ لأنَّ الكلامَ مَسُوقٌ لإثباتِ الحشرِ، والتَّذكيرِ به، والتَّحذيرِ من أهوالِه؛ فإنَّه عندَ حصولِه يعلمُ النَّاسُ أنَّ الزِّلزالَ كان إنذارًا بهذا الحشرِ(٣).

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾

ثم سبَّب عن ذلك قولَه، مُفصِّلًا الجملةَ التي قبلَه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٠٦).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٩٣).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٢٠٧).

تفريعٌ على قولِه: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ تفريعَ الفَذْلَكةِ، انتقالًا للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ بعدَ الفراغِ من إثباتِ البعثِ والجزاءِ، والتَّفريعُ قاضٍ بأنَّ هذا يكونُ عَقِبَ ما يَصدُرُ النَّاسُ أشتاتًا[1].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾

ولمَّا ذكَر الخيرَ، أَتبعَه ضِدَّه، فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[2].

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٩٤).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٢٠٨).

سُورَةُ العَادِيَاتِ

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾

ولمَّا ذكَر عَدْوَها، أَتبَعَه ما ينشأُ عنه، فقال عاطفًا بأداةِ التَّعقيبِ؛ لأنَّ العَدْوَ بحيثُ يَتسبَّبُ عنه ويَتعقَّبُه الإيراءُ: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾(١).

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾

ولمَّا ذكَر العَدْوَ وما يتأثَّرُ عنه، ذكَر نتيجتَه وغايتَه، فقال: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾(٢).

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾

لمَّا كان الأعداءُ حالَ الإغارةِ يكونُ مختلفًا تارةً يمينًا وتارةً شمالًا وتارةً أمامًا وتارةً وراءً، بحَسَبِ الكَرِّ والفَرِّ في المُصاوَلةِ والمُحاوَلةِ تارةً أثَرَ الهاربِ، وأخرىٰ في مُصاوَلةِ المُقبِلِ المُحارِبِ، فينشأُ عنها الغبارُ الكثيرُ لإثارةِ الهواءِ له واصطدامِ بعضِه ببعضٍ لتعاكسِه بقُوَّةِ الدَّفعِ من قوائمِها وما تُحرِّكُه منه، وكان المُقسَمُ به منظورًا فيه إلىٰ ذاتِه ونتيجةُ القَسَمِ منظورًا فيها إلىٰ الفعلِ بادئَ بدءٍ مع قطعِ النَّظرِ بالأصالةِ عن الذَّاتِ؛ عطَف علىٰ اسمِ الفاعلِ بعدَ حلِّه إلىٰ أن وصَلَتْها، فقال: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢١٢).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٢١٢).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٢١٢-٢١٣).

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ ﴾

ولمَّا كان المُغِيرُ يتوسَّطُ الجمعَ عندَ اختلالِ حالِهم فيُفرِّقُ شملَهم؛ لأنَّهم متىٰ افترَقوا حصَل فيهم الخللُ، ومتىٰ اختلَفوا تَخلَّلَهم العَدُوُّ ففرَّق شملَهم؛ قال: ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾(١).

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ ﴾

ولمَّا أَقسَمَ بالخيلِ التي هي أشرفُ الحيوانِ، كما أنَّ الإنسانَ المُقسَمَ لأجلِه أشرفُ ما اتَّصفَ منه بالبيانِ، وتجري به أفكارُه كخيلِ الرِّهانِ، وتقدحُ المعاني تارةً مُقترنةً بأشرفِ اللَّمَعانِ، وأخرىٰ بأخسِّ ما يقعُ به الاقترانُ، من الزُّورِ والبهتانِ، والإلحادِ والطُّغيانِ، وتُغيِّرُ منه ثواقبُ الأذهانِ، تارةً علىٰ شُبَهِ الخصومِ بالبرهانِ، وأخرىٰ بما يُغيِّرُ به من الشُّبَهِ المُلتبِسةِ في وجوهِ المعاني الحسانِ، وينثرُ تارةً المعانيَ الصَّحيحةَ علىٰ أهلِ الطُّغيانِ، من ذوي البِدَعِ والكفرانِ، وأخرىٰ الفاسدةَ علىٰ حزبِ الملكِ الدَّيَّانِ، وتتوسَّطُ تارةً جمعَ أُولِي الطُّغيانِ، وأخرىٰ جمعَ أُولِي الإيمانِ، وكانت الإغارةُ في الغالبِ لأجلِ قهرِ المُغارِ عليهم علىٰ أموالِهم عدوانًا إنْ كان ذلك في غيرِ الجهادِ، وإنْ كانت في الجهادِ فقَلَّ مَن يخلصُ في ذلك الحالِ، فيكونُ عملُه ليس إلَّا للهِ كما أشارَ إليه الحديثُ القُدُسيُّ: «إنَّ عبدي كلَّ عبدي لَلَذّي يَذكُرُني عندَ لقاءِ قِرْنِه»(٢)؛ قال مُجيبًا للقَسَمِ بذِكْرِ المُقسَمِ عليه، حاكمًا علىٰ النَّوعِ باعتبارِ عدِّ المُخلِصِ لقِلَّتِه عَدَمًا، مُؤكِّدًا لِما لهم من تكذيبِ ذلك، فإنَّ كلَّ أحدٍ يتبرَّأُ من مِثْلِ هذا الحالِ: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢١٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٨٠).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٢١٣-٢١٤).

جملةُ ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴾ جوابُ القَسَمِ[(١)].

﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴿٧﴾ ﴾

ولمَّا كان إقدامُ الإنسانِ علىٰ الظُّلمِ عجبًا، فإذا كان يشهدُ علىٰ نفسِه بالظُّلمِ كان أعجبَ؛ قال مُؤكِّدًا لِما لأكثرِ الخلقِ قبلَ البعثِ والمحاققة من إنكارِ كفرانِه: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴾[(٢)].

المقصودُ في هذه الجملةِ تفظيعُ كُنُودِ الإنسانِ بأنَّه معلومٌ لصاحبِه بأدنىٰ تأمُّلٍ في أقوالِه وأفعالِه[(٣)].

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

ولمَّا كان من العجائبِ أن يكفرَ أحدٌ إحسانَ المُنعِمِ، وهو شاهدٌ علىٰ نفسِه؛ ذكَر الحاملَ له علىٰ ذلك حتَّىٰ هانَ عليه، فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾[(٤)].

﴿ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٩﴾ ﴾

ولمَّا كان المالُ فانيًا، لا ينبغي لعاقلٍ أن يُعلِّقَ أملَه به، فضلًا عن أن يُؤثِرَه علىٰ الباقي؛ نبَّهَه علىٰ ذلك بتهديدٍ بليغٍ، فقال مُسبِّبًا عن ذلك مُعجِّبًا، مُوقِفًا له علىٰ ما يَؤُولُ إليه أمرُه: ﴿ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٠٢).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٢١٥).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٠٣).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٢١٦).

(٥) نظم الدرر (٢٢/ ٢١٧).

فُرِّعَ علىٰ الإخبارِ بكُنُودِ الإنسانِ وشُحِّه استفهامٌ إنكاريٌّ عن عدمِ علمِ الإنسانِ بوقتِ بَعْثَرةِ ما في القبورِ وتحصيلِ ما في الصُّدورِ، فإنَّه أمرٌ عجيبٌ، كيف يَغفُلُ عنه الإنسانُ؟![1].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا عَدَّ عليه قبائحَ أفعالِه، خوَّفَه، فقال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾[2].

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾

ولمَّا كان المَخُوفُ إنَّما هو ما يتأَثَّرُ عن البعثِ من الجزاءِ علىٰ الأعمالِ الفاسدةِ، قال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾[3].

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾

ولمَّا كان علمُ ما في الصُّدورِ أمرًا باهرًا للعقلِ، قال جامعًا نظرًا إلىٰ المعنىٰ لِما عبَّر عنه بالإفرادِ بالنَّظرِ إلىٰ اللَّفظِ؛ لأنَّ العلمَ بالكُلِّ يُلازِمُه العلمُ بالبعضِ، بخلافِ العكسِ، مُؤكِّدًا إشارةً إلىٰ أنَّه ممَّا لا يكادُ يُصدَّقُ، مُعلِّلًا للجملةِ المحذوفةِ الدَّالَّةِ علىٰ الحسابِ: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾[4].

جملةٌ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن الإنكارِ؛ أي: كان شأنُهم أن يعلموا اطِّلاعَ اللهِ عليهم إذا بُعثِرَ ما في القبورِ، وأن يذكروه؛ لأنَّ وراءَهم الحسابَ المُدقَّقَ، وتفيدُ هذه الجملةُ مفادَ التَّذييلِ[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٠٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٦٢).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٢١٨).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٢١٨).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٠٧).

سُورَةُ القَارِعَةِ

📖 ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ ﴾ 📖

ولمَّا كانت تفوقُ الوصفَ في عِظَمِ شأنِها وجليلِ سلطانِها، عبَّر عن ذلك وزادَه عِظَمًا بالإلهامِ والإظهارِ في موضعِ الإضمارِ، مُشِيرًا بالاستفهامِ إلىٰ أنَّها ممَّا يَستحِقُّ السُّؤالَ عنه علىٰ وجهِ التَّعجيبِ والاستعظامِ، فقال: ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾[1].

﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ استئنافًا للتَّهويلِ[2].

📖 ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾ 📖

وأكَّد تعظيمَها إعلامًا بأنَّه مهما خطَر ببالِك من عِظَمِها فهي أعظمُ منه، فقال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾[3].

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ تأكيدٌ لهَوْلِها وفظاعتِها ببيانِ خروجِها عن دائرةِ علومِ الخلقِ علىٰ معنىٰ أنَّ عِظَمِ شأنِها بحيثُ لا تكادُ تنالُه درايةُ أحدٍ حتَّىٰ يُدرِيَك بها[4].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥١٠).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٢٢٠-٢٢١).

(٤) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٩٢).

﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤ ﴾

ولمَّا ألقىٰ السَّامعُ جميعَ فِكْره إلىٰ تعرُّفِ أحوالِها، قال ما تقديرُه: تكونُ ﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ ﴾ مع مُتعلَّقِها المحذوفِ بيانٌ للإبهامينِ اللَّذينِ في قولِه: ﴿ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ ﴾، وقولِه: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣ ﴾، والمقصودُ بهذا التَّوقيتِ زيادةُ التَّهويلِ بما أُضِيفَ إليه ﴿ يَوۡمَ ﴾ من الجملتينِ المفيدتينِ أحوالًا هائلةً، إلَّا أنَّ شأنَ التَّوقيتِ أن يكونَ بزمانٍ معلومٍ، وإذ قد كان هذا الحالُ المُوقَّتُ بزمانِه غيرَ معلومٍ مداه؛ كان التَّوقيتُ له إطماعًا في تعيينِ وقتِ حصولِه، إذ كانوا يسألون: متىٰ هذا الوعدُ؟ ثم توقيتُه بما هو مجهولٌ لهم إبهامًا آخرَ للتَّهويلِ والتَّحذيرِ من مفاجأتِه، وأُبرزَ في صورةِ التَّوقيتِ للتَّشويقِ إلىٰ البحثِ عن تقديرِه، فإذا باءَ الباحثُ بالعجزِ عن أخذِ بحيطةِ الاستعدادِ لحلولِه بما يُنجِيه من مصائبِه التي قُرِعَتْ بها الأسماعُ في آيٍ كثيرةٍ، فحصَل في هذه الآيةِ تهويلٌ شديدٌ بثمانيةِ طرقٍ؛ وهي الابتداءُ باسمِ القارعةِ، المُؤذِنُ بأمرٍ عظيمٍ، والاستفهامُ المُستعمَلُ في التَّهويلِ، والإظهارُ في مقامِ الإضمارِ أوَّلَ مرَّةٍ، والاستفهامُ عمَّا يُنبِئُ بكُنْهِ القارعةِ، وتوجيهُ الخطابِ إلىٰ غيرِ مُعيَّنٍ، والإظهارُ في مقامِ الإضمارِ ثانيَ مرَّةٍ، والتَّوقيتُ بزمانٍ مجهولٍ حصولُه، وتعريفُ ذلك الوقتِ بأحوالٍ مَهُولةٍ[(٢)].

ثم بيَّن سبحانه متىٰ تكونُ القارعةُ، فقال: ﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٢١).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥١١).

(٣) فتح القدير (٥/ ٥٩٤).

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾

ولمَّا كانت الجبالُ أشدَّ ما تكونُ، عظَّم الرَّهبةَ بالإخبارِ بما يفعلُ بها، فقال تعالىٰ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾(١).

جملةُ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ مُعترضةٌ بينَ جملةِ ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾، وجملةِ ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، وهو إدماجٌ لزيادةِ التَّهويلِ(٢).

الصِّفةُ الثَّانيةُ من صفاتِ ذلك اليومِ قولُه تعالىٰ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾(٣).

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾

ولمَّا كان اليومُ إنَّما يُوصَفُ لأجلِ ما يقعُ فيه، سبَّب عن ذلك قولَه مُفصِّلًا لهم: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾(٤).

تفصيلٌ لِما في قولِه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ من إجمالِ حالِ النَّاسِ حينَئذٍ، فذلك هو المقصودُ بذِكْرِ اسمِ «النَّاسِ» الشَّاملِ لأهلِ السَّعادةِ وأهلِ الشَّقاءِ؛ فلذلك كان تفصيلُه بحالينِ: حالٍ حسنٍ، وحالٍ فظيعٍ(٥).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٢٢).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥١٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٦٧).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٢٢٣).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥١٣).

لمَّا وصَف يومَ القيامةِ، قسَّم النَّاسَ فيه إلىٰ قسمينِ، فذكر القسمَ الأوَّلَ، وقال: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾[(١)].

قولُه تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ إلخ، بيانٌ إجماليٌّ لتحزُّبِ النَّاسِ إلىٰ حزبينِ، وتنبيهٌ علىٰ كيفيَّةِ الأحوالِ الخاصَّةِ بكُلٍّ منهما إثرَ بيانِ الأحوالِ الشَّاملةِ للكُلِّ[(٢)].

﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ٧ ﴾

فتسبَّب عن رجحانِ حسناتِه قولُه: ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾[(٣)].

ثم ذكَر مسكنَه، فقال: ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ ﴾

ثم ذكَر الفريقَ الآخرَ من النَّاسِ، فقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾.

﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ٩ ﴾

فتسبَّب عن رجحانِ سيِّئاتِه قولُه: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾.

ثم ذكَر مسكنَه، فقال: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾.

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٦٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ١٩٣).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٢٢٣).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠﴾

ولمَّا كانت ممَّا يفوتُ الوصفَ بعظيمِ أهوالِها وشديدِ زلزالِها، جمع الأمرَ فيها، فقال مُنكِرًا أن يكونَ مخلوقٌ يعرفُ وصفَها: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾(١).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾ تهويلٌ كما تقدَّم آنفًا(٢).

﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾

ولمَّا هوَّلَها بما ذُكر، أَتبَعَها ما يمكنُ البشرَ معرفتُه من وصفِها، فقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾(٣).

ثم بيَّنها سبحانه، فقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٢٤).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥١٥).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٢٢٤).

(٤) فتح القدير (٥/ ٥٩٥).

سورة التكاثر

﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ ﴾

لمَّا كانوا يُنكِرون البعثَ، ويعتقدون دوامَ الإقامةِ في القبورِ، عبَّر بالزِّيارةِ إشارةً إلىٰ أنَّ البعثَ لا بدَّ منه، ولا مِرْيةَ فيه، وأنَّ اللُّبْثَ في البرزخِ وإنْ طالَ فإنَّما هو كلُبْثِ الزَّائرِ عندَ مَزُورِه في جنبِ الإقامةِ بعدَ البعثِ في دارِ النَّعيمِ أو غارِ الجحيمِ، وأنَّ الإقامةَ فيه محبوبةٌ؛ للعلمِ بما بعدَه من الأهوالِ والشَّدائدِ والأوجالِ، فقال: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾(1).

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾

ولمَّا كان الاشتغالُ بالتَّكاثرِ في غايةِ الدَّلالةِ علىٰ السَّفَهِ؛ لأنَّ من المعلومِ قطعًا أنَّ هذا الكونَ علىٰ هذا النِّظامِ لا يكونُ إلَّا بصانعٍ حكيمٍ، وكان العقلاءُ المُنتفِعون بالكونِ في غايةِ التَّظالمِ، وكان الحكيمُ لا يرضىٰ أصلًا أن يكونَ عبيدُه يظلمُ بعضُهم بعضًا، ثم لا يحكمُ بينَهم، ولا ينظرُ في مصالحِهم؛ عُلم قطعًا أنَّه يبعثُه ليحكمَ بينَهم؛ لأنَّه كما قدَر علىٰ إبدائِهم، يَقدِرُ علىٰ إعادتِهم، وقد وعَد بذلك، وأرسل به رسلَه،

(1) نظم الدرر (22/ 226).

وأنزل به كتبَه، فثبت ذلك ثبوتًا لا مِرْيةَ فيه ولا مزيدَ عليه، وكان الحالُ مُقتضِيًا لأن يردعَ غايةَ الرَّدعِ مَن أعرض عمَّا يعنيه وأقبل علىٰ ما لا يعنيه، فقال سبحانه مُعبِّرًا بأُمِّ الرَّوادعِ، وجامعةِ الزَّواجرِ والصَّوادعِ: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(١).

والتَّوبيخُ الذي استُعمِلَ فيه الخبرُ أُتبِعَ بالوعيدِ علىٰ ذلك بعدَ الموتِ، وبحرفِ الزَّجرِ والإبطالِ بقولِه: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، فأفادَ ﴿ كَلَّا ﴾ زجرًا وإبطالًا لإنهاءِ التَّكاثرِ، و﴿سَوْفَ ﴾ لتحقيقِ حصولِ العلمِ، وحُذف مفعولُ ﴿تَعْلَمُونَ ﴾ لظهورِ أنَّ المرادَ: تعلمون سوءَ مَغَبَّةِ لَهْوِكم بالتَّكاثرِ عن قبولِ دعوةِ الإسلامِ(٢).

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾

ولمَّا كان من الأمورِ ما لو شُرح شأنُه علىٰ ما هو عليه لَطالَ، وأدَّىٰ إلىٰ الملالِ؛ دَلَّ علىٰ أنَّ شرحَ هذا الوعيدِ مَهُولٌ بقولِه مُؤكِّدًا مع التعبيرِ بأداةِ التَّراخي الدَّالَّةِ علىٰ عُلُوِّ الرُّتبةِ: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(٣).

وأكَّد الزَّجرَ والوعيدَ بقولِه: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، فعطَف عطفًا لفظيًّا بحرفِ التَّراخي أيضًا للإشارةِ إلىٰ تراخي رتبةِ هذا الزَّجرِ والوعيدِ عن رتبةِ الزَّجرِ والوعيدِ الذي قبلَه، فهذا زجرٌ ووعيدٌ مُماثِلٌ للأوَّلِ لكنَّ عطفَه بحرفِ ﴿ ثُمَّ ﴾ اقتضىٰ كونَه أقوىٰ من الأوَّلِ؛ لأنَّه أفادَ تحقيقَ الأوَّلِ وتهويلَه(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٢١).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٢٢٩).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٢١).

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ ﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا صادعًا، أشارَ إلىٰ أنَّه يكفي هذه الأُمَّةَ المرحومةَ التَّأكيدُ بمرَّةٍ، فقال مُرَدِّدًا للأمرِ بينَ تأكيدِ الرَّدعِ ثالثًا بالأداةِ الصَّالحةِ له، ولِأَنْ تكونَ لمعنًىٰ حقًّا كما يقولُه أئمَّةُ القراءةِ: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾(١).

أُعِيدَ الزَّجرُ ثالثَ مرَّةٍ زيادةً في إبطالِ ما هم عليه من اللَّهوِ عن التَّدبُّرِ في أقوالِ القرآنِ؛ لعلَّهم يقلعون عن انكبابِهم علىٰ التَّكاثرِ ممَّا هم يتكاثرون فيه ولَهْوِهم به عن النَّظرِ في دعوةِ الحقِّ والتَّوحيدِ(٢).

﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ﴾

وزادَ في التَّفخيمِ لهذا الوعيدِ بإيضاحِ المُتوعَّدِ به بعدَ إبهامِه، مع قَسَمٍ دَلَّ عليه بلامِه، فقال: ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾(٣).

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ما سبقه من الزَّجرِ والرَّدعِ المُكرَّرِ ومن الوعيدِ المُؤكَّدِ علىٰ إجمالِه يُثِيرُ في نفسِ السَّامعِ سؤالًا عمَّا يترقَّبُ من هذا الزَّجرِ والوعيدِ، فكان قولُه: ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ جوابًا عمَّا يَجِيشُ في نفسِ السَّامعِ(٤).

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ﴾

ولمَّا كان هذا توعُّدًا علىٰ التَّكاثرِ؛ لأنَّه يقتضي الإعراضَ عن الآخرةِ، فيُوقِعُ في غمراتِ البلايا الكبارِ؛ أكَّد فقال مُفخِّمًا له بحرفِ التَّراخي: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٢١).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٢٣٠).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٢٢).

(٥) نظم الدرر (٢٢/ ٢٣٠-٢٣١).

ثم كرَّر الوعيدَ والتَّهديدَ للتَّأكيدِ، فقال: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾[(١)].

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن أهولِ الخطابِ التَّهديدُ برؤيةِ العذابِ، زادَ في التَّخويفِ بأنَّه لأجلِ أن يكونَ ما يُعذَّبُ به العاصي عتيدًا، فإذا أوجب السُّؤالُ النَّكالَ، كان حاضرًا لا مانعَ من إيقاعِه في الحالِ، ولو لم يكنْ حاضرًا، كان لمن استَحَقَّه في مُدَّةِ إحضارِه محالٌ، فقال مُفخِّمًا بأداةِ التَّراخي: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[(٢)].

أعقب التَّوبيخَ والوعيدَ علىٰ لهوِهم بالتَّكاثرِ عن النَّظرِ في دعوةِ الإسلامِ من حيثُ إنَّ التَّكاثرَ صَدَّهم عن قبولِ ما يُنجِيهم، بتهديدٍ وتخويفٍ من مُؤاخَذتِهم علىٰ ما في التَّكاثرِ من نعيمٍ تَمتَّعوا به في الدنيا ولم يشكروا اللهَ عليه بقولِه تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾؛ أي: عن النَّعيمِ الذي خُوِّلْتُموه في الدنيا، فلم تشكروا اللهَ عليه، وكان به بَطَرُكم، وعطَف هذا الكلامَ بحرفِ ﴿ ثُمَّ ﴾ الدَّالِّ علىٰ التَّراخي الرُّتبيِّ في عطفِه الجملَ من أجلِ أنَّ الحسابَ علىٰ النَّعيمِ الذي هو نعمةٌ من اللهِ أشدُّ عليهم؛ لأنَّهم ما كانوا يترقَّبونه؛ لأنَّ تلبُّسَهم بالإشراكِ وهم في نعيمٍ أشدُّ كفرانًا للذي أنعَمَ عليهم، وهذا السُّؤالُ عن النَّعيمِ المُوجَّهُ إلىٰ المشركين هو غيرُ السُّؤالِ الذي يسألُه كلُّ مُنعَمٍ عليه فيما صرَف فيه النِّعمةَ، فإنَّ النِّعمةَ لمَّا لم تكنْ خاصَّةً بالمشركين خلافًا للتَّكاثرِ؛ كان السُّؤالُ عنها حقيقًا بكُلِّ مُنعَمٍ عليه وإنِ اختلَفتْ أحوالُ الجزاءِ المُترتِّبِ علىٰ هذا السُّؤالِ[(٣)].

---

(١) فتح القدير (٥/ ٥٩٨).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٢٣١).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٢٤).

سورة العصر

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾

ثم ذكَر جوابَ القَسَمِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

ولمَّا كان الحكمُ على الجنسِ حكمًا على الكُلِّ؛ لأنَّهم ليس لهم من ذواتِهم إلَّا ذلك، وكان فيهم مَن خلَّصه اللهُ ﷻ ممَّا طبع عليه الإنسانَ، بجعلِه في أحسنِ تقويمٍ، وحَفِظَه عن الميلِ مع ما فيه من النَّقائصِ؛ استثناهم ﷻ لأنَّهم قليلٌ جدًّا بالنِّسبةِ إلى أهلِ الخُسْرِ، فقال دالًّا بالاستثناءِ على أنَّ النُّفوسَ داعيةٌ إلى الشَّرِّ، مُخلِدةٌ إلى البطالةِ واللَّهوِ، فالمُخلِصُ واحدٌ من ألفٍ كما في الحديثِ الصَّحيحِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾(١).

ثم استثنى من الخسرانِ مَن اتَّصفَ بأربعِ صفاتٍ من بني الإنسانِ، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٣٨).

سُورَةُ الهُمَزَةِ

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾

ولمَّا كان الذي يفعلُ النَّقيصةَ من غيرِ حاجةٍ تُحوِجُه إليها أقبحَ حالًا، وكان المُتموِّلُ عندَهم هو الرَّابحَ، وهم يتفاخرون بالرِّبحِ، ويَعُدُّون الفائزَ به من ذوي المعالي؛ قال مُقيِّدًا لـ«كُلِّ» بالوصفِ، مُبيِّنًا الخاسرَ كلَّ الخسارةِ: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾[(١)].

وأتبَعَ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ لزيادةِ تشنيعِ صِفَتَيْهِ الذَّميمتينِ بصفةِ الحرصِ على المالِ، وإنَّما ينشأُ ذلك من بخلِ النَّفسِ والتَّخوُّفِ من الفقرِ، والمقصودُ من ذلك دخولُ أولئك الذين عُرفوا بهمزِ المسلمين ولمزِهم، الذين قيل: إنَّهم سببُ نزولِ السورةِ لتعيينِهم في هذا الوعيدِ[(٢)].

ثم وصَفه اللهُ تعالىٰ بهذا الوصفِ؛ لأنَّه يجري مجرىٰ السَّببِ والعِلَّةِ في الهمزِ واللَّمزِ، وهو إعجابُه بما جمَع من المالِ، وظنُّه أنَّ الفضلَ فيه لأجلِ ذلك فيَستنقِصُ غيرَه[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٤٤-٢٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٣٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٨٤).

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾

وزادَه قيدًا آخرَ في بيانِ حالِه، فقال: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾[(١)].

جملةُ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ يجوزُ أن تكونَ حالًا من «هُمَزةٍ»، فيكونَ مُستعمَلًا في التَّهكُّمِ عليه في حرصِه على جمعِ المالِ وتعديدِه؛ لأنَّه لا يوجدُ مَن ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾، فيكونَ الكلامُ من قَبِيلِ التَّمثيلِ، أو تكونَ الحالُ مرادًا بها التَّشبيهُ، وهو تشبيهٌ بليغٌ، ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ مُستأنَفةً، والخبرُ مُستعمَلًا في الإنكارِ، أو على تقديرِ همزةِ استفهامٍ محذوفةٍ مُستعمَلًا في التَّهكُّمِ به بأنَّه مُوقِنٌ بأنَّ مالَه يُخلِدُه حتَّى كأنَّه حصل إخلادُه وثبَت[(٢)].

ثم وصَفه تعالى بضربٍ آخرَ من الجهلِ، فقال: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾[(٣)].

ولمَّا كان لا يخشى أن تُصِيبَه عقوبةٌ على الهمزِ واللَّمزِ وتمزيقِ العِرْضِ؛ لأنَّ غرورَه بالمالِ أنساه الموتَ، وصرَف عنه ذِكرَ المآلِ، فهو ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾[(٤)].

﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤﴾

ولمَّا كان هذا الحُسْبانُ -لشِدَّةِ وَهْيِه، وبيانِ ضعفِه- لا يحتاجُ إلى إقامةِ دليلٍ على فسادِه، اكتفى فيه بأداةِ الرَّدعِ الجامعةِ لكُلِّ زجرٍ، فقال: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٣٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٨٥).

(٤) محاسن التأويل (٩/ ٥٣٩).

(٥) نظم الدرر (٢٢/ ٢٤٦).

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن ما تضمَّنته جملةُ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ من التَّهكُّمِ والإنكارِ، وما أفادَه حرفُ الزَّجرِ من معنى التَّوعُّدِ(١).

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾

وعظَّم شأنَها ﷻ بقولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾(٢).

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾

ثم فسَّرها بقولِه: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾(٣).

جملةُ ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ جوابٌ على جملةِ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ مُفيدٌ مجموعُهما بيانَ الحُطَمةِ ما هي، وموقعُ الجملةِ موقعُ الاستئنافِ البيانيِّ، والتقديرُ: هي -أي: الحُطَمةُ- نارُ اللهِ، فحُذف المبتدأُ من الجملةِ جريًا على طريقةِ استعمالِ أمثالِه من كلِّ إخبارٍ عن شيءٍ بعدَ تقدُّمِ حديثٍ عنه وأوصافٍ له(٤).

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾

ولمَّا وصَف الهامزَ الهازمَ، وصَف الحاطمَ، فقال تعالى: ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾(٥).

ووُصِفَتْ ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ وصفًا ثانيًا بـ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٣٩).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٢٤٦-٢٤٧).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٢٤٧).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٤٠).

(٥) نظم الدرر (٢٢/ ٢٤٧).

(٦) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٤١).

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾

ولمَّا كان الاطِّلاعُ على الفؤادِ مَظِنَّةَ الموتِ، وفي الموتِ راحةٌ من العذابِ؛ أشارَ إلى خلودِهم فيها، وأنَّهم لا يموتون ولا ينقطعُ عنهم العذابُ، فقال مُؤكِّدًا لأنَّهم يُكذِّبون بها: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾[1].

هذه جملةٌ يجوزُ أن تكونَ صفةً ثالثةً لـ﴿نَارُ اللَّهِ﴾ بدونِ عاطفٍ، ويجوزُ أن تكونَ مُستأنَفةً استئنافًا ابتدائيًّا، وتأكيدُها بـ«إنَّ» لتهويلِ الوعيدِ بما ينفي عنه احتمالَ المجازِ أو المبالغةِ[2].

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾

ولمَّا كانت عادتُهم في المنعِ من التَّصرُّفِ أن يضعوا خشبةً عظيمةً تُسمَّى المِقْطَرَةَ، فيها حِلَقٌ تُوثَقُ فيها الرِّجْلُ، فلا يقدرُ صاحبُها بعدَ ذلك على حِراكٍ؛ قال مُصوِّرًا لعذابِهم بحالٍ مِن ضميرِ ﴿عَلَيْهِم﴾: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾[3].

ثم ذكر شِدَّةَ إصادِها، فقال: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾.

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٤١).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٢٤٨).

سُورَةُ الفِيلِ

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾

ولمَّا قرَّره بالكيفيَّةِ تنبيهًا على ما فيها من وجوهِ الدَّلالةِ على مُقدِّماتِ الرِّسالةِ، أشارَ إلى تلك الوجوهِ، مُقدِّمًا عليها تقريرًا آخرَ جامعًا لِقِصَّتِهم ومُعلِمًا بغُصَّتِهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾(١).

هذه الجملُ بيانٌ لِما في جملةِ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ من الإجمالِ، وسمَّى حربَهم كيدًا لأنَّه عملٌ ظاهرُه الغضبُ من فعلِ الكِنانيِّ الذي قعد في القُلَّيْسِ(٢)، وإنَّما هو تَعِلَّةٌ تعلَّلوا بها لإيجادِ سببٍ لحربِ أهلِ مكَّةَ وهدمِ الكعبةِ؛ لينصرفَ العربُ إلى حجِّ القُلَّيْسِ في صنعاءَ فيَتَنَصَّروا، أو أُرِيدَ بكيدِهم بناؤُهم القُلَّيْسَ مُظهِرينَ أنَّهم بَنَوْا كنيسةً وهم يريدون أن يُبطِلوا الحجَّ إلى الكعبةِ ويصرفوا العربَ إلى صنعاءَ(٣).

ثم اعلَمْ أنَّه تعالى ذكَر ما فعل بهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٥٥).

(٢) الكنيسة التي بناها أَبْرَهةُ.

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٤٨).

(٤) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٩١).

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فمنعهم من الدُّخولِ إلىٰ حَرَمِ إبراهيمَ عليه السلام، فضلًا عن الوصولِ إلىٰ بلدةِ الرسولِ ﷺ؛ عطَف عليه أو علىٰ ﴿يَجْعَلْ﴾ مُعبِّرًا بالماضي -لأنَّه بمعناه، وهو أصرحُ، والتعبيرُ به أقعدُ- قولَه: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾(١).

جملةُ ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ يجوزُ أن تُجعَلَ معطوفةً علىٰ جملةِ ﴿فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾؛ أي: وكيف أَرسَلَ عليهم طيرًا من صفتِها كَيْتُ وكَيْتُ، فبعدَ أن وقع التَّقريرُ علىٰ ما فعل اللهُ بهم من تضليلِ كيدِهم، عُطف عليه تقريرٌ بعلمِ ما سلَّط عليهم من العقابِ علىٰ كيدِهم؛ تذكيرًا بما حَلَّ بهم من نقمةِ اللهِ تعالىٰ؛ لقصدِهم تخريبَ الكعبةِ، فذلك من عنايةِ اللهِ ببيتِه لإظهارِ تَوْطِئَتِه لبعثةِ رسولِه ﷺ بدينِه في ذلك البلدِ؛ إجابةً لدعوةِ إبراهيمَ عليه السلام، فكما كان إرسالُ الطَّيرِ عليهم من أسبابِ تضليلِ كيدِهم، كان فيه جزاءٌ لهم؛ ليعلموا أنَّ اللهَ مانعٌ بيتَه، وتكونُ جملةُ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾ مُعترضةً بينَ الجملتينِ المُتعاطِفتينِ، ويجوزُ أن تُجعَلَ ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ ﴾ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾، فيكونَ داخلًا في حَيِّزِ التَّقريرِ الثَّاني بأنَّ اللهَ جعل كيدَهم في تضليلٍ، وخصَّ ذلك بالذِّكرِ لجمعِه بينَ كونِه مُبطِلًا لكيدِهم وكونِه عقوبةً لهم(٢).

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ ﴾

ولمَّا تشوَّف السَّامعُ إلىٰ فعلِ الطَّيرِ بهم، قال مُستأنِفًا: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٤٩).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٢٥٧).

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾

ولمَّا تَسبَّبَ عن هذا المرمىٰ هلاكُهم، وكان ذلك بفعلِ اللهِ سبحانه وتعالى القادرِ علىٰ ما أرادَ؛ لأنَّه الذي خلق الأثرَ قطعًا؛ لأنَّ مِثلَه لا ينشأُ عنه ما نشأ من الهلاكِ؛ قال: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[1].

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٥٧-٢٥٨).

سورة قريش

﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ ﴾

ولمَّا علَّل بالإيلافِ، وكان لازمًا ومُتعدِّيًا، تقولُ: آلَفتُ المكانَ أُوْلَفُه إيلافًا فأنا مُؤْلِفٌ، وآلَفتُ فلانًا هذا الشَّيءَ؛ أي: جعلتُه آلِفًا له، وكان الإتيانُ بالشَّيءِ محتملًا لشيئينِ، ثم إبدالُ أحدِهما منه أضخمَ لشأنِه وأعلىٰ لأمرِه؛ أبدل منه قولَه: ﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾[(١)].

قولُه: ﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ ﴾ عطفُ بيانٍ من «إيلافِ قُريشٍ»، وهو من أسلوبِ الإجمالِ، فالتَّفصيلُ للعنايةِ بالخبرِ ليَتمكَّنَ في ذهنِ السَّامعِ[(٢)].

ثم قيَّد الإيلافَ تفخيمًا لأمرِه وتذكيرًا لعظيمِ المِنَّةِ فيه، وخصَّ إيلافَ الرِّحلتينِ بالذِّكرِ لسببِ أنَّه قِوامُ معاشِهم، فقال: ﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾.

﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ﴾

ولمَّا كان هذا التَّدبيرُ لهم من اللهِ كافيًا لهمومِهم الظَّاهرةِ بالغنىٰ والباطنةِ بالأمنِ، وكان شكرُ المُنعِمِ واجبًا، فإذا أنعم بما يُفرِّغُ المُنعَمَ عليه للشُّكرِ، كان وجوبُه عليه أعظمَ؛ سبَّب عن الإنعامِ عليهم بذلك قولَه: ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٥٦-٥٥٧).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٢٦٥).

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ (٤)

ثم وصَف نفسَه الأقدسَ بما هو ثمرةُ الرِّحلتينِ ومظهرٌ لزيادةِ شرفِ البيتِ، فقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾[(١)].

وأُجرِيَ وصفُ الرَّبِّ بطريقةِ الموصولِ ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ لِما يُؤذِنُ به من التَّعليلِ للأمرِ بعبادةِ ربِّ البيتِ الحرامِ بعِلَّةٍ أخرىٰ زيادةً علىٰ نعمةِ تيسيرِ التِّجارةِ لهم، وذلك ممَّا جعلهم أهلَ ثراءٍ، وهما نعمةُ إطعامِهم وأمنِهم. وهذه إشارةٌ إلىٰ ما يسَّر لهم من ورودِ سُفُنِ الحبشةِ في البحرِ إلىٰ جُدَّةَ تحملُ الطَّعامَ ليبيعوه هناك، فكانت قُرَيشٌ يخرجون إلىٰ جُدَّةَ بالإبلِ والحُمُرِ فيشترون الطَّعامَ علىٰ مسيرةِ ليلتينِ، وكان أهلُ تَبالَةَ وجُرَشَ من بلادِ اليمنِ المُخصِبةِ يحملون الطَّعامَ في مكَّةَ، فكانوا في سَعةٍ من العيشِ بوَفْرِ الطَّعامِ في بلادِهم كذلك يسَّر لهم إقامةَ الأسواقِ حولَ مكَّةَ في أَشهُرِ الحجِّ؛ وهي سوقُ مِجَنَّةَ، وسوقُ ذي المَجازِ، وسوقُ عُكاظَ، فتأتيهم فيها الأرزاقُ ويتَّسِعُ العيشُ، وإشارةً إلىٰ ما أُلقِيَ في نفوسِ العربِ من حُرْمةِ مكَّةَ وأهلِها، فلا يريدُهم أحدٌ بتخويفٍ، وتلك دعوةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلم يتخلَّفْ ذلك عنهم إلَّا حينَ دعا عليهم النبيُّ ﷺ بدعوتِه: «اللَّهُمَّ اجعَلْها عليهم سِنِينَ كسِنِينِ يوسفَ»[(٢)]، فأصابَتْهم مجاعةٌ وقحطٌ سبعَ سنين، وذلك أوَّلَ الهجرةِ[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠٦)، ومسلم (٦٧٥).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٦١).

سورة الماعون

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ٢﴾

ولمَّا كان المرادُ بهذا الجنسَ، وكان من المكذِّبين مَن يُخفِي تكذيبَه؛ عرَّفهم بأماراتٍ -تنشأُ من عمودِ الكفرِ الذي صدَر به، ويتفرَّعُ منه- تفضحُهم، وتدلُّ عليهم وإنِ اجتهَدوا في الإخفاءِ وتُوضِّحُهم، فقال مُسبِّبًا عن التَّكذيبِ ما هو دالٌّ عليه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾[1].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ ذكَر في تعريفِ مَن يُكذِّبُ الدِّينَ وصفينِ؛ أحدُهما: مِن بابِ الأفعالِ، وهو قولُه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾[2].

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣﴾

ولمَّا كانت رحمةُ الضُّعفاءِ علامةً علىٰ الخيرِ؛ ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك فعلَ الخيراتِ، وتركَ المُنكَراتِ، وحُبَّ المساكينِ»[3]، كانت القسوةُ عليهم علامةً علىٰ الشَّرِّ، وكان مَن بَخِلَ باللِّينِ في قالِه أشدَّ بخلًا بالبذلِ من مالِه؛ قال مُعرِّفًا

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٧٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٣٠٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٣٣)، وأحمد في "المسند" (٣٤٨٤).

لأنَّ المُكذِّبَ يُنزِلُه تكذيبُه إلىٰ أسفلِ الدَّركاتِ، وأسوإِ الصِّفاتِ، الحاملِ علىٰ شرِّ الحركاتِ: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾(١).

ثم ذكَر الوصفَ الثَّانيَ الذي هو من بابِ التُّروكِ، فقال: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾(٢).

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾

ولمَّا كان هذا حالَه مع الخلائقِ، أَتبَعَه حالَه مع الخالقِ؛ إعلامًا بأنَّ كلًّا منهما دالٌّ علىٰ خرابِ القلبِ، ومُوجِبٌ لمَقْتِ الرَّبِّ، وأعظمِ الإهانةِ والكربِ، وأنَّ المعاصيَ شُؤْمٌ مُهلِكٌ؛ تنفيرًا عنها وتحذيرًا منها، فسبَّب عنه قولَه مُعبِّرًا بأعظمِ ما يدلُّ علىٰ الإهانةِ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾(٣).

موقعُ الفاءِ صريحٌ في اتِّصالِ ما بعدَها بما قبلَها من الكلامِ علىٰ معنىٰ التَّفريعِ والتَّرتُّبِ والتَّسبُّبِ، فيجيءُ علىٰ القولِ: إنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ بأجمعِها، أن يكونَ المرادُ بالمُصلِّين عينَ المرادِ بالذي يُكذِّبُ بالدِّينِ، ويَدُعُّ اليتيمَ، ولا يَحُضُّ علىٰ طعامِ المسكينِ، فقولُه: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، كأنَّه قيل: فوَيْلٌ له علىٰ سهوِه عن الصَّلاةِ، وعلىٰ الرِّياءِ، وعلىٰ منعِ الماعونِ، دعا إليه زيادةُ تَعْدادِ صفاتِه الذَّميمةِ بأسلوبٍ سليمٍ عن تتابعِ سِتِّ صفاتٍ؛ لأنَّ ذلك التَّتابعَ لا يخلو من كثرةِ تَكْرارِ النَّظائرِ، فيُشبِهُ تتابعَ الإضافاتِ الذي قيل: إنَّه مُناكِدٌ للفصاحةِ، مع الإشارةِ

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٧٩).
(٢) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٣٠٢).
(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٢٨٠).

بتوسيطِ «وَيْلٍ» له إلىٰ أنَّ الويلَ ناشئٌ عن جميعِ تلك الصِّفاتِ التي هو أهلُها، وعلىٰ القولِ بأنَّها مدنيَّةٌ أو أنَّ هذه الآيةَ وما بعدَها منها مدنيَّةٌ، يكونُ المرادُ بـ«المُصلِّين الذين هم عن صلاتِهم ساهون»: المنافقين[1].

في كيفيَّةِ اتِّصالِ هذه الآيةِ بما قبلَها وجوهٌ؛ أحدُها: أنَّه لمَّا كان إيذاءُ اليتيمِ والمنعُ من الإطعامِ دليلًا علىٰ النِّفاقِ، فالصَّلاةُ لا مع الخضوعِ والخضوعِ أَولىٰ أن تدلَّ علىٰ النِّفاقِ؛ لأنَّ الإيذاءَ والمنعَ من النَّفعِ معاملةٌ مع المخلوقِ، أمَّا الصَّلاةُ فإنَّها خدمةٌ للخالقِ. وثانيها: كأنَّه لمَّا ذكَر إيذاءَ اليتيمِ وتركَه للحضِّ كأنَّ سائلًا قال: أليس إنَّ الصَّلاةَ تنهىٰ عن الفحشاءِ والمنكرِ؟ فقال له: الصَّلاةُ كيف تنهاه عن هذا الفعلِ المُنكَرِ وهي مصنوعةٌ من عينِ الرِّياءِ والسَّهوِ؟ وثالثُها: كأنَّه يقولُ: إقدامُه علىٰ إيذاءِ اليتيمِ وتركُه للحضِّ تقصيرٌ فيما يرجعُ إلىٰ الشَّفَقةِ علىٰ خلقِ اللهِ، وسهوُه في الصَّلاةِ تقصيرٌ فيما يرجعُ إلىٰ التَّعظيمِ لأمرِ اللهِ، فلمَّا وقع التَّقصيرُ في الأمرينِ، فقد كمُلتْ شقاوتُه؛ فلهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾[2].

لمَّا ذكَر أوَّلًا عمودَ الكفرِ؛ وهو التَّكذيبُ بالدِّينِ، ذكَر ما يترتَّبُ عليه ممَّا يتعلَّقُ بالخالقِ؛ وهو عبادتُه بالصَّلاةِ، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾[3].

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾

ولمَّا كان الحكمُ إنَّما هو علىٰ ذاتِ الموضعِ من غيرِ اعتبارٍ لوصفِه بالفعلِ، عُلم أنَّ المقصودَ إنَّما هو مَن كان مُكلَّفًا بالصَّلاةِ؛ لأنَّ مَن كان مُتلبِّسًا بها مِثلَ قولِه ﷺ:

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٦٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٣٠٣).

(٣) البحر المحيط (١٠/ ٥٥٢).

«لا يَقبَلُ اللهُ صلاةَ حائضٍ إلَّا بخمارٍ»(١)؛ فلذلك وصَفهم بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾(٢).

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ صفةٌ للمُصلِّين مُقيِّدةٌ لحكمِ الموصوفِ، فإنَّ الوَيْلَ للمُصلِّي السَّاهي عن صلاتِه، لا للمُصلِّي على الإطلاقِ(٣).

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦﴾

ولمَّا كان مَن كان بهذه الصِّفةِ لا نظرَ له لغيرِ الحاضرِ كالبهائمِ، قال دالًّا على أنَّ المرادَ بالسَّهوِ ها هنا تضييعُها عندَ الانفرادِ بالتَّركِ حسًّا ومعنًى، وعندَ الاجتماعِ بالإفسادِ في المعنى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾(٤).

﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾

ولمَّا كان مَن كان بهذه الصِّفةِ ربما فعل قليلَ الخيرِ دونَ جليلِه رياءً، بيَّن أنَّهم غلَب عليهم الشُّحُّ حتَّى إنَّهم -معَ كثرةِ الرِّياءِ منهم- لم يَقدِروا على أن يُراؤوا بهذا الشَّيءِ التَّافهِ، فانسلَخوا من جميعِ خِلالِ المكارمِ، فقال إبلاغًا في ذمِّهم، إشعارًا بأنَّ أحبَّ الخلقِ إلى اللهِ أنفعُهم لعيالِه: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾(٥).

ثم لمَّا شرَح أمرَ الصَّلاةِ، أَعقبَه بذِكْرِ الصِّلاتِ، فقال: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾(٦).

---

(١) أخرجه أبو داود (٦٤١)، وابن ماجه (٦٥٥).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٢٨٠-٢٨١).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٦٧).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٢٨٠-٢٨١).

(٥) نظم الدرر (٢٢/ ٢٨٢).

(٦) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٣٠٥).

سورة الكوثر

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾

ولمَّا أعطاه ما فرَّغه به للعبادةِ، وأكسَبه غنًى لا حاجةَ معَه؛ سبَّب عنه قولَه آمرًا بما هو جامعٌ لمجامعِ الشُّكرِ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾(١).

قولُه: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ اعتراضٌ، والفاءُ للتَّفريعِ علىٰ هذه البشارةِ بأن يشكرَ ربَّه عليها، فإنَّ الصَّلاةَ أفعالٌ وأقوالٌ دالَّةٌ علىٰ تعظيمِ اللهِ والثَّناءِ عليه، وذلك شكرٌ لنعمتِه، وناسَب أن يكونَ الشُّكرُ بالازديادِ ممَّا عاداه عليه المشركون وغيرُهم ممَّن قالوا مقالتَهم الشَّنعاءَ: إنَّه أبترُ؛ فإنَّ الصَّلاةَ للهِ شكرٌ له، وإغاظةٌ للذين ينهونه عن الصَّلاةِ(٢).

ولمَّا ذكَر مِنَّتَه عليه، أمره بشكرِها، فقال: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾(٣).

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾

ولمَّا أمره باستغراقِ الزَّمانِ في عبادةِ الخالقِ، والإحسانِ إلىٰ الخلائقِ بأعلىٰ الخلائقِ؛ علَّله بما حاصلُه أنَّه لا شاغلَ له ولا حاجةَ أصلًا تَلُمُّ به، فقال: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٢٩٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٧٣-٥٧٤).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٩٣٦).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٢٩١).

استئنافٌ يجوزُ أن يكونَ استئنافًا ابتدائيًّا، ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ تعليلًا لحرفِ ﴿إِنَّ﴾ إذا لم يكنْ لردِّ الإنكارِ، يَكثُرُ أن يفيدَ التَّعليلَ، واشتمالُ الكلامِ علىٰ صيغةِ قصرٍ وعلىٰ ضميرِ غائبٍ وعلىٰ لفظِ ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّ المقصودَ به ردُّ كلامٍ صادرٍ من مُعيَّنٍ، وحكايةُ لفظٍ مرادٍ بالرَّدِّ. قال الواحديُّ: قال ابنُ عبَّاسٍ: «إنَّ العاصيَ بنَ وائلٍ السَّهْميَّ رأىٰ رسولَ اللهِ ﷺ في المسجدِ الحرامِ عندَ بابِ بني سهمٍ، فتحدَّث معَه، وأناسٌ من صناديدِ قريشٍ في المسجدِ، فلمَّا دخل العاصي عليهم، قالوا له: مَن الذي كنتَ تتحدَّثُ معه؟ فقال: ذلك الأبترُ. وكان قد تُوُفِّيَ قبلَ ذلك عبدُ اللهِ ابنُ رسولِ اللهِ ﷺ بعدَ أنْ مات ابنُه القاسمُ قبلَ عبدِ اللهِ، فانقطَع بموتِ عبدِ اللهِ الذُّكورُ من ولدِه ﷺ يومئذٍ، وكانوا يَصِفُون مَن ليس له ابنٌ بأَبْتَرَ، فأنزل اللهُ هذه السُّورةَ»(١)(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بشَّره بالنِّعَمِ العظيمةِ، وعَلِمَ تعالىٰ أنَّ النِّعمةَ لا تَهنَأُ إلَّا إذا صار العدوُّ مقهورًا، لا جَرَمَ وعَده بقهرِ العدوِّ، فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾(٣).

---

(١) أخرجه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٣/ ١٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٧٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٣٢٢).

سورة الكافرون

﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ ﴾

ولمَّا كان القصدُ إعلامَهم بالبراءةِ منهم من كلِّ وجهٍ، وأنَّه لا يُبالِي بهم بوجهٍ؛ لأنَّه محفوظٌ منهم، قال مُؤذِنًا بصدقِ خبرِه تعالىٰ آخِرَ «الكوثرِ» من حيثُ إنَّه مع الجزمِ بالمنابذةِ لا يستطيعون له نوعَ مكابدةٍ نافذةٍ، بادئًا بالبراءةِ من جهتِه لأنَّها الأهمُّ: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾[(١)].

﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ ﴾

ولمَّا بدأ بما هو الأحقُّ بالبداءةِ؛ وهو البراءةُ من الشِّركِ، والطَّهارةُ من وَضَرِ الإفكِ؛ لأنَّه من درءِ المفاسدِ، فأبلغ في ذلك بما هو الحقيقُ بحالِه ﷺ، وكانوا هم يعبدون اللهَ تعالىٰ علىٰ وجهِ الإشراكِ، وكانت العبادةُ مع الشِّركِ غيرَ مُعتَدٍّ بها بوجهٍ؛ نفىٰ عبادتَهم له في الجملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ علىٰ الثَّباتِ، لا في الفعليَّةِ الدَّالَّةِ علىٰ نفيِ كلِّ قليلٍ وكثيرٍ من حيثُ إنَّ الفعلَ نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ، فقال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾[(٢)].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٣٠٤).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٣٠٥).

﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ ﴾

ولمَّا كان ما نفىٰ عن النبيِّ ﷺ لا يدخلُ فيه الماضي، وكان عدمُ المشاركةِ بوجهٍ من الوجوهِ في زمنٍ من الأزمانِ أدلَّ علىٰ البراءةِ، وأَقعَدَ في دوامِ الاستهانةِ، وكانوا يَعُدُّون سكوتَه ﷺ عنهم فيما قبلَ النُّبُوَّةِ عبادةً، وكانوا غيرَ مُقتصِرين علىٰ عبادةِ أصنامِهم التي اتَّخَذُوها، بل إذا خرَجوا من الحرمِ فنزلوا منزلًا، نظَروا لهم حجرًا ليَستحسِنوه فيعبدونه، فإنْ لم يَرَوْا حجرًا، جمَعوا شيئًا من ترابٍ، وحلَبوا عليه شيئًا من لبنٍ، وعبَدوه ما داموا في ذلك المنزلِ، وكان ذلك من أشدِّ ما يُعابُ به من جهةِ عدمِ الشَّبابِ، وأنَّه لا معبودَ لهم مُعِينٌ؛ قال مُنبِّهًا علىٰ ذلك كلِّه: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾(1).

عطفٌ علىٰ ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ عطفَ الجملةِ علىٰ الجملةِ؛ لمناسبةِ نفيِ أن يعبدوا اللهَ، فأُردِفَ بنفيِ أن يعبدَ هو آلهتَهم، وعطفُه بالواوِ صارفٌ عن أن يكونَ المقصودُ به تأكيدَ ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾، فجاء به علىٰ طريقةِ ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ بالجملةِ الاسميَّةِ للدَّلالةِ علىٰ الثَّباتِ، ويكونُ الخبرُ اسمَ فاعلٍ دالًّا علىٰ زمانِ الحالِ، فلمَّا نفىٰ عن نفسِه أن يعبدَ في المستقبلِ ما يعبدونه بقولِه: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ كما تقدَّم آنفًا، صرَّح هنا بما تقتضيه دلالةُ الفحوىٰ علىٰ نفيِ أن يعبدَ آلهتَهم في الحالِ، بما هو صريحُ الدَّلالةِ علىٰ ذلك؛ لأنَّ المقامَ يقتضي مزيدَ البيانِ، فاقتضىٰ الاعتمادُ علىٰ دلالةِ المنطوقِ إطنابًا في الكلامِ؛ لتأييسِهم ممَّا راوَدوه عليه، ولمقابلةِ كلامِهم المردودِ بمِثْلِه في إفادةِ الثَّباتِ، وحصَل من ذلك تقريرُ المعنىٰ السَّابقِ وتأكيدُه، تبعًا لمدلولِ الجملةِ لا لموقعِها؛ لأنَّ موقعَها أنَّها عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، وليس توكيدًا لجملةِ ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ بمُرادِفِها؛

(1) نظم الدرر (٢٢/ ٣٠٦-٣٠٧).

لأنَّ التَّوكيدَ لِلَّفظِ بالمُرادِفِ لا يُعرَفُ إلَّا في المفرداتِ، ولأنَّ وجودَ الواوِ يُعيِّنُ أنَّها معطوفةٌ؛ إذ ليس في جملةِ ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ واوٌ حتَّىٰ يكونَ الواوُ في هذه الجملةِ مُؤكِّدًا لها[1].

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾

ولمَّا كان هو ﷺ ثابتًا علىٰ إلهٍ واحدٍ لم يعبدْ غيرَه، ولم يلتفتْ يومًا لِفْتَ سواه، وكان قد انتفىٰ عنه بالجملتينِ -هذه الماضيةِ، والتي أولَ السورةِ- أن يعبدَ باطلَهم حالًا أو مآلًا، وأن يكونَ عبَده قبلَ ذلك، وكان ربما ظنَّ ظانٌّ أنَّ النفيَ عنهم إنَّما هو لعبادةِ معبودِه في الحالِ؛ نفىٰ ذلك في الاستقبالِ أيضًا؛ عَلَمًا من أعلامِ النُّبُوَّةِ، مع تأكيدِ ما أفادته الجملةُ الماضيةُ جريًا علىٰ مناهيجِ العربِ في التأكيدِ، قطعًا لآمالِهم منه علىٰ أتمِّ وجهٍ وآكدِه؛ لأنَّه علىٰ وجهٍ لا يقدرون عليه، لِما تفيدُه كلُّ جملةٍ مع التأكيدِ من فائدةٍ جديدةٍ مُهِمَّةٍ، فقال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾[2].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ لبيانِ تمامِ الاختلافِ بين حالِه وحالِهم، وإخبارٌ بأنَّهم لا يعبدون اللهَ إخبارًا ثانيًا؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ اللهَ أعلَمَه بأنَّهم لا يعبدون اللهَ، وتقويةً لدلالةِ هذينِ الإخبارين عن نبوءتِه ﷺ فقد أخبر عنهم بذلك، فمات أولئك كلُّهم علىٰ الكفرِ، وكانت هذه السورةُ من دلائلِ النُّبوءةِ. وقد حصل من ذِكْرِ هذه الجملةِ بمِثْلِ نظيرتِها السابقةِ توكيدٌ للجملةِ السابقةِ توكيدًا للمعنىٰ الأصليِّ منها، وليس موقعُها موقعَ التوكيدِ؛ لوجودِ واوِ العطفِ كما علمتَ آنفًا، والمقصودُ من التأكيدِ تحقيقُ تكذيبِهم في عرضِهم أنَّهم يعبدون ربَّ محمدٍ ﷺ[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٨٢).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٣٠٧).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٨٣).

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾

ولمَّا كان ذلك كلُّه، وبدأ النَّفيَ في الجملِ السَّابقةِ بالمنسوبِ إليه ﷺ إيذانًا بالاهتمامِ ببراءتِه منهم، أنتج قطعًا مُقدِّمًا لما يتعلَّقُ بهم على وجهِ اختصاصِهم به، تأكيدًا لِما صرَّح به ما مضى من براءتِه منهم: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[1].

تذييلٌ وفَذْلَكةٌ للكلامِ السَّابقِ بما فيه من التَّأكيداتِ، وقد أُرسِلَ هذا الكلامُ إرسالَ المَثَلِ[2].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٣٠٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٨٤).

سورة النصر

﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ ﴾

ولمَّا عبَّر عن المعنىٰ بالمجيءِ، عبَّر عن المرئيِّ بالرُّؤيةِ، فقال: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾[1].

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فقد سبَّح اللهُ نفسَه بالحمدِ، بإبعادِ نَجَسِ الشِّركِ عن جزيرةِ العربِ بالفعلِ؛ قال إيذانًا بأنَّه مُنزَّهٌ عن النَّقائصِ التي منها إخلافُ الوعدِ، وأنَّ له -مع ذلك- الجلالَ والجمالَ، مُعبِّرًا بما يفيدُ التَّعجُّبَ لزيادةِ التَّعظيمِ للمُتعجَّبِ منه؛ ليُثمِرَ ذلك الإجلالَ والتَّعظيمَ والتَّذلُّلَ والتَّقبُّلَ لجميعِ الأوامرِ، ويُفهِمُ أمرُه تعالىٰ للنَّبيِّ ﷺ بالاشتغالِ بخاصَّةِ نفسِه بدُنُوِّ أجلِه، وأنَّ اشتغالَه بالنَّاسِ قد انتهىٰ؛ لأنَّ الدِّينَ قد كمُل فلم يَبْقَ له ﷺ شُغْلٌ في دارِ الكدَرِ: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾[2].

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٣١٦).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٣١٧).

جملةُ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ جوابُ «إذا» باعتبارِ ما تَضمَّنَتْه من معنى الشَّرطِ، وفعلُ ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ هو العاملُ في «إذا» النَّصبَ على الظَّرفيَّةِ، والفاءُ رابطةٌ للجوابِ لأنَّه فعلُ إنشاءٍ، فكان حمدُ اللهِ على حصولِ النَّصرِ والفتحِ ودخولِ النَّاسِ في الإسلامِ [١].

ثم أمره بعدَ حصولِ النَّصرِ والفتحِ ودخولِ النَّاسِ في دينِ اللهِ جماعاتٍ جماعاتٍ: أن يشكرَ ربَّه على ذلك، ويُسبِّحَ بحمدِه، ويستغفرَه، فقال: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٣).

سورة المسد

﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ ﴾

ولمَّا أوقع سبحانه الإخبارَ بهلاكِه على هذا الوجهِ المُؤكِّدِ لِما كان لصاحبِ القِصَّةِ وغيرِه من الكفارِ من التَّكذيبِ بلسانِ حالِه وقالِه لِما له من المالِ والولدِ، وما هو فيه من القُوَّةِ بالعُدَدِ والعَدَدِ، زاد الأمرَ تحققًا إعلامًا بأنَّ الأحوالَ الدُّنيويَّةَ لا غناءَ لها، فقال مُخبِرًا، أو مُستفهِمًا مُنكِرًا: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾[1].

استئنافٌ ابتدائيٌّ للانتقالِ من إنشاءِ الشَّتمِ والتَّوبيخِ إلى الإعلامِ بأنَّه آيسٌ من النَّجاةِ من هذا التَّباتِ، ولا يُغنيه مالُه ولا كَسْبُه؛ أي: لا يُغنِي عنه ذلك في دفعِ شيءٍ عنه في الآخرةِ[2].

﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ ﴾

ولمَّا أخبر ﷻ بوقوعِ هذا التَّبارِ الأعظمِ به، وكان لا عذابَ يُداني عذابَ الآخرةِ؛ بيَّنَه بقولِه: ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٣٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٠٣).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٣٣٨).

بيانٌ لجملةِ ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾؛ أي: لا يُغنِي عنه شيءٌ من عذابِ جهنَّمَ، ونزَل هذا القرآنُ في حياةِ أبي لهبٍ، وقد مات بعدَ ذلك كافرًا، فكانت هذه الآيةُ إعلامًا بأنَّه لا يُسلِمُ، وكانت من دلائلِ النُّبُوَّةِ[(١)].

لمَّا أخبر تعالىٰ عن حالِ أبي لهبٍ في الماضي بالتَّبابِ، وبأنَّه ما أغنىٰ عنه مالُه وكَسْبُه؛ أخبر عن حالِه في المستقبلِ بأنَّه ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾[(٢)].

ثم أَوعَده سبحانه بالنَّارِ، فقال: ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾[(٣)].

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ ﴾

ولمَّا أخبر سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه بكمالِ التَّبابِ الذي هو نهايةُ الخَسارِ، وكان أشقُّ ما على الإنسانِ هَتْكَ ما يَصُونُه من حريمِه، حتىٰ إنَّه يبذلُ نفسَه دون ذلك؛ لا سِيَّما العربُ، فإنَّه لا يُدانِيهم في ذلك أحدٌ؛ زادَه تحقيرًا بذِكْرِ مَن يَصُونُها، مُعبِّرًا عنها بما صدَّرها بأَزرَأِ صورةٍ وأشنعِها، فقال مُشِيرًا إلىٰ أنَّ خُلْطَةَ الأشرارِ غايةُ الخسارِ، فإنَّ الطَّبعَ وإن كان جيِّدًا يسرقُ من الرَّديءِ، فكيف إذا كان رديئًا؟! وإن إرضاءَ الناس بما يُسخِطُ اللهَ أعظمُ الهلاك: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴾[(٤)].

أَعقَبَ ذمَّ أبي لهبٍ ووعيدَه بمِثْلِ ذلك لامرأتِه؛ لأنَّها كانت تُشارِكُه في أذىٰ النبيِّ ﷺ، وتُعِينُه عليه[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٠٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٣٥٢).

(٣) فتح القدير (٥/ ٦٢٨).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٣٤١).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٠٥).

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

جملةُ ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ صفةٌ ثانيةٌ، أو حالٌ ثانيةٌ، وذلك إخبارٌ بما تُعامَلُ به في الآخرةِ؛ أي: يُجعَلُ لها حبلٌ في عُنُقِها تَحمِلُ فيه الحطبَ في جهنَّمَ لإسعارِ النَّارِ علىٰ زوجِها؛ جزاءً مُماثِلًا لعملِها في الدنيا الذي أَغضَبَ اللهَ تعالىٰ عليها[1].

ثم ذكَر حالَها في الآخرةِ بعدَ ذِكْرِ حالِها في الدنيا، فقال: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٠٦).

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾

ولمَّا تَمَّ البيانُ لهُويَّتِه ﷻ على هذا الوجهِ الذي أنهاه بالأَحَدِيَّةِ المُعلِمةِ بالتَّنزُّهِ عن القِسْمةِ والنَّظيرِ، وكان بيانُ القرآنِ بالغًا أقصى نهاياتِ البيانِ، وكان «الأحدُ» من النُّعوتِ المُتوغِّلةِ في السَّلْبِ، وكانت الشَّرِكةُ تقعُ في التعبيرِ به في النَّفْيِ وهو بمعناه الحقيقيِّ، وتقعُ فيه بالإثباتِ والسَّلْبِ على حدٍّ سواءٍ، أو دلالته على الكمالِ والإضافةُ أكملُ، وبناه على الاسمِ الأعظمِ الذي هو آخِرُ الأسماءِ الظَّاهرةِ وأوَّلُ الأسماءِ الباطنةِ، ولم يقعْ فيه شَرِكةٌ بوجهٍ دفعًا لكُلِّ تَعنُّتٍ، وإشعارًا بأنَّ مَن لم يُسَمَّ به لم يَستحِقَّ الألوهيَّةَ، وأخلى الجملةَ عن عاطفٍ لأنَّها كالنَّتيجةِ للأولى والدَّليلِ عليها، فقال مُكاشِفًا لنفوسِ المؤمنين وللعلماءِ، مُعِيدًا الاسمَ ولم يُضمِرْ لئلَّا يُظَنَّ تَقيُّدٌ بحيثيَّةِ غيبٍ أو غيرِها: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾(١).

جملةٌ ثانيةٌ مَحْكيَّةٌ بالقولِ المحكيِّ به جملةُ ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، فهي خبرٌ ثانٍ عن الضَّميرِ، والخبرُ المُتعدِّدُ يجوزُ عطفُه وفصلُه، وإنَّما فُصِلَتْ عن التي قبلَها لأنَّ هذه الجملَ مَسُوقةٌ لتلقينِ السَّامعين، فكانت جديرةً بأن تكونَ كلُّ جملةٍ مُستقِلَّةً بذاتِها، غيرَ مُلحَقةٍ بالتي قبلَها بالعطفِ(٢).

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٣٧٣-٣٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦١٧).

﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣﴾

ولمَّا انتهىٰ بيانُ حقيقتِه ﷻ، وأنَّه غيرُ مُركَّبٍ أصلًا، وبيَّن سبحانه بصَمَدِيَّتِه المُستلزِمةِ لوحدانيَّتِه أنَّ الكُلَّ مُستنِدٌ إليه ومُحتاجٌ إليه، وأنَّه المُعطِي لوجودِ جميعِ الموجوداتِ، والمُفِيضُ للجُودِ علىٰ كلِّ الماهيَّاتِ، فلا يُجانِسُ شيئًا، ولا يُجانِسُه شيءٌ، ولا يكونُ له نظيرٌ في شيءٍ من ذلك، وكان ربما تَعلَّقَ بوهمٍ واهمٍ أنَّ تولُّدَ غيرِه عنه يكونُ من تمامِ سُؤْدُدِه المُعبَّرِ به عن قدرتِه؛ بيَّن أنَّ ذلك مُحالٌ؛ لاقتضائِه الحاجةَ ممَّا لا تَعلُّقَ له بالقدرةِ؛ لأنَّ القدرةَ من شأنِها أنَّها لا تتعلَّقُ بالمُحالِ، وهذا مُحالٌ؛ لأنَّه سبحانه صَمَدٌ، فكان ذاك بيانًا للصَّمَديَّةِ في كلا معنيَيْها، فقال من غيرِ عاطفٍ، دالًّا علىٰ انتفاءِ الجوفِ الذي هو أحدُ مدلولَيْ «صَمَدٍ»، مُكاشِفًا للعقلاءِ شارحًا لأنَّه لا يُساوِيه شيءٌ من نوعٍ يتولَّدُ عنه ولا جنسٌ يُولَدُ هو عنه، ولا غيرُ ذلك يُوازِيه في وجودٍ ولا غيرِه: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾[1].

جملةُ ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ خبرٌ ثانٍ عن اسمِ الجلالةِ من قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، أو حالٌ من المبتدأِ، أو بدلُ اشتمالٍ من جملةِ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾؛ لأنَّ مَن يُصمَدُ إليه لا يكونُ من حالِه أن يَلِدَ؛ لأنَّ طلبَ الولدِ لقصدِ الاستعانةِ به في إقامةِ شؤونِ الوالدِ وتداركِ عجزِه، فبعدَ أن أَبطَلَتِ الآيةُ الأولىٰ من هذه السورةِ تَعدُّدَ الإلهِ بالأصالةِ والاستقلالِ، أَبطَلَتْ هذه الآيةُ تَعدُّدَ الإلهِ بطريقِ تَولُّدِ إلهٍ عن إلهٍ؛ لأنَّ المُتولِّدَ مُساوٍ لِما تَولَّد عنه، وجملةُ ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾؛ أي: ولم يَلِدْه غيرُه، وهي بمنزلةِ الاحتراسِ سدًّا لتجويزِ أن يكونَ له والدٌ، فأردف نفيَ الولدِ بنفيِ الوالدِ، وإنَّما قُدِّمَ نفيُ الولدِ لأنَّه أهمُّ؛ إذ قد نسَب أهلُ الضَّلالةِ الولدَ إلىٰ اللهِ تعالىٰ، ولم يَنسُبوا إلىٰ اللهِ والدًا، وفيه الإيماءُ إلىٰ أنَّ مَن يكونُ مولودًا مِثلَ عيسىٰ لا يكونُ

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٣٧٩-٣٨٠).

إلهًا؛ لأنَّه لو كان الإلهُ مولودًا لكان وجودُه مسبوقًا بعدمٍ لا محالةَ، وذلك مُحالٌ؛ لأنَّه لو كان مسبوقًا بعدمٍ لكان مُفتقِرًا إلىٰ مَن يُخصِّصُه بالوجودِ بعدَ العدمِ، فحصَل من مجموعِ جملةِ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ إبطالُ أن يكونَ اللهُ والدًا لمولودٍ، أو مولودًا من والدٍ بالصَّراحةِ، وبطَلَتْ إلهيَّةُ كلِّ مولودٍ بطريقِ الكنايةِ، فبطَلتِ العقائدُ المبنيَّةُ علىٰ تولُّدِ الإلهِ مِثلَ عقيدةِ «زرادشت» الثَّانويَّةِ القائلةِ بوجودِ إلهينِ: إلهِ الخيرِ وهو الأصلُ، وإلهِ الشَّرِّ وهو مُتولِّدٌ عن إلهِ الخيرِ، وبطَلَتْ عقيدةُ النَّصارىٰ بإلهيَّةِ عيسىٰ عليه السلام بتوهُّمِهم أنَّه ابنُ اللهِ، وأنَّ ابنَ اللهِ لا يكونُ إلَّا إلهًا، بأنَّ الإلهَ يستحيلُ أن يكونَ له ولدٌ، فليس عيسىٰ بابنِ اللهِ، وبأنَّ الإلهَ يستحيلُ أن يكونَ مولودًا بعدَ عدمٍ، فالمولودُ المُتَّفَقُ علىٰ أنَّه مولودٌ يستحيلُ أن يكونَ إلهًا، فبطَل أن يكونَ عيسىٰ إلهًا، فلمَّا أبطلت الجملةُ الاسميَّةُ الأولىٰ إلهيَّةَ إلهٍ غيرِ اللهِ بالأصالةِ، وأبطلت الجملةُ الثَّانيةُ إلهيَّةَ غيرِ اللهِ بالاستحقاقِ؛ أبطلت هذه الجملةُ إلهيَّةَ غيرِ اللهِ بالفرعيَّةِ والتَّولُّدِ بطريقِ الكنايةِ، وإنَّما نُفي أن يكونَ اللهُ والدًا وأن يكونَ مولودًا في الزَّمنِ الماضي؛ لأنَّ عقيدةَ التَّولُّدِ ادَّعَتْ وقوعَ ذلك في زمنٍ مضىٰ، ولم يَدَّعِ أحدٌ أنَّ اللهَ سيَتَّخِذُ ولدًا في المستقبلِ(١).

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ في معنىٰ التَّذييلِ للجملِ التي قبلَها؛ لأنَّها أعمُّ من مضمونِها؛ لأنَّ تلك الصِّفاتِ المُتقدِّمةَ -صريحَها وكنايتَها وضِمْنِيَّها- لا يُشبِهُه فيها غيرُه، مع إفادةِ هذه انتفاءَ شبيهٍ له فيما عداها مِثلَ صفاتِ الأفعالِ(٢).

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٠).

أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّه هو المصمودُ إليه في قضاءِ الحوائجِ، ونفىٰ الوسائطَ من البينِ بقولِه: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ علىٰ ما بيَّنَّاه، فحينئذٍ ختَم السُّورةَ بأنَّ شيئًا من الموجوداتِ يمتنعُ أن يكونَ مساويًا له في شيءٍ من صفاتِ الجلالِ والعَظَمةِ(١).

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ هذه الجملةُ مُقرِّرةٌ لمضمونِ ما قبلَها؛ لأنَّه سبحانه إذا كان مُتَّصِفًا بالصِّفاتِ المُتقدِّمةِ، كان مُتَّصِفًا بكونِه لم يُكافِئْه أحدٌ، ولا يُماثِلُه ولا يُشارِكُه في شيءٍ(٢).

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٣٦٥).

(٢) فتح القدير (٥/ ٦٣٥).

سُورَةُ الفَلَق

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾

ولمَّا كانت الأشياءُ قسمينِ: عالمُ الخلقِ، وعالمُ الأمرِ، وكان عالمُ الأمرِ خيرًا كلُّه، فكان الشَّرُّ مُنحصِرًا في عالمِ الخلقِ خاصَّةً بالاستعاذةِ، فقال تعالىٰ مُعمِّمًا فيها: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾[1].

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ ﴾

ولمَّا كان عطفُ الخاصِّ على العامِّ يُعرِّفُ بأنَّ ذلك الخاصَّ أَولىٰ أفرادِ العامِّ بما ذُكر له من الحكمِ، وكان شرُّ الأشياءِ الظَّلامَ، فإنَّه أصلُ كلِّ فسادٍ، وكانت شرارتُه مع ذلك وشرارةُ السِّحرِ والحسدِ خَفِيَّةً؛ خصَّها بالذِّكرِ من بينِ ما عمَّه الخلقُ؛ لأنَّ الخفيَّ يأتي من حيثُ لا يحتسبُ الإنسانُ، فيكونُ أضرَّ؛ ولذا قيل: شرُّ العُداةِ المُداجِي، وكانت مادَّةُ «غسق» تدورُ علىٰ الظَّلامِ والانصبابِ، فالغَسَقُ -مُحرَّكةً-: ظُلْمةُ أوَّلِ اللَّيلِ، وغَسَقَتِ العينُ: أَظلَمَتْ أو دمَعتْ، واللَّبنُ: انصَبَّ من الضَّرعِ، واللَّيلُ: اشتَدَّتْ ظُلْمَتُه، والغَسَقانُ -مُحرَّكةً-: الانصبابُ، والغاسِقُ: القمرُ، وكأنَّه سُمِّيَ به لسرعةِ سيرِه وانصبابِه في البروجِ، ولأنَّه ليس له من نفسِه إلَّا الإظلامُ،

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٤٠٨).

والثُّرَيَّا؛ إذا سقَطتْ، واللهُ أعلمُ، قال في «القاموسِ»: لكثرةِ الطَّواعينِ والأسقامِ عندَ سقوطِها، والذَّكَرُ - إذا قامَ، كما قاله جماعةٌ، ورُوِي عن ابنِ عبَّاسٍ ﷺ، وهو سببٌ للجهلِ الذي هو ظلامٌ كلُّه، فقال تعالىٰ: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾[1].

عطَف أشياءَ خاصَّةً هي ممَّا شَمِلَه عمومُ ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾، وهي ثلاثةُ أنواعٍ من أنواعِ الشُّرورِ؛ أحدُهما: وقتٌ يغلبُ وقوعُ الشَّرِّ فيه؛ وهو اللَّيلِ[2].

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ ﴾ تخصيصٌ لبعضِ الشُّرورِ بالذِّكرِ مع اندراجِه فيما قبلَه لزيادةِ مساسِ الحاجةِ إلىٰ الاستعاذةِ منه؛ لكثرةِ وقوعِه، ولأنَّ تعيينَ المُستعاذِ منه أدلُّ علىٰ الاعتناءِ بالاستعاذةِ، وأَدعَىٰ إلىٰ الإعاذةِ[3].

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ ﴾

ولمَّا كان السِّحرُ أعظمَ ما يكونُ من ظلامِ الشَّرِّ المُستحكِمِ في العروقِ، الدَّاخلِ في وقوبِها؛ لِما فيه من تفريقِ المرءِ من زوجِه وأبيه وابنِه، ونحوِ ذلك، وما فيه من ضنىٰ الأجسامِ وقتلِ النُّفوسِ؛ عقَّب ذلك بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾[4].

هذا النَّوعُ الثَّاني من الأنواعِ الخاصَّةِ المعطوفةِ علىٰ العامِّ من قولِه: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾، وعُطف «شرُّ النَّفَّاثاتِ في العُقَدِ» علىٰ «شرِّ اللَّيلِ» لأنَّ اللَّيلَ وقتٌ يتحيَّنُ فيه السَّحَرةُ إجراءَ شعوذتِهم؛ لئلَّا يطَّلِعَ عليهم أحدٌ[5].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٤٠٩-٤١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/ ٢١٤).

(٤) نظم الدرر (٢٢/ ٤١١).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٨).

ثـم خـصَّ تعـالىٰ مخلوقـاتٍ أُخَـرَ بالاسـتعاذةِ مـن شـرِّها؛ لظهـورِ ضـررِها، وعُسْـرِ الاحتياطِ منهـا؛ فـلا بـدَّ مـن الفـزعِ إلىٰ اللهِ، والاستنجادِ بقدرتـه الشَّـاملةِ علىٰ دفـعِ شرِّها، فقال سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾[1].

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

لمَّا كان أعظمُ حاملٍ علىٰ السِّحرِ وغيرِه من أذىٰ النَّـاسِ الحسـدَ؛ وهـو تمنِّـي زوالِ نعمةِ المحسودِ، قال تعالىٰ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[2].

عُطـف «شرُّ الحاسدِ» علىٰ «شرِّ السَّـاحرِ» المعطـوفِ علـىٰ «شـرِّ اللَّيـلِ»؛ لمناسـبةٍ بينَـه وبـينَ المعطـوفِ عليـه مباشـرةً، وبينَـه وبـينَ المعطـوفِ عليـه بواسـطتِه، فإنَّ ممَّا يدعو الحاسدَ إلىٰ أذىٰ المحسودِ: أن يتطلَّبَ حصولَ أذاه لتوهُّمِ أنَّ السِّحرَ يُزيلُ النِّعمةَ التي حسَده عليها، ولأنَّ ثَوَرانَ وجدانِ الجسدِ يَكثُرُ في وقتِ اللَّيلِ؛ لأنَّ اللَّيلَ وقتُ الخلوةِ، وخطورِ الخواطرِ النَّفسيَّةِ، والتَّفكُّرِ في الأحوالِ الحافَّةِ بالحاسدِ والمحسودِ[3].

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٥٧٦).

(٢) نظم الدرر (٢٢/ ٤١٢-٤١٣).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٩).

سورة الناس

﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ ﴾

ولمَّا كان «الرَّبُّ» و«المَلِكُ» مُتقارِبَينِ في المفهومِ، وكان «الرَّبُّ» أقربَ في المفهومِ إلىٰ اللُّطفِ والتَّربيةِ، وكان «المَلِكُ» للقهرِ والاستيلاءِ وإظهارِ العدلِ ألزمَ، وكان «الرَّبُّ» قد لا يكونُ مَلِكًا، فلا يكونُ كاملَ التَّصرُّفِ؛ اقتضت البلاغةُ تقديمَ الأوَّلِ وإتباعَه الثَّانيَ، فقال تعالىٰ: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾[1].

﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ عطفُ بيانٍ جِيءَ به لبيانِ أنَّ تربيتَه تعالىٰ إيَّاهم ليست بطريقِ تربيةِ سائرِ المُلَّاكِ لمَّا تحتَ أيديهم من مماليكِهم؛ بل بطريقِ المُلْكِ الكاملِ، والتَّصرُّفِ الكُلِّيِّ، والسُّلطانِ القاهرِ[2].

﴿ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ ﴾

ولمَّا كان المَلِكُ قد لا يكونُ إلهًا، وكانت الإلهيَّةُ خاصَّةً لا تقبلُ شركًا أصلًا، بخلافِ غيرِها؛ أُنهِيَ الأمرُ إليها، وجُعلت غايةَ البيانِ، فقال: ﴿ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٤٢٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (٩/ ٢١٦).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٤٢٦-٤٢٧).

﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ بيانُ أنَّ مُلْكَه تعالىٰ ليس بمجرَّدِ الاستيلاءِ عليهم، والقيامِ بتدبيرِ أمورِهم وسياستِهم، والتَّولِّي لترتيبِ مبادئِ حفظِهم وحمايتِهم، كما هو قُصارىٰ أمرِ الملوكِ؛ بل هو بطريقِ المعبوديَّةِ المُؤسَّسةِ علىٰ الألوهيَّةِ المُقتضِيةِ للقدرةِ التَّامَّةِ علىٰ التَّصرُّفِ الكُلِّيِّ فيهم إحياءً وإماتةً، وإيجادًا وإعدامًا. وتخصيصُ الإضافةِ بالنَّاسِ مع انتظامِ جميعِ العالمين في سلكِ ربوبيَّتِه تعالىٰ وملكوتِيَّتِه وألوهيَّتِه؛ للإرشادِ إلىٰ منهجِ الاستعاذةِ المَرْضِيَّةِ عندَه تعالىٰ الحقيقةِ بالإعاذةِ، فإنَّ تَوسُّلَ العائذِ بربِّه، وانتسابَه إليه تعالىٰ بالمربوبيَّةِ والمملوكيَّةِ والعبوديَّةِ في ضمنِ جنسٍ هو فردٌ من أفرادِه، من دواعي مزيدِ الرَّحمةِ والرَّأفةِ، وأمرُه تعالىٰ بذلك من دلائلِ الوعدِ الكريمِ بالإعاذةِ لا محالةَ[(١)].

ثم لمَّا عُلم أنَّ العبادةَ لازمةٌ له واجبةٌ عليه، وأنَّه عبدٌ مخلوقٌ، وأنَّ خالقَه إلهٌ معبودٌ؛ بيَّن سبحانه أنَّه ﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾، وكرَّر لفظَ «النَّاسِ» في الثَّلاثةِ المواضعِ لأنَّ عطفَ البيانِ يحتاجُ إلىٰ مزيَّةِ الإظهارِ، ولأنَّ التَّكريرَ يقتضي مزيدًا من شرفِ النَّاسِ[(٢)].

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا أكملَ الاستعاذةَ من جميعِ وجوهِها التي مدارُها الإحسانُ، أو العَظَمةُ، أو القهرُ، أو الإذعانُ والتَّذلُّلُ؛ ذكرَ المُستعاذَ منه، فقال: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾[(٣)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٩/ ٢١٦).

(٢) فتح القدير (٥/ ٦٤٢).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٤٣٠).

﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾

ولمَّا ذكر صفةَ المُستعاذِ منه، ذكر إبرازَه لصفتِه بالفعلِ، فقال: ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[1].

وصف ﴿ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾ بـ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ لتقريبِ تصويرِ الوسوسةِ كي يتَّقِيَها المرءُ إذا اعترَتْه؛ لخفائِها، وذلك بأنْ بيَّن أنَّ مكانَ إلقاءِ الوسوسةِ هو صدورُ النَّاسِ وبواطنُهم، فعبَّر بها عن الإحساسِ النَّفسيِّ[2].

﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

ولمَّا كان الذي يُعلِّمُ الإنسانَ الشَّرَّ تارةً من الجنِّ وأخرىٰ من الإنسِ، قال مُبيِّنًا للوَسْواسِ تحذيرًا من شياطينِ الإنسِ كالتَّحذيرِ من شياطينِ الجنِّ، مُقدِّمًا الأهمَّ الأضرَّ، ويجوزُ أن يكونَ بيانًا لـ«النَّاسِ»، ولا تَعسُّفَ فيه؛ لِما عُلم من نقلِ «القاموسِ»: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[3].

ثم بيَّن سبحانه الذي يُوَسوِسُ بأنَّه ضربانِ: جِنِّيٌّ وإنسيٌّ، فقال: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، أمَّا شيطانُ الجنِّ فيُوَسوِسُ في صدورِ النَّاسِ، وأمَّا شيطانُ الإنسِ فوسوستُه في صدورِ النَّاسِ أنَّه يرىٰ نفسَه كالنَّاصحِ المُشفِقِ، فيُوقِعُ في الصَّدرِ من كلامِه الذي أخرجه مخرجَ النَّصيحةِ ما يُوقِعُ الشَّيطانُ فيه بوسوستِه[4].

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٤٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٣٤).

(٣) نظم الدرر (٢٢/ ٤٣٤).

(٤) فتح القدير (٥/ ٦٤٣).

هذا آخر ما تيسَّــرَ جمعُـه وإعـدادُه، واللهُ تعـالى أعلـمُ بالصَّوابِ، وإليه المرجعُ والمآبُ، وأسـأله سـبحانَه حُسـنَ الخاتمةِ والمَتَابِ، وأن يتقبَّـلَ ذلـك بمَنِّـهِ وكَرَمِـه، وأن يُوَفِّقَني للعمل بكتابِهِ العزيزِ، والحمدُ لله الذي بنِعْمَتِهِ تتمُّ الصَّالحاتُ، وقد كان آخر مـا كتبـتُ يـومَ الأربعـاء العـاشر مـن شـهر محرَّم مـن سـنة ثـلاث وأربعـين وأربعمائةٍ وألف من هجرة المصطفى ﷺ.

كتبه

فَايِزُبْن سَيَّافَ ٱلسَّرِيح

غفر الله له، وتجاوَزَ وصفَحَ عن والديه، ومشايخه، وأهله، وإخوانه، وجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات